شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الرابع

دار الرسول الأكرم ص
دار المحجة البيضاء

شرح
نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الرابع

دار الرسول الأكرم (ص) — دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

دار الرسول الأكرم
طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع القسيس خلف البلدية - ص ب ١١ / ٨٦٠١
هاتف ٨١٤٢٩٤ / ٠٣ - فاكس ٨٢٣٥١٩ / ٠١ - ٠١٩ ٠١٦٠١٠١٩

٢٢١ - ومن كلام له عليه السلام

قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ[١] * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

يَا لَهُ مَرَاماً[٢] مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً[٣] مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً[٤] مَا أَفْظَعَهُ[٥]! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا[٦] مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ[٧]، وَتَنَاوَشُوهُمْ[٨] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ[٩] آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى[١٠] يَتَكَاثَرُونَ[١١]! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ[١٢]، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ[١٣] ذِلَّةٍ، أَحْجَى[١٤] مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ[١٥]، وَضَرَبُوا[١٦] مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ[١٧] جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ[١٨] تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ[١٩]، وَالرُّبُوعِ[٢٠] الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً[٢١]، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ[٢٢] جُهَّالاً، تَطَؤُونَ[٢٣] فِي هَامِهِمْ[٢٤]، وَتَسْتَنْبِتُونَ[٢٥] فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ[٢٦] فِيمَا لَفَظُوا[٢٧]، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا[٢٨]؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ[٢٩] وَنَوَائِحُ[٣٠] عَلَيْكُمْ.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ[٣١] غَايَتِكُمْ[٣٢]، وَفُرَّاطُ[٣٣] مَنَاهِلِكُمْ[٣٤]، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ[٣٥] الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ[٣٦] الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً[٣٧]. سَلَكُوا[٣٨] فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ[٣٩] سَبِيلاً سُلِّطَتِ[٤٠] الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ[٤١] قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ[٤٢]، وَضِمَاراً[٤٣] لَا يُوجَدُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ[٤٤] وُرُودُ الْأَهْوَالِ[٤٥]، وَلَا يَحْزُنُهُمْ

تنكُّرُ ٱلأَحْوَالِ، وَلاَ يَحْفِلُونَ(٤٦) بِالرَّوَاجِفِ(٤٧)، وَلاَ يَأْذَنُونَ(٤٨) لِلْقَوَاصِفِ(٤٩). غُيَّباً لاَ يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لاَ يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً(٥٠) فَتَشَتَّتُوا(٥١)، وَآلافاً(٥٢) فَٱفْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلاَ بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ(٥٣) أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ(٥٤) دِيَارُهُمْ، وَلكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِٱلْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ(٥٥) صَرْعَى(٥٦) سُبَاتٍ(٥٧). جِيرَانٌ لاَ يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ(٥٨) لاَ يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ(٥٩) بَيْنَهُمْ عُرَى(٦٠) التَّعَارُفِ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ ٱلْهَجْرِ(٦١) وَهُمْ أَخِلاَّءُ(٦٢)، لاَ يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلاَ لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ(٦٣) ظَعَنُوا(٦٤) فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً(٦٥)، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ(٦٦) دَارِهِمْ أَفْظَعَ(٦٧) مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا ٱلْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ(٦٨)، فَاتَتْ مَبَالِغَ ٱلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا(٦٩) بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا.

وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ ٱلْعِبَرِ(٧٠)، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ ٱلْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ(٧١) ٱلْوُجُوهُ ٱلنَّوَاضِرُ(٧٢)، وَخَوَتِ(٧٣) ٱلأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ(٧٤) ٱلْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا(٧٥) ضِيقُ ٱلْمَضْجَعِ(٧٦)، وَتَوَارَثْنَا ٱلْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ(٧٧) عَلَيْنَا الرُّبُوعُ(٧٨) الصُّمُوتُ(٧٩)، فَٱنْمَحَتْ(٨٠) مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ(٨١) مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ ٱلْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ(٨٢) فَرَجاً، وَلاَ مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً! فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ(٨٣) بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبَ ٱلْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ٱرْتَسَخَتْ(٨٤) أَسْمَاعُهُمْ

بِالْهَوَامِّ(٨٥) فَاسْتَكَّتْ(٨٦)، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ(٨٧)، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاَقَتِهَا(٨٨)، وَهَمَدَتِ(٨٩) الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ(٩٠) فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى(٩١) سَمَّجَهَا(٩٢)، وَسَهَّلَ طُرُقَ الآفَةِ(٩٣) إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ(٩٤) فَلاَ أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلاَ قُلُوبٌ تَجْزَعُ(٩٥)، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ(٩٦) قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ(٩٧) عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ(٩٨) صِفَةُ حَالٍ لاَ تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ(٩٩) لاَ تَنْجَلِي(١٠٠). فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ(١٠١) لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ(١٠٢) تَرَفٍ، وَرَبِيبَ(١٠٣) شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ(١٠٤) بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ(١٠٥) إِلَى السَّلْوَةِ(١٠٦) إِنْ مُصِيبَةٌ(١٠٧) نَزَلَتْ بِهِ، ضَنًّا(١٠٨) بِغَضَارَةِ(١٠٩) عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً(١١٠) بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ(١١١) وَنَقَضَتِ(١١٢) الأَيَّامُ قُوَاهُ(١١٣)، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ(١١٤) مِنْ كَثَبٍ(١١٥)، فَخَالَطَهُ(١١٦) بَثٌّ(١١٧) لاَ يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ(١١٨) هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ(١١٩) عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ(١٢٠)، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلاَّ ثَوَّرَ(١٢١) حَرَارَةً، وَلاَ حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ(١٢٢) بُرُودَةً، وَلاَ اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ(١٢٣) لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلاَّ أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ(١٢٤) مُعَلِّلُهُ(١٢٥)، وَذَهَلَ(١٢٦) مُمَرِّضُهُ(١٢٧)، وَتَعَايَا(١٢٨) أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا(١٢٩) دُونَهُ شَجِيَّ(١٣٠) خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ(١٣١)، وَمُمَنٍّ(١٣٢) لَهُمْ إِيَابَ(١٣٣) عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى(١٣٤) الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ

عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ(١٣٥)، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ(١٣٦) فِطْنَتِهِ(١٣٧)، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ(١٣٨) مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ(١٣٩) عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ(١٤٠) عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ(١٤١) هِيَ أَفْظَعُ(١٤٢) مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ(١٤٣) بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ(١٤٤) عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

اللغة

١ ـ التكاثر : التفاخر والتباهي بكثرة المال أو العدد أو غيرها.
٢ ـ المرام : المطلوب والمراد.
٣ ـ الزور : بفتح الزاء وسكون الواو يطلق على الواحد والجمع معناه الزائرون.
٤ ـ الخطر : الإشراف على الهلاك.
٥ ـ الفظيع : الشديد الذي تجاوز الحد في شدته.
٦ ـ استخلوا : وجدوه خالياً أو ذكر من خلا أي مضى.
٧ ـ المدكر : مصدر ميمي من الإدكار بمعنى الاعتبار.
٨ ـ التناوش : التناول.
٩ ـ المصارع : مكان أو زمان الصرع وأصله الطرح على الأرض ويراد به الهلاك.
١٠ ـ الهلكى : جمع هالك الميت، الفاني.
١١ ـ يتكاثرون : يتغالبون بكثرة المال والرجال.
١٢ ـ خوت : خلت.
١٣ ـ الجناب : الفناء.
١٤ ـ أحجى : أولى وأجدر وأحجى من الحجى وهو العقل.
١٥ ـ العشوة : كالعشا سوء البصر.
١٦ ـ ضرب : في الماء سبح وفي الأرض سار وأيضاً خاضوا.
١٧ ـ الغمرة : شدة الشيء.
١٨ ـ العرصات : جمع عرصة كل بقعة من الأرض صالحة للعمارة ولكن لم تعمر.
١٩ ـ الخاوية : المنهدمة أو الخالية.
٢٠ ـ الربوع : الديار.
٢١ ـ الضلال : جمع ضال وهو الهالك.

٢٢ ـ أعقابهم	:	بعدهم.
٢٣ ـ تطؤون	:	تدوسون.
٢٤ ـ الهام	:	جمع الهامة الرأس.
٢٥ ـ تستنبتون	:	تزرعون النبات.
٢٦ ـ ترتعون	:	تتلذذون وتتنعمون.
٢٧ ـ لفظوا	:	رموا وطرحوا.
٢٨ ـ خرّبوا	:	دمّروا وخرب البيت دمّره وهدمه.
٢٩ ـ بواك	:	جمع باكية.
٣٠ ـ نوائح	:	جمع نائحة.
٣١ ـ السلف	:	المتقدمون.
٣٢ ـ الغاية	:	الحد الذي ينتهي إليه.
٣٣ ـ الفراط	:	جمع فارط السابق إلى الماء والورد.
٣٤ ـ المناهل	:	جمع منهل الموضع الذي فيه المشرب.
٣٥ ـ مقاوم	:	جمع مقام المجلس.
٣٦ ـ الحلبات	:	جمع حلبة بالفتح وهي الدفعة من الخيل في الرهان.
٣٧ ـ السوق	:	بضم ففتح جمع سوقة بالضم بمعنى الرعية.
٣٨ ـ سلكوا	:	دخلوا.
٣٩ ـ البرزخ	:	القبر، ما بعد الموت إلى البعث وأصله الحاجز بين الشيئين.
٤٠ ـ سلطت	:	من سلّطه عليه أطلق له عليه القدرة والقهر.
٤١ ـ الفجوات	:	جمع فجوة وهي الفرجة، المتسع من الأرض.
٤٢ ـ ينمون	:	من النماء وهو الزيادة.
٤٣ ـ الضمار	:	ككتاب المال لا يرجى رجوعه.
٤٤ ـ يفزعهم	:	يخيفهم.
٤٥ ـ الأهوال	:	الأمور المخوفة.
٤٦ ـ لا يحفلون	:	بكسر الفاء لا يبالون.
٤٧ ـ الرواجف	:	جمع راجفة الزلزلة توجب الاضطراب.
٤٨ ـ يأذنون	:	من أذن له وإليه إذا استمع معجباً.
٤٩ ـ القواصف	:	الشديد ومنه قوله: قصف الرعد إذا اشتد صوته.
٥٠ ـ جميعاً	:	مجتمعين.
٥١ ـ تشتتوا	:	تفرقوا.
٥٢ ـ آلافاً	:	جمع آلف أي مؤتلف مع غيره.
٥٣ ـ عميت أخبارهم	:	اختفت.

٥٤ ـ صمّت : من صم يصمّ بالفتح فيهما خرس عن الكلام.
٥٥ ـ ارتجال الصفة : وصف الحال بلا تأمل.
٥٦ ـ صرعى : جمع صريع أي هالك.
٥٧ ـ السبات : بالضم النوم.
٥٨ ـ أحباء : جمع حبيب.
٥٩ ـ بليت : رثت وفنيت.
٦٠ ـ العرى : جمع عروة مقبض الكوز.
٦١ ـ الهجر : القطيعة.
٦٢ ـ الأخلاء : جمع الخليل وهو الصديق المختص.
٦٣ ـ الجديدان : الليل والنهار.
٦٤ ـ ظعنوا : رحلوا.
٦٥ ـ السرمد : الدائم الذي لا أول له ولا آخر.
٦٦ ـ الأخطار : جمع خطر الإشراف على الهلاك.
٦٧ ـ الفظيع : الأمر الشديد.
٦٨ ـ المباءة : مكان النزول والاستقرار، المنزل.
٦٩ ـ لعيوا : بتشديد الياء من عيي إذا عجز.
٧٠ ـ العبر : جمع عبرة ما فيه عبرة وعظة.
٧١ ـ كلحت : من الكلوح تكشر مع عبوس.
٧٢ ـ النواضر : النواعم والنضرة الحسن والرونق.
٧٣ ـ خوت : سقطت.
٧٤ ـ الأهدام : جمع هدم بالكسر الثوب البالي أو المرقع.
٧٥ ـ تكاءدنا : شق عليه وصعب.
٧٦ ـ المضجع : القبر.
٧٧ ـ تهكمت : تهدَّمت.
٧٨ ـ الربوع : الديار وأماكن الإقامة.
٧٩ ـ الصموت : عدم النطق.
٨٠ ـ انمحت : فنيت.
٨١ ـ تنكرت : تغيرت.
٨٢ ـ الكرب : الشدة.
٨٣ ـ مثلتهم : شبهتهم وصورتهم.
٨٤ ـ ارتسخت : ثبتت أو من رسخ الغدير إذا نش ماؤه ونضب.
٨٥ ـ الهوام : الديدان والحشرات.

٨٦ ـ استكت	انسدّت وصمّت.
٨٧ ـ خسفت	غارت وذهبت.
٨٨ ـ ذلاقة اللسان	حدته في النطق.
٨٩ ـ همدت	سكنت وخمدت.
٩٠ ـ عاث	مشى فيها مفسداً.
٩١ ـ البلى	التحلل والفناء.
٩٢ ـ سمّج الصورة	قبحها.
٩٣ ـ الآفة	العلة، مرض يصيب الشيء فيفسده.
٩٤ ـ مستسلمات	منقادات طائعات.
٩٥ ـ الجزع	عدم الصبر، الحزن.
٩٦ ـ الأشجان	الأحزان.
٩٧ ـ الأقذاء	جمع قذى ما يقع في العين فيؤذيها.
٩٨ ـ الفظاعة	الأمور الشديدة.
٩٩ ـ الغمرة	الشدة.
١٠٠ ـ تنجلي	تنكشف.
١٠١ ـ الأنيق	الحسن المعجب.
١٠٢ ـ غذي ترف	غُذي بالنعم المطغية.
١٠٣ ـ الربيب	الذي تربى ونشأ.
١٠٤ ـ يتعلل	يظهر العلة أو يشغل نفسه بالأباطيل.
١٠٥ ـ يفزع	يلجىء، ويهرب.
١٠٦ ـ السلوة	ما ينسيك عما يحزنك.
١٠٧ ـ المصيبة	البلية وكل شيء مكروه.
١٠٨ ـ ضناً	بخلاً.
١٠٩ ـ غضارة العيش	نعيمه ولينه.
١١٠ ـ الشحاحة	البخل.
١١١ ـ الحسك	نبات شائك.
١١٢ ـ نقضت	هدمت.
١١٣ ـ قواه	مفرده القوة وهي ضد الضعف.
١١٤ ـ الحتوف	الموت.
١١٥ ـ الكثب	بالتحريك القرب.
١١٦ ـ خالطه	مازجه.
١١٧ ـ البث	الحزن.

١١٨ ـ النجي : المناجي من ناجاه إذا سارّه.
١١٩ ـ الفترات : جمع فترة المدة من الزمن.
١٢٠ ـ القار : بتشديد الراء البارد.
١٢١ ـ ثوّر : هيّج.
١٢٢ ـ هيّج : ثوّر.
١٢٣ ـ الممازج : من مزج إذا خلط.
١٢٤ ـ فتر : سكن بعد حدته ولان بعد شدته.
١٢٥ ـ المعلل للمريض: من يسليه عن مرضه بترجيه الشفاء وتعلل بالأمر تشاغل.
١٢٦ ـ ذهل عنه : بالفتح نسيه لشغل.
١٢٧ ـ الممرض : الذي يقوم على خدمة المريض.
١٢٨ ـ تعايا : من العيي وهو العجز عن الجواب.
١٢٩ ـ تنازعوا : تخاصموا.
١٣٠ ـ الشجى : ما يعترض في الحلق.
١٣١ ـ هو لما به : أي مملوك لعلته فهو هالك.
١٣٢ ـ الممنّي : مخيّل الأمنية.
١٣٣ ـ الإياب : الرجوع.
١٣٤ ـ أسى : جمع أسوة ما يتأسى به ويقتدى.
١٣٥ ـ الغصص : جمع غصة وهو ما يعترض مجرى الأنفاس.
١٣٦ ـ النوافذ : جمع نافذ وهو الثاقب.
١٣٧ ـ الفطنة : جودة الذهن.
١٣٨ ـ المهم : الأمر الشديد.
١٣٩ ـ عيي : عجز عن النطق.
١٤٠ ـ تصام عنه : أظهر الصمم أي عدم السمع.
١٤١ ـ الغمرات : الشدائد.
١٤٢ ـ أفظع : أشد.
١٤٣ ـ تستغرق : تستوعب ويؤتى على آخرها.
١٤٤ ـ تعتدل : تستقيم.

الشرح

(الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) هاتان آيتان في مطلع سورة التكاثر وقد اختلف المفسرون في تأويلهما على قولين:

الأول: شغلكم التكاثر بالأحياء حتى إذا استوعبتم ذلك صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات وعبّر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم.

وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم والمعنى: ألهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يغنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم.

الثاني: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت.

(يا له مراماً ما أبعده وزوراً ما أغفله وخطراً ما أفظعه) هذا الكلام من الإمام موعظة بالغة ونصيحة غالية من أجل إيقاظ الناس وردهم إلى الله وأن التفاخر يجب أن يكون بصالح الأعمال والخيرات لا بالأموات. . .

تعجب الإمام من ضعف العقول وسخفها التي قادت هؤلاء القوم إلى أن يتفاخروا ولو بالأموات وقال: إن ذلك المرام بعيد جداً فإن هؤلاء الموتى أحق بأن يكونوا عبرة وعظة من أن يكونوا فخراً وشرفاً.

كما قال: إن هؤلاء الزوار للقبور ما أشد غفلتهم حيث غفلوا عن الموعظة بالأموات وأنهم سوف يصيرون مثلهم إلى أن اتخذوهم وسيلة للمفاخرة والشرف.

ثم أشار إلى الموت وأنه أمر مهول مرعب قد تجاوز الحد في الخوف لأنه يحمل معه السكرات وشدائد الموت وعقبات الحساب والعقاب وبلوغ النار وما فيها من فزع وخوف وعذاب لا يطيقه ابن أنثى. . .

(لقد استخلوا منهم أي مدكر وتناوشوهم من مكان بعيد) أي وجدوا ديارهم خالية من أي مذكر لهم من الأسلاف والأجداد لأنهم أضحوا تحت التراب فقبورهم عبرة وفيها عظة. . .

ثم أشار إلى سفههم وأنهم قد تناولوا الأموات وافتخروا بهم مع بُعد ما بينهم وبينهم حيث إن أولئك في عالم الآخرة وهؤلاء في عالم الدنيا وأولئك أموات وهؤلاء أحياء والعاقل لا يفتخر بميت قد أكله التراب بل يفتخر بالمناقب والمكارم ومحاسن الصفات وجميل الأفعال. . .

(أفبمصارع آبائهم يفخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون يرتجعون منهم أجساداً خوت وحركات سكنت) بيّن عليه السلام أنه لا يحق لهم الافتخار بمصارع آبائهم أو التكاثر

بالأموات وعددهم تحقيراً لهم وبيّن علة ذلك بأنهم يطلبون أمراً غير عقلائي حيث إنهم يريدون أن يردوا إليهم أجسادهم التي كانت في دار الدنيا وقد أكلها البلى والدود والفنا وتلك الحركات والتحركات التي كانت لهم في دار الدنيا يريدون أن يردوها لهم وهذا أمر محال وطلب لا يقع في نظر العقلاء. . .

وبعبارة أخرى: إنهم يطلبون إعادة الأموات وبعثهم من جديد بهذا التفاخر والتكاثر وهذا أمر لا يطلبه عاقل ولا ينشده سديد الرأي رشيد. . .

(ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة) هذا تأكيد لما تقدم وأن هؤلاء الأموات من الأسلاف أحق وأجدر أن يكونوا محل عبرة وعظة من أن يكونوا محل فخر واعتزاز لأن مقامهم وما هم فيه عظة وعبرة من حيث خمود حركتهم وسكون مقامهم وأنهم قد أضحوا بعد القوة والنشاط إلى خُشب مسندة وكذلك لو اتخذ هؤلاء المفتخرون هؤلاء الأموات مصدر ذلة لهم يكون هو العقل والتدبر من أن يتخذوهم وسيلة عز ورفعة لأنهم لو نظروا إليهم في أجسادهم وقد فتتها التراب وأكلها الدود واستبد بها الزمن لخفضوا رؤوسهم ذلة لله وعظمة له ولم يتخذوهم أداة فخر ووسيلة عز وأنى لهم الفخر بهم وهم رمم بالية وأجساد فانية. . .

(لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة وضربوا منهم في غمرة جهالة) فهؤلاء الأحياء لأمراض نفسية أصابتهم قد انعكست الصورة عندهم والحلْق المريض يرى كل شيء مر وعلقم والعين المريضة قد تقلب الأمور فترى السواد بياضاً وكذلك النفوس المريضة التي آمنت بموازين الباطل تحوّل الأموات إلى أدوات ووسائل للتفاخر والزينة وخاضوا في التفاخر بالأموات عن جهل مستحكم شديد قد أخذ عليهم مسالك التفكير السليم. . .

(ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع الخالية لقالت: ذهبوا في الأرض ضلالاً وذهبتم في أعقابهم جهالاً تطؤون في هامهم وتستنبتون في أجسادهم وترتعون فيما لفظوا وتسكنون فيما خربوا وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم) لو وقف الإنسان العاقل في معاقل الأموات وتجول في ربوعهم وقبورهم وطلب منها أن تخبره عمن مضى وذهب. . . لو استفهم تلك المساكن عن أهلها ودورهم وأين صاروا وأين حلوا لأجابت حالاً وإن لم تنطق مقالاً وشاهد الحال أقوى من المقال. . . أجابتهم قد تبددت أجسادهم وتفرقت أشلاؤهم كفاراً ضالين ثم جئتم بعدهم وعلى أثرهم جهالاً لا تعرفون الحياة ولا تعرفون دوركم فيها وما خلقتم من أجله وقد ذكر من جهلهم وعدم التفاتهم أنهم يدوسون على رؤوس أولئك الأموات التي حولها الزمن إلى تراب تطؤوه

الأرجل ولم تعتبروا بذلك أو تتعظوا به.

وكذلك انظروا كيف تنبت أشجاركم ومزروعاتكم في أجسادهم التي تحللت وأصبحت مصدراً غذائياً لها.

وترتعون فيما لفظوا: أي تتنعمون وتأكلون ما تركوه وخلفوه وتسكنون فيما خربوا حيث كانت الديار بهم عامرة وأضحت بفقدهم خراباً فسكنتموها أو أنكم قد عمرتم بالدعاء والذكر وطاعة الله ما قد خربوه من ديارهم حيث لم يكونوا يقيمون لله فيها ذكر أو دعاء...

ثم ذكر الأيام وأنها تودع رائحاً وتنعى قادماً فهي باستمرار في حالة بكاء ونواح وخصوصاً عليكم لأنكم القادمون على ما قدم عليه أسلافكم فكأن الأيام أمهات لهم تبكي لفراقهم وتنقلهم عنها إلى الآخرة...

(أولئكم سلف غايتكم وفرّاط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً) أولئك هم أسلافكم من الأجداد والآباء والذين تقدموا عليكم إلى الموت الذي هو غاية كل حي ونهايته إنهم المتقدمون عليكم والسابقون لكم إلى ورود هذا المورد وإلى شرب ما سوف تشربون من الموت وسكراته لقد كانت لهم مقامات العز في الدنيا سواء كانوا ملوكاً أو من عامة الناس... وسواء كانت لهم صولات وجولات على اختلاف مراتبهم الاجتماعية... إنهم الأسلاف الذين تلاقون مصيرهم المحتوم وهو الموت وأنهم على اختلاف مراكزهم ومراتبهم نزلوا القبور وتركوا الدور والقصور.

(سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون وضماراً لا يوجدون) إنها صورة تتكرر أمامنا في كل يوم حيث نودّع أحباباً ونودعهم في قبورهم... إنهم قد نزلوا تلك الديار الخالية التي احتجزوا فيها إلى يوم القيامة لا يستطيعون إلى الدنيا رجوعاً ولا عن أماكنهم تحولاً...

سقطوا في قبورهم فأفنتهم الأرض حيث أكلت لحومهم وشربت دماءهم وتحولوا إلى جماد لا حركة فيهم ولا حياة... مات النماء فيهم الذي ينمو في الأحياء وأضحوا بعيدين لا عودة لهم إلى دار الدنيا وأنّى يكون لرهين القبور عودة إلى الدنيا أو رجوع إليها...

(لا يفزعهم ورود الأهوال ولا يحزنهم تنكر الأحوال ولا يحفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف) بعد أن تحول الإنسان في عالم البرزخ إلى كائن آخر يختلف عما هو

عليه في حال الحياة اختلفت الأمور بالنسبة إليه وتغيّرت العوارض التي تعرض عليه فكل الشدائد والمصاعب التي تحل فيه لا تخيفه ولا تفزعه وكل تغيرات الأحوال وتبدلها من حزن وظلم وغم لا يعرض عليه ولا يتأثر به وكل زلازل الدنيا ودواهيها لا يبالي بها أو ينتبه إليها ولا يعير سمعه إلى الأصوات الشديدة كالرعد وما أشبه ذلك.

(غيباً لا ينتظرون وشهوداً لا يحضرون وإنما كانوا جميعاً فتشتتوا وألافاً فافترقوا وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم عميت أخبارهم وصمت ديارهم ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات) من عادة الغائب أنه يُنتظر وهؤلاء غائبون لا ينتظرهم أحد... فلا عودة لهم ولا رجوع... إنهم حاضرون بأجسادهم موجودون بهياكلهم ولكنهم لا يحضرون كما يحضر البشر فإن للحضور آثار وحركة وهؤلاء شهود غيب... شهود بالأجساد غيّب بالأفكار والحركة والنشاط إنهم كانوا في دار الدنيا مجتمعين وأصحاباً متفقين قد أتى عليهم الموت فأضحوا متفرقين متوزعين لا لقاء بينهم ولا مجلس يجمعهم...

ثم علل اختفاء أخبارهم وعدم علمنا بما عندهم وما يجري عليهم وعدم إجابة ديارهم لنا عندما نناديها ونستصرخها ونستفهم أهلها علل ذلك بعدم طول العهد بيننا وبينهم فليس بيننا وبينهم مدة طويلة توجب انقطاع الأخبار واختفاء الأحوال وليس لبعد المكان بيننا وبينهم فهم معنا وبيننا ولا يفصلنا عنهم حاجز أو مانع وإنما السبب الذي يخفي أخبارهم ويمنع إجابتهم أنهم شربوا كأساً مرة... إنها كأس الموت... فالموت هو الذي غيّر أوضاعهم وقلب أمورهم فبدّل ذلك المنطيق المتكلم والخطيب المفوه إلى إنسان أخرس يعجز عن النطق والتعبير... وذلك السامع اللاقط لكل شاردة وواردة قد تحوّل إلى أصم قد فقد السمع وتعطل الالتقاط... وكذلك تحولت حركة ذلك الإنسان الذي شغل العالم وقَلَبَهُ بنشاطه وحركته قد تعطلت الحركة بفعل هذا الموت وتوقفت عن الانتقال ولو شبراً واحداً وإذا أراد أن يصفهم المرء ارتجالاً وعلى الطبيعة وفور رؤيته لهم وبدون جلسة تفكر ونظر فأحسن ما يصفهم فيه وهم في قبورهم أو بين أيدي أحبتهم إنهم وقعوا على الأرض في حالة نوم... كأنهم نائمون فالأجساد موجودة والمعاني مفقودة... ولا فرق بين النائم والميت في الصورة.

(جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الأخاء فكلهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم إخلاء لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً) وصف دقيق لحال الأموات.

ـ إنهم جيران متقاربون في الديار فهذا القبر لا يفصله عن ذاك إلا بضع خطوات ومع ذلك لا يستأنس بعضهم ببعض على عادة أهل الدنيا.

ـ إنهم أحباء: أهل وأقارب آباء وأبناء كانت تجمعهم المحبة في دار الدنيا ولا ينقطع أحد عن أحد إنهم الآن قد انقطعوا عن زيارة بعضهم فلا أحد يزور أحداً أو يتعارف معه فكل أواصر التعارف التي كانت بينهم قد فنيت واندرست... القرابة... الرحم... الزوجية... العشيرة... العائلة... الآصرة الفكرية كل هذه قد فنيت ولم يعد لها بحساب الأموات وزناً لأن الأحوال تغيّرت والأمور تبدلت... وأسباب الإخاء والمودة التي كانت توجب التواصل قد تقطعت....

ثم وصفهم: فكلهم وحيد وهم جميع: فكلهم مجتمعون في المقابر ضمن مساحة صغيرة تضم الجميع ولكن في الحقيقة كل واحد وحده لا يلتقى مع غيره ولا يجتمع معه... فالصورة موحّدة والحقيقة متفرقة...

ـ وبجانب الهجر وهـم أخلاء: كل واحد في حالة هجر للآخرين مع أنه حبيب لهم وصديق ورفيق أو كانوا كذلك في دار الدنيا فتحولوا إلى الهجر في القبور...

ـ لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء أيّ الجديدين ظنوا فيه كان عليهم سرمداً.

إذا مات الإنسان نهاراً لا يعرف لذلك النهار ليلاً وذلك لتبدل أحوال الميت وتغيّرها فالحال التي مات عليها يظن أنه سيبقى عليها ولا يطلع عليه غيرها أو يتبدل بها سواها.

ثم قال عليه السلام: إن أي الجديدين ـ الليل والنهار سميا بذلك لتجددهما في كل يوم ـ رحل فيه الإنسان عن دار الدنيا كان عليه دائماً من حيث إن صورة ذلك الوقت الذي مات فيه لو بقيت عندهم لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقت آخر يطرأ عليها أو أنهم عندما يموتون يشعرون بوقت موتهم ولا يشعرون بما يتعقبه من الأوقات فكأن حال موتهم هي التي سيبقون عليها دائماً...

(شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا فكلتا الغايتين مدت لهم إلى مباءة فاتت مبالغ الخوف والرجاء فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا) كانت توصف لهم تلك الدار الآخرة بشدائدها ومصائبها ومصاعبها وعذابها فكانوا يخافون منها قبل الوصول إليها وقد وصلوا إليها الآن فشاهدوا بأم العين

من الفجائع والأهوال أعظم مما كان يوصف لهم ويخافون منه فليس من راءٍ كمن سمع. . .

وإنهم كانوا يقدّرون عذابها وثوابها وعقابها وأجرها بمستوى عقولهم وما وصلهم من أنبائها ولكن بعد الوقوف عليها أدركوا من آثارها وحقائقها أعظم مما كانوا يقدّرون ويحسبون.

فكلتا الغايتين غاية السعيد وغاية الشقي التي وفرها الموت لهما قد أنزلتهما إلى دار وأرجعتهما إلى قرار فوق مبلغ ما يبلغه الخائف الراجي، فقد رأوا من أهوالها ومصائبها وعذابها وشدائدها وكذلك من نعيمها وخيرها فوق ما يبلغه الخائف الراجي.

ثم أشار إلى أنهم لو كانوا ينطقون كما ننطق لعجزوا أو حُصروا عن الكلام ووصف ما رأوا وما شاهدوا وأبصروا إنها دار يعجز اللسان عن وصفها ووصف ما فيها من ثواب وعقاب وأجر وعذاب. . .

(ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنه آذان العقول وتكلموا من غير جهات النطق فقالوا) لئن لم يستطع الأحياء قراءة ما في تلك القبور وما يجري على أربابها وأهلها ولم يعرفوا أخبارهم وما جرى لهم وعليهم وكيف تمر عليهم الأيام والساعات لئن عجز الأحياء عن اكتشاف حال الأموات عن طريق الحس والخبر فإن العقول المفكرة والبصائر الواعية هي التي تخبر عن أحوالهم وتحكي مصيرهم وتقرأ ما يجري لهم في تلك المواطن الرهيبة المخوفة تقرأها من لسان الحال دون المقال. . . من واقع ما يعيشون وما هم فيه ومنطق الحال أبلغ من منطق المقال ثم بيّن كلامهم وأفصح عن لسانهم بهذه الصفات الحاكية لواقعهم الشارحة لتعاستهم.

(ـ كلحت الوجوه النواضر) لقد تغيرت الوجوه الحسنة المملوءة التي تظهر عليها النضارة تغيّرت إلى صورة مفزعة مخوفة إنها كشرت وعبست لعبث التراب بها. . .

(ـ وخوت الأجسام النواعم) سقطت تلك الأجسام الناعمة البضة التي كانت يؤذيها الحرير بنعومته، أصبحت جافة من دمها ورطوبتها فهي رهينة القبور.

(ـ ولبسنا أهدام البلى) إما أن يريد أنهم لبسوا الأكفان التي ستبلى وتفنى أو أنه استعار لفظ الأهدام للتغير والتبدل والفناء العارض لجسم الميت. . .

(وتكاءدنا ضيق المضجع) أي شق علينا وعذبنا ضيق القبور وما نظر عاقل إلى القبر وضيقه إلا وشق عليه ذلك وآلمه المقام فيه واستعاذ بالله من تلك الساعات التي يكون

رهيناً فيها ضمن ذلك المضجع الرهيب. . .

(وتوارثنا الوحشة) أي ورثنا الوحشة من الآباء والأجداد الذين عاشوها في ذلك المضجع الرهيب.

(وتهكّمت علينا الربوع الصموت) أي تهدمت علينا القبور الصامتة.

(فانمحت محاسن أجسادنا) فما كان فينا من محاسن وجمال قد أتى عليه القبر فذهب به وقضى عليه بل تبدلت تلك المحاسن إلى قبائح تتقزز النفس منها وتأنف أن تنظر إليها. . .

(وتنكرت معارف صورنا) أي تغيّرت صورنا التي كنا نعرف بها في الدنيا.

(وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا) فإقامتنا في القبور قد امتدت طويلاً **﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾** إنه وقت طويل يعلمه علاّم الغيوب.

(ولم نجد من كرب فرجاً ولا من ضيق متسعاً) فالهموم والغموم والعذاب والألم مستحكمة لم نجد من يرفعها عنا أو يخفف منها كما أن هذا الضيق في القبور لم نجد ما يوسّعه أو يخرجنا منه.

(فلو مثلتهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكت واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت)أي لو حلّلت بعقلك وتصورت مواقعهم التي هم فيها وعشتها لحظات في تلك القبور أو كشفت غطاءهم الذي يسترهم فبدوا لك على حقيقتهم فبهذين الأمرين أو بأحدهما لو أبصرت ذلك فإنك سوف تجد الحقيقة الصعبة والرؤية العظيمة الرهيبة لقد جفت أسماعهم من رطوبتها وطراوتها فانسدت بالحشرات التي تتقاتل عليها وامتلأت منها تنهش نصيبها وتأخذ حصتها وكذلك تبدل كحل العيون بالأثمد إلى أن صار كحلاً بالتراب وقد غارت العيون في الرؤوس. . . صورة مفزعة. . .

(وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها) تمزقت وتفرقت الألسنة في الأفواه ولم تعد تجيد النطق والتعبير مع أنها كانت تمتلك المنطق وحدّة البيان وجودة التعبير وأما القلوب فقد سكنت واستقرت وتوقفت عن الحركة والحياة بعد أن كانت تنبض بالحياة وتضج بالحركة. . .

(وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى سمجها وسهل طرق الآفة إليها) لقد انتشر الفساد وتجدد الفناء في كل عضو منها حتى قبّحها وغير محاسنها وسهّل وسائل الفناء

عليها لأن التراب إذا استولى على جسد الآدامي أسرع إليه الفناء والبلى. . .

(مستسلمات فلا أيدٍ تدفع ولا قلوب تجزع) هذه الجوارح مستسلمة للنوازل خاضعة لما يحلّ بها لا تدفع بأيديها عن نفسها كما كانت في دار الدنيا تذب وتدفع وليس لها قلوب تحزن بها ويصيبها الجزع، لقد خرجت عما كانت عليه في الدنيا.

(لرأيت أشجان قلوب وأقذاء عيون لهم في كل فظاعة صفة حالٍ لا تنتقل وغمرة لا تنجلي) لرأيت جواب لو تصورت أي لو تصورت حالهم بخيالك لرأيت وشاهدت أحزان القلوب وأذى العيون وذلك نتيجة أن كل أمر شديد فيهم وكل حال هم فيها من السوء لا ينتقلون منها إلى الأحسن بل إلى الأسوإ لأنه كلما طال المدى عليهم كلما ازدادت حالتهم سوءاً فإن الجسد الميت في هذا اليوم أفضل منه في الغد وهو في الغد أحسن منه بعد غد وهكذا لأن التحلل والتفتت يزداد يوماً بعد يوم. . .

(فكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا غذي ترف وربيب شرف) أشار عليه السلام إلى الكثرة الكثيرة من الأجساد الفتية والألوان المعجبة الرائعة التي أكلتها الأرض وأفنتها وأزالتها من الوجود.

هذه الأجساد التي كان أهلها يحافظون عليها ويرعونها. . . كانوا يغذونها بأطيب وأحسن ما يكون به التنعم والبطر ويربونها على العز والدلال.

وبعبارة أخرى كان هناك بشر اهتموا بأجسادهم وحافظوا عليها فأكلتها الأرض وأفنتها. . .

(يتعلل بالسرور في ساعة حزنه ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به ضناً بغضارة عيشه وشحاحة بلهوه ولعبه) هذا بيان لمحافظة هذا الفتى على صحته وتنعمه وأنه لا يريد أن ينغّص ساعات سروره أو يكدرها ضمن أي جو مسيىء فلذا هو يحاول أن يحوّل أجواء الحزن إلى الفرح فإذا مات والده علل نفسه ومناها بالثروة والمال فأبدل حزنه على أبيه بسروره بميراثه وكذلك يتسلى بأمور تنسيه مصائبه التي تنزل به وتحل بساحته كل ذلك بخلاً بأن يصيب ما هو فيه من النعيم والخير العميم أذى أو يصيب لهوه ولعبه آفة. . . إنه يريد أن يحفظ سروره وفرحه وعيشه السعيد ولا يعكرهم همّ أو حزن أو مصيبة أو أذى فلذا يحوّل الأتراح إلى أفراح ويخلق أجواء السرور والفرح. . .

(فبينا هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه في ظل عيش غفول إذ وطىء الدهر به حسكه ونقضت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب) هذه هي حالة أبناء الدنيا الذين

أقبلوا عليها وأرادوا اقتناص لذاتها والوصول إليها فبينما هم في ظلها يتنعمون وهي تغدق بخيرها عليهم حتى كأن الدهر قد نسيهم فلم تلحقهم مصيبة ولم يصابوا بأذى فبينما هم كذلك إذ حلت مصائب الدهر ونوائبه فيهم فداستهم ودرستهم ورفعت ما كان بهم من قوة وحلت محله الضعف ونظر إليهم الموت عن قرب ببعث رسله من الأمراض تصيبهم والآفات تحل بهم.

(فخالطه بث لا يعرفه ونجي هم ما كان يجده وتولدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته) هذه هي حالة المترف المتنعم الذي كان يطلب دوام السرور والراحة فعندما يهجم عليه الموت وتبتدأ رسله توفد عليه عندها تأخذ نفسه تحدثه بأحزان لا يعرفها من ذي قبل وتناجيه بهموم وطوارق ما كان عهده بها ولم يكن يحس بها من قبل... إنهم أبناء الدنيا أشد ما يكونون هلعاً وخوفاً عندما يحسون أن الموت يطرق أبوابهم أو يرسل إليهم برسله... إنهم يقلقون ويفزعون ويخافون وتحدثهم أنفسهم بما لا عهد لهم به... باقتراب الأجل... والخروج من الدنيا... وترك ما جنوا واكتسبوا... تحدثهم بمفارقة المال والأهل والملذات فيعز عليهم ذلك فيداخلهم أسى شديد ويعيشون كآبة نفسية تنغّص عليهم ما تبقى لهم من أيام وساعات...

لقد تولدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته: لقد أخذت العلل والأمراض تنمو في بدنه وتتوالد من فترة إلى أخرى فكان آنس أيامه ما كان في صحته معافى...

(ففزع إلى ما كان عوّده الأطباء من تسكين الحار بالقار وتحريك البارد بالحار فلم يطفىء ببارد إلا ثوّر حرارة ولا حرك بحار إلا هيج برودة ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمد منها كل ذات داء) هذه صورة للمترفين الذين يعز عليهم أن يمرضوا فيحافظوا على صحتهم أكثر مما تستحق ولذا بمجرد أن يصاب أحدهم بوعكة صحية أو يلمّ به مرض بسيط أو يستشعر بآفة تراه يلجأ مسرعاً للأطباء ويتفحّص الأدوية ويهّب لاستعمالها...

إن هذا المسكين الذي اعتاد على وصفات الأطباء يذهب مستعجلاً نحوها مستعملاً لها بمجرد أن يستشعر ضعفاً تراه يهدأ الحرارة بالبرودة ويرفع البرودة بما يرفعها ولكنّ هذا الاستعمال يأتي بضده فلم يطفىء ببارد حاراً إلا ثور حرارة وكأنه يصب زيتاً على النار ويزيدها اشتعالاً يأتي ليرفع الحرارة بالبرودة فإذا به ترتفع حرارته ويريد أن يرفع البرودة بما يبعث الحرارة فإذا به يزداد برودة... إنه لم يطلب استعمال ما يعتدل به المزاج ويرّد الأمور إلى طبيعتها إلا نتج عن ذلك مضاعفات فتزداد أمراضه ويضاف إلى ما هو فيه من البلاء بلاء جديد.

(حتى فتر معلله وذهل ممرضه وتعايا أهله بصفة دائه وخرسوا عن جواب السائلين عنه وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه فقائل يقول: هو لما به وممن لهم إياب عافيته ومصبّر لهم على فقده يذكرهم أسى الماضين من قبله) وهذه صورة متكاملة عن أهل المريض ومن حوله إذا اشتد مرضه وتطاولت علته فإن من كان يعلّله بالشفاء تفتّر همته وتقل ومن كان يقوم على تمريضه فيصف له الدواء ويعتني به وبغذائه يغفل عنه لأن طول المرض يخفّف من اهتمام الممرض والأهل حيث يدبّ إلى نفوسهم اليأس بالشفاء وإنما يكون الجد والنشاط وحسن التعلل والاهتمام بالمريض إنما يكون في أوائل حدوث المرض لأمل الشفاء منه وأما إذا امتد واستمر فيخفّ الاهتمام والاعتناء.

ثم بيّن حال أهله وكيف يكتمون عنه الداء ولا يفصحون له عنه حتى لا ييأس وتشتد وطأة المرض عليه.

وإذا سألهم أحد عنه أجاب بعضهم: هو لما به أي هو على ما هو عليه وقيل: إنه قد أشفى على الموت.

وبعض آخر يطمعهم في عودة عافيته وصحته وأن حالته التي هو فيها تمر على كثيرين من المرضى فيشفون منها.

وثالث: كأنه قد فرغ من وفاته فهو يبتدأ من الآن يذكر لمن سأل عنه فائدة الصبر وأجر الصابرين وأن في أجداده وأهله ومن تقدمه في هذا الطريق أسوة وأن كل حي سيرد هذا المورد وهكذا يسليهم ويعزيهم.

(فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبة إذ عرض له عارض من غصصه فتحيرت نوافذ فطنته ويبست رطوبة لسانه فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده ودعاء مؤلم بقلبه سمعه فتصام عنه من كبير كان يعظّمه أو صغير كان يرحمه) بينما الأهل يتشاورون ويردون على أسئلة السائلين عنه وبينما هو في اللحظات الأخيرة من الدنيا يسرع نحو الموت حيث يفارق هذه الحياة ويدع الأحبة من الأهل والأولاد والأخلاء بينما هو كذلك إذ اعترض له في حلقه عارض أخذ بخناقه ألا وهو الموت وعندما حل ببدن هذا المخلوق تغيّرت أحواله وتبدلت أطواره وانقلبت أوضاعه فجودة ذكائه وقوة فكره قد تبددت فتحيرت ولم يعد يقدر على جمعها بل تبلدت وكسلت ويبست رطوبة لسانه فجف لعابه فلم يعد يتحرك ذلك اللسان الذلق الطلق.

وأما الإجابة فكم من أسئلة بقيت ضائعة بدون جواب لأنه عجز عن الكلام وعيي عن رد الجواب.

وكم من دعاء له سمعه بأذنه قد أوجع قلبه من كبير يعظمه ويحترمه أو صغير يعطف عليه ويحبه فجعل نفسه وكأنه لم يسمعه لأنه لا يحسن رد الإجابة ولا يقدر على التلبية.

فالأهل يدعونه أن يرد عليهم وأطفاله يصرخون من حوله وهذا يؤلمه ويوجع قلبه ومع ذلك يصم أذنيه ويجعل نفسه كأنه لم يسمع...

(وإن للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على عقول أهل الدنيا) وهذه جملة واحدة تلخّص ما كان وما يكون إنه الإقرار بالعجز عن استيعاب صفات الموت وما يمر على المحتضر من شدائد ومصاعب وعقبات... إنها أكبر من الوصف وأعظم من أن تستوعبها كلمات إنها لشدائد لا تستقيم لها العقول ولا تقبلها عقول أهل الدنيا إذا شرحت لهم على حقيقتها ووصفت كما هي واعتبر الحال بمرض مزمن شديد في دار الدنيا هل يقدر المصاب به على شرحه وبيانه كما هو وهل يفي لسانه بما يعيش فيه من ألم فكيف بعالم الاحتضار والنزع وشدائد الموت ومصاعبه وما يمر على هذا الميت من سكراته وأوجاعه... الكلمات تعجز عن تقديم صورة صحيحة تؤدي فيها الحقيقة وتنقلها كما هي... أعاننا الله على الموت وسكراته وما يعقبه بالنبي وآله...

ملاحظة:.

لم أقدر أن أطوي كلمة صحيحة قالها ابن أبي الحديد في نهجه عن هذه الخطبة... لقد حاولت فشدني حب الإمام إلى ذكرها قهراً عني لأنها كلمة حق صادقة وأنا أقتطف من كلامه هذه الفقرات القليلة قال:

هذا موضع المثل «ملعاً يا ظليم وإلا فالتخوية» من أراد أن يعظ ويخوف ويقرع صفاة القلب ويعرف الناس قدر الدنيا وتصرفها بأهلها فليأت بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح وإلا فليمسك، فإن السكوت أستر والعي خير من منطق يفضح صاحبه ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره» وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم أن يسجدوا كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرفاع: قلم أصاب من الدواة مدادها.

وأكمل ابن أبي الحديد حتى قال: «وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودي وخيّلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله...».

٢٢٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ[١] لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ[٢] وَالآصَالِ[٣] رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ[٤] تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ[٥] جِلاَءً[٦] لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ[٧]، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ[٨]، وَتَنْقَادُ[٩] بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ[١٠]، وَمَا بَرِحَ للهِ ـ عَزَّتْ[١١] الآؤُهُ[١٢] ـ فِي الْبُرْهَةِ[١٣] بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ[١٤]، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ[١٥] فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا[١٦] بِنُورِ يَقَظَةٍ[١٧] فِي الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَّةِ[١٨] فِي الْفَلَوَاتِ[١٩]. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ[٢٠] حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ[٢١]، وَكَانُوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ. وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ[٢٢] بِالزَّوَاجِرِ[٢٣] عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ[٢٤] وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ[٢٥]، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا[٢٦] غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ[٢٧] فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا[٢٨]، فَكَشَفُوا غِطَاءَ[٢٩] ذلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ. فَلَوْ

مَثَّلْتَهُمْ(٣٠) لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ(٣١) ٱلْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ ٱلْمَشْهُودَةِ(٣٢)، وَقَدْ نَشَرُوا(٣٣) دَوَاوِينَ(٣٤) أَعْمَالِهِمْ، وَفرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا(٣٥)، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفرَّطُوا(٣٦) فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ(٣٧) ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ ٱلاسْتِقْلَالِ(٣٨) بِهَا، فَنَشَجُوا(٣٩) نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا(٤٠) نَحِيباً(٤١)، يَعِجُّونَ(٤٢) إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَٱعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ(٤٣) هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجًى(٤٤)، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ(٤٥)، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ(٤٦)، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ ٱلْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ(٤٧) ٱطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ(٤٨)، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ(٤٩) بِدُعَائِهِ رَوْحَ(٥٠) التَّجَاوُزِ(٥١). رَهَائِنُ(٥٢) فَاقَةٍ(٥٣) إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى(٥٤) ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ ٱلأَسَى(٥٥) قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ ٱلْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ ٱلْمَنَادِحُ(٥٦)، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ ٱلأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ(٥٧) غَيْرُكَ.

اللغة

١ ـ التسبيح : التنزيه لله.
٢ ـ الغدو : البكور.
٣ ـ الآصال : جمع الأصيل الوقت بين العصر والمغرب أو العشي.
٤ ـ تلهيهم : تشغلهم.
٥ ـ الذكر : الصلاة لله والدعاء وكل ما تستحضر به صفات الله.
٦ ـ جلاء : بكسر الجيم من جلوت السيف إذا صقلته وأزلت منه صداه.
٧ ـ الوقرة : ثقل في الأذن.
٨ ـ العشوة : ضعف البصر.
٩ ـ تنقاد : تخضع وتذل وتذعن.

١٠ ـ المعاندة	:	الميل عن القصد.
١١ ـ عزت	:	كرمت وعظمت.
١٢ ـ آلاؤه	:	نعمه.
١٣ ـ البرهة	:	المدة الطويلة من الزمن.
١٤ ـ الفترات	:	جمع الفترة وهي ما بين ظهور النبي والنبي الذي بعده.
١٥ ـ ناجاهم	:	خاطبهم بالإلهام.
١٦ ـ استصبحوا	:	أضاؤوا مصابيحهم.
١٧ ـ اليقظة	:	نقيض النوم.
١٨ ـ الأدلة	:	المرشدون، والدليل البرهان، والهادي إلى الشيء.
١٩ ـ الفلوات	:	الصحاري والقفار.
٢٠ ـ القصد	:	الاعتدال.
٢١ ـ الهلكة	:	الهلاك، الموت ولا يكون إلا في ميتة السوء.
٢٢ ـ يهتفون	:	يصيحون.
٢٣ ـ الزواجر	:	الموانع وزجره عن كذا منعه ونهاه عنه.
٢٤ ـ القسط	:	العدل.
٢٥ ـ يأتمرون به	:	يمتثلون الأمر.
٢٦ ـ اطلعوا	:	أشرفوا ونظروا، علموا.
٢٧ ـ البرزخ	:	فترة اللبث في القبر إلى يوم البعث والحساب.
٢٨ ـ العدات	:	جمع عدة بكسر العين ففتح الدال مخفف الوعود.
٢٩ ـ الغطاء	:	الستر.
٣٠ ـ مثّلتهم	:	صوّرتهم
٣١ ـ مقاومهم	:	جمع مقام وهو المجلس أي مقاماتهم في خطاب الوعظ.
٢٣ ـ المشهودة	:	من شهد إذا حضر لحضور الملائكة.
٣٣ ـ نشروا	:	الثوب بسطوه، خلاف الطوي ونشر الخبر أذاعه.
٣٤ ـ الدواوين	:	جمع ديوان وهو مجتمع الصحف.
٣٥ ـ قصّروا عنها	:	توانوا وقصّر عن الأمر أمسك عنه مع القدرة عليه.
٣٦ ـ فرطّوا	:	قصّروا.
٣٧ ـ الأوزار	:	الذنوب.
٣٨ ـ استقل بها	:	انفرد في حمله.
٣٩ ـ نشجوا	:	بكوا والنشيج صوت البكاء.
٤٠ ـ تجاوبوا	:	أجاب بعضهم بعضاً.
٤١ ـ النحيب	:	أشد البكاء.

٤٢ ـ يعجّون	:	من عج إذا رفع صوته وصاح.
٤٣ ـ الأعلام	:	جمع علم ما ينصب ليهتدى به.
٤٤ ـ الدجى	:	الظلمة أو هي مع غيم.
٤٥ ـ حفّت الملائكة به	:	أحدقت به واستدارت حوله.
٤٦ ـ السكينة	:	الطمأنينة المهابة، الوقار.
٤٧ ـ المقعد	:	موضع القعود.
٤٨ ـ السعي	:	العمل.
٤٩ ـ يتنسمون	:	يشمون أو يتنفسون والنسيم الريح الضعيفة الرقيقة.
٥٠ ـ الروح	:	بالفتح الرحمة والراحة.
٥١ ـ التجاوز	:	العفو.
٥٢ ـ رهائن	:	جمع رهينة يقال: أنا رهينة بكذا أي مأخوذ به ضامن له والخلق رهائن الموت أي مقيدون به.
٥٣ ـ فاقة	:	حاجة.
٥٤ ـ أسارى	:	جمع الأسير من قبض عليه وأخذ من قبل عدوه.
٥٥ ـ الأسى	:	الحزن.
٥٦ ـ المنادح	:	جمع مندح وهو المتسع والمندوحة السعة والفسحة.
٥٧ ـ الحسيب	:	المحاسب.

الشرح

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) هذه الآية الكريمة من سورة النور وقد قرأها الإمام فكان منه هذا الكلام العظيم والضمير في (فيها) يرجع إلى البيوت التي تقدم ذكرها في الآية عليها حيث إن الكلام هكذا. **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها[1] اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾**.

وقالوا: إن البيوت هي المساجد ورفعها معناه تعظيمها واحترامها ورفع القدر من الأرجاس والتطهير من المعاصي والأدناس وقيل: المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى.

(١) سورة النور، آية/ ٣٧، ٣٨.

وقيل: هي بيوت الأنبياء.

ويذكر فيها اسمه أي يتلى فيها كتابه وقيل: تذكر فيها أسماؤه الحسنى.

يسبح له بالغدو والآصال أي يصلي له فيها بالبكور والعشايا.

وقيل: المراد بالتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يجوز عليه ووصفه بالصفات التي يستحقها لذاته وأفعاله...

وعلى كل حال بعد تلاوة الإمام لهذه الآية الكريمة قال عليه السلام:

(إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة وتنقاد به بعد المعاندة) قيل: إن الذكر يراد به القرآن وقيل: كل ما تحمد به الله وتسبحه به وتكبره وتهلله.

وهذا الذكر يعني أن يعيش الإنسان مع الله ليس على مستوى اللسان فحسب بل هذا اللسان يتحول إلى ترجمة تنقل ما يدور في القلب وما يتحرك في داخله فإذا استطاع الإنسان أن يداوم على ذكر الله ويبقى معه فإنه بدون شك سيأتي الوقت الذي يمحى من صفحته كل ما عدا الله ويرتفع من أمامه كل ما سواه...

هذا القلب عندما يعيش مع الله يتطهر ولا يبقى فيه حقد أو حسد أو نميمة أو أي أثر سيء لا يرضى الله عنه فلذا تُجلى القلوب بذكر الله وترتفع عنها كل الأغشية وتتنظّف من كل غبار قد علق بها...

وبهذا الذكر أيضاً يرتفع الصمم وعدم التذكر فيبادر الإنسان إلى أخذ العبرة والاستفادة مما مر به غيره وابتلى به.

وكذلك بهذا الذكر يبصر الإنسان الحقائق ويدرك الأمور على حقيقتها فترتفع عن عينيه الغشاوة.

وكذلك يأتي الإنسان إلى بيت الطاعة بعد الهجر والمعاندة والمباينة... يعود إلى رحاب الله بعد هذه الغربة عنه والبعد عن ساحته وكرمه...

(وما برح الله ـ عزت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة يذكّرون بأيام الله ويخوفون مقامه) وهذا من لطف الله بعباده أنه لا يقطع عنهم مدد الهداية والعناية فإنه ما زال سبحانه عظمت نعمته في كل مدة بعد مدة وفي كل فترة تنقطع بها

الرسل لا يزال سبحانه له من عباده عرفاء وأصحاب اختصاص تكون بهم الحجة على العباد فإنه سبحانه زودهم بقوة عقلية يفكرون فيها ويدركون حقائق التوحيد والتوجه إلى الله ولذا يروي لنا التاريخ عن رجال كانوا في الجاهلية قد نبذوا عادات قومهم وهجروا عبادة الأوثان والأصنام وتوجهوا إلى الله بالعبادة كورقة بن نوفل وغيره ممن كشف الله عن بصيرتهم فإنهم اهتدوا بعقولهم إلى عبادة الله والتوجه إليه لقد أشعلوا مصابيح النور في قلوبهم فانفتحت آفاق العلم والمعرفة والتفكر في خلق السماوات والأرض حتى استيقظت أبصارهم فرؤوا الأمور على حقيقتها وكشفوا جوهرها وأدركوا عمقها وكذلك انفتحت الأسماع على كل ما ينفع ويفيد فأدركوا جلال قدرة الله وعظمته هذا كله بالنسبة إلى أنفسهم. . .

أما بالنسبة إلى غيرهم فإنهم يذكّرون الناس وقائع الله بالأمم الماضية وما جرى له معهم من حيث أخذه لهم بالعذاب والعقاب وكذلك يخوفونهم جلال الله وعظمته وأنه المالك للوجود ولكل موجود. . .

(بمنزلة الأدلة في الفلوات من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه وبشروه بالنجاة ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق وحذروه من الهلكة وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات) شبّه عباد الله بمنزلة الأدلة في الصحراء فإن الصحاري والقفار إذا كان يوجد فيها أعلام منصوبة تدل على الطريق يستطيع السائر أن يهتدي إلى مراده ويصل إلى غايته ويأمن مضلة الطريق وتحيّر السبيل وهؤلاء العباد إنهم أعلام الهداية بهم يهتدي الضالون والسائرون على غير الطريق إنهم إشعاعات النور في أيام الظلمة بهم ترتفع الغشاوة عن العيون وتنفتح القلوب لله وتتوجه إليه. . . إنهم يوصلون العباد إلى شاطىء الأمن والسلامة. . .

وهم إذا وجدوا المستقيم من الناس الذي لم ينحرف مع الجاهلية ولوثاتها مدحوه على فعله وزيّنوا له ما هو فيه ورغّبوه في البقاء عليه وأعانوه على أن يبقى كذلك وبشروه بالنجاة من العذاب والألم ومن النار وغضب الملك الجبار.

وأما من عدل عن الطريق المستقيم وعن السيرة الطيبة وعن العقيدة السليمة وراح مع عقائد الجاهلية والانحراف تارة إلى هذه العقيدة الفاسدة وأخرى إلى غيرها مما يشاركها في الفساد فهؤلاء يذمون إليه هذه الطريقة ويقبحونها له ويبيّنون له فسادها وحذروه من الوقوع في الهلاك والعذاب.

وهكذا هؤلاء العباد في طريقتهم وعملهم وسلوكهم بأنوارهم تنكشف الحجب

وتتبدد الظلمات. . . إنهم يزيفون الباطل ويبعّدون الناس عنه ويرشدونهم إلى مواضع الخطر كما أنهم يأخذون بأيديهم إلى الحق والعمل به. . .

(وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ويأمرون بالقسط ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه) للذكر أهل انفردوا به دون الناس. . . إنهم ذاقوا طعمه ووقفوا على شهده. . . عرفوا سره ولذة ما فيه فأخذوه بكل قوة واستبدلوه بملذات الدنيا وما فيها. . . هجروا طيبات هذه الدنيا الفانية وأخذوا الذكر كنزاً لهم فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه فلشدة حبهم للذكر ومداومتهم عليه وتعلقهم به ملك عليهم كل جوارحهم فأنساهم الدنيا وما فيها. . . إنهم معه باستمرار يشغلهم في أوقاتهم كلها في الليل والنهار. . . إنهم دعاة خير ورسل بركة تراهم مع الغافلين في معركة حيث تراهم يقومون بنهيهم عما حرم الله ودائماً يزجرونهم عنها ويكفون أيديهم عن تناولها. . . إنهم أدوات تنبيه لهؤلاء الغافلين عن الحرام أن يرفعوا أيديهم عن الحرام ويتجنبوا كل معصية وانحراف. . .

إنهم يأمرون الناس بالقسط وهو العدل في القول والعمل. . . يأمرونهم أن يكونوا كذلك وهم بأنفسهم يأتمرون به ليكون ذلك أقوى حجة وأعظم برهاناً.

وكذلك من خصائصهم أنهم ينهون الناس عن المنكر وهو كل معصية لله ويتناهون بأنفسهم عنه أي يكفون عنه ليكون أبلغ في التأثير. . .

(فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه وحققت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون) هذا بيان لما عليه هؤلاء العباد الصالحون. . . إنهم قطعوا رحلة الحياة الدنيا ودخلوا الآخرة. . . إنهم وهم في دار الدنيا كأنهم قطعوها واجتازوها ودخلوا عالم الآخرة وشاهدوا ذلك العالم الأخروي بما يحمل من صور وما معه من مشاهد وما فيه من أحداث وقضايا. . . صورة لأهل الإيمان الذين تجردوا عن الدنيا وهم فيها وعرفوا أحوال الآخرة وهم في الدنيا. . . صورة الإنسان الذي عاش مع الله وأدرك حقيقة ما جاء به الأنبياء ووقف على سر الآخرة وما فيها. . . إن الحقيقة التي يعكسها هؤلاء الأولياء تتجسد في نقل الصورة الصحيحة عن الآخرة إلى الدنيا. . .

إنهم بما أعطاهم الله من بصيرة نافذة فكأنما كشف لهم الغطاء عن الآخرة فرأوها

رؤية العين ووقفوا على ما فيها وعرفوا حقيقتها وهذا على حد قول الإمام في وصف المتقين «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون» لقد انكشفت لهم الآخرة حقيقة وكما هي ووقفوا على ما غاب عنهم من أحوال أهل البرزخ وما يجري لهم في قبورهم طول هذه المدة التي أقاموا فيها وكأن الآخرة بالنسبة إليهم قد حققت كل ما وعدهم الله فيها من العذاب والعقاب والثواب والنعيم ولذا تراهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لم يسمع الناس فينقلون إلى الناس ذلك مما هو ليس تحت طاقة الناس وقدرتهم. . . إنهم اطلعوا على أحوال الآخرة بعين لم ينظر فيها أحد من الناس ولذا راحوا ينقلون إليهم ما ليس عندهم وما لا يرون أو يسمعون. . .

(فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها أو نهوا عنها ففرطوا فيها وحمّلوا ثقل أوزارهم ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف) هذا حال العباد الأتقياء والصورة التي إذا أراد الإنسان أن يستحضرها لهم ويشرحها لمن غاب عنهم. . . إنهم قوم في المقامات المحمودة التي يشكرهم الله عليها من حيث توجههم نحوه وتذللهم له وخضوعهم لمقامه الكريم. . . ولو رأيتهم في مجالسهم المعهودة التي يحضرها الملائكة ويشهد لهم بها أهل القرب منه.

إنهم قوم فتحوا دفاترهم ونشروا حساباتهم وأخذوا ينظرون في أعمالهم لقد تفرغوا لمحاسبة أنفسهم وأخذوا يعدّدون ما ارتكبوا من صغائر الذنوب وكبيرها فهذا أمر إلهي صغير قد نهى عنه ارتكبته وهذا أمر إلهي كبير عصيته فيه فتركته وهذا محرم كبير تجاوزت حدود الله فيه فتناولته وهكذا يتتبعون موارد سقطاتهم وعصيانهم وتمردهم ويحصون على أنفسهم كل شاردة أو واردة حتى أتوا على أغلبها فوجدوا الآثام والمعاصي كثيرة لا تستطيع ظهورهم حملها أو القيام بها فأخذوا في البكاء والنحيب وأخذهم الخوف من الله والفزع منه إلى أن صرخوا إلى ربهم وأصبحوا في مقام الندم والحسرة يرفعون أيديهم ويتضرعون إلى الله بالدعاء أن يمنّ عليهم بقبول توبتهم وإعادتهم إلى رحابه. . .

إنها صورة لقوم عرفوا الله وعرفوا ما أعده للمطيعين من الثواب، كما أنهم عرفوا ما أعده للعصاة والمجرمين فطلبوا ثوابه وهربوا من عقابه وخافوه فى الصغير والكبير لعلمهم به وبقدرته وصفاته وبمقدار هذه المعرفة كان الخوف منه وكان حسابهم لأنفسهم. . .

(لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجى قد حفت بهم الملائكة وتنزلت عليهم السكينة

وفتحت لهم أبواب السماء وأعدت لهم مقاعد الكرامات في مقعد اطلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم وحمد مقامهم) لرأيت جواب لو تمثلتهم المتقدمة أي لو تمثلتهم في مقاماتهم المحمودة ومجالسهم المشهودة. . . لرأيت قوماً هذه صفاتهم وأحوالهم.

ـ أعلام هدى: فهم منارات يهدون الناس إلى الله وإلى عبادته والتوجه إليه.

ـ ومصابيح دجى: يكشفون ظلمات الجهل والضلال عن أعين الناس بسلوكهم وطريقهم المستقيم. . .

ـ قد حفت بهم الملائكة: طافت بهم الملائكة تستغفر لهم إنها اهتمت بهم تكريماً لهم واحتراماً لمقامهم.

ـ وتنزّلت عليهم السكينة: أنزل الله عليهم الطمأنينة فارتاحت نفوسهم واستقرت لحكم الله وإرادته. . .

ـ وفتحت لهم أبواب السماء: فتح الله لهم أبواب الرحمة واللطف الإلهي فهم بعين الله وعنايته. . .

ـ وأعدت لهم مقاعد الكرامات في مقعد اطلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم وحمد مقامهم: إنه مقعد صدق عند مليك مقتدر فهم في جواره ورحمته أعطاهم ما يستحقون. . . إنه مقعد مبارك اطلع الله عليهم فيه بالرحمة والمحبة والعطاء الذي لا يحد ولا يعدّ فرضي سعيهم أي قبل عملهم الذي كان لوجهه ومن أجله وحمد مقامهم أثابهم على ما كان منهم من طاعات وعبادات وتقرّب إليه. . .

(يتنسّمون بدعائه روح التجاوز رهائن فاقة إلى فضله وأسارى ذلة لعظمته) إنهم يستشعرون وهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أنه استجاب لهم وتجاوز عن سيئاتهم وهذه مرتبة عالية لا تحصل إلا لمن له ثقة بالله كبيرة وله عمل صالح يكون ذريعة إلى القبول إنهم رهائن فاقة فإنهم لحاجتهم إلى فضله كالرهينة في يد المسترهن وكذلك هم كالأسرى بيد آسرهم ناصيتهم بيده وزمامهم عنده لا يملكون معه حولاً ولا قوة.

(جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم) فالحزن الطويل أدمى قلوبهم وجرحها وطول البكاء قرّح جفونهم وجرح عيونهم وهذه الحالة هي حالة العارفين بالله الذين يعرفون عذابه وعقابه ويعرفون أجره وثوابه إنها صورة أولياء الله الذين خافوا الله بمقدار معرفتهم به فكانت هذه صورتهم وتلك هي حالتهم. . .

(لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب

عليه الراغبون) إنهم يتوجهون إلى الله فكل أمر يرغبونه ويريدونه يتوجهون إليه به فمنهم من يتوجه إليه بالصلاة ومنهم من يتوجه إليه بالصيام ومنهم من يتوجه إليه بالذكر وهكذا دواليك يقرعون أبواب الله كل حسب رغبته وتوجهه... إنهم يسألون مالك خزائن السماوات والأرض الذي ليس في ساحته شح أو بخل ولا يضيق عليه ما أرادوا ولا ييأس من فضله الراغبون.

(**فحاسب نفسك لنفسك فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك**) هذه هي الفقرة الأخيرة من كلامه... إنها وصية بمحاسبة الإنسان لنفسه من أجل نفسه... أن يقف أمامها ويحاسبها فيمنعها عن السقوط في النار ويردها إلى طاعة الله ويمنعها عما لا يجوز... يفتح دفاتر نفسه ويحاسبها على كل صغيرة وكبيرة من عمره... عن وقته... عن ماله... عن علاقاته واتصالاته عن حركته وسكونه وهكذا وهذه المحاسبة تعود عليه بالنفع... وليترك حساب غيره فإن لغيره من الأنفس من يحاسبها ويحصي عليها أنفاسها...

٢٢٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ[١] بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾.

أَدْحَضُ[٢] مَسْؤُولٍ حُجَّةً. وَأَقْطَعُ[٣] مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً[٤]، لَقَدْ أَبْرَحَ[٥] جَهَالَةً بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ[٦] عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنَّسَكَ[٧] بِهَلَكَةِ[٨] نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ[٩] بُلُولٌ[١٠]، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِن نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ[١١] مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ[١٢]، أَوْ تَرَى ٱلْمُبْتَلَى[١٣] بِأَلَمٍ يُمِضُّ[١٤] جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ[١٥] عَلَى مُصَابِكَ[١٦]، وَعَزَّاكَ[١٧] عَنِ ٱلْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ ٱلأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لاَ يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ[١٨]، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ[١٩] بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ[٢٠] سَطَوَاتِهِ[٢١]! فَتَدَاوَ[٢٢] مِنْ دَاءِ ٱلْفَتْرَةِ[٢٣] فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ[٢٤]، وَمِنْ كَرَى[٢٥] ٱلْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ، وَكُنْ للهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً. وَتَمَثَّلْ[٢٦] فِي حَالِ تَوَلِّيكَ[٢٧] عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ[٢٨] بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ[٢٩] عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ. فَتَعَالَى[٣٠] مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ[٣١] سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ[٣٢]. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ[٣٣] عَنكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ[٣٤] فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ[٣٥]

يَصْرِفُهَا(٣٦) عَنْكَ. فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَٱيْمُ ٱللهِ لَوْ أَنَّ هذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي ٱلْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ(٣٧) فِي ٱلْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ(٣٨) ٱلأَخْلاَقِ، وَمَسَاوِىءِ ٱلأَعْمَالِ. وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلكِنْ بِهَا ٱغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ ٱلْعِظَاتِ(٣٩)، وَآذَنَتْكَ(٤٠) عَلَى سَوَاءٍ(٤١). وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ ٱلْبَلاَءِ بِجِسْمِكَ، وِالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكِ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ. وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا(٤٢) فِي الدِّيَارِ ٱلْخَاوِيَةِ(٤٣)، وَالرُّبُوعِ(٤٤) ٱلْخَالِيَةِ(٤٥)، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلاَغِ(٤٦) مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ(٤٧) بِكَ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا(٤٨) مَحَلاًّ! وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ ٱلْهَارِبُونَ مِنْهَا ٱلْيَوْمَ.

إِذَا رَجَفَتِ(٤٩) الرَّاجِفَةُ(٥٠)، وَحَقَّتْ(٥١) بِجَلاَئِلِهَا(٥٢) ٱلْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ(٥٣) أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ(٥٤) فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ(٥٥) يَوْمَئِذٍ خَرْقُ(٥٦) بَصَرٍ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلاَ هَمْسُ(٥٧) قَدَمٍ فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلاَئِقِ(٥٨) عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!.

فَتَحَرَّ(٥٩) مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لاَ تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ(٦٠) لِسَفَرِكَ؛ وَشِمْ(٦١) بَرْقَ النَّجَاةِ؛ وَٱرْحَلْ(٦٢) مَطَايَا التَّشْمِيرِ(٦٣).

اللغة

١ ـ غره : خدعه وأطمعه بالباطل وقولهم «ما غرك بفلان» أي كيف اجترأت عليه.
٢ ـ دحضت الحجة : بطلت، وحجة داحضة أي باطلة.
٣ ـ أقطع : مبالغة في قطع وهي الابانة والفصل وقطع صلاته أبطلها.
٤ ـ المعذرة : العذر.
٥ ـ أبرح : أشد وأقوى ويقال أبرح فلان شجاعة أي أتى بالشديد العظيم.
٦ ـ جرؤ : جراءة وجرأة عليه أقدم عليه وهجم فهو جريء.
٧ ـ انسّك : بالتشديد ويروى «آنسك» بالمد وتأنست بفلان استأنست.
٨ ـ الهلكة : الهلاك.
٩ ـ الداء : المرض.
١٠ ـ البلول : مصدر بلّ الرجل من مرضه إذ برىء وحسنت حاله بعد الهزال.
١١ ـ الضاحي : البارز للشمس.
١٢ ـ تظله : تجعل له ظلاً أي فيئاً يقيه حرارة الضحى.
١٣ ـ المبتلى : المصاب بالبلاء وهي المصيبة.
١٤ ـ الممضّ : المؤلم.
١٥ ـ جلّدك : قواك وصبّرك.
١٦ ـ المصاب : البلية وكل أمر مكروه.
١٧ ـ عزى تعزية الرجل : سلاه تعزى عنه وتصبّر وتسلى.
١٨ ـ بيات نقمة : طروقها ليلاً والنقمة العقوبة.
١٩ ـ تورط : وقع في الورطة وهي الهلاك وأصل الورطة أرض مطمئنة لا طريق فيها.
٢٠ ـ المدارج : الطرق والمسالك.
٢١ ـ السطوات : جمع سطوة وهي البطش والقهر.
٢٢ ـ تداوى : عالج نفسه بالدواء.
٢٣ ـ الفترة : الإنكسار والضعف.
٢٤ ـ العزيمة : الجد والاجتهاد في الأمر.
٢٥ ـ الكرى : النعاس.
٢٦ ـ تمثّل : تصور.
٢٧ ـ توليك : إعراضك.

٢٨ ـ يتغمدك : يسترك ويغمرك.
٢٩ ـ تولى عنه : تركه وذهب عنه.
٣٠ ـ تعالى : ارتفع.
٣١ ـ الكنف : الظل والجانب والناحية.
٣٢ ـ تقلبّ في النعمة : تمتع بها كيف تحولت.
٣٣ ـ هتك الستر : نزعه وقلعه.
٣٤ ـ مطرف عين : زمان طرفها وهو اطباق أحد الجفنين على الآخر.
٣٥ ـ البلية : المصيبة.
٣٦ ـ صرفها عنك : حولها عنك.
٣٧ ـ متوازيين : متساويين.
٣٨ ـ الذميم : ضد الممدوح.
٣٩ ـ العظات : جمع العظة ما يلين القلب ويرقّه ويصله بالله.
٤٠ ـ آذنتك : اعلمتك.
٤١ ـ سواء : عدل وانصاف.
٤٢ ـ تعرفتها : طلبت معرفتها.
٤٣ ـ الخاوية : المتهدمة الخربة.
٤٤ ـ الربوع : الديار أو ما حولها...
٤٥ ـ الخالية : الفارغة.
٤٦ ـ بلاغ : كفاية.
٤٧ ـ الشحيح : البخيل.
٤٨ ـ يوّطنها : يتخذها وطناً.
٤٩ ـ رجفت : اهتزت وتحركت بشدة، الزلزال.
٥٠ ـ الراجفة : النفخة الأولى في الصور يوم القيامة.
٥١ ـ حقت : وجبت وثبتت.
٥٢ ـ جلائلها : أمورها العظام.
٥٣ ـ المنسك : موضع العبادة أو هي العبادة نفسها.
٥٤ ـ يجرى : من جرى إذا حدث أو من جار أي عدل عن الطريق.
٥٥ ـ يجزي : من جاز يجوز يسوع ويرخصّ.
٥٦ ـ قسطه : عدله.
٥٧ ـ الخرق : الثقبة والفرجة.
٥٨ ـ الهمس : الصوت الخفي.
٥٩ ـ علائق : جمع العلاقة ما يكون به الاتصال.

٦٠ ـ **التحري** : طلب الأحرى والأليق.
٦١ ـ **تيّسر** : تأهب.
٦٢ ـ **شام البرق** : نظر إليه.
٦٣ ـ **أرحل المطية** : ضع عليها رحلها.
٦٤ ـ **الرحل** : الجل وما أشبه ذلك كالسرج وغيره.
٦٥ ـ **التشمير** : الجد في الأمر.

الشرح

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) آية كريمة من آيات الله انطلق بها لسان الإمام فتحركت نفسه الطاهرة بهذا الشعور العظيم.. انطلقت هذه الكلمات تحمل معها العظة العظيمة والنصيحة الكبيرة.. الحس الرقيق يتفجر من أعماقه صيحة في وجوه المتمردين على الله ليردهم إلى رحابه ويشدهم نحو جنابه... صيحة مخلصة يريد الإمام من خلالها أن يعيد هذا الإنسان الصلة بالله والعودة إليه...

﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ يقرأها الإنسان على نفسه ويرددها مرة أثر أخرى فيشعر أنها تخترق حواجز المعصية والتمرد وتحركّ القلب المغلق لينفتح على الله من جديد.. هكذا أحس وأنا أقرأ كلماتها وأردد عبارتها... استفهام فيه توبيخ عن سبب غرور هذا الإنسان بربه وما هي اسباب طمعه به حتى تمرد عليه وعصاه هل أن كرمه وعطاياه وجوده كانت سبب غروره بربه وطمعه به؟ أو هذه أمور لا تدعو إلى الغرور وإنما تدعو إلى شكر المنعم والوقوف أمامه بكل خشوع وخضوع ورد هذا الإحسان بالقيام بكل أمر يطلبه ويريده...

ما غرّ هذا الإنسان بربه الكريم؟! لا شيء إلا نفس هذا الإنسان الأمارة بالسوء، لا شيء إلا وسوسة الشيطان وتزينه للمعصية والتمرد...

(أدحض مسؤول حجة وأقطع مغترٍ معذرة لقد أبرح جهالة بنفسه) إذا سألك ربك عن سبب غرورك به وما هي حجتك التي تقدمها كمبرر لهذا الغرور فإنك لا تملك حجة تواجه بها هذا السؤال بل كل حجة تقدمها فهي أشد الحجج بطلاناً للإجابة عن هذا السؤال وبعبارة أخرى: سقطت كل الحجج والمبررات التي تدعيها إنها كانت السبب للغرور...

وكذلك إذا أراد أن يعتذر فإن اعتذاراته باطلة ساقطة هل يعتذر بعدم قيام الحجة

عليه وقد بلغته وقرعت آذاته؟ وهل يعتذر بالنفس الأمارة بالسوء وقد أعطاه الله ذمامها وملكه أمرها وجعلها تحت اختياره؟ فلا عذر له أبداً يعتذر به.

لقد أبرح جهالة بنفسه أي هذا الإنسان بالغ في تجهيل نفسه حيث انساق وراء اللذات العابرة الفانية.

(يأيها الإنسان ما جرأك على ذنبك وما غرك بربك وما انّسك بهلكة نفسك) استفهم عليه السلام توبيخاً عن سبب جرأة هذا الإنسان وإقدامه على المعصية وكأنه تقرير ونفي للسبب وإنما السبب الشقاوة وخبث الباطن... الجرأة على الذنب والإقدام عليه وارتكابه تعود إلى ضعف الإيمان بالله وغلبة الشيطان وكثرة وسوسته وأغراؤه لهذا الإنسان...

وما غرك بربك؟ لا سبب للغرور إلا النفس الأمارة بالسوء التي تشد الإنسان نحو المعصية والتمرد...

وما انّسك بهلكة نفسك؟ أي شيء جعلك تستأنس بما تهلك به نفسك... تأنس باللذة من الحرام وفيها هلاك نفسك وتأنس بالكلمة المحرمة وفيها هلاك نفسك .. وتأنس بالموقف المحرم وفيه هلاك نفسك... وهل هناك أكثر تعاسة وأشد بؤساً من إنسان يستأنس بما فيه هلاكه وعذابه... العقلاء يستأنسون بما فيه سعادتهم وراحتهم فكيف تبدلت موازين هذا الإنسان المغتر بربه؟ إنه أمر عجيب...

(أما من دائك بلول) استفهام فيه طلب ومضمونه أليس لك من هذا المرض شفاء.. مرض المعاصي والتمرد على الله والخروج عن إرادته أليس لهذه الأمراض شفاء؟! أخرج منها أيها الإنسان.. اهجرها.. أتركها.. داوي هذا المرض بدواء الطاعة والالتزام بأمر الله والعمل بما أراد وأحب... هذا المرض المزمن ليس له طبيب غيرك ودواؤه عندك... فأنت طبيب نفسك ووصفته إلهية في كتاب الله وسنة نبيه وهدى المعصومين.

(أم ليس من نومتك يقظة؟) أنت نائم عن الآخرة وما فيها لا تسعى لها ولا تعمل من أجلها ومتى تستيقظ من هذا النوم وتقوم للعمل.. تؤدي الواجبات تترك المحرمات... تأمر بمعروف.. تنهى عن منكر... تعين الضعفاء ترفع الظلم تربي نفسك تربيه صالحة تؤهلها إلى الجنة وتدفعها عن النار...

(أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له) هذا حث لهذا الإنسان أن يلتفت لنفسه

فيرحمها مما بها من داء ومرض ويحاول شفاؤها ويطلب لها ما يصلحها وذلك بأن يجعلها كغيرها بالنسبة له فهو إذا رأى نفساً تتعرض لحرارة الشمس بادر إلى أن يظللها منها ويدفع عنها حرارتها وإذا رأى مصاباً بألم شديد في جسده كمرض مزمن مؤلم تراه يبكي له ويتأثر لما حل به رحمة له، فهذا الإنسان الذي يملك هذا الشعور بالنسبة إلى الغير يجب أن يملك مثله نحو نفسه.. فيجب أن يبحث عما يقيه حر جهنم وعذابها ويرفع عنه مرض المعصية والتمرد...

(فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك وعزاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك) استفهام توبيخ ولوم وإن هذا الإنسان يجب أن يقلع عما هو عليه من هذه المعايب...

أي سبب يدعوك إلى الصبر على دائك وهو مرض المعاصي والانحراف وارتكاب الحرام وأي سبب جعلك تقوى على أن تقف أمام مصائبك ومشاكلك وتتحملها بهذا المستوى ولا تحاول أن تضع هذا الحمل وتنزله عن كاهلك...

وما هو الذي سلاك والهاك عن البكاء على نفسك والنوح عليها وهي أعز الأنفس وأغلاها عليك... انقطعت الأسباب عن كل هذه الأمور التي هي فيك وإذا انقطعت الأسباب والدواعي وجب على العاقل أن يقلع عنها ويتحول إلى نفسه فيصلحها وينعشها ويحركها لتلتحق بركب عباد الله وأوليائه...

(وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته) كيف لا تخاف أن يأخذك الله بالعقوبات وأنت نائم فلو فكرت في ذلك لارتدعت ولو فكرت في أخذه الأمم وكيف أخذها لاعتبرت واتعظت قال تعالى: **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾** وقد بيّن عليه السلام السبب الموجب لتخوفه من أخذ الله له بالعقوبة أنه إنما كان لدخوله في الخطايا والآثام وبلوغه فيها الأنواع المختلفة التي تحركت بين الصغيرة والكبيرة على تعددها واختلافها وتنوع افرادها...

(فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة) إذا أصابك فتور وكسل في خدمة الله وطاعته فتداوى منه بداوء العزيمة وقوة الهمة واستشعر عظمته وقوته وعذابه وسطوته وعندها سينتعش القلب ويبادر إلى الطاعة بكل قوة وستتجدد العزيمة بأقوى وأشد وتسرع إلى امتثال الأمر الإلهي وكذلك أمسح عن ناظرك نعاساً يمنعك عن النظر إلى حقائق الأمور ودقائقها واستعمل عقلك في تشريح القضايا وتحليلها...

(**وكن لله مطيعاً وبذكره آنساً**) إنها أعظم وصية ومن أجلها جاء الأنبياء وهي الوصية بطاعة الله ومن كان لله مطيعاً فقد أدرك أعظم حظه ووصل إلى غاية طلبه. . كن لله مطيعاً شعاراً يلخصّ كل دعوات الانبياء والرسل وبه جاءت الكتب ومن أجله كانت التضحيات.

وكان البذل والعطاء بل كانت القرابين والدماء. . . كن لله مطيعاً في السر والعلن فيما تحب وفيما تكره. . . في أمورك الخاصة والعامة. . في مواقفك. . . وفي سلوكك في حركتك وفي حديثك. . في سياستك واقتصادك في كل أمر يجب أن تكون لله مطيعاً.

وبذكر الله آنساً: ولا أُنس إلا لمن عرف الله ووقف على كرمه وجوده وعذابه وعقابه. . . فمن عرف الله لم يعد يستأنس إلا به وقد عرفه رجال فعاشوا لذة هذا الأُنس وانفردوا بها دون غيرهم. . .

(**وتمثل في حال توليك عنه اقباله عليك يدعوك إلى عفوه ويتغمدك بفضله وأنت متول عنه إلى غيره**) قرأت هذه العبارات فهزتني من الأعماق وتصورت هذا الإنسان الهارب من دعوة الله والله وراءه يدعوه إلى فضله وعفوه ومغفرته. . تصورت سرعة السير عند هذا الإنسان يريد أن يلقي نفسه في جهنم ويرفض دعوة الله ونداءه إلى العفو والمغفرة. . . تصورت صيحة الأنبياء فيه تقرع أذنه وتناديه أقبل على الله بقلبك وعملك وهو يتولى عن ذلك ويعرض عنه ويذهب إلى غيره جهلاً منه أو عناداً. . . صورة الإنسان الهارب من الرحمة إلى العذاب ومن النعيم إلى الشقاء. . . صورة الإنسان الذي لم يعرف خلاصه ولم يعرف ما ينفعه مما يضره. . . وفي دعاء الإفتتاح «إنك تدعوني فأولي عنك وتتحبب إليّ فأتبغض إليك وتتودد إلي فلا أقبل منك. . . ».

(**فتعالى من قوي ما أكرمه وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته وأنت في كنف ستره مقيم وفي سعة فضله متقلب فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك أو سيئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك فما ظنك به لو أطعته**) جلّ جلالك يا رب أنت القوي المطلق والكريم المطلق تقول للشيء كن فيكون . . تحيي من تشاء وتميت من تشاء وبيدك الوجود وكل موجود ومع ذلك يقف هذا الإنسان الذليل الحقير يتجرأ على معصيتك ويرتكب ما نهيت عنه وزجرت. . هذا العبد الذليل الذي يعيش في سترك فلا تفضحه أو تشهّر به أو تكشف عيوبه ومساويه. . هذا الإنسان الذي يعيش بعطائك وجودك وتمده بكل قوة وحول وبكل اسباب الحياة والبقاء فلا تمنع فضلك عنه ولم تقطع صلاتك عنه ولم تكشف سترك

المرخى عليه ولم تهتكه بما فعل أو ارتكب. . . بل إنك يا رب تمده بالعطاء بحيث أنك لو قطعت مددك عنه لم يبق في هذا الوجود. . . لو إنك سبحانك تخليت عنه طرفة عين لسقط وهوى وانعدم من هذا الوجود بل إن لطف الله في كل لحظة ويتجسد هذا اللطف في نعمة يحدثها ويجددها لهذا الإنسان من مال وأولاد وجاه وسلطان كما أن هذا اللطف يحدث في كل سيئة يرتكبها هذا الإنسان فلا يفضحه بها ولا يكشف ستره عنها ولا يهتكه أمام الناس بل يسترها عليه وينبهه إلى وجوب التوبة رحمة به ورعاية له.

وكذلك من وجوه هذا اللطف إنه سبحانه يصرف عنه المصائب والبلايا والمحن.

وفي دعاء الافتتاح «فكم يا إلهي من كربة قد فرجتها وهموم قد كشفتها وعثرة قد اقلتها وحلقة بلاء قد فككتها» وإذا كانت هذه هي حالة الله مع هذا الإنسان العاصي المتمرد يعطيه ويفيض عليه ويدفع عنه البلايا والمصائب فكيف حال العبد المطيع له الملتزم بأمره السائر على خطه إنه بدون شك يصبح يده التي يبطش بها وعينه التى يرى بها على حد تعبير ما ورد في بعض الأحاديث. . .

(وأيم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة متوازيين في القدرة لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ومساوىء الأعمال) وهذا أسلوب رائع في جذب الناس إلى الحق والعمل به ودفعهم نحو الفضيلة فأقسم لو أن هذا الموقف كان بين متقابلين متساويين في القوة ـ من اقبال الله على العبد وهروب العبد منه وتوليه عنه ـ والقدرة ثم يحصل هذا المشهد وتكون هذه الصورة لكان هذا الإنسان هو الذي يدين نفسه ويحكم عليها بقبائح الأخلاق وسيئات الأعمال فإن هذه المقابلة قبيحة أخلاقياً وعملياً فإن منطق الأخلاق يحكم بوجوب المقابلة «فما جزاء الإحسان إلا الإحسان» ومن أقبل عليك أن تقبل عليه ومن اقترب منك شبراً أن تقترب منه ذراعاً والمنطق العملي يحكم أيضاً بعدم الإختلاف لأن البناء والعمران والحضارة لا يكون إلا بالتعاون والاجتماع واللقاء ولا يكون بالتنافر والعداوة والهجر والبغضاء.

(وحقاً أقول! ما الدنيا غرتك ولكن بها اغتررت) هذا تصحيح لما يدعيه الناس عن سؤال: ما غرّك بربك الكريم فيقولون غرتنا الدنيا وزخارفها وما فيها فأراد عليه السلام أن يصحح الجواب ويرد أصحابه عن الخطأ بأن الدنيا لا تملك أن تغرك وليس بمقدورها ذلك ولكنك أنت الذي اغتررت بها وأقدمت عليها ورحت تتسابق على حطامها. . . الدنيا مادة عمياء صماء لا تملك القدرة على اغرائك وأغوائك وأنت وحدك العاقل المفكر الواعي الضعيف. . . أنت اغتررت بالدنيا وسقطت على فتاتها تلتقط ما يقع فيها. . .

(ولقد كاشفتك العظات وآذنتك على سواء ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوتك أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرك) هذا بيان أن الدنيا لم تغر الإنسان بل هو الذي اغتر بها وذلك بذكر نسبته ضد الاغترار إليها وهو النصيحة له بمكاشفته بالمواعظ، فإن الدنيا قد انكشفت له بالمواعظ البليغة من تقلباتها وتصرفاتها وقضائها على الآباء والأجداد والأسلاف وكيف ترمي في كل يوم بسهم المنية فتصيب به من تريد. . . إنها بسرائها وضرائها وبؤسها وشقائها تُعلم هذا الإنسان بحقيقتها وتنبهه إلى فعلها. . . إنها تعلمه بمنطق العدل والصدق إنها لا تغره لأن من يغر هو الذي يخفي فعله ويموهه على الناس قاصداً اضلالهم وانحرافهم وجرّهم إليه أما من يكشف أعماله ويظهر ما يبطن ويحذّر الناس من فعله وعمله فلا يغر الناس أبداً ومسيرة الدنيا مع هذا الإنسان بهذا المستوى وعلى هذه الصورة. . .

ثم استشهد عليه السلام بأن الدنيا بصدقها بما تعدك من حيث نزول البلاء بجسمك والنقص في قوتك أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرك. . فإن الدنيا قالت لهذا الإنسان بلسان الحال سأرميك بالمصائب والبلاء فمن مرض إلى هم إلى غم إلى نقص في القوة وهكذا وهي قد صدقت في كل ذلك ونجد الحال أمام أعيننا في أنفسنا وفيمن حولنا وهي بهذا ترفع عن نفسها الكذب وأن تكون هي التي تغر هذا الإنسان. . .

(ولرب ناصح لها عندك متهم وصادق من خبرها مكذب) أنت تتهم ما ينصحك من عبرها وعظاتها تتهمه في نصيحته، كما إنك تكذّب من يحدثك عنها وينقل إليك أخبارها وفجائعها وهو صادق في أخباره حيث أن أخبارها وأحداثها صادقة نراها رؤية العين. . .

(ولئن تعرفتها في الديار الخاوية والربوع الخالية لتجدنها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك والشحيح بك) هذا بيان لصدق الدنيا مع هذا الإنسان ونصيحتها له. . إنك تعرف ذلك إذا مررت بالديار التي أتى عليها الزمن فاندرست ولم يبق منها إلا الأثر يحكي عنها وينطق بأنها كانت والربوع التي خلت من سكانها وأقفرت من نزّالها فإن العاقل إذا رأى ذلك رأى الموعظة في أبلغ ما يكون والشفقة في أرق معانيها والبخل بهذا الإنسان أن يصيبه أذى فيها لأن كل هذه الآثار والمواقع تقول لهذا الإنسان خذ العبرة والدرس وتأهب للمسير والسفر الطويل وإن الدنيا سوف تأتي عليك كما أتت على من سبقك وتقدم عليك وهل هناك أرق وأشفق ممن يدلك على موارد العطب لتجتنبها وتترك الإقدام عليها والدخول فيها كلا ثم ألف كلا. . .

(ولنعم دار من لم يرض بها داراً ومحل من لم يوطنها محلاً وإن السعداء بالدنيا غداً

هم الهاربون منها اليوم) هذا مدح للدنيا وتنعيم لها إذا وضعت في موضعها من حيث الاعتبار بها والاجتناب لمساويها وعدم الرضا بها داراً يستقر بها الإنسان ويعمل لها. فهي دار يعمل بها للآخرة ولا يعمل لها وهذا موقعها الذي يجب أن تقع فيه وكذلك هي نعم الدار إذا لم يتخذها المرء وطناً له يبني بها ويظن إنها الباقية له والباقي عليها بل يتخذها معبراً نحو الآخرة لا استقرار فيها ولا راحة. . .

ثم أشار إلى أن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم فمن يهرب اليوم من عبودية الدنيا ورقتها ويتحرر منها و مما فيها ويعمل بها للآخرة، . من يترك ملذاتها ويهجر ما فيها فهذا هو السعيد في الآخرة. . .

(إذا رجفت الراجفة وحقت بجلائلها القيامة ولحق كل منسك أهله وبكل معبود عبدته وبكل مطاع أهل طاعته فلم يجز في عدله وقسطه يومئذٍ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقه) هذا بيان للغد الذي يسعد به الهاربون من الدنيا إنه يوم رهيب يوم القيامة حيث تضطرب الأرض وترجف وتهتز وتتزلزل كما قال تعالى: **﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. .﴾** فهناك رجفة أولى للأرض تهتز لها الأشياء وتضطرب ثم تتبعها أخرى وهي الرادفة وجاءت القيامة بأمورها العظيمة وأهاويلها الشديدة ولحق كل إنسان بمعبوده وما كان يهواه في الدنيا ويتعلق به ويدين له بالطاعة إن كل فرد يحشر مع من كان يحب ويهوى ولو أحب حجراً لحشر معه ولو أطاع فاسقاً لكان معه. . . وإذا كان الأمر كذلك فهناك يأتي عدل الله وانصافه وإن كل حركة ولو أن تفتح عينيك في الهواء وهو مباح أو تحرك قدمك ولو حركة بسيطة تنقلها من محلها فإنك تجزى بها بالعدل، إنك محاسب على كل صغيرة وكبيرة بالقسط والعدل ولا يظلم ربك أحداً. . .

(فكم حجة يوم ذاك داحضة وعلائق عذر منقطعة). أراد أن يبين أن هناك كثيراً من الحجج الباطلة والأسباب المنقطعة التي لا تنهض في مقام الاعتذار لمن يتكل على نسبه أو مقامه أو عمل غيره وهناك بعض الناس الذين يذهبون إلى الآخرة وليس لهم ما يعتقدون أنه حجة لهم تنقذهم من عذاب الله ولكنهم يتمسكون بذلك ضلالاً منهم وغروراً بما عندهم. . .

(فتحر من أمرك ما يقوم به عذرك وتثبت به حجتك وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له) بعد أن بيّن أن هناك من الحجج ما لا يقوم عذراً أو يكون مقبولاً رغب فيما ينفع ويفيد ويكون حجة بين يدي العبد تؤهله للأعتذار ولدخول الجنة وذلك بأن يطلب من أعماله وأموره ما يصح أن يكون عذراً عند الله وحجة صحيحة تثبته على الصراط وهذا لا يتحقق

إلا بمتابعة الأنبياء والسير خلفهم فيما شرعوا وسنوا وتصحيح سلوك الإنسان بمناهج الشرع والدين وتحصيل الكمالات النفسية . . .

ثم أمره أن يأخذ ما يبقى له وهو الإيمان بالله والعمل الصالح ويترك ما لا يبقى له وهو الدنيا وما فيها من متاع وحطام . . .

(وتيسر لسفرك) على الإنسان أن يتأهب لهذا السفر الطويل وهو رحلة الموت إلى الآخرة والتأهب يكون بالاستعداد بأن يرى ما ينفع ويفيد فيهيؤه وذلك بالقيام بالواجبات وترك المحرمات والتزام جادة الشرع والبعد عن كل ما يخالف أمر الله وخير الزاد التقوى . . .

(وشم برق النجاة وأرحل مطايا التشمير) أنظر إلى مواقع النجاة وأطلب سبل الهداية والفوز والفلاح وشمر عن سواعد الجد والكفاح للوصول إلى الآخرة سعيداً منتصراً . . .

٢٢٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

يتبرأ من الظلم

وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ(١) عَلَى حَسَكِ(٢) السَّعْدَانِ(٣) مُسَهَّداً(٤)، أَوْ أُجَرَّ(٥) فِي ٱلأَغْلاَلِ(٦) مُصَفَّداً(٧)، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى ٱللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ ٱلْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ ٱلْحُطَامِ(٨)، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى ٱلْبِلَى(٩) قُفُولُهَا(١٠)، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى(١١) حُلُولُهَا؟!.

وَٱللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ(١٢) حَتَّى ٱسْتَمَاحَنِي(١٣) مِنْ بُرِّكُمْ(١٤) صَاعاً(١٥)، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ(١٦) شُعْثَ(١٧) الشُّعُورِ، غُبْرَ(١٨) ٱلأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِٱلْعِظْلِمِ(١٩)، وَعَاوَدَنِي(٢٠) مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ(٢١) عَلَيَّ ٱلْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ(٢٢) سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ(٢٣) مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ(٢٤) لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا(٢٥) مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ(٢٦) ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ(٢٧) مِنْ أَلَمِهَا(٢٨)، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا(٢٩)، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ(٣٠) الثَّوَاكِلُ(٣١)، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ(٣٢) مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا(٣٣) جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ ٱلأَذَى(٣٤) وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظًى(٣٥)؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ طَارِقٌ(٣٦) طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ(٣٧) فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا(٣٨)، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ(٣٩) بِرِيقِ(٤٠) حَيَّةٍ(٤١) أَوْ قَيْئِهَا(٤٢)، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ(٤٣)، أَمْ زَكَاةٌ(٤٤)، أَمْ صَدَقَةٌ(٤٥)؟ فَذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلكِنَّهَا

هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ(٤٦) ٱلْهَبُولُ(٤٧)! أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ(٤٨) أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ(٤٩)، أَمْ تَهْجُرُ(٥٠)؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ(٥١) بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا(٥٢) جُلْبَ(٥٣) شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ(٥٤) مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ(٥٥) تَقْضَمُهَا(٥٦). مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ(٥٧) ٱلْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ(٥٨). وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

اللغة

١ ـ بات : بياتاً ومبيتاً كل من أدركه الليل نام أم لم ينم.
٢ ـ الحسك : الشوك.
٣ ـ السعدان : نبت شوكي ترعاه الإبل.
٤ ـ المسهد : الأرق، الذي لا يتمكن من النوم.
٥ ـ أجر : أسحب.
٦ ـ الأغلال : القيود.
٧ ـ المصفّد : المقيّد والموثوق بغل أو قيد.
٨ ـ الحطام : بالضم عروض الدنيا ومتاعها وفي الأصل ما يتحطم من العيدان ويتكسر.
٩ ـ البلى : الفناء.
١٠ ـ قفولها : رجوعها.
١١ ـ الثرى : التراب.
١٢ ـ أملق : افتقر.
١٣ ـ استماحني : طلب مني منحة أي عطية.
١٤ ـ البر : القمح.
١٥ ـ الصاع : مكيال.
١٦ ـ الصبيان : جمع الصبي وهو دون الفتى عمراً.
١٧ ـ الأشعث من الشعر: ما تلبد وتوسخ.
١٨ ـ غبر : جمع أغبر المتغير اللون شاحبه.
١٩ ـ العظلم : بكسر الحرفين نبت يصبغ به ما يراد أسوداده.

٢٠ ـ عاودني : سألني مرة بعد أخرى.
٢١ ـ كرّر الشيء : أعاده مرة بعد أخرى أو مراراً.
٢٢ ـ أصغيت إليه : أملت سمعي نحوه.
٢٣ ـ القياد : بالكسر ما يقاد به.
٢٤ ـ أحميت الحديدة : أسخنتها شديداً.
٢٥ ـ أدنيتها : قرّبتها.
٢٦ ـ ضج : صاح وجلّب لفزعه من شيء أخافه.
٢٧ ـ الدنف : شدة المرض.
٢٨ ـ الألم : الوجع.
٢٩ ـ الميسم : بكسر الميم وفتح السين آلة الوسم وهي المكواة.
٣٠ ـ الثكل : بالضم وبالتحريك فقدان الحبيب أو الولد وثكلتك فقدتك.
٣١ ـ الثواكل : النساء الفاقدات لأولادهن.
٣٢ ـ تأن : من أنّ أنيناً إذا تأوه.
٣٣ ـ سجرها : أوقدها وأحماها.
٣٤ ـ الأذى : الضرر اليسير.
٣٥ ـ لظى : اسم من أسماء جهنم.
٣٦ ـ الطارق : الآتي ليلاً وسمي كذلك لاحتياجه إلى طرق الباب بالمطرقة.
٣٧ ـ الملفوفة : نوع من الحلواء.
٣٨ ـ شنئتها : أبغضتها من الشنآن وهو البغض والكراهية.
٣٩ ـ عجنت : الدقيق إذا خلطته بالماء وغمزته بكفي.
٤٠ ـ ريق : لعاب.
٤١ ـ الحية : الأفعى.
٤٢ ـ القيىء : الرجيع.
٤٣ ـ الصلة : العطية، الرشوة.
٤٤ ـ الزكاة : ما يخرج من المال الزكوي إذا تم النصاب.
٤٥ ـ الصدقة : ما يدفع قربة إلى الله ابتغاء الأجر والثواب.
٤٦ ـ هبلتك : ثكلتك.
٤٧ ـ الهبول : التي لا يبقى لها ولد من النساء.
٤٨ ـ المختبط : المصروع والمختل توازنه.
٤٩ ـ الجنة : الجنون، أو من به مس من الشيطان.
٥٠ ـ الهجر : الهذيان من مرض كالمحموم.
٥١ ـ الأقاليم السبعة : الدنيا حيث كانوا يقسمونها إلى سبعة أقاليم.

٥٢ ـ أسلبها	:	انتزعها منها قهراً، اختلسها منها.
٥٣ ـ جلب الشعيرة	:	قشرتها.
٥٤ ـ أهون	:	أحقر.
٥٥ ـ الجرادة	:	دويبة من مستقيمات الأجنحة تغزو المزروعات فتتلفها.
٥٦ ـ القضم	:	الأكل بأطراف الأسنان.
٥٧ ـ السبات	:	النوم، أو النوم الخفيف.
٥٨ ـ الزلل	:	السقوط في الخطأ.

الشرح

(والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الاغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها) يوم القيامة يوم رهيب تجتمع الخلائق للحساب أمام محكمة عادلة لا تظلم أحداً ولا تجور على أحد وتأخذ لكل ذي حق حقه ممن هو عليه... يوم تشخص فيه الأبصار... يوم يجعل الولدان شيباً.. يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد... يوم يفر فيه المرء من أبيه وأمه وأخيه وفصيلته التي تؤويه لكل امرء منهم يومئذٍ شأن يغنيه يوم لا يغني والد عن ولده ولا مولد عن والده شيئاً... هذا اليوم كان محط نظر الأنبياء والأوصياء والأولياء وأهل الله... هذا اليوم هو اليوم الذي يستحق أن يعمل الإنسان من أجله ويبذل قصارى جهده في سبيل أن يصل إليه ولا تبعة عليه أو مظلمة تلاحقه... وأمير المؤمنين هو الشخصية الإلهية الربانية التي عرفت الله حق المعرفة وعرفت ذلك اليوم بحقيقته واطلعت على كنهه وما يجري فيه فلذا كان عليه السلام ينظر إلى ذلك اليوم فيعمل له ويعدّ العدة لقدومه.

وهذه الخطبة الشريفة والكلام الكريم يخرج من قلب علي على سجيته يحكي عن عقيدته وشعوره وكيف ينظر إلى ذلك اليوم الرهيب... إنه ينفي الظلم عن نفسه... ظلم العباد والبلاد ويرفض أن يعطي ابن أمه وأقرب الناس إليه قليلاً من مال المسلمين يسد به رمقه ورمق عياله... أقسم عليه السلام أن المبيت على الشوك المؤرق المانع من النوم والسحب بالقيود والاغلال مكبلاً وهذه صوره يرسمها لمن يرى مثل هذا الإنسان بهذه الحالة وكم فيها من الألم والمعاناة والعذاب والهوان ولكنه عليه السلام

يقسم أن وجوده على هذه الحالة أحب إليه من أن يلقى الله ورسوله يوم القيامة ولأحد من الناس مظلمة عنده أو يكون غاصباً شيئاً من فتات الدنيا وذلك لأن عذاب الدنيا مهما كان كبيراً فهو صغير بالنسبة إلى عذاب الآخرة.

ثم بيّن سبب بعده عن الظلم ونفرته منه وقد استفهم مستنكراً ذلك ومبعّداً له عن نفسه.

بأنه كيف يظلم أحداً من أجل نفسه وهذه النفس لها حالتان كل حالة منهما تستدعي رفض الظلم وتمنع العاقل من ارتكابه.

الأولى: إن هذه النفس سترجع من رحلتها في الدنيا إلى الفناء ومن كانت هذه آخرته وجب عليه أن يرفض الظلم من أجل نفسه التي تفنى.

الثانية: إن هذه النفس بعد موتها سيطول بقاؤها في القبر إلى يوم القيامة وهي مدة لا يعلمها إلا الله ومن كان بقاؤه في القبر طويلاً يجب أن يرفض الظلم لئلا يتحول قبره إلى حفرة من حفر النيران جراء هذا الظلم القاتل...

(والله لقد رأيت عقيلاً وقد املق حتى استماحني من بركم صاعاً ورأيت صبيانه شعت الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظلم وعاودني مؤكداً وكرر عليّ القول مردداً فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني واتبع قياده مفارقاً طريقتي) صورة عظيمة وحادثة رهيبة ينقلها الإمام مع أعز أهله عليه... لا أظن أن في التاريخ رجلاً ثانياً قدمته البشرية يشبه أمير المؤمنين أو يماثله.. إنه يقسم بالله وهو الصادق البار الأمين إنه رأى أخاه وابن امه.. رأى أخاه عقيلاً وقد افتقر حتى بلغ به الفقر أن مدّ يده إلى الإمام يستعطيه ويطلب منه صاعاً من قمح المسلمين يسد به جوعه وجوع عياله...

يحكي الإمام ما يرى من فقر أولاد أخيه وما يعانونه من الحاجة... إنهم صبية قد اضناهم الجوع فغيّر ملامحهم الأصيلة فعلامات الفقر بادية عليهم ظاهرة في وجوههم وشعورهم، تقرؤوها بمجرد أن تراهم فشعورهم مبعثرة قد تلبدت على عادة من اصابهم الفقر ووجوههم شاحبة من الجوع كأنها صبغت بالسواد فتغيرت سحنتها وطبيعتها.

لقد القى عقيل حاجته بين يدي أخيه ورأى الإمام واقع حاله وما يعيشه صبيته الصغار وعاد عقيل من جديد يطلب حاجته وكرر طلبه مردداً ما يريد فأصغى إليه الإمام، وأعطاه إذنه فظن صاحب الحاجة أن علياً يبيعه دينه وينقاد لمراده ويطيعه فيما طلب

مخالفاً طريقته التي هي جزء من كيانه وطبيعته التي جبل عليها حيث كان العدل جزءاً مقوماً لوجوده وما هو عليه. . .

مشهد رائع يحكيه الإمام بفصوله العظيمة. . . مشهد الأخ بقرابته ورحمه. . . ومشهد المحتاج الفقير الذي طرق الفقر بابه يطلب العطاء. . . مشهد الأولاد الذي غير الفقر حالتهم فبدت عليهم اماراته في وجوههم وشعورهم. . . مشهد الإنسان الذي قصد أخاه وألحّ عليه بالطلب فأصغى إليه الأخ تأدباً وكيف تكرر الطلب. . . مشهد مؤثر لا يستطيع الإنسان أن يخفي شعوره الحزين نحوه. . . مشهد البؤس الذي يعيشه هذا الإنسان فتتكدر على أهل الإيمان رؤيتهم. . .

بهذه الصورة المؤثرة كان عقيل الأخ الأكبر للإمام أمير المؤمنين فكيف كان علي معه؟! وهل تأثر لهذا المشهد البائس؟! هل أخذته العاطفة وشدته الرحم للتنازل عما يؤمن به من العدالة والحق وعدم الظلم؟!. . هل استطاع الإمام أن يتغلب عل عاطفته ويبقى فوق الميل والهوى والرحم والعاطفة؟!. . .

لقد أعطى لأخيه درساً تناقلته الخطباء ووعظت به الوعاظ وضربته الحكام مثلاً لقد سارت به الركبان تنقل من خلاله عدل الإمام وعدم محاباته لأخيه وأحب الناس إليه إنه درس للملوك والحكام والسلاطين والأمراء الذين متى جلسوا على كرسي الحكم جمعوا أقاربهم وأرحامهم ومن لهم علاقة بهم وأخذوا يفرقون عليهم من أموال المسلمين ويتحول أهل الحاكم وأرحامه وأقرباؤه ومن لهم صلة به يتحولون في لحظة عين إلى أغنياء العالم فضلاً عن اغنياء بلدهم. . بلحظة واحدة يتحول الفقراء بالأمس إلى أغنياء اليوم وأثرياؤهم. . .

يحكي الإمام ما تبقى من المشهد الحزين المؤثر. . . إنه فصل رائع ودرس عظيم . . يقول عليه السلام. . .

(فأحميت له حديدة ثم ادنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من المها وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه أتئن من الأذى ولا أئن من لظى) هذه حديدة علي التي اصبحت درساً. . . أحمى الإمام حديدة بالنار وكان عقيل قد كف بصره ثم قربها منه وقال له خذ هذه فأقدم عليها عقيل بإقدام البائس الفقير ظناً منه إنها بدرة دراهم أو كيس دنانير. . لقد أهوى يده إليها ليأخذها فإذا هي حديدة محماة فكانت الصدمة العنيفة والصيحة الرهيبة. . . لقد صرخ صراخ مريض قد اشتد به المرض

فآلمه.. إنه يقبض على نار حامية كاد أن يحترق منها...

إنها صرخةُ من نار الدنيا ينتقل الإمام منها إلى نار الآخرة ليقول لأخيه «ثكلتك الثواكل يا عقيل» فقدتك نساؤك وحزنت عليك.. دعاء عليه بالموت... تصرخ يا عقيل وتضج من هذه الحديدة البسيطة التي أحماها إنسانها للعبه لأن طريقة الإمام معه كانت أشبه باللعب بالنسبة إلى نار الآخرة وعذابها فإنه لم يرد أن يقتص منه وإنما أراد أن يلفت نظره وينبهه إلى خطر الآخرة، فأنت يا عقيل تصرخ وتتأوه من هذه الحديدة التي هي أشبه باللعبة وتجرني إلى نار أوقدها جبارها الذي لا يقوى على غضبه أحد وهو الله تجرني إلى تلك النار الكبرى... أتأن وتتأوه من الأذى البسيط والألم الخفيف الذي أصابك من حديدة بسيطة وأنا لا أتأوه من نار جهنم وعذابها، فإن كنت تتأذى وتصرخ من نار الدنيا فأنا أحق وأولى أن أصرخ من نار الآخرة...

بهذه العظة البليغة يسدل الستار عن فصل رائع من فصول العدل العلوي لينتقل منه إلى فصل آخر...

(وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أو قيئها فقلت: أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت، فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية فقلت: هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟ امختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر) وهذا حدث آخر أهم وأعظم من قصة عقيل وحدثه... إنه فصل آخر بشع وقبيح يتندى له جبين الحياء.. إنه فصل من فصول الاحتيال وزيادة قبحه يتجسد في كونه عن طريق الدين... إنه عن طريق الدين يريد الاحتيال لاستمالة قلب الحاكم وعن هذا الطريق يستطيع الوصول إلى مراده وإدراك ما يؤمل...

لئن جاء عقيل إلينا يطلب استماحتنا صاعاً من البر إنما جاء للرحم الذي بيننا ولحاجته الشديدة ولأن له الحق في بيت مال المسلمين أما هذا الرجل وهو الأشعث بن قيس إنما جاء يحتال على الدنيا باسم الدين وهذا أمر أشد عجباً من الأول فعند الأول شبهة حق وأما عند الثاني فلا شبهة أبداً إنه يريد أن يرشي الحاكم ليأخذ منه ما يريد...

هذه هي قصة الأشعث بن قيس مع الإمام... فالأشعث رجل منحرف عن الإمام لا يحبه بل يكن له البغضاء ويحقد عليه ولكن بما أن الإمام هو الحاكم والمتولي للأمر أراد أن يستميله فصنع نوعاً من الحلواء وتأنق فيه وجاء به إلى الإمام يقدّمه إليه هدية...

عرف الإمام باطن الأشعث وعرف داخله.. عرف أن هذه الهدية ليست لله ولا من أجل الله وإنما أراد الأشعث أن يتوصل بها إلى الدنيا.

ما يفعله الأشعث أمر عجيب. . إنها صورة الانتهازي القبيح فهو يأتي إلى بيت الإمام ليلاً لئلا ينكشف أمره للناس. . في الليل تُستر العيوب فلذا اتخذه الأشعث زماناً لتمرير حيلته. . . فبعد أن صنع الحلوى بدقة متناهية وتأنق في صنعها ووضعها في وعائها ولفها كما تلف الهدية عندها قصد بيت الإمام يريد أهداءها إليه. . .

يرى الإمام الطارق إنه الأشعث فيشمئز منه ويتصور بغضه له وحقده عليه وممارساته الظالمة بحقه فيشمئز من الحلوى ويصفها بما ينفر الطبع منها وما ترفضه النفس وتأباه. . كأنها عجنت بريق حية أو قيئها. . . بسم الحية أو رجيعها وهل يتصور الإنسان هذا المنظر ثم يبقى مستقيم المزاج معتدله. . كلا . . لا بد وأن تشمئز نفسه ويعرض عنها. . ومع هذا فقد حاول الإمام أن يستفسر عن السبب الموجب لمجيئه بها.

فقال له: ما هذه؟.

هل هي صلة: كما يصل الرحم رحمه؟.

أم زكاة وجبت عليك وأردت إخراجها من أموالك؟ أم صدقة تريد بها وجه الله والدار الآخرة؟ وهذه كلها ـ يا أشعث ـ محرمة علينا أهل البيت وأمام هذا الاستفهام من الإمام ورد جميع الاحتمالات بادر الأشعث إلى القول إنها ليست ما ذكرت بل هي هدية محللة ولا حرمة في الهدية فالمسلمون يتهادون وهنا تثور ثائرة الإمام. . . يعرف الغاية التي دفعت الأشعث إلى ذلك. . . إنه يقرأ خلفيات هذه الهدية وما وراءها إنه يريد أن يخدع الإمام بهذه الهدية ويحرفه عن دينه عن طريق الدين يريد خديعة حافظ الدين وراعيه. . «هبلتك الهبول» دعاء على الأشعث أن تصاب أمه به فيموت وتحزن عليه كيف جاء عن طريق الدين يخدع الإمام ويصرفه عن الحق. . .

ويلك يا أشعث امختبط أنت أي مصروع لا تدري ما تفعل يسّيرك غيرك ويتصرف بك حتى جئت بهذا الفعل الشنيع؟.

أم اصبت بالجنون والخبل أو استولت عليك الجن أم تهجر وتهذي ولا تعرف ما تقول ولا تدري كيف تتصرف. . ؟.

استفهام توبيخي فيه إهانة للأشعث ورد للهدية وإن فعل الأشعث لا يفعله عاقل. . .

(والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت افلاكها على أن أعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلته) هذا نشيد الأحرار. . . قيثارة الحب الإلهي والطاعة لله، ما

أجملها من مقطوعة وما أروعها من كلمات. . والله قسماً صادقاً لو جمعت الدنيا بما فيها. . . بأقاليمها السبعة وما تحت أفلاكها وأُعطيت لعلي مقابل أن يعصي الله في قشرة شعيرة يسلبها من نملة ما فعل أي إنسان هذا تكبر عنده معصية الله الصغيرة حتى تتحول عنده كل قضية. . تصبح معصية الله الصغيرة لا تقابلها الدنيا كلها. . . يتخلى علي عن الدنيا بما فيها إذا كانت توجب معصية صغيرة لله. . .

درس لأهل الدنيا حكاماً ومحكومين. . رعاة ورعية قادة وسوقة. . . درس في المحافظة على طاعة الله وأن لا يرتكبوا معصية مهما صغرت وإن ربحوا الدنيا بما فيها. . درس رائع يقطع به الإمام طمع الأشعث وكل طامع فيه يريد أن يحرفه عن دينه. . .

(وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين) هذا منتهى الزهد وأقصى غاية التقشف أن تصغر الدنيا عند الإمام حتى تصبح أحقر من ورقة في فم جرادة تقضمها. . .

ثم استفهم منكراً أن تكون نفسه تطلب لذات الدنيا أو تتعلق بشيء منها. . ما لعلي ولنعيم يفنى فهذا النعيم الدنيوي الذي يفنى لا يتعلق به الإمام ولا يطلبه كما أن اللذة التي لا تبقى ليست من مهمته ولا يريدها. . .

وأخيراً استعان بالله من غفلة العقل وضعفه أو عدم تنبهه إلى ذلك النعيم الذي يفنى وتلك اللذات التي لا تبقى ونعوذ به من قبح الانحراف في القول والعمل ونستعين به على كل ما يرضيه. . .

ترجمة عقيل بن أبي طالب.

عقيل بن أبي طالب عليه السلام بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمه وأبيه وكان بنو أبي طالب أربعة طالب وهو أسن من عقيل بعشر سنين، وعقيل وهو أسن من جعفر بعشر سنين وجعفر وهو أسن من علي بعشر سنين، وعلي وهو أصغرهم سناً وأعظمهم قدراً بل أعظم الناس بعد ابن عمه قدراً.

وكان عقيل يكنى أبا يزيد وقال له رسول الله ﷺ «يا أبا يزيد إني أحبك حبين حباً لقرابتك مني وحباً لما كنت أعلم من حب عمي إياك».

وذلك أن أبا طالب قال للنبي وللعباس حين أتياه ليقتسما بنيه عام المحل فيخففا عنه ثقلهم «دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم. .».

أُخرج عقيل إلى بدر مكرهاً فأسر وفدي وعاد إلى مكة ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية وشهد غزوة مؤته مع أخيه جعفر عليه السلام.

كان عقيل أنسب قريش وأعلمهم بأيامهم وكان مبغضاً إليهم لأنه كان يعدّ مساوئهم. . .

كان اسرع الناس جواباً وأشدهم عارضة.

ذهب بصره في أواخر عمره. . .

واختلف الناس في أنه هل التحق بمعاوية في حياة الإمام والأظهر كما ذهب إليه المحققون إنه لم يلتحق به في حياة أخيه الإمام. . .

مات في نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان. . .

٢٢٥ ـ ومن دعاء له عليه السلام

يلتجىء إلى الله أن يغنيه

ٱللَّهُمَّ صُنْ(١) وَجْهِي(٢) بِٱلْيَسَارِ(٣)، وَلاَ تَبْذُلْ(٤) جَاهِيَ(٥) بِٱلإِقْتَارِ(٦)، فَأَسْتَرْزِقَ(٧) طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ(٨) شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى(٩) بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ ٱلإِعْطَاءِ وَٱلْمَنْعِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

اللغة

١ ـ الصيانة : الحفظ وصون الوجه حفظه من التعرض للسؤال.

٢ ـ الوجه : معروف والمقصود هنا الجاه والعز.

٣ ـ اليسار : الغنى.

٤ ـ البذل : الابتذال ضد الصيانة وبذل الجاه إسقاط المنزلة من القلوب.

٥ ـ الجاه : القدر والشرف وعلو المنزلة.

٦ ـ الإقتار : الفقر، ضيق الرزق.

٧ ـ أسترزق : أطلب الرزق.

٨ ـ أستعطف : أطلب العطف.

٩ ـ أبتلى : أفتتن.

الشرح

(اللهم صن وجهي باليسار ولا تبذل جاهي بالإقتار فأسترزق طالبي رزقك وأستعطف شرار خلقك وأبتلى بحمد من أعطاني وأفتتن بذم من منعني وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع؛ ﴿إنك على كل شيء قدير﴾) هذا الدعاء توجه به الإمام

إلى الله وهو على مستوى الدعاء بطلب الجنة وغفران الذنوب لأنه الطريق إليها من حيث رفع الموانع أو دفعها. . .

اللهم يا رب احفظ ماء وجهي بالغنى فإن الغنى يحفظ للمرء كرامته وعزته ويدفع عنه الكثير من التهم والظنون الفاسدة.

ولا تبذل جاهي بالإقتار أي لا تحط من شأني وتسقط اعتباري بالفقر، لأن الفقر يعري الإنسان من فضائل نفسه وتسهل إلصاق التهم بصاحبه بيسر وسهولة وهذا ملحوظ في المجتمع متداول معروف وكل منا يرى كيف تزدري العيون الفقراء وكيف تحتقر وجودهم، وكم من غني سفيه ستر عليه الغنى سفهه وكم من فقير عاقل ضاع عقله في فقره. . . الغني عندما يتكلم يصبح فصيحاً ومقبول الكلام والفقير تضيع حجته ولا يسمع لقوله.

الفقر يسقط هيبة الرجل الوقور ويهوّن شأنه في نظر الناس عكس الغنى. . .

والإمام يطلب الغنى ليصون به وجهه ويسأل الله أن لا يذله بالافتقار لأنه يحمل معه لوازمه القبيحة السيئة التي تضر بدين الرجال وآخرتهم وقد ذكر من تلك الأضرار.

أولاً: فأسترزق طالبي رزقك: فأنا أجعل بيني وبينك واسطة قاصرة هي تتوجه إليك تطلب الرزق منك وأنا أطلب منها وفي هذا فساد للنفس وإساءة وفيه مهانة عظيمة وثقل على النفس العالية الشريفة. . .

ثانياً: وأستعطف شرار خلقك: أطلب عطف الأشرار من خلقك وكم جرحت قلبي وقفة بعض المؤمنين على أعتاب بعض الفاسدين يطلبون منهم قرضاً أو صدقة أو عطية.

ثالثاً: أبتلى بحمد من أعطاني وأفتتن بذم من منعني: وهذه سيئة عظمى حيث يخرج المرء عن حد الاعتدال فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها فتقوم بمدحه والثناء عليه كما أنَّها تُفتن ببغض من منعها وعلى ذلك تذهب إلى ذمه والقدح فيه وفي المدح بغير الحق كما أن في الذم بغير الحق شطط ومعصية وانحراف وإثم.

وفي النهاية رد الأمر إلى الله وأنه العالم بالأمور كلها القادر عليها وهو ولي الأمر وولي الإعطاء والمنع عن يديه تجري وبفضله تكون. . . إنك يا رب تملك حق العطاء وحق المنع فأعطنا حتى لا نحتاج أحداً من خلقك ونبقى في عزة نفس وكرامة لا نتعرض للإهانة والمذلة. . . إنك على كل شيء قدير لا يعجزك شيء ولا يمنع عطاؤك أحد. . .

٢٢٦ ـ ومن خطبه له عليه السلام

في التنفير من الدنيا

دَارٌ بِٱلْبَلاَءِ[١] مَحْفُوفَةٌ[٢]، وَبِٱلْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لاَ تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلاَ يَسْلَمُ نُزَّالُهَا[٣].

أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ[٤] مُتَصَرِّفَةٌ[٥]، ٱلْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَٱلأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ[٦] مُسْتَهْدَفَةٌ[٧]، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا[٨].

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً[٩]، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً[١٠]، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً[١١]، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً[١٢]، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً[١٣]. فَٱسْتَبْدَلُوا بِٱلْقُصُورِ ٱلْمُشَيَّدَةِ[١٤]، وَالنَّمَارِقِ[١٥] ٱلْمُمَهَّدَةِ[١٦]، الصُّخُورَ وَٱلأَحْجَارَ ٱلْمُسَنَّدَةَ[١٧]، وَٱلْقُبُورَ اللاَّطِئَةَ[١٨] ٱلْمُلْحَدَةَ[١٩]، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى ٱلْخَرَابِ فِنَاؤُهَا[٢٠]، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا[٢١] مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ[٢٢]، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لاَ يَسْتَأْنِسُونَ بِٱلأَوْطَانِ، وَلاَ يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ ٱلْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ ٱلْجِوَارِ، وَدُنُوِّ[٢٣] الدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ[٢١]، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ[٢٥] ٱلْبِلَى[٢٦]، وَأَكَلَتْهُمُ ٱلْجَنَادِلُ[٢٧] وَالثَّرَى[٢٨]!.

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَٱرْتَهَنَكُمْ ذٰلِكَ ٱلْمَضْجَعُ[٢٩]، وَضَمَّكُمْ ذٰلِكَ ٱلْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ[٣٠] بِكُمُ ٱلأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ ٱلْقُبُورُ[٣١]: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو[٣٢] كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ[٣٣]، وَرُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلاَهُمُ ٱلْحَقِّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٣٤]﴾.

اللغة

١ ـ البلاء : الآفات والمصائب.

٢ ـ محفوفة : محيطة ومحدقة.

٣ ـ النزّال : بالضم وتشديد الزاي جمع نازل.

٤ ـ تارات : جمع تارة وهي المرة الواحدة.

٥ ـ متصرفة : متنقلة متحولة.

٦ ـ أغراض : جمع غرض وهو الهدف الذي يرمى.

٧ ـ مستهدفة : بكسر الدال وهي التي نصبت هدفاً للرمي.

٨ ـ الحمام : بكسر الحاء الموت.

٩ ـ هامدة : ساكنة.

١٠ ـ راكدة : ساكنة وركود الريح انقطاع العمل وبطلان الحركة.

١١ ـ البالية : الرثة الفانية.

١٢ ـ الخالية : الفارغة.

١٣ ـ آثارهم عافية : مندرسة.

١٤ ـ المشيدة : بالتشديد العالية وبالتخفيف وكسر الشين المعمولة بالشيد وهو الحصن.

١٥ ـ النمارق : الوسائد.

١٦ ـ الممهدة : المفروشة.

١٧ ـ المسندة : من استند إليه إذا اعتمد عليه.

١٨ ـ اللاطئة : اللاصقة.

١٩ ـ الملحدة : من اللحد القبر إذا جعل له لحداً أي شقاً في وسطه.

٢٠ ـ فناء الدار : ساحتها وما اتسع أمامها.

٢١ ـ محلها : مكانها.

٢٢ ـ موحشين : من الوحشة التي هي ضد الأنس.

٢٣ ـ دنو : قرب.
٢٤ ـ تزاور : من الزيارة والتزاور أن يزور بعضهم بعضاً.
٢٥ ـ الكلكل : الصدر.
٢٦ ـ البلى : بكسر الباء الفناء.
٢٧ ـ الجنادل : الحجارة والصخور.
٢٨ ـ الثرى : التراب.
٢٩ ـ المضجع : القبر.
٣٠ ـ تناهت بكم الأمور: وصلت إلى غايتها.
٣١ ـ بعثرت القبور : قلب ترابها وأخرجت موتاها.
٣٢ ـ تبلو : تخبر بما عندها من خير أو شر.
٣٣ ـ ما أسلفت : ما قدّمت.
٣٤ ـ يفترون : من افترى عليه الكذب إذا اختلقه.

الشرح

(دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالها ولا يسلم نزالها) في هذه الخطبة تحذير من الدنيا وما فيها حتى لا تغر الإنسان وتشغله عن الله كما أن فيها ذكر معايبها كي يُتنفر منها ويُبتعد عنها وقد ذكر لها عدة معايب.

١ ـ دار بالبلاء محفوفة: فالمصائب والآفات محيطة بها من كل جانب وكيف تحرك هذا الإنسان تراه يعيش مشكلة وتحيط به مصيبة لا تنفك عنه طالما أنه في هذا الدنيا وكما قيل: «أي الناس تصفو مشاربه» أو كما قيل: «طُبعت على كدر».

٢ ـ وبالغدر معروفة: غدرها من حيث إنها تعطي الناس من حلوها ثم تذيقهم مرها فإنك تجد الغني المترف قد يصبح فجأة فقيراً متسولاً، وقد تجد السلطان المالك رقاب العباد قد يصبح فجأة على الأبواب يستجدي قوته وكذلك تجد الفتى المستقوي بعضلاته قد أصبح طريح الفراش يعالج سكرات الموت وهكذا تغدر بأهلها وتنكّل بهم...

٣ ـ لا تدوم أحوالها: لا تستقر على حال... لا تدوم صحة... ولا تدوم قوة... ولا يدوم مال... ولا يدوم استقرار... ولا يدوم أهل وولد وهكذا نطفة... فطفل... فشباب... فكهولة... وكما قيل: «دوام الحال من المحال».

٤ ـ ولا يسلم نزالها: ومن أين تأتي السلامة لنازل الدنيا وهو هدف الآفات

والمصيبات بل هو هدف الموت منذ أن يحط رحله فيها. . .

(أحوال مختلفة وتارات متصرفة العيش فيها مذموم والأمان منها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتفنيهم بحمامها).

٥ ـ أحوال مختلفة: ففقر بعد غنى ومرض بعد صحة ومشيب بعد شباب وخوف بعد أمن وهكذا لا تستقر على حال. . .

٦ ـ وتارات متصرفة: تحوّل أهلها تارة إلى بلاء وأخرى إلى رخاء، وتارة إلى علو وأخرى إلى سقوط وتارة إلى غنى وأخرى إلى فقر إنها تتصرف بهم وتوجههم كما تريد ومن كانت الدنيا هي التي تنغّص عليه حياته حق له أن لا يطمئن لها ولا يتخذها داراً. . .

٧ ـ العيش فيها مذموم: نعيم الدنيا مذموم حتى عند من يعيش لذته ونعيمه لأنه يؤدي إلى الغفلة عن الله من جهة ولأنه لا يصفو من جهة أخرى ولذا تسمع الشكوى من صاحب النعيم بمجرد أن يصاب ببعض الأذى. . .

٨ ـ والأمان منها معدوم: الإنسان هدف ترميه الدنيا بنبال فواجعها وتأتيه طوارقها بالليل وتزوره بالنهار فهو مهدد في صحته وفي ماله وفي سلطانه وفي معنوياته بل مهدد في وجوده وأي أمان واستقرار لإنسان قد يغمض عينيه ولا يفتحهما أو يتنفس بنفس لا يتبعه آخر. . .

٩ ـ وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتفنيهم بحمامها: أهل الدنيا ومن يعيش فيها هدف تتوجه إليه الدنيا بالمصائب والبلايا وترميه بسهام العلل والآفات وتقضي عليهم في النهاية بالموت الذي كتبه الله على عباده وأوجبه على خلقه.

وإذا كانت الدنيا هذه هي صفاتها وهذه هي أعمالها وأفعالها مع هذا الإنسان فكيف يطمئن إليها ويرتاح فيها بل كيف يسالمها أو يستسلم إليها، إن على هذا الإنسان أن يكون يقظاً متنبهاً يعرف مواطن أقدامه ويعرف كيف يتحرك للوصول إلى هدفه المتمثل برضى الله وإدراك جنته. . .

(واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعماراً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً) هذا تذكير للناس وتنبيه لهم بأحوال الماضين وأنهم على أثرهم سائرون، فلو أعاد الحاضرون الآن نظرهم في حال الماضين قبلهم وما انتهى إليه أمرهم لأخذوا العبرة وهيؤوا الزاد لهذا السفر الطويل وقد ذكر بعض خصائص الماضين ومع ذلك طواهم الموت.

ذكر طول أعمارهم وأنهم كانوا يعمّرون طويلاً أكثر من أجيالنا هذه وينقل لنا القرآن عمر نوح فكان ألف سنة إلا خمسين عاماً وتنقل الأحاديث أسماء من عمّروا مئات السنين.

وكذلك هم أعمر دياراً قال تعالى: ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها...**﴾[1] فقد عمّروا ديارهم ونحتوا بيوتهم في الصخور وتركوا اثارهم شاهدة عليهم حتى اليوم ومع هذا فقد طواهم الموت وسيطوي الحاضرين ويأخذهم كما أخذ الماضين...

(**أصبحت أصواتهم هامدة**) أخذ في وصف حالهم وما آلت إليه أمورهم بعد طول الأعمار وعمارة الديار ليعتبر الحاضرون بحالهم ويستعدوا لمآلهم...

فقد سكنت تلك الأصوات التي كانت ترتفع وتصرخ بل اختفت من الوجود وانعدمت من الأساس فلا تسمع لهم حساً...

(**ورياحهم راكدة**) أصبحت قوتهم وما كانوا عليه من الغلبة والسطوة في زاوية العدم، وذكرهم الذي كان يرعب الناس قد خمل وانطفأ...

(**وأجسادهم بالية**) فقد تحلّلت أجسادهم الناعمة القوية وتفتت فأصبحت رميماً في القبور وكم من قبر تفتحه لا تجد فيه غير بقايا ميت تحول إلى تراب...

(**وديارهم خالية**) فهذه ديارهم التي كانوا يسكنون فيها قد خلت منهم وتعطلت فهي فارغة تحكي فقدهم وبعدهم عنها.

(**وآثارهم عافية**) ما تركوه من تلك الديار قد اندرست وانمحت ولم يبق إلا الأطلال تحكي أنهم كانوا...

(**فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بني على الخراب فناؤها وشيد بالتراب بناؤها**) ففي دار الدنيا كانت لهم قصور عالية محكمة البناء قد تعبوا في رسم خرائطها وتنفيذها واتقنوا صنعها وكذلك كانت لهم الوسائد التي يتكئون عليها ويستريحون فهذه قد استبدلت بأضدادها فبدل القصور المشيدة حلّت الصخور والأحجار المسندة فقد بُنيت قبورهم

---

(١) سورة الروم، آية/ ٩.

بالأحجار والصخور التي تراكم بعضها على بعض اللاصقة بالأرض المشقوقة التي بناها بنّاؤها وهو يعلم أنها ستمتد إليها يد الخراب وستهدم في يوم ما وخصوصاً أنها قد بُنيت بالتراب الذي هو أسرع في التحلل والفناء والاندراس. . .

(فمحلها مقترب وساكنها مغترب) القبور متلاصقة لا يفصل أحدها عن الآخر إلا بعض خطوات وقد لا يفصلها إلا جدار بسيط ولكن أهل تلك القبور يعيشون الغربة فلا أنيس ولا صديق. . . ولا سمير ولا من إليه يُشكى أو منه يشتكى. . .

(بين أهل محلة موحشين) فهم أهل حي واحد بل دار واحدة ومع ذلك يستوحش الإنسان الحي منهم إذا دخل حيهم، فلا يستأنسون بالأحياء ولا الأحياء يستأنسون بهم. . .

(وأهل فراغ متشاغلين) فهم أهل فراغ لا تشغلهم أموالهم ولا أولادهم ولا أنفسهم كما هي حال أهل الدنيا ولكن مع ذلك في شغل كل بما ارتكب في الدنيا من عمل وما جنت يداه من الإثم. . .

(لا يستأنسون بالأوطان) فأهل الوطن الواحد يرتاحون لبعضهم ويعيشون فيما بينهم، يطردون الوحشة بالحديث والحوار والسمر واللقاء وأما الأموات فإنهم وإن كانوا أهل وطن واحد وهو عالم البرزخ ولكن مع ذلك في وحشة وعدم أنس. . .

(ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكه البلى وأكلتهم الجنادل والثرى) فهؤلاء الأموات يخالفون سنن الجيران في اللقاء والهدايا والتحيات فهم مع قربهم وجيرتهم فإنهم لا يزور أحـدٌ أحداً ولا يعرف أحد أحداً ولا يلتقي أحد مع أحد.

ثم استفهم مستنكراً لقاؤهم وأن يحدث شيء من ذلك بأنه كيف وقد صيرهم الموت رميماً وأفنتهم الحجارة والتراب، فقد شبّه البلى بالجمل الذي ألقى بصدره على عدوه فدقه وطحنه والمراد أنهم لا يمكنهم زيارة بعضهم لتفتت أجسامهم وانحلالها. . .

(وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه وارتهنكم ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع) هذا تذكير للحاضرين بأنهم سيلحقون بالماضين وأنهم على أثرهم وبأقصى سرعة ممكنة سيصيرون. . . إنهم سيصيرون إلى ما صاروا إليه من ضيق القبور بدل سعة القصور وسيعيش كلُ في قبره رهين عمله يضمه ذلك المستودع إلى أن يحين يوم الحساب فيكشف عنه ويقف بين يدي الله لنيل الجزاء. . .

(فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبعثرت القبور: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾) تذكير لهم بما يصيبهم يوم القيامة وأنهم إذا انتهت مدة إقامتهم في البرزخ وبعثرت القبور فخرج أهلها منها ففي تلك الأوقات الصعبة الحرجة الحاسمة تطلع كل نفس على ما كانت قد عملت فتجده محضراً وعندها يرجع الإنسان إلى الله ويتزيف الباطل وترد الدعاوى الفاسدة الضالة ويظهر الحق من الباطل والصحيح من الفاسد وهذا تخويف لهم وتذكير بشدة ذلك اليوم ليفزعوا إلى العمل الصالح. . .

٢٢٧ ـ ومن دعاء له عليه السلام

يلجأ فيه إلى الله ليهديه إلى الرشاد

ٱللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ[١] ٱلآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِٱلْكِفَايَةِ[٢] لِلمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ[٣] فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ[٤]. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ[٥]. إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ[٦] عَلَيْهِمُ ٱلْمَصَائِبُ[٧] لَجَؤُوا[٨] إِلَى ٱلاسْتِجَارَةِ[٩] بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ ٱلأُمُورِ[١٠] بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ[١١].

ٱللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ[١٢] عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي[١٣]، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي[١٤]، فَلَيْسَ ذلِكَ بِنُكْرٍ[١٥] مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلاَ بِبِدْعٍ[١٦] مِنْ كِفَايَاتِكَ.

ٱللَّهُمَّ ٱحْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلاَ تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

اللغة

١ ـ آنس : أشد أنساً والأنس ضد الوحشة.

٢ ـ الكفاية : ما يحصل به الاستغناء عن سواه.

٣ ـ تشاهدهم : تراهم، تحضرهم.

٤ ـ البصائر : جمع البصيرة الفطنة والعقل وهي للقلب كالعين الخارجية.

٥ ـ ملهوفة : مستغيثة صارخة بحسرة.

٦ ـ صُبّت : سُكبت وصبّ الماء سكبه وانصب الماء انسكب.

٧ ـ المصائب : جمع المصيبة البلية وكل أمر مكروه.
٨ ـ لجؤوا إليه : لاذوا إليه واعتصموا به.
٩ ـ استجار : فلاناً وبه استغاث به والتجأ إليه.
١٠ ـ أزمة الأمور : مقاليدها.
١١ ـ مصادرها عن قضائك : خروجها من تحت أمرك وحكمك.
١٢ ـ فههت : عييت.
١٣ ـ الطلبة : بكسر الطاء المطلوب.
١٤ ـ المراشد : مواضع الرشد.
١٥ ـ النكر : بالضم المنكر.
١٦ ـ البدع : بالكسر الأمر يكون أولاً أي الغريب غير المعهود.

الشرح

(اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك) هذا الدعاء تشويق للنفوس وترغيب لها أن تلتحق في ركب الله وطاعته وتستأنس بوجوده وعبادته وتخلو معه في سرها وانفرادها.

«اللهم» صرخة أشعرها من عمق النفس الضعيفة نحو مقام العزة الكاملة فأولياؤك الذين أخلصتْ نفوسهم لك وعبدوك وحدك دون سواك وتوجهوا إليك دون غيرك هؤلاء أشد المستأنسين بك بل أنسهم بك كامل غير منقوص لأن كل أنس بغيرك يشوبه شائبة تعكره أما الأنس بك لا يعكره شيء...

وإنك يا رب تكفي المتوكلين عليك بأبلغ ما يكون لأن المقتضى موجود والمانع مفقود فأنت أهل الجود والكرم والعطاء وهم عبادك الذين أخلصوا لك وتوكلوا عليك فرحمتك تصل إليهم بدون مانع أو حاجز...

(تشاهدهم في سرائرهم وتطلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم) فسرائرهم ودخائلهم تبصرها وتعرفها وهي سرائر إجلال لك وإكبار وتعظيم، وأنت تعرف كل ما يضمرون وهم لا يضمرون إلا الخير للناس والطاعة لك والالتزام بأمرك كما وأنك تعلم قدرة كل واحد منهم للكمال وبلوغ المراتب العالية لتفاوت هذه البصائر والعقول، فهو سبحانه يعلم من خفايا الناس وسرائرهم كل شيء ولا يخفى عليه شيء...

(فأسرارهم لك مكشوفة) هذا تأكيد لما تقدم وبيان لعلمه بباطن أمور أوليائه وأن كل أسرارهم ونواياهم ظاهرة له سبحانه يعلمها بتفصيلاتها وخصوصياتها.

(وقلوبهم إليك ملهوفة) قلوب الأولياء تعيش العشق لله والتلهف باستمرار لإدراك رحمته... إنها قلوب أحرقها الوجد وأضناها المسير نحو أعتاب قدسه فتراها باستمرار في شوق إليه ورغبة إلى رحمته ورضاه...

(إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك) إن عاشوا في دار الدنيا غرباء مستوحشين مما فيها فإنهم بذكر الله يستأنسون **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**.

(وإن صبت عليهم المصائب لجؤوا إلى الاستجارة بك علماً بأن أزمة الأمور بيدك ومصادرها عن قضائك) إذا نزلت عليهم البلايا والآفات رجعوا إلى الله واستغاثوا به لأنهم توكلوا عليه وكانوا معه في كل أمورهم وشؤون حياتهم وهم على يقين بأن الأمور كلها بيده يتصرف فيها كيف يشاء ومتى يشاء يدفع المصائب فلا تصل أو يرفعها بعد وقوعها، بمشيئته تكون وهي بتقديره تصدر فإذا أراد وقوعها هيأ أسبابها وإذا أراد زوالها أسقط أسباب بقائها واستمرارها وهكذا فعباد الله وأولياؤه يسلّمون أمورهم لله ويعلمون أنها كلها منه وبيده هو ينزلها وهو يرفعها...

(اللهم إن فههت عن مسألتي أو عميت عن طلبتي فدلني على مصالحي وخذ بقلبي إلى مراشدي فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع من كفاياتك) هذا هو بيت القصيد وهذا هو المطلب الأصيل الذي من أجله كانت هذه المقدمة.

إنه الإقرار بالعجز وإيكال الأمر إلى الله فهو الذي يتولى أموره.

اللهم يا رب إن عجزت وكلّ لساني عن إيضاح مسألتي وبيانها وما أريد وأحب وتحيرتُ في بيان مقصودي وما أطلب ولم أهتد إلى مصالحي ووجوه المنافع لي فأنت يا رب تولى هدايتي إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي ووجهني الوجهة الصحيحة السليمة إلى كل أمر فيه رشدي وصلاحي وما فيه نجاحي في مبدئي ومعادي.

ثم استعطف الله مجدداً بأن دلالته على مصالحه وما فيه رشده ليس أمر منكراً لم يعرفه بل جرت عاداته تعالى بها وتعوّدها العباد منه كما أن كفايته لعباده ليس أمراً حادثاً بل هي أمور قديمة يعرفها الخلق.

(اللهم أحملني على عفوك ولا تحملني على عدلك) وهذا طالب الرحمة... الإنسان العاصي... المخطىء فإنه عليه السلام المسدد من قبل الله المعصوم بإرادة الله

يعلمنا نحن كيف نتوجه إلى الله. . . يعلمنا أن نطلب من الله الرحمة والعفو. . . لا أن نشمخ ونظن أننا أمام الحساب أهل حق. . . بل بحكم العدل نكون عصاة. . . وبحكم العدل يُحكم علينا. . . بحكم العدل يجري علينا القصاص والعقاب. . . بينما بحكم العفو ننجو. . . ونجتاز العقبات. . . ونربح النتيجة السعيدة. . .

٢٢٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

يريد به بعض أصحابه

للهِ بَلاَءُ فُلاَنٍ(١)، فَلَقَدْ قَوَّمَ ٱلأَوَدَ(٢)، وَدَاوَى ٱلْعَمَدَ(٣)، وَأَقَامَ السُّنَّةَ(٤)، وَخَلَّفَ ٱلْفِتْنَةَ(٥)! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ(٦)، قَلِيلَ ٱلْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى ٱللهِ طَاعَتَهُ، وَٱتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ(٧)، لاَ يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلاَ يَسْتَيْقِنُ ٱلْمُهْتَدِي.

اللغة

١ ـ لله بلاء فلان : صيغة مدح متعارفة عند العرب فإنهم إذا أرادوا مدحه نسبوه إلى الله والبلاء هو العمل الطيب والحسن.

٢ ـ قوم الأود : عدّل الاعوجاج.

٣ ـ العمد : بالتحريك العلة والمرض.

٤ ـ أقام السنة : أحياها بالعمل بها.

٥ ـ خلف الفتنة : مات قبل حدوثها.

٦ ـ نقي الثوب : لم يذم.

٧ ـ متشعبة : متباينة مختلفة.

الشرح

(لله بلاء فلان فلقد قوم الأود وداوى العمد وأقام السنة وخلّف الفتنة ذهب نقي الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرها) هذا الكلام منه عليه السلام يمدح به بعض أصحابه ولعله الأشتر النخعي كما استظهره بعضهم وقد مدحه بعمله فقال: لله بلاء فلان وهي صيغة مدح متعارفة عند العرب فإنهم إذا أرادوا مدح أحد نسبوه إلى الله فقالوا:

لله دره ولله أبوه والإمام عليه السلام يمدح عمل هذا الإنسان وقد كانت أعمال الأشتر تستحق هذا المدح فقد كانت في سبيل الله ومن أجل الله مع ولي الله «فلقد قوم الأود» فما كان معوجاً وغير مستقيم من أمور المسلمين فقد قوّمه وعدله على طريق الله وقد كانت مواقفه سديدة وآراؤه صائبة.

وداوى العمد أي شفى أسقام النفوس وأمراضها بالمواعظ والزواجر وبالمواقف الصلبة التي انتصر فيها للحق وأوضح من خلالها العدل والاستقامة...

وأقام السنة: أحياها بعمله وسلوكه في الجهاد وفي كل المواقف المطابقة لها والموافقة للحق...

وخلف الفتنة: فقد ذهب إلى ربه دون أن يكون في أيامه فتنة فقد كان لحكمته ودهائه وحسن سياسته تجري الأمور على الموازين الصحيحة المانعة من الفتنة ولذا اختاره الإمام لولاية مصر لأنه يعرف ضبطه للأمور وحسن سياسته للبلاد...

ذهب نقي الثوب قليل العيب: انتقل إلى ربه شريفاً لم يُذم أو يُقدح فيه قليل العيوب كما هو عادة الأخيار الأبرار ولقد أبنّه الإمام بكلمته المشهورة عندما سئل عنه قال: كان مالك لي كما كنت لرسول الله صاحباً...

أصاب خيرها وسبق شرها: أصاب خيرها من تقويم الأود ومداواة العمد وإقامة السنة ومات قبل أن تصل إلى الحكم العصابة الأموية فيستشري شرها وينتشر.

(أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه) فقد التزم بالمواظبة على طاعة الله فكل أمر مطلوب امتثله وعمل بمضمونه واتقاه كما أراد بدون معصية ولا انحراف.

(رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي بها الضال ولا يستيقن المهتدي) مات وترك الخلق في طرق متشعبة متعددة ومختلفة لا توصل إلى الله ولا ترضيه ولتعددها واختلافها من خرج عن السبيل لا يعود يستطيع الهداية إليه ومن اهتدى إليه وسار عليه ليس على يقين أنه على الهدى والطريق السليم....

٢٢٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

في وصف بيعته بالخلافة

قال الشريف: وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة.

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا(١)، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ(٢) عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلإِبِلِ ٱلْهِيمِ(٣) عَلَى حِيَاضِهَا(٤) يَوْمَ وِرْدِهَا(٥)، حَتَّى ٱنْقَطَعَتِ النَّعْلُ(٦)، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ(٧)، وَوُطِىءَ(٨) الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ٱبْتَهَجَ(٩) بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ(١٠) إِلَيْهَا ٱلْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ(١١) نَحْوَهَا ٱلْعَلِيلُ(١٢)، وَحَسَرَتْ(١٣) إِلَيْهَا ٱلْكِعَابُ(١٤).

اللغة

١ ـ **كففتها** : رددتّها.
٢ ـ **التداك** : التزاحم، وتداككتم تزاحمتم.
٣ ـ **الهيم** : العطاش.
٤ ـ **الحياض** : جمع حوض وهو مجتمع الماء.
٥ ـ **الورد** : بالكسر الشرب.
٦ ـ **النعل** : الحذاء، ما وقيت به القدم من الأرض.
٧ ـ **الرداء** : الثوب.
٨ ـ **ووطىء** : ديس.
٩ ـ **ابتهج** : فرح.
١٠ ـ **هدج** : مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً.
١١ ـ **التحامل** : تكلف الأمر مع المشقة.
١٢ ـ **العليل** : المريض.

١٣ ـ **حسرت** : كشفت عن وجهها.
١٤ ـ **الكعاب** : كسحاب الجارية نهد ثديها أي برز وامتلأ.

الشرح

(وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطىء الضعيف) هذا الكلام منه عليه السلام في وصف بيعته يتوجه به إلى الناكثين كي يكفوا لأن من تمت له البيعة بهذه المثابة لم يكن لأحد أن يخرج عليه أو ينكث بيعته وقد بيّن أنه عليه السلام أخذوا يده فبسطوها للبيعة فكان يمتنع عنها وكانوا يمدونها وهو يقبضها كناية عن تمنعه وعدم رغبته بالخلافة لأنه يعلم ما سيجري ويحدث ولكنهم رغم امتناعه ورفضه ازدحموا عليه ازدحاماً شديداً يدفع بعضهم بعضاً وقد شبههم بما يرونه، شبههم بالإبل العطاش التي سرحت يوم شربها فإنها تزدحم ويدفع بعضها بعضاً كل واحد يريد الوصول إلى الماء والإرتواء منه وأخذ نصيبه وهؤلاء قد اجتمعوا على الإمام كل يريد أن يصل إليه ليبايعه ويصفّق على يمينه حتى بلغ من شدة الإزدحام أن انقطع الحذاء لأن بعضهم يدوس على أرجل البعض وسقط الرداء بحيث اشتغل كل بنجاة نفسه من هذا الازدحام فأدى إلى سقوط الرداء وبلغ من اشتغال الناس وازدحامهم أنهم لم ينتبهوا إلى الضعيف فوطىء وديس وهذا لا يكون إلا عند الاضطرار وعدم الانتباه من أجل أمر مهم. . .

(وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب) وهذا خروج عن العادة وأن من لا يهمه ذلك ومن ليس من شأنه كالصغير فإنه فرح ببيعة الإمام وانشرح لها وتحرك نحوها الهم الكبير الذي لا يستطيع المشي إليها إلا بمشقة لفرحه وسروره مشى متحملاً المشقة والتعب وحتى المريض تحامل على نفسه وتكلف المجيء للبيعة رغبة في إتمامها لأهلها.

وحسرت إليها الكعاب فالصبايا اللاتي من شأنهن الستر والعفاف حسرن فرحاً بذلك ورغبن فيها وإذا كان كل هؤلاء قد أقدموا على البيعة وفرحوا بها فحق أن لا يخرج أحد عليها أو ينكثها ولكن القلوب المريضة مهما جئتها بألف آية وآية تبقى على مرضها ولن يشفيها إلا حد السيف. . .

٢٣٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في مقاصد أخرى

فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ[١]، وَذَخِيرَةُ[٢] مَعَادٍ[٣]، وَعِتْقٌ[٤] مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ[٥]، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ[٦]. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو ٱلْهَارِبُ، وَتُنَالُ[٧] الرَّغَائِبُ[٨].

فضل العمل

فَٱعْمَلُوا وَٱلْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَٱلْحَالُ هَادِئَةٌ، وَٱلأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا[٩] بِٱلأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً[١٠]، أَوْ مَرَضاً حَابِساً[١١]، أَوْ مَوْتاً خَالِساً[١٢]. فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ[١٣] شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ[١٤]. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ[١٥] غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ[١٦] غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ[١٧] حَبَائِلُهُ[١٨]، وَتَكَنَّفَتْكُمْ[١٩] غَوَائِلُهُ[٢٠]، وَأَقْصَدَتْكُمْ[٢١] مَعَابِلُهُ[٢٢] وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ[٢٣]، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ[٢٤]، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ[٢٥]. فَيُوشِكُ[٢٦] أَنْ تَغْشَاكُمْ[٢٧] دَوَاجِي[٢٨] ظُلَلِهِ[٢٩] وَٱحْتِدَامُ[٣٠] عِلَلِهِ[٣١]، وَحَنَادِسُ[٣٢] غَمَرَاتِهِ[٣٣]، وَغَوَاشِي[٣٤] سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ[٣٥]، وَدُجُوُّ[٣٦] أَطْبَاقِهِ[٣٧]، وَجُشُوبَةُ[٣٨] مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً[٣٩] فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ[٤٠]، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ[٤١]، وَعَفَّى آثَارَكُمْ[٤٢]، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ[٤٣]، بَيْنَ حَمِيمٍ[٤٤] خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ[٤٥] لَمْ يَجْزَعْ[٤٦].

فضل الجد

فَعَلَيْكُمْ بِٱلْجِدِّ[٤٧] وَٱلاجْتِهَادِ، وَٱلتَّأَهُّبِ وَٱلاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ. وَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ، وَٱلْقُرُونِ ٱلْخَالِيَةِ[٤٨]، الَّذِينَ ٱحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا[٤٩]، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا[٥٠]، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا[٥١]. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً[٥٢]، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً. لاَ يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلاَ يَحْفِلُونَ[٥٣] مَنْ بَكَاهُمْ، وَلاَ يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَٱحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لاَ يَدُومُ رَخَاؤُهَا[٥٤]، وَلاَ يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا[٥٥]، وَلاَ يَرْكُدُ[٥٦] بَلاَؤُهَا[٥٧].

ومنها في صفة الزهاد: كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ[٥٨] أَهْلِ ٱلآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

اللغة

١ ـ **السداد**	:	بالفتح الصواب من القول والعمل.
٢ ـ **الذخيرة**	:	جمعها ذخائر ما خبأه لوقت الحاجة، ما أعده لدنياه أو لآخرته.
٣ ـ **المعاد**	:	المرجع والمصير.
٤ ـ **عتق**	:	تحرير.
٥ ـ **الملكة**	:	بالتحريك مملوك، مستبد به قادر عليه.
٦ ـ **الهلكة**	:	بالتحريك الهلاك.
٧ ـ **تنال**	:	تدرك.
٨ ـ **الرغائب**	:	الأمور المرغوبة، العطاء الكثير.
٩ ـ **بادروا**	:	أسبقوا وأسرعوا.

١٠ ـ النكس : أن يقلب الرأس إلى الأسفل والرجلين تصبحان فوق.
١١ ـ الحابس : المانع.
١٢ ـ الخالس : المختطف وخلس الشيء خطفه.
١٣ ـ الكدر : ضد الصافي.
١٤ ـ الطيات : جمع طية بالكسر منزل السفر.
١٥ ـ القرن : بالكسر الكفؤ في الشجاعة.
١٦ ـ الواتر : الجاني.
١٧ ـ أعلقتكم : جعلتكم معتلقين فيها.
١٨ ـ الحبائل : جمع حبالة المصيدة من الحبال.
١٩ ـ تكنفتكم : أحاطتكم.
٢٠ ـ الغوائل : المصايب والدواهي.
٢١ ـ أقصدتكم : أصابتكم.
٢٢ ـ المعابل : جمع معبلة وهو النصل الطويل العريض.
٢٣ ـ السطوة : القهر والغلبة.
٢٤ ـ العدوة : التعدي والظلم.
٢٥ ـ نبوته : من نبا السيف إذا كلّ ولم يؤثر.
٢٦ ـ يوشك : يقرب.
٢٧ ـ تغشاكم : تحيط بكم.
٢٨ ـ الدواجي : جمع داجية أي مظلمة.
٢٩ ـ الظلل : جمع الظلة أي السحابة.
٣٠ ـ الاحتدام : الاشتداد.
٣١ ـ علله : أمراضه.
٣٢ ـ الحنادس : الظلمات.
٣٣ ـ الغمرات : الشدائد.
٣٤ ـ الغواشي : الطامات الغامرات.
٣٥ ـ إرهاقه : إعجاله من أرهقه إذا أعجله أو حمله ما لا يطاق.
٣٦ ـ الدجو : الظلام.
٣٧ ـ الأطباق : جمع طبق وهو الغطاء للشيء.
٣٨ ـ الجشوبة : غلظ الطعام وخشونته.
٣٩ ـ بغتة : فجأة.
٤٠ ـ النجي : مَنْ تناجيه وتتكلم معه أو القوم يتناجون.
٤١ ـ النديّ : القوم يجتمعون في النادي وهو المجتمع.

٤٢ ـ عفى الآثار	:	محاها.
٤٣ ـ التراث	:	الميراث.
٤٤ ـ الحميم	:	الصديق.
٤٥ ـ الشامت	:	الذي يفرح ببلية غيره.
٤٦ ـ جزع	:	حزن.
٤٧ ـ الجد	:	الاجتهاد، ضد الهزل.
٤٨ ـ الخالية	:	الماضية.
٤٩ ـ الدرة	:	بالكسر اللبن.
٥٠ ـ الغرة	:	بالكسر الغفلة.
٥١ ـ أخلقوا جدتها	:	جعلوا جديدها قديماً خلقاً بالياً.
٥٢ ـ الأجداث	:	القبور.
٥٣ ـ لا يحفلون	:	لا يبالون والاحتفال بالشيء الاعتناء به.
٥٤ ـ الرخاء	:	السعة والرفاهية.
٥٥ ـ العناء	:	التعب.
٥٦ ـ لا يركد	:	لا يسكن.
٥٧ ـ بلاؤها	:	مصائبها.
٥٨ ـ ظهرانيهم	:	بفتح النون وسطهم.

الشرح

(فإن تقوى الله مفتاح سداد) في هذه الخطبة حث على التقوى ووجوب العمل الصالح والمبادرة إليه كما أن فيها تأكيد على أعمال البر والخير وأن يستعد الإنسان لما بعد الموت.

وابتدأ عليه السلام بذكر التقوى وقد ذكر لها عدة آثار.

فإن تقوى الله مفتاح سداد: وكونها كذلك لأن السداد هو الصواب والاستقامة ولما كانت التقوى هي الخشية من الله والخوف منه فإنها تجعل الإنسان يقوم بالواجبات ويترك المحرمات وبذلك يحقق الاستقامة ويكون ذلك سبباً للاستقامة ومنه يفتح الطريق إلى الصواب...

(وذخيرة معاد) فإن تقوى الله أفضل ما يحرزه الإنسان ويعدّه لأيام حاجته وفاقته وأصعب أيام الحاجة تلك التي تكون القيامة للحساب فإن التقوى المتجسدة بالأعمال

الصالحة هي أفضل ذخيرة لذلك اليوم. . .

(وعتق من كل ملكة) والتقوى تعتق الإنسان وتحرره من كل ما يملكه فإن الإنسان المتقي يتحرر من شهوات النفس والبطن والفرج ومن العشيرة والحزب والقومية والجغرافيا وكل أمر يخالف إرادة الله. . .

(ونجاة من كل هلكة) فإن الأتقياء هم العاملون بأمر الله المنفذون لإرادته وبهذه الصفة ينجون من الهـلاك والعذاب فالتقوى هي التي تأخذ بيد الإنسان للنجاة من العذاب والهلاك. . .

(بها ينجح الطالب) بهذه التقوى ينجح ويفوز من يطلب الآخرة والدنيا أما في الآخرة فقد كان الأجر والثواب منوطاً بها فمن اتقى الله أدرك الآخرة ونجح في إدراك بغيته أما في الدنيا فإن صاحب التقوى ينجح في كل أمر يريده لاحترام الناس له وتقديرهم لواقعه وصحة سلوكه وحركته.

(وينجو الهارب) بالتقوى ينجو الهارب من النار لأنها السد المنيع الذي يحجز النار أن تطال هذا الإنسان المتقي.

(وتنال الرغائب) بهذه التقوى ينال الإنسان ما يرغب ويشتهي من الآخرة ولذاتها ومسراتها وما فيها من حور وقصور ونعيم مقيم. . .

(فاعملوا والعمل يرفع) نبه عليه السلام على وجوب العمل الصالح وقد رغّب فيه لاعتبارات منها أن ما يعمله الإنسان في الدنيا خالصاً لوجه الله يرفع إلى الله ومعنى رفعه إليه أنه يقبل عنده ويُثيب فاعله.

(والتوبة تنفع) فإن التوبة تكون في الحياة ومن تاب تاب الله عليه ومن تاب من الذنب كان كمن لا ذنب له، فإن التوبة تنفع في إسقاط الذنوب ومحو السيئات بل ربما تحولت السيئات إلى حسنات كما قال تعالى: **﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾**[١].

(والدعاء يسمع) فإن الله أمرنا بالدعاء وأخذ على نفسه الاستجابة ومن استجاب الله له فقد أدرك ما يريد قال تعالى: ادعوني أستجب لكم. . .

(والحال هادئة) أي حال الإنسان هادئة تستطيعون العمل وليس هناك في الآخرة

(١) سورة الفرقان، آية/ ٧٠.

حالة هادئة بل هي في أشد الاضطراب.

(والأقلام جارية) أي أقلام الملائكة تكتب ما تقولون وتفعلون فاتعبوا لكي تكتب لكم الحسنات والأعمال الصالحة...

(وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً أو مرضاً حابساً أو موتاً خالساً) أمرهم أن يسرعوا في الأَعمال الصالحة ويستغلوا الفرصة السانحة من أجل هذا الزاد الكريم... أسرعوا إلى الأعمال الصالحة قبل أن يرتد بكم الأمر إلى أرذل العمر فإن من تكتب له الحياة ويعيش قد يصل إلى عمر يرتفع معه التكليف لخرف وهرم فيعود كما بدأ وكأنه طفل صغير لا يكسب حسنة ولا يجني فائدة.

وقد يكون مرضاً يحبسه عن العمل فيجب أن يغتنم وقت صحته وشبابه لاكتساب الحسنات والأعمال الصالحة.

وقد يكون موتاً يأتيه فجأة فيأخذه على حين غرة فيتعطل العمل ويتوقف السعي.

وإن الإنسان لو فكّر في هذه الحالات وإمكان طروها عليه في كل ساعة من ساعاته لبادر مسرعاً وبدون توقف نحو العمل والجدّ فيه فإنها فرصة قد يضيق مجالها أو يمتنع فيها المجال عن العمل...

(فإن الموت هادم لذاتكم ومكدر شهواتكم ومباعد طياتكم) وهذا أهم مذكّر للإنسان وبه يندفع نحو العمل ويسرع للقيام بالصالحات... ومن هو الذي تصور الموت ثم بقي في لذته مسروراً؟! ومن هو الذي ذكره وصفت له الدنيا وما يريد؟! إنه الموت الذي يزيل اللذات ويحوّل أجواءها إلى كآبة ويكدّر الشهوات ويجعلها منغصات... إنه الموت يباعد أسفاركم عن الدنيا أو يباعد بين ما تنون وما تعملون لأنه يقطع الأمنيات...

(زائر غير محبوب) وهذا زائر غير الزوّار الآخرين ففي الوقت الذي يكون الزائر محبوباً يهش له المزار فإن الموت زائر غير محبوب ولا مرغوب لأنه زائر يأخذ الحبيب من حبيبه والولد من والده وهكذا...

(وقرن غير مغلوب) فهو ندٌّ لكم ومقابل إذا تصارعتم معه لا يغلب ولا يقهر بل تكون الغلبة والقهر عليكم...

(وواتر غير مطلوب) إنه يقتل الناس ولا يقدرون على أخذ ثأرهم منه أو إدراكه بشيء يغلبونه به...

(قد أعلقتكم حبائله) فإن حبائل الموت قد أحكمت خيوطها عليكم ووقعتم في مصيدتها وهذه الأمراض والآفات كلها قد دخلت أبدانكم تنذركم بالموت. . .

(وتكنفتكم غوائله) أحاطت بكم مصائبه التي تغتالكم وتقضي عليكم.

(وأقصدتكم معابله) توجهت إليكم شفاره ونصاله القاتلة وهي كناية عن أمراضه وعلله وآفاته. . .

(وعظمت فيكم سطوته) استفحل قهره لكم وظلمه فيكم ولا تستطيعون رفع شيء منه عنكم أو رده عن ساحتكم.

(وتتابعت عليكم عدوته) فهو دائماً يعتدي عليكم ويشن غاراته فيكم فظلمه لكم مستمر لا يهدأ.

(وقلّت عنكم نبوته) لا تخطىء ضرباته من قصده، فإذا ضربكم أصاب وأثّرت ضربته فيكم فليس هو كالسيف الذي قد لا يؤثر في مضروبه. . .

(فيوشك أن تغاشكم دواجي ظلله) خوفهم من قرب ما يحل بهم من الموت ومقدماته فعن قريب تحيط بكم ظلمات سحائبه التي هي الأمراض والعلل المستعصية ومن كان الموت يطلبه فإنه واقع به لا محالة لا يدري متى يسقط عليه ويحل فيه. . .

(واحتدام علله وحنادس غمراته) بيان لبعض ما يحل بهذا الإنسان المطلوب للموت فإن أسباب الموت ستزدحم عليكم وتتسابق كما أن شدائده وكربه ستتراكم عليكم وتتجمع. . .

(وغواشي سكراته وأليم إرهاقه) أجارنا الله من تلك الحالات الصعبة ساعة الموت عندما تشتد سكراته فيفقد الإنسان وعيه من شدة الألم وعظيم وقعه. . . حينما يهجم الموت فيفقد الإنسان تماسكه ويسقط من شدته. . .

(ودجو أطباقه وجشوبة مذاقه) حيث تتراكم شدائده شدة فوق شدة وتزداد آلامه ألماً فوق ألم ويتحول طعمه عند الإنسان إلى أمر لا يستسيغه أو يستطيع ابتلاعه وهل يمكن للإنسان أن يستمرىء الموت أو يستسهل تجرعه؟ . . .

(فكأن قد أتاكم بغتة فأسكت نجيكم وفرّق نديكم) هذا تخويف لهم وتحذير وأنه ربما أتاكم فجأة بدون إنذار أو تحذير فإذا جاء والحال كذلك فإنه يسكت المتناجين المتحاورين في حب ورضى وسرور وأنهم سيسكتون إلى الأبد وأما المجتمعون في ناديهم يتبادلون قضاياهم ويدرسون شؤونهم قد توقف اجتماعهم وتفرقوا إلى لا لقاء. . .

(وعفى آثاركم وعطل دياركم) درس ما عمرتموه ومحاه من صفحة الوجود وبقيت دياركم خالية ليس فيها أنيس أو جليس فإن الموت يقضي على الإنسان وإذا قضى عليه خلت الديار وخربت. . .

(وبعث وراثكم يقتسمون تراثكم) وهكذا يموت السلف فيأتي الخلف لتوزيع الميراث وتقسيمه فيما بينهم والعاقل من يعمل في ماله ما يحب دون أن ينتظر توريث من خلفه. . .

(بين حميم خاص لم ينفع وقريب محزون لم يمنع وآخر شامت لم يجزع) وهذه هي حالات الناس مع هذا الصريع الذي حلّ فيه الموت فهذه الصداقة الحميمة التي كانت تربطه بالآخرين لم تنفع ولم تفيد لقد سقطت أمام الموت كل العلاقات الحميمة.

وكذلك لم يمنع الموت قريب محزون من أب أو ابن أو أخ أو أي قريب لما حلّ بهذا الحبيب. . . فالحزن والتأثر لم يمنع الموت من حلوله وسقوطه.

وفي مقابل هذا الذي يتأثر له من حميم أو قريب هناك الشامت الذي لم يحزن أو يتأثر بل تفرح نفسه لما حل بهذا الإنسان وعلى كل حال فالناس بأحوالهم المختلفة لن يؤثروا في دفع الموت أو رفعه بل لا بد من وقوعه وحلوله وإذا كان هذا هو الواقع فلا بد للإنسان من الاستعداد وأخذ الأهبة لهذه الساعات الصعبة. . .

(فعليكم بالجد والاجتهاد والتأهب والاستعداد والتزود في منزل الزاد) بعد أن ذكر الموت وعوارضه وما يلحق مَنْ حلّ به من كرب وشدائد توجه إلى الناس وأوصاهم بما ينفعهم بأن يشمروا عن سواعد الجد والنشاط ويبذلوا طاقتهم وقدرتهم في العمل الصالح. . . أن يتأهب الإنسان ويستعد ويأخذ بالأسباب التي هي الأعمال الصالحة من القيام بالواجبات وترك المحرمات وفعل الخيرات ويتزود منها وهو في دار الدنيا التي فيها فإن الدنيا دار عمل والآخرة دار حساب. . .

(ولا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين احتلبوا درتها وأصابوا غرتها وافنوا عدتها وأخلقوا جدتها) نهاهم أن يغتروا بالحياة وزينتها وما فيها كما غرّت من كان قبلهم من الأمم السابقة والقرون المتقدمة ثم وصف الذين تقدموا بأنهم أدركوا في غفلة من الدنيا بعض منافعها فاستمتعوا بها ولكنها لم تغفل عنهم ولم تتركهم وكذلك فإنهم انتفعوا ببعض منافعها وفوائدها وأبلوا بعض جديدها ولكن مع ذلك لم تمهلهم حتى أفنتهم وأخرجتهم عنها. . .

(وأصبحت مساكنهم أجداثاً وأموالهم ميراثاً لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من

بكاهم ولا يجيبون من دعاهم) هذه نهاية هؤلاء الناس الماضين الذين تمتعوا ببعض زينة الحياة الدنيا وغرهم ما فيها فتجاوزوا الحدود إنهم ماتوا فأصبحت مساكنهم التي كانوا يسكنون بها قبوراً لهم تضمهم جوانبها وأموالهم التي خلفوها ميراثاً للورثة يتنعمون بها. . .

إنهم في غربة تامة وفي عالم آخر مفصول عن عالم الدنيا فلذا تختلف حالاتهم. . . لا يعرفون من أتاهم للزيارة سواء كان من الأقرباء أم البعداء من الأحباب أم المبغضين. . . إنهم لا يبالون بمن بكاهم ولا يتأثرون لبكائه كما أنهم لا يجيبون من دعاهم وناداهم، لقد عاشوا بعيدين عن حالات الناس التي يعيشها أبناء الدنيا. . .

(فاحذروا الدنيا فإنها غدارة غرارة خدوع) احذروا الدنيا ألف مرة ومرة، احذروها حذر العدو الذي يتربص بكم الدوائر فإنها كثيرة الغدر بأهلها تفترسهم وتغر الناس ببعض حلاوتها فيغترون بها كما أنها تخدع أهلها فتظهر لهم خلاف ما تبطن، تظهر لهم لينها وحلاوتها وفي حقيقتها تبطن القساوة والمرارة فهي تظهر خلاف ما تبطن. . .

(معطية منوع ملبسة نزوع) إنها تعطي في الظاهر ولكنها تمنع في الواقع لم تقدّم شهدها إلا لتصطاد فريستها ولم تلبس روادها بعض زينتها ورياشها إلا نزعت ذلك اللباس عنهم ولو بالموت.

(لا يدوم رخاؤها ولا ينقضي عناؤها ولا يركد بلاؤها) وهذه هي الدنيا باختصار فأيام الرخاء والهناء والغنى والثروة والجاه والسلطان كل ذلك لا يدوم بل تأتي عليه الأحداث فتزيله.

وأما أيام التعب والشقاء فإنها أيام لا تنقضي أو تزول بل هي دائمة مستمرة والمرء يكابد المشقة والتعب من أول يوم ولد حتى آخر أيامه في الدنيا فعندما يخرج إلى الدنيا يصرخ منها وعندما يخرج منها يبكي منها وعليها. . . وأما بلاؤها وهي مصائبها ومشاكلها فإنها تشتد وتزداد كلما ازداد عمر الإنسان وكبر. . .

(كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها فكانوا فيها كمن ليس منها) قالوا: إنه عليه السلام يصف بعض أصحابه الذين درجوا قبله وقالوا: إنه يصف بعض الزهاد وعلى كل فالعبرة بعموم الوصف فإنهم قوم كانوا من أهل الدنيا بأجسامهم يعيشون مع الناس في صورتهم ويتحركون كما يتحركون ولكنهم بقلوبهم ليسوا معهم بل قلوبهم متعلقة بالآخرة تنظر إليها وتعمل لها وتحسب حسابها فهم فيها وكمن ليس فيها. . .

(عملوا فيها بما يبصرون وبادروا فيها ما يحذرون) هم على بصيرة من أمرهم ويقين

من حركتهم وما يؤول إليه حالهم... فهم يعرفون الآخرة ونعيمها ومصيرها وهم على يقين من ذلك فيعملون ما يحقق لهم ترك كل المحرمات والممنوعات وفعل كل الواجبات والمطلوبات وإنهم في سباق مع الموت يريد أن يخطف أرواحهم قبل إتمام أعمالهم وهم يسبقونه في إكمالها وإتمامها قبل حلوله...

(تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة ويرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحيائهم) فإنه لما كانت أعمالهم صالحة فهم كأنهم في الجنة مع أهل الآخرة باعتبار وصولهم إلى ما وصلوا إليه.

أو باعتبار أنهم في الدنيا لا يعاشرون إلا أهل التقوى والإيمان.

ثم حكى بلسان أهل العرفان ونظرتهم التي تختلف عن نظر أهل الدنيا، ففي حين أن أهل الدنيا إذا مات إنسان منهم يعظمون موت جسده بينما هم ـ أهل العرفان ـ يعظمون موت قلوب الأحياء فإنه الموت الحقيقي الجدير أن يعظم ويكبر ويهتم به الناس...

٢٣١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

خطبها بذي قار[١]، وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب «الجمل»:

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ [٢] ٱللهُ بِهِ الصَّدْعَ[٣]، وَرَتَقَ[٤] بِهِ ٱلْفَتْقَ[٥]، وَأَلَّفَ[٦] بِهِ الشَّمْلَ[٧] بَيْنَ ذَوِي ٱلأَرْحَامِ، بَعْدَ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْوَاغِرَةِ[٨] فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ[٩] ٱلْقَادِحَةِ[١٠] فِي ٱلْقُلُوبِ.

اللغة

١ ـ ذو قار : موضع قريب البصرة كانت فيه وقعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام.

٢ ـ لمّ : جمع.

٣ ـ الصدع : الشق وصدع بالحق تكلم به جهاراً.

٤ ـ الرتق : ضد الفتق، خاط وألحم.

٥ ـ الفتق : نقض خياطة الثوب فينفصل بعض أجزائه عن بعض.

٦ ـ ألّف : الشيء وصل بعضه ببعض وألف الكتاب جمعه.

٧ ـ الشمل : ما اجتمع من الأمر ويقال: فرّق الله شملهم أي ما اجتمع من أمرهم.

٨ ـ الواغرة : ذات الوغرة وهي شدة توقد الحر.

٩ ـ الضغائن : الأحقاد.

١٠ ـ القادحة : من قدح بالزند رام الإيراء به والقادحة في القلوب كأنها تقدح النار فيها.

الشرح

(فصدع بما أمر به وبلغ رسالات ربه فلمّ الله به الصدع ورتق به الفتق وألّف به الشمل بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور والضغائن القادحة في القلوب) هذه الخطبة خطبها الإمام في منطقة ذي قار قرب البصرة وهو متوجه إلى قتال الناكثين

وفيها بذكر أوصاف رسول الله وشمائله الحميدة وأفعاله العظيمة.

فابتدأ بذكر دعوته صلوات الله عليه وأنه أعلنها للناس وجهر بها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فأصدع بما تؤمر...﴾ وقد مزق من خلال دعوته والجهر بها زمر الكفر وفرق شملهم وبلّغ رسالات ربه إلى جميع الناس حتى وصلت إلى كل مكان فبلغت كسرى وقيصر والنجاشي وسمع بها الملوك والسوقة والحكام والشعوب.

وكان من نتيجة هذه الرسالة أن جمع الله به القلوب وارتفعت الخلافات والنزاعات وما كان يجري بين الناس من العداوة والقتال.

لقد حل الوفاق بعد الخلاف والاجتماع بعد الفرقة والحب بعد العداوة والمودة والصلح بعد البغض والحرب لقد تبدلت الأمور بأضدادها لقد كانت تقطّع الأرحام وتتناحر الأسرة الواحدة وتشن الحروب والمعارك كانت القلوب تغلي بالحقد وكانت العداوة تسري في النفوس فأبدلها الله ببركة رسول الله بأضدادها...

وإن من قرأ تاريخ العرب وماضيهم في أيام جاهليتهم وقارنها بأيام الإسلام في زمن رسول الله لا يشك إنها كانت طفرة معجزة خارقة للعادة لا يمكن تفسيرها بحسب قوانين الاجتماع والمدنية فإن هذه النقلة النوعية لا يمكن أن تحدث بهذه السرعة بل لا بدّ لها من قرون حتى تحصل وبشكل تدريجي وتصل بعدها إلى ما وصلت إليه... إنها تعاليم الإسلام ومبادئه على يد القادة الرساليين تقطع بلحظات ما يقطعه غيرها في سنوات... إنها خطابات الله التي تخاطب هذه النفوس بما تعرف أنه علاجها الحاسم... تخاطب هذه النفوس بما تحتاجه وتتوق إليه ويعيش في داخلها ولذا حدثت هذه الطفرة ويمكن أن تحدث في كل وقت...

٢٣٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

كلم به عبد الله بن زمعة، وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام:

إِنَّ هـذَا ٱلْمَـالَ لَيْسَ لِـي وَلاَ لَـكَ، وَإِنَّمَـا هُـوَ فَـيْءٌ(١) لِلْمُسْلِمِيـنَ، وَجَلْبُ(٢) أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ(٣) فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ(٤)، وَإِلاَّ فَجَنَاةُ(٥) أَيْدِيهِمْ لاَ تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

اللغة

١ ـ الفيء : في اللغة الرجوع وعند الفقهاء الخراج وقيل: إنه ما أخذ من الكفار بغير قتال الغنيمة.

٢ ـ الجلب : المال المجلوب.

٣ ـ شركتهم : شاركتهم.

٤ ـ حظهم : نصيبهم وسهمهم.

٥ ـ الجناة : بفتح الجيم ما يجنى أي يقطف.

الشرح

(إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم) بيان لنزاهة حكمه وشدة عدله وفي هذا الكلام يرسم سياسته المالية في التوزيع وسيرته فيه وقد استطاع أن يسنّ للشرفاء أروع طريقة مبدئية يسيرون عليها مهما كلفهم الأمر...

وهذا الرجل مصداق تنفّذ عليه هذه الخطة العلوية جاءه عبد الله بن زمعة يطلب منه مالاً فأجابه بهذا الجواب الحاسم القاطع.

إن هذا المال ليس لي حتى أعطيك منه وأظهر كرمي فيه ولا لك حتى أوصله إليك وبعد أن نفى ذلك بيّن أنه فيء للمسلمين وغنيمة لهم ضربوا بسيوفهم أعداء الله حتى غنموه وأتوا به فإن شاركتهم في الحرب أشتركت معهم في الغنيمة وكان لك سهمك المقدّر منه وحصّتك المعينة المفروضة وإلا إذا لم تشترك معهم في الحرب فليس لك شيء فإن أتعابهم تعود إليهم فحسب وهم الذين ينبغي أن يتمتعوا بما غنموا وليس من العدل والإنصاف رجل يغرم وآخر يغنم بل الغرم بالغنم وبمقدار جهاد الإنسان يحصل على نتيجة...

وفي هذا النص العلوي درس رائع لكل الحكام والملوك والأمراء وأصحاب الوظائف والمراتب العالية... درس في النزاهة والحفاظ على حقوق المسلمين كي يضعوها في مواضعها دون محاباة لأحد على حساب أحد...

ترجمة عبد الله بن زمعة:

عبد الله بن زمعة بفتح الميم بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي أمه قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة أم المؤمنين.

قال ابن حجر إنه من الصحابة وأنه استشهد يوم الدار مع عثمان ولكن هذا يتنافى وقول الرضي هنا...

٢٣٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

بعد أن أقدم أحدهم على الكلام فحصر، وهو في فضل أهل البيت، ووصف فساد الزمان.

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ(١) مِنَ ٱلإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ(٢) ٱلْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ(٣) إِذَا ٱتَّسَعَ. وَإِنَّا لأُمَرَاءُ ٱلْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ(٤) عُرُوقُهُ(٥)، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ(٦) غُصُونُهُ.

فساد الزمان

وَٱعْلَمُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ ٱلْقَائِلُ فِيهِ بِٱلْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ(٧)، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ(٨) عَلَى ٱلْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ(٩) عَلَى ٱلإِدْهَانِ(١٠)، فَتَاهُمْ(١١) عَارِمٌ(١٢)، وَشَائِبُهُمْ(١٣) آثِمٌ(١٤)، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ(١٥) مُمَاذِقٌ(١٦). لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلَا يَعُولُ(١٧) غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

اللغة

١ ـ بضعة : قطعة.

٢ ـ فلا يسعده : لا يُعينه.

٣ ـ النطق : اللفظ الخارجي والكلام.

٤ ـ تنشّبت : علقت وثبتت.

٥ ـ العروق : جمع عرق وهو أصل كل شيء وعروق البدن أوردته التي يجري فيها الدم.

٦ ـ تهدّلت : تدلّت.

٧ ـ كلّ لسانه : نبا عن الغرض والكلال التعب والإعياء.

٨ ـ عكف في المكان	:	أقام فيه ولازمه واعتكف احتبس وتوقف ولبث.
٩ ـ اصطلحوا	:	اتفقوا.
١٠ ـ الإدهان	:	المداهنة وهي الإظهار خلاف ما يضمر.
١١ ـ فتاهم	:	الفتى الشاب الحدث.
١٢ ـ عارم	:	شرس، سيىء الأخلاق، المؤذي.
١٣ ـ الشائب	:	من الشيب وهو بياض الشعر وهو مقابل الفتى.
١٤ ـ آثم	:	عاص.
١٥ ـ القاري	:	الناسك العابد.
١٦ ـ المماذق	:	غير المخلص.
١٧ ـ لا يعول	:	لا يقوم بمعاشهم.

الشرح

(ألا وإن اللسان بضعة من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع) هذا الكلام منه عليه السلام قاله عندما أمر ابن أخته أم هاني واسمه جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب الناس فلما صعد المنبر أحصر ولم يستطع الكلام فصعد عندها الإمام المنبر وقال هذه الكلمات: إن اللسان جزء من الإنسان يتأثر إذا تأثر الإنسان سلباً وإيجاباً ويتكيف طبقاً لنفسية هذا الإنسان وما تربى عليه فإذا لم تحضر الفكرة عنده أو وجد المانع أو اهتز من الداخل نتيجة الموقف ورهبته وكثرة الجموع أو علو الحاضرين في العلم والمعرفة فلا يستجيب القول لهذا اللسان فيمتنع عن الخروج ويحصر في الكلام.

أما إذا حضرت الفكرة وارتفع المانع وكان الجو النفسي مهيئاً انطلق اللسان ليبدي الفكرة فوراً ولذا نجد أن بعض الأجواء ينفتح الإنسان فيها على الكلام ويسترسل وربما عجز عن نفس الكلام بمحضر آخرين وكأن هذا اعتذار عما أصاب جعدة وتخفيف عما أصابه من هذه الصدمة ولعل وجود أمير المؤمنين كان السبب الذي منع جعدة من الكلام تهيباً منه وتعظيماً له فلم ينطلق لسانه بوجود خاله الذي سن الفصاحة والبلاغة وكان إمام الخطابة...

(وإنا لأمراء الكلام وفينا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت غصونه) أشار عليه السلام إلى نفسه وأهل بيته أنهم أمراء الكلام إذا تكلموا... إنهم يمتلكون نواصي البيان ويتصرفون فيه تصرف الملوك في أملاكها كناية عن امتلاكهم زمام الكلام يوردون المعنى

الذي يريدون بأفصح بيان وأبلغ كلام والكلام أصل فينا وطبيعة من طبائعنا فنحن معدن الكلام ومنشأه وما عند الناس إنما هو شيء عنا فاض منا فأخذوه وتكلموا به. . .

(واعلموا رحمكم الله إنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل واللسان عن الصدق كليل واللازم للحق ذليل) ذكر الزمان وبعض قبائحه فإنه زمان سيء قبيح لئيم والزمان بأهله، يخاطب ويراد من خلاله الناس الذين فيه.

وقد وصف أهل الزمان «القائل فيه بالحق قليل فالمتكلمون بالحق قليلون وأما أكثر الناس فيتكلمون بالباطل إما لخبثهم أو للخوف على أنفسهم أو مداراة للناس أو لبعض الدواعي غير الشرعية مخالفة منهم لأمر الله وحكمه.

وأما اللسان فإنه يعجز عن قول الصدق لغلبة الهوى وقوته ولخوف الإنسان على نفسه وماله من حكام الزمان وأهله. . .

وأما اللازم للحق فهو ذليل لأن الغلبة لأهل الباطل وللظالمين فلا يستطيع صاحب الحق أن يظهر في دولتهم وأيام حكمهم حقه فكم من حكم شرعي قد اختفى نتيجة الحكم الظالم ولم يبق إلا عند ثلة قليلة من الناس. . .

(أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الإدهان) فأهل ذلك الزمان ملازمون للمعاصي مقيمون عليها لا ينفكون عنها لأنهم بعد ابتعادهم عن الحق دخلوا في الضلال والعصيان وإذا كان أمير المؤمنين ينعى أهل زمانه فكيف بزماننا هذا الذي نعيشه إنه أسوأ زمان عرفه التاريخ. . . زمان أصبح للمعاصي مدارسها الخاصة وقد التزم الناس بالمعاصي تحت عنوان الفن فترى كل الوسائل المرئية والمسموعة قد امتلأت بالرذيلة وشحنت بالمعاصي ودخلت كل بيت وأصبحت في كل زاوية بحيث تحول المجتمع إلى مجتمع معصية ورذيلة. . .

وذكر عليه السلام أن أهل ذلك الزمان مصطلحون على الإدهان أي مجتمعون متفقون على المصانعة باللسان دون القلوب فظاهرهم لا يحكي عن باطنهم، ففي الباطن تناكر وتحاسد وتباغض وأما في اللسان فمجاملة ومتفقون على الكذب على بعضهم. . .

(فتاهم عارم) فالشاب منهم سيء الأخلاق بدون أدب لأن اليد التي تعهدته بالتربية لم تكن أمينة عليه فلم تربِ بذور الفضيلة والأخلاق الكريمة في نفسه.

(وشآئبهم آثم) فترى تلك الشيبة ملطخة بعار الإثم والمعصية والانحراف عن دين الله ومن حق من دب الشيب في رأسه وابيضت مفارقه أن يقلع عن المعصية ويتوب إلى الله ويتوجه إليه فيما بقي من عمره. . .

(وعالمهم منافق) يمدح الأشرار تزلفاً لهم ويظهر للناس العفة والسداد وهو أبعد ما يكون عنهما يبيع الدين بالدنيا بل يبيع دينه بدنيا غيره.

(وقارئهم مماذق) فالناسك العابد والمثقف، مدرس القرآن ومعلمه الذي يجب أن يكون قدوة ومثلاً أعلى فهذا لم يخلص في عمله ولم يصدق في توجهه ولم ينسجم مع هدفه يفعل خلاف ما يقول ويتودد إلى الناس طمعاً بما عندهم...

(لا يعظّم صغيرهم كبيرهم) لأنهم لم يتعلموا وصايا الأنبياء والصالحين ولم يدرسوا مناهج الحق والدين ولم يسمعوا قول المعصوم: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا».

(ولا يعول غنيهم فقيرهم) لا يقوم الغني بسد حاجة المحتاجين والفقراء لبخله وقلة معروفه وبعده عن الالتزام الشرعي الذي يفرض على الأغنياء سدّ حاجة الفقراء...

ترجمة جعدة بن هبيرة المخزومي:

جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عائد بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي ومات هبيرة بنجران مشركاً.

أمه: أم هاني بنت أبي طالب ولدت لزوجها أربعة بنين جعدة وعمراً وهانئاً ويوسف.

ولد على عهد رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وقال البخاري له صحبة وفي تهذيب التهذيب: جعدة بن هبيرة له صحبة.

استعمله الإمام على خرسان.

قال ابن أبي الحديد في شرحه: كان جعدة فارساً شجاعاً فقيهاً ولي خرسان لأمير المؤمنين علي عليه السلام وهو من الصحابة الذين أدركوا رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يوم الفتح مع أمه أم هاني بنت أبي طالب...

لما دخل علي عليه السلام الكوفة بعد رجوعه من حرب الجمل نزل على جعدة بن هبيرة وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧ أن علياً بعث جعدة بن هبيرة المخزومي إلى خرسان بعد عودته من صفين فانتهى إلى نيسابور وقد كفروا وامتنعوا فرجع إلى علي فبعث خليد بن قره اليربوعي فحاصر أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مرو قال عتبة بن أبي سفيان لجعدة بن هبيرة: إنما لك هذه الشدة في الحرب من قبل خالك.

فقال له جعدة: لو كان خالك مثل خالي لنسيت أباك...

مات جعدة في خلافة معاوية...

٢٣٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

روى ذعلب اليماني عن أحمد بن قتيبة، عن عبد الله بن يزيد، عن مالك بن دحية، قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال:

إِنَّمَا فَرَّقَ(١) بَيْنَهُمْ مَبَادِىءُ(٢) طِينِهِمْ(٣)، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً(٤) مِنْ سَبَخِ(٥) أَرْضٍ وَعَذْبِهَا(٦)، وَحَزْنِ(٧) تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ ٱخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ(٨)، فَتَامُّ الرُّوَاءِ(٩) نَاقِصُ ٱلْعَقْلِ، وَمَادُّ ٱلْقَامَةِ(١٠) قَصِيرُ ٱلْهِمَّةِ(١١)، وَزَاكِي(١٢) ٱلْعَمَلِ قَبِيحُ ٱلْمَنْظَرِ(١٣)، وَقَرِيبُ ٱلْقَعْرِ(١٤) بَعِيدُ السَّبْرِ(١٥)، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ(١٦) مُنْكَرُ ٱلْجَلِيبَةِ(١٧)، وَتَائِهُ(١٨) ٱلْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ(١٩)، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ(٢٠) حَدِيدُ(٢١) ٱلْجَنَانِ(٢٢).

اللغة

١ ـ فرّق : وزّع وميّز.
٢ ـ مبادىء : جمع مبدأ الأصل والسبب.
٣ ـ طينهم : جمع طينة وهو الوحل والمراد هنا الخلقة والجبلة.
٤ ـ الفلقة : بكسر الفاء القطعة من الشيء.
٥ ـ السبخة : محركة ومسكنة الأرض المالحة التي لا ينبت فيها شيء.
٦ ـ العذب : ما طاب من الأرض وصلح للزرع.
٧ ـ الحزن : على وزن فلس ما غلظ من الأرض وهو ضد السهل.
٨ ـ يتفاوتون : يختلفون.
٩ ـ الرواء : بالضم والمد المنظر الحسن.
١٠ ـ ماد القامة : طويلها.

١١ ـ **الهمة** : بالكسر والفتح ما همّ به من أمر ليُفعل، العزم القوي.
١٢ ـ **الزاكي** : النامي الطاهر.
١٣ ـ **المنظر** : الشكل والهيئة.
١٤ ـ **قريب القعر** : قصير.
١٥ ـ **السبر** : في الأصل إدخال الميل في الجراحة لمعرفة غورها وسبرت الرجل اختبرت باطنه وغوره.
١٦ ـ **الضريبة** : الخلق والطبيعة.
١٧ ـ **الجليبة** : ما يتصنعه الإنسان على خلاف طبعه.
١٨ ـ **التائه** : الحيران.
١٩ ـ **اللب** : العقل.
٢٠ ـ **طليق اللسان** : فصيح ذو حدة.
٢١ ـ **حديد** : نافذ.
٢٢ ـ **الجنان** : بالفتح القلب.

الشرح

(إنما فرّق بينهم مبادىء طينهم وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها وحزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافها يتفاوتون). وقع الخلاف في اختلاف الناس وتباينهم فقال الإمام هذا الكلام وبيّن فيه السبب وأنه إنما كان افتراق بعضهم وتمايزهم عن بعض بحيث تختلف أشكالهم وأهدافهم وفطنتهم وبلادتهم وشقاوتهم وسعادتهم إنما كان لاختلاف مبادىء طينتهم ومادة تركيبهم وأصولهم التي تكوُّنوا منها.

إن الطينة التي جبلوا منها اختلفت وتباينت فاختلف الناس وقيل: إن المراد هي النطفة التي تكوّنت في أصلاب الرجال اختلفت باختلاف المأكول فاختلف الناس. . .

وقيل: إن كلامه عليه السلام له تأويل باطن وهو أنه يريد به أن اختلاف النفوس المدبّرة للأبدان وكنى عنها مبادىء طينهم وذلك أنها لما كانت الماسكة للبدن من الإنحلال العاصمة له من تفرّق العناصر صارت كالمبدأ والعلة له من حيث إنها كانت علة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ولذلك إذا فارقتها عند الموت افترقت العناصر وانحلت الأجزاء فرجع اللطيف منها إلى الهواء والكثيف إلى الأرض ومن هنا إذا

كانت النفوس متقاربة اقتربت الأشخاص وإلا افترقت. . .

ثم بيّن عناصر تكوينهم المؤدي إلى اختلافهم وتباعدهم أو اتفاقهم وتقاربهم وذلك بأنهم تكوّنوا من أجزاء مختلفة. . . فجزء من الأرض المالحة التي لا تصلح للزراعة والنمو ولا تعطي الخير، وجزء آخر عذب طيب صالح للنمو والعطاء وجزء من تراب سهل لين طري وآخر صعب قاس وعلى هذا التركيب يتم الوفاق والخلاف فمن قربت أرضهم من بعضهم وتكونت جبلتهم من نفس الطينة تقاربوا وتعارفوا وتشابهوا وإذا تباينت الطينة وعناصر التركيب كان الاختلاف والتباعد والتباين. . .

(فتام الرواء ناقص العقل) هذه مصاديق يضربها الإمام لاختلاف الأخلاق مع الخلقة أو لاختلاف بعضها مع بعض وهذه صادقة في الأعم الأغلب وليست قاعدة عامة لا تخترق. . .

فهذا الذي يرويك بجماله. . . إنه صورة تعشقها العين يجذبك إليه قهراً عنك. . . هذا هو بنفسه لو أردت اختبار عقله وجدته ناقص العقل فلم يتم الانسجام والوفاق بين جمال فائق وعقل ناقص إنه تدبير الله وحكمته ومن أراد استجلاء ذلك فليقصد المصحات العقلية ليجد الجمال عند بعض المجانين الذين فقدوا عقولهم. . .

(وماد القامة قصير الهمة) وهذا تراه طويل القامة مديدها لو خليت ونفسك لقرأته في همة الأسود وعزيمة أبطال التاريخ لينسجم الظاهر مع الباطن ويحكي الشكل عن المضمون ولكنك تفاجأ بأن همته لا تتعلق إلا بأتفه الأمور وأحقرها وأقلها شأناً. . . فلا تنسجم القامة المديدة مع الهمة القصيرة. . .

(وزاكي العمل قبيح المنظر) قد يكون قبيح الشكل والصورة مشوه المنظر ولكن مع ذلك من أطيب الناس عملاً وأحسنهم فعلاً وقد رأينا ذلك كنا نسمع بأعمالهم فنظن أنهم في غاية الجمال والكمال الجسماني فإذا بنا نفاجأ بأنهم قصار دمام تزدريهم العيون التي لم تختبرهم وتقف على أفعالهم فسبحان الذي يحرم الإنسان من جهة ليعوضه عنها من جهة أخرى يبرز بها ويمتاز. . .

(وقريب القعر بعيد السبر) وهذا قصير ولكنه يمتلك ذكاء وفطنة يغوص في الأمور ليصل إلى حقائقها ودقائقها.

(ومعروف الضريبة منكر الجلبية) فهذا صاحب سجية كريمة وأخلاق رضية جبلت نفسه على حب الخير والطاعة ولكنه يأتي بأعمال منكرة غير سليمة ولا مرضية خلاف طبيعته وما جبلت عليه نفسه. . .

(**وتائه القلب متفرق اللب**) ذكر سابقاً أفراداً لاختلاف الظاهر مع الباطن والآن يذكر امثالاً لما توافق فيه الظاهر مع الباطن وكان الانسجام بين الصورة والحقيقة والشكل والمضمون فهذا تائه القلب موزعه لم يهتد إلى ما يسعده فتراه موزع العقل مضطربه لا يستطيع أن يجمع عقله لحيرة قلبه وعدم استقامته ومعرفته الصحيحة فهو كالهمج الرعاع من الناس يميلون مع كل ناعق دون أن يفكروا فيما يتحركون أو يقومون. . .

(**وطليق اللسان حديد الجنان**) وهذا أعطاه الله حسن البيان مع الفصاحة والبلاغة وفي نفس الوقت نافذ الفكر دقيق الملاحظة واقعي النظرة فتوافق الظاهر مع الباطن.

٢٣٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله وهو يلي غسل رسول الله، صلى الله عليه وآله، وتجهيزه:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ ٱللهِ! لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَٱلإِنْبَاءِ(١) وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ(٢). خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً(٣) عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً(٤). وَلَوْلاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ ٱلْجَزَعِ(٥)، لأَنْفَدْنَا(٦) عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ(٧)، وَلَكَانَ الدَّاءُ(٨) مُمَاطِلاً(٩)، وَٱلْكَمَدُ(١٠) مُحَالِفاً(١١)، وَقَلاَّ لَكَ(١٢)! وَلكِنَّهُ مَا لاَ يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلاَ يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! ٱذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَٱجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ(١٣)!.

اللغة

١ ـ **الإنباء** : بكسر الهمزة الإخبار مصدر أنبأ والأنباء بالفتح هو الخبر جمع نبأ.
٢ ـ **أخبار السماء** : الوحي.
٣ ـ **المسلي** : من التسلية يقال: سلاّني من همي إذا كشفه عني.
٤ ـ **سواء** : متساون.
٥ ـ **الجزع** : بالتحريك ورود ما يغم النفس، نقيض الصبر.
٦ ـ **الإنفاذ** : الإفناء.
٧ ـ **الشؤون** : منابع الدمع ومجاريها.
٨ ـ **الداء** : المرض.
٩ ـ **المماطل** : المسوّف.
١٠ ـ **الكمد** : الحزن المكتوم.
١١ ـ **المحالف** : الملازم.

١٢ ـ قلاّ : من القلة اتصل بها ألف الاثنين.
١٣ ـ البال : القلب.

الشرح

(بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء) هذا الكلام من الإمام قاله كما ذكر الشريف وهو يلي غسل رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

بأبي أنت وأمي وهي عبارة تقال لمن يعز عليك وله مقامه السامي لديك فتجعل أبويك فداء عنه وأنه عندك أغلى منهما والإمام يفدي أبويه من أجل رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

ويذكر الأثر الكبير الذي حدث بوفاة رسول الله، إنه حدث لم يجر عند موت غيره من الأنبياء... لقد توقفت النبوة وارتفعت من الأرض... وامتنعت الأخبار التي يأتي بها الأنبياء وانقطع وحي السماء فلا حديث بين الله وبين هذا الإنسان عن طريق الأنبياء... انقطع بموت رسول الله ما لم ينقطع بموت غيره من الأنبياء لأنه إذا قبض النبي يبقى الوحي ينزل على النبي الذي بعده وباعتبار أن رسول الله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده ينقطع الوحي بموته وتمتنع أخبار السماء أن تصل إلى أهل الأرض...

(خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك وعمّمت حتى صار الناس فيك سواء) خصت مصيبتك أهل بيتك حتى صارت مسلية عن كل مصيبة تصيبهم بعدك لأنهم إذا أصيبوا بموت أعظم البشرية هانت عليهم أنفسهم ومن دونهم مهما كان عزيزاً وغالياً وكذلك عمت مصيبتك جميع الناس حتى تساووا فيها فهانت عليهم مصائبهم وفقد الأعزة عندهم.

(ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون) اعتذر عليه السلام عن كثرة البكاء على الرسول بأنه لولا أنه صلوات الله عليه قد أمر بالصبر عند كل مصيبة وحادثة شاقة ونهى عن الجزع والحزن واليأس لاستمر بكاؤه حتى جفّت منابعها وأصولها أي كثر بكاؤه...

(ولكان الداء مماطلاً والكمد محالفاً وقلاّ لك ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه) وكذلك اعتذر للنبي بعدم جدوى الألم والحزن وأنه لو كانا يفيدان لاستمر الألم

دائماً والحزن حليفاً لازماً وهما قليلان في حقه ولكنه صلوات الله عليه قد نهى عن ذلك ومنع منه . . .

ثم اعتذر بسقوط الحيلة أمام الموت وأنه لا يملك مع الموت أي دواء وإذا أتى لا يمكن رده أو رفعه وليس من وسيلة ممكنة في منعه أو دفعه، تسقط أمام الموت كل الوسائل والوسائط فلا يدفع بمال ولا بجاه ولا بسلطان ولا بالوساطات والشفاعات، يتجرعه الغني كما يتجرعه الفقير، والكبير كما هو حال الصغير والشريف كما هو الوضيع والنبي وعامة الناس . . . ﴿**إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون** . . .﴾ ﴿**كل نفس ذائقة الموت** . . .﴾.

(بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك) عاد إلى التفدية لزيادة الاهتمام وطلب من النبي بلسان الاستعطاف أن يذكره عند ربه بالشفاعة وأن يجعله موضع اهتمامه وفي فكره ومن ذكره النبي فاز بالحظ الأوفر ولا شك أن علياً في قلب رسول الله وضميره لأنه كان ساعده وقوته به يدفع الأعداء وينال منهم كما أنه الشخصية الرسالية التي تولت مكانه بحق وصدق وكذلك صهره ووالد ولديه الحسن والحسين . . .

٢٣٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ثم لحاقه به:

فَجَعَلْتُ[١] أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ ٱللهِ[٢] ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَأَطَأُ[٣] ذِكْرَهُ، حَتَّى ٱنْتَهَيْتُ إِلَى ٱلْعَرَجِ[٤].

قال السيد الشريف رضي الله عنه في كلام طويل:

قوله عليه السلام: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ»، من الكلام الذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة، أراد أني كنت أُعطَى خبره ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

اللغة

١ ـ جعلت : أخذت وشرعت.
٢ ـ مأخذ رسول الله : الجهة التي سلكها رسول الله.
٣ ـ أطأ : أدوس وأتبع.
٤ ـ العرج : بفتح أوله وسكون ثانيه مكان بين مكة والمدينة.

الشرح

(فجعلت أتبع مأخذ رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فأطأ ذكره حتى انتهيت إلى العرج) يحكي صلوات الله عليه شدة اهتمامه برسول الله وتقصي أخباره حتى أنه كان يتتبع كل مرحلة يقطعها في هجرته وكل خطوة يخطوها.

جعل عليه السلام بعد أن خرج رسول الله من مكة إلى المدينة مهاجراً يتبع ما كان يأخذه من الطرق ليسلك إلى المدينة فاتخذه قدوة وسار على أثره حتى وصل إلى العرج فاطمأن عندها إلى وصول رسول الله سالماً...

٢٣٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في المسارعة إلى العمل

فَٱعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ ٱلْبَقَاءِ(١)، وَالصُّحُفُ(٢) مَنْشُورَةٌ(٣)، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ(٤)، وَٱلْمُدْبِرُ(٥) يُدْعَى، وَٱلْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ(٦) ٱلْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ ٱلْمَهَلُ(٧)، وَيَنْقَضِيَ ٱلأَجَلُ(٨)، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ ٱلْمَلاَئِكَةُ.

فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. ٱمْرُؤٌ خَافَ ٱللهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ(٩) إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. ٱمْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا(١٠)، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي ٱللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ ٱللهِ.

اللغة

١ ـ **نفس البقاء** : بفتح الفاء أي في سعته.
٢ ـ **الصحف** : جمع الصحيفة أي الكتاب ويراد بها هنا صحائف الأعمال.
٣ ـ **منشورة** : ضد مطوية، مفتوحة ومبسوطة.
٤ ـ **بسط التوبة** : أي مقبولة.
٥ ـ **المدبر** : هو المعرض الذي أعطى دبره للشيء وتولى.
٦ ـ **خمد** : سكن وهدأ وخمدت النار إذا سكن لهبها ولم يطفأ جمرها.
٧ ـ **المهل** : الإمهال.
٨ ـ **الأجل** : الوقت المضروب.
٩ ـ **المعمّر** : الذي يعيش عمراً طويلاً.
١٠ ـ **زمها بزمامها** : قادها بقيادها.

الشرح

(فاعملوا وأنتم في نفس البقاء والصحف منشورة والتوبة مبسوطة والمدبر يدعى والمسيء يرجى) في هذا الكلام الشريف حث للناس على العمل والمبادرة إليه في وقته كما أن فيه دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله اعملوا الخيرات وما فيه نفع وفائدة لكم في آخرتكم وأنتم في سعة من الزمان ولا تزالون على قيد الحياة فإن الله أمهل عبده وأخره ليعمل.

والصحف منشورة: صحف العباد منشورة ـ وهم الأحياء ـ وإنما تطوي وتمتنع فيها الكتابة إذا مات هذا الإنسان وطالما أن الإنسان حي فإن الملائكة تكتب عليه حسناته وسيئاته.

والتوبة مبسوطة: فإذا أخطأ الإنسان وعاد إلى الله بالتوبة فإن الله يقبلها منه ويتوب عليه ولا يرده خائباً بل هو الذي قال: ﴿**توبوا إلى الله. . .**﴾.

والمدبر يدعى: من أعطى ظهره لله وأحكامه وأخذ في المعصية والانحراف يدعوه الله إلى التوبة والرجوع إليه ويستقبله بالعفو والمغفرة وهذه هي فرصة هذا الإنسان الأخيرة وهو على قيد الحياة. . .

والمسيء يرجى: المسيء يُؤَمل منه الرجوع عن إساءته والعودة إلى رحاب الطاعة لأن الوقت أمامه يستطيع ذلك ويقدر عليه.

(قبل أن يخمد العمل وينقطع المهل وينقضي الأجل ويسد باب التوبة وتصعد الملائكة) فيما تقدم ذكر أحوال الترغيب في العمل وهنا ينقل الأحوال التي يمنع فيها العمل تنفيراً منها هذه الحالات هي:

قبل أن يخمد العمل: اعملوا وأنتم في دار الدنيا قبل أن يتوقف العمل وينقطع بالموت كما ورد في الحديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث صدقة جارية وولد صالح يستغفر له وكتاب علم ينتفع به.

وينقطع المهل: قبل أن تنتهي مدة إمهال الله لهذا الإنسان وهي مدة عمره وبقائه في دار الدنيا فإذا مات فلا فسحة من زمان يتدارك بها ما فات.

وينقضي الأجل: فإن للإنسان وقت معلوم يقضيه في دار الدنيا ثم ينتهي فالعمل يجب أن يكون قبل انتهاء هذه المدة وهذا الأجل المضروب.

ويسد باب التوبة: فإن التوبة تُقبل إلى آخر أيام هذا الإنسان فإذا انتهت أيامه ولقي حمامه مضى زمن التوبة ووقعت الحوبة...

وتصعد الملائكة: فإن الإنسان يشغل الملائكة بما يعمل حيث تكتب عليه جميع ما يعمل وتصعد به إلى الملأ الأعلى فإذا مات انقطع صعودها فلا تكتب له والعاقل هو الذي يغتنم هذا العمر ليتزود فيه لآخرته...

(فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه) إخبار يراد به الأمر أي فليأخذ امرؤ من نفسه فيتعبها بالطاعات وترك الشهوات وهجر المحرمات والعمل في سبيل الله من أجل نفسه في الآخرة كي يسعدها ويوصلها إلى مراقي الكمال والدرجات العالية في الجنة.

(وأخذ من حي لميت ومن فان لباق ومن ذاهب لدائم) أي أخذ من نفسه باعتبار أنه حي إلى ما يصير إليه من حال الموت ومن فانٍ وهي الحياة الدنيا إلى باق وهي الحياة الآخرة ومن ذاهب لا يبقى ولا يدوم وهو الدنيا وما فيها إلى باق دائم لا يزول وهو الآخرة وما فيها من نعيم...

(امرؤ خاف الله وهو معمر إلى أجله ومنظور إلى عمله) هذه هي أوصاف المرء الذي أمره بالأوامر المتقدمة إنه امرؤ خاف الله وعذابه مدة عمره التي يقضيها في دار الدنيا وكذلك يتطلع إلى أن الله ينظر إلى عمله ويعرف كل حركاته فهو في خوف طول عمره ويراقب الله الذي يراقب عمله ومن عاش هذه الحالة سعى في إصلاح نفسه وتهذيبها بل هذه الحالة من أهم ما يصلح النفس ويهذبها ويدفعها لزيادة عمل البر والخير والقيام بالطاعات واجتناب المحرمات..

(امرؤ ألجم نفسه بلجامها وزمها بزمامها فأمسكها بلجامها عن معاصي الله وقادها بزمامها إلى طاعة الله) شبه النفس بدابة صعبة فإنه إذا وضع لجامها في فمها منعها عما لا يريد ووجهها إلى ما يحب ويريد وكذلك النفس إذا أخذها بتقوى الله فإن هذه التقوى تمنعه عن ارتكاب المعاصي والانحرافات وتردعه عن جميع المحرمات كما أنها بنفسها تقوده إلى طاعة الله والعمل بأمره والقيام بكل أوامره ومراداته، وهذا هو الإنسان العاقل الذي يعرف مصلحته فيسعى لتحقيقها وسعادة نفسه فيوفر السعادة لها...

٢٣٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

في شأن الحكمين وذم أهل الشام

جُفَاةٌ[١] طَغَامٌ[٢]، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ[٣]، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ[٤]، وَتُلُقِّطُوا[٥] مِنْ كُلِّ شَوْبٍ[٦]، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ[٧] وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ[٨]، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ[٩]، وَيُؤْخَذَ[١٠] عَلَى يَدَيْهِ. لَيْسُوا مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَار، وَلاَ مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا[١١] الدَّارَ وَٱلإِيمَانَ.

أَلاَ وَإِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ ٱلْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ ٱخْتَرْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ ٱلْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ[١٢] بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْس بِٱلأَمْس يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ[١٣]، وَشِيمُوا[١٤] سُيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرِهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ. فَٱدْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ ٱلْعَبَّاس، وَخُذُوا مَهَلَ[١٥] ٱلأَيَّام، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ[١٦] ٱلإِسْلاَمِ. أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى بِلاَدِكُمْ تُغْزَى[١٧]، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ[١٨] تُرْمَى؟.

اللغة

١ ـ **الجفاة** : بضم الجيم جمع جاف غليظ الطبع فظ.

٢ ـ **الطغام** : على وزن طعام أوغاد الناس وأراذلهم.

٣ ـ **أقزام** : جمع قزم بالتحريك الأراذل والسفلة من الناس.

٤ ـ **أوب** : يقال: جمعوا من كل أوب أي من كل ناحية.

٥ ـ تلقطوا	:	يقال: تلقط التمر أي التقطه من هنا وهنا. . .
٦ ـ الشوب	:	الخلط.
٧ ـ يفقّه	:	يُعلّم الفقه.
٨ ـ يدرّب	:	يعوّد بالعادات الجميلة ويمرّن بمحاسن الأفعال.
٩ ـ يولّى عليه	:	يملك أمره ويقوم بشؤونه.
١٠ ـ يؤخذ على يديه	:	يمنع من التصرف.
١١ ـ تبوؤوا الدار	:	نزلوها والمباءة المنزل.
١٢ ـ عهدكم	:	معرفتكم ولقائكم.
١٣ ـ أوتار	:	جمع وتر بالتحريك وهو شرعة القوس أي أوتار القسي التي يرمى عنها.
١٤ ـ شيموا سيوفكم	:	أغمدوها ولا تقاتلوا.
١٥ ـ المهل	:	سعة الوقت.
١٦ ـ القواصي	:	النواحي والأطراف.
١٧ ـ تغزى	:	يغار عليها.
١٨ ـ الصفاة	:	الحجر الأملس لا تؤثر فيه السهام والمقصود هنا القوة.

الشرح

(جفاة طغام وعبيد أقزام جمعوا من كل أوب وتلقطوا من كل شوب) الخطبة في ذم أهل الشام الذين بايعوا معاوية كما أن فيها ذم الحكمين الخبيثين الأشعري وابن العاص وفيها أيضاً حث لأهل الكوفة أن يدفعوا عن أنفسهم ذل الهجمات والغارات التي يشنها جند معاوية عليهم وهذا وصف دقيق لما كان عليه جند الشام وأتباع معاوية إنهم أعراب غلاظ القلوب قساة المعاملة من أراذل الناس وسفلتهم أذلاء النفوس لا يحملون روح الأحرار وتصرفاتهم قد جمعتهم العصبية وحب المال والمصلحة الشخصية والمنافع الآنية، جمعتهم الجاهلية لقتال أهل الحق. . . إنهم جمعوا من كل الأطراف التي تواجدوا فيها. . . إنهم خليط غريب التقطتهم أيدي الشيطان وزبانيته التي تمثلت بمعاوية ومن تابعه، إن معاوية قد خرج على الجماعة وأعلن الحرب على الخليفة الشرعي وجمع معه كل مناوىء للحق وعدو للإسلام. . . جمع حوله كل إنسان يبحث عن مصلحة شخصية أو زعامة أو عنده حب في تفكيك عرى الإسلام ومحاربته. . .

(ممن ينبغي أن يفقّه ويؤدب) نفى عنهم صفة التفقه في دين الله كما نفى عنهم

الأدب الإسلامي المفروض على عامة الناس ومن كان خلواً منهما فهو ناقص ينبغي أن يكمّل نفسه بهما . . .

(ويعلم ويدرب) يجب أن يعلّموا ما يجب تعلمه حتى يقوموا بالواجب لأن من لم يتعلم فهو جاهل أعمى كما أنه يجب عليهم أن يدربوا ويمرّنوا على عادات الخير والإحسان حتى يكفّوا ويقلعوا عن العادات السيئة.

(ويولى عليه ويؤخذ على يديه) وصفهم بالنقص وعدم الرشد والكمال ولذا أوجب أن يكون عليهم ولياً يدير أمورهم ويقوم بشؤونهم ويصرّف أعمالهم ويضبط سلوكهم كما هو حال الأطفال والمجانين الذين لم يرشدوا ولم يؤهلوا لتولي أمورهم وما يعود إليهم.

كما أنه يجب أن يؤخذ على أيديهم فيمنعوا من التصرف في شيء يعود إليهم كما يجب أن يمنعوا عن كل قبيح أو رذيلة يمارسونها . . .

(ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوؤوا الدار والإيمان) هذا نفي لهذه الصفات الكريمة التي يمتاز بها المسلمون عن جند معاوية وأتباعه ومن مشى في ركابه إنهم ليسوا من المهاجرين الأولين الذين تركوا أهلهم وديارهم من أجل الإسلام ولا من الأنصار الذين تداعوا إلى نصرة رسول الله وحماية الإسلام ولا من الذين تبوؤوا الدار والإيمان أي ليسوا من أهل المدينة الذين سكنوها وأسلموا قبل مجيء رسول الله إليها فليس في أهل الشام صفة كريمة عظيمة تجعلهم شرفاء فضلاء . . .

(ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون وإنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول: «إنها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشيموا سيوفكم» فإن كان صادقاً فقد أخطأ بمسيره غير مستكره وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة) هذا بيان لسوء اختيار أهل العراق على عكس أهل الشام يقول: إن القوم وهم أهل الشام قد اختاروا لأنفسهم أقرب الناس ممن يحقق لهم ما يحبون . . . إنهم اختاروا عمرو بن العاص الذي هو منهم وفيهم ويحقق أهدافهم التي يحبونها وهي الانتصار على أهل العراق وتحقيق ذلك بما يملك من حيل وخدع ومكر بينما أنتم اخترتم الرجل الذي هو بعيد عنكم ولا يحقق لكم إلا ما تكرهون. اخترتم أبا موسى الأشعري الذي هو ليس منكم ولا يدعو إلى ما تدعون إليه وليس على هدفكم ولن يحقق لكم إلا ما تكرهون من الهزيمة والإنكسار لبلهه وسوء طويته وموقفه المعادي لكم . . .

ثم ذكّرهم بموقف مشين وقفه أبو موسى الأشعري ـ المسمى عبد الله بن قيس ـ في موقعة الجمل: إنه موقف يسقطه عن الاعتبار وعن كونه مؤهلاً للحكومة الآن . . . إنه

خذّل الناس عن الإمام وثبطهم عن الخروج معه فقد كان في الكوفة يقول لأهلها: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها فقطعّوا أوتار قسيكم وشيموا سيوفكم والإمام يفسقه ويسقطه عن الأهلية للتحكيم بدليل أن هذا القول من أبي موسى لا يخلو إما أن يكون صادقاً فيه وهنا نقول لماذا خرج معنا وخروجه لم يكن مكرهاً عليه ولا مضطراً إليه فيكون خروجه خطأ محضاً ولمصلحة ينشدها من ورائه.

وإن كان كاذباً في قوله: «إنها فتنة» لزمته التهمة وصار فاسقاً بكذبه وعلى التقديرين لا يجوز أن يعتمد عليه في قضية خطيرة بمستوى التحكيم.

(فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس وخذوا مهل الأيام وحوطوا قواصي الإسلام ألا ترون إلى بلادكم تغزى وإلى صفاتكم ترمى) اختار الإمام أول ما اختار للتحكيم عندما فرض عليه اختار الأشتر فرفض الأشعث وأهل العراق وقالوا: وهل سعّر الحرب غير الأشتر.

فقال لهم: اجعلوا ابن عباس هو الحكم فرفضوا وقالوا: لا نبالي كنت أنت أم ابن عباس ثم قالوا: نريد رجلاً يكون منك ومن معاوية على حد سواء وأشاروا عليه بأبي موسى الأشعري فرفض الإمام وأصر على الرفض وبيّن لهم عدم نصح الأشعري له وعدم ثقته به ولكنهم أصروا على الإمام وأكرهوه على القبول به كما أكرهوه على أصل التحكيم وقال الإمام كلمته: «لقد جاؤني بأبي موسى مبرنساً»... فالإمام يقول لأصحابه: إن أبيتم إلا التحكيم فليكن ابن عباس في مواجهة ابن العاص فإنه الشاطر اللبيب الذي لا يعقد ابن العاص عقدة إلا ويحلها ابن عباس ولكنهم رفضوا فخسروا... رفضوا ابن عباس واختاروا أبا موسى فلم يحكم بالحق ولا بالعدل وذهب الحق ضحية انحراف الحكمين وعدم حكمهما بالعدل... انفض التحكيم بالشتائم بين الحكمين حيث قال أبو موسى لابن العاص بعد الخدعة مثلك مثل الكلب فأجابه ابن العاص ومثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً...

ثم أمرهم أن ينتظروا الأيام المقبلة وفسحتها فسيجدون الحق معهم وإلى جانبهم.

كما أمرهم أن يدافعوا عن أطراف البلاد الإسلامية التي هي تحت حكم الإمام ويحفظوها من غزو الأعداء واعتداءاتهم وأخيراً أثار حميتهم للدفاع عن بلادهم ووجودهم بقوله: «ألا ترون إلى بلادكم تغزى» فهذه جنود معاوية تغير على أطراف بلادكم بل وصلت غاراتها إلى أطراف عاصمة الإمام فكيف يرضى الغيور بهذا الغزو المذل المهين.

وكيف ترضون إلى صفاتكم ترمى أي إلى بلدكم وهي الكوفة التي تقيمون فيها والتي هي عنوان مجدكم ومركز قوتكم التي يعجز أحد عن النيل منها ومع ذلك معاوية يغير على أطرافها ويرميها بجنوده ويشن عليها غاراته فكيف ترضون بذلك أو تقبلون به.

ترجمة أبي موسى الأشعري.

«أبو موسى الأشعري» هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضارة بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر...

أمه امرأة من عك أسلمت وماتت بالمدينة.

أسلم زمن النبي ثم عاد إلى قومه وعاد مع ناس من الأشعريين على رسول الله فوافوا قدوم جعفر ومن معه من الحبشة.

استعمله النبي على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة كما استعمله عثمان على الكوفة وعندما تولى الإمام علي الخلافة انحرف عنه أبو موسى وخذّل الناس في الكوفة ومعروف بانحرافه عن علي.

ثم كان أحد الحكمين في قضية التحكيم وقد فرض على الإمام فحذرهم منه وصرّح بأنه ليس له بثقة ولكن الخوارج أصروا على أن يكون أحد الحكمين وقد تم الأمر بينه وبين ابن العاص على عزل علي ومعاوية وإرجاع الأمر شورى بين المسلمين فلم يحكما بالعدل وعلى كل حال قدمه عمرو خدعة منه فخلع الإمام من الخلافة ولما قام عمرو أثبت معاوية فيها فتنابزا أبو موسى شبّهه بالكلب وعمرو شبه أبا موسى بالحمار وبين الحمار والكلب ضاعت الوحدة وتمزقت الأمة.

مات أبو موسى سنة اثنين وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

٢٣٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها آل محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ

هُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوتُ ٱلْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ[١] مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ ٱلْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَهُمْ دَعَائِمُ[٢] ٱلإِسْلَامِ، وَوَلَائِجُ[٣] ٱلاعْتِصَامِ[٤]. بِهِمْ عَادَ ٱلْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ[٥]، وَٱنْزَاحَ[٦] ٱلْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ[٧]. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ[٨] وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ[٩]، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

اللغة

١ ـ الحكم : جمع حكمة الكلام الموافق للحق، صواب الأمر وسداده.
٢ ـ الدعائم : الأركان.
٣ ـ الولائج : جمع وليجة الموضع الذي يعتصم به.
٤ ـ الاعتصام : الالتجاء والامتناع واعتصم بالله امتنع بلطفه من المعصية.
٥ ـ نصاب الحق : أصله ومستقره.
٦ ـ انزاح : زال.
٧ ـ المنبت : الأصل.
٨ ـ عقل الوعاية : حفظ في فهم.
٩ ـ وعقل الرعاية : الحيطة عليه ودفع الشبهات عنه.

الشرح

(هم عيش العلم وموت الجهل) صفات أهل البيت لا تعدّ ولا تحصى ومآثرهم لا يمكن أن يجمعها قلم أو قرطاس وما قيمة قلم قاصر عاجز من إنسان ممكن

أمام قمة شامخة إنهم ثلة تولى الله مدحهم والثناء عليهم وهل يبقى مجال لأحد بعد حديث الله؟ نعم لا يبقى عليه إلا أن يحمل كلام الله وسفراءه ويكون له هذا الشرف في هذا الحمل الكريم. . .

أهل البيت أكمل الناس على الإطلاق فإذا أراد أن يكون لهذا الإنسان مثل أعلى يتطلع نحوه ويتحرك باتجاهه فهم أهل البيت عليهم السلام. . .

والإمام يذكر بعض أوصافهم حسب ما اقتضت به الضرورة وحكمت به تلك الأحوال يذكر أنهم هم عيش العلم وموت الجهل بهم يحيى العلم وينتعش ويتحرك وهذا ما يحكيه واقعهم وما صدر عنهم فاقرأ الإسلام في أوسع مجالاته الفقهية والعقيدية والسياسية والاجتماعية وغيرها فإنك تجد الموسوعات العلمية الصادرة عن أهل البيت بحيث أحيوا الدين وتعاليمه ونشروا أحكام الإسلام وقوانينه. . . إنهم عيبة علم الله ومستودع سره. . . تفجر العلم من جوانبهم فكانوا أربابه وسادته. . . إليهم يقصد المتعطشون وعن أيديهم يرتوي الظامئون.

وفي المقابل هم موت الجهل فلا يبقى في الأمة جهل وأهل البيت يعيشون. . . لقد كشفوا حُجُب الجهل والعمى وأوضحوا مغاليق الأمور وصعابها. . . لقد أماتوا الجهل بتعاليمهم وأحكامهم وما بثوه في الناس من علم. . .

(يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم وصمتهم عن حِكَمِ منطقهم) قد تقرأ الشيء من نظيره وتحكم بالنتيجة من مقدماتها وقد تقرأ وتحكم على الشيء من خلال ظاهره وبعض مواصفاته وأهل البيت تقرأهم في صفة من صفاتهم وتحكم عليهم كما تقرأهم في جميع صفاتهم. . .

فمن حلمهم ورزانتهم ومعرفتهم بمواقع الحلم ومتى يكون تقرأ علم أهل البيت وعلو منزلتهم في هذا المضمار فهم حلماء علماء. . .

وتقرأهم في باطنهم من خلال ظاهرهم فإن سمتهم وهديهم يحكي عن باطنهم وعمقهم فهم فقهاء الأمة وحملة الإسلام والدين وهذا يدل على تقواهم وصلاحهم وحسن قيادتهم.

(وصمتهم عن حكم منطقهم) لأن من يعرف متى يصمت ويسكت يعرف متى يتكلم فيكون السكوت في محله وهو يدل على حسن المنطق عندما يتكلمون فلو تكلم في موضع الصمت لم يكن الصمت عن حكمة وهذا خلاف المفروض. . .

(لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه) فهم مع الحق والحق معهم يميلون حيث مال ويدور هو حيث داروا... بل هم الحق روحاً وجسداً شكلاً ومضموناً مظهراً وجوهراً فكيف يجري في حقهم خلاف الحق.

كما أنهم لا يختلفون فيه بل هم جميعاً يصدرون عن عين واحدة ويتكلمون بمنطق واحد وينطقون عن لسان واحد اختلف الزمان والمكان وبقيت كلمتهم واحدة.

(وهم دعائم الإسلام) هم أركان هذا الدين عليهم يقوم ويرتفع، وأهل البيت كانوا الحفظة لهذا الدين والذابّين عنه ألسنة الجاحدين والمعاندين والمنافقين... إنهم الأركان التي تحفظ هذا الدين وترعاه من الإنهيار والسقوط.

(وولائج الاعتصام) من عاد إلى أهل البيت واحتمى بحماهم أمن من الزيغ والانحراف وأمن من عذاب الله وعقابه... بهم يأمن الإنسان شر الدنيا وعذاب الآخرة...

(بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته) أشار عليه السلام إلى خلافته وحكمه وأن بحكمه عاد الحق إلى مكانه وموقعه الطبيعي حيث كان بنو أمية قد تسلطوا على رقاب الأمة واستولوا على ممتلكاتها وسلبوا بيوت أموالها وأفسدوا البلاد والعباد وعاثوا في الأرض الفساد فعندما تولى الإمام الحكم اجتث أصول الفساد وأعاد الحق إلى مكانه وأعطاه لأهله، كفّ أيدي الأمويين بل عمد إلى كل مال تسلطوا عليه وأخذوه بدون حق فانتزعه منهم ورده إلى أصحابه.

وبهذا ارتفع الباطل من بين الناس وسقط عما كان عليه كما أن من كان يدافع عنه قد خرس ولم يعد في مقام الدفاع عنه لسقوط الحجة منه بسقوط الحكم الأموي الفاسد.

(عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل) أهل البيت ليسوا نقلة أحاديث ورواة لها فحسب بل إنهم الوعاة الرعاة لها فهم أهل الإسلام والدين فهموه فهماً حقيقياً وصحيحاً كما يجب وطبقوه في المجالات العملية والسلوكية... فهم ليس كغيرهم ممن حملوا الرواية وتركوا الدراية سمعوا الحديث فنقلوه ولم يعرفوا معناه ومضمونه...

هم وعاة الدين منهم يؤخذ وعن أيديهم يكون... استخلفهم النبي قادة للدين والدنيا يحفظون الدين من التحريف والتخريب وينشرونه بين الناس ويؤدونه إلى الخلق ويرعونه حق رعايته من حيث تطبيقه وتنفيذه والمحافظة عليه والاهتمام به وهم يمتازون

عن غيرهم ولا يقاس بهم أحد من الأمة. . . وكم هو الفرق الجلي بين الأئمة من أهل البيت الذي كان كل همهم حفظ الإسلام ورعايته ونشره بين الناس وبين غيرهم ممن انصرفوا إلى الدنيا وقاتلوا من أجلها ولم يهتموا بغيرها. . .

ثم أشار أخيراً إلى حقيقة منتشرة بين الناس وهي أن رواة العلم كثير ولكن رعاته قليل الذين يحفظون كثيرون. . . يحفظون عن ظهر قلب ويرددون في المجالس والتجمعات واللقاءات. . . ولكن ما أقل من يرعى هذا العلم ويطبقه على نفسه ويسعى لتطبيقه في الخارج. . . إنهم قلة تنحصر بأهل البيت. . .

٢٤٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله لعبد الله بن العباس؛ وقد جاءه برسالة من عثمان، وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع[١]، ليقلّ هتف الناس باسمه للخلافة، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل، فقال عليه السلام:

يَا بْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إلاَّ أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً[٢] بِٱلْغَرْبِ[٣]: أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ[٤] ثُمَّ هُوَ ٱلآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَٱللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً[٥].

اللغة

١ ـ **ينبع** : على وزن ينصر قرية كبيرة بها حصن على سبع مراحل أو أربعة من المدينة.

٢ ـ **الناضح** : البعير يحمل عليه الماء لسقي الزرع.

٣ ـ **الغرب** : بفتح الغاء وسكون الراء الدلو العظيمة.

٤ ـ **أقدم** : إئت من قدم البلد إذا أتاها.

٥ ـ **الآثم** : العاصي من الإثم وهي المعصية.

الشرح

(يابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر بعث إليّ أن أخرج ثم بعث إليّ أن أقدم ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً) كلامه عليه السلام استهجان على عثمان وما كان يمارسه في حقه وهذا نموذج لأفعال عثمان التي كان يقوم بها ثم يتراجع عنها تحت الضغط الأموي المتمثل بمروان والعصابة الأموية ثم يعود فيفعلها ثم يعتذر منها، يأخذ عثمان على نفسه أن يرفع الظلم عن الناس ويكف عنهم أيدي الأمويين من عماله ولكنه يتراجع عن ذلك

ويُبقي الأمور كما هي فتزداد النقمة عليه وتشتد المعارضة فيعلن توبته من جديد ثم يعود لممارسة مظالمه وهكذا دواليك حتى أجهز عليه عمله وقضت عليه ممارساته. . .

لقد كان عثمان ضعيفاً أمام مروان والأمويين إلى حد أنهم انتزعوا منه القرار وأصبحوا هم الخليفة فعلاً وحقيقة بينما أضحى عثمان خليفة رمزاً وشكلاً.

حصر الثوار عثمان وضيقوا عليه ولم يقدر أن يتخلص من قبضتهم وعقابهم فنظر فلم يجد إلا علياً ظن أنه وراء هذه الأحداث أو ظن أنه يستطيع وحده أن يوقف زحفهم ويمنعهم من إكمال ما يريدونه فلذا طلب من الإمام بواسطة ابن عباس أن يخرج الإمام من المدينة إلى أرضه بينبع التي كانت ملكاً للإمام فخرج الإمام فازدادت النقمة على عثمان وكثر الهتاف باسم الإمام فعاد عثمان ليطلب عودة الإمام فعاد ثم أراد عثمان من الإمام أن يخرج من جديد فقال عليه السلام هذه المقالة التي تحمل العتاب والاستهجان وقبح هذا التصرف الذي لا يستند إلى أساس شرعي ولا عقلي ولا عرفي. . .

«يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب» يريد أن يسلبني إرادتي وحريتي ويحوّلني إلى آلة مسخرة لمشيئته أتصرف كما يريد وكما يجب طبقاً لإرادته وما يشتهي إذا قال: أقبل يجب أن أقبل وإذا قال: أدبر يجب أن أدبر، شبّه حاله عليه السلام بالبعير المسخّر لنقل الماء ليس له حرية الحركة ولا حرية الاختيار.

ثم فسر ذلك بقوله: أقبل وأدبر بعث إليّ أن أخرج ثم بعث إليّ أن أقدم ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج. . .

ثم أقسم عليه بقوله: «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» خشي الإمام من الإثم لأنه كان يدفع المهاجمين والثائرين على عثمان. . . إنه كان يدفعهم لعله يتوب ويرجع فإذا به يتمرد ويعصي ويصر على موقفه الخاطىء وحق له أن يخشى الإثم مع إصرار الطرف الآخر على الخطأ. . .

٢٤١ ـ ومن كلام له عليه السلام

يحث به أصحابه على الجهاد

وَٱللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ(١) شُكْرَهُ وَمُوَرِّثُكُمْ(٢) أَمْرَهُ(٣)، وَمُمْهِلُكُمْ(٤) فِي مِضْمَارٍ(٥) مَحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا(٦) سَبَقَهُ(٧)، فَشُدُّوا(٨) عُقَدَ(٩) ٱلْمَآزِرِ(١٠)، وَٱطْوُوا(١١) فُضُولَ(١٢) ٱلْخَوَاصِرِ(١٣)، وَلاَ تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ(١٤) وَوَلِيمَةٌ(١٥). مَا أَنْقَضَ(١٦) النَّوْمَ لِعَزَائِمِ ٱلْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلَمَ(١٧) لِتَذَاكِيرِ(١٨) ٱلْهِمَمِ!.

وصَلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله مصابيح الدجى والعروة الوثقى، وسلم تسليماً كثيراً.

اللغة

١ ـ مستأديكم : طالب منكم الإداء.

٢ ـ مورثكم : مملككم من الإرث وهو انتقال مال الميت إلى ورثته.

٣ ـ أمره : أرضه وسلطانه.

٤ ـ ممهلكم : معطيكم مهلة وأمهله إذا أنظره وأجّله.

٥ ـ المضمار : أصله المكان الذي تحضر فيه الخيل للسباق، أو زمانه ومضمار الإنسان عمره.

٦ ـ لتتنازعوا : لتتنافسوا.

٧ ـ السبق : بالتحريك ما يوضع بين المتنافسين ليأخذه السابق.

٨ ـ شدوا : أربطوا.

٩ ـ العقد : جمع عقدة الرباط.

١٠ ـ المآزر : جمع مئزر ما يسترك وهو قطعة من ثلاث يكفن بها الميت.

١١ ـ أطووا : من الطي وهو الثني، ضد النشر.

١٢ ـ الفضول : الزوائد.

١٣ ـ **الخواصر** : جمع الخاصرة جنب الإنسان فوق رأس الورك.
١٤ ـ **العزيمة** : من العزم وهي الهمة العالية، الصبر والثبات.
١٥ ـ **الوليمة** : طعام العرس أو كل طعام صنع لدعوة أو كل طعام صنع لجمعٍ.
١٦ ـ **انقض** : من نقض الشيء إذا حلّه.
١٧ ـ **الظُلم** : جمع ظلمة، الليل.
١٨ ـ **التذاكير** : جمع التذكرة الأمور التي تذكرك بالشيء.
١٩ ـ **الهمم** : جمع الهمة العزم القوي.

الشرح

(والله مستأديكم شكره ومورثكم أمره وممهلكم في مضمار محدود لتتنازعوا سبقه) حث لأصحابه أن يتركوا الدعة والاسترخاء ويشمروا عن سواعد الجد والنشاط.

وبيّن عليه السلام أن الله سوف يطلب منهم أن يؤدوا إليه شكره على نعمه وأفضل الشكر أن يعرف الإنسان مواقع نعم الله فيضعها موضعها ويقوم بالطاعات ويجتنب المحرمات.

ثم بيّن أنه إذا التزمتم بما أمر وأديتم حق الشكر لله سوف تكونون أصحاب الكلمة الإلهية تنفذون أمره وتحكمون بإرادته وأسند الكلمة إليهم باعتبارهم المباشرين بالتنفيذ.

وممهلكم في مضمار محدود لتتنازعوا سبقه: ترك لكم فسحة زمنية وهي مدة أعماركم تستطيعون أن تقرروا خلالها آخرتكم وتصلوا إلى ما تحبون أو تكرهون... إنكم تتسابقون في هذه المدة من أعماركم لتحصلوا على جائزة ثمينة إنها الجنة وما فيها فهذا السباق من أجل هذا الهدف وهو هدف يستحق كل تعب وكل جهاد...

(فشدّوا عقد المآزر وأطووا فضول الخواصر) شمروا عن سواعد الجد وارفعوا الموانع التي تعرقل مسيرتكم نحو الفوز بهذا الكأس والظفر بهذه النتيجة، كنى عما قلناه بشد عقد المآزر باعتبار أن من ربط مئزره سهل عليه القراع والضراب وملك حرية الحركة التي كان الإزار يمنعه منها وكذلك من طوى الزوائد من ثيابه أمن العثار بها والوقوع من جرائها...

(ولا تجتمع عزيمة ووليمة) لا تجتمع الهمم العالية التي تنشد معالي الأمور وكبيرها مع الاشتغال بالشهوات والرغبات وما يحب الإنسان ويطلب فإن البطون إذا

كانت هي الحاكمة على الناس وهي الموجهة لهم وبيدها الأمر والنهي ضاعت مطالبهم الرفيعة وأهدافهم الكبيرة.

(وما أنقض النوم لعزائم اليوم) صيغة تعجب تفيد ما تقدم من أن الشهوات تميت الأمور الكبيرة وأن الاسترخاء يقتل الطموح وما يريد الإنسان إنجازه والقيام به.

وبعضهم فسرها بأن النوم يغير مجرى تفكير الإنسان وما يعزم عليه من فعل؛ ومثّل لذلك بأن الإنسان إذا كان يعيش مأساة ويريد مثلاً القيام بجريمة فإنه عندما ينام ويسترخي وترتاح أعصابه يرجع إلى عقله وتعود إليه رويته فيعدل عما كان قد عزم عليه من الجريمة...

وقيل: إن أصل ذلك أن الإنسان يعزم في النهار على المسير بالليل ليقرب المنزل فإذا جاء الليل نام إلى الصباح فانتقض بذلك عزمه فضربه مثلاً لمن يعزم على تحصيل الأمور ثم ينام عنها ولا يسعى في سبيل تحصيلها...

(وأمحى الظلم لتذاكير الهمم) وهذا مفاده كالذي تقدم فإنك إذا أردت إنجاز ما تتذكره من معالي الأمور يأتي الظلام فيمحو كل ذلك ويذهب به أدراج الرياح...

إلى هنا تمت خطب سيدنا ومولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد شرحها العبد الفقير إلى الله عباس علي الموسوي (أبو علي) وقد سجلت نهايتها مساء يوم الأربعاء الواقع في الرابع من شهر ذي القعدة الحرام من سنة ١٤١٢ هجرية الموافق السادس من شهر أيار سنة ١٩٩٢ ميلادية في شقتنا الواقعة في منطقة حارة حريك من ضواحي بيروت العامرة وأسأل الله بحرمة هذه الكلمات العلوية أن يوفقني لاتمام شرح ما تبقى من نهج البلاغة كما أسأله أن يثيبنا عليها ويجعلها وسيلتنا يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم والحمد لله رب العالمين...

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل الكوفة، عند مسيره من المدينة إلى البصرة

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ، جَبْهَةِ[١] ٱلأَنْصَارِ[٢]، وَسَنَامِ[٣] ٱلْعَرَبِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ[٤]. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا[٥] عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ[٦] أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ[٧]، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ[٨]، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ[٩] سَيْرِهِمَا فِيهِ ٱلْوَجِيفُ[١٠]، وَأَرْفَقُ[١١] حِدَائِهِمَا[١٢] ٱلْعَنِيفُ[١٣]. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ[١٤] غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ[١٥] قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ[١٦] وَلاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ[١٧] قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا[١٨]، وَجَاشَتْ[١٩] جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ[٢٠]، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى ٱلْقُطْبِ[٢١]، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا[٢٢] جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

اللغة

١ - الجبهة : ما بين الحاجبين إلى قصاص مقدم الرأس وتطلق كما هنا على الأشراف والرؤساء.

٢ - الأنصار : الأعوان.

٣ - السنام : بفتح أوله والجمع أسنمة حدبة في ظهر البعير ويشبه الرفيع العظيم بالسنام.

٤ ـ العيان	:	بالكسر كالضراب، الرؤية وعاينه معاينة إذا شاهده.
٥ ـ طعنوا فيه	:	عابوه وفي الأصل الضرب بالرمح.
٦ ـ المهاجرين	:	هم الصحابة الذين تركوا مكة وهاجروا مع النبي إلى المدينة.
٧ ـ استعتبه	:	استرضيه.
٨ ـ العتاب	:	اللوم والتعنيف على الأمور.
٩ ـ أهون	:	أيسر وأخف وأسهل.
١٠ ـ الوجيف	:	السير السريع.
١١ ـ أرفق	:	من الرفق لين الجانب واللطف.
١٢ ـ الحداء	:	غناء للإبل تسرع عند سماعه.
١٣ ـ العنيف	:	الشديد من السير والقول، المعاملة بشدة.
١٤ ـ الفلتة	:	الهفوة، الأمر الصادر عن شخص بدون تدبر.
١٥ ـ أتيح له	:	قدّر له وتهيأ.
١٦ ـ استكرهت الشيء	:	كرهته وغير مستكرهين غير مجبرين.
١٧ ـ دار الهجرة	:	مدينة الرسول.
١٨ ـ قلعت بهم الدار	:	فارقتهم ولم تصلح لهم وهذا منزل قلعة بالضم أي ليس بمستوطن.
١٩ ـ جاشت	:	اضطربت.
٢٠ ـ المرجل	:	القدر وعاء يطبخ فيه.
٢١ ـ القطب	:	المركز الذي تدور عليه الأمور.
٢٢ ـ بادروا	:	أسرعوا.

الشرح

(من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب)

هذه الرسالة تكشف حال عثمان وما كان عليه من الظلم وكيف أن الصحابة هم الذين ألّبوا الناس عليه وحثوهم على الخلاص منه، وفيها أيضاً إيضاح لموقف الإمام منه ونصحه له وفي ختامها بيان وإيذان بظهور الفتنة ودعوة إلى الجهاد معه...

من عبد الله والعبودية أشرف مرتبة وصف الله بها أخلص عباده فقال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً... ونبه الناس إليها حينما قال: واذكر عبدنا أيوب... واذكر عبدنا داوود وهكذا فالأنبياء هم أشد الناس عبودية لله وأخلصهم له وأن الخلق بمقدار تعبدهم لله وعبوديتهم له يكون تحررهم من كل ما عداه.

إن الابتداء بذكر عبوديته لله هو اعتراف منه وهو الخليفة وعلى رأس السلطة أنه

عبد الله وإن تولى الأمر وأصبح الأمر بيده وفي هذا أيضاً تواضع لله به يكبر الإنسان ويعظم. . .

ثم وصف أهل الكوفة بأنهم سادة الأعوان وأشرافهم وأعظم العرب وأعلاهم.

(أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه) بأبلغ عبارة وأوجزها يكشف الإمام حقيقة عثمان أمام أهل الكوفة. . . إنه يصف واقعه حتى يصبح وصفه لأحواله كأنهم يرونها رأي العين بحيث تزول كل شبهة وترتفع كل غشاوة ويصبح الأمر لديهم كفلق الصبح بل أوضح وملخصه أن الناس طعنوا عليه أي عابوه بتصرفاته وأعماله وما كان يمارسه من قبيح الأعمال وما أجمل قوله: «إن الناس» أي عامة المجتمع.

وأجمل منه قوله: فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه أي كنت من جملة المهاجرين الذين لهم الحل والعقد وبهم قام عمود الدين أكثر من الأمور التي يمكن أن ترضيه وليس فيها غضب لله، أبيّن له وجه الأمور التي تصلحه وتنفعه وكنت في المقابل أقلل من ذكر عيوبه وما يوجب النقمة عليه حيث إن همّ الإمام الإصلاح وليس نشر العيوب وإذاعتها وتعنيف أصحابها وتوبيخهم. . .

أما العيوب التي عابه الناس بها فهي أمور كثيرة أذكر أهمها:

١ ـ أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطايع.

٢ ـ افتتحت أفريقية في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان.

٣ ـ طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعماية ألف درهم.

٤ ـ أعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر وأعطاه مائة ألف درهم.

٥ ـ تصدق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزوز على المسلمين فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

٦ ـ أقطع مروان فدك وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها تارة بالميراث وتارة بالنحلة فدفعت عنها.

٧ ـ حمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

٨ ـ أعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقية بالمغرب

وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

٩ ـ أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في نفس اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف.

١٠ ـ أتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسمها كلها في بني أمية.

١١ ـ تسييره لأبي ذر صاحب رسول الله إلى الربذة حيث مات في أرض غربة.

١٢ ـ ضربه لعبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه.

١٣ ـ كتابته الكتاب الذي يأمر فيه بقتل جماعة من المسلمين.

هذه عينات من المخالفات التي ارتكبها وقد حاول المصلحون رده عنها والتوبة منها فأبى...

وكما يقول ابن أبي الحديد: «وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ الناس من دمه»[1] وقد صرح بذلك في كثير من كلامه من ذلك قوله عليه السلام: «والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله» وصدق صلوات الله عليه.

(وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف وأرفق حدائهما العنيف) مواقف طلحة والزبير من عثمان معروفة مشهورة، فقد روى البلاذري من طريق ابن سيرين: لم يكن من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أشد على عثمان من طلحة.

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه: كان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه ـ على عثمان ـ وكان الزبير دونه في ذلك رووا أن الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم فقالوا له: إن ابنك يحامي عنه بالباب فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدىء بابني إن عثمان لجيفة على الصراط غداً.

وقول الإمام فيهما: أهون سيرهما فيه الوجيف وأرفق حدائهما العنيف مثل يضرب للمشمرين في الطعن عليه حتى أن السير السريع أبطأ ما يسيران في أمره والحداء العنيف أرفق وأيسر ما يحرضان به عليه فهما في أشد ما يكونان عليه.

(وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم فقتلوه وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين) أخذ أم المؤمنين عائشة ما يأخذ النساء من الضغن فراحت تشن الحرب على عثمان فقد روى الدينوري في الإمامة والسياسة: إن عائشة كانت أول من طعن على عثمان وأطمع الناس فيه وكانت تقول لابن عباس: إن الله قد أعطاك عقلاً وفهماً وبياناً فإياك أن

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٠٠.

ترد الناس عن هذا الطاغية وهي التي أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين عليها هذا ثوب رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سنته.

وقالوا: أول من سمى عثمان نعثلاً ـ اسم رجل يهودي بالمدينة ـ عائشة وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً... فكانت الحرب الإعلامية يقودها طلحة والزبير وأم المؤمنين وقد كان لهم قدرة على نشر فضائح عثمان وذكر معايبه حتى وصلت الأنباء إلى جميع الناس وعمت الشكاوى سائر طبقات المجتمع الإسلامي فتداعى عندها المخلصون لردعه وكفه فلم يفلحوا في ذلك فما كان منهم إلا أن أجهزوا عليه وقضوا على حياته وبعد أن قتل عثمان أقبل الناس نحو الإمام فهو الرجل الوحيد التي تتوجه الأنظار إليه وتحنّ إلى حكمه وعدله.

لقد زحفت الجماهير نحوه تطلب منه أن تبايعه فكان يدفعها لما يعلم من تطورات ستجري على الساحة وما تحمل هذه الحادثة من الفتن ولكن تحت شدة الطلب والإلحاح قبلها على أن تكون في المسجد أمام الملأ وبالاختيار التام الكامل وهكذا كان هجمت الجماهير على بيعته وقد بايعه طلحة وكانت أول يد تبايعه وقد تشاءم منها الناس لأنها شلاء ثم بايعه الزبير وهكذا سائر من حضر حتى أن نفراً توقفوا عن البيعة كعبد الله بن عمر وغيره لم يجبرهم على بيعته ولم يحملهم عليها بالقوة بل تركهم وشأنهم فقد كانت بيعة الناس له عن رغبة منهم فيه وعن اندفاع ولم يستكره أحداً أو يجبره وإذا وقعت البيعة بهذه الصورة كانت ملزمة للجميع فليس للحاضر الذي بايع أن يرجع وينكث وليس للغائب البعيد أن يختار وبهذا أصبح الإمام الخليفة الشرعي الذي يحق له إدارة حكم البلاد ويكون كل من يخرج عليه يخرج على السلطة الشرعية يجب قتاله ورده إلى الله وهكذا كانت سيرة الإمام استتابهم فلم يتوبوا أو يرجعوا فأعلن الحرب عليهم...

(واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها وجاشت جيش المرجل وقامت الفتنة على القطب فأسرعوا إلى أميركم وبادروا جهاد عدوكم إن شاء الله عز وجل) هذه خاتمة الكتاب يحثهم على الخروج معه ولقائه لحرب الناكثين يذكر أهل المدينة الذين خرجوا منها معه وتركوها للجهاد وبيّن أن المدينة قد اضطربت وتحركت كل قواها غضباً لله إنها تغلي كما يغلي القدر وتتحرك بسرعة وغضب منزعجة مما حدث وحصل.

ثم أخبرهم أن الفتنة قد وقعت تريد أن تقضي على القطب ـ المركز الأساس الذي تدور عليه الأمور وهو محورها ـ يريد شخصه الشريف لأنه قطب الإسلام وبيده الأمور ومنه تصدر... وربما يريد أن الفتنة قد تحركت ودارت وإذا كان الأمر كذلك فكان الهلاك والدمار وأخيراً أمرهم بأن يسرعوا إلى استجابته في جهاد عدوهم الذي يريد أن يفكك عرى الوحدة ويمزق شمل الأمة...

٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إليهم، بعد فتح البصرة

وَجَزَاكُمُ(١) ٱللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ(٢) عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي ٱلْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

اللغة

١ ـ جزاكم : من جزى الرجل بكذا وعلى كذا كافأه.

٢ ـ المصر : القطر.

الشرح

(وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته والشاكرين لنعمته فقد سمعتم وأطعتم ودعيتم فأجبتم) هذا الكتاب من الإمام لأهل الكوفة يشكر سعيهم ويثني على طاعتهم وانقيادهم فإنه عليه السلام المعلم والمهذب والمؤدب لا يفوته مدحهم والثناء عليهم كي يشد عزائمهم ويدفعهم إلى الخروج معه متى أراد مضافاً إلى أن النفس ترتاح إذا سمعت الثناء وتندفع في طريق الخير إذا وجدت من يعرف قيمتها ويحترم عملها وموقفها...

دعا لهم أن يعطيهم الله أحسن ما يعطي العاملين بطاعته الشاكرين لنعمته فإنهم قد أعطوا الطاعة وشكروا النعمة وسمعوا منه وأطاعوا أمره ودعاهم إلى الجهاد فلبوا وأسرعوا لقتال الأعداء...

٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام

لشريح بن الحارث قاضيه

وروي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام، اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك، فاستدعى شريحاً، وقال له:

بَلَغَنِي أَنَّكَ ٱبْتَعْتَ(١) داراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ(٢) فِيهِ شُهُوداً.

فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه نظر المغضب ثم قال له:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ(٣)، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً(٤)، وَيُسْلِمَكَ(٥) إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً(٦). فَٱنْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هٰذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ(٧) مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ ٱلآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هٰذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ.

والنسخة هذه: «هٰذَا مَا ٱشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ(٨) لِلرَّحِيلِ، ٱشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ(٩)، مِنْ جَانِبِ ٱلْفَانِينَ، وَخِطَّةِ(١٠) ٱلْهَالِكِينَ(١١). وَتَجْمَعُ هٰذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: ٱلْحَدُّ ٱلأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي(١٢) ٱلآفَاتِ(١٣)، وَٱلْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي ٱلْمُصِيبَاتِ(١٤)، وَٱلْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلْهَوَى ٱلْمُرْدِي(١٥)، وَٱلْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى

الشَّيْطَانِ ٱلْمُغْوِي(١٦)، وَفِيهِ يُشْرَعُ(١٧) بَابُ هذِهِ الدَّارِ. ٱشْتَرَى هذَا ٱلْمُغْتَرُّ(١٨) بِٱلأَمَلِ، مِنْ هـذَا ٱلْمُزْعَجِ بِٱلأَجَلِ(١٩)، هـذِهِ الـدَّارَ بِـٱلْخُرُوجِ مِـنْ عِـزِّ ٱلْقَنَاعَةِ(٢٠)، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ(٢١)، فَمَا أَدْرَكَ(٢٢) هذَا ٱلْمُشْتَرِي فِيمَا ٱشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ(٢٣)، فَعَلَى مُبَلْبِلِ(٢٤) أَجْسَامِ ٱلْمُلُوكِ، وَسَالِبِ(٢٥) نُفُوسِ ٱلْجَبَابِرَةِ(٢٦)، وَمُزِيلِ(٢٧) مُلْكِ ٱلْفَرَاعِنَةِ(٢٨)، مِثْلَ كِسْرَى(٢٩) وَقَيْصَرَ(٣٠)، وَتُبَّعٍ(٣١) وَحِمْيَرَ(٣٢)، وَمَنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ عَلَى ٱلْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ(٣٣)، وَزَخْرَفَ(٣٤) وَنَجَّدَ(٣٥)، وَٱدَّخَرَ(٣٦) وَٱعْتَقَدَ(٣٧)، وَنَظَرَ(٣٨) بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ(٣٩) جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ ٱلْعَرْضِ(٤٠) وَٱلْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ ٱلأَمْرُ بِفَصْلِ(٤٣) ٱلْقَضَاءِ «وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ» شَهِدَ(٤٤) عَلَى ذلِكَ ٱلْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ(٤٥) ٱلْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ(٤٦) الدُّنْيَا».

اللغة

١ ـ **ابتعت** : اشتريت.
٢ ـ **أشهدت فلاناً** : جعلته شاهداً.
٣ ـ **البينة** : الحجة، ما يظهر به الشيء وينكشف.
٤ ـ **الشاخص** : الذاهب والراحل وشخص بصره إذا فتحه وصار لا يطرف.
٥ ـ **يسلمك** : يسلمك ويعطيك.
٦ ـ **خالصاً** : صافياً محضاً.
٧ ـ **نقدت الثمن** : أي أعطيته أياه نقداً معجلاً.
٨ ـ **أزعج** : سيق وشخص.
٩ ـ **الغرور** : الباطل.
١٠ ـ **الخطة** : بالكسر الأرض يختطها الرجل لنفسه وهو أن يعلّم علامة ليبنيها داراً والمراد هنا البقعة والناحية.
١١ ـ **الهالكين** : الفانين، الميتين.
١٢ ـ **الدواعي** : الأسباب.

١٣ ـ **الآفات**	:	جمع آفة وهي الداء الذي يصيب الشيء .
١٤ ـ **المصيبات**	:	جمع مصيبة البلية وكل أمر مكروه .
١٥ ـ **المردي**	:	المهلك من الردى وهو الهلاك .
١٦ ـ **المغوي**	:	من الإغواء والمغوي المضل .
١٧ ـ **يشرع**	:	يُفتح .
١٨ ـ **اغتر**	:	انخدع .
١٩ ـ **الأجل**	:	الوقت، وقت الموت .
٢٠ ـ **القناعة**	:	الرضى بما قُسم له .
٢١ ـ **الضراعة**	:	الذلة .
٢٢ ـ **أدرك**	:	لحق .
٢٣ ـ **الدرك**	:	بالتحريك التبعة .
٢٤ ـ **مبلبل الأجسام**	:	مهيجها وموقعها في الهم ووسواس الصدور .
٢٥ ـ **سالب**	:	من سلب الشيء إذا انتزعه بالقهر والقوة .
٢٦ ـ **الجبابرة**	:	الملوك أو يكون الملوك أحد مصاديق الجبابرة .
٢٧ ـ **مزيل**	:	رافع .
٢٨ ـ **الفراعنة**	:	ملوك مصر .
٢٩ ـ **كسرى**	:	لقب ملك الفرس .
٣٠ ـ **قيصر**	:	لقب ملك الروم .
٣١ ـ **تبّع**	:	جمعه تبابعة ملوك اليمن .
٣٢ ـ **حمير**	:	بكسر أوله وفتح ثالثه أبو قبيلة من اليمن .
٣٣ ـ **شيد**	:	رفع البناء .
٣٤ ـ **زخرف الشيء**	:	زيّنه وحسنه .
٣٥ ـ **نجّد**	:	بتشديد الجيم زيّن .
٣٦ ـ **أدخر**	:	خبأ ما اكتسب .
٣٧ ـ **اعتقد مالاً**	:	جمعه والعقدة الضيعة والعقار .
٣٨ ـ **نظر للولد**	:	أعانه ورثاه .
٣٩ ـ **إشخاصهم**	:	إخراجهم وأشخص فلاناً إلى قومه إذا أرجعه إليهم .
٤٠ ـ **عرض الشيء عليه وله**	:	أراه إياه .
٤١ ـ **الفصل**	:	إبانة أحد الشيئين من الآخر .
٤٢ ـ **يوم الفصل**	:	يوم القيامة .
٤٣ ـ **فصل القضاء**	:	إبانة الحكم وإظهاره وتميز الحق من الباطل .

٤٤ ـ شهد على كذا : أخبر به خبراً قاطعاً، شهد به العقل وحكم به.

٤٥ ـ الأسر : القيد والحبس.

٤٦ ـ العلائق : جمع علاقة، الارتباط بالشيء.

الشرح

(بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت لها كتاباً وأشهدت فيه شهوداً) رقابة علوية دائمة تكشف حركة عماله ومسيرتهم... إنه الحاكم العادل الذي لا يغفل عن كل صغيرة أو كبيرة يقوم بها الموظفون ومن هم تحت أمرته وفي ضمن إدارته... وهذه موعظة بليغة ودرس رائع يلقيه إلى بعض من يمكن أن يكون قد انحرف في بعض تصرفاته واستغل مكانته الاجتماعية ووظيفته التي تولاها ليثري على حساب الحق ويغتني من الحرام...

هذا هو شريح بن الحارث القاضي على ثغر الكوفة وقد تولى هذا المنصب منذ زمن طويل يشتري داراً بثمانين ديناراً فيبلغ الخبر مسامع الإمام فيهزه النبأ وتتحرك في نفسه الشكوك فيستدعي شريحاً ويقول له:

بلغني إنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً أي وصلني خبر أنك اشتريت داراً بثمانين ديناراً وكتبت لها كتاباً ينقلها إليك ويثبت ملكيتها لك وأشهدت في ذلك شهوداً حتى يثبت البيع ويكون لك حجة على لزومه وانتقالها إليك.

ويسمع شريح مقالة الإمام وما وصله من الخبر فيقول شريح: كان ذلك يا أمير المؤمنين، لقد وقع ذلك كما سمعت وما بلغك هو الصحيح...

يقول الراوي: فنظر الإمام إلى شريح نظر المغضب... وغضب الإمام ونظرته تلك لم تكن إلا لأنه يحتمل أن يكون شريحاً قد امتدت يده إلى الحرام أو خالف أمراً إلهياً أو ارتشى حتى جمع هذا المبلغ الذي اشترى به هذه الدار... إنها نظرة غاضبة لله وليس لنفسه ثم قال له:

(يا شريح، أما أنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً) بعد أن نظر الإمام إلى شريح مغضباً التفت إليه بهذه الكلمات التي تمس عمق النفس وتذكر الإنسان بحقيقة لا بد له من الوصول إليها... نبهه إلى أمر سيدركه ويأتيه؛ إنه الموت أو ملك الموت الذي سيحل

بساحته بدون إذن منه ولا ينظر في هذا الكتاب ولا يسأل عن الحجة الشرعية فيه وليس بمقدور هذا المُلك أن يخلّد صاحبه في الدنيا بل سيأتي الموت فيخرجك عن هذه الدار قهراً عنك مرفوعاً على أكف الناس في نعشك يضعك في قبرك وحيداً فريداً قد تركت جميع ما ملكت وتخليت عن كل ما سعيت له... بدون مال ولا عقار ولا أهل ولا ولد...

(فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق) انظر يا شريح لدينك ودنياك فإنك إن كنت قد اشتريت هذه الدار من مال الناس أو من المال الحرام فإنك ستقع في خسران الدنيا من جهة أنني سأستردها منك ويفتضح أمرك وتسقط منزلتك من النفوس وإما خسران الآخرة فلأن الآخرة لا تكتسب إلا بالعمل الصالح وارتكابك للحرام لا يؤهلك لاكتساب الآخرة السعيدة فالحرام تخسر به الآخرة...

ثم نبهه إلى أمر وهو أنه لو أتاه قبل شرائه هذه الدار لكتب إليه كتاباً زهده في شرائها ولم يعد يقدم عليها بدرهم فما دون زهداً بها وعدم رغبة.

ثم بيّن له ما كان يريد أن يكتبه إليه...

(هذا ما اشترى عبد ذليل من ميت قد أزعج للرحيل اشترى منه داراً من دار الغرور، من جانب الفانين وخطة الهالكين) هذه هي الديباجة التي تكتب في صكوك التمليك والبيع المتعارفة عند أهل الدين والشرع يكتبون اشترى فلان من فلان داراً أو عقاراً أو غيرهما ثم يذكر حدود ما اشترى من جهاته الأربع.

وابن أبي الحديد يقول: إنه عليه السلام أملى عليه كتاباً زهدياً وعظياً مماثلاً لكتب الشروط التي تكتب في ابتياع الأملاك ثم يقول... وهذا يدل على أن الشروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها إلا أنا ما سمعنا عن أحد منهم نقل صيغة الشرط الفقهي إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام ولا غرو فما زال سباقاً إلى العجائب والغرائب...

وعلى كل حال ابتدأ ـ كما هي العادة ـ بذكر المشتري: هذا ما اشترى عبد ذليل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً من ميت قد أزعج للرحيل البائع ميت قد أخرج من دار الدنيا إلى الآخرة باعتبار أن الموت له بالمرصاد ولا مناص له منه.

ثم بيّن الأمر المشتري اشترى داراً من دار الغرور. . . إنها دار تغرّ الإنسان وتغويه وتجذبه إليها فيطمئن ثم تصرعه بعد ذلك فتدعه ميتاً.

إنها دار منتقلة عن الفانين والهالكين. . . من ناحيتهم قد جاءت وعنهم قد انتقلت وهم هلكى ومن أهل الفناء. . .

(وتجمع هذا الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي وفيه يشرع باب هذه الدار) هذه الحدود هي ما نراه في الدنيا. . . فكل دار تنتهي إلى ذلك فهناك الحد الأول الذي ينتهي إلى أسباب العاهات التي تهلك الإنسان والحد الثاني ينتهي إلى أسباب المصيبات وفقد الأحبة وفراق الأعزة والحد الثالث يوصل الإنسان إلى الهلاك والحد الرابع ينتهي بهذا الإنسان إلى الشيطان المغوي الذي يقوده إلى المعصية والانحراف ومن هذا الحد الرابع يفتح باب هذه الدار فيدخلها كل فساد ومعصية لأنه باب داخل في حد الشيطان المغوي. . .

(اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة والدخول في ذل الطلب والضراعة) اشترى هذا المغتر بالأمل وهو شريح الذي كان يأمل أن يعمّر طويلاً ويتمتع كثيراً اغتراراً منه وغفلة اشترى من هذا الرجل الذي انتهى أجله في دار الدنيا وأوشك على الرحيل عنها اشترى هذه الدار التي أخرجته من عز القناعة إلى ذل الحاجة لأن من لم يقنع بالقليل امتد بصره إلى الكثير وهذا يكلفه التنازل عن كثير من كرامته من أجل الوصول إلى بغيته. . .

(فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى منه من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة ومزيل ملك الفراعنة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير ومن جمع المال على المال فأكثر ومن بنى وشيّد وزخرف ونجد وادخر واعتقد ونظر بزعمه للولد) بيّن عليه السلام أن هذا المشتري يدرك ما يلحقه من نقص يكون في هذه الدار يدرك ذلك عند الله وعلى الله أن يوقف الجميع للحساب ويفصل بين الحق والباطل. . .

فما يعرض من نقص فعلى الله ضمانه الذي أهلك أجسام الملوك وبعثرها وبددها وكتب عليها الفناء. وسلب نفوس الطغاة وأزال ملك الفراعنة مثل كسرى فارس وقيصر الروم وتبع ملك اليمن وحمير أحد ملوك العرب ومن جمع المال على المال فأكثر وأوعى ومن بنى الأبنية وشيد المباني العالية وزين البيوت وعلاها أو فرشها بما يزينها من السجاد والبسط، وكذلك من اكتسب المال وادخره ليوم الحاجة واقتنى الضياع والعقار وغيرها

ونظر بزعمه للولد أي نظر فيما يصلحهم بعده وما يوفر لهم حياة السعادة. . .

(أشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب إذا وقع الأمر بفصل القضاء وخسر هنالك المبطلون) إن على الله الذي بيده كل ما تقدم من الأمور إشخاصهم أي إخراجهم جميعاً. . . إنه سبحانه سيحضر البائع والمشتري في ساحة المحكمة وعندها تعرض الأعمال والأقوال والأفعال ويحاسب فيها الناس فيأخذ المطيع جزاءه من الثواب ويأخذ العاصي جزاءه من العقاب وهناك يفصل في الحكم فلا تبقى قضية معلقة لم تفصل أو مجهولة غير معروفة الوجه. . . إن الله إذا أمر بالحساب انتهت كل الأمور وانكشفت كل القضايا على حقيقتها وهنالك يخسر المبطلون ويربح المحقون. . .

وأخيراً قال: إن العقل إذا لم يحكمه الهوى والشهوة وتشده الدنيا بما فيها من مال وجاه وسلطان وغيرها مما يحكم التوجه الصحيح سوف يحكم بما قلت ويذهب إلى ما شرحت وبينت. . .

ترجمة شريح بن الحارث الكندي.

شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع ـ بالتشديد للتاء ـ الكندي. . .

وفي أسد الغابة: إنه أدرك النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ولم يلقه. . . استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فقضى بها أيام عمر وعثمان وعلي ولم يزل بها قاضياً إلى أيام الحجاج فاستعفاه من العمل فأعفاه بقى قاضياً ستون سنة وقال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً وهو أحد السادات الطلس[1].

وكان شريح خفيف الروح مزاحاً دخل عليه عدي بن أرطأة فقال له: أين أنت أصلحك الله.

فقال: بيني وبينك الحائط.

قال: استمع مني.

قال: قل أسمع.

---

(١) الأطلس: الذي لا شعر في وجهه.

قال: إني رجل من أهل الشام.

قال: من مكان سحيق.

قال: تزوجت عندكم.

قال: بالرفاء والبنين.

قال: وأردت أن أرحلها.

قال: الرجل أحق بأهله.

قال: وشرطت لها دارها.

قال: الشرط أملك.

قال: فاحكم الآن بيننا.

قال: قد فعلت.

قال: فعلى من حكمت.

قال: على ابن أمك.

قال: بشهادة من؟.

قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وشريح هذا هو الذي رد قوم هاني بن عروة عندما أحاطوا بقصر الإمارة لما بلغهم مقتله فأخبرهم بسلامته فعادوا...

وهذا هو أيضاً الذي لم ينصر الحسين ابن بنت رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ على الطغاة الظالمين...

وفي أخبارنا أنه عمل قاضياً للإمام في الكوفة ولكن اشترط عليه الإمام أن لا يمضي حكماً حتى يراجعه فيه.

٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض أمراء جيشه

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ(١) ٱلأُمُورُ بِٱلْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ(٢) وَٱلْعِصْيَانِ فَٱنْهَدْ(٣) بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَٱسْتَعِنْ بِمَنِ ٱنْقَادَ(٤) مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ(٥) عَنْكَ، فَإِنَّ ٱلْمُتَكَارِهَ(٦) مَغِيبُهُ(٧) خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ(٨)، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

اللغة

١ ـ توافت : تمت واجتمعت.

٢ ـ الشقاق : المخالفة والعداوة.

٣ ـ أنهد : أنهض.

٤ ـ انقاد : أطاع.

٥ ـ تقاعس : أبطأ وتأخر.

٦ ـ المتكاره : المتسخط الذي يتثاقل لكراهته للحرب.

٧ ـ مغيبه : غيابه وعدم وجوده.

٨ ـ مشهده : حضوره.

الشرح

(فإن عادوا إلى ظل الطاعة فذاك الذي نحب وإن توافت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك واستغن بمن انقاد معك عمّن تقاعس عنك فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده وقعوده أغنى من نهوضه) هذه رسالة إلى والي البصرة وفي بعض الشروح استناداً إلى بعض المصادر أنه عثمان بن حنيف الذي تولاها

من قبل الإمام وكان أصحاب الجمل قد وافوه فكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بخبرهم فكتب الإمام إليه هذه الرسالة. . .

إن أصحاب الجمل قد نكثوا البيعة وفارقوا الجماعة وخرجوا عصاة لله متمردين على الحاكم الشرعي فعليك أن تعظهم وتخوفهم فإن عادوا ورجعوا عن تمردهم والتحقوا بصفوف الجماعة ودخلوا مع الأمة فذاك الذي نحب لأن تمردهم يضر بالأمة ويفتت الوحدة فإن رجعوا فهذا الذي نحبه ونريده وهو مطلبنا الأساس.

وأما إذا رفضوا العودة عن الخطأ والتقوا كلهم وتوحدت آراءهم واجتمعوا يداً واحدة على الفرقة وشق عصا المسلمين فانهض إليهم بمن معك ولا تكره أحداً لا يريد القتال. . .

ثم قسّم الناس كما هم في واقع الحال إلى ثلاثة أقسام قسم معك يؤيدونك ويقاتلون معك وقوم ضدك ويبغون حربك خارجون على حكمك، وقوم متقاعسون يكرهون القتل والقتال جبناء عن ملاقاة الأعداء.

وهنا الإمام يوجهه إلى أن ينهض بمن معه وعلى رأيه إلى من هو ضده من عدوه الذي يريد حربه ويعصي أمره فيواجهه في ساحة الجهاد والنضال. . . قاتل بمن معك من هم عليك واترك أهل التقاعس والجبن ولا تستكره منهم أحداً فإن هؤلاء إذا غابوا عن الساحة كان غيابهم أفضل من حضورهم، وجلوسهم في بيوتهم خيراً من خروجهم، لأنهم يملكون روح الإنهزام والتثبط والإحباط فيُخشى أن ينشروا هذه الروح بين المقاتلين فيكون خطرهم كبيراً ومن هنا يكون قعودهم أفضل من قيامهم وغيابهم أحسن من حضورهم وهذا ما أخبر القرآن عنهم في قوله: ﴿**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا**﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، آية/٤٨.

٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أشعث بن قيس عامل أذربيجان(١)

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ(٢) وَلكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى(٣) لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ(٤) فِي رَعِيَّةٍ(٥)، وَلاَ تُخَاطِرَ(٦) إِلاَّ بِوَثِيقَةٍ(٧)، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ(٨) حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ أذربيجان : اسم أعجمي غير مصروف والنسبة إليه أذري.

٢ ـ الطعمة : بضم الطاء المأكلة.

٣ ـ مسترعى : على هيئة المفعول أي من استرعاه آخر فوقه أي طلب حفظ أمر من الأمور.

٤ ـ تفتات : مضارع أفتأت وأصله فأت وأفتأت برأيه استبد.

٥ ـ الرعية : المرعية عامة الشعب.

٦ ـ تخاطر : من المخاطرة وهي الإقدام على الأمور العظام والإشراف فيها على الهلاك.

٧ ـ الوثيقة : ما يحتاط به المرء لنفسه من صك أو تعهد أو رهن أو غير ذلك.

٨ ـ الخزّان : جمع خازن وهو الذي يتولى حفظ المال المخزون.

الشرح

(وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة وأنت مسترعى لمن فوقك) هذه رسالة كتبها الإمام إلى الأشعث بن قيس وقد كان عاملاً لعثمان عندما قتل

ولما تولى الإمام الأمر ورأى الأشعث يتصرف في الأموال كيفما يشاء وحسبما يريد كتب إليه هذا الكتاب يقول له فيه:

إن عملك وما تجنيه منه من خراج وجباية وأموال أهل الذمة وغيرها ليس ملكاً شخصياً لك تجمعه وتتصرف فيه كما تشاء... وإنما هو أمانة ـ لأنه من الأموال العامة ـ التي هي ملك المسلمين وترجع إليهم وأنت حافظ له ومؤتمن عليه يجب أن تراعي المصلحة فيه قد وضعك من فوقك راعياً عنه وأنت مسؤول أمامه عن كل تصرف تقوم به فيه... فأنت مسؤول أمام الخليفة الذي جعلك مسؤولاً عن هذه الأموال وهو فوقك يسألك عنه ويحاسبك عن كل تصرف فيه...

(**ليس لك أن تفتات في رعية ولا تخاطر إلا بوثيقة**) وهذه لفتة كريمة وتوجيه عظيم... إنها التعاليم التي يجب لكل من تولى أمراً أن يحفظها ويرعاها وينفذ مدلولها... وهي أن العامل ليس له أن يستبد في الأمور المالية للرعية ويتصرف في أموالها مستقلاً دون أن يراجع ولي الأمر والخليفة لأن الدولة لها سياستها المالية ومشاريعها وخططها فيجب أن يكون ولي الأمر على كامل الإطلاع في سياسة المال حتى يضع الثروة في محلها اللازم... وكذلك نبهه إلى أن من الواجب عليه أن لا يخاطر في هذا المال ويعرضه للهلكة والتلف بل يجب عليه أن يأخذ به وثيقة تحفظه لئلا يضيع فإذا أقرض أحداً يجب أن يكتب عليه كتاباً يحفظ بموجبه هذا المال...

(**وفي يديك مال من مال الله عز وجل وأنت من خزانه حتى تسلّمه إليّ ولعلي ألاّ أكون شر ولاتك لك والسلام**) ثم قرّر أن بين يدي الأشعث مال من أموال الله وهو لعباد الله وأنت من خزانه وحفظته ومسؤول عنه حتى تسلمه إليَّ فكل نقص يطرأ عليه تحاسب به وتسأل عنه حتى تسلمه إليَّ كما استلمته من أربابه ثم أشار إلى أنه عليه السلام ـ وفيه شيء من الإيناس وتطيب الخاطر بعد البيان السابق ـ لن يكون أقسى الخلفاء عليه وأشدهم إذا لزم الحق واتبعه. وهكذا يقرر الإمام أن يحاسب عماله ولا يتركهم في فوضى كل واحد منهم يستقل في عمله ويطمئن إلى ما يقوم به دون محاسب أو رقيب.

٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ(١) أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى(٢) لِلْمُهَاجِرِينَ(٣) وَٱلأَنْصَارِ(٤)، فَإِنْ ٱجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ للهِ رِضًى، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ(٥) أَوْ بِدْعَةٍ(٦) رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى ٱتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ(٧)، وَوَلاَّهُ ٱللهُ مَا تَوَلَّى.

وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ(٨) عَنْهُ إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى(٩)؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ **الشاهد** : الحاضر.

٢ ـ **الشورى** : فعلى من المشاورة وهي الحوار في الكلام ليظهر الحق وشاورته واستشرته راجعته لأرى رأيه فيه.

٣ ـ **المهاجرين** : هم المسلمون الذين تركوا مكة وهاجروا إلى المدينة زمن رسول الله.

٤ ـ **الأنصار** : هم المسلمون الذين يسكنون المدينة وقد استقبلوا النبي عند قدومه إليها.

٥ ـ **الطعن** : العيب.

٦ ـ **البدعة** : ما أحدث على غير مثال، إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.

٧ ـ **سبيل المؤمنين** : طريقهم وما هم عليه.

٨ ـ العزلة : الاعتزال وهو الانفراد عن الناس.

٩ ـ تجنى عليه : رماه بإثم لم يفعله.

الشرح

(إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد) هذه الرسالة بعثها الإمام إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي وفيها بيان بعض الخصوصيات التي أحاطت بالإمام وتم فيها انتخابه.

إنه قد بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وهم المهاجرون والأنصار وجميع المسلمين المقيمين في المدينة على ما بايعوهم عليه من لزوم الطاعة وجهاد العدو والإعانة على البر والتقوى وحفظ الدين وحياطته ورعاية المسلمين وتوفير مواردهم وإسعادهم في دنياهم وآخرتهم وكل ما يريده الله منهم وإذا تمت البيعة فليس للحاضر وهو الذي عبّر عنه الشاهد المبايع أن يختار غيري لأن الاختيار إنما يكون قبل إتمام البيعة أما بعدها فلا كما أنه ليس للغائب البعيد عن المدينة أن يرد ما انعقدت عليه البيعة أو يرفض ذلك.

(وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى) إذا تم اتفاق المهاجرين والأنصار على رجل لإمامة المسلمين فقد تعين إماماً وكان في ذلك الاختيار لله رضى فإنهم لا يجتمعون على باطل قطعاً لوجود الإمام معهم لأنه سيدهم ورأسهم، أو كان هو نفسه مختارهم للخلافة فإن وجوده معهم يعصمهم عن الخطأ.

(فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى) بعد اجتماع المهاجرين والأنصار على رجل ورضاهم به إماماً لهم فإن خرج بعد ذلك على اجتماعهم هذا خارج عليهم بأن طعن عليهم فيمن اختاروا ولم يوافق عليه ويرضاه أو جاء ببدعة جديدة مخالفة لذلك الإجماع بأن بايع لخليفة آخر مع إتمام البيعة للأول ردوه إلى الجماعة وأعادوه إلى رشده وأدخلوه في ظلال الطاعة ولزوم الجماعة فإن أبى العودة والرجوع إلى ما خرج منه وأصر على موقفه المتمرد فإن على المسلمين أن يقاتلوه لمخالفته سبيل المؤمنين وما تمّ عليه اجتماعهم وولاه الله ما تولى تركه وما اختاره من السوء من حيث إن هذه المخالفة عاقبتها النار وبئس القرار وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له**

الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ وكأن هذا يستبطن التهديد لمعاوية إن تمرد أو خالف ما اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وهو إمامة أمير المؤمنين.

(ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى فتجنّ ما بدا لك والسلام) أقسم عليه السلام بحياته تعزيزاً لما يقوله وتقوية له أنه لو نظر معاوية بعين عقله وفكر قليلاً وتخلى عن هواه وميوله لوجد الإمام أبرأ الناس وأطهرهم من دم عثمان وقد كان معتزلاً لم يشارك في قتله ولم يحرض على ذلك كما فعل غيره من المسلمين كطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وعمرو بن العاص وغيرهم من الأقطاب الذين عابوه وحرضوا على قتله ثم أرادوا أن يستثمروا دمه لمصالحهم الشخصية ومنافعهم الدنيوية.

ثم قال له: إن هذا هو موقفي وإذا أردت أن تفتري عليّ زوراً وبهتاناً فافتري عليّ بما تشاء وكيفما تشاء فإنك لن تضرني بشيء.

هذا هو موقف الإمام وهو معروف مشهور كل من يحترم نفسه ودينه ورأيه ونزاهته يذهب إليه ويكفي لبراءته وطهارة ساحته ما هو معروف من مبدئيته وقدسيته وأنه لو لم يكن أبرأ الناس ما تبرأ أبداً نفهم هذا ونعقله من علي وسيرته طيلة حياته...

٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إليه أيضاً

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ(١)، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ(٢)، نَمَّقْتَهَا(٣) بِضَلاَلِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا(٤) بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ ٱمْرِىءٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ(٥) يَهْدِيهِ، وَلاَ قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ ٱلْهَوَى فَأَجَابَهُ وَقَادَهُ الضَّلاَلُ فَٱتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ(٦) لاَغِطاً(٧)، وَضَلَّ(٨) خَابِطاً(٩).

ومنه: لأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ يُثَنَّى(١٠) فِيهَا النَّظَرُ، وَلاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا ٱلْخِيَارُ. ٱلْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَٱلْمُرَوِّي(١١) فِيهَا مُدَاهِنٌ(١٢).

اللغة

١ ـ موصّلة : من وصل الشيء بالشيء أي لأمه بمعنى ربطه والمراد هنا ملفقة من هنا وهناك غير مترابطة.

٢ ـ محبّرة : مزيّنة.

٣ ـ التنميق : التزيين.

٤ ـ أمضيتها : أنفذتها أو من الإمضاء بمعنى التوقيع.

٥ ـ البصر : العين، والمراد هنا بصر القلب.

٦ ـ الهجر : الهذيان.

٧ ـ اللاغط : ذو اللغط وهو الكلام غير البيّن لما فيه من الجلبة والاختلاط.

٨ ـ ضلّ : لم يهتد.

٩ ـ الخبط : الحركة على غير نظام.

١٠ ـ لا يثنّى : لا ينظر فيها ثانياً بعد النظر الأول.

١١ ـ المرويّ : المتفكر في قبوله الشيء ورفضه.

١٢ ـ المداهن : المنافق، المصانع.

الشرح

(أما بعد فقد أتتني منك موعظة موصّلة ورسالة محبّرة نمقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك) هذه الرسالة بعث بها الإمام إلى معاوية رداً على رسالة كان معاوية قد كتبها إليه وفي هذه الرسالة حملة عنيفة على معاوية وعلى رسالته لما فيها من الهجر والهوى والإسفاف ومن سيئات الزمن أن يكتب علي لمعاوية ويصبح هذا الصعلوك ـ ومعاوية كما هو معروف من الصعاليك ـ نداً يقف في وجه ابن أبي طالب ولكنها الدنيا الدنية. . .

يكتب الإمام إلى معاوية يخبره أن رسالته قد وصلت إليه وفيها موعظة غير مترابطة ولا متلاحمة ولم تقع في محلها ولم تخرج من معدنها. . .

معاوية الطليق ابن الطليق الذي ضربه الإمام حتى أدخله الإسلام كرهاً يوجِه رسالة إلى الإمام يعظه فيها. . . وهل هذه الموعظة إلا على مستوى موعظة الكافرين للأنبياء. . .

إنها رسالة فيها موعظة لكنها ملتقطة من هنا وهناك لا يجمعها نظام ولا يوحّدها هدف لأن علياً ليس فيه مغمز يستطيع معاوية أن يدخل منه إلى موعظته. . .

إنها رسالة محبرة منسقة مزينة ظاهرها أنيق مطلية بطلاء يظهر منه الجودة وإن كانت في الداخل فاسدة. . ، إنها رسالة زينها معاوية بضلاله حيث احتال على العبارة فأظهرها بمظهر الموعظة وإن كانت في عمقها تدل على الانحراف وسوء النية والقصد القبيح. . . فهو ربما نطق بكلمة الحق ليقتل الحق وربما لهج بالإسلام من أجل القضاء على الإسلام وهذه الرسالة منمقة ومزينة بألفاظ منها التقوى وإن كانت في عمقها تحمل السم والانحراف والاستغلال، إنه أنفذها بما يحمل من رأي سيىء يقصده من ورائها ويسعى إليه من خلفها. . .

(وكتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه فهجر لاغطاً وضل خابطاً) إنه كتاب رجل لم ينظر بعقله إلى مواقع الهداية والرشد لقد فقد التفكير في السبل الآيلة إلى سعادة الآخرة فلا قائد من دين أو ضمير يأخذ به إلى الاستقامة والعدل ومن شدة خطره أنه استجاب لأهوائه وشهواته وميوله بمجرد أن دعته هذه إلى الانحراف والرذيلة. . . لقد قاده الضلال ـ بدل الهدي والرشد ـ فاتبعه دون مناقشة أو ردّ أو إشكال أو توقف فكان حديثه ومنه كتابه هذا بحمل اللغط

والهذيان ولا يكاد يفهم لسوئه وانحرافه... إنه يتحرك على غير هدى من الله ولا طريق له يرشده إلى الخير...

(لأنها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن والمرويّ فيها مداهن) أخبرها أنها بيعة واحدة قد تمت وكملت واستجمعت شرائط صحتها فلا يجوز أن يعاد النظر فيها مرة أخرى... يعنى ليست محلاً للشك ولا يجوز أن تكون مورد الأخذ والرد.

كما أنها ليست بعد وقوعها مورداً لخيار تُرد أو تُبطل فيه.. إنها مستحكمة لازمة في أعناق الجميع...

وإذا لزمت واستقرت فمن خرج منها فهو طاعن فيها معيب لها يستحق أن يؤدب ويعاقب ويرد إلى الطاعة ولا يجوز أن يخرج عليها أو يعيبها...

وأما المتروي الذي يفكر في قبولها وعدم القبول بعد وقوعها فهو منافق لأنه بعد وقوعها وإتمامها وتعيين الخليفة يكون المتروي فيها والمترقب الذي يرصد الأحداث المستجدة يكون منافقاً لا يريدها واقعاً ولذا يتربص حتى ينقض عليها فهو يتوقف عن إبداء الرأي وعن مساندتها والوقوف إلى جانبها لذلك...

٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱحْمِلْ مُعَاوِيَةَ(١) عَلَى ٱلْفَصْلِ(٢)، وَخُذْهُ بِٱلأَمْرِ ٱلْجَزْمِ(٣)، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ(٤)، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ(٥) فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَٱنْبِذْ إِلَيْهِ(٦)، وَإِنِ ٱخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ احمل على الأمر : ألزمه به وحمله على الأمر أغراه به.
٢ ـ الفصل : الحكم القطعي وبدون تردد وأصله القطع وإبانة أحد الشيئين عن الآخر.
٣ ـ الجزم : القطع.
٤ ـ المجلية : من الإجلاء وهو الإخراج من الوطن قهراً.
٥ ـ المخزية : المهينة، المذلة.
٦ ـ انبذ إليه : أعلن عليه الحرب وأصل النبذ الإلقاء والرمي.

الشرح

(أما بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل وخذه بالأمر الجزم ثم خيره بين حرب مجلية أو سلم مخزية فإن اختار الحرب فانبذ إليه وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام) هذه الرسالة موجهة إلى جرير بن عبد الله البجلي رسول الإمام إلى معاوية في الشام وكان الإمام قد أرسله لأخذ البيعة ولكن معاوية استعمل معه سياسة التأخير والتسويف وأخذ يماطل جريراً ويدافعه فلما استبطأ الإمام ذلك كتب هذه الرسالة.

إذا أتاك كتابي فلا تترك معاوية يتلاعب بك ويؤخرك ويماطلك ولا يعطيك الجواب

الحاسم بل ألزمه بالقول الفصل واجعله يختار ويحسم أمره بين إعطاء البيعة أو إعلان الحرب، إما الحرب التي تخرجه عن الشام وتجليه عنها وإما السلم المخزية لأنه أعطى الطاعة ورضي البيعة بعد تريث وتأخير ولم يكن السبّاق في التسليم بالأمر والمبادرة للبيعة ومن تأخر عن المبادرة ليس له إلا العزل المخزي. . .

ثم أمره أنه إذا اختار الحرب فأعلنها عليه وارميها إليه أي آذنه بها وقد شبهه بالكافرين إذا أراد الحرب ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين**﴾.

ثم إذا اختار البيعة فليأخذ البيعة منه كما أخذت من المسلمين. . .

٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَٱجْتِيَاحَ[١] أَصْلِنَا[٢]، وَهَمُّوا بِنَا ٱلْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا ٱلأَفَاعِيلَ[٣]، وَمَنَعُونَا ٱلْعَذْبَ[٤]، وَأَحْلَسُونَا[٥] ٱلْخَوْفَ، وَٱضْطَرُّونَا[٦] إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ[٧]، وَأَوْقَدُوا[٨] لَنَا نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَعَزَمَ ٱللهُ[٩] لَنَا عَلَى الذَّبِّ[١٠] عَنْ حَوْزَتِهِ[١١]، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ[١٢]. مُؤْمِنُنَا يَبْغِي[١٣] بِذلِكَ ٱلأَجْرَ[١٤]، وَكَافِرُنَا يُحَامِي[١٥] عَنِ ٱلأَصْلِ. وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ[١٦] مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ[١٧] يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ[١٨]، فَهُوَ مِنَ ٱلْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ[١٩] وَأَحْجَمَ[٢٠] النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى[٢١] بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ[٢٢] وَٱلأَسِنَّةِ[٢٣]، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ ٱلْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ[٢٤]، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ[٢٥]، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ[٢٦]. وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلكِنَّ آجَالَهُمْ[٢٧] عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ[٢٩] أُجِّلَتْ. فَيَاعَجباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ[٣٠] بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ[٣١] بِقَدَمِي[٣٢]، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي[٣٣] الَّتِي لاَ يُدْلِي[٣٤] أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِي مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ، وَلاَ أَظُنُّ ٱللهَ يَعْرِفُهُ. وَٱلْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا ٱلأَمْرِ،

فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلاَ إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ(٣٥) عَنْ غَيِّكَ(٣٦) وَشِقَاقِكَ(٣٧) لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ(٣٨) طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلاَ بَحْرٍ، وَلاَ جَبَلٍ وَلاَ سَهْلٍ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ(٣٩) وِجْدَانُهُ(٤٠)، وَزَوْرٌ(٤١) لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ(٤٢)، وَالسَّلاَمُ لأَهْلِهِ.

اللغة

١ ـ الاجتياح : الاستئصال والهلاك.

٢ ـ أصلنا : الأصل أسفل الشيء ما يقابل الفرع.

٣ ـ الأفاعيل : الإساءات، الأفعال المنكرة.

٤ ـ العذب : السائغ الطيب من العيش والشراب وغيرها.

٥ ـ أحلسونا : من الحلس وهو كساء رقيق يكون تحت بردعة البعير وهنا يقصد به ألزمونا.

٦ ـ اضطرونا : ألجأونا.

٧ ـ الوعر : المكان الصلب الغليظ أو المخيف، ضد السهل.

٨ ـ أوقد النار : أشعلها والحرب أدارها.

٩ ـ عزم الأمر : جد فيه والعزم الثبات والشدة.

١٠ ـ الذبّ : الدفع والمنع.

١١ ـ الحوزة : الناحية وحوزة الله دينه وشريعته.

١٢ ـ الحرمة : ما لا يحلّ انتهاكه.

١٣ ـ يبغي : يطلب.

١٤ ـ الأجر : الثواب.

١٥ ـ يحامي : يدافع.

١٦ ـ خلو : خالٍ.

١٧ ـ الحلف : العهد.

١٨ ـ يقوم دونه : يدفع عنه ويحامي فلا يسمح لأحد بالوصول إليه.

١٩ ـ احمرار البأس : اشتداد القتال.

٢٠ ـ أحجم الناس : تأخروا ونكصوا.

٢١ ـ وقى بهم : صان وستر عن الأذى أي دفع بهم عن غيرهم.

٢٢ ـ حر السيوف : شدة وقعها.

٢٣ ـ الأسنة	:	جمع السنان نصل الرمح.
٢٤ ـ بدر	:	بالفتح ثم السكون ماء مشهور بين مكة والمدينة وفيه كانت أولى غزوات النبي ضد قريش.
٢٥ ـ أحد	:	بضم أوله وثانيه معاً اسم لجبل ظاهر المدينة كانت عنده الغزوة المشهورة.
٢٦ ـ مؤتة	:	موضع جنوبي شرقي بحر لوط كانت الواقعة بين المسلمين والروم.
٢٧ ـ آجالهم	:	جمع الأجل وهو وقت الموت.
٢٨ ـ عجلت	:	أسرعت.
٢٩ ـ المنية	:	الوفاة، الموت.
٣٠ ـ يقرن بي	:	يجعل لي قرناً ومشابهاً ومقابلاً والقرن: النظير والشبيه.
٣١ ـ لم يسع	:	من السعي وهو العمل والمشي.
٣٢ ـ القدم	:	ما بين طرف إبهام الرجل وطرف العقب، والقدم التقدم في الأمر وقدم صدق سابقة صدق.
٣٣ ـ السابقة	:	يقال له سابقة في هذا الأمر أي إنه سبق الناس إليه.
٣٤ ـ يدلي	:	يتوسل.
٣٥ ـ نزع عنه	:	كف وارتدع.
٣٦ ـ الغي	:	الضلال.
٣٧ ـ الشقاق	:	الخلاف.
٣٨ ـ لا يكلفونك	:	من الكلفة وهي المشقة.
٣٩ ـ يسوءك	:	ضد يسرّك.
٤٠ ـ الوجدان	:	مصدر وجدت كذا أي أصبته.
٤١ ـ الزور	:	الزائر.
٤٢ ـ لقيانه	:	بضم اللام وكسرها مصدر من لقيت فلاناً أي صادفته ورأيته.

الشرح

(فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل ومنعونا العذب وأحلسونا الخوف واضطرونا إلى جبل وعر وأوقدوا لنا نار الحرب) هذه الرسالة رد على رسالة لمعاوية كان قد أرسلها إليه يطلب فيها زوراً وبهتاناً تسليم قتلة عثمان إليه وقد ذكر الإمام خلالها أعمال الهاشميين وجهادهم وبعض مناقبهم وما مرّ عليهم من القهر والاضطهاد في ابتداء الدعوة...

يذكر الإمام أن قريشاً أرادت قتل النبي والتقت بكل قبائلها على التخلص منه والانتهاء كلياً من الهاشميين الذين وقفوا إلى جانبه ومن ألقى نظرة سريعة على ما جرى من أحداث في ابتداء الدعوة وخصوصاً في مكة يستكشف مدى الخطر الذي كان يحيق بالنبي وآله وأنه لولا أبو طالب لم يستطع النبي أن يعلن كلمة الحق ويصرخ في وجه قريش ويدعوها إلى الإيمان ولو قدر على ذلك لم يأمن على نفسه من التلف ولكن وجود أبي طالب الذي أخذ على نفسه حمايته وحماية دعوته كان السند الأساس في ذلك واستطاع النبي أن يصدع بالأمر ويعلن الإسلام دون أن يمس شخصه الشريف بأذى وقد حاربته قريش وحاصرته في الشعب وكتبت صحيفة المقاطعة التي حرمت بموجبها الزواج من الهاشميات والهاشميين وقطع العلاقات التجارية والاجتماعية وغيرها ولكن كل ذلك لم يؤثر على النبي ودعوته بل بقي على إصراره وإلى جانبه شيخ الأبطح ينصره ويشد عزيمته. . .

لقد كانت الأيام صعبة في أشد ما تكون الأيام صعوبة وقد هموا بنا الهموم أي قصدونا بكل الإساءات والاعتداءات وتجاوزوا حدود الأعراف والقوانين وحاربونا بكل ما يملكون من وسائل.

ومنعونا العذب أي الحياة الطيبة العذبة وأي حياة هي تلك التي يحاصر فيها الإنسان مع أهله وأسرته والأقربين ويمنع من ممارسة حقه في الحرية والحياة العامة. . . يحاصر اقتصادياً ويحارب اجتماعياً وسياسياً. . .

وأحلسونا الخوف أي جعلونا نعيش في حالة خوف دائمة بحيث عاش الخوف في قلوبنا لأن الحصار الذي فرضته قريش والصحيفة التي كتبتها لمقاطعة الهاشميين والأعمال التي كانت تصدر منهم كل ذلك يشكل تهديداً للحياة والوجود واضطرونا إلى جبل وعر: أي ألزمونا إلى أن ننحاز إلى شعاب مكة ونتخذها مقاماً لنا وهي صعبة قاسية.

ثم أخيراً شنوا علينا الحرب أي أعلنوها وقاموا بها.

(فعزم الله لنا على الذب عن حوزته والرمي من وراء حرمته مؤمننا يبغي بذلك الأجر وكافرنا يحامي عن الأصل) أراد الله لنا أن ندفع عن دينه وشريعته ونقاتل من أجل المقدسات التي تتجسد كلها في محمد ورسالته. . . إننا بني هاشم انتدبنا الله للدفاع عن الدين المتجسد بالنبي المؤمن منا يدفعه إيمانه ويطلب بذلك الأجر والثواب والكافر منا يدفع عن محمد غيرة وحفظاً للأنساب من الاستئصال فالحمية كانت تدفع كافرنا للوقوف

في وجه من يريد أن يقتل محمداً أو يستأصله. . .

(ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه بحلف يمنعه أو عشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان أمن) هذا هو الفارق الكبير بين الهاشميين وغيرهم من المسلمين ففي حين كان يتعرض الهاشميون إلى أقسى حملة وأعظم اضطهاد ويهددون بالموت كان من أسلم من قريش في راحة من ذلك لا يتعرض لشيء منه إما بالحلف ـ العهد ـ مع إحدى القبائل تمنعه من الأذى أو الضرر أو يكون له عشيرة تدفع عنه وتمنع وصول الأذية إليه وعلى كل حال كان في محل نجاة من الموت لا يصل إليه ولا يقترب منه عكس الهاشميين الذين تهددهم قريش بالقضاء عليهم واستئصال شأفتهم. . .

(وكان رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ إذا احمّر البأس وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حر السيوف والأسنة فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم أحد وقتل جعفر يوم مؤتة وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكنّ آجالهم عجلت ومنيته أجلّت) هذه عادة أصحاب الرسالات والمبادىء الإنسانية الكبرى إنهم في شدة الأزمات وإذا احتاجت رسالاتهم إلى دماء يقدمون أرواحهم دون رسالاتهم. . . يُقدمون على التضحية بأنفسهم وأعز ما عندهم وأغلى ما يحبون من أجل أهدافهم. . . وهذا رسول الله عندما كان يشتد إوار الحرب وتدور رحاها ويتأخر الناس عن خوضها والدخول فيها خوفاً من الموت كان رسول الله يقدم أغلى أحبته وأعزهم عنده يحمي بهم أصحابه من السيوف ووقعها. . .

ثم يذكر بعض تلك المواقع. . . ففي بدر ندب النبي عمه حمزة وعبيدة بن الحارث وابن عمه علي بن أبي طالب وقال لهم ابرزوا إلى المشركين فإن الحمل الثقيل لا يقوم به إلا أهله فنهضوا في وجه المشركين وقُتل أثناءها عبيدة شهيداً.

وفي يوم أحد أراد المشركون استئصال شأفة المسلمين فنهض النبي لهم وقدّم عمه حمزة شهيداً في سبيل الله وفي معركة مؤتة التي كانت بين المسلمين والروم قدّم النبي جعفراً شهيداً وسماه ذا الجناحين وهكذا نقرأ سيرة العظماء يقدمون أغلى أحبتهم في سبيل الدعوة. . .

ثم ذكر أنه عليه السلام أراد مثل ما أرادوا من الشهادة ولكن لم تكتب له يومذاك فإن شهادتهم أسرعت إليهم بينما شهادته تأخرت عنه.

(فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلا أن يدعي مدعٍ ما لا أعرفه ولا أظن الله يعرفه والحمد لله على كل

حال) حق لعلي أن يأخذه العجب من الدهر وتقلباته وحق لنا أن نعجب... وأي حدث لا يثير العجب... علي بسابقة إيمانه وجهاده وبذله وعطائه... علي ثالث ثلاثة يقوم بهم الإسلام... علي أول من أسلم وصلى وصام... علي أول من ضرب بسيف في سبيل الله... علي بطل الإسلام وسيفه وفتاه... على صاحب راية رسول الله في كل الغزوات... علي أصبح يقرن به غيره ممن أسلم خوف السيف... يُقرن بعلي معاوية الطليق الذي ضربه الإمام حتى استسلم بل يقرن بعلي غيره من الخلفاء الذين لا يملكون سابقته وجهاده ونضاله... إنه حقاً شيء يثير العجب.

يقول ابن أبي الحديد قوله: «إذ صرت يقرن بي ما لم يسع بقدمي» إشارة إلى معاوية في الظاهر وإلى من تقدم عليه من الخلفاء في الباطن والدليل عليه قوله: «التي لا يدلي أحد بمثلها» فأطلق القول إطلاقاً عاماً مستغرقاً لكل الناس أجمعين...

وبالجملة أضحى يقرن بعلي غيره ممن ليس له ساحة جهاده ولا سابقة إيمانه وهذا هو مثار العجب ثم نفى أن يكون لأحد من الناس مثل هذه الدعوة إلا أن يدعي أمراً لا يعرفه الإمام والإمام يعرف كل دعوة فتكون هذه الدعوة كاذبة من حيث إنها لم تقع تحت معلومات الإمام.

وقوله: ولا أظن الله يعرفها أي أن الله يعرف إنتفاءها وعدم صحتها وكل ما يعلم الله انتفاؤه فليس بثابت.

وبعبارة موجزة ينفي أن يكون لأحد من الناس جهاده وسابقته ومن ادعى ذلك فهو كاذب لانتفاء جهاد غيره وسابقته وهذا أمر يعرفه الإمام ويعلمه الله...

والحمد لله على كل حال في حال الجهاد والقتال وفي حال الإيمان والصبر على البلاء وهو الذي يوفي الصابرين أجورهم بغير حساب...

(وأما ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك فإني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك) هذا رد من الإمام على طلب معاوية منه أن يسلمه قتلة عثمان.. إنه طلب في منتهى الوقاحة وقديماً قيل: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ومعاوية ليس عنده أمر ممنوع كل الأبواب مشرعة أمامه دون خجل أو حياء... لا يقرّ بخلافة الإمام ثم يطالبه بتسليمه قتلة عثمان...

والإمام يرد عليه بأني فكرت في هذا الطلب فلم أر مبرراً يوجب لي دفعهم إليك ولا إلى غيرك وذلك من منظور أن معاوية ليس ولياً للدم ثم إن أولياء الدم يجب أن يرفعوا الدعوة ويطلبوا فصل القضاء وذلك يوجب عليهم اعترافهم بالخليفة وعندها يُنظر في

الدعوة ويقتص من الجاني بعد أن تثبت الجريمة. . . ثم أخيراً فإن الجماهير هي التي قتلت عثمان لأحداث عملها وأمور نقموها عليه فراح ضحية ارتكابه للمخالفات القانونية ولا يمكن الانتقام من شعب قام بثورة ضد ملك جائر. . .

(ولعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلفونك طلبهم في بر ولا بحر ولا جبل ولا سهل إلا أنه طلب يسوءك وجدانه وزور لا يسرك لقيانه والسلام لأهله) أقسم الإمام بحياته وعمره لئن لم يكف معاوية عن ضلاله وانحرافه وما هو فيه من شق عصا المسلمين وتفريق وحدتهم وتشتيت شملهم فإن أولئك القوم الذين تريدهم وتطلبهم لن يكلفوك مشقة الطلب والسعي في أي مكان في بر أو بحر أو جبل أو سهل بل هم سيطلبونك ويقصدونك ولكن سترى ما يسوءك عند لقائهم لأن لقاءهم سيكون في ساحات الحرب والقتال وهذه ساحات لا تسرك لأنها ستأخذك وتقضي عليك ولا تدعك تهنأ في عيش أو حياة. . .

ثم أخيراً سلم على من يستحق السلام من أهل السلام تنبيهاً على أن معاوية ليس منهم ولا يستحق السلام عليه. . .

ترجمة جعفر بن أبي طالب.

جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

أمه فاطمة بنت أسد وهي أم أخوته طالب وعقيل وعلي وأم هانيء كان أكبرهم طالب وأصغرهم علي ويكبر الواحد الآخر عشر سنوات.

لم يسبقه إلى الإسلام سوى الإمام وخديجة بنت خويلد زوجة رسول الله.

الهجرة إلى الحبشة.

لما اشتد الضغط على المسلمين وكثر أذى المشركين لهم وعملوا من أجل أن يردوهم عن دينهم قال لهم النبي (ص): لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه فخرجوا وقد كان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً يرأسهم جعفر بن أبي طالب وعندما دخلوا على النجاشي أكرمهم وأحسن جوارهم فعبدو الله لا يخافون على ذلك أحداً.

جعفر في مواجهة وفد قريش.

عرفت قريش بخبر هجرة المسلمين إلى الحبشة فهيأت وفداً من عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وجهزتهما بهدايا شملت مع النجاشي ملك الحبشة جميع بطارقته ومن له مقام عنده وقد تكلم وفد قريش وأراد من النجاشي أن يفتك بهم أو يسلمهم إليهم فاستدعى عندها جعفراً وبعض المسلمين ودارت هذه المحاورة الرقيقة.

قال النجاشي: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل.

فتكلم جعفر فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيىء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وهكذا راح جعفر يعدّد محاسن ما جاء به النبي.

وبعد أن استمع النجاشي إليه قال له: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟.

فقال جعفر: نعم.

فقال النجاشي: اقرأه عليّ فقرأ عليه صدراً من صورة «كهيعص» فبكى النجاشي ومن كان حوله وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة فانطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما...

لقد فشل وفد قريش في الوقيعة بالمسلمين(١) ولكن عمرواً أراد أن يعيد الكرة فعاد في اليوم الثاني ليقول للنجاشي: إن المسلمين يقولون في المسيح قولاً عظيماً فاستدعاهم النجاشي فقال: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فعندما سمع النجاشي ذلك ضرب بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود وبهذا استقر المسلمون وكان جعفر هو رائد الإسلام وحامل رسالته إلى تلك البلاد وقد أسلم النجاشي على يديه...

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

بقي المهاجرون في الحبشة إلى السنة السابعة فعادوا منها وقد فتح الله للمسلمين خيبر فقال النبي وقد جاءته البشرى بالفتح وقدوم جعفر فقال بعد أن التزم جعفراً وقبّل ما بين عينيه قال: ما أدري بأيهما[١] أنا أفرح، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر.

الشهادة في موقعة مؤتة.

في السنة الثامنة من الهجرة سمع النبي بأن الروم يعدون العدة لغزو المدينة والقضاء على المسلمين فجهز النبي جيشاً عدته ثلاثة آلاف مقاتل وأمّر عليهم جعفر بن أبي طالب فإن قتل فزيد بن حارثة فإن قتل فعبد الله بن رواحة...

خرج جيش الإسلام إلى مؤتة من أرض الأردن وقد التقوا بالروم فدارت معارك رهيبة سقط فيها الأمراء الثلاثة شهداء في سبيل الله...

قال النبي في حق جعفر: إن لجعفر بن أبي طالب جناحين يطير بهما في الجنة مع الملائكة وسمي ذو الجناحين لأنه قاتل حتى قطعت يداه.

كناه رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أبا المساكين وقال له: أشبهت خلقي وخلقي.

ترجمة حمزة بن عبد المطلب.

أسد الله وأسد رسوله وعمه وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب ولد قبل النبي بسنتين وقيل: بأربع وأسلم في السنة الثانية من البعثة.

إسلام حمزة.

قال أرباب التاريخ وأصحاب السير أن أبا جهل مرّ برسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وهو جالس عند الصفا فآذاه[٢] وشتمه ونال منه وعاب دينه ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فجلس في نادي قريش عند الكعبة فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل من قنصه متوشحاً قوسه وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة وكان يقف على أندية قريش ويسلّم عليهم ويتحدث معهم وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة فلما مرّ بالمولاة وقد قام رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ورجع إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن

---

(١) الطبقات لابن سعد.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٨٣.

هشام فإنه سبه وآذاه ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

قال: فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالكعبة معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به حتى دخل المسجد فرآه جالساً في القوم فأقبل نحوه وضرب رأسه بالقوس فشجّه شجة منكرة وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فاردد علي إن استطعت... وبقي الحمزة إلى جنب رسول الله حتى إذن الله للمسلمين بالهجرة فكان حمزة من جملة المسلمين المهاجرين وآخى النبي بينه وبين زيد بن حارثة وشهد حمزة موقعة بدر وقد أبلى بلاء حسناً فقد قتل شيبة بن ربيعة وشارك في قتل عتبة بن ربيعة وأعز الله الإسلام بسيفه وسيف ابن أخيه علي بن أبي طالب قال ابن سعد في طبقاته: أول لواء عقده رسول الله - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - حين قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب بعثه سرية في ثلاثين راكباً حتى بلغوا قريباً من سيف البحر يعترض لعير قريش وهي منحدرة إلى مكة قد جاءت من الشام وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثماية راكب فانصرف ولم يكن بينهم قتال...

شهادته.

استشهد الحمزة بن عبد المطلب في موقعة أحد سنة ٣ للهجرة وروى ابن إسحاق في سيرته عن وحشي قاتل حمزة كيفية مقتله وقد رماه بحربة عن بعد وبعد أن صرع مرّ عليه أبو سفيان فطعنه بحربة في فمه وتقدمت هند زوجة أبي سفيان وبعض نساء قريش فأخذن يجدعن الآذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدماً (خلخال) وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً وبقرت بطن الحمزة وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ولما رأى رسول الله - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - ما رأى من فعل الكفار بحمزة قال: لولا أن تحزن صفية - عمة النبي واخت حمزة - ويكون سنّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير.. ثم قال: لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

وفي الإصابة: إن رسول الله عندما وقف على حمزة قال: رحمك الله أي عم لقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات ودفن بأحد حيث استشهد.

ترجمة عبيدة بن الحارث.

عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب[١] بن عبد مناف بن قصي وأمه سُخيلة بنت خزاعي بن الحويرث بن حبيب بن مالك بن الحارث بن حُطيط بن جشم بن قسي وهو ثقيف.

قال ابن حجر في الإصابة: أسلم قديماً وكان رأس بني عبد مناف حينئذ.

وقال ابن سعد في طبقاته: وكان عبيدة أسّن من رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بعشر سنين وكان يكنى أبا الحارث وكان مربوعاً أسمر حسن الوجه.

أسلم عبيدة بن الحارث قبل دخول رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم وقبل أن يدعو فيها هاجر إلى المدينة مع المسلمين وآخى النبي بينه وبين عُمير بن الحمام الأنصاري وقتلا جميعاً يوم بدر.

وقال ابن سعد في طبقاته: كان أول لواء عقده رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بعد أن قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب ثم عقد بعده لواء عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وبعثه في ستين راكباً فلقوا أبا سفيان بن حرب بن أمية في رابغ...

شهادته.

برز في معركة بدر عتبة وشيبة[٢] ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة كلهم من الأنصار فقالوا: من أنتم؟ قالوا: من الأنصار.

فقالوا: أكفاء كرام وما لنا بكم من حاجة ليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا.

فقال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: قم يا حمزة قم يا عبيدة بن الحارث قم يا علي فقاموا ودنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة بن الحارث بن المطلب عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله فلما أتوا به النبي ـ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ قال: ألست شهيداً يا رسول الله قال: بلى ثم مات.

وقال ابن سعد في طبقاته: وكان عبيدة[٣] يوم قتل ابن ثلاث وستين سنة.

(١) الطبقات ج ٣ ص ٥١.
(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٢.
(٣) الطبقات ج ٣ ص ٥٢.

١٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إليه أيضاً

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ(١) عَنْكَ جَلاَبِيبُ(٢) مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ(٣) بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا. دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَٱتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِكُ(٤) أَنْ يَقِفَكَ(٥) وَاقِفٌ عَلَى مَا لاَ يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ(٦)، فَٱقْعَسْ(٧) عَنْ هذَا ٱلأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ(٨) ٱلْحِسَابِ، وَشَمِّرْ(٩) لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلاَ تُمَكِّنِ(١٠) ٱلْغُوَاةَ(١١) مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ(١٢) قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ.

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ(١٣) الرَّعِيَّةِ(١٤)، وَوُلاَةَ(١٥) أَمْرِ ٱلأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ(١٦) وَلاَ شَرَفٍ بَاسِقٍ(١٧)، وَنَعُوذُ(١٨) بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً(١٩) فِي غِرَّةِ(٢٠) ٱلأُمْنِيَّةِ(٢١)، مُخْتَلِفَ ٱلْعَلاَنِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى ٱلْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا وَٱخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ(٢٢) ٱلْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا ٱلْمَرِينُ(٢٣) عَلَى قَلْبِهِ، وَٱلْمُغَطَّى(٢٤) عَلَى بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذلِكَ ٱلْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي، مَا ٱسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلاَ ٱسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّي لَعَلَى ٱلْمِنْهَاجِ(٢٦) الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً[٢٧] بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ[٢٩] ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالأَثْقَالِ[٣٠]، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً[٣١] مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ[٣٢] الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ[٣٣]، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ[٣٤].

اللغة

١ ـ **تكشفت عنك** : ارتفعت وزالت عنك.
٢ ـ **الجلابيب** : جمع جلباب بكسر الجيم وسكون اللام الثوب الواسع فوق جميع الثياب.
٣ ـ **تبهجّت** : تحسنّت وتزّينت.
٤ ـ **يوشك** : بالكسر يقرب ويدنو.
٥ ـ **يوقفك واقف** : يطلعك ووقفته على ذنبه اطلعته عليه.
٦ ـ **المجن** : الترس.
٧ ـ **أقعس** : أمر من قعس أي تأخر.
٨ ـ **الأُهبة** : بضم الهمزة العدة وما يهيأ للأمر ويستعد له.
٩ ـ **شمّر** : جد واجتهد.
١٠ ـ **مكنّه من الشيء** : جعل له عليه سلطاناً وقدره.
١١ ـ **الغواة** : جمع غاوٍ وهو الضال.
١٢ ـ **المترف** : الذي اطغته النعمة فحرفته عن طاعة الله.
١٣ ـ **ساسة** : جمع سائس الذي يدير أمور الناس ويسوسهم.
١٤ ـ **الرعية** : الناس المحكومين للحاكم.
١٥ ـ **الولاة** : جمع والٍ وهو الذي يتولى الأمور.
١٦ ـ **قدم سابق** : أعمال طيبة قديمة.
١٧ ـ **الباسق** : العالي الرفيع.
١٨ ـ **نعوذ** : نستجير.
١٩ ـ **التمادي في الأمر** : تطويل المدة فيه.
٢٠ ـ **الغرة** : بالكسر الغفلة.

٢١ ـ الأمنية	:	بضم الهمزة ما يتمناه الإنسان ويأمل ادراكه .
٢٢ ـ اعفِ	:	أمر من الإعفاء وهو تركه واعفني من الخروج معك أي دعني منه .
٢٣ ـ المرينِ	:	بفتح فكسر من ران وأصله الطبع والتغطية .
٢٤ ـ المغطّى	:	المستور .
٢٥ ـ الشدخ	:	كسر الشيء الاجوف كالرأس .
٢٦ ـ المنهاج	:	الطريق الواضح .
٢٧ ـ الثائر	:	طالب الثأر وهو قتل القاتل .
٢٨ ـ تضج	:	تصيح وتصرخ .
٢٩ ـ عضه	:	امسكه بأسنانه .
٣٠ ـ الأثقال	:	جمع ثقل المتاع والأثقال الأمتعة .
٣١ ـ الجزع	:	عدم الصبر ، الحزن والكدر .
٣٢ ـ القضاء	:	الحكم .
٣٣ ـ الجاحدة	:	المنكرة .
٣٤ ـ حائدة	:	عادلة عن الحق ومائلة عنه .

الشرح

(وكيف أنت صانع إذا تكشّفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها وخدعت بلذتها دعتك فأجبتها وقادتك فاتبعتها وأمرتك فأطعتها) هذه الرسالة كتبها الإمام وبعث بها إلى معاوية وهي موعظة بالغة وتذكير بالآخرة، يهجم الإمام من خلالها عليه ويعرّيه ويذكره فيها إنه قاتل أهل بيته فإذا كان شجاعاً فليبرز إليه ثم هدده بالحرب وحذره منها . . .

استفهم مستنكراً على معاوية وموبخاً له ومنبهاً على غفلته وإنه مشغول في ملذاته ودنياه التي تسد عليه رؤية الحق والرضوخ إليه فإن الموت إذا أتاه ظهرت له نتيجة تعلقه بالدنيا وقتاله من أجلها، فإنه استجاب لها حين دعته واتبعها حيث قادته وأطاعها عندما أمرته فأضحى عبداً ذليلاً لها اغتر بها وبما فيها فأضحت له كالملحفة يلتحف بها . . .

وبعبارة أخرى ليس لك عذر أو حجة إذا أتاك الموت وسقطت عنك هذه الأوراق التي تتستر بها وتختبىء خلفها . . .

(وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مجن) وإنه عما قريب تنكشف الأمور ويطلعك المطلع على أمور رهيبة بعد الموت من أهوال وفجائع لا يغنيك عنها

مغني ولا يحجزك من عذابها حاجز أو مانع.

(فاقعس عن هذا الأمر وخذ أهبة الحساب وشمر لما قد نزل بك) ارتدع وتأخر عن طلب الخلافة التي لا تستحقها ولست من أهلها فإن الخلافة لا تحل لطليق..

ثم أمره بالاستعداد للحساب وأن يهيىء أسباب النجاة من الأعمال الصالحات وأن يجدّ ويتأهب لنزول ما ينزل به من أمور عظيمة وفظائع رهيبة...

(ولا تمكّن الغواة من سمعك) لا تجعل الضالين المضلين كعمرو بن العاص ومروان بن الحكم وغيرهما يسيطرون عليك ويوجهون مسيرتك ويوشوشون لك في الأمور الباطلة وما يكون به انحرافك وضلالك...

(وألا تفعل اعلمك ما أغفلت من نفسك فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الروح والدم) إن لم تسمع كلامي وتفعل ما أمرتك به من النظر إلى آخرتك والكف عن طلب الخلافة التي لست لها بكفىء سأوقفك على ما أغفلته من نفسك وتهذيبها وأخذها بما يجب عليها فأذيقك حر السيوف وطعم الحتوف.

ثم بيّن له حقيقة نفسه فإنه مترف قد اطغته النعمة فأخرجته عن طاعة الله إلى معصيته وتسلّط عليه الشيطان حتى أضحى جندياً من جنوده فكل ما أراده منه أدركه وتناوله من جميع السبل وأخذه من جميع الجهات حتى جرى منه مجرى الروح في البدن والدم في العروق كناية عن شدة قربه منه بحيث أضحى الشيطان جزءاً منه لا يحيا معاوية أو يعيش بدونه...

(ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق ولا شرف باسق) استنكر الإمام على معاوية طلبه الخلافة وهو ليس أهلاً لها ولا تحل له ومتى كنتم يا معاوية ـ أنت والأسرة الأموية ـ ساسة الرعية التي تقودونها وتنظمون أمورها وتهتمون بها ومتى كنتم ولاة أمر الأمة تتصرفون في شوؤنها وتتولون قضاياها والإمام يريد أن ينفي كونهم ساسة وقادة في الإسلام أو ساسة وقادة بالحق والعدل.

ثم استدل على ذلك بأن من له حق ساسة الرعية وتولي أمر الأمة هو من له جهاد قديم زمن رسول الله ومن قدّم وبذل ومن له كرامة كريمة عظيمة تؤهله لتسلم الرياسة والريادة والقيادة ومعاوية وأسرته قد تخلت عن تلك الصفات وتلبست بغيرها، إنها حاربت النبي بكل وسيلة وأرادت استئصال شأفته وإن أبا سفيان هو الذي جهز الجيوش وقادها لحرب رسول الله وبقي كذلك حتى عام فتح مكة فاستسلم للواقع ليحفظ حياته ووجوده ومثله لا يستحق أن يتولى الأمر أو يقود الأمة...

(ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء) استجار الإمام بالله من الشقاء اللازم المقدر على المرء من قديم وهذا تعريض بمعاوية وإنه من الأشقياء الذين كتب عليهم ذلك من قديم فلن يخرجوا منه لخبثهم وفساد طينتهم.

(وأحذرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية مختلف العلانية والسريرة) أخوفك الله فلا تتمادى وتستمر في الأماني الباطلة والأهواء الكاذبة بأن تطلب الخلافة وتمني نفسك بها وتعمل لذلك فإنها أمنية باطلة ورغبة فاسدة كما أحذرك أن تعيش النفاق فتعلن غير ما تبطن وهذا كشف لحقيقة معاوية وحكاية عن واقعه فإن الظاهر إنه يطلب بدم عثمان وفي الواقع يطلب الخلافة فهو يظهر خلاف ما يبطن وهذه صفة أهل النفاق. . .

(وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً وأخرج إليّ وأعف الفريقين من القتال لتعلم أينا المرين على قلبه والمغطى على بصره فأنا أبو حسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوي، ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبياً. وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين) كان معاوية قد دعى الإمام للحرب فأجابه الإمام هنا بهذا الجواب الذي أخرسه وأقعده عن طلب أمر ليس من أهله. . .

دعاه عليه السلام أن يترك الفريقان الحرب فيما بينهما وينزل معاوية في مواجهة الإمام وعندها يعلم من هو المطبوع على قلبه فلا يفلح المغطى عليه بحجب المعاصي والبعد عن الله والسبب في ذلك أن من يقف دفاعاً عن حق ويجاهد عن عقيدة وإيمان لا يفر ولا يهرب بل يضحى بفرح وسرور ويتمنى الشهادة ولا ينهزم ومثل هذا غالباً يكون النصر له ومعاوية لن يثبت أمام علي لأنه لم يؤمن بآخرة ولم يحارب من أجل دين وإنما يحارب من أجل الدنيا فلذا لن يقبل المواجهة والمخاطرة بنفسه ويخسر دنياه وهذا هو المغطى على قلبه الذي أصيب بالرين والشك. . .

ثم زاد تهديده له بأنه هو هو أبو الحسن الذي قتل جده عتبة بن ربيعة وأخاه حنظلة بن أبي سفيان وخاله الوليد يوم بدر فقد كسر رؤوسهم بسيفه ولا يزال ذلك السيف بيده مستعداً لضرب أمثالهم من أرحامهم وأحفادهم وبذلك القلب القوي الشجاع المطمئن إلى سلامة مقصده يلقى عدوه ويلقنه درس الموت الأحمر. . .

ثم أشار عليه السلام إلى ثباته على الدين الذي ضحى من أجله ما استبدل به غيره ولا اتخذ نبياً بعد رسول الله ﷺ وإنه على الطريق الواضح والشريعة الغراء التي رسمها النبي وهي دين الإسلام الذي تركه الأمويون باختيارهم وملىء حريتهم وإنهم لم يدخلوا

فيه عندما دخلوا إلا مستسلمين مكرهين خوف السيف أن يطالهم . . .

وكأن هذا الكلام غمز في معاوية وطعن فيه إنه استبدل هذه الأمور بغيرها أو إنه لم يؤمن بها أبداً.

(وزعمت إنك جئت ثائراً بدم عثمان ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فأطلبه من هناك أن كنت طالباً) هذا بيان لبطلان دعوة معاوية وإنها دعوة كاذبة جاءت زوراً وبهتاناً حيث زعم معاوية أنه يطلب ثأر عثمان يريد أن يقتص من قتلته ويأخذ بثأره وأمره الإمام إنك إذا كنت صادقاً وجاداً في الطلب بدم عثمان فأطلبه ممن سفكه وأباحه وهو طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة بل ونفسك حيث كنت تستطيع نصره فلم تنصره وإنما تربصت به الدوائر ووقفت تراقب ما يجري حتى إذا قتل انقلبت تطلب بدمه كذباً. . إنك ترفع شعار الثأر لدم عثمان وتخفي وراءه أمراً عظيماً وهو طلب الخلافة والوصول إليها وهكذا كان معاوية انتهازياً من الدرجة الأولى سّن أبشع السنن وأقبحها على الاطلاق وأضحى مدرسة في هذا الحقل الانتهازي الفاسد. . .

(فكأني قد رأيتك تضج من الحرب إذا عضتك ضجيج الجمال بالأثقال وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع إلى كتاب الله وهي كافرة جاحدة أو مبايعة حائدة) وهذه إحدى إخبارات علي بالغيب وما إخباراته في ذلك إلا لكونه يستشرف الزمن ويطوي المستقبل ليحكي ما يجري فيه أو يقع في وقته.

وهنا يخبر عليه السلام بما سينال معاوية من الذل نتيجة الحرب التي ستقع ـ وهي حرب صفين ـ حيث سيقع معاوية في مأزق كبير وصعب حينما تقع الحرب وسوف يتضور منها ويئن من ثقلها لشدتها وضراوتها كما تئن الجمال بالأحمال الثقيلة كناية عن ثقلها عليه وصعوبتها عنده ثم أخبر عما سيحدث مع جماعته من أهل الشام وعلى رأسهم عمرو بن العاص إنه أخبار بغيب مجهول قرأه الإمام بوضوح قال عنه ابن أبي الحديد كلمة جيدة قال: وأعلم أن قوله «وكأني بجماعتك يدعونني جزعاً من السيف إلى كتاب الله» إما أن يكون فراسة نبوية صادقة وهذا عظيم وأما أن يكون إخباراً عن غيب مفصّل وهو أعظم وأعجب وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب. . .

فهذا إخبار منه بما سيلحق أهل الشام من الشدة في الضرب والقتل المتتالي واحداً أثر واحد حتى يدعوهم ذلك إلى المكر والخديعة فيرفعوا كتاب الله كذباً وينادون بالتحكيم ظلماً وهم فرقتان فرقة منافقة وقد عبّر عنها بالجاحدة الكافرة وأخرى ناكثة للبيعة وهي التي عدلت عن بيعته وأعلنت عليه الحرب مع معاوية . . .

١١ ـ ومن وصية له عليه السلام

وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَل بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ(١) فِي قُبُلِ(٢) ٱلأَشْرَافِ(٣)، أَوْ سِفَاحِ(٤) ٱلْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ(٥) ٱلأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا(٦)، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا(٧). وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوْ ٱثْنَيْنِ، وَٱجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ(٨) فِي صَيَاصِي(٩) ٱلْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ(١٠) ٱلْهِضَابِ(١١)، لِئَلاَّ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ(١٢) أَوْ أَمْنٍ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ(١٣) ٱلْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ(١٤) ٱلْمُقَدِّمَةِ طَلاَئِعُهُمْ(١٥). وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَٱنْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ٱرْتَحَلْتُمْ فَٱرْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا غَشِيَكُمُ(١٦) اللَّيْلُ فَٱجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً(١٧)، وَلاَ تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً(١٨) أَوْ مَضْمَضَةً(١٩).

اللغة

١ ـ **المعسكر** : بفتح الكاف موضع العسكر وحيث ينزل.

٢ ـ **قُبُل** : ضد دبر، قدّام.

٣ ـ **الاشراف** : جمع شرف محركه الأماكن العالية.

٤ ـ **سفاح الجبال** : اسافلها.

٥ ـ **الاثناء** : واحدها ثني وهو المنعطف.

٦ ـ **الردء** : العون.

٧ ـ **المردّ** : بتشديد الدال مكان الرد والدفع.

٨ ـ **الرقباء** : جمع رقيب الحارس والحافظ، الذي ينتقد أعماله لئلا يلام.

٩ ـ **الصياصي** : أصلها القرون ثم استعير للحصون لأنه يمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه.

١٠ ـ المناكب : المرتفعات.
١١ ـ الهضاب : جمع هضبة بفتح فسكون الجبل لا يرتفع عن الأرض كثيراً مع انبساط في أعلاه.
١٢ ـ المخافة : الفزع ضد الأمن.
١٣ ـ مقدمة كل شيء : أوله.
١٤ ـ العيون : واحد العين الجاسوس والراصد.
١٥ ـ الطلائع : جمع الطليعة وهي عيون المقدمة.
١٦ ـ غشيكم : غطاكم وغشيكم الليل أي أظلم وتغشى بثوبه تغطى به.
١٧ ـ الكفة : بكسر الكاف المستديرة.
١٨ ـ الغرار : بكسر الغين النوم الخفيف.
١٩ ـ المضمضة : أن ينام ثم يستيقظ ثم ينام تشبيهاً بمضمضة الماء في الفم.

الشرح

(فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال أو اثناء الأنهار كيما يكون لكم ردءاً ودونكم مرداً) هذا الكتاب أرسله الإمام إلى زياد بن النضر الحارثي حين سرّحه على مقدمة جيشه لقتال أهل الشام، وفي الكتاب خطط حربية عظيمة صالحة لكل زمان تدللّ على أن الإمام كان يملك ناصية التخطيط لكل حرب يقودها وهو على جانب كبير في الحرب وفنونها وسبل الأنتصار فيها، وقد ذكر عدة وصايا.

١ ـ أوصاه إذا نزل بعدو أو نزل به عدو أن يكون في موقع محصّن يحميه ويدفع عنه مباغتة العدو وأخذه بسهولة وذلك بأن يكون في أماكن مشرفة تحميهم ويشرفون منها على العدو أو في سفوح الجبال أو منعطفات الأنهار وهي مراكز مهمة للمقاتل يحتاج من يقتحمها إلى قوة ضاربة وعدة وعدد وقد يعجز إذا وُجد المدافع الشجاع فيرتد على أعقابه وقد علل الإمام السبب في اختيار هذه المواقع بأنها تكون لكم عوناً ودونكم حاجزاً أي هذه قوة دفاعية طبيعية تعينك في دفع العدو وتأخيره وحجزه عنكم وتكون عوناً لكم عليه...

٢ ـ **(ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين)** وهذا توجيه عسكري حكيم وهو أن تتوحد الجبهة ويكون القتال من جهة واحدة أو جهتين بعد أن يكونوا قد أمنوا الجهات الأخرى بحاجز جبلي أو نهري أو خندق أو غير ذلك **وهذا التوحد يبعث القوة بينما**

التشعب والتعدد يضعف الهمة ويوهنها.

٣ ـ**(واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن)** أن يكون لهم حرّاس وحفظة في أعالي الجبال وعلى رؤوس الهضاب هؤلاء يراقبون الأفق والأرض ويعرفون كل حركة وكل ما يمر بهم بل كل ما يرون يكونون على علم به وذلك خوفاً من تسلل الأعداء من الثغرات الخطرة التي يمكن أن يدخلوا منها في حين غفلة أو من الأماكن الآمنة التي لا يخطر بالبال أن يدخلوها وعلى كل حال لا بد من العيون التي تراقب وتحرس وتحفظ غدرات العدو وتسلله عبر بعض المواقع...

٤ ـ**(وأعلموا أن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم)** هذا بيان لأهمية المقدمة بالنسبة إلى الجيش لأنها هي التي تستطلع الأمور وتختبر قوة العدو وضعفه وترى كل حَركاته وسكناته ولكن هناك ضمن المقدمة أيضاً عيونها وهي الطلائع التي تتقدم على المقدمة وتكشف مواقع العدو وتحركاته وعدته وعدده وكل خصوصياته حتى تنقل ذلك إلى أصحابها فيعرفون كيف يديرون المعركة ومن أي جهات الضعف يدخلون منها لضرب العدو...

٥ ـ**(وإياكم والتفرق: فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً)** حذّرهم التفرق فلا تنفصل هذه الفرقة عن تلك أو هذه الفرقة تنزل والأخرى ترحل بل إذا رحلوا فليرحلوا جميعاً وإذا نزلوا فلينزلوا جميعاً لأن ذلك يرعب العدو ويخيفه.

٦ ـ**(وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة)** إذا جنّ عليكم الليل وأقبل بظلامه فاجعلوا الرماح مستديره حولكم كالحلقة لتكون لكم جُنة من هجوم الأعداء، وذلك باعتبار أن الرماة يدفعون مباشرة الأعداء ويحفظون جندهم..

ثم نهاهم عن النوم إلا النوم القليل القلق الذي يقوم منه النائم بين لحظة وأخرى وهو رفض للنوم المطمئن الذي لا يُطلب صاحبه بشيء بل شدّدوا الحراسة ولا تغفلوا عن الأعداء حتى في زمن نومكم واستقراركم وكونوا مستنفرين مهيئن لكل أمر حادث ولكل غرض طارىء...

١٢ ـ ومن وصية له عليه السلام

وصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام

في ثلاثة آلاف مقدمة له:

اتَّقِ ٱللهَ الَّذِي لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلاَ مُنْتَهى(١) لَكَ دُونَهُ، وَلاَ تُقَاتِلَنَّ إِلاَّ مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ ٱلْبَرْدَيْنِ(٢)، وَغَوِّرْ(٣) بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ(٤) فِي السَّيْرِ، وَلاَ تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَهُ سَكَناً(٥) وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لاَ ظَعْناً(٦). فَأَرِحْ(٧) فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ(٨) ظَهْرَكَ(٩). فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ(١٠) السَّحَرُ(١١)، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ(١٢) ٱلْفَجْرُ(١٣)، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ ٱللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ ٱلْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلاَ تَدْنُ(١٤) مِنَ ٱلْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ(١٥) ٱلْحَرْبَ. وَلاَ تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ(١٦) ٱلْبَأْسَ(١٧)، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ(١٨) عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَٱلإِعْذَارِ(١٩) إِلَيْهِمْ.

اللغة

١ ـ المنتهى : النهاية وهي غاية الشيء وآخره.

٢ ـ سر البردين : الغداة والعشي أمر بالسير في هذين الوقتين.

٣ ـ غوّر : أمر مأخوذ من الغائرة وهي الظهيرة وفي الصحاح التغوير القيلولة.

٤ ـ رفّه : من الترفيه وهي الإراحة والتخفيف والتوسعة.

٥ ـ السكن : ما سكنت إليه أي اطمأننت.

٦ ـ الظعن : الارتحال والسفر.

٧ ـ أرح : من الاراحة.

٨ ـ روّح الإبل : ردها إلى المراح.

٩ ـ الظهر	:	الركاب من فرس وابل أو غيرهما من الدواب.
١٠ ـ ينبطح	:	ينبسط ويتسع.
١١ ـ السحر	:	وقت ما قبل الفجر الصادق.
١٢ ـ ينفجر	:	الماء يجري والصبح ينكشف.
١٣ ـ الفجر	:	وقت انتشار الضوء الأفقي من جهة المشرق.
١٤ ـ لا تدنُ	:	لا تقترب.
١٥ ـ نشب الشيء بالشيء	:	علق به ونشبت الحرب بين القوم ثارت.
١٦ ـ يهاب	:	يخاف ويحذر.
١٧ ـ البأس	:	الحرب.
١٨ ـ الشنآن	:	البغض.
١٩ ـ الاعذار	:	تقديم ما يوجب العذر في حربهم.

الشرح

(اتق الله الذي لا بد لك من لقائه ولا منتهى لك دونه) هذه وصية من وصاياه الكريمة أوصى بها معقل بن قيس الرياحي حين انفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له وهي تحكي عن مدى اتصاله بالله وقربه منه وعن مدى محافظته على الناس ورحمته بهم؛ ابتدأها بهذا الأمر: اتق الله فإن تقوى الله خير الزاد يحتاجها المجاهد أكثر مما يحتاجها أي فرد في الأمة لأنه قد يتعرض للاستفزاز وقد تطغى عليه قوته فينسى الله وقد تكون هناك عوامل الانتقام وغيرها فكان هذا القائد المجاهد بحاجة إلى ربط بالله وأن يكون على تقوى منه ثم ذكّره بأنه لا بد له من لقاء الله ولا بد وأن ينتهي إليه وإذا كان لا بد من الوصول إلى الله والانتهاء إليه فيجب أن يكون على تقوى منه بحيث يكون في خطه وعلى منهاجه وضمن التزامه...

(ولا تقاتلن إلا من قاتلك) لا تبتدأ في الحرب ولكن إذا قاتلك أحد فقاتله وهذه رؤية كريمة تحكي عمق حب السلم وإن الحرب ضرورة وقتية قد يوقتها الطرف الآخر...

(وسر البردين وغور بالناس ورفه في السير) هذه أوامر من أجل مصلحة المقاتلين كي يكونوا في أقوى قوتهم لم تستهلكها الحركة نحو العدو.

أمره أن يسير في وقتي الغداة والعشي لما في ذلك من برودة الجو ورطوبته التي لا تؤلم العسكر وما معه من دواب وأمره أن يريحهم في وقت القيلولة لأنه الوقت الذي يشتد

فيه الحر فيكون السير فيه صعباً شاقاً وموجباً للارهاق وأمره ثالثاً أن يرفق بالسائرين كي لا يتفرقوا ولا يتخلف الضعيف. . .

(ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً فأرح فيه بدنك وروّح ظهرك فإذا وقفت حين ينبطح السحر أو حين ينفجر الفجر فسر على بركة الله) نهى عن السير في أول الليل وعلل ذلك بأن الله جعله سكناً يستريح فيه الإنسان من هموم النهار ومشاكله وما يحصل فيه من التعب والمشقة وهذا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿وجعل[1] الليل سكناً﴾**.

ثم أكد ذلك بأنه ليس الليل وقتاً للسفر والرحيل وإذا كان للراحة فليرح بدنه وأبدان جنوده وكذلك ليرح ركائبه من أفراس وجمال إلى أماكن راحتها في المراح كي تستعيد قوتها ويتجدد نشاطها لقطع ما تبقى عليها من واجبات ومراده على وجه الاجمال أن يرفق بنفسه وجنده ودوابهم.

ثم أمره إذا استيقظ من نومه حين يظهر السحر ويكون وقته أو حين يظهر الفجر أمره أن يغتنم أحد هذين الوقتين فيسير فيهما على بركة الله الذي تطلبه ومن أجله تسير. . .

(فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً) إذا عبأت الصفوف ووقفت في مواجهة العدو وكنت وإياه في حالة المقابلة فوزع عساكرك وكن في وسطهم تدير المعركة من القلب وتشرف منه على كل كتائبك وتكون على اتصال مستمر بهم. . .

(ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد عنهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمري) أمره أن يكون موقعه من العدو على حد وسط فلا يقترب منهم حتى يشعرهم إنه يريد ايقاد الحرب واشعالها ولا يبتعد عنهم بعداً مفرطاً يكون موهماً لهم أنه لخوفه منهم وفزعه من الحرب قد ابتعد عنهم وكذلك يجب أن يبقى حتى يأتيه أمر الإمام فإنه أعرف بالمصلحة وأدرى بأوقات الحرب وعدمها. . .

(ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعذار إليهم) لا تجعلوا بغضكم لهم سبباً لشن الحرب عليهم وقتالهم بل ادعوهم إلى العودة والتوبة وإلى الوحدة والألفة وجمع الشمل. . . ادعوهم إلى نبذ الفرقة فإذا تمردوا بعد دعوتكم لهم كان لكم العذر في قتالهم. . .

---

(١) سورة الأنعام، آية/ ٩٧.

١٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا(١) مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلأَشْتَرَ، فَٱسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَٱجْعَلاَهُ دِرْعاً(٢) وَمِجَنًّا(٣)، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ(٤) وَلاَ سَقْطَتُهُ(٥) وَلاَ بُطْؤُهُ(٦) عَمَّا ٱلإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ(٧)، وَلاَ إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا ٱلْبُطءُ عَنْهُ أَمْثَلُ(٨).

اللغة

١ ـ حيزكما : ناحيتكما.
٢ ـ الدرع : بكسر الدال ما يلبس في الحروب للوقاية من الضرب والطعن.
٣ ـ المجن : بالكسر الترس.
٤ ـ الوهن : الضعف.
٥ ـ السقطة : العثرة والزلة، الغلطة.
٦ ـ البطء : التأخير وعدم الإسراع في الشيء.
٧ ـ أحزم : أقرب للحزم وهي الشدة والانضباط.
٨ ـ أمثل : أصوب وأحسن.

الشرح

(وقد أمرت عليكما وعلى من في حيزكما مالك بن الحارث الأشتر فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعاً ومجناً فإنه مِمَّنْ لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا اسراعه إلى ما البطء عنه أمثل) هذا الكتاب أرسله الإمام إلى أميرين من أمرائه هما زياد بن النضر وشريح بن هاني أرسلهما مقدمة له عند توجهه لقتال معاوية فالتقيا بأبي الأعور السلمي في جند من أهل الشام فبعثا إلى الإمام أن يأمرهما بأمره

فأرسل إليهما هذه الرسالة وأمّر عليهما وعلى من معهما مالك الأشتر بعد أن زوده بالتوجيهات اللازمة لاتخاذ المواقف الحاسمة.

وهذا الكتاب ينبىء عن عظمة مالك ومدى ثقة الإمام به وقد كتبنا عنه دراسة مستقلة أخرجتها دار الأضواء تحت عنوان «مالك الأشتر وعهد الإمام له» وقد اتينا على جملة من مناقبه وكلمات الإمام فيه وبيان شخصيته العظيمة وهذا الكتاب من الشواهد على علو رتبته ومقامه...

قد جعلت عليكما وعلى من تحت أمرتكما مالك بن الحارث الأشتر أميراً فكونوا تحت أمرته واسمعا له ما يقول وأطيعا أمره.. لا تناقشا فيما يذهب إليه بل نفذا أمره واجعلاه درعاً ومجناً اجعلاه في الواجهة على رأس الجيش فإنه يدفع عنكما القتل والضرب وهو صاحب الرأي.

ثم أعطاه ثقة كبيرة قلما يعطيها الإمام لأحد: فإنه مما لا يخاف وهنه ولا سقطته فليس بالضعيف الذليل الذي يسقط أمام الضرب وفي ميدان المعركة كما أن أخطاؤه مأمونة يفكر في الأمور فلا يعثر أو تزلّ به القدم...

وأخيراً أثنى عليه وأعطاه ثقته ليطمئن قلبيهما إلى صحة هذا الأختيار.

«ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا أسراعه إلى ما البطء عنه أمثل».

فهو حكيم يضع الأمور مواضعها فإن كان الاسراع في أمر هو المطلوب فإنه لا يتأخر ولا يسّوف بل يسرع فيه وينفذه بقوة وإذا كان البطء هو المطلوب والأحسن فإنه لا يبادر ولا يسرع بل يؤخر الأمور ويسوفها حتى يأتي وقتها...

١٤ ـ ومن وصية له عليه السلام

لعسكره قبل لقاء العدو بصفيّن

لاَ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بُحَمْدِ ٱللهِ عَلَى حُجَّةٍ[١]، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ فَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِراً[٣]، وَلاَ تُصِيبُوا مُعْوِراً[٤]، وَلاَ تُجْهِزُوا[٥] عَلَى جَرِيحٍ[٦]، وَلاَ تَهِيجُوا[٧] النِّسَاءَ بِأَذًى. وَإِنْ شَتَمْنَ[٨] أَعْرَاضَكُمْ[٩]، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ ٱلْقُوَى وَٱلأَنْفُسِ وَٱلْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِٱلْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱلْفَهْرِ[١٠] أَوِ ٱلْهِرَاوَةِ[١١] فَيُعَيَّرُ[١٢] بِهَا وَعَقِبُهُ[١٣] مِنْ بَعْدِهِ.

اللغة

١ ـ **الحجة** : البرهان.

٢ ـ **هزم العدو** : كسر وفلّ وأصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى يتحطم.

٣ ـ **المدبر** : الهارب، الذي أعطى دبره للمعركة وهرب.

٤ ـ **المعور** : من العورة قال ابن الأثير كل عيب وخلل في شيء فهو عوره والعوره سوأة الإنسان.

٥ ـ **اجهز على الجريح** : شد عليه وأسرع وأتم قتله.

٦ ـ **الجريح** : المجروح المصاب بجرح.

٧ ـ **اهجت الشيء** : أثرته وحركته.

٨ ـ **الشتم** : السب.

٩ ـ **العرض** : بكسر العين ما يفتخر الإنسان به من حسب وشرف، ما يصونه الإنسان.

١٠ ـ الفهر	:	بالكسر الحجر ملء الكف.
١١ ـ الهراوة	:	بالكسر العصا.
١٢ ـ يعير	:	يعاب ويذام.
١٣ ـ عقب الرجل	:	ولده وولد ولده ومن يأتي من ذريته.

الشرح

(لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم) هذه وصية لمقاتليه إن حالفهم النصر أن يكونوا أهل أدب وأخلاق وخصوصاً في معركة قائمة أخذت معها الأحبة والأعزاء فقد ينتقم عندها المقاتل لنفسه وينسى ربه، فهذه الوصية نور يهدي المقاتل إلى الله وابتدأها بهذا النهي عن البدء بقتال العدو. . . لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم لتتأكد الحجة عليهم وتقوى وتصبح حجة أخرى فضلاً عن الأولى. . .

الحجة الأولى هي أن أصحابه مع الخلافة الشرعية ومع الخليفة الذي انعقدت له البيعة فالخارج عنها معتدٍ من البغاة الذين يستحقون القتال ويجب ردهم إلى ما اتفقت عليه الناس.

والحجة الأخرى بعد هذه هي ابتداؤهم لكم بالقتال فتقوم عليهم حجتان. . .

(فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً ولا تجهزوا على جريح) إذا كانت الهزيمة للأعداء بإذن الله فلا تقتلوا مولياً هارباً فاراً بنفسه ولا تقتلوا أيضاً من وقع تحت أيديكم واستطعتم الإمساك به وامكنتكم الفرصة من أخذه.

كما نهاهم أن يجهزوا على جريح أي لا تشتدوا عليه فتتموا قتله. . .

(ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن اعراضكم وسببن امراءكم فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة فيعيّر بها وعقبه من بعده) وهذه نظرة علوية عميقة وإحساس بشعور الآخرين حتى مع اساءتهم واعتدائهم شعوراً معهم بالمصاب الذي أحاط بهم وانسجاماً مع شخصيتهم الضعيفة. . .

لا تهيجوا النساء بأذى أي لا تثيروا شعورهن بأذى يحصل منكم حتى وإن نلن من اعراضكم بأن عابوكم بها وسببن امراءكم لأنهن ضعيفات القوى أي قدرة المرأة ضعيفة لا

تستطيع مواجهة الرجل فلذا تنتقم منه بسلاحها الذي بين يديها وهو لسانها وأما كونهن ضعيفات الأنفس فلأنهن عاطفيات ينجررن بأبسط نظرة أو كلمة طيبة إنهن لا يملكن إلا الدمعة والبسمة وبهما تتحول المرأة من خط المواجهة إلى خط الموافقة وإذا كانت العاطفة قوية مشبوبة تعطلت لغة العقول وتوقف العمل بها إذ تقع تحت تأثير تلك العاطفة فتخضع لها وتكون ضعيفة في مواجهتها . . .

ثم أراد أن يثير حفائظ جنده ليقوموا بهذا الأمر ويمتثلوا ما قاله لهم من عدم أثارة النساء وذلك من خلال ذكره لحالتين :

الأولى : تذكيرهم بأن المرأة في الجاهلية كان لا يتعرض لها أحد وإن سبت وشتمت ونالت من المقاتلين فإذا كانت في الجاهلية تعامل بهذا الإسلوب فلا يجوز أن تعامل وظاهرها الإسلام بالإثارة والازعاج . . .

الثانية : تذكيرهم بأمر فيه العار الذي يلاحق الرجل المتعرض للمرأة بحيث لو تناول أحدهم امرأة بحجر أو عصا يعيّر هو بذلك في حياته ويعيّر به خَلفَه وذريته من بعده . . .

١٥ ـ ومن دعاء له عليه السلام

كان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محارباً:

ٱللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ[١] ٱلْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ[٢] ٱلأَعْنَاقُ[٣]، وَشَخَصَتِ[٤] ٱلأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ ٱلأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ[٥] ٱلأَبْدَانُ[٦]. ٱللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ[٧] مَكْنُونُ[٨] الشَّنَآنِ[٩]، وَجَاشَتْ[١٠] مَرَاجِلُ[١١] ٱلأَضْغَانِ[١٢] ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ[١٣] نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ[١٤] أَهْوَائِنَا «رَبَّنَا ٱفْتَحْ[١٥] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ».

اللغة

١ ـ أفضت : وصلت ودنت وقربت.
٢ ـ مدت : تطاولت
٣ ـ الأعناق : جمع عنق وصلة ما بين الرأس والبدن.
٤ ـ شخصت الأبصار : ارتفعت نحو الشيء بحيث لا تطرف.
٥ ـ النضو : الدابة التي أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها وأنضيت الأبدان بمعنى هزلت.
٦ ـ الأبدان : الأجسام والأجساد.
٧ ـ صرّح : انكشف وظهر.
٨ ـ المكنون : المستور.
٩ ـ الشنآن : البغض والكراهية.
١٠ ـ جاشت : غلت واضطربت.
١١ ـ المراجل : جمع المرجل وهو القدر.
١٢ ـ الاضغان : الأحقاد.
١٣ ـ الغيبة : البعد عن الشيء، عدم الحضور.

١٤ ـ التشتت : التفرق.
١٥ ـ افتح : أحكم.

الشرح

(اللهم إليك أفضت القلوب ومدت الأعناق وشخصت الأبصار ونقلت الأقدام وانضيت الأبدان) لم يقاتل الإمام إلا لله فهو على صلة به مستمرة، إليه يتوجه وفي سبيله يجاهد ومن هنا كانت ضرباته من أجل الله وكلماته من أجله، جهاده باللسان على حد جهاده بالسنان، كان هناك الترابط المتين واللقاء الحميم بين المعركة المسلحة والمعركة في الكلام...

عندما يتوجه الإمام إلى العدو يتوجه إلى الله بالدعاء وعندما يلتحم الجيشان يكون الدعاء... وعندما تنتهي المعركة يكون الدعاء.. بين استعانة بالله وحاجة إليه وشكر لنعمه... وكلمات الإمام في أدعيته سواء في الحرب أو في السلم صورة عميقة عن النفس الشفافة الطاهرة التي عرفت الله وعشقت مناجاته وحب اللقاء به... في دعاء كميل بن زياد... في دعاء الصباح في غيرهما من الأدعية تقرأ النفس المشتاقة إلى الله المحبة له التي تذوب أمامه وتصغر أمام عظمته... استرحاماً واستعطافاً وشرح الحال الفقيرة.. طلب المغفرة.. التوبة.. وهكذا... وهذا الدعاء من الإمام نموذج من تلك الأدعية التي تعددت وتكثرت عنه وعن أولاده...

انطلق اللسان يحكي عن عمق ما في القلب وبكلمة(اللهم) التي تحمل الإنكسار، إنكسار الحاجة من المنادي نحو المنادى وتحمل الاستعطاف والرقة إليك يا رب وحدك لا شريك لك اتصلتْ بك القلوب وتوجهت إليك وحلّت بساحتك فالنية إليك وإلى الجهاد في سبيلك، لقد تطاولت الأعناق واستشرفت أبواب رحمتك وكذلك ارتفعت الأبصار ناظرة إلى جودك وكرمك ولا تلتفت إلى سوى فضلك... إليك يا رب تحركت الأقدام من مواطنها وأماكن سكنها قاصدة رضاك وجهاد عدوك وإليك ومن أجلك اتعبنا الأبدان وأهزلناها في هذا السفر المضني الطويل...

(اللهم قد صرّح مكنون الشنآن وجاشت مراجل الاضغان) هذا بيان لسبب قتال أعدائه له إنهم كانوا يقاتلونه لبغضهم له وقد كان هذا البغض مستوراً في زمن رسول الله ﷺ ولكن الأحداث الآن كشفته وأظهرته.

وكذلك كانت نفوسهم تغلي عليه وتتقد، كانوا يتحرقون على أخذ الثأر منه لأنه

وترهم في آبائهم وأجدادهم وأقربائهم في معارك الإسلام في بدر وأحد والأحزاب فمنذ ذلك الوقت وضرام الحقد يغلي في النفوس ويتحينون الفرص للأخذ بثأرهم وقد آن الأوان لذلك.. لقد حان الوقت الذي يستطيعون فيه القصاص من قاتل آبائهم وأحبابهم...

(اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا «ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين») ما أعظم هذا الكلمات وشدة ربطها بما تقدم.. اللهم نداء ودعاء واستعطاف... بها يرتاح الإنسان من ألمه ويرتفع عن حزنه.. بيان لأسباب الحرب التي شنها الأعداء عليه، إنها غيبة رسول الله وشهادته التي جمعت العدو ووحّدت صفوفهم لقد كانوا زمن رسول الله مقهورين أذلاء أما الآن وبعد فقده فقد تجمعوا والتقوا على حرب أهله وفي مقابل اجتماعهم وكثرتهم هناك تفرقنا في الآراء والأهواء فلا يجمعنا وحدة هدف ولا لقاء في سبيل الله وهذا بيان لأختلاف مشارب أصحابه وتوجهاتهم وما هم عليه من عدم الوفاق.

وأخيراً دعا بالنصر لمن كان الحق معه...

١٦ ـ وكان يقول عليه السلام

لأصحابه عند الحرب:

لَا تَشْتَدَّنَّ(١) عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ(٢) بَعْدَهَا كَرَّةٌ(٣)، وَلَا جَوْلَةٌ(٤) بَعْدَهَا حَمْلَةٌ(٥)، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا(٧) لِلْجُنُوبِ(٨) مَصَارِعَهَا(٩)، وَٱذْمُرُوا(١٠) أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ(١١) ٱلدَّعْسِيِّ(١٢)، وَالضَّرْبِ ٱلطِّلَحْفِيِّ(١٣)، وَأَمِيتُوا ٱلأَصْوَاتَ(١٤)، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ(١٥) لِلْفَشَلِ(١٦). فَوَالَّذِي فَلَقَ(١٧) ٱلْحَبَّةَ(١٨)، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ(٢٠)، مَا أَسْلَمُوا وَلٰكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا(٢١) ٱلْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أعْوَاناً(٢٢) عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

اللغة

١ ـ **اشتد عليه الأمر** : شق عليه واستصعبه.
٢ ـ **الفرة** : المرة من الفرار وهو الهرب.
٣ ـ **الكرة** : الرجوع.
٤ ـ **الجولة** : الدورة في الحرب.
٥ ـ **الحملة في الحرب** : الكرة في الحرب.
٦ ـ **التوطين** : اتخاذ المكان محل سكن له.
٧ ـ **التوطئة** : التمهيد.
٨ ـ **الجنوب** : جمع الجنب وفي الأصل للجارحة ويستعار للجهة التي تليها.
٩ ـ **المصارع** : جمع مصرع مكان القتل.
١٠ ـ **ذمّره على الأمر** : حثه عليه بشدة وحرضه.
١١ ـ **الطعن في الرمح** : ضربه ووخزه به.
١٢ ـ **الدعسي** : منسوب إلى الدعس وهو الأثر وقيل الأصل معناه الدفع ثم يستعمل في الطعن والشدة والأثر وقيل أن أصل الدعس الحشو.

١٣ ـ الطلحفي : بكسر الطاء وفتح اللام أشد الضرب.
١٤ ـ إماتة الصوت : اخفاؤه.
١٥ ـ اطرد : من الطرد وهو الإبعاد.
١٦ ـ الفشل : جبن مع ضعف القلب.
١٧ ـ فلق : شق.
١٨ ـ الحبة : البزرة.
١٩ ـ برأ : خلق.
٢٠ ـ النسمة : النفس والروح.
٢١ ـ اسروا : ابطنوا.
٢٢ ـ الأعوان : الأنصار.

الشرح

(لا تشتدن عليكم فرة بعدها كرة ولا جولة بعدها حملة) وصيته إلى أصحابه المقاتلين كيف ينبغي أن يكون حالهم عندما يلتقون مع الأعداء في ساحات القتال وكيف تكون مواجهتهم لهم واستعدادهم ومقابلتهم...

وبأعتبار أن الفرار عار فقد هونه عليهم قائلاً لا تستصعبوا فرة من أمام الأعداء تفرونها إذا اعقبتها كرة عليهم تكون لصالحكم فالعار والصعوبة إنما يكون في فرّ لا كرّ بعده كما إنه لا عيب ولا صعوبة في حملة يقوم بها الأعداء عليكم تنال منكم وتقهركم مؤقتاً إذا اعقبتها حملة منكم شديدة على اعدائكم تؤدبهم وتعذبهم... فالحرب كرّ وفرّ والعيب كل العيب في الفر بدون كر...

(واعطوا السيوف حقوقها) هذا تحريض شديد لهم على الجد في القتال وإن للسيف حقاً على صاحبه وهو أن يضرب به الأعداء ضربات فتك وقوة في الأعناق والأطراف...

(ووطئوا للجنوب مصارعها) هيؤا بضرباتكم الحاسمة لأجداث الأعداء وصرعاها موطناً دائماً لا تقوم منها وبعبارة أخرى أجعلوا ضرباتكم تلحق أعداءكم في قبورهم...

(وأذمروا انفسكم على الطعن الدعسي والضرب الطلحفي) أمرهم أن يشتدوا في ضرب الأعداء ضرباً يظهر أثره في قتلاهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح من أشد الطعن والضرب...

(وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل) أمرهم بخفض الأصوات وعدم ارتفاعها وعلل ذلك بأنها تدفع الجبن والهلع فإن القوي صامت هادىء كالبحر في سكونه وهدؤه وأما الذي يهدّد ويهدر ويتوعد ويرتفع صوته فدليل خوفه وجبنه. . .

(فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما اسلموا ولكن استسملوا واسروا الكفر فلما وجدوا أعواناً عليه اظهروه) أقسم عليه السلام وهو الصادق أقسم بالله الذي شق الحبة ـ البذرة ـ فأخرج منها الزرع والأشجار وكذلك أقسم بالله الذي خلق الأنفس أن معاوية وعمرو بن العاص ومن معهما لم يسملوا ولكن استسلموا خوفاً من أن يطالهم سيف الإسلام فتذهب دماؤهم، إنهم ابطنوا الكفر وأخفوه في نفوسهم فلما وجدوا له متنفساً واستطاعوا اظهاره بعد أن وجدوا الأعوان عليه اظهروه وهذه الحرب هي التي أخرجت كفرهم وكشفتهم على حقيقتهم. . .

١٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية، جواباً عن كتاب منه إليه

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيكَ ٱلْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ ٱلْعَرَبَ إِلاَّ حُشَاشَاتِ(١) أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلاَ وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْحَقُّ فَإِلَى ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمَّا ٱسْتِوَاؤُنَا(٢) فِي ٱلْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى ٱلْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ(٣) عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ عَلَى ٱلآخِرَةِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ(٤)، فَكَذلِكَ نَحْنُ، وَلكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ(٥) كَهَاشِمٍ(٦)، وَلاَ حَرْبٌ(٧) كَعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ(٨)، وَلاَ أَبُو سُفْيَانَ(٩) كَأَبِي طَالِبٍ(١٠)، وَلاَ ٱلْمُهَاجِرُ(١١) كَالطَّلِيقِ(١٢)، وَلاَ الصَّرِيحُ(١٣) كَاللَّصِيقِ(١٤)، وَلاَ ٱلْمُحِقُّ كَٱلْمُبْطِلِ، وَلاَ ٱلْمُؤْمِنُ كَٱلْمُدْغِلِ(١٥). وَلَبِئْسَ ٱلْخَلْفُ(١٦) خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً(١٧) هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ(١٨) النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا ٱلْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا(١٩) بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ ٱللهُ ٱلْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً(٢٠)، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هذِهِ ٱلأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دُخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينِ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلاَ تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلاَ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ الحشاشات : جمع حشاشة بالضم بقية الروح في بدن المريض .

٢ ـ استواؤنا : مساواتنا واعتدالنا .

٣ ـ أحرص : الجشع والبخل وحرص على الشيء اشتد شرهه إليه وعظم تمسكه وبخله به .

٤ ـ عبد مناف : والد هاشم وأمية .

٥ ـ أمية : الجد الأعلى لمعاوية .

٦ ـ هاشم : الجد الأعلى للإمام علي .

٧ ـ حرب : والد أبو سفيان وجد معاوية .

٨ ـ عبد المطلب : والد أبو طالب وجد الإمام علي .

٩ ـ أبو سفيان : صخر بن حرب والد معاوية بن أبي سفيان .

١٠ ـ أبو طالب : شيخ الأبطح ووالد الإمام علي .

١١ ـ المهاجر : من آمن في المخافة وهاجر تخلصاً منها .

١٢ ـ الطليق : الأسير إذا أطلق سبيله وطلقاء الفتح هم الذين تركهم النبي ولم يسترقهم يوم الفتح .

١٣ ـ الصريح : الخالص من كل شيء ويقال صريح النسب خالص النسب صحيحه .

١٤ ـ اللصيق : الدعي في قوم الملصق بهم وليس منهم .

١٥ ـ المدغل : من الدغل وهو الفساد من الداخل .

١٦ ـ الخلف : المتأخر من الأولاد والأحفاد .

١٧ ـ السلف : ما تقدم من الآباء والأجداد .

١٨ ـ الفضل : البقية ، الزيادة ، الإحسان ابتداء .

١٩ ـ نعشنا : رفعنا .

٢٠ ـ الأفواج : جمع فوج الجماعة .

الشرح

(وأما طلبك إليّ الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس ، وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت ، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة ومن أكله الباطل فإلى النار) كان معاوية قد كتب إلى الإمام كتاباً يطلب منه أن يعطيه الشام وأن لا يكون له في عنقه بيعة .

ثم إنه في أيام صفين الشديدة قال معاوية إلى عمرو بن العاص: قد رأيت أن أعاود علياً وأسأله إقراري على الشام فقد كنت كتبت إليه ذلك فلم يجب إليه ولأكتبن ثانية فألقي في نفسه الشك والرقة.

فقال له عمرو بن العاص وضحك: أين أنت يا معاوية من خدعة علي عليه السلام.

قال: ألسنا بني عبد مناف.

قال: بلى ولكن لهم النبوة دونك وإن شئت أن تكتب فاكتب.

فكتب معاوية إلى علي عليه السلام مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عقبة وكان من نافلة أهل العراق:

أما بعد فإنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى ونصلح به ما بقي وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك بيعة وطاعة فأبيت ذلك عليَّ فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف وقد والله فارقت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ولا يسترق به حر والسلام...

فلما وصل الكتاب إلى الإمام كتب إليه هذا الكتاب يرد فيه عليه ويفند دعواه...

أولاً: رفض عليه السلام أن يعطيه الشام الآن كما رفض إعطاؤها له بالأمس وبهذا قطع أمنيته وما كان يحلم به فإن علياً عليه السلام رجل المبدأ والعقيدة لم يكن ليداهن في أمره أو يغير موقفه.

ثانياً: إن معاوية كتب إليه أنه لم يبق إلا أنفس جريحة مكلومة نتيجة للحرب فرد عليه السلام رد الواثق بنفسه وبطريقه وبما يهدف إليه... رد الإنسان الذي يجاهد في سبيل الله ويعرف أن طريقه وطريق من معه إلى الجنة... إن أصحابنا الذين استشهدوا في سبيل الحق فإلى الجنة وأما أنت ومن معك فلجهادكم في سبيل الباطل فإلى النار...

(وأما استواؤنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشك مني على اليقين

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١٥ ص ١٢١.

وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة) وثالثاً: بيّن عدم المساواة في الحرب فإن علياً يحارب وهو على يقين من أنه يجاهد في سبيل الله لأنه الخليفة الشرعي وواجبه قتال البغاة وردهم إلى الطاعة بينما معاوية يحارب وهو على شك بل على يقين من بغيه وفساده. . . وأما الرجال فإن أهل العراق أحرص على الآخرة وطلبها من حرص أهل الشام على الدنيا وطلبهم لها، ومن يكون أشد حرصاً على الآخرة لا بد وأن ينتصر على من يكون حريصاً على الدنيا. . .

(وأما قولك: إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب) أراد معاوية بقوله: إننا وأنتم من عبد مناف أراد استعطاف أمير المؤمنين أو مضاهاته في شرف النسب فأجابه الإمام لقد فرّقت بيننا الأعمال وميزتنا المناقب والصفات فليس آبائي كآبائك فآباء الإمام أهل شرف وكرم بل كانوا أكرم الناس وأشرفهم أما أبو طالب فهو الذي منع قريشاً من إيذاء النبي ودافع عنه أشد الدفاع.

قال اليعقوبي عنه: وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع إملاقه بينما كان أبو سفيان أشد الناس عداءً للنبي وهو الذي جيّش الجيوش لحرب المسلمين في بدر وأحد والأحزاب ولم يُسلم بل استسلم ليحفظ خيط رقبته.

وأما عبد المطلب ففي سيرة ابن هشام أنه ولي السقاية والرفادة. . . فأقامها للناس. . . وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم.

وينقل التاريخ رؤياه في حفر بئر زمزم وما نذره من نذر يذبح فيه ولده.

وأما عبد المطلب فكان شيخ قريش يبسط له في ظل الكعبة فراشاً يجلس عليه ويلتف حوله بنوه وكان رسول الله يأتي فيجلس على نفس الفراش فيريدون أخذه فيقول عبد المطلب: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه على فراشه.

وأما هاشم فهناك بيت القصيد سنّ الرحلتين لقريش وكان أجود العرب وبه قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

هذه لمحة سريعة عن آباء علي واذهب واقرأ سيرة آباء معاوية دناءة ومؤامرة واعتداء وتجاوز على الحقوق، إن تزعّموا فلا عن استحقاق وإن ترأسوا فبالباطل والظلم

فلا الآباء كالآباء ولا الأمهات كالأمهات وأنى لعاقل أن يقيس الدر بالصدف والذهب بالزخرف. . .

(ولا المهاجر كالطليق) أشار عليه السلام إلى نفسه وإلى معاوية فعلي قد خرج مع المسلمين تاركاً مكة مهاجراً إلى المدينة وتلك منقبة عظيمة رفعت المهاجرين ومنهم الإمام قال تعالى: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾**[1].

وأين هذا من معاوية الطليق الذي أسر في فتح مكة فمنّ عليه رسول الله فأطلقه. . .

(ولا الصريح كاللصيق) فالصريح هو الطاهر الخالص من عيوب الآباء والأمهات وإن عفة الأمهات وطهارة الآباء كانت معروفة عند بني هاشم عكس الأمويين وكلام الإمام يشير إلى غمز في نسب معاوية وهذا ما تصدقه الروايات وتحكيه كتب الأنساب.

وقيل: إن الصريح إشارة إلى نفسه مسلم خالص دون شك بينما معاوية لم يسلم عن اعتقاد وإنما أسلم خوف السيف. . .

(ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمدغل) وهذه أيضاً من الصفات المتقابلة فكل صفة كريمة فيه يقابلها صفة ذميمة في معاوية.

فإن علياً على الحق لأنه الخليفة الذي تم انتخابه وبايعه المسلمون فانعقدت له البيعة ووجبت في أعناق المسلمين ولا يمكن لأحد الخروج منها.

أما معاوية فهو رجل باغ معتدٍ خرج على الجماعة وفرّق وحدة الأمة فهو مبطل في طلبه وفيما يذهب إليه ولا يتساوى المحق والمبطل في ميزان العدل وحكم العقل. . .

وكذلك لا يتساوى المؤمن الذي أسلم عن عقيدة راسخة والتزم أحكام الله يشير إلى نفسه وبين المدغل الذي هو خبيث الباطن منافق فاسق.

(ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم) وهذا ذم لمعاوية ولآبائه بما فيهم أبو سفيان فأنت يا معاوية لرذائلك بئس الخلف تتبع سلفاً سقطوا في نار جهنم فلرذائله تساوى مع أسلافه الذين سقطوا في نار جهنم. . .

---

(١) سورة التوبة، آية/ ١٠٠.

(وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل) هذا رد على ما ورد في كتاب معاوية الذي يقول فيه: «ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ولا يسترق به حر».

فالإمام يقول له: إن لنا فضلاً آخر عليكم بعد الفضائل المتقدمة وهو فضل النبوة ولما استثنى معاوية أن يكون الفضل مما يستذل به أو يسترق ذكر الإمام أن هذا الفضل قد أذل العزيز من الطغاة والظالمين كأبي سفيان وأبي جهل وغيرهما كما أن به ارتفعت منازل الضعفاء والفقراء وأصبحوا قادة وسادة.

(ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين: إما رغبة وإما رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً ولا على نفسك سبيلاً، والسلام) بعد ذكره لفضائله وفضائل بني هاشم على بني أمية أتبع عليه السلام ذلك بذكر رذيلة أموية تكشف عن عدم قناعتهم بالإسلام كدين يحكم النفس والضمير والسلوك وذلك بذكر أن العرب دخلت في دين الله أفواجاً فمنهم من دخل عن إيمان وقناعة ومنهم من دخل كرهاً عنه لما رأى قوة الإسلام واندفاع المسلمين وما يتمتعون به من مقدرة وفتوحات.

وأما الأمويون فإنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا لأحد أمرين إما رغبة في الغنائم والمكاسب والمنافع وإما خوفاً من حد السيف أن يطالهم ومثل هذا الدخول في الإسلام إنما هو دخول شكلاً لا حقيقة وظاهراً لا عمقاً ففي حين كنتم هكذا فقد فاز أهل القدم السابقة ممن دخلوا الإسلام عن عقيدة كالأنصار والمهاجرين الذين دخلوا الإسلام لإيمانهم وعقيدتهم بأنه دين الله...

ثم نهاه أن يستمر الشيطان في تسييره ويبقى ضارباً معه بنصيب كما نهاه أن يجعل على نفسه سبيلاً من القتل أو المطاردة والحرب...

١٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ[١]، وَمَغْرِسُ[٢] ٱلْفِتَنِ[٣]، فَحَادِثْ[٤] أَهْلَهَا بِٱلإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَٱحْلُلْ[٥] عُقْدَةَ[٦] ٱلْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ[٧] لِبَنِي تَمِيمٍ[٨]، وَغِلْظَتُكَ[٩] عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ[١٠] إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ[١١] فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً[١٢] مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ[١٣] عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ[١٤] عَلَى قَطِيعَتِهَا. فَٱرْبَعْ[١٥] أَبَا ٱلْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ ٱللهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذٰلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلاَ يَفِيلَنَّ[١٦] رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ مهبط إبليس : موضع هبوطه ونزوله.

٢ ـ المغرس : موضع الغرس يقال: غرس الشجرة إذا أثبتها في الأرض.

٣ ـ الفتن : جمع فتنة اختلاف الناس في الآراء.

٤ ـ حادث أهلها : تعهدهم وحادثوا القلوب بذكر الله اجلوها واغسلوا درنها.

٥ ـ أحلل : من حلّ العقدة إذا فكّها ونقضها فانحلت.

٦ ـ العقدة : الأمر المبرم.

٧ ـ التنمر : سوء الأخلاق وتغيرها وهو مأخوذ من النمر الحيوان المعروف بشراسة خلقه.

٨ ـ تميم : قبيلة عربية.
٩ ـ الغلظة : الخشونة، ضد الرقة.
١٠ ـ النجم : الكوكب ويطلق على سيد القوم والشريف فيهم.
١١ ـ الوغم : الترة، والحرب، الحقد الثابت في الصدر.
١٢ ـ الرحم الماسة : القرابة القريبة.
١٣ ـ مأجورون : من الأجر وهو الثواب والعوض.
١٤ ـ مأزورون : من الوزر وهو الإثم.
١٥ ـ أربع : قف، وتثبّت، وكفّ.
١٦ ـ لا يفيلن : من فال رأيه ضعف وأخطأ.

الشرح

(واعلم أن البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن فحادث أهلها بالإحسان إليهم واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم) بعد أن انتصر الإمام في معركة الجمل على الناكثين وأراد الرحيل عنها إلى الكوفة عيّن عبد الله بن عباس والياً عليها.

ولما كان بنو تميم من الذين جاهروا بعدائهم للإمام ووقفوا في الحرب إلى جانب الناكثين وقاتلوا معهم حمل عليهم ابن عباس وأقصاهم وتنكر لهم وعيّرهم بفعلهم فاشتد ذلك على بعض بني تميم ممّن هم أولياء للإمام فكتب بذلك حارثة بن قدامة إلى الإمام يشكو ابن عباس فكتب له الإمام هذه الرسالة.

اعلم يا ابن عباس أن البصرة محل نزول إبليس وهي مهوى فؤاده وهي منشأ الفتن وفيها غرست أصولها وذلك باعتبار أن الفرقة الناكثة نزلت فيها ودارت رحى الحرب على أرضها وفُتحت منها أبواب الفتن بين المسلمين فلتسلط إبليس على الناكثين وتسخيره لهم وتحويلهم إلى جند له في المعصية والتمرد فكأنه لعنه الله قد نزل فيها...

ثم أمره بأمر فيه مصلحة المجتمع والدولة وإن كانت البصرة مرتع إبليس ومحل الفتنة، أمره أن يتعهدهم بما ينفعهم ويفيدهم ويرفع عنهم اللوم ويكف عن ذمهم وتهديدهم وأن لا يأخذهم بما سلف منهم بل يتسامح معهم ويصفح عنهم ويتجاوز عما كان ويستبدل إساءتهم بالإحسان إليهم...

وبعبارة أخرى ازرع في قلوبهم الطمأنينة والأمن وإنك لا تأخذ أحداً منهم بما كان منه وهذه من خصائص أمير المؤمنين الذاتية أنه يتجاوز عن سيئات الآخرين وإساءاتهم...

(وقد بلغني تنمرك لبني تميم وغلظتك عليهم) هذا ما وصل إلى الإمام عن ابن عباس وأوجب عليه أن يكتب له هذه الرسالة وهي أن أخلاق ابن عباس قد تغيرت وساءت مع بني تميم فكان غليظاً عليهم يزدريهم ويحتقرهم ويعيبهم وهذه لم تعهد من ابن عباس من ذي قبل وإنما اتخذ هذا الأمر لموقفهم العدائي لأمير المؤمنين وقتالهم له. . .

(وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر وأنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام وأن لهم بنا رحماً ماسة وقرابة خاصة نحن مأجورون على صلتها ومأزورون على قطيعتها) ذكر الإمام ثلاث صفات يتمتع بها بنو تميم توجب على ابن عباس أن يغيّر موقفه منهم.

١ ـ إنهم لم يفقدوا القيادة الرشيدة منهم ولم يعدموا الزعامة بل كان إذا مات زعيم منهم لمع آخر مكانه، سد فراغه وملأ مكانه ومن كانت هذه حالهم يجب أن لا يثاروا ولا يؤخذوا بالإزدراء والإهانة.

٢ ـ إنهم لشرف نفوسهم وإبائهم الذل لم يهدر لهم دم لا في الجاهلية ولا في الإسلام فإنهم يأخذون بثأرهم ولا يحقدون على أحد أو أنهم لشرفهم لا يحقدون على أحد لأن الضعيف هو الذي يحقد.

٣ ـ إن لهم قرابة ورحماً ببني هاشم وفُسَّرت هذه القرابة من جهة إتصالهما بجد واحد وهو إلياس بن مضر أحد أجدادهما المتقدمين وقيل: لأن الإمام كان صهراً لهم وعلى كل حال رتب عليه السلام على صلة الرحم الأجر والثواب إن وصلها والإثم والوزر إن قطعها والعاقل لا يختار على رضا الله وثوابه شيئاً. . .

(فاربع أبا العباس رحمك اللهفيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر فإنا شريكان في ذلك وكن عند صالح ظني بك ولا يفيلن رأي فيك والسلام) أمره عليه السلام أن يتثبت فيما يقوله ويتدبر فيما يتكلم ويحسب لكل كلمة أو فعل حسابه في ميزان الخير والشر فإن كان خيراً أقدم عليه وإن كان شراً كف عنه ولا يستعجل فيما يخطر له أو يهمّ به لأنه قد يضر بالمصلحة العامة وبسياسة الدولة العادلة.

ثم بيّن له أن كل خطيئة يرتكبها ابن عباس فهو عليه السلام شريك له فيها فابن عباس بالمباشرة والإمام بالتسبيب لأنه هو الذي عيّنه في مكانه الذي هو فيه.

ثم أخيراً قال له: إني أظن بك الصلاح والكفاءة لإدارة البلاد فكن عند حسن ظني بك ولا تعمل ما يوجب سوء الظن بك وقلة الثقة بتصرفك والسلام. . .

ترجمة عبد الله بن عباس.

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن عم رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين.

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وتوفي رسول الله وله من العمر ثلاث عشرة سنة.

وهو والد الخلفاء العباسيين وأخو أخوة عشرة ذكور من أم الفضل للعباس وهو آخرهم مولداً وقد مات كل واحد منهم في بلد.

كان يقال له: الحبر والبحر أخذ علمه عن الصحابة ولازم الإمام واغترف من نميره فكان قطرة من بحر الإمام تولى إمارة الحج سنة خمس وثلاثين بإمرة عثمان وعثمان محصور وفي غيبته قتل.

حضر مع الإمام يوم الجمل وكان على الميسرة يوم صفين وشهد قتال الخوارج ولاه الإمام على البصرة فكان أهلها سعداء به يفقههم في الدين ويعلمهم أحكامه ويعظهم ويعطي فقيرهم.

وعندما أراد الحسين الخروج إلى كربلاء أشار ابن عباس بخلاف ذلك وكان قد أضر فلم يخرج معه لذلك.

ولما وقع النزاع بين ابن الزبير وبين عبد الملك بن مروان اعتزل ابن عباس ومحمد بن الحنفية الناس فدعاهما ابن الزبير ليبايعان فأبيا عليه وقال كل منهما: لا نبايعك ولا نخالفك فهمّ بهما وكاد أن يحرق عليهما بيوتهما فاستنجدا بالمختار فكان الفرج والخلاص على يديه فخرجا مع بني هاشم إلى الطائف.

توفي ابن عباس بالطائف سنة ثمان وستين وصلى عليه محمد بن الحنفية.

١٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ(١) أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً(٢) وَقَسْوَةً، وَٱحْتِقَاراً وَجَفْوَةً(٣)، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا(٤) لِشِرْكِهِمْ، وَلاَ أَنْ يُقْصَوْا(٥) وَيُجْفَوْا(٦) لِعَهْدِهِمْ(٧)، فَٱلْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً(٨) مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ(٩) بِطَرَفٍ(١٠) مِنَ الشِّدَّةِ(١١)، وَدَاوِلْ(١٢) لَهُمْ بَيْنَ ٱلْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ(١٣)، وَٱمْزُجْ(١٤) لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَٱلإِدْنَاءِ، وَٱلإِبْعَادِ وَٱلإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

اللغة

١ ـ الدهاقين : جمع دهقان فارسي معرب وأصله رئيس القرية ويطلق على التاجر وصاحب المال والعقار.

٢ ـ الغلظة : الخشونة، ضد الرقة.

٣ ـ الجفوة : ضد المواصلة والمؤانسة خلاف البر.

٤ ـ يدنوا : من الإدناء وهو التقريب.

٥ ـ الإقصاء : الإبعاد.

٦ ـ يجفوا : يعاملوا بخشونة.

٧ ـ العهد : الذمة والأمان.

٨ ـ الجلباب : إزار، ثوب يلبس فوق جميع الثياب كالعباءة.

٩ ـ تشوبه : تخلطه وتمزجه.

١٠ ـ طرف : بالتحريك طائفة من الشيء وقطعة منه.

١١ ـ الشدة : نقيض اللين والرخاء.

١٢ ـ داول : مرة هذا وأخرى ذاك ويراد هنا وسّط بينهما.

١٣ ـ الرأفة : الرحمة.

١٤ ـ أمزج : أمر من مزج الشيء بالشيء إذا خلطه.

الشرح

(أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا ويجفوا لعهدهم) هذه رسالة إلى عامله على فارس وهو عمر بن أبي سلمة وكان أهلها مجوساً فشكوا خشونة أميرهم وقساوته وشدة معاملته لهم فكتب إليه الإمام هذا الكتاب.

أما بعد فإن ملاك الأرض عندك والمتزعمين وأصحاب النفوذ فيها اشتكوا لي منك خشونتك عليهم وشدتك واحتقارك واستصغارك لهم وتبعيدهم عن ساحتك. . .

وأنا قد نظرت وفكّرت في واقعهم فلم أجد مبرراً يؤهلهم أن تدنيهم وتقربهم منك لشركهم والشرك إسفاف في التفكير وانحطاط في العقل ويجب أن يصغر من يحمل ذلك ولا يُجعل قريباً من أصحاب الولاية وكذلك في المقابل نظرت فإذا لهم عهد وذمام وذمة فيجب أن يحفظوا من خلالها وبمقتضاها إذن هناك جانب سلبي وآخر إيجابي ويجب أن تتعامل بكلا الأمرين وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله:

(فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء إن شاء الله) أمره باتخاذ الحد الوسط والاعتدال في معاملتهم، عاملهم باللين مع شيء من الشدة بحيث لا يطمعوا في لينك فيخرجوا عن حدودهم ويمنعوا حقوقهم ويتمردوا على الحكم ظناً منهم أن اللين إنما كان عن ضعفٍ. . .

وأمره أن لا يستعمل القسوة دائماً ولا الرأفة دائماً بل تارة يأخذ هذا الجانب وأخرى ذاك وكذلك يستعمل معهم أسلوب تقريبهم مرة وإبعادهم أخرى لئلا يطمعوا بتقريبهم ولا يتذمروا بتبعيدهم مع مراعاة وجه المصلحة فيما يقتضيه الوقت. . .

٢٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة، وعبد الله عامل أمير المؤمنين يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِٱللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ(١) مِنْ فَيْءِ(٢) ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لأَشُدَّنَّ(٣) عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ(٤) قَلِيلَ ٱلْوَفْرِ(٥)، ثَقِيلَ الظَّهْرِ(٦)، ضَئِيلَ ٱلأَمْرِ(٧)، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ خنت : من خان إذا لم يف بما عهد إليه يقال: خان العهد إذا نقضه.

٢ ـ الفيء : الغنيمة أو الخراج.

٣ ـ شدَّ على العدو : حمل عليه.

٤ ـ تدعك : تتركك.

٥ ـ الوفر : المال.

٦ ـ ثقيل الظهر : مسكين لا تقدر على مؤنة عيالك.

٧ ـ ضئيل الأمر : الحقير الصغير.

الشرح

(وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر والسلام) كان زياد بن أبيه من أتباع الإمام وشيعته وقد ولاه البصرة بعد انتصاره على أهل الجمل ثم وصلته الأنباء بخيانته فكتب إليه الإمام هذه الرسالة يتهدده فيها ويتوعده ويحذره من الخيانة وعاقبتها القبيحة في الدنيا والآخرة...

يقسم الإمام بالله ويؤكده بأنه أقسم صادقاً أنه إذا بلغه الأمر وكان على حقيقته من خيانته لأموال المسلمين وما جلبته سيوفهم وأفاءه الله عليهم سواء كان ذلك صغيراً أم كبيراً فإنه سيحمل عليه حملة شديدة يتركه بحالة أسوأ ما يكون يجرده من أمواله ويحوّله إلى مسكين لا مال له ويثقل ظهره بما أخذه من حيث إنه يقتص منه وأخيراً يجعله حقيراً صغيراً من حيث إسقاط منزلته من أعين الناس فإن من اتهم بالخيانة وسلب منه ماله كان جديراً بازدراء الناس له واحتقارهم واستصغار شأنه. . .

أقول: هذا الأسلوب العلوي من مفردات العدل الذي تمتع به الإمام وانفرد عن غيره بهذه الخصائص الكريمة. . .

انظر كيف لا تأخذه في الله لومة لائم لا يراعي إلا الله ولا يهمه إلا أمره وإرادته فمن هنا نجد هذه الحملة على هذا الوالي كما يحمل على غيره من ولاته إن شعر منهم خيانة أو بعض التقصير. . .

٢١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى زياد أيضاً

فَدَعِ(١) ٱلإِسْرَافَ(٢) مُقْتَصِداً(٣)، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ(٤) لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ(٥) فِي النَّعِيمِ(٦)، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَٱلأَرْمَلَةَ(٧) - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ مَجْزِيٌّ(٨) بِمَا أَسْلَفَ(٩) وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ - دع : اترك.

٢ - الإسراف : صرف المال زيادة عما ينبغي والتبذير إنفاقه فيما لا ينبغي.

٣ - الاقتصاد : الاعتدال في الأمور فلا يسرف ولا يبخل.

٤ - الفضل : ما يفضل من الشيء، الزيادة.

٥ - متمرغ : من مرّغه بالتراب إذا معكه به والمتمرغ بالنعيم المتقلب فيه.

٦ - النعيم : رغد العيش، والدعة.

٧ - الأرملة : المرأة التي مات عنها زوجها والأرمل صفة يشترك فيها المذكر والمؤنث.

٨ - مجزي : من الجزاء وهو الأجر والثواب.

٩ - أسلف : قدم.

الشرح

(فدع الإسراف مقتصداً واذكر في اليوم غداً وأمسك من المال بقدر ضرورتك وقدم الفضل ليوم حاجتك) أحسن الإمام إلى زياد بن أبيه فولاه البصرة فأخذ زياد يسرف في الصرف وأطايب الطعام فكتب الإمام إليه هذا الكتاب يأمره فيه بعدة أوامر.

١ ـ دع الإسراف مقتصداً أي خذ طريق الاعتدال في صرف المال فلا تسرف زيادة عن اللزوم ولا تقتّر لتصبح من البخلاء بل توسط في ذلك.

٢ ـ نبهه أن لا تشغله الطيبات والملذات بل يعمل في هذا اليوم ـ في الدنيا ـ إلى الغد وهو ما بعد الموت وما هو صائر إليه يوم القيامة.

٣ ـ أمره أن يحفظ من المال بقدر ضرورته وحاجته فلا يدخر منه شيئاً أزيد من الحاجة.

٤ ـ أن يقدّم ما زاد عن الضرورة وما هو بحاجة إليه يقدّمه ليوم الفاقة وهو يوم القيامة فإنه يوم يحتاج فيه الإنسان إلى أصغر عمل طيب يدفع به حر جهنم ونارها. . .

(أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزي بما أسلف وقادم على ما قدّم، والسلام) استفهم عليه السلام مستنكراً عليه ما يذهب إليه من أنه يرجو أن يعطيه الله أجر المتواضعين بينما هو من المتكبرين فإن من أراد أن يحصل على أجر المتواضعين يجب أن يتصف بهذه الصفة لا أن يتصف بضدها وخلافها. . .

وكذلك استنكر عليه أن يطلب أجر المتصدقين بأموالهم بينما هو يعيش البطر والاسترخاء ويتقلب في صرف الأموال يمنعها المسكين والفقير والأرملة فهو يطلب أجراً لا يتفق وعمله وما يقوم به إذن فلا أجر.

ثم أعطاه كبرى كلية وقاعدة عامة وهي «إن بين العمل والجزاء ارتباط خاص وتلازم تام لا ينفك فما عملت من خير تجزى به خيراً تصدقت كتب الله لك أجر الصدقة. . . أقرضت محتاجاً كتب الله لك أجر القرض وهكذا.

كما أن هناك ارتباطاً أشد بين ما يعمله الإنسان في الدنيا وما يلاقيه في الآخرة فمن عمل عملاً في الدنيا قدم عليه في الآخرة فما قدمته في حياتك الدنيا وجدته في آخرتك. . .

٢٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى، وكان عبد الله يقول: «ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ، كانتفاعي بهذا الكلام!»

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ(١) دَرْكُ(٢) مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ(٣)، وَيَسُوؤُهُ(٤) فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ(٥)، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ(٦) مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ(٧) عَلَيْهِ جَزَعاً(٨)، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ(٩) فِيمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ.

اللغة

١ ـ سرّه : أعجبه وأفرحه.

٢ ـ الدرك : بالتحريك اللحاق والوصول إلى الشيء.

٣ ـ فاته الشيء : ذهب عنه فلا يستطيع إدراكه.

٤ ـ ساءه : أحزنه، ضد سره.

٥ ـ يدركه : يناله ويصيبه.

٦ ـ نلت : بلغت مقصودك منها.

٧ ـ لا تأس : لا تحزن.

٨ ـ الجزع : أشد الحزن.

٩ ـ همك : قلقك وحزنك.

الشرح

(أما بعد فإن المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسؤوه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك وليكن أسفك على ما فاتك منها وما نلت من دنياك فلا

تكثر به فرحاً وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً وليكن همّك فيما بعد الموت) هذا الكلام موعظة رحيمة ونصيحة غالية كريمة. . . وتوجيه من إنسان واثق بالله أدرك أفعاله وحكمتها فآمن بكل ما جرى واستسلمت روحه لما كان. . .

يقول لابن عباس ـ وإن كان يريد كل فرد منا ـ يقول له: لا تفرح بما نلت وأدركت إلا إذا كان ينفعك في الآخرة ولا تأسف أو تحزن على شيء يفوتك إلا إذا كنت تنتفع به في الآخرة.

الإنسان قد يفرح بما قدر الله له وكان لا بد له من الحصول عليه وقد يحزن ويتأثر لأمر كان من المقدر له أن لا يدركه فالمقدر له الحصول عليه يفرح به مع أنه حاصل له لا محالة والمقدر له عدم الحصول عليه يحزنه مع أنه لا محالة سوف لن يحصل عليه، وهذا لجهل الإنسان وعدم إدراكه لحكمة الله في تقدير الأمور.

ثم إنه عليه السلام بيّن موارد الفرح وبيّن موارد الحزن إذا أردت أن تفرح وتسر فافرح بما ينفعك في آخرتك من صلاة وصوم وحج وصلة رحم وإعانة فقير وإغاثة ملهوف وغير ذلك من وجوه البر وليكن أسفك وحزنك على معصية ارتكبتها أو إثم فعلته أو أمر حرام أقدمت عليه لأنه يضر بآخرتك ويلزم منه الشقاء الدائم والعذاب الباقي. . .

وأما ما يفوتك من الدنيا فلا تحزن عليه وما يأتيك منها فلا تفرح به لأن أثر ذلك مؤقت وهذا مأخوذ من قوله تعالى: **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور. . .﴾**.

ثم أمره بأمر فيه سعادته وهو أن يصرف كل همه ويعمل لما بعد الموت فإن في ذلك اليوم إما سعادة دائمة أو شقاء دائم فهو الذي يستحق الاهتمام والاعتناء.

٢٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم لعنه الله:

وَصِيَّتِي(١) لَكُمْ: أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ(٢)، وَأَوْقِدُوا(٣) هذَيْنِ ٱلْمِصْبَاحَيْنِ(٤)، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ(٥)!.

أَنَا بِٱلأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ(٦) لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَٱلْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَٱعْفُوا: «أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ».

وَٱللهِ مَا فَجَأَنِي(٧) مِنَ ٱلْمَوْتِ وَارِدٌ(٨) كَرِهْتُهُ، وَلاَ طَالِعٌ(٩) أَنْكَرْتُهُ(١٠)؛ وَمَا كُنْتُ إِلاَّ كَقَارِبٍ(١١) وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾.

قال السيد الشريف رضي الله عنه: أقول: «وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدم من الخطب، إلا أن فيه ها هنا زيادة أوجبت تكريره».

اللغة

١ ـ ضيّع الشيء : فقده، وأهمله.
٢ ـ العمود : ما يقوم عليه البيت وغيره.
٣ ـ أوقدوا : أشعلوا.
٤ ـ المصباح : السراج.
٥ ـ خلاكم ذم : كالمثال يقال: افعل كذا وخلاك ذم أي فقد أعذرت وسقط عنك الذم.
٦ ـ عبرة : عظة.

٧ ـ فجأني : باغتني.
٨ ـ الوارد : خلاف الصادر، صار إلى الشيء وأدناه وبلغه.
٩ ـ طالع : من طلع الشيء إذا ظهر.
١٠ ـ أنكره : جهله، جحده.
١١ ـ القارب : طالب الماء ليلاً.

الشرح

(وصيتي لكم: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ومحمداً ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فلا تضيعوا سنته أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذم) هذه الوصية قالها عليه السلام لأهله صبيحة الليلة التي ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وفيها قيم عالية تردهم إلى الله وإلى رسوله وفيها موعظة بالغة أن يعتبروا بحاله وكيف أنه كان على استعداد تام للموت ولما بعده. . .

أوصى أهله أن لا يشركوا بالله شيئاً لأن الشرك ظلم عظيم وهو من الذنوب التي لا تغفر وأوصاهم برسول الله من خلال الوصية بسنة رسول الله بأن يعملوا بها ويقوموا بمضمونها ويبادروا إلى أحيائها ونشرها. . .

أوصاهم أن يقيموا هذين العمودين اللذين يرتكز عليهما الإسلام واللذين يشكلان العمود الفقري للدين والشريعة.

أوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذم أي اعملوا بهذين المصباحين المنيرين اللذين على أساسهما تسعدوا وتنجحوا ولا ملامة عليكم ولا ذم يلحقكم بعد ذلك. . .

(أنا بالأمس صاحبكم واليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم إن أبقى فأنا ولي دمي وإن أفنى فالفناء ميعادي وإن أعف فالعفو لي قربة وهو لكم حسنة فاعفوا «ألا تحبون أن يغفر الله لكم») نعى عليه السلام إليهم نفسه ووعظهم بحاله باعتبار أوقاته الثلاثة الأمس واليوم والغد.

فأنا بالأمس صاحبكم الذي تعرفونه بالقوة والشجاعة وإدارة البلاد وسياسة العباد.

وأنا اليوم عبرة لكم وموعظة ترون كيف قلّت حيلتي وخمدت قوتي وتوقفت الحياة في بدني وأنا غداً مفارقكم وتارككم إلى عالم الآخرة حيث رحمة الله ورضوانه. . .

ثم بيّن أمره مع قاتله فذكر أنه إن بقي على قيد الحياة ولم تقض عليه الضربة فهو

ولي دمه وبيده زمام أمره يرى في عدوه رأيه ويحكم فيه بما أحب الله وأراد والله أحب العفو وأنا أعفو عنه ترغيباً لهم في ذلك وإن كانت الأخرى ـ التي لا تبقى حياة ويكون فيها الموت ـ فهذا الموت أمر طبيعي وكل حي سيصل إليه وهو ميعاد الجمع وما أجمل أن تعفوا عنه لأنكم أولياء الدم والعفو إن كان لي فهو قربة وإن كان لكم فهو حسنة تثابون عليها واستشهد على ذلك بالآية ترغيباً لهم وبهذه الصيغة الاستفهامية الترغيبية **﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾** إذن فاغفروا للذين ظلموا ولمن هم تحت أيديكم ومنهم هذا الظالم المتمرد الذي جنى هذه الجناية الفظيعة التي اهتزت لها السماوات واضطربت لها الأرض. . .

(والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ولا طالع أنكرته وما كنت إلا كقارب ورد وطالب وجد وما عند الله خير للأبرار) أقسم عليه السلام أنه لم يفاجأ بالموت بأمر ورد عليه كرهه ولا طلع أمر جديد أنكره ولم يعرفه لأنه عليه السلام كان على بينة مما وصل إليه الآن وقد كان يترقبه ويعدّ لكل أمر يقع فيه علاجه وما ينتفع به. . . لقد كان الإمام على بينة واضحة من أمر الموت وما بعده وما يصلح شأنه في ذلك اليوم. . . كان يعمل لذلك ويعرف كل ما ينفع فيه فلذا لم يفاجأ بما يكون فيه ثم شبّه نفسه بالقارب الذي ورد أي طالب الماء الذي وصل إلى ما يطلب فهو عليه السلام كان يبحث عن عالم الحقيقة والخلود والوصول إلى رحمة الله وقد أدرك ما سعى إليه ووصل إلى ما كان يعمل من أجله.

وكذلك شبه نفسه بطالب أمر ضائع منه فوجده وهو عليه السلام كان يطلب الوصول إلى الله والانتقال من هذه الدار الفانية وكان يقول: متى ينبعث أشقاها يشير إلى قاتله واستشهد بالآية الكريمة تدليلاً على أنه قد وجد مطلوبه **﴿وما عند الله خير للأبرار﴾** ما عند الله من ثواب وأجر ونعيم وخلود أفضل للأبرار والأتقياء من الدنيا وما فيها من عذاب وشقاء. . .

٢٤ ـ ومن وصية له عليه السلام

بما يُعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفين:

هذَا مَا أَمَرَ بهِ عَبْدُ ٱللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ٱبْتِغاءَ(١) وَجْهِ ٱللهِ، لِيُولِجَهُ(٢) بِهِ ٱلْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ ٱلأَمَنَةَ(٣).

منها: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ ٱلْحسنُ بْنُ عليٍّ يأْكُلُ مِنْهُ بِٱلْمعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِٱلْمعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ(٤) وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِٱلأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ(٥) مَصْدَرَهُ.

وَإِنَّ لابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ ٱلَّذي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيَامَ بِذلِكَ إِلَى ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ(٦)، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ(٧).

وَيَشْتَرِطُ عَلَى ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ(٨)، وَيُنْفِقَ(٩) مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ(١٠) لَهُ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هذِهِ ٱلْقُرَى وَدِيَّةً(١١) حَتَّى تُشْكِلَ(١٢) أَرْضُهَا غِرَاساً(١٣) وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي(١٤) ـ اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ(١٥) ـ لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ(١٦)، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ(١٧)، قَدْ أَفْرَجَ(١٨) عَنْهَا الرِّقُّ(١٩)، وَحَرَّرَهَا(٢٠) ٱلْعِتْقُ(٢١).

قال الشريف: قوله عليه السلام في هذه الوصية «وألا يبيع من نخلها وَدِيَّةً»، الوَدِيَّةُ: الفَسِيلَةُ، وجمعها وَدِيّ. وقوله عليه السلام: «حتى تشكل أرضها غراساً» هو من أفصح الكلام،

والمراد به أن الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

اللغة

١ ـ الابتغاء : الطلب وابتغيت الشيء طلبته.

٢ ـ ليولجه : ليدخله.

٣ ـ الأمنة : الأمن.

٤ ـ الحدث : بالتحريك الحادث أي الموت.

٥ ـ اصدره مصدره : أجراه كما كان يجري من قبل.

٦ ـ الحرمة : ما وجب القيام به من الحقوق.

٧ ـ الوصلة : بالضم الصلة والقرابة.

٨ ـ تركها على أصولها : أي لا يقطع منها شيئاً لئلا تفسد.

٩ ـ ينفق : يصرف.

١٠ ـ هدي له : أرشد إليه.

١١ ـ الودّية : كهدّية واحدة الودي أي الفسيل وهو صغار النخيل.

١٢ ـ يشكل : من اشكل إذا اشتبه.

١٣ ـ الغراس : بالكسر فصيل النخيل.

١٤ ـ امائي : جمع أمه وهي العبدة.

١٥ ـ أطوف عليهن : كناية عن غشيانهن.

١٦ ـ الحظ : النصيب.

١٧ ـ عتيقة : معتوقة محررة.

١٨ ـ أفرج عن الشيء : أطلق سراحه وحرره.

١٩ ـ الرق : العبودية.

٢٠ ـ حررّها : جعلها حرة.

٢١ ـ العتق للعبد : تحريره واطلاقه من رق العبودية.

الشرح

(هذا ما أمر به عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين في ماله ابتغاء وجه الله ليولجه به الجنة ويعطيه به الأمنة) هذه وصية الإمام إلى أولاده كتبها بعد منصرفه من صفين يبيّن لهم فيها كيف يتصرفون بأمواله وممتلكاته وهي من الدروس المفيدة لكل

عاقل ينظر لنفسه ويريد وجه الله بعمله ويبحث عما ينفعه في الدار الآخرة . . .

بيّن عليه السلام الوجه الداعي إلى هذه الوصية إنه لم يقصد بذلك إلا القربة لله وطلب ثوابه ليدخله الجنة بها ويمنّ عليه بالأمن يوم الخوف من الفزع الأكبر في مواقف القيامة وهذا الهدف من أنبل الأهداف لدى المسلم يجب أن يسعى باستمرار إليه ويقصر النظر عليه . . .

(فإنه يقوم بذلك الحسن بن علي يأكل منه بالمعروف وينفق منه بالمعروف فإن حدث بحسن حدث وحسين حي قام بالأمر بعده وأصدره مصدره) جعل الحسن وصياً له وقائماً مقامه والمتولي لشوؤن هذه الصدقة ونص على جواز أن يأكل منها لينفي ما ربما يخطر بالبال من أن من عهد إليه بالوصية لا يجوز أن يتناول منها شيئاً وقد أمره عليه السلام أن يصرف على نفسه بالمعروف أي بقدر الحاجة بدون إسراف ولا تقتير وكذلك ينفق منها ويصرف على غيره بهذا الشكل بالمعروف وبما جرت به العادة كالصدقات والقربات وصلة الأرحام ومساعدة المحتاجين . . .

ثم بيّن أن الولاية إذا مات الإمام الحسن فهي للحسين فإنه يقوم مقام الحسن ويفعل بالأموال ما كان يفعله الحسن من الوجوه التي رسمت لها ووضعت فيها . . .

(وإن لابني فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني علي وإني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله وقربة إلى رسول الله ﷺ وتكريماً لحرمته وتشريفاً لوصلته) بيّن عليه السلام تساوي أولاده جميعاً في جواز تناولهم من هذه الأموال بدون فرق بين ابنائه من الزهراء أو ابنائه من غيرها .

ثم شرح الأسباب والدواعي التي دفعته لأختصاص ابني الزهراء بتولية هذه الأموال والإشراف عليها والقيام بشوؤنها . . .

إنه أراد التقرب إلى الله من خلال هذا التخصيص لهما لأنهما أقرب أولاده إلى الله وأعزهما عليه كما ورد ذلك في الآيات النازلة فيهما وفي أبيهما وأمهما فهما حجتا الله على الخلق وسيديّ شباب أهل الجنة .

وكذلك تقرباً من رسول الله بابني ابنته وأعز الخلق عليه فإن رسول الله كان يحبهما ويوصي بحبهما ويثني عليهما ويوصي لهما ويقول إنهما ريحانتي من الدنيا .

ثم بيّن أن للرسول حرمة وكرامة فأنا جعلت ابني ابنته أريد أن أصله بهذا العمل وأكرمه به قال ابن أبي الحديد : «ثم بيّن لماذا خصهما بالولاية؟» فقال : إنما فعلت ذلك

لشرفهما برسول الله ﷺ فتقربت إلى رسول الله ﷺ بأن جعلت لسبطيه هذه الرياسة وفي هذا رمز وازراء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله ﷺ مع وجود من يصلح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرياسة بعده لأهله قربة إلى رسول الله ﷺ وتكريماً لحرمته وطاعة له وأنفة لقدره ﷺ أن تكون ورثته سوقة يليهم الأجانب ومن ليس من شجرته وأصله ألا ترى أن هيبة الرياسة والنبوة في صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوة وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال في نفوس الناس للنبوة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة عليه السلام. . .

(ويشترط على الذي يجعله إليه أن يترك المال على أصوله وينفق من ثمره حيث أمر به وهدى له وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى ودية حتى تشكل أرضاً غراساً) اشترط عليه السلام على من جعله ولياً على هذا المال أن يتركه كما استلمه من يد صاحبه فلا يقطعه أو يقتلعه ويبيعه خشباً نعم يصرف من ثمره ويوزع منه بحسب ما رسم له في مصاريفه وعيّن له صاحبه من مواقعه فإن ذلك هو مقتضى الوقف لأنه تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة فالأصل لا يتغيّر أو يتبدل عما أوقف فلا يجوز بيعه ولا تحل هبته ولا يجوز تغيره عما هو عليه نعم الثمرة والنماء يصرف حسب ما عيّن الواقف كماً وكيفاً وشكلاً. . .

وكذلك اشترط أن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى ودية أي لا يقتلع فسيلاً ويبيعه بل يبقيها كما هي حتى تقوى وتكثر وتغطي الفراغ بحيث لو رآها أحد لذهب إلى أنها غير الأولى لكثرتها وكثافتها. . .

(ومن كان من إمائي ـ اللاتي أطوف عليهن ـ لها ولد أو هي حامل فتمسك على ولدها وهي من حظه فإن مات ولدها وهي حية فهي عتيقة قد أفرج عنها الرق وحررها العتق) كنى بالطواف على إمائه عن وطئهن فقضى فيهن إن حدث فيه حدث الموت فمن كانت منهن أم ولد أو حبلى لم تورث بل تقوّم على ولدها وتجعل له وباعتبار أن العمودين ـ الأب والأم ـ لا يمُلكان فتحرر بهذا الأعتبار وتطلق لها الحرية وهذا الأمر يجري حتى لو مات ولدها وهي حية ـ بعد موت مولاها ـ فإنها تطلق حريتها ولا تعود إلى الرقية لأنها بعد أن دخلت في ملك ولدها وقومت عليه تحرّرت وإن مات بعد ذلك فلا تعود إلى الرقية. . .

٢٥ ـ ومن وصية له عليه السلام

كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات

قال الشريف: وإنما ذكرنا هنا جملاً ليعلم بها إنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق، ويشرع أمثلة العدل، في صغير الأمور وكبيرها ودقيقها وجليلها

ٱنْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى ٱللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَلاَ تُرَوِّعَنَّ[١] مُسْلِماً وَلاَ تَجْتَازَنَّ[٢] عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ[٣] عَلَى ٱلْحَيِّ[٤] فَٱنْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخَالِطَ[٥] أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ[٦] وَٱلْوَقَارِ[٧]، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَخْدِجْ[٨] بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ ٱللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ[٩] إِلَى وَلِيِّهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لاَ، فَلاَ تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ[١٠] لَكَ مُنْعِمٌ فَٱنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ[١١] أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ[١٢] أَوْ تُرْهِقَهُ[١٣] فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ[١٤] أَوْ إِبِلٌ[١٥] فَلاَ تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ[١٦] عَلَيْهِ وَلاَ عَنِيفٍ[١٧] بِهِ. وَلاَتُنَفِّرَنَّ[١٨] بَهِيمَةً[١٩] وَلاَ تُفْزِعَنَّهَا[٢٠]، وَلاَ تَسُوءَنَّ[٢١] صَاحِبَهَا فِيهَا، وَٱصْدَعِ[٢٢] ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ[٢٣]، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ[٢٤] لِمَا ٱخْتَارَهُ. ثُمَّ ٱصْدَعِ ٱلْبَاقِي صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ. فَلاَ تَزَالُ كَذلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَٱقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ. فَإِنِ ٱسْتَقَالَكَ[٢٥] فَأَقِلْهُ، ثُمَّ ٱخْلِطْهُمَا ثُمَّ ٱصْنَعْ مِثْلَ ٱلَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً

حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً(٢٦) وَلاَ هَرِمَةً(٢٧) وَلاَ مَكْسُورَةً وَلاَ مَهْلُوسَةً(٢٨)، وَلاَ ذَاتَ عَوَارٍ(٢٩)، وَلاَ تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلاَ تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ(٣٠) وَلاَ مُجْحِفٍ(٣١)، وَلاَ مُلْغِبٍ(٣٢) وَلاَ مُتْعِبٍ. ثُمَّ ٱحْدُرْ(٣٣) إِلَيْنَا مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ(٣٤) حَيْثُ أَمَرَ ٱللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ(٣٥) إِلَيْهِ أَلاَّ يَحُولَ(٣٦) بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا(٣٧)، وَلاَ يَمْصُرَ(٣٨) لَبَنَهَا فَيَضُرَّ(٣٩) ذلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلاَ يَجْهَدَنَّهَا(٤٠) رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ(٤١) عَلَى اللاَّغِبِ(٤٢)، وَلْيَسْتَأْنِ(٤٣) بِالنَّقِبِ(٤٤) وَالظَّالِعِ(٤٥)، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ ٱلْغُدُرِ(٤٦) وَلاَ يَعْدِلْ(٤٧) بِهَا عَنْ نَبْتِ ٱلأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ(٤٨) الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا(٤٩) فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ(٥٠) وَٱلأَعْشَابِ(٥١)، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ ٱللهِ بُدَّناً(٥٢) مُنْقِيَاتٍ(٥٣)، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلاَ مَجْهُودَاتٍ(٥٤)، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَإِنَّ ذلِكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ(٥٥)، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ(٥٦)، إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

اللغة

١ ـ روّعه : أفزعه وخوفه من الروع وهو الخوف.
٢ ـ الاجتياز : المرور.
٣ ـ قدم المدينة : أتاها.
٤ ـ الحي : محلة القوم ـ البطن من بطون العرب.
٥ ـ خالطه : مازجه وداخله، عاشره.
٦ ـ السكينة : الوقار، الطمأنينة، المهابة.
٧ ـ الوقار : الرزانة والحلم.
٨ ـ لا تخدّج بالتحية : لا تنقص منها ولا تبخل بها.

٩ ـ أداه : أوصله، فتؤدوه: فتوصلوه.
١٠ ـ أنعم لك : قال لك نعم.
١١ ـ تخيفه : تفزعه.
١٢ ـ العسف : الأخذ بالشدة، والعسف الجور.
١٣ ـ الأرهاق : التكليف بما فيه العسر والمشقة.
١٤ ـ الماشية : جمعها المواشي اسم يقع على الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يستعمل في الغنم.
١٥ ـ الإبل : الجمال.
١٦ ـ تسلط عليه : صار مسلطاً عليه أي قاهراً قادراً عليه.
١٧ ـ العنف : بالضم الشدة والمشقة، ضد الرفق.
١٨ ـ نفرت الدابة : جزعت وتباعدت.
١٩ ـ البهيمة : كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء ما عدا السباع والطيور وتطلق على كل ما لا نطق له.
٢٠ ـ الفزع : الذعر.
٢١ ـ ساءه : احزنه وغمّه.
٢٢ ـ اصدع : اقسم من الصدع وهو الشق وصدعين شقين وقسمين.
٢٣ ـ خيّره : اترك له حرية الاختيار.
٢٤ ـ تعرض : تصدى.
٢٥ ـ استقالك : طلب الإقالة والإقالة فسخ العقد ورجوع كل عوض إلى صاحبه.
٢٦ ـ العود : بفتح فسكون المسن من الإبل.
٢٧ ـ الهرمة : من الإبل أسن من العود.
٢٨ ـ المهلوسة : الضعيفة.
٢٩ ـ العوار : بفتح العين العيب.
٣٠ ـ المعنف : ذو العنف، الشدة، ضد الرفق.
٣١ ـ المجحف : من يشتد في سوق الإبل حتى تهزل.
٣٢ ـ الملغب : المتعب واللغوب الأعياء.
٣٣ ـ أحدر : اسرع.
٣٤ ـ نصيرّه : نحولّه إلى أهله وأصل التصيير تحويل الشيء من حال إلى أخرى.
٣٥ ـ أوعزت إليه : أمرته.
٣٦ ـ حال بين هذا وذاك: أي حجز بينهما.
٣٧ ـ الفصيل : ولد الناقة.
٣٨ ـ لا يمصر لبنها : لا يحلب كل ما في الضرع.

٣٩ ـ الضرّ	:	ضد النفع، الشدة والضيق، وسوء الحال، النقصان يدخل في الشيء.
٤٠ ـ لا يجهدنها	:	من الجهد بالفتح وهي المشقة.
٤١ ـ يرّفه	:	من الرفاهية وهي الدعة والراحة.
٤٢ ـ اللاغب	:	من اللغوب التعب والأعياء.
٤٣ ـ وليستأن	:	أي يرفق من الأناة بمعنى الرفق.
٤٤ ـ النقب	:	البعير الذي رقّت اخفافه.
٤٥ ـ الظالع	:	من الظلع وهو العرج أو الذي يعمز في مشيه.
٤٦ ـ الغدر	:	جمع غدير وهو مجمع الماء من السيل.
٤٧ ـ عدل عن كذا	:	مال عنه إلى غيره.
٤٨ ـ جوّاد	:	بتشديد الدال جمع الجادة وهي وسط الطريق.
٤٩ ـ روّحها	:	انعشها، وأرحها.
٥٠ ـ النطاف	:	جمع النطفة الماء الصافي قل أو كثر.
٥١ ـ الأعشاب	:	جمع عشب بضم فسكون وهو الكلأ الرطب.
٥٢ ـ البُدّن	:	بضم الباء وتشديد الدال السمان واحدها بادن.
٥٣ ـ المنقيات	:	اسم فاعل من انقت الإبل إذا سمنت وأصله صارت ذات نقى بكسر أي مخ.
٥٤ ـ مجهودات	:	متعبات تعباً شديداً.
٥٥ ـ لأجرك	:	لثوابك وجزائك.
٥٦ ـ الرشد	:	الإستقامة على طريق الحق، ضد الغي.

الشرح

(انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله) هذه الوصية الشريفة من أعظم الوصايا في إقامة عماد الحق كما قال الشريف وفيها من الآداب الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية مع الناس ما يجعلها تكتب بماء الذهب وتوجب على من يتولى أمر الأمة حفظها ليأمر بها من يتولى جباية الصدقات من الناس...

تتضمن هذه الوصية، وصية للجابي بحق نفسه ووصية له في حق الناس والثالث وصية له بحق المال الذي يأخذه...

ابتدأ عليه السلام بالوصية بتقوى الله قال له: انطلق على تقوى الله... ليكن مسيرك وانطلاقتك من أولها مزوداً بتقوى الله فلا تفارقها في كل حركة تقوم بها فإنه وحده

لا شريك له. . . أراد أن يربطه بالله الواحد الأحد كي يعتمد عليه ولا يتوكل على سواه ويخشاه في كل حركاته ويراقبه في كل أعماله.

ولا تروعن مسلماً أي لا تخيفه أو تفزعه فإن إخافة المسلم حرام وهذا نهي له عما يفعله أعوان السلاطين وولاتهم الظالمين عندما يريدون من الرعية أمراً فإنهم يستعملون الترهيب والتخويف ظناً منهم أن ذلك يحفظ هيبة الحاكم وقوة شوكته. . .

ولا تجتازن عليه كارهاً أي لا تمرن في أرض مسلم أو بساتينه إذا كان يكره مرورك بها لأن ذلك لا يجوز لحرمة دخول أرض المسلم بدون رضاه. . .

ونهاه أن يأخذ أكثر من حق الله المفروض عليه.

(فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ولا تخدج بالتحية لهم)ما أروع هذه التعاليم وأجملها إنها تنّم عن عمق الشعور مع المسلمين وتحكي أدب المسلم مع المسلمين. . هذا الجابي للصدقات يجب أن يكون مؤدباً بأدب الأسلام وأخلاقياته ولا يجوز أبداً إذا كان موكلاً من قبل السلطة أن يتخلى عن آدابه وأخلاقه. . .

والإمام يأمره إنك إذا دخلت محلة قوم تقصدهم لجمع الصدقات فانزل على مائهم ومن عادة المياه أن تكون خارج المحلة والحي التي يقطنون، فلا يدخل عليهم الحي مباشرة إذ لعلهم يكرهون للغريب أن يخالطهم ويقف على بعض أمورهم التي لا يرغبون كشفها واطلاع أحد عليها. . ثم أمره أن ينزل على مائهم ويكون ذلك توطئة للدخول إلى حيهم ثم يمضي إليهم بهدوء ودعة وعلى رزانة ورضانة فإذا أصبح بينهم سلم عليهم بتحية الإسلام تحية كاملة تامة ليس مشوبة بالعبوس أو الشدة أو أي أمر آخر مقترن بها ينم عن التكبر والجبروت. . .

(ثم تقول) عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فإن أكثرها له فإذا اتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ولا تنفرنّ من بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءن صاحبها فيها)
بهذه الصيغة الطيبة والعبارة الندية الطرية التي تحمل العطف والرقة والحنان يتوجه جابي الصدقة إلى الناس. . عباد الله وما أجمله من نداء. . . إنه يردهم إلى الله الذي أعطاهم وخولهم هذا الخير. . . ارسلني ولي الله وخليفته الذي يتولى تنفيذ أمر الله لآخذ منكم

حق الله المفروض في كتابه عليكم ﴿وآتوا الزكاة﴾ . . .

فهل لله في أموالكم من حق أي هل وجبت الزكاة في أموالكم فتؤدوها إلى ولي الله ليؤديها إلى أربابها والمستحقين لها . . .

وهنا بهذه البساطة والسهولة وبدون تردد أو استقصاء أخبار إن قال قائل: لا ليس في أموالنا حق فلا تراجعوه. . لا تقل له لماذا؟ وكيف؟ ولا تبحث بعد أن نفي وجوب الصدقة في ماله. لا تبحث عن صحة نفيه وكذبه بل إقبل قوله وتجاوز عنه.

وأما إذا قال لك أحدهم نعم إن في أموالي حق لله فانطلق معه بدون أن تخيفه عليها أو على نفسه أو على أمر متعلق به ولا تتوعده بشر أو بسوء أو تأخذه بشدة وعنف أو أمر فيه إرهاق أو ما لا يطيق فإذا كان المال ذهباً أو فضة فخذ ما أعطاك واقبضه منه لسهولة القبض من العين النقدية . . .

وإن كان ماشية ـ إبل ـ بقر ـ غنم ـ فلا تدخل عليها بدون إذنه وقد علل الإمام سبب ذلك بأن أكثرها له لأن الحق الشرعي ـ الزكاة ـ جزء من المجموع وهو قليل من كثير قال ابن أبي الحديد:

كلام لا مزيد عليه في الفصاحة والرياسة والدين وذلك لأن الصدقة المستحقة جزء يسير من النصاب والشريك إذا كان له الأكثر حرم عليه أن يدخل ويتصرف إلا بإذن شريكه فكيف إذا كان له الأقل.

ثم لما كان الرزق يعادل الروح كما يقولون نبهه إلى مراعاة شوؤن هذه الماشية بحيث لا يؤذي صاحبها بها فإن صاحبها يتعهدها ويرعاها ويحفظها ولا يؤذيها فهو عليه السلام يقول لهذا الجابي إذا دخلت بإذن صاحبها فلا تدخل عليها دخول متسلط كما يدخل الجبابرة الظالمين الذين يستقلون بالتصرف فيأخذون ما يشاؤن قهراً عن أصحابها مع الشدة عليهم والعنف بهم وكذلك لا تصرخ بها لتنفرها وتهيجها لأنتقاء الأفضل كما هي عادة الظالمين ولا تؤذي صاحبها فيها كأن تضربها فتؤذي صاحبها بضربك لها . . .

(واصدع المال صدعين ثم خيره فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حق الله منه فإن استقالك فأقله ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله) هذا بيان لتعيين حق الله في المال وهذه طريقة عادلة حكيمة لا تظلم المالك ولا تبخس الحق الشرعي حقه أن يقسم المال إلى قسمين ويخير المالك في الحصة التي يختارها له ثم ما لم يختاره يقسّم إلى قسمين ويخير أيضاً

المالك وهكذا حتى يبقى بمقدار الحق الشرعي الواجب فيأخذه الجابي. . .

ثم إنه عليه السلام عالج قضية يمكن أن تحدث في بعض الحالات وعند بعض الناس كأن يندم ويرى الغبن في تعيين الصدقة التي تعينت فهنا الإمام لا يقول للجابي خذ الحق وانصرف بل يقول له عدّ من جديد إلى القسمة فاخلط الماشية وأقسمها كما قسمتها أولاً وعين الحق الشرعي كما عينته وطيّب خاطر الرجل بإعادة التعيين للحق الشرعي. . .

(**ولا تأخذن عوداً**) وهذا لحفظ حق الله أن لا يأخذ مسناً كبيراً في السن.

(**ولا هرمة**) وهي التي أكبر سناً من العود.

(**ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار**) لا تقبض المعيبة في قوائمها ولا الضعيفة الهزيلة ولا ذات العيب فإن ذلك يقلل قيمتها ولا يجبر قلب آخذها من أرباب الصدقات المستحقين لها. . .

(**ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم ولا توكل بهاإلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب ثم أحدر إلينا ما اجتمع عندك نصيره حيث أمر الله به**) هذا بيان حال حارسها وموصلها إلى ولي الأمر واشترط عليه أن لا يأتمن عليها إلا صاحب الدين الملتزم لئلا يقع في الخيانة وأن يكون من أهل الرفق واللين فلا يعّنف بها فيهزلها، يجب أن يكون المتولي لشؤون ماشية الصدقة ناصحاً يترقب موارد صلاحها رحيماً بأموال المسلمين محافظاً عليها. . لا يأخذها بالشدة والعنف ولا يكلفها سيراً مضنياً يهزلها أو يميتها أو يكون موجباً لاعيائها أو متعباً لها.

وبعبارة موجزة يجب أن يراعي شؤون الماشية لما يصلحها ويرفع عنها كل ما يجحف بها أو يضر. . . ثم أمره أن يسرع في إيصال ما اجتمع عنده ليوزعه على أهله لئلا يتأخر عن مستحق حقه. . .

(**فإذا أخذها امينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها**) وهذا تأكيد على من يتولى ماشية الصدقة أن لا يفصل بين ناقة وابنها كما نهاه أن يحلب جميع حليبها ولا يترك للفصيل شيئاً فيضر به. . .

(**ولا يجهدنها ركوباً وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها وليرفه على اللاغب وليستأن بالنقب والظالع**) نهاه أن يخصها بالركوب فيتعبها تعباً شديداً بل أمره أن يجعل ركوبه مفرقاً بينها وبين غيرها من النياق ويعدل بينها بصورة طبيعية رحيمة.

وأما من وقع في الأعياء فيرفه عنه أي لا يركب ظهره ويتأنى ويرفق بالنقب وهو من ضعفت أخفافه بحيث يؤذيها ما تقع عليه وكذلك يرفق بالظالع وهو الأعرج الذي يتأخر عن غيره ولا يلتحق به. . .

(وليوردها ما تمر به من الغدر ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق وليروحها في الساعات وليمهلها عند النطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بدناً منقيات غير متعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله) وهذه أيضاً تعاليم تحفظ الماشية وتراعي شوؤنها وهي أن المتولي لأمرها إذا مرّ بغدير ماء أن يسقيها منه ويوردها عليه.

ولا يأخذ الطريق الأجرد الذي لا نبت فيه ويترك أماكن النبات التي على مقربة منه وكذلك ينبغي أن يريحها في بعض الساعات فإنها أرواح تكلّ وتتعب فيجب أن ترتاح في بعض الساعات ولا يعجل أو يسرع في إخراجها إذا وقعت على ماء أو عشب بل يمهلها حتى تأخذ نصيبها منه.

فإذا فعل ذلك وصلت إلينا سماناً مكتنزة غير متعبة وليس بها أعياء فنقسمها بإذن الله على أربابها كما فصّل الكتاب الكريم والسنة النبوية حيث قال تعالى: **﴿إنما الصدقات[1] للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾**.

ثم رغبه في ذلك بأن الله يزيد ثوابه ويضاعف أجره ويكون ذلك الفعل منه دليل هدى وعقل نافذ وأقرب إلى طريق الحق. . .

---

(١) سورة التوبة، آية/ ٦٠.

٢٦ ـ ومن عهد له عليه السلام

إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة

أَمَرَهُ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي سَرَائِرِ[(١)] أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ[(٢)] عَمَلِهِ، حَيْثُ لاَ شَهِيدَ[(٣)] غَيْرُهُ، وَلاَ وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ ٱللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلاَنِيَتُهُ وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ[(٤)]، فَقَدْ أَدَّى[(٥)] ٱلأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ ٱلْعِبَادَةَ.

وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَجْبَهَهُمْ[(٦)] وَلاَ يَعْضَهَهُمْ[(٧)]، وَلاَ يَرْغَبَ عَنْهُمْ[(٨)] تَفَضُّلاً[(٩)] بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ ٱلإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلأَعْوَانُ[(١٠)] عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ فِي هذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً[(١١)] مَفْرُوضاً[(١٢)]، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ[(١٣)]، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ[(١٤)]، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ[(١٥)] حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً[(١٦)] يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَى[(١٧)] لِمَنْ ـ خَصْمُهُ عِنْدَ ٱللهِ ـ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱلْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ[(١٨)] وَٱلْمَدْفُوعُونَ[(١٩)]، وَٱلْغَارِمُونَ[(٢٠)] وَٱبْنَ السَّبِيلِ[(٢١)]! وَمَنِ ٱسْتَهَانَ[(٢٢)] بِالأَمَانَةِ، وَرَتَعَ[(٢٣)] فِي ٱلْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ[(٢٤)] نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَٱلْخِزْيَ[(٢٥)] فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى. وَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْخِيَانَةِ خِيَانَةُ ٱلأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ[(٢٦)] ٱلْغِشِّ غِشُّ ٱلأَئِمَّةِ، وَالسَّلاَم.

اللغة

١ ـ السرائر : جمع السريرة ما يسره الإنسان من أمره، النية.
٢ ـ الخفيات : من خفي الشيء إذا استتر ولم يظهر.
٣ ـ الشهيد : الذي لا يغيب شيء عن علمه.
٤ ـ مقالته : كلامه.
٥ ـ أدى : أوصل.
٦ ـ يجبههم : من الجبه وهو الاستقبال بالمكروه وأصله من إصابة الجبهة.
٧ ـ يعضههم : يرميهم بالبهتان والعضه ذكر القبيح كذباً وزوراً.
٨ ـ رغب عنه : أعرض عنه وتركه.
٩ ـ التفضل : من تفضّل عليه ادعى الفضل عليه.
١٠ ـ الأعوان : المساعدون.
١١ ـ النصيب : الحظ.
١٢ ـ المفروض : المحدود، ما أوجبه الله على عباده.
١٣ ـ المسكنة : الفقر، والذل والضعف.
١٤ ـ فاقة : حاجة.
١٥ ـ موفوك : من وفاه حقه إذا أداه إليه تاماً.
١٦ ـ خصوماً : جمع خصم وهو المنازع.
١٧ ـ بؤسى : فعلى أي عذاباً وشدة.
١٨ ـ السائلون : جمع سائل المستعطي.
١٩ ـ المدفوعون : جمع المدفوع من دفعه إذا نحاه وأبعده ورده ويراد به هنا الفقير.
٢٠ ـ الغارمون : جمع غارم الذي عجز عن وفاء دينه الذي عليه.
٢١ ـ ابن السبيل : المنقطع في غير بلده ولا يجد ما يوصله إليها.
٢٢ ـ استهان به : استحقره واستهزأ به واستخف به.
٢٣ ـ رتع : سرح على هواه يأكل ويشرب في خصب وسعة.
٢٤ ـ ينزّه عن كذا : يباعد ويصان، يترفع عما يذم.
٢٥ ـ الخزي : بكسر الخاء وسكون الزاي أشد الذل.
٢٦ ـ أفظع : من فظع الأمر فظاعة اشتدت شناعته وجاوز المقدار في ذلك.

الشرح

(أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله حيث لا شهيد غيره ولا وكيل دونه وأمره ألاّ يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر ومن لم يختلف سره وعلانيته وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة وأخلص العبادة) يقول بعض شرّاح النهج إن هذه الوصية كتبها الإمام إلى مخنف بن سليم الأزدي لما بعثه على الصدقة والمهم عندنا عموم الخطاب وليس خصوص السبب.

وصية بتقوى الله هذه التقوى التي جُمعت فيها خيرات الدنيا والآخرة.

وليست التقوى في خصوص ما يظهر للناس بل هي تتجسد أكثر في السر عندما لا يكون من رقيب أو حسيب... عندما يختفي الإنسان عن العيون ويشعر أن عين الله تراه وترعاه وتحصي عليه أنفاسه وحركاته فلا يتعدى المرسوم له ولا يدخل في الحرام...

تتجسد التقوى وتظهر عندما تشتد رقابة الإنسان على نفسه فيترك كل معصية ويقوم بكل طاعة والإمام هنا يأمر هذا الرجل بتقوى الله في سر ما ينوي وفي كل عمل يخفى على الناس عندما لا يكون إلا الله هو الناظر والمراقب...

ونهاه عن مخالفة ظاهره لباطنه وهو المعبّر عنه بالنفاق ففي الظاهر يبدو عليه الالتزام والطاعة بينما في السر يعيش التهتك والمعصية.

ثم رغّبه في وحدة السر والعلانية والفعل والقول لما لهذه الوحدة من أثر من حيث إنه يكون قد أدى الأمانة المفروضة عليه لأنه جابي الصدقة فيجب أن يكون أميناً وكذلك يخرج من عملية الرياء التي تبطل العمل وتفسده...

(وأمره ألا يجبههم ولا يعضههم ولا يرغب عنهم تفضلاً بالإمارة عليهم فإنهم الإخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق) وهذا أمر له أن لا يواجههم بما يكرهون أو يرميهم بأمر ليس فيهم فيبهتهم بأن يقول لهم: إن الزكاة أكثر مما تدفعون أو أن الله لا يتقبلها منكم وهكذا ولا يتجافى عنهم أو يعرض عن مجالستهم لظنه أنه أحسن منهم وأفضل لمنزل الإمارة ومكانه منها حيث إنه المتولي لجمع الصدقة وقد علّل له عدم التطاول عليهم والتجافي عنهم بأمرين.

الأول: إنهم الإخوان في الدين فالعقيدة وحّدت الإتجاه ولمّت الشمل وجعلت للمسلم على المسلم حق الاحترام والتقدير والعشرة الحسنة وغير ذلك من الحقوق...

الثاني: إنهم المساعدون في استخراج الحقوق المالية وتقديمها إلى الفقراء والمساكين وفي ذلك أعظم خدمة يسديها هؤلاء إلى هذه الطبقة، إنهم بإخراج هذه الحقوق يرفعون عوز الفقراء وفي ذلك صلاح المجتمع وعمارة البلاد ومثل هؤلاء يجب معاملتهم بالحسنى واللين دون إهانة أو إزعاج أو ترفع عليهم. . .

(وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة وإنا موفوك حقك فوفهم حقوقهم وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة وبؤسى لمن ـ خصمه عند الله ـ الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل) بيّن عليه السلام ما لهذا العامل من النصيب. . . إن له نصيباً واجباً محدداً مقدراً لكونه عاملاً على الصدقات ولكن ليس مستقلاً يتصرف في هذا المال كيف يشاء بل له شركاء من الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجة وإذا كانوا شركاء له كيف يستأثر لنفسه بمالهم وكيف يحوزه دونهم ويستبد به من غير أن يوصله إليهم. . .

يقول له الإمام: إن لك حقاً نحن نقدسه لك ونحفظه ونعطيك إياه ولكن يجب أن تعطي لشركائك حقوقهم ثم هدّده بعذاب الله ورده إليه وبيّن له أنه إذا لم يؤدي لهم حقهم سيكون من أكثر الناس أعداء يوم القيامة وأن العذاب والشدة والشقاء لمن كان خصمه هذا الجيش الكبير من الفقراء والمساكين والسائلين الذين اضطرتهم حالاتهم السيئة إلى الطلب والاستجداء وكذلك المدفوعون الذين يردون عن الأبواب ولا يعطون ما يسألون.

والغارمون وهم الذين وقعوا تحت الديون وعجزوا عن وفائها.

وابن السبيل وهو المنقطع في غير بلده الذي لم يملك مصرفه وما يوصله إلى أهله. . .

إن هذا الجيش الكثيف كله يقف يوم القيامة خصماً لهذا الجابي الذي منعهم حقهم واستأثر به دونهم. . .

(ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه الذل والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذل وأخزى وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة والسلام) حذّره من عاقبة الخيانة وعدم الالتزام بالأمانة فإن من أكل الأموال المؤتمن عليها وتمتع بها وكأنها أمواله وملك يمينه ولم يرفع نفسه عن هذا السقوط المهين ويحفظ دينه عن هذه الخيانة فقد أنزل بنفسه الذل والخزي في الدنيا حيث تسقط منزلته ويشار إليه بالخيانة وأكل أموال الفقراء والمساكين فتزدريه العيون وتحتقره النفوس.

وأما في الآخرة فهو أذل وأخزى لأنه ليس بعد العرض وكشف الأمور ـ أمام الله والناس يوم الحساب ـ أشد خزياً وعاراً ثم كان عاقبته النار التي هي مركز الخزي ومقام العذاب.

وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة لأنها خيانة عامة لجميع الناس في مصالحهم ومنافعهم وما يفيدهم فتعظم لعظم أثرها وشمولها وعمومها.

وأفظع الغش غش الأئمة لأن الغش إذا كان حراماً مطلقاً فيشتد ويعظم إذا كان مع إنسان عظيم يمثّل جهة كالأئمة فإن غشهم لا ينحصر فيهم بل يعود غشاً لجميع الناس باعتبار أن الأئمة أولياء في تصريف الزكاة وإيصالها إلى مستحقيها.

وهذا كله تنفير عن الخيانة وتحريض على الالتزام بالأمانة والوفاء بها. . .

٢٧ ـ ومن عهد له عليه السلام

إلى محمد بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين قلده مصر :

فَٱخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ[١]، وَأَلِنْ[٢] لَهُمْ جَانِبَكَ، وَٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ[٣] وَآسِ[٤] بَيْنَهُمْ فِي ٱللَّحْظَةِ[٥] وَالنَّظْرَةِ[٦]، حَتَّى لَا يَطْمَعَ ٱلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ[٧] لَهُمْ، وَلَا يَيْأَسَ[٨] الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ[٩] عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مَنْ أَعْمَالِكُمْ وَٱلْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَٱلْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ ٱلآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا[١٠] مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ ٱلْمُتْرَفُونَ[١١]، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ ٱلْجَبَابِرَةُ[١٢] ٱلْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ ٱنْقَلَبُوا[١٣] عَنْهَا بِالزَّادِ ٱلْمُبَلِّغِ[١٤]؛ وَٱلْمَتْجَرِ ٱلرَّابِحِ. أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ ٱللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ. لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ. فَٱحْذَرُوا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا[١٥] لَهُ عُدَّتَهُ[١٦]، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ[١٧] جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً. فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ[١٨] ٱلْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْه أَدْرَكَكُمْ[١٩]، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. ٱلْمَوْتُ مَعْقُودٌ

بِنَوَاصِيكُمْ[٢٠]؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا[٢١] بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ[٢٢]. وَإِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ ٱللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَٱجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ ٱلْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِٱللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَٱعْلَمْ ـ يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ـ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي[٢٣] فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ[٢٤] أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ[٢٥]، وَأَنْ تُنَافِحَ[٢٦] عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلاَ تُسْخِطِ[٢٧] ٱللهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي ٱللهِ خَلَفاً[٢٨] مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا ٱلْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلاَ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاشْتِغَالٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ[٢٩] لِصَلاَتِكَ.

ومنه: فَإِنَّهُ لاَ سَوَاءَ[٣٠]، إِمَامُ ٱلْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى[٣١]، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ. وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً؛ أَمَّا ٱلْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ ٱللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا ٱلْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ[٣٢] ٱللهُ بِشِرْكِهِ. وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ ٱلْجَنَانِ[٣٣]، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

اللغة

١ ـ اخفض جناحك : ألن لهم وأرفق وتواضع وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم خفضه.

٢ ـ اللين	: الرقة والملاطفة، ضد الخشونة.
٣ ـ بسط وجهه	: انشرح وتهلل والانبساط ضد الانقباض.
٤ ـ آس	: أمر من آسى بمد الهمزة أي سوّى.
٥ ـ اللحظة	: النظرة بمؤخرة العين.
٦ ـ النظرة	: المرة من نظر أي أبصر.
٧ ـ الحيف	: الجور.
٨ ـ ييأس	: يقنط، يقطع الأمل.
٩ ـ المعشر	: الجماعة.
١٠ ـ حظوا	: نالوا من الحظوة وهي المنزلة والحظ الوافر.
١١ ـ المترفون	: المنعّمون الذين أبطرتهم النعمة.
١٢ ـ الجبابرة	: جمع جبار البالغ في التكبر.
١٣ ـ انقلبوا	: عادوا ورجعوا.
١٤ ـ الزاد المبلغ	: الزاد الكافي.
١٥ ـ أعدوا	: استعدوا، هيؤوا له وحضروا.
١٦ ـ العدة	: الوسائل والآلات.
١٧ ـ الخطب	: الأمر الفظيع المكروه.
١٨ ـ طرداء	: جمع طريد وهو المطرود.
١٩ ـ أدرككم	: لحقكم.
٢٠ ـ النواصي	: جمع ناصية مقدم شعر الرأس ومعقود بنواصيكم أي ملازم لكم.
٢١ ـ القعر	: عمق الشيء وأسفله.
٢٢ ـ فرج الكربة	: أزال الشدة ونحاها.
٢٣ ـ الأجناد	: جمع جند وهو العسكر ويطلق على الإقليم فيقال جند الشام.
٢٤ ـ محقوق	: أي حقيق وجدير وخليق.
٢٥ ـ تخالف على نفسك	تخالف شهوة نفسك.
٢٦ ـ تنافح	: تدافع وتجالد.
٢٧ ـ تسخط	: تُغضب.
٢٨ ـ الخلف	: العوض.
٢٩ ـ تبع	: مشى خلفه، سار في أثره.
٣٠ ـ لا سواء	: لا يستوي ويتساوى.
٣١ ـ الردى	: الهلاك.
٣٢ ـ يقمعه	: يقهره ويذلّه.
٣٣ ـ الجنان	: القلب.

الشرح

(فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم) هذا العهد الشريف من أعظم عهوده إلى عماله يشتمل على التذكير بيوم الحساب وإعداد العدة له وما فيه من الأهوال وما بعده من الجزاء وهو موجّه إلى محمد بن أبي بكر الذي ولاه مصر وكان محمد هذا يعدّه الإمام بمنزلة أولاده ويقول: محمد بن أبي بكر ابني من ظهر أبي بكر قد تربى في بيته وعلى يديه وتخلّق بأخلاقه وتأدب بآدابه فسكب الإمام في روعه كل المعاني الطيبة فجاء إنساناً كبيراً عظيماً مجاهداً لم يفارق الإمام إلا حين ولاه مصر فكتب إليه الإمام هذا الكتاب وابتدأ بالوصية له أن يحسن عشرة رعيته ضمن أوامر.

أ ـ فاخفض لهم جناحك: أي ارفق بهم وتواضع لهم وأصل خفض الجناح أن الطائر يمدّ جناحيه ويخفضهما ليجمع أفراخه تحتها شفقة عليهم.

ب ـ ألن لهم جانبك: تعامل معهم بلطف ورقة في أقوالك وأفعالك ولا تستعمل الغلظة والخشونة.

ج ـ ابسط لهم وجهك: تلقاهم بالبسمة المعبرة لهم عن سرورك بهم ولا تعبس بهم فتؤذيهم...

د ـ وآس بينهم في اللحظة والنظرة: وهذا منتهى العدل بين الرعية فإنهم إذا كانوا بحضرتك فلا تعطي وجهك لأحدهم وتحرم الآخر منه فإن ذلك دليل اهتمامك بالأول واحتقارك للآخر وفي ذلك ظلم له.

ثم علل ذلك ـ المساواة في اللحظة والنظرة ـ بأن هذه النظرة قد تزرع في نفوس الأقوياء طمعاً في ظلم غيرهم لصالحهم وفي المقابل فإن الضعفاء إذا وجدوا عدم النظر إليهم المعبّر عن عدم الاهتمام بهم فإنهم قد يصابون باليأس من عدلك على الأقوياء وأنك لن تحكم عليهم إذا كان خصمهم من الضعفاء وفي هذين الأمرين مفسدة عظمى يجب أن يتلافاها الوالي ويقضي عليها بالمساواة بين الضعفاء والعظماء...

(فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة فإن يعذّب فأنتم أظلم وإن يعف فهو أكرم) نبههم إلى قاعدة كلية وكبرى صادقة حقيقية وهي أن الله سيسأل عباده ويحاسبهم على كل صغيرة من أعمالهم وكل كبيرة وكل

ما ظهر منها وخفي. . . ستنعقد المحكمة الإلهية ويكون هناك سؤال وجواب وثواب وعقاب فإن يعذّبكم بعد مخالفتكم له وعصيانكم وتمردكم فأنتم الظالمون لأنفسكم بمخالفته وإن يعفو فهو أهل الكرم والعفو والصفح عن كل ذنب. . .

(واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذة) هذا ترغيب للناس أن يقتدوا بالمتقين ويسيروا على منهاجهم وطريقة حياتهم فإنهم بعبارة موجزة نالوا حظهم من الدنيا وفازوا بسعادة الآخرة فجُمعت لهم الدارين ونالوا الحسنيين شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا الطيبات ولبسوا أنعم الثياب وتزوجوا أجمل النساء وتمتعوا بخيرات الدنيا المحللة وتنعموا في القصور والدور ولم يتركوا أمراً مباحاً إلا وفعلوه ونالوا لذتهم منه.

وفي نفس الوقت لم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم فإن أهل الدنيا الذين قصروا نظرهم عليها فارتكبوا الحرام وسلبوا الأموال وهتكوا الأعراض وقتلوا الأنفس هؤلاء لم ينالوا الآخرة السعيدة التي كانت لأهل التقوى في الدنيا وإنما سيكون نصيبهم النار وعذاب الجبار بينما المتقون في منجاة من هذا المصير. . . إنهم افترقوا عن أهل الدنيا في الآخرة فأولئك إلى النار وهؤلاء إلى الجنة. . .

ثم إنه عليه السلام ذكر وجوه مشاركة المتقين لأهل الدنيا فالمتقون سكنوا الدور والقصور كما سكنها أبناء الدنيا وأكلوا من الطيبات كأحسن ما أكل أبناء الدنيا فكل ما هو محلل لهم تناولوه وفي الحلال غنى وكفاية عن الحرام. . . وفي الحلال لذة تفوق لذات الحرام حتى لو قطعنا النظر عن الدين والشرع المبين. . . إنهم قد أخذوا حظهم ونصيبهم من الدنيا كما أخذ المترفون والمنعمون حظهم منها فإن هؤلاء لا تتسع بطونهم لأكثر من حاجتها وأولئك كذلك وكل منهما يملؤها بما يشتهي مع فارق أن المترف قد يطغى فيتناول الحرام بينما المتقي يتناول الحلال الطيب. . . فالمتقون أخذوا من الدنيا ما أخذه الجبابرة المتكبرون نعم قد زاد هؤلاء المتكبرون أنهم أخذوا الظلم والانحراف والمعصية والاستبداد وقتل الناس بينما الأتقياء أخذوا عبادة الله وتقواه وإعانة الناس وسد حاجاتهم. . . عاد الأتقياء إلى الآخرة بالزاد الكافي الذي يحتاجون إليه وعادوا بالتجارة الرابحة التي تاجروها في الدنيا مع الله من حيث طاعتهم له وجهادهم في سبيله بأنفسهم

وأموالهم فربحوا الجنة وتلك هي أربح التجارات. . .

لقد أدركوا لذة زهدهم في الدنيا عاشوا لذة الاحتقار للدنيا ولم يرتضوها عن الآخرة فعاشوا فيها أعزة كراماً وأدركوا في الآخرة الجنة ودار السلام. . . وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم. . . إنهم قريبون منه وفي رحمته يصلهم ويمنحهم ويمنّ عليهم من عطاياه ولهم بعد ذلك خصوصية أن دعوتهم لا تردّ إذا دعوا ولا ينقص لهم نصيب أو حظ من لذة بل كل اللذة تصلهم كاملة تامة. . .

(فاحذروا عباد الله الموت وقربه وأعدّوا له عدته فإنه يأتي بأمر عظيم وخطب جليل بخير لا يكون معه شر أبداً أو شر لا يكون معه خير أبداً) اتخذوا الحيطة للموت فهو قريب منكم لا تدرون متى يأتيكم قد تخرج الكلمة منك فتموت اختها بعدها وقد تُغمض عينيك ولا تملك فتحهما فأعدوا له عدته من التقوى والعمل الصالح والإحسان إلى الناس إنه إذا جاء جاء بأمر عظيم فهناك كربه وشدائده وهناك أهواله وفجائعه. . . إنه يأتي بأحد أمرين بخير لا يكون معه شر أبداً وهو الجنة وما فيها من نعيم لا يكدره شيء أو يأتي بشر لا يكون معه خير أبداً وهو النار وما فيها من عذاب مقيم قال تعالى: **﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾**.

(فمن أقرب إلى الجنة من عاملها ومن أقرب إلى النار من عاملها وأنتم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم وإن فررتم منه أدرككم وهو ألزم لكم من ظلكم، الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من خلفكم) هذا ترغيب في العمل الصالح الموصل إلى الجنة وترهيب من العمل القبيح الموصل إلى النار فأقرب الناس إلى الجنة من عمل لها وأقرب الناس إلى النار من عمل لها لأن كل عامل يجزى بعمله فإن عمل خيراً قطع الطريق بسرعة ودخل الجنة وإن عمل شراً قطع الطريق ووصل إلى النار وكل فرد يختار العمل الذي يوصله إلى هدفه الذي يسعى إليه.

ثم بيّن ملازمة الموت لنا لنحذر منه ونعدّ العدة له فقال: وأنتم طرداء الموت: أي يلحقكم ويطاردكم أينما كنتم فيخرجكم عن أوطانكم ودياركم، إنه يحل بكم إن أقمتم في مكانكم ولزمتم محلكم كما أنه يلحقكم ويأخذكم إن فررتم منه **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾** **﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾**.

وبيّن شدة ملازمته لنا وعدم انفكاكه عنا بقوله: وهو ألزم لكم من ظلكم فكما أن

الظل ملازم للإنسان لا ينفك عنه بحال طالما هو على قيد الحياة ولا يفارقه إلا بالموت كذلك الموت ملازم لهذا الإنسان ففي كل لحظة يموت هذا الإنسان ليخلق بديلاً عنه ولا تأتي الساعة الثانية إلا وقد ماتت الساعة الأولى وهكذا حتى تنتهي ساعات هذا الإنسان فيعود إلى الله.

وكذلك «الموت معقود بنواصيكم» أي ملازم لكم كالشيء المعقود في مقدم شعر رأسكم كيفما يتحرك الإنسان يتحرك معه ذلك الشيء.

«والدنيا تطوى من خلفكم» فكل يوم يمضي يطوى ولا يعاد أبداً.

(فاحذروا ناراً قعرها بعيد وحرها شديد وعذابها جديد دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة ولا تفرج فيها كربة) عاد إلى التحذير من النار والتخويف منها وقد وصفها بأوصاف مرعبة.

أ ـ قعرها بعيد: إنها عميقة لا يدرك عمقها.

ب ـ حرها شديد: قل نار جهنم أشد حراً فكل نار تقول: إنها شديدة الحرارة فجهنم أشد حراً.

ج ـ عذابها جديد: كل وقت يتجدد غير الوقت الآخر ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها**﴾.

د ـ دار ليس فيها رحمة: لأنها دار العذاب والعقاب أعدت للانتقام فكيف يشوبها رحمة.

هـ ـ لا تسمع فيها دعوة: لانقطاع التكليف هناك وقد كانت الدعوة مستجابة قبل الموت بل الله دعانا لدعائه وأخذ على نفسه الاستجابة لنا بقوله: «ادعوني أستجب لكم» ولكن التمرد والعناد وسوء التفكير والتدبير هو الذي أدى إلى هذا الخسران.

و ـ ولا تفرج فيها كربة: فشدائد الآخرة ومصاعبها ملازمة لهذا الشقي لا تنفك عنه ولا تتركه.

(وإن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله وأن يحسن ظنكم به فاجمعوا بينهما فإن العبد إنما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه وإن أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً لله) وهذا مفهوم إسلامي وعقيدة دينية: أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء فلا يطغى جانب على جانب فتفسد الحياة ويضل الإنسان يجب أن يبقى الخوف من عقابه

قائماً مهما عملت من حسنات ويجب أن يبقى حسن الظن به وأنه الغفور الرحيم مهما عملت من المعاصي.

وإن الإنسان كلما زادت معرفته بالله زاد خوفه منه وكلما زاد خوفه منه زاد رجاؤه فيه لتكامل عظمته وجلاله وسلطانه ورحمته فهو شديد العقاب وهو في نفس الوقت الغفور الرحيم.

قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: لو أنزل الله عز وجل كتاباً أنه معذب رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه وأنه راحم رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه أو أنه معذبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهاداً لئلا أرجع إلى نفسي بلائمة...

(واعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر فأنت محقوق أن تخالف على نفسك وأن تنافح عن دينك ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر ولا تسخط الله برضى أحد من خلقه فإن في الله خلفاً من غيره وليس من الله خلف من غيره) نبهه إلى ما اختصه به وهي ولاية مصر ليدخل من ذلك إلى ما يريد أن يوصيه به وهذه شهادة منه أيضاً أنه ولّى محمداً أعظم عساكره وبلاده في نفسه وهي فضيلة لمحمد لأنه أهل لذلك.

ثم أوصاه بأنه جدير وخليق أن يخالف هواه وما تدعوه إليه نفسه إذا كان فيما تدعوه إليه مخالفة لله أو فيه ضرر على المجتمع.

كما أمره أن يدافع عن دينه ولو لم يبق من عمره إلا ساعة وأخذ الساعة كناية عن قلة الوقت يعني لو بقى من عمرك لحظة فاجعلها في الدفاع عن الدين والشريعة.

ثم وجهه إلى المحافظة على رضا الله وأن يتسقط مواقع رضاه فيطلبها وأوصاه أن لا يسخط الله برضى أحد من خلقه وعلل ذلك بأن في رضى الله عوضاً عن سخط الناس وغضبهم لأنه الذي يثيب ويعاقب بينما ليس في سخط الله عوض من الناس عن سخطه وما كان فيه عوض يقدّم على ما ليس فيه عوض فرضى الله مقدم على رضى كل واحد...

(صل الصلاة لوقتها المؤقت لها ولا تعجّل وقتها لفراغ ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك) أمره بأمر يخصّه ويتفرع عليه صلاحه ألا وهو المحافظة على الصلاة وأدائها في وقتها فإن لها وقتاً محدوداً بحدود معينة لا يجوز تقديمها عليه ولا يجوز تأخيرها عنه فهو عليه السلام يقول له: صل الصلاة في وقتها المؤقت لها المحدد ولا تعجل بها فتصليها قبل وقتها تغتنم فراغك في ذلك

الوقت فتؤديها فيه فإن ذلك يفسدها ولا تقع منك صحيحة كما أنه يجب عليك أن لا تؤخرها عن وقتها بحجة أنك مشغول عنها بأمر أهم منها فتقع والحال ذلك باطلة لفوت محلها.

ثم رغبه في المحافظة عليها ورعاية أوقاتها وشروطها بأن جعلها محور قبول الأعمال الأخرى منه فإن صحت وقبلت صح ما يأتي به من أعمال أخرى وإلا فتكون باطلة تبعاً لبطلانها.

وفي الحديث عن رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ قال: إن عمود الدين الصلاة: وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم فإن صحت نظر في عمله وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله.

(فإنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى وولي النبي وعدو النبي ولقد قال لي رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه وأما المشرك فيقمعه الله بشركه ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون) لا يستوي إمام الهدى يريد به نفسه الشريفة وإمام الردى الذي يقود الناس إلى الهلاك والعذاب أشار بهذا إلى معاوية كما لا يتساوى ولي النبي وناصره والمدافع عنه في كل المواطن وهو نفسه الشريفة وبين عدو النبي الذي حاربه في حياته وحارب خليفته من بعده وهذا منه ترغيب في الحق الذي هو عليه وتزهيد وتنفير في الباطل الذي عليه معاوية.

ثم نقل الحديث عن رسول الله وهو ظاهر المعنى بيّن الدلالة فإن المؤمن يحجزه إيمانه فلا يضلل الناس أو يسعى في إفسادهم كما أن الكافر يرتد كيده إلى نحره ولا يفلح فيما يسعى إليه من إضلال المسلمين وتمزيقهم وزرع الشك في قلوبهم لأنه مكشوف الغرض والهدف لا يقبل منه أحد من المسلمين ما يقول ويرفض كل ما يتكلم به وينطق...

نعم الخطر كل الخطر في المنافق الذي يمتلك لساناً يطيعه في كل ما ينوي ويريد يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون... إنه يعرف مشاكل المسلمين وعوراتهم فينقلها إلى الأعداء فتكون ثغرة يدخلون منها لهدم الدين والإضرار بالمسلمين... الخطر يكمن في المنافق الذي يقول ما تقولون ولكنه يفعل ما تنكرون فهو يظهر بمظهر المصلح المقيم للعدل ولكنه يفعل بضد ذلك وخلافه وفي مثل هذا يكمن الخطر وتكون المصيبة.

٢٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية جواباً، قال الشريف: وهو من محاسن الكتب

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ ٱصْطِفَاءَ(١) ٱللهِ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ(٢) إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَّأَ(٣) لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ(٤) تُخْبِرُنَا بِبَلاَءِ ٱللهِ(٥) تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ(٦)، أَوْ دَاعِي(٧) مُسَدِّدِهِ(٨) إِلَى النِّضَالِ(٩). وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ٱلإِسْلاَمِ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ ٱعْتَزَلَكَ(١٠) كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ(١١). وَمَا أَنْتَ وَٱلْفَاضِلَ وَٱلْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَٱلْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ(١٢) وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ(١٣) قِدْحٌ(١٤) لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ(١٥) يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ ٱلْحُكْمُ لَهَا! أَلاَ تَرْبَعُ(١٦) أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ(١٧)، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ(١٨)، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ ٱلْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ ٱلْمَغْلُوبِ، وَلاَ ظَفَرُ الظَّافِرِ!.

وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ(١٩) فِي التِّيهِ(٢٠)، رَوَّاغٌ(٢١) عَنِ ٱلْقَصْدِ(٢٢). أَلاَ تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلٰكِنْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَى مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاَتِهِ عَلَيْهِ! أَوَ لاَ تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ

حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ!» وَلَوْلاَ مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ مَنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً[٢٣]، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ تَمُجُّهَا[٢٤] آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ[٢٥] فَإِنَّا صَنَائِعُ[٢٦] رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلاَ عَادِيُّ[٢٧] طَوْلِنَا[٢٨] عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ ٱلأَكْفَاءِ[٢٩]، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ! وَأَنَّى يَكُونُ ذلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ ٱلْمُكَذِّبُ[٣٠]، وَمِنَّا أَسَدُ ٱللهِ[٣١] وَمِنْكُمْ أَسَدُ ٱلأَحْلاَفِ[٣٢]، وَمِنَّا سَيِّدَا[٣٣] شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ[٣٤]، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ[٣٥]، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ[٣٦]، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!.

فَإِسْلاَمُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لاَ تُدْفَعُ[٣٧]، وَكِتَابُ ٱللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ[٣٨] عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُولُو ٱلأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِٱلْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا ٱحْتَجَّ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَلَى ٱلأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ[٣٩] بِرَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَلَجُوا[٤٠] عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفَلَجُ بِهِ فَٱلْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَٱلأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ ٱلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ[٤١]، فَإِنْ يَكُنْ ذلِكَ كَذلِكَ فَلَيْسَتِ ٱلْجِنَايَةُ[٤٢] عَلَيْكَ، فَيَكُونَ ٱلْعُذْرُ إِلَيْكَ.

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ[٤٣] ظَاهِرٌ[٤٤] عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ[٤٥] كَمَا يُقَادُ ٱلْجَمَلُ ٱلْمَخْشُوشُ[٤٦] حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ[٤٧] فَٱفْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى

ٱلْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ(٤٨) فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي دِينِهِ، وَلاَ مُرْتَاباً(٤٩) بِيَقِينِهِ! وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ(٥٠) مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ(٥١)، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ(٥٢)! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَٱسْتَقْعَدَهُ(٥٣) وَٱسْتَكَفَّهُ(٥٤)، أَمْ مَنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى(٥٥) عَنْهُ وَبَثَّ ٱلْمَنُونَ(٥٦) إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلاَّ وَٱللهِ لَـ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ(٥٧) مِنكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ(٥٨) إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ(٥٩) عَلَيْهِ أَحْدَاثاً(٦٠)؛ فَإِنْ كَانَ ٱلذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ(٦١) لاَ ذَنْبَ لَهُ.

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ(٦٢) ٱلْمُتَنَصِّحُ(٦٣) *

وَمَا أَرَدْتُ «إِلاَّ ٱلإِصْلاَحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلاَّ السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ ٱسْتِعْبَارٍ(٦٤)! مَتَى أَلْفَيْتَ(٦٥) بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ عَنِ ٱلأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ(٦٦)، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ؟!.

فَـ * لَبِّثْ(٦٧) قَلِيلاً يَلْحَقِ ٱلْهَيْجَا(٦٨) حَمَلْ(٦٩) *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ(٧٠) نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ(٧١) مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ(٧٢)، سَاطِعٍ(٧٣) قَتَامُهُمْ(٧٤)، مُتَسَرْبِلِينَ(٧٥) سَرَابِيلَ ٱلْمَوْتِ؛ أَحَبُّ

اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بِذرِيَّة(٧٦)، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا(٧٧) فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

اللغة

١ ـ الاصطفاء : الاختيار والاجتباء.
٢ ـ تأييده : نصره وتسديده.
٣ ـ خبأ : أخفى.
٤ ـ طفقت : أخذت.
٥ ـ بلاء الله : إنعامه وإحسانه.
٦ ـ هجر : بلد في اليمن يكثر فيها التمر وينقل منها إلى غيرها.
٧ ـ داعي : طالب.
٨ ـ المسدّد : المعلم لرمي السهام.
٩ ـ النصال : الترامي بالسهام.
١٠ ـ اعتزلك : تباعد عنك.
١١ ـ ثلمه : عيبه.
١٢ ـ الطلقاء : جمع طليق هو من أسر وأطلق وترك.
١٣ ـ حنّ : صوّت.
١٤ ـ القدح : بالكسر السهم وحنّ قدح ليس منها مثل يضرب لمن يفتخر بقوم ليس منهم.
١٥ ـ طفق : أخذ وشرع.
١٦ ـ تربع : تقف وتكف.
١٧ ـ الظلع : بسكون اللام العيب وبفتحها العرج.
١٨ ـ الذرع : الطاقة والوسع، بسط اليد.
١٩ ـ ذهاب : بتشديد الهاء كثير الذهاب.
٢٠ ـ التيه : الضلال.
٢١ ـ الرواغ : كثير الرواغ وهو الميل عن الشيء، المكر والخداع.
٢٢ ـ القصد : الاعتدال.
٢٣ ـ جمّة : كثيرة.

٢٤ ـ مجّ الماء	:	إذا ألقاه وقذفه.
٢٥ ـ الرمية	:	الصيد يرميه الصائد ومالت به الرمية خالفت قصده فأتبعها مثل يضرب لمن اعوج غرضه فمال عن الاستقامة لطلبه.
٢٦ ـ الصنائع	:	جمع صنيعة من يصطنعه الملك ويرفع قدره.
٢٧ ـ العادي	:	الاعتيادي المعروف، القديم.
٢٨ ـ الطول	:	الفضل.
٢٩ ـ الإكفاء	:	جمع كفؤ بالضم النظير في الشرف.
٣٠ ـ المكذب	:	أبو جهل.
٣١ ـ أسد الله	:	حمزة بن عبد المطلب عم النبي.
٣٢ ـ أسد الأحلاف	:	أبو سفيان لأنه جمع الأحزاب وحالفهم لحرب النبي.
٣٣ ـ سيدا شباب أهل الجنة	:	الحسن والحسين بنص رسول الله ـ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.
٣٤ ـ صبية النار	:	أولاد مروان بن الحكم أخبر النبي وهم صبيان أنهم من أهل النار.
٣٥ ـ خير نساء العالمين	:	فاطمة الزهراء.
٣٦ ـ حمّالة الحطب	:	أم جميل بنت حرب عمة معاوية وزوجة أبي لهب.
٣٧ ـ جاهليتنا لا تدفع	:	أي شرفنا فيها لا ينكره أحد.
٣٨ ـ شذّ	:	تفرق وانتشر.
٣٩ ـ يوم السقيفة	:	يوم تم اغتصاب الخلافة من الإمام في سقيفة بني ساعدة.
٤٠ ـ الفلج	:	الظفر.
٤١ ـ بغيت	:	تعديت وتجاوزت الحد.
٤٢ ـ الجناية	:	الذنب.
٤٣ ـ شكاة	:	بالفتح الشكاية وهي المرض.
٤٤ ـ ظاهر عنك	:	زائل عنك وبعيد.
٤٥ ـ أقاد	:	أجّر بالمقود وهو الزمام.
٤٦ ـ الجمل المخشوش	:	الذي جعل في أنفه الخشاش وهو عويد يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع للانقياد.
٤٧ ـ تفضح	:	تكشف العيب وتعيّر به.
٤٨ ـ الغضاضة	:	الذلة والمنقصة.
٤٩ ـ المرتاب	:	المشكك.
٥٠ ـ سنح	:	اعترض وظهر.
٥١ ـ أعدى له	:	أكثر عداوة.
٥٢ ـ المقاتل	:	وجوه القتال ومواضعه.

٥٣ ـ استقعده : طلب قعوده ولم يقبل نصرته.
٥٤ ـ استكفه : طلب كفه عن الشيء.
٥٥ ـ تراخى عن الشي : تباطأ وتأخر.
٥٦ ـ المنون : الموت.
٥٧ ـ المعوقين : المثبطين، المانعين عن النصرة.
٥٨ ـ البأس : الشدة.
٥٩ ـ أنقم عليه : أعيب عليه.
٦٠ ـ أحداثاً : جمع حدث البدعة.
٦١ ـ ملوم : من اللوم وهو العتب.
٦٢ ـ الظنة : بالكسر التهمة.
٦٣ ـ المتنصح : المبالغ في النصح.
٦٤ ـ الاستعبار : البكاء.
٦٥ ـ ألفيت : وجدت.
٦٦ ـ ناكلين : راجعين متأخرين جبناً.
٦٧ ـ لبّث : من لبث أي مكث ولبّث تمهّل.
٦٨ ـ الهيجا : الحرب.
٦٩ ـ حمل : بالتحريك اسم رجل وهو ابن بدر رجل من قشير أغير على إبله في الجاهلية فاستنقذها.
٧٠ ـ مرقل : مسرع.
٧١ ـ الجحفل : الجيش العظيم.
٧٢ ـ الزحام : من زحم فلان فلاناً إذا دافعه في مكان ضيق.
٧٣ ـ ساطع : منتشر.
٧٤ ـ القتام : بالفتح الغبار.
٧٥ ـ متسربلين : لابسين.
٧٦ ـ بدرية : من ذراري أهل بدر.
٧٧ ـ النصال : السيوف.

الشرح

(أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لدينه وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبينا فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى

النضال) هذا الكتاب أجاب به الإمام على كتاب كان قد بعث به معاوية إليه يحمل عليه فيه ويدعي كثيراً من الأمور الكاذبة ويلصق بالإمام من العيوب والتهم ما هو بريء منه ثم أخيراً يهدده بالحرب فتناوله الإمام بالرد عليه مفنداً ومفصلاً.

يذكر معاوية في رسالته اصطفاء الله لنبيه وتقويته بمن قواه من أصحابه.

ويقف الإمام من هذا الكلام موقف المتعجب وهو كلام حقاً يثير العجب... معاوية يخبر أهل بيت رسول الله بمزايا النبي وهم يعيشون معه في بيت واحد وقد تربوا على يديه فكانوا ورقة من غصن وغصناً من تلك الشجرة... أهل البيت أولاد رسول الله... وعلي ظل النبي الدائم الذي لم يفارقه في حياته وشهد معه جميع مشاهده يقوم معاوية بشرح حاله إليه ويبيّن له نعم الله وكرمه على أهل البيت ببركة رسول الله.

وقد أزرى الإمام على معاوية وعابه بمثلين ضربهما له.

الأول: إنه كناقل التمر إلى هجر وهو مثل يضرب لمن يحمل الشيء إلى معدنه لينتفع به فيه وهو دليل الغشم وسوء التدبير وفساد الرأي وأصل المثل أن رجلاً قدم من هجر ـ بلد في اليمن معروفة بكثرة تمرها ـ قدم إلى البصرة بمال أراد أن يشتري به شيئاً للربح فلم يجد أكسد من التمر فاشترى بماله تمراً وحمله إلى هجر وادخره في البيوت ينتظر به السعر فلم يزدد إلا رخصاً حتى فسد جميعه وتلف ماله فضرب به المثل... ومعاوية حمل الخبر إلى معدنه الذي هو أعرف به من كل واحد.

الثاني: إن معاوية حاله مع الإمام كداعي مسدده إلى النضال أي حالي معك كحال الجاهل الذي يتعلم الرمي فهو وفي حال التعلم يدعو معلمه إلى المبارزة والرمي فعلي الذي عنده كل حركات النبي وجهاده وكل شؤونه والذي يعرف كل خصوصيات الرسول علي هذا يريد معاوية أن يذكر له بعض كرم الله على أهل البيت ببركة النبي ووجوده...

(وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان فذكرت أمراً إن تم اعتزلك كله وإن نقص لم يلحقك ثلمه وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم) كان معاوية قد ذكر في الكتاب أن أفضل الناس في الإسلام أبو بكر وعمر وقد أجابه الإمام بإنك قد زعمت والزعم مبني على عدم الصحة أن فلاناً وفلاناً أفضل الناس في الإسلام.

وقد رد عليه الإمام بأننا لو سلمنا ذلك فلا يلحقك شيء من أفضليتهما وإن لم يكونا كما ذكرت ـ أفضل الناس ـ فلا يلحقك شيء من تأخرهما وقصورهما...

ثم نفى عنه أن يكون صالحاً للحكم في هذه الأمور وأن مقامه ليس مقام الإنسان الذي يميز بين الفاضل والمفضول والحاكم والمحكوم وقد استبعد أكثر أن يكون للطلقاء وأبناءهم ـ وهم الذين وقعوا يوم فتح مكة في يد النبي أسرى فمنّ عليهم وأطلقهم ـ وقد كان معاوية منهم. . . استبعد بل نفى أن يكون لهم حق التمييز والتفاضل بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم ومنازلهم وتفاضلهم وتقديم بعضهم على بعض إذ لو حق ذلك لأحد لحق ذلك للمهاجرين أنفسهم دون من كان بعيداً عنهم لا يلتقي معهم في موقف أو هدف أو ساحة. . .

(هيهات لقد حنّ قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها إلا تربع أيها الإنسان على ظلعك وتعرف قصور ذرعك وتتأخر حيث أخرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر) بعد أن نفى عن معاوية أهلية الحكم بين المهاجرين ضرب له مثلين تصغيراً لقدره واحتقاراً له فقال له: بَعُد ما ذهبت إليه من كونك أهلاً للتحكيم.

«لقد حنّ قدح ليس منها» وهو مثل يضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس هو منها أو يتمدح بما لا يوجد فيه وأصل المثل كما يقول الميداني في مجمعه: القدح أحد أقداح الميسر وإذا كان أحد القداح من غير جوهرة أخواته ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها يعرف به أنه ليس من جملة القداح.

وكذلك استهان عليه السلام بمعاوية بالقول له: «وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها» أي ليس لك الحكم يا معاوية في هذا الأمر بل لهؤلاء القوم الحكم النافذ عليك فأنت عندما تعكس القضية تكون سفيهاً غير رشيد.

ثم استفهمه تقريعاً وتوبيخاً ونبهه إلى وجوب الانكفاء على ذاته ويدع ما هو فيه فيحبس نفسه على عيبه ويقعد عن ذكر غيره فإن صاحب العيب لا يستطيع أن يعيب غيره ثم وبخه بقصر باعه أي لا يستطيع أن ينال شيئاً من الفضائل وليس بمقدوره بلوغ ما بلغه الأولون وأيضاً وبخه واستهان به وذكره أنه في ذيل القافلة ومن الطلقاء والصعاليك فعليه أن يحفظ موقعه فيهم ولا يتقدم إلى غيره مما لا يستحقه ثم فرّع على ذلك توبيخاً له أيضاً بإنه غريب عن المهاجرين وأجنبي عنهم فلا تنفعهم تقدمته لأحدهم وتأخيره الآخرين ويكون دخولك في المفاضلة فضولاً بل سفهاً لأنك أجنبي غريب عن المهاجرين لا تضرك غلبة أحدهم وظفر الآخر.

(وإنك لذهّاب في التيه روّاغ عن القصد ألا ترى ـ غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أحدث ـ أن قوماً استشهدوا في سبيل الله تعالى من المهاجرين والأنصار ولكل فضل حتى

إذا استشهد شهيدنا قيل: سيد الشهداء وخصّه رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه أو لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ـ ولكل فضل ـ حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل: الطيار في الجنة وذو الجناحين ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين) إنك يا معاوية كثير الذهاب في الباطل والضلال حائد عن الحق والعدل كثير الميل عما نحن فيه من الهدف إلى غيره مما لا يعنيك وليس لك شأن فيه.

ثم ذكر الإمام مناقب خصّص الله بها بني هاشم قائلاً له: لا أريد أن أخبرك لأنك أحقر من أن تخاطب وليس مثلي يخاطب مثلك ولكن من باب التحدث بنعمة الله وأداء لحق شكر هذه النعم أتحدث: ثم ذكر أن قوماً من المهاجرين والأنصار استشهدوا في سبيل الله وقد نالوا الدرجات العليا وارتفعوا إلى حيث أراد الله لهم من المكانة السامية ولكن يبقى فضل استشهاد شهيدنا حمزة بن عبد المطلب عم النبي أرفع درجة وأعلى منزلة حيث سماه رسول الله سيد الشهداء وكبّر عليه سبعين تكبيرة في الصلاة وقد خصّه بذلك دون غيره.

وكذلك قطعت أيدي جملة من الناس ولكلٍ أجره وثوابه ولكن لما قُطعت يدا جعفر بن أبي طالب سماه النبي جعفر الطيار وأطلق عليه «ذو الجناحين» تكريماً له وتعزيزاً وتقديراً لقربه من رسول الله ثم قال له: لولا أن أكون ممن يزكي نفسه والله سبحانه قد نهى عن ذلك لذكرت من فضائلي الشيء الكثير التي تعرفها قلوب المؤمنين ولا تدفعها آذان السامعين أو تنكرها. . .

ومن هو الذي ينكر فضائل علي وجهاده وتضحياته؟ نعم ينكرها عدو لئيم متعصب عنيد لا يعرف الله ولا يعرف الحق. . .

(فدع عنك من مالت به الرمية فإنا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا) اترك يا معاوية واعرض عمن مالت به الدنيا وانحرفت به عن الاستقامة والعدل كعمرو بن العاص وغيره من زبانيتك. . . أعرض عن ذلك واتبعنا على الحق فإنا صنائع ربنا أي أهل الاختيار له هو الذي اصطفانا مباشرة واختارنا لدينه دون واسطة أحد من الناس وبعد ذلك وبواسطتنا اهتدى الناس وعلى أيدينا خرجوا من الظلمات إلى النور فلا يستوي من اعتنى به الله ورباه واختاره لما أراد واصطنعه على عينه وقرّبه منه لا يستوي هذا وسائر الناس الذين اهتدوا به وعلى يديه. . .

(لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا

وأنحكنا فعل الأكفاء ولستم هناك) افتخر عليه وامتن بأن قديم عزنا وكبير فضلنا عليكم لم يمنعنا أن خلطناكم بأنفسنا فزوجناكم كما تزوجنا منكم فعلنا كما يفعل الأكفاء مع بعضهم ولكن والحال أنكم لستم أكفاء لنا أو نظراء.

(وأنى يكون ذلك ومنا النبي ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف) هذا بيان للتفاوت فيما بينهم وبين الأمويين وقد ذكر عليه السلام عدة مصاديق لهذا التفاوت وإن كان لا يجوز المقارنة إلا من باب الاضطرار فذكر أن من بني هاشم النبي الكريم رسول رب العالمين بينما من بني أمية المكذب بالنبوة الجاحد لها وهو أبو سفيان وقيل: أبو جهل ومنا أسد الله حمزة بن عبد المطلب ومنكم أسد الأحلاف وهو أبو سفيان الذي جمع الأحزاب وقادها لحرب النبي في واقعة الخندق...

(ومنا سيدا شباب أهل الجنة) وهما الحسن والحسين بنص النبي المتفق عليه بين جميع المسلمين.

(ومنكم صبية النار) وهم ملوك بني أمية أو صبية عقبة بن أبي معيط الذي قتله النبي صبراً ولما أراد قتله قال: فمن للصبية يا محمد ـ أي الأولاد الصغار ـ قال له النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: النار...

(ومنا خير نساء العالمين) وهي فاطمة الزهراء ففي صحيح البخاري عن النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أنه قال: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وقال ابن أبي الحديد: فلأنه قد تواتر الخبر عنه ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أنه قال: «فاطمة سيدة نساء العالمين» إما هذا اللفظ بعينه أو لفظ يؤدي هذا المعنى روى أنه قال وقد رآها تبكي عند موته: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة» وروي أنه قال: «سادات نساء العالمين أربع خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران»...

(ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم) وحمالة الحطب هي أم جميل امرأة أبي لهب وهي اخت أبي سفيان وعمة معاوية وفيها وفي زوجها نزلت سورة «تبّت».

ثم ذكر عليه السلام أن ما ذكرناه من فضائلنا وما ذكرناه من رذائلكم قليل من كثير في كلا الجانبين ومن يرى يعرف الحقيقة ويدرك صحة ما نقول...

(فإسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع) إسلامنا قد ظهر للناس وعرفوه حيث كنا أول الناس إسلاماً وإيماناً وكنا في أعلى طبقات الأمة من الرعيل الأول في الجهاد والقتال والدفاع عن الحق وقد أخذنا المناقب باستحقاق وحزنا المكارم بجدارة وكذلك في الجاهلية فإنا كنا أهل الكرم والجود وأهل الفضائل والمكارم ويكفي عظمة ورفعة ما تمتع

به هاشم وعبد المطلب وأبو طالب فإنك تجدهم أعلى الناس كعباً وأعظمهم منزلة وأكثر الناس فضلاً وخيراً. . .

(وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة) أراد عليه السلام أن يدلّل على أحقيته بالخلافة وأنه أولى بها من غيره وهي له دونهم وقد اعتمد على كتاب الله في إثبات ذلك وقال: إن الكتاب يلحق بنا ما أخذ منا فإن الأمر ليس فوضى وبدون حساب وتدقيق ثم بين ذلك بأحد أمرين ذكرهما الكتاب العزيز.

أحدهما القرابة وقد استدل عليه بآية أولي الأرحام وأنهم أولى ببعضهم ونحن أولى الناس بالنبي وأقربهم منه وأشدهم رحماً.

والآخر: الاتباع وقد كان علي من أول أتباع النبي وأشدهم مناصرة ودفاعاً فاستحق الخلافة وكانت له دون غيره. . . وذلك بآية الأتباع وأن أولى الناس بإبراهيم والأنبياء أشدهم إتباعاً لهم وهذا يثبت أنه عليه السلام أولى ممن تقدمه ومن كل من ينازعه. . .

(ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فلجوا عليهم فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم) ذكر عليه السلام ما احتج به المهاجرون على الأنصار وكيف انتصروا عليهم وسلبوا الخلافة منهم وغلبوهم عليها. . .

احتجوا بأنهم قرابة النبي وأولى الناس به وقد ذكر الإمام ذلك بقوله: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة فإذا كان ما يدعيه المهاجرون صحيح وأنهم انتصروا برسول الله ونجحوا في دعواهم به فهذا ما يجب أن ينتصر به أهل البيت على المهاجرين أنفسهم لأن أهل البيت أقرب من جميع المهاجرين فهم أهل بيته وذريته وأشد الناس رحماً له وأما إذا كانت حجة المهاجرين بغير رسول الله فالأنصار على دعواهم من أن الخلافة لهم وفيهم لأنهم أقدم الناس إسلاماً وأشدهم انتصاراً لله ولرسوله وعليهم قامت المعارك وبهم انتصر الإسلام وقام. . .

(وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت فإن يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر إليك

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها)

بدّد الإمام مقولة معاوية وقال له: زعمت كذباً وزوراً أنني حسدت كل الخلفاء

والحقيقة أن الحسد ليس من شأني ولا من خلقي وديني.

وأما اعتدائي عليهم ـ وذلك لم يصدر ـ وحتى لو فرضنا ذلك فرضاً وقلناً بصدوره فلا علاقة لك بذلك ليس الاعتداء عليك حتى يكون العذر إليك.

ثم تمثل بقول أبي ذؤيب وأوله:

وعيّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وهو مثل يضرب لمن ينكر أمراً ليس منه في شيء فلا يلزم عليه إنكاره.

(وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً في يقينه وهذه حجتي إلى غيرك قصدها ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها) رد الإمام على ما وجهه إليه معاوية بأنه أُجبر على البيعة للخلفاء الذين تقدموه وأكره عليها ـ رد عليه بأن قوله ـ إن القوم قادوا الإمام كما يقاد الجمل المخشوش أي حملوه بالقوة والعنف على البيعة فحاله كحال الجمل الذي وضعوا في أنفه عوداً ليسهّل عليهم انقياده.

رد الإمام بالحلف بالله أنه أراد أن يذم فمدح لأنه أبان ظلم الخلفاء للإمام وأنه لم يبايع بالاختيار وأراد أن يفضح الإمام ويكشف عيبه ـ في نظره ـ فافتضح معاوية حيث أظهر ظلم الخلفاء وأنه على سيرتهم والمؤيد لفكرتهم استلاب الخلافة...

ثم بيّن عليه السلام أنه لا منقصة ولا عيب أو حيف على المسلم في أن يكون مظلوماً وبالصورة التي كانت تمارس على الإمام نفسه لأن الحساب سيأتي وسيقف الظالم والمظلوم أمام المحكمة العادلة فيقتص للمظلوم من الظالم... لا منقصة على المسلم إذا كان مظلوماً شرط أن لا يكون في شك من دينه أو شك في عقيدته وما عمله من قضاياه وهذه إشارة إلى معاوية وأنه على غير دين ولا يحمل عقيدة أو يقين.

ثم ذكر عليه السلام أن هذه الحجة التي بيّنها إنما هي لغيره من الخلفاء الذين ظلموا ويجب أن يسمعها المخلصون من الأمة ولم يقصد بها معاوية لأنه صعلوك صغير لا يستحق المخاطبة أو البيان ولكن أطلق منها بقدر ما مرّ في خاطره ودعت الضرورة إليه...

(ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه أم من استنصره

فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه. كلا والله لـ«قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا») كان معاوية قد ذكر للإمام خلافه من عثمان وتحميله دمه لأنه كما يدعي أنه لم ينصره فيقول له: أما هذه الدعوة فأنت تستحق أن أجيبك عليها لأن عثمان من أرحامك تجمعكما الشجرة الأموية فحق لك أن تجاب عن هذه.

ثم بيّن الإمام أن عثمان هو الذي رفض وساطة الإمام بينه وبيّن الثوار وقد حاول الإمام أن يصلح الأمر وفي كل مرة يخرج مروان وزمرته فيفسدوا القضايا ويعكروا الأجواء وهكذا يعود الإمام حتى طلب عثمان منه أن يقعد عن مساعدته ويكف عن وساطته هكذا كانت حالة الإمام.

أما معاوية فقد استنصره عثمان وطلب منه المدد فجهز جيشاً وحدّد له حداً ينتهي إليه لا يغادره ولا يتركه وبقي هكذا عثمان يستنصره وهو يتأخر عنه لا يبادر إلى نصرته حتى قُتل فلما قُتل رفع معاوية ثوبه ونادى بثأره وبهذا يتضح أيهما أشد عداوة لعثمان علي أم معاوية؛ مَنْ كان ينصره فيستقعده عثمان أم من كان يستنصره فلا ينصره.

ومن هنا يُعرف من هو الأشد عداء لعثمان والأهدى إلى مقاتله علي أم معاوية من يملك الجند والقوة ويستنصره عثمان فلا ينصره أم من بذل وسعه في السعي لرفع القتل فرفض الخليفة المسعى...

ثم استشهد الإمام بالآية الكريمة وأن عثمان استنصره فثبط معاوية الجيش وأخره عن النصرة حتى أتى قضاء الله فقتل عثمان...

(وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له

وقـد يستفـيد الظنـة المتنصـح

وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) رفض الإمام أن يعتذر عما كان ينقمه على عثمان من أحداث وبدع وأمور مخالفة للإسلام وللحق والعدل وهي أمور مشهورة معروفة ذكرها المؤرخون وقد كان الإمام ينتقده عليها ويحاول أن يرده عنها ولا عيب أو ذنب في النقد ومحاولة الرد عن الخطأ.

فليس في إرشاده لعثمان وهدايته له أي ذنب أو عيب ثم ضرب له المثل القائل «فرب ملوم لا ذنب له» وهو مثل يضرب لمن قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا

يعرفون حجته وعذره ولو عرفوه لم يلوموه ومثل هذا استشهاده بقوله: «وقد يستفيد الظنة المتنصح» وهو أيضا مثل يضرب لمن يبالغ في النصيحة حتى يُتهم أنه غاش وعلى كل حال فالله هو الذي يعلم أني لم أرد بكل محاولاتي مع عثمان إلا الإصلاح ورأب الصدع ما استطعت. . .

(وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف فلقد أضحكت بعد استعبار متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيف مخوفين

فـ «لبـث قليـلاً يلحـق الهيـجا حمـل»

فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد) كان معاوية قد هدّد الإمام بالحرب فأجابه الإمام بهذا الجواب الذي يحمل الاستهزاء به والاحتقار لشخصه؟ لقد أضحكت المؤمنين وأنا معهم بعد أن كانوا يبكون على الدين وما جنيته من الرزايا وتفريق كلمة المسلمين، والضحك بعد البكاء أمر غريب وغير مألوف إلا إذا كان الأمر فاقع لا يطاق حبسه أو كتمانه. . .

ثم ذكره بأمر معروف مشهور واستفهمه استفهام إنكار عليه بأن بني عبد المطلب لا ينكلون عن الأعداء ولا يُخوّفون بالموت وضرب السيف ثم أوعده الإمام بصدر بيت قاله حمل بن بدر

لبّـث قليـلاً يلحـق الهيجـا حمـل ما أحسن الموت إذا الموت نزل

وهو مثل يضرب للوعيد بالحرب.

ثم بادله بأن من تطلبه وهو نحن هو الذي يطلبك ويقصدك، وسيقترب منك من تراه بعيداً عنك. . .

(وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك «وما هي من الظالمين ببعيد») أنا زاحف إليك في جيش من المهاجرين والأنصار وهذا هو جيش رسول الله الذي كان يقاتل به أبا سفيان والعرب. . . إنهم النخبة الطيبة المختارة ومعها أبناؤهم من التابعين لهم بإحسان وعلى خطهم وطريقة حياتهم. . . لم يتخلف من المهاجرين والأنصار عن علي إلا بعضهم ممن يريدون الدنيا ويتوقعون أن يكون لهم دور فقدوه بين الأشراف والأبرار وأهل الدين كسمرة بن جندب المضار والمغيرة بن شعبة الفاجر وأبي هريرة الدوسي الكذاب الوضاع. . .

ثم وصف مسيرة هؤلاء المهاجرين والأنصار ومن تابعهم بإحسان وأنهم لشوقهم لقتاله ورغبتهم في نزاله ولكثرتهم والتقرب إلى الله بجهاده ترى ازدحامهم شديد كل يدفع الآخر للوصول إلى شرف قتال الباغي العادي.

وكذلك لابسين أكفانهم على استعداد للموت والشهادة وأحب اللقاء إليهم لقاء ربهم شهداء في سبيله ومن أجل إعلاء كلمته.

ثم أضاف إلى ذلك أن ذرية أهل بدر وأبناءهم قد رافقت المهاجرين والأنصار في هذا الجيش المجاهد وكذلك رافقتهم السيوف الهاشمية التي وترت العرب وقتلت صناديد المشركين وأنت يا معاوية تعرف مواقعها ومواضعها في أخيك حنظلة بن أبي سفيان وخالك الوليد بن عتبة وجدك عتبة وما هي عن الظالمين أمثالك ببعيدة بل هي قريبة منك. . .

٢٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل البصرة

وَقَدْ كَانَ مِنِ ٱنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ(١) وَشِقَاقِكُمْ(٢) مَا لَمْ تَغْبَوْا(٣) عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ(٤)، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ(٥)، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ خَطَتْ(٦) بِكُمُ ٱلأُمُورُ ٱلْمُرْدِيَةُ(٧)، وَسَفَهُ(٨) ٱلآرَاءِ ٱلْجَائِرَةِ(٩)، إِلَى مُنَابَذَتِي(١٠) وَخِلاَفِي، فَهأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي(١١)، وَرَحَلْتُ(١٢) رِكَابِي(١٣). وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي(١٤) إِلَى ٱلْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ(١٥) بِكُمْ وَقْعَةً لاَ يَكُونُ يَوْمُ ٱلْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلاَّ كَلَعْقَةِ(١٦) لاَعِقٍ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ(١٧) مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ، وَلاَ نَاكِثاً(١٨) إِلَى وَفِيٍّ.

اللغة

١ ـ **انتشار الحبل** : تفرق طاقاته وانحلال فتله مجاز عن التفرق.

٢ ـ **الشقاق** : الفرقة والخلاف.

٣ ـ **تغبوا** : من غبي إذا لم يفطن للشيء وغبا عنه جهله.

٤ ـ **المجرم** : المذنب.

٥ ـ **المدبر** : الهارب.

٦ ـ **خطت بكم** : من الخطو أي تجاوزت.

٧ ـ **المردية** : المهلكة.

٨ ـ **السفه** : ضد الرشد وسفه الآراء ضعفها.

٩ ـ **الجائرة** : الظالمة والمائلة عن الحق.

١٠ ـ **المنابذة** : المخالفة والعداوة ونبذت إليه عهده القيته إليه واعلنت عليه الحرب.

١١ ـ الجياد : جمع جواد الفرس السريع الجري.
١٢ ـ رحل البعير : شد على ظهره الرحل والرحل للإبل كالجلال للحمار.
١٣ ـ الركاب : الإبل.
١٤ ـ الجأه : اضطره.
١٥ ـ أوقع به : بالغ في قتاله والنيل منه.
١٦ ـ اللعقة : اللحسة ولعقة لاعق مثل يضرب للشيء الحقير التافه.
١٧ ـ المتجاوز : المتعدي وتجاوز المحل إذا تعداه.
١٨ ـ الناكث : ناقض العهد.

الشرح

(وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم ما لم تغبوا عنه فعفوت عن مجرمكم ورفعت السيف عن مدبركم وقبلت من مقبلكم..) هذه الرسالة أرسلها الإمام لأهل البصرة يذّكرهم فيها بما كان منهم في واقعة الجمل وكيف نكثوا العهد وخالفوا الأمر تنبيهاً لهم أن لا يعودوا لمثلها وأن لا يقبلوا وسوسة معاوية وإيحاءاته لهم بالتمرد والعصيان وإلا كان لهم منه يوم عظيم أعظم من يوم الجمل وأشد هولاً بل يحتقر يوم الجمل ويصغر في مقابله...

ذكرّهم قبيح فعلهم معه وإنه قد كان له في أعناقهم بيعة فنكثوها وخالفوا العهد ولم يكن ذلك منهم عن غباء أو عن غفلة بل كان عن تصميم وعلم قاموا بتنفيذه عن سابق معرفة واصرار.

ثم ذكرّهم إحسانه إليهم وفضله عليهم بعد إساءتهم وقبح تصرفهم بأنه قد غفر عن مجرمهم ومن يستحق القتل منهم ورفع السيف عن الهارب منهم ولم يلحق ليقتص منه ومن أقبل منهم بعد الهزيمة قبل توبته وعفى عنه وصفح عما كان منه وهذه سجايا علوية وطبائع ربانية إلهية...

(فإن خطت بكم الأمور المردية وسفه الآراء الجائرة إلى منابذتي وخلافي فهأنذا قد قرّبت جيادي ورحلت ركابي) هددهم عليه السلام إن نقضوا العهد من جديد بأشد العقوبات وإنه إن مشت بكم الأهواء وقادتكم أهل الآراء المهلكة والأحلام السفيهة الحائدة عن الحق فنقضتم عهدي وأبطلتم بيعتي وصممتم على خلافي وعصياني والتمرد على حكمي وأمري فأنا على أتم الاستعداد لحربكم فأفراسي مسرجة وإبلي مهيأة قد

وضعت عليها رحالها كناية عن وقوفه لهم بالمرصاد وإنه على أتم الاستعداد ليشنها عليهم حرباً بأسرع ما يتصورون. . .

(ولئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق مع إني عارف لذي الطاعة منكم فضله ولذي النصيحة حقه غير متجاوز متهماً إلى بريء ولا ناكثاً إلى وفي) هددهم أنه إذا اضطر للخروج إليهم وذلك في حال نكث بيعته والخروج على سلطانه فإنه سيأخذهم أخذاً شديداً يكون ما وقع لهم في يوم الجمل قليلاً بالنسبة إلى ما سيقع عليهم بحيث يقدر باللحسة القليلة لشدة ما سينالهم.

ثم اطمعهم بمعروفه وإنه يحفظ لأهل الطاعة والإستقامة حظهم ومعروفهم ولن يذهب ذلك هدراً بل سيكافؤن بالمعروف وكذلك سيحفظ لأهل النصيحة نصيحتهم ويجزيهم عليها بالاحسان إليهم.

وأكدّ عدالته وجميل سيرته بأنه لن يتجاوز في عقابه من المسيء إلى البريء ولا ناكث العهد ومخالف البيعة إلى من وفى بها والتزم بمضمونها بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت؛ عليها ذنبها وعقابها ولها أجرها وثوابها. . . .

٣٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لاَ تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاماً[١] وَاضِحَةً، وَسُبُلاً[٢] نَيِّرَةً[٣]، وَمَحَجَّةً[٤] نَهْجَةً[٥]، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً[٦]، يَرِدُهَا[٧] الأَكْيَاسُ[٨]، وَيُخَالِفُهَا الأَنْكَاسُ[٩] مَنْ نَكَبَ[١٠] عَنْهَا جَارَ[١١] عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ[١٢] فِي التِّيهِ[١٣]، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ[١٤]، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ[١٥]. فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ[١٦] بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ[١٧] إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ[١٨]، وَمَحَلَّةِ[١٩] كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ[٢٠] شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ[٢١] غَيّاً[٢٢]، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ[٢٣] عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ[٢٤].

اللغة

١ ـ اعلاماً : علامات، دلائل.
٢ ـ السبل : الطرق.
٣ ـ نيرة : مضيئة.
٤ ـ المحجة : الطريق المستقيم.
٥ ـ النهجة : الواضحة.
٦ ـ مطّلبة : بالتشديد مساعفة لطالبها بما يطلبه.
٧ ـ يردها : يقصدها.
٨ ـ الأكياس : جمع كيس العاقل.
٩ ـ الإنكاس : جمع نكس بكسر النون، الدنيء الخسيس.

١٠ ـ نكب عنها	:	عدل عنها.
١١ ـ جار	:	مال عن القصد.
١٢ ـ الخبط	:	المشي على غير استقامة.
١٣ ـ التيه	:	الضلال.
١٤ ـ غيّر الله نعمته	:	بدّله.
١٥ ـ نقمته	:	بفتح النون وكسر القاف الانتقام، المكافأة بالعقوبة.
١٦ ـ تناهت	:	بلغت ووصلت.
١٧ ـ أجريت	:	أجرى فلان إلى غاية كذا أي قصدها بفعله.
١٨ ـ الخسر	:	الخسران.
١٩ ـ المحلة	:	المنزلة.
٢٠ ـ أولجتك	:	أدخلتك.
٢١ ـ إقحمتك	:	رمت بك من الاقتحام وهو الدخول في الأمر بشدة وعنف.
٢٢ ـ الغي	:	الضلال.
٢٣ ـ أوعرت	:	من الوعر أي الصعب وزناً ومعنى.
٢٤ ـ المسالك	:	المداخل.

الشرح

(فاتق الله فيما لديك وانظر في حقه عليك وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته) هذا الكتاب موّجه إلى معاوية وفيه موعظة بتقوى الله والرجوع إليه والنظر فيما وجب عليه استهله بالأمر بتقوى الله فيما أضحى لديه وقد اضحت الشام معه والأموال بين يديه ظلماً وعدواناً أمره بردها إلى أهلها ومن هو أحق بها منه.

وانظر في حق الله عليك وحقه تعالى أن تعبده لا تشرك به شيئاً وتؤدي لصاحب الحق حقه.

وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته أي عد إلى معرفة ما لا يُقبل عذرك في جهله إن اعتذرت بأنك جاهل فيه وهو طاعة الله ورسوله وطاعة الإمام العدل...

(فإن للطاعة اعلاماً واضحة وسبلاً نيرة ومحجة نهجة وغاية مطلبة) بيّن لمعاوية أن للطاعة علامات ودلائل واضحة تظهر أمام العيون فمنها السعي في لّم الشمل والعمل للوحدة وإطاعة الله ورسوله فيما أمرا ونهيا عنه كما أن للطاعة طرقاً مضيئة لا يضل فيها

الإنسـان أو ينحرف وطرقاً مستقيمة مطلوبة ومرادة فلا يبقى بعدها لهذا الإنسان عذر إن تمرد أو عصى. . .

وبعبارة أخرى إذا كانت الغاية مطلوبة وهي القرب من الله وكان لتلك الغاية اعلاماً منصوبة تدل على الطرق الواضحة انسدت أمام الإنسان الأعذار حتى إذا أراد الأعتذار بجهله لا يقبل عذره.

(يردها الأكياس ويخالفها الانكاس من نكب عنها جار عن الحق وخبط في التيه وغير الله نعمته وأحل به نقمته) هذه الطاعة التي هي الغاية المقصودة يردها العقلاء لأنهم الذين يفكرون في عواقب الأمور والغايات الشريفة التي تسعدهم وتأخذ بأيديهم إلى رضوان الله وأما الانكاس وهم الادنياء أصحاب النفوس المريضة والخسيسة فإنهم يخالفونها ويعدلون عنها إلى الغاية الباطلة والطرق الشيطانية المنحرفة فمن حاد عن هذه الغاية ـ التي هي طاعة الله ـ فإنه مال عن العدل والحق ومشى متخبطاً في الضلال لا يعرف كيف يمشي ولا يهتدي إلى نجاة ولا بد من كانت هذه مسيرته أن يغير الله عليه نعمته فيزيلها عنه ويبدله بها عذاباً وهواناً لأن السنن الإلهية جارية على أن من رفض الحق والعدل سلبه الله هذا الحق والعدل وأبدله بهما الظلم والجور. . .

(فنفسك نفسك فقد بيّن الله لك سبيلك) أمره أن يحفظ نفسه من النار فقد بيّن الله له طريق الحق والعدل الموصل إلى السعادة.

(وحيث تناهت بك أمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلة كفر فإن نفسك قد أولجتك شراً واقحمتك غياً وأوردتك المهالك وأوعرت عليك المسالك) يا معاوية وحيث انتهت بك أمورك إلى ما أنت عليه من الضلال فقد سرت إلى نهاية الخسران في النار وإلى منزل الكفار من حيث حاربت الحق وفرّقت الجماعة وقضيت على الوحدة ومزقت المجتمع الموّحد.

إن نفسك يا معاوية قد ادخلتك شراً عظيماً لا يطاق وأوردتك دون وعي منك لشدة حماقتك وطيشك وتسرعك ضلالاً ليس بعده ضلال وأوردتك المهالك الدنيوية والأخروية وجعلت طرقك صعبة شاقة يعسر المسير فيها كناية عن أن نفس معاوية خبيثة بوساوسها الشيطانية وقد اوردته سبل الضلال وسهلت عليه سلوكها بتحسينها للغايات الباطلة وبسبب ذلك لزمه البعد عن طرق الهدى ومسالك الخير وصعب عليه سلوك طرق الخير والصلاح. . .

٣١ ـ ومن وصية له عليه السلام

للحسن بن علي عليهما السلام، كتبها إليه «بحاضرين» عند انصرافه من صفين

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ، ٱلْمُقِرِّ[١] لِلزَّمَانِ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ ٱلْمَوْتَى[٢]، وَٱلظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ[٤]، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ[٥]، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ ٱلْغُرورِ، وَغَرِيمِ[٧] ٱلْمَنَايَا[٨]، وَأَسِيرِ[٩] ٱلْمَوْتِ، وَحَلِيفِ[١٠] ٱلْهُمُومِ، وَقَرِينِ[١١] ٱلْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ[١٢] ٱلآفَاتِ[١٣]، وَصَرِيعِ[١٤] الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ ٱلآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَٱلِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي[١٥] رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى[١٦] بِي إِلَى جِدٍّ[١٧] لَا يَكُونَ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ ٱلْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى ٱللهِ ـ أَيْ بُنَيَّ ـ وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ،

وَٱلِاعْتِصَامِ(١٩) بِحَبْلِهِ. وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذتَ بِهِ!.

أَحْيِ قَلْبَكَ بِٱلْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِٱلْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِٱلْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِٱلْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ(٢٠) الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ(٢١) صَوْلَةَ الدَّهْرِ(٢٢) وَفُحْشَ(٢٣) تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَٱلأَيَّامِ، وَٱعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ ٱلْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ ٱلأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَٱنْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا ٱنْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ ٱنْتَقَلُوا عَنِ ٱلأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ ٱلْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ(٢٤)، وَلاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ ٱلْقَوْلَ فِيمَا لاَ تَعْرِفُ، وَٱلْخِطَابَ(٢٥) فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ. وَأَمْسِكْ(٢٦) عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ، فَإِنَّ ٱلْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلاَلِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ ٱلأَهْوَالِ(٢٧). وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ ٱلْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ(٢٨) مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ(٢٩)، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلاَ تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ. وَخُضِ(٣٠) ٱلْغَمَرَاتِ(٣١) لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ(٣٢) التَّصَبُّرُ فِي ٱلْحَقِّ! وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ(٣٣) حَرِيزٍ(٣٤)، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ ٱلِاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلاَ تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَلاَ يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لاَ يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ(٣٥) بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً(٣٦) مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي

دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ ٱلْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وَإِنَّمَا قَلْبُ ٱلْحَدَثِ[٣٨] كَالأَرْضِ ٱلْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ[٣٩]، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ ٱلأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَٱسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا ٱنْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعِهِ مِنْ ضَرَرِهِ، فَٱسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي[٤١] مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي ٱلْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ ٱلْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ ٱلإِسْلاَمِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ، لاَ أُجَاوِزُ[٤٢] ذلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا ٱخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي ٱلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلاَمِكَ إِلَى أَمْرٍ لاَ آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ ٱلْهَلَكَةَ[٤٣]، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ ٱللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ[٤٤]، وَأَنْ يَهْدِيَكَ، لِقَصْدِكَ[٤٥]، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هذِهِ.

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى ٱللهِ

وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ ٱللهُ عَلَيْكَ، وَٱلأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ ٱلأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ(٤٦) آخِرُ ذٰلِكَ إِلَى ٱلأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَٱلإِمْسَاكِ(٤٧) عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ(٤٨) نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لاَ بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ(٤٩)، وَعُلَقِ(٥٠) ٱلْخُصُومَاتِ(٥١). وَٱبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كل شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ(٥٢). فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ(٥٣)، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَٱجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذٰلِكَ هَمًّا وَاحِداً، فَٱنْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ ٱلْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَٱلإِمْسَاكُ(٥٤) عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ.

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ ٱلْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ ٱلْحَيَاةِ، وَأَنَّ ٱلْخَالِقَ هُوَ ٱلْمُمِيتُ، وَأَنَّ ٱلْمُفْنِيَ هُوَ ٱلْمُعِيدُ، وَأَنَّ ٱلْمُبْتَلِيَ هُوَ ٱلْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ(٥٥)، وَٱلِابْتِلاَءِ، وَٱلْجَزَاءِ فِي ٱلْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاَ تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَٱحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ ٱلأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ! فَٱعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ(٥٦) عَنِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ

ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَٱرْضَ بِهِ رَائداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلغ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَإِنِ ٱجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ. لاَ يُضَادُّهُ(٥٧) فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلاَ يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ ٱلأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ ٱلأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذلِكَ فَٱفْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ(٥٨)، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ. فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَٱلْخَشْيَةِ(٦٠) مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ(٦١) فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلاَّ بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ.

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ(٦٢) عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَٱنْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ ٱلآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ(٦٣) لأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا ٱلأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ(٦٤) الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ(٦٥)، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً(٦٦)، فَٱحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ ٱلْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ أَلَماً، وَلاَ يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرماً. وَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلاَ أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

يَا بُنَيَّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً[٦٧] فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَٱسْتَقْبِحْ[٦٨] مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ ٱلأَلْبَابِ[٦٩]. فَٱسْعَ[٧٠] فِي كَدْحِكَ[٧١]، وَلاَ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ[٧٢] فَكُنْ أَخْشَعَ[٧٣] مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ[٧٤] شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ ٱلارْتِيَادِ، وَقَدْرِ[٧٥] بَلاَغِكَ مِنَ الزَّادِ[٧٦]، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلاَ تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ[٧٧]، فَيَكُونَ ثِقْلُ[٧٨] ذلِكَ وَبَالاً[٧٩] عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَاقَةِ[٨٠] مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ[٨١] بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَٱغْتَنِمْهُ[٨٢] وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ. وَٱغْتَنِمْ مَنِ ٱسْتَقْرَضَكَ[٨٣] فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً[٨٤] كَؤُوداً، ٱلْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ ٱلْمُثْقِلِ[٨٥]، وَٱلْمُبْطِىءُ[٨٦] عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ ٱلْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ[٨٧] بِهَا لاَ مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَٱرْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّىءِ[٨٩] ٱلْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» وَلاَ إِلَى ٱلدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ[٩٠].

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَٱلأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ[٩١] فِي

الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ(٩٢) لَكَ بِٱلإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ(٩٣) بِٱلإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ(٩٤) حَيْثُ ٱلْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ(٩٥) عَلَيْكَ فِي قَبُولِ ٱلإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِٱلْجَرِيمَةِ(٩٦) وَلَمْ يُؤْيِسْكَ(٩٧) مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْمَتَابِ(٩٨)، وَبَابَ ٱلاسْتِعْتَابِ(٩٩)؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ(١٠٠) سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ(١٠١) ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ(١٠٢) إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَٱسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَٱسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ ٱلأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ ٱلأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ ٱسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَٱسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ(١٠٣) إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَطِيَّةَ(١٠٤) عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ. وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ ٱلإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ(١٠٥) لِعَطَاءِ ٱلآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَٱلْمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ.

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى ٱلآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي لاَ يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ طَالِبُهُ. وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ

مُدْرِكُهُ(١٠٦)، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذرٍ(١٠٧) أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ(١٠٨) بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

ذكر الموت

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ(١٠٩) عَلَيْهِ، وَتُفْضِي(١١٠) بَعْدَ ٱلْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ(١١١)، وَلاَ يَأْتِيَكَ بَغْتَةً(١١٢) فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ(١١٣) بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ(١١٤) ٱللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ(١١٥) هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ(١١٦) كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ(١١٧)، قَدْ أَضَلَّتْ(١١٨) عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلاَ مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ ٱلْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ ٱلْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَٱتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

الترفق في الطلب

رُوَيْداً(١٢٠) يُسْفِرُ الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ ٱلأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ ٱلْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ(١٢١) أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ(١٢٢) أَجَلَكَ(١٢٣)،

وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ(١٢٤) مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَخَفِّض فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ(١٢٥) فِي ٱلْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ(١٢٦) إِلَى حَرَبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ(١٢٧) بِمَحْرُومٍ(١٢٨). وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ(١٢٩) إِلَى الرَّغَائِبِ(١٣٠)، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ(١٣١) بِمَا تَبْذُلُ(١٣٢) مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً(١٣٣). وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ ٱللهُ حُرًّا. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْرٍ؟!.

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا(١٣٤) الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ(١٣٥) مَنَاهِلَ(١٣٦) ٱلْهَلَكَةِ(١٣٧). وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَٱفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ(١٣٨)، وَآخِذٌ سَهْمَكَ(١٣٩)، وَإِنَّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وصايا شتى

وَتَلاَفِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي ٱلْوِعَاءِ(١٤٠) بِشَدِّ ٱلْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ(١٤١) ٱلْيَأْسِ(١٤٢) خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَٱلْحِرْفَةُ مَعَ ٱلْعِفَّةِ(١٤٣) خَيْرٌ مِنَ ٱلْغِنَى مَعَ ٱلْفُجُورِ(١٤٤)، وَٱلْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ(١٤٥) فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ ٱلْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ(١٤٦) أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ ٱلْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ(١٤٧) الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ ٱلرِّفْقُ(١٤٨) خُرْقاً كَانَ ٱلْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً(١٤٩)، وَالدَّاءُ دَوَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ ٱلْمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَٱلاتِّكَالَ عَلَى ٱلْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ(١٥٠) النَّوْكَى، وَٱلْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ(١٥١)، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ(١٥٢) ٱلْفُرْصَةَ

قَبلَ أَنْ تكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلاَ كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ[١٥٥]. وَمِنَ ٱلْفَسَادِ[١٥٦] إِضَاعَةُ[١٥٧] الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ ٱلْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ[١٥٨] وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى[١٥٩] مِنْ كَثِيرٍ! لاَ خَيْرَ فِي مُعِينٍ[١٦٠] مَهِينٍ، وَلاَ فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ[١٦١] لَكَ قَعُودُهُ، وَلاَ تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ[١٦٢] بِكَ مَطِيَّةُ[١٦٣] اللَّجَاجِ[١٦٤].

ٱحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ[١٦٥]، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَٱلْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى ٱلْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ[١٦٦]، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ[١٦٧] عَلَى ٱلْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَٱمْحَضْ[١٦٨] أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ[١٦٩] ٱلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ[١٧٠] لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِٱلْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ[١٧١] أَخِيكَ فَٱسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا[١٧٢] لَهُ ذلِكَ يَوْماً مَّا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلاَ تُضِيعَنَّ[١٧٣] حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلاَ يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى ٱلْخَلْقِ بِكَ، وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ[١٧٤] مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَى ٱلإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى ٱلإِحْسَانِ. وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ ٱلْخُضُوعَ(١٧٥) عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ، وَٱلْجَفَاءَ(١٧٦) عِنْدَ ٱلْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً(١٧٧) عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَٱجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. ٱسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ ٱلأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلاَ تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ ٱلْعِظَةُ إِلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ(١٧٨)، فَإِنَّ ٱلْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِٱلآدَابِ، وَٱلْبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ. ٱطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ ٱلْهُمُومِ(١٧٩) بِعَزَائِمِ(١٨٠) الصَّبْرِ وَحُسْنِ ٱلْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ ٱلْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. وَٱلْهَوَى شَرِيكُ ٱلْعَمَى، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَٱلْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى(١٨١) ٱلْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ(١٨٣) سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ ٱلْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاَكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ(١٨٤) تَظْهَرُ، وَلاَ كُلُّ فُرْصَةٍ(١٨٥) تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ ٱلْبَصِيرُ قَصْدَهُ(١٨٦)، وَأَصَابَ ٱلأَعْمَى رُشْدَهُ(١٨٧). أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ ٱلْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ ٱلْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ(١٨٨) الزَّمَانَ خَانَهُ(١٨٩)، وَمَنْ أَعْظَمَهُ(١٩٠) أَهَانَهُ(١٩١). لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ ٱلْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ ٱلْكَلاَمِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

الرأي في المرأة

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ(١٩٢) النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ(١٩٣) إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ(١٩٤) إِلَى وَهْنٍ. وَٱكْفُفْ(١٩٥) عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ

ٱلْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلاَ تُمَلِّكِ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ(١٩٦)، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلاَ تَعْدُ(١٩٧) بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلاَ تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ(١٩٨)، وَٱلْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ(١٩٩). وَٱجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ(٢٠٠) عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ(٢٠١)، فَإِنَّهُ أَحْرَى(٢٠٢) أَلاَّ يَتَوَاكَلُوا(٢٠٣) فِي خِدْمَتِكَ. وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ(٢٠٤).

دعاء

ٱسْتَوْدِعِ ٱللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَٱسْأَلْهُ خَيْرَ ٱلْقَضَاءِ لَكَ فِي ٱلْعَاجِلَةِ وَٱلآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ المقرّ : المذعن، المعترف.

٢ ـ الموتى : مات الحي موتاً: فارقته الحياة والشيء همد وسكن والميت الذي فارق الحياة جمع أموات وموتى.

٣ ـ السالك : سلك الطريق: سار فيه متبعاً إيَّاه.

٤ ـ الأسقام : الأمراض.

٥ ـ المصائب : المصيبة كل مكروه يحُلُّ بالإنسان جمعه مصائب (على غير قياس وقياسها مَصَاوِبُ).

٦ ـ الغُرور : الأباطيل.

٧ ـ الغريم : جمع غرماء وهو المديون.

٨ ـ المنايا : جمع منيّة، الموت.

٩ ـ أسير : جمعه أسرى وأسراء وأسارى: من قُبض عليه وأخذ.

١٠ ـ الحليف : جمعه حلفاء كل شيء لزِم شيئاً فلم يفارقه يقال: فلان حليف الجود أي لا يفارقه وفلان حليف الهموم أي لا يفارقها.

١١ ـ قرين : جمعه قُرَناء المقرون بآخر، المصاحب. قرين الأحزان أي مصاحبها (وملازمها).

١٢ ـ نُصُب : الداء البلاء، جمع نصاب، النصيب، كل ما جعل علماً (يصبح هدف للآفات).

١٣ ـ الآفات : آفَتِ البلاء أوفاً وآفة: أصابتها آفة من قحط أو مرض وغيره الآفة كل ما يصيب شيئاً فيفسده.

١٤ ـ صريع : صرعه صرعاً ومصرعاً أي طرحه على الأرض.

١٥ ـ صدفني : صدف صِدْفاً وصدوفاً: انصرف ومال وصدفاً عنه: أعرض وصدَّ، صدفني رأيي: صدَّني.

١٦ ـ فأفضى : أفضى به إلى جَدُّ أي بلغ وانتهى به إليه، وأوصله إليه.

١٧ ـ جدٌّ : الجدّ ضد الهزل.

١٨ ـ يشوبه : الشوب ما اختلط بغيره من الأشياء.

١٩ ـ اعتصم : اعتصم بالشيء أمسكه بيده واعتصم بالله: امتنع بلطفه من المعصية.

٢٠ ـ فجائع : رزايا جمع رزيئة أو رزية وهي المصيبة العظيمة.

٢١ ـ حذّره : خوّفه نبّهه وحرَّزه.

٢٢ ـ صولة الدهر : الصولة: السطوة في الحرب وغيره. صولة الدهر: سطوة الدهر.

٢٣ ـ فحش : القبيح من القول والفعل.

٢٤ ـ مثواك : مقامك بعد الموت في القبر.

٢٥ ـ الخطاب : ما يكلّم به الرجل صاحبه ونقيضه الجواب.

٢٦ ـ أمسك : أمسك عن الأمر كف عنه وامتنع.

٢٧ ـ الأهوال : هال يهول هولاً: هال الأمر فلاناً أفزعه وعظُم عليه والهول جمع أهوال وهؤول: المخافة من الأمر.

٢٨ ـ باين : بان بَيْناً وبُيُوناً وبَيْنونَة عنه انقطع عنه وفارقه. باينه: هاجره.

٢٩ ـ الجهد : الجُهْد والجَّهْد والمجهود الطاقة والاستطاعة يقال: بذل جهده ومجهوده أي طاقته.

٣٠ ـ خض : خاض خوضاً وخياضاً. الماء: دخله وخاض الغمرات: اقتحمها يقال: إنه يخوض المنايا أي يلقي نفسه في المهالك وهو يخوض الليل أي يخبط فيه غير مكترث.

٣١ ـ الغمرات : غمار وغمر جمع غمرة: الشدة. غمرة الشيء شدته بالأهوال يقال: غمرات الموت: مكارهه وشدائده.

٣٢ ـ الخلق	:	الخَلْق والخُلُق: المروءة، العادة، السجية، الطَّبْع.
٣٣ ـ الكهف	:	الملجأ.
٣٤ ـ الحريز	:	الحرز الموضع الحصين.
٣٥ ـ بادرت	:	بدر بدوراً إلى الشيء: أسرع بادرت: أسرعت.
٣٦ ـ الخصال	:	جمع خَصْلَة: الخلّة الفضيلة.
٣٧ ـ أجلي	:	الأجل جمع آجال غاية الوقت، وقت الموت.
٣٨ ـ الحدث	:	الحدث جمعه أحداث وحَدْثان: الشاب، قلب الحدث أي قلب الشاب.
٣٩ ـ لُبّك	:	اللُّب جمعه ألباب وألُبّ وألْبُب خالص كل شيء، العقل الخالص من الشوائب.
٤٠ ـ الكدر	:	نقيض الصافي.
٤١ ـ عناني	:	عنى وعَنايَةً وعِنَايَةً وعُنيًّا الأمر فلانا: شغله وأهمَّه.
٤٢ ـ أَجَاوِزُ	:	تجاوز المكان: جازه وتخطَّاه واجتاز سلك وجاوز المكان تعدّاه.
٤٣ ـ الهلكة	:	الهلك واحده الهلكة، الشيء الذي يهوي ويسقط والتهلكة كل ما عاقبته إلى الهلاك.
٤٤ ـ الرشد	:	الاستقامة على طريق الحق: ضدّ الغي.
٤٥ ـ القصد	:	استقامة الطريق يقال: طريق قصد أي مستقيم ويقال إنه على قصد أي على رشد وعلى الله قصد السبيل أي بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق.
٤٦ ـ ردَّهم	:	صرفهم وأرجعهم.
٤٧ ـ الإمساك	:	الكف والامتناع.
٤٨ ـ أَبَتْ	:	أي الامتناع. أبيت الشيء أباة، الإباء: أن تعرض على الرجل الشيء فيأبى قبوله.
٤٩ ـ تورَّط الشبهات	:	يقال تورّطت الماشية وقعت في موحل أو في مكان لا تتخلَّص منه وتورّط الرجل وقع في الورطة أو في أمر مشكل والشبهات كل أمر يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام.
٥٠ ـ عُلِق	:	تعلق الشوك بالثوب: عَلِق وعلق الوحش أو الظبي بالحبالة أي وقع فيها وأمسكته وعلق الشيء بالشيء وبه نشب فيه واستمسك به.
٥١ ـ الخصومات	:	خاصم وخِصاماً ومخاصمة نازعه وجادله.
٥٢ ـ الضلالة	:	الهلاك.
٥٣ ـ خشع	:	خشوعاً له تطأمن وذلّ وخضع.
٥٤ ـ الإمساك	:	الكفّ والامتناع.

٥٥ ـ النعماء : التمتع والتنعم.
٥٦ ـ ينبيء : يخبر.
٥٧ ـ يضاده : الضدّ أي النظير يقال: لا ضدَّ له أي لا نظير له ولا مثيل له ولا يخالفه أحد.
٥٨ ـ العجز : عجز عن كذا أي لم يقتدر عليه.
٥٩ ـ الرهبة : الخوف.
٦٠ ـ الخشية : الخوف والإتقاء خشي الله خافه واتقاه.
٦١ ـ السّخط : الغضب والشفقة من سخطه أي من غضبه.
٦٢ ـ انبأتك : أخبرتك وأعلمتك.
٦٣ ـ أُعِدَّ : يقال: أعدَّه لأمره هيَّأه له وأحضره.
٦٤ ـ خَبَرَ : خَبَرَ الدنيا علمها بحقيقتها وكنهها.
٦٥ ـ جديب : أجدب المكان انقطع عنه المطر فيبست أرضه.
٦٦ ـ المريع : جمعه أمراع وأمرُع: خصيب يقال: مريع الجناب أي كثير الخير.
٦٧ ـ الميزان : جمعه موازين آلة يوزن بها الشيء ويعرف مقداره.
٦٨ ـ استقبح : استقبح الشيء: ضد استحسنه.
٦٩ ـ الألباب : آفة الألباب: آفة العقول الخالصة.
٧٠ ـ أسع : أسع في الأمر أي اهتم بتحصيله.
٧١ ـ القصد : استقامة الطريق يعني إذا أنت اهتديت إلى الطريق المستقيم الذي يوصلك إلى الحق فكن أخشع وأخضع وأكثر تضرعاً لربك.
٧٢ ـ الخشوع : الخضوع التضرع.
٧٣ ـ كدح : كدح كدحاً في العمل جهد نفسه فيه وكدَّ حتى يؤثر فيها وكدح لعياله أي كسب.
٧٤ ـ المشقَّة : الصعوبة والمحنة والعناء.
٧٥ ـ قدَّر : قدَّر الشيء بالشيء جعله على مقداره وقدَّر الرجل فكّر في تسوية أمره وتدبيره.
٧٦ ـ الزاد : ما يتخذ من الطعام للسفر.
٧٧ ـ الطاقة : القدرة على الشيء يقال: لا تحملنا ما لا طاقة لنا به أي ما يصعب علينا حمله.
٧٨ ـ الثقل : ضد الخفّة والثقل جمعه أثقال: الحمل الثقيل.
٧٩ ـ الوبال : الشدة الوخامة سوء العاقبة.
٨٠ ـ الفاقة : من أهل الفاقة من أهل الفقر والحاجة.
٨١ ـ يوافيك : أوفى فلاناً حقّه أعطاه إيّاه تاماً.

٨٢ ـ اغتنمه : غنم غنماً الشيء: فاز به وناله بلا بدل، واغتنم واستغنم الشيء عدّه غنيمة.

٨٣ ـ اسقرضك : استقرض منه: طلب منه القرض والقرْض والقِرْض جمع قروض ما سلّفت من إحسان أو إساءة: ما تعطيه غيرك من المال شرط أن يعيده لك بعد أجل معلوم.

٨٤ ـ عقبة : جمعه عقاب وعقبات: المرقى الصعب من الجبال. عقبة كؤود أي شاقة المصعد صعبة المرتقى.

٨٥ ـ الثقل : الثقل جمع أثقال الحمل الثقيل.

٨٦ ـ المبطىء : أبطأ ضد أسرع.

٨٧ ـ مهبطك : المهبط: موضع الهبوط.

٨٨ ـ لا محالة : لا محالة يعني لا بدّ ولا حيلة يعني أمر مؤكد لا مفرّ منه.

٨٩ ـ ووطِّيء : وطَّأ الشيء: هيَّأه وسهّله ومهّده.

٩٠ ـ منصرف : يقال: انصرف الرجل أي انكفأ ورجع.

٩١ ـ أذن لك : أذِن له في الشيء أباحه له أجازه فهو مأذون.

٩٢ ـ تكفّل : تكفّل لك الإجابة ضمنها لك أي التزمها وألزم نفسه بها.

٩٣ ـ لم يعيِّرك : العار: العيب كل ما يعيّر به الإنسان من قول أو فعل.

٩٤ ـ لم يفضحك : لم يكشف مساوئك.

٩٥ ـ لم يشدد عليك : لم يضيِّق عليك.

٩٦ ـ الجريمة : الجرم والذنب.

٩٧ ـ لم يؤيسك : لم يقنطك ولم يقطع أملك ورجاءك.

٩٨ ـ المثاب : فتح لك باب المثاب أي باب الجزاء على الأعمال.

٩٩ ـ الاستعتاب : استعتبه: طلب منه العتبى أي استرضاه يقال: أعطاه العتبى أي أرضاه.

١٠٠ ـ ناديته : فإذا ناديته فإذا دعوته. النداء، الدعاء.

١٠١ ـ بَثَثْتَه : بثَّ وباثَّ وأباثَّ فلاناً الخبر أطلعه عليه وأخبره به كاشفه به.

١٠٢ ـ شكوت : شكا أمره إلى الله أي أظهره له.

١٠٣ ـ يقنِّطَك : القنوط: اليأس لا ييئسك.

١٠٤ ـ العطيّة : ما يعطى.

١٠٥ ـ أجزل : أجزل العطاء أوسع وأكثر العطاء.

١٠٦ ـ مدركه : أدرك الشيء لحقه.

١٠٧ ـ حذر : فكن في الموت على حذر أي تحرّز منه.

١٠٨ ـ يحول : حال حيلولة بينهما حجز واعترض والحوال كل ما حجز بين شيئين يحول بينك وبين كذا أي يحجز بينك وبينه.
١٠٩ ـ هجم عليه : هجوماً انتهى إليه بغتة على غفلة منه أو دخل بغير إذن.
١١٠ ـ تفضي : أفضى الرجل أي افتقر أي ما تفتقر بعد الموت إليه. ويقال: أفضى به إلى كذا: بلغ وانتهى به إليه.
١١١ ـ أزرك : الأزر: الظهر يقال: شدَّ به أزره أي ظهره. والأزر: القوَّة.
١١٢ ـ بغتة : فجأة. يقال: لست آمن من بغتات العدو أي من فجأته.
١١٣ ـ تغتر : أي لا تنخدع ولا تغفل.
١١٤ ـ نبأ : أخبر وأعلم.
١١٥ ـ نَعَتْ : أخبرت وأظهرت. ونَعَتَ: وصف.
١١٦ ـ يقهر : يغلب.
١١٧ ـ مهملة : أهمل، ترك وهملت الإبل تركت سدى أي مسيَّبة ليلاً ونهاراً ترعى بلا راع.
١١٨ ـ أضلّت : الضلال ضد الهدى أضلّت أي أضاعت.
١١٩ ـ ركبت : ركب فلان رأسه مضى على وجهه بغير رويَّة.
١٢٠ ـ رويداً : يقال ساروا سيراً رويداً وساروا رويداً أي برفق وتوءَدة.
١٢١ ـ بلغ : وصل وبلغ الشيء أي وصل إليه والبلاغ الوصول إلى الشيء المطلوب.
١٢٢ ـ تعدو : تعدّى الشيء جاوزه، تعدو تتجاوز.
١٢٣ ـ أجلك : الأجل وقت الموت وغاية الوقت.
١٢٤ ـ سبيل : السبيل الطريق أو ما وضح منها.
١٢٥ ـ أَجْمِل : يقال: أجمل في الطلب أي اعتدل ولا تفرّط وأجمل في العمل أي أحسن وفي الكلام تلطّف.
١٢٦ ـ جرَّ : إلى حرب قاد إلى حرب.
١٢٧ ـ مجْمِل : معتدل غير مفرِّط.
١٢٨ ـ محروم : المحروم الممنوع عن الخير.
١٢٩ ـ ساقتك : يقال: ساق الماشية أي حثها على السَّير من خلف.
١٣٠ ـ الرغائب : الأمر المرغوب فيه: العطاء الكثير.
١٣١ ـ تعتاض : لن تعتاض أي لن تأخذ ولن تحصل على الخَلَف والبَدَل.
١٣٢ ـ تبذل : تعطي تجود، والبذل العطاء والكرم.
١٣٣ ـ عوضاً : بدلاً وخَلَفاً.
١٣٤ ـ المطايا : جمع مطيَّة الدابة التي تركب.

١٣٥ ـ تورَّدك	:	تورَّده واستورد، أحضره المورد وتورُّدك تحضرك وتدنيك وتبلغك.
١٣٦ ـ مناهل	:	جمع منهل: المورد مناهل موارد.
١٣٧ ـ الهلكة	:	الهلك الواحدة هلكة الشيء الذي يهوي ويسقط والتهلكة: كل ما عاقبته إلى الهلاك والمهلكة موضع الهلاك.
١٣٨ ـ قسمك	:	القِسم: الجزء من الشيء المقسوم: قِسْمِكَ نصيبك.
١٣٩ ـ سهمك	:	السَّهم: النصيب.
١٤٠ ـ الوعاء	:	يقال: أوعى الزاد جعله في الوعاء والوعاء ما يوعى فيه الشيء أي يجمع ويحفظ.
١٤١ ـ المرارة	:	مرَّ مرارة أي صار مراً.
١٤٢ ـ اليأس	:	اليأس واليئاسة، القنوط نقيض الرجاء.
١٤٣ ـ العفَّة	:	ترك الشهوات من كل شيء. وغلب في حفظ الفرج مما لا يحلّ.
١٤٤ ـ الفجور	:	فجر فجوراً عن الحق أي عدل عن الحق، كذب وأصله الميل عن الصدق والقصد، ركب المعاصي.
١٤٥ ـ ساع	:	الساعي الرسول الذي يرسل من مكان إلى آخر في حاجة.
١٤٦ ـ باين	:	بان انقطع وفارق وباينه هاجره باين أهل الشر انقطع عنهم وفارقهم واهجرهم.
١٤٧ ـ أفحش	:	فعل الفحشاء والفحش القبيح من القول أو الفعل.
١٤٨ ـ الرفق	:	لين الجانب واللطف.
١٤٩ ـ الداء	:	المرض والعلة.
١٥٠ ـ بضائع	:	هي من المال ما أعدّ للتجارة.
١٥١ ـ التجارب	:	التجربة الاختبار والامتحان.
١٥٢ ـ بادر	:	أسرع وعاجل.
١٥٣ ـ الفرصة	:	الوقت المناسب والنهزة: يقال: انتهز الفرصة أي اغتنمها.
١٥٤ ـ الغصَّة	:	ما غصَّ به الإنسان، الحزن الهم.
١٥٥ ـ يؤوب	:	يرجع، آب رجع.
١٥٦ ـ الفساد	:	فسد: ضد صلح، والفساد اللهو واللعب.
١٥٧ ـ الإضاعة	:	ضيّع الشيء، أهمله، أهلكه، فقده.
١٥٨ ـ مخاطر	:	خاطر مخاطرة بنفسه عرضها للخطر.
١٥٩ ـ أنمى	:	نمى، زاد وكثر.
١٦٠ ـ معين	:	مساعد.
١٦١ ـ زَلَّ	:	أزلَّ إليه نعمة أي أسداها وأعطاها وأزلَّ إليه من حقّه شيئاً، أي أعطاه.

١٦٢ ـ تجمح : يقال: جمح الفرس أي تغلّب على راكبه وذهب به لا ينثني، استعصى ويقال: جمح الرجل إذا ركب هواه.

١٦٣ ـ المطيّة : الدابة التي تركب.

١٦٤ ـ اللّجاج : العناد في الخصومة والتمادي في العناد إلى الفعل المزجور عنه.

١٦٥ ـ الصلة : ضد القطيعة.

١٦٦ ـ الدّنو : الاقتراب دنا منه وإليه قرُب فهو دانٍ.

١٦٧ ـ الجرم : الذنب والخطأ.

١٦٨ ـ أمحض : امحض أخاك النصيحة أي النصيحة الخالصة لا غش فيها.

١٦٩ ـ تجرّع : تجرّع الغيظ أي كظمه.

١٧٠ ـ لِنْ : لان، ضد خشُن: وضد صَلُب يقال: لاينه أي لان له ولاطفه.

١٧١ ـ القطيعة : الهجران.

١٧٢ ـ بدا : بدا له في أمر: خطر له فيه رأي.

١٧٣ ـ تضيّعنّ : ضيّع: أهمل، أهلك، أفقد.

١٧٤ ـ القطيعة : الهجران.

١٧٥ ـ الخضوع : التواضع.

١٧٦ ـ الجفاء : يقال: جفا صاحبه أي أعرض عنه ضد واصله وآنسه.

١٧٧ ـ جزعت : وجَزِعَ منه: لم يصبر عليه فأظهر الحزن أو الكدر.

١٧٨ ـ الإيلام : آلمه إيلاماً: أوجعه.

١٧٩ ـ واردات الهموم : طوارق الأحزان.

١٨٠ ـ العزائم : العزم، الثبات والشدة، العزائم: الإرادة المؤكدة.

١٨١ ـ العناء : النَّصَب والتَّعَب.

١٨٢ ـ تعدَّى : الحق جاوزه وتجاوزه.

١٨٣ ـ أوثق : أشد وأحكم وأقوى.

١٨٤ ـ العورة : كل شيء يستره الإنسان من أعضائه أنفة وحياء.

١٨٥ ـ الفرصة : الوقت المناسب.

١٨٦ ـ القصد : استقامة الطريق يقال: وعلى الله قصد السبيل أي بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق.

١٨٧ ـ الرشد : يقال: رشِدَ رَشَداً: أي اهتدى واستقام، والرشد الاستقامة على طريق الحق.

١٨٨ ـ أمِنَ : وثق به وأركن إليه واطمأن.

١٨٩ ـ خَانَه : خانه في كذا أي ائتمن فلم ينصح.

١٩٠ ـ أعظَمَهُ : عظَّمه: فخّمه وكبّره وبجّله، وأعظم الشيء صيَّره عظيماً.

١٩١ ـ أهانه	:	استخفّ به ذلّه وحقّره.
١٩٢ ـ المشاورة	:	شاوره في الأمر طلب منه المشورة.
١٩٣ ـ رأيهنّ	:	الرأي ما اعتقده الإنسان وارتآه.
١٩٤ ـ عزمهن	:	العزم الثبات والشدة في ما يعزم عليه الإنسان.
١٩٥ ـ اكفف	:	يقال: تكافّ القوم تحاجزوا اكفف احجز وامنع.
١٩٦ ـ ريحانة	:	الريحان جمعه رياحين كل نبات طيّب الرائحة، الريحانة: طاقة الريحان.
١٩٧ ـ تعدُ	:	تتجاوز وتترك.
١٩٨ ـ السَّقم	:	المرض.
١٩٩ ـ الرِيَبَ	:	الريبة والرَّيْب: الظن والشك والتهمة.
٢٠٠ ـ الخدم	:	يقال قوم مخدَّمون أي كثيروا الخدم والحشم، والخدم: العبيد.
٢٠١ ـ أخذته به	:	أخذه بذنبه مؤاخذة أي عاقبه.
٢٠٢ ـ أحرى	:	الأولى والأجدر والأخلق.
٢٠٣ ـ تواكل	:	تواكل القوم اتكل بعضهم على بعض تواكلوه أي لم يعينوه وتركوه.
٢٠٤ ـ تصول	:	الصولة: السطوة والوثبة أي تسطو بها وتثب وتقْهِر.

الشرح

(من الوالد الفان، المقرّ للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر، الذامّ للدنيا، الساكن مساكن الموتى، والظاعن عنها غداً) هذه وصية أمير المؤمنين (ع) الذي خبر الحياة ووقف على أسرارها وذاق حلوها ومرّها وعاش آلامها ومصائبها وجاهد باطلها في زمن النبي كما جالد انحرافها بعده، عاش في ظلال النبوة الرحيمة ورشف من معينها وغاص إلى عمق الأمور وبواطنها وحلّل أسرارها وألغازها؛ إنه وقف على هذه الحياة وقفة العملاق ينظر إلى خصمه القزم فيترفع عن أن يمدّ يده إليه، وتأبى كبرياؤه أن تتصاغر إلى مستواه؛ ووقف من علوّ بترفّع نفس وإباء همة ينظر إلى هذه الحياة ويقرأ معالمها، ينظر إلى رجالها... إلى الاستقامة والعدل، إلى الاعوجاج والانحراف... إلى المبادىء والمُثلُ... إلى الضعة والسفالة... إلى المجاهدين الصابرين، وإلى الكسالى الخانعين... وقف عند كل منعطف يدرس ظواهره كما يدرس بواطنه ويستخلص العبر والحكم كي يقدمها خلاصة مملوءة بالتجارب النافعة والوصايا الناجعة إلى البشرية كلها... القريب والبعيد... المسلم وغير المسلم...

من الوالد الفان: الوالد بعطفه وحنانه، برقته وشفقته، بكل ما يحمل هذا الاسم

من المضمون والعمق من الرعاية للأبناء والمحافظة عليهم والحيطة لهم، من الوالد الذي يذوب من أجل أبنائه ويستعذب مرّ الحياة وعلقمها من أجلهم، من الأبوّة التي ينساب منها رحيق العطاء ولا تعرف الكلل ولا الملل، من الأبوّة لا من غيرها كي تتقرر في ذهن الولد أهمية الوصية وعظمتها، كي يدرس الولد مضمونها ويقف عند كل كلمة فيكرر قراءتها، ويتمعّن بمدلولها ويعمل بنصها لأنها خرجت من قلب رحيم به يتمنى له الفوز والنجاة. . .

من الوالد الفان: الوالد الذي كُتب عليه الفناء لأنه مصداق يدخل في قوله تعالى: **﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾**، تقريراً للنفس واعترافاً بهذا المصير. . . الفناء الذي لا بد أن يمر على هذا الإنسان بعد أن يقطع شوط الحياة بحلوه ومره، بطاعته لله أو بعصيانه له.

المقر للزمان: هذا الزمان الذي عاند الحق وأهله، الذي نحّى علياً من خلافة المسلمين ربع قرن من الزمن وحوّل مدة خلافته إلى حروب طاحنة دارت بين الحق والباطل، هذا هو الزمن الذي استطاع أن يقتص من علي جزاء استقامته وعدله بضربة سيف من يد شقي أصابت غرته الشريفة، هذا الزمن في حالة حرب مع علي، وعلي يعترف لهذا الزمان، يعترف له في أيامه القليلة، وسيكون اعترافاً عليه عندما يقف ليشهد بالحق والاستقامة والمبدئية الرسالية الفذة. . .

المدبر العمر: حيث إن الإنسان من أول يوم يوضع فيه على الأرض يبدأ في هدم عمره، وكلما تقدم به العمر تقدم نحو الآخرة وأدبر عمره الذي كُتب له أن يعيشه، ومن كان عمره ينقص ويدبر يجب أن يكون على أهبة الاستعداد لنتائج هذا العمر وما يقدمه فيه. . .

المستسلم للدهر: فإن من فاتته الحيلة في التغلب على خصمه وكان هذا الخصم قاهراً لسائر الناس آتياً على كل أحلامهم وآمالهم يحق له الاستسلام وليس الإقرار فقط. . . بل الاستسلام له كي يفعل ما يريد.

الذامّ للدنيا: وهل هناك إنسان وقف على الدنيا كما وقف عليها علي، وهل هناك إنسان ذمها كما ذمّها علي؟ إنه الكبير الذي خاطبها بما تستحق وتعامل معها كما يحق لها أن تُعامل ووصفها بحقيقتها التي تكشفت له عن خبرة وممارسة. . .

الساكن مساكن الموتى: فإنه على هذه الأرض قد مرت أجيال وأجيال سجلها التاريخ وذكر تاريخها وأيامها وسِلْمها وحربها وما جرى عليها وما حدث فيها، هذه الدار

كان يسكنها الأجداد والآباء ومن قبلهم أجدادهم وآباؤهم وكل تلك الوجوه قد ارتحلت ولم يبق منهم إلا الآثار والأخبار، تُروى عنهم المآثر والمكارم كما تُروى النقائص والمثالب. . . إن هذه الدار قد سكنها قبلي قوم ماتوا وارتحلوا فكيف يكون حالي وأنا أتنقل بين تلك الأطلال والآثار وهل يروق للساكن مساكنهم وهو يرى آياتهم وآثارهم أن ينشرح أو يفرح!! إنه يتصوّر حاله عن قريب وقد ارتحل. فلم يبق عليه إلا أن يحسّن سلوكه ويستعد. . .

والظاعن عنها غداً: غداً في حساب العمر الذي انقضى شطره الكبير، وفي حساب المعتبر الخبير الذي سلك مسالك الموتى وسكن مساكنهم ولم يختلف عنهم بأمر واحد بل هو مثلهم يعترضه الهرم ويقطع أمنيته الموت كما اعترضهم الهرم وقطع أمنيتهم الموت، هي السنون!! ما أسرعها في العمر!! بالأمس كنا أطفالاً نسبح في أحلامنا وآمالنا، واليوم انكفأنا على أنفسنا وأخذتنا العِبرة بأننا على أهبة الاستعداد لسفر طويل، إنه الغد ينتظر منادياً بالرحيل، فلا بد من الاستعداد له.

(إلى المولود المؤمِّل ما لا يُدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام ورهينة الأيام، ورميّة المصائب، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونُصُبِ الآفات، وصريع الشهوات، وخليفة الأموات) إنها أربع عشرة صفة متلاحقة تنصبّ كلها على هذا الصغير وترافقه في مسيرة حياته، إنك تقرأها في صور متعددة من هذا الإنسان، إنه يأمل أن يعيش عمراً مديداً ويأمل أن يثري ويغني ويأمل أن يعمّر ويبني ويأمل أن يرتفع نجمه ويعلو صيته، ويأمل ويحلم ويتمنى أن تتحقق هذه الأحلام والآمال ولكن دون تحقيقها عقبات ومعوقات ودون الوصول إليها خنادق وبحار وصحارى وقفار، لا يكاد يقطع مفازة إلا ويتيه في أخرى أوسع منها، ولا يكاد يسبح في بحر حتى يغوص في محيط لا يدرك نهايته إلا الله، لا تكاد تتحقق لديه أمنية إلا وتراءت أمام عينيه أمنيات عديدة لا يزال عاجزاً عن تحقيقها، إنه يأمل ما لا يُدرك من طول العمر وكثرة المال وعلوّ الجاه والسلطان.

إن هذا الإنسان هو نفسه الذي يتحرك اليوم، سواء كنت أنت أم أنا أم غيرنا من الأحياء، إننا جميعاً نسعى كما سعى الأولون من آبائنا وأجدادنا. . . على الطريق نفسها وفي الاتجاه ذاته. إن كل يومٍ نقطعه هو يوم يقرّبنا نحو الآخرة ويبعدنا عن الدنيا، كل يوم يمضي يهدم عمرنا وينقصه ويدنينا من عالم آخر من عوالم الآخرة. . . إننا على السبيل عينه الذي مضى عليه الأولون من أهلنا ولا بد من أن نصل إليه، فما أحسن أن يلتفت

الإنسان إلى هذا المصير ويُعدَّ له عدته التي يرتفع بها عن الذل والهوان فيلتحق بركب الصالحين من الأنبياء. . .

هذا الإنسان هدف للنوائب، فترى النكبات تنصبّ عليه من كل جانب، إنك تراه فاقداً لعزيز من أخ أو أب أو ابن، أو مفجوعاً بقريب أو صاحب أو خليل، إنه مرهون بعوامل الأيام وما يجري فيها ويمر عليها، فإذا أدبرت أزعجت وإذا فاتت أماتت.

إن هذا الإنسان عبد للدنيا يؤثرها على الآخرة ويتعامل معها وكأنها هي الخالدة والباقية، يقر لمن فيها من الطواغيت والجبابرة بحق الوجود كما يقر للظلم والجور أن يستشري ويستفحل ويستمر أمره. . . العجب كل العجب لهذا الإنسان الذي يسمى حراً وهو من أشد الناس عبوديةً لغير الله، إنه يميل مع هواه ويخضع لمن أحب ويذل نفسه لمن هو أقوى منه، هذا الإنسان يجب أن يتحرر من كل العبوديات الأرضية وينبذ كل الآلهة المصطنعة ويكون عندما يقول لا إله إلا الله. مدركاً لمدلولها ومفهومها، يعيش بعمقها وسعتها، يجب أن يقول لا إله في الكون. . . ليس الشهوة إله، ولا الغريزة إله، ولا الجاه إله، ولا العشيرة إله، ولا المال إله، ولا شيء من متاع الدنيا بإله. . . إنما الله هو الإله، الله وحده لا شريك له هو الذي يستحق العبادة وهو وحده الذي يستحق التوحيد. . . وهو وحده مالك الأمر والنهي، ومتى تعبّد الإنسان لله تحرر من كل هذه العبوديات. . . وانطلق في رحاب الله يحقق إرادته وينفذ أمره ونهيه ويعمل وفق تشريعه وحكمه، وما أروع أن يكون الإنسان عبداً لله يعيش معه ويدرك لذة هذه العبودية التي ترادف تحرر هذا الإنسان من كل العبوديات الأخرى. . .

ويصف الإمام هذا الإنسان بتاجر الغرور لأنه يظن الربح في هذه الحركات والأعمال التي تصدر منه، فهو يعمل من أجل أن يترفّه ويتنعّم، يعمل وكأنه يخلد في الدنيا ناسياً أنه غريم المنايا ومطلوبها، والغريم لا بد وأن يُدّرك خصوصاً إذا كان من يطلبه له موعد وقدرة في الوصول إليه. . . إن هذا الإنسان مطلوب وطالبه قادر على الوصول إليه فكيف ينسى ولا يعدّ لذلك اليوم عدته. . . وكيف لا يستعدّ وهو أسير الموت الذي لا يستطيع الخلاص أو الهروب منه. . .

ثم إن الإمام يصف هذا الإنسان بأنه حليف الهموم، وما أروعه من وصف ينطبق على كل إنسان منا لنرجع إلى أنفسنا لننظر هل استطعنا أن نتخلى عن هذه الهموم وهل استطعنا أن نطردها من بيننا؟! إن كل إنسان يُهمُّه قوته وتُهمه معيشته، يهمه منصبه وجاهه، يهمه ماله وأولاده، أكبر همه دنياه إن كان من أبناء الدنيا، وهم أشد الناس هموماً، أو آخرته ويجب أن تأخذ من المؤمن هماً أوسع من جميع الهموم. . .

ثم إن هذا الإنسان، قرين الأحزان، فمن يومه الأول الذي يرى فيه الحياة، يصرخ ويبكي، ويستمر في الحزن والبكاء في أعماق نفسه حتى ولو استطاع أن يبسم ثغره وتضحك شفتاه. . . لأنه نصب للآفات وصريع الشهوات وخليفة الأموات على حد قول الإمام، ومن كان يمثل هذه الأوصاف حق له أن تدمع عيناه دماً، ويذوب قلبه ألماً، خشيةً من عذاب الله ونقمته وشوقاً إلى رحمة الله وجنته.

(أما بعد فإنَّ فيما بيّنت من إدبار الدنيا عني وجموح الدهر عليّ وإقبال الآخرة إليّ ما يزعني عن ذكر من سواي والاهتمام بما ورائي، غير أني حيث تفرَّدَ بي دون هموم الناس همّ نفسي، فصدفني رأيي وصرفني عن هواي، وصرّح لي محضُ أمري فأفضى بي إلى جدٍّ لا يكون فيه لعب، وصدقٍ لا يشوبه كذب، ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت) إني أشعر من خلال هذه الكلمات عمق الجراح التي يشعر بها الإمام وعظيم المأساة التي تختلج بين جوانحه، أشعر بالأسى والمرارة يملآن ذلك القلب الكبير الذي وسع الأحداث والآلام والمحن والمصائب. . . إنني أحس بوقع هذه الكلمات التي تخرج وفي كل واحدة منها مضاضة وألم وجرح غائر لا يدرك مداه إلا الله وعلي نفسه. . .

إدبار الدنيا عني وجموح الدهر علي، كلمات ينطوي فيها تاريخ النضال والكفاح ويظهر من خلالها كِبَرُ المعاناة وشدة هول الأحداث. . . بحيث قد انزوت الدنيا وأعطت ظهرها لذلك المجاهد الذي عن يديه صدر طعمها ومعناها، الدنيا بزخارفها قد تنكّبت عن علي وتنكرت له. والدهر العنيد قد استعصى عليه وتغلّب على تطلعاته وآماله. . .

ومن نكد الدهر أن يرتفع نجم الصعاليك كمعاوية وتخبو نجوم العظماء كعلي بحيث يسوي بينهما الدهر ويقرن بين علي ومعاوية. . . من هوان الدنيا على الله وحقارتها أن يقرن معاوية بعليٍّ ويقارن بينهما فيقال: علي ومعاوية. . . وهل هناك أشد مرارة وأقسى وقعاً من أن تقارن الثريّا بالثرى والتبر بالتبن والرفيع بالوضيع، وعلي بمعاوية!!.

أيُّ دهر هذا لا يشكوه علي!! يوم نُحي عن الخلافة وتمت مؤامرة السقيفة!! أم يوم تمت بيعة التجار لعثمان ورفضت علياً خليفة!! أم يوم جاءت الخلافة فنكثت طائفة ومرقت أخرى وبغت ثالثة!!! لله أنت يا علي. . . صبرت على شيء أمر من الصبر. . . صبرت على دهر أضحى يقال فيه علي ومعاوية. . . وهل هناك شيء أمرّ من هذا. . .

وعلى كل حال لئن أدبرت الدنيا وجمح الدهر عليك. . . فإن الآخرة بانتظارك،

ولئن جهل مقامك وبقي الناس لا يعرفونك حق معرفتك في الدنيا فإنهم في الآخرة وهي مقبلة سيعرفونك عن كثب، هناك تنكشف أقنعة الهوى ويعرف عليٌّ على حقيقته . . .

والإمام هنا يريد أن يعلمنا كيف أن الإنسان إذا تقدم به العمر يجب أن يلتفت إلى نفسه ويهتم لها فلا تذهب به مذاهب الهوى والكذب بل يجب أن يعد العدة ويستعد ويأخذ حذره في سبيل الوصول إلى الآخرة وهو نظيف طاهر. . . إن الإمام يريد أن يعلمنا وجوب الاهتمام بأنفسنا والحذر عليها من الهوى والسعي في سبيل إعدادها إعداداً كاملاً لملاقاة الله وحسابه. . . وهذا الاستعداد والإعداد لهذه النفس يتطلب أن ينظر من خلاله إلى أولاده. . . فإنهم جزء متمم لسعادته ومكمّل لسروره ونجاته. . . هؤلاء الأولاد هم جزء من الآباء بل بتعبير الإمام: الولد هو كل الوالد، إنه صورة مصغرة عن الأب يحمل هوية الأب وشخصيته، عقيدته ورسالته، هدفه وسلوكه، هو نسخة عن الأب فيجب الاهتمام به والاعتناء بتربيته وجعله عنصراً صالحاً يحب الخير ويسعى في سبيله.

ما أجمل وأروع تعبير الإمام، ما أشرف هذا التعبير الذي كرّرته مرات ومرات ورددته بيني وبين نفسي وبين وبين الناس وعشت معه في أحلام وردية ندية كنت أحس بوقعها في نفسي راحةً وسروراً وأشعر أنها ترنيمة سماوية تشق هذا القلب الصغير لتدخل أعماقه تاركةً أثراً طيباً من آثار الإمام وعبقةً عطرة الشذى: (ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي).

هذا هو منطق الأبوة المسؤولة التي تحمل عواطف البشر وقلوبها وتتفاعل مع هذا الصغير بعطف وحنان ورقة ودعة، تتفاعل مع هذا الصغير لتحسَّ بضغط المرض في بدنها ونفسها، إن ألمّ بهذا المخلوق الصغير ألم أو مرض وتعيش فرحه وسروره في نفسها عندما تحس منه الفرح والسرور. . .

الولد قرة العين وفلذة الكبد وأمل المستقبل ولا يدرك قيمة الكلام العلويّ ومفعوله إلا من أصبح أباً وتحركت عواطف الأبوّة فيه نحو الأبناء. قبل أن يرزق الإنسان ولداً يتصور أن القضية سهلة، مات الولد أو عاش، تألم أو فرح، جاع أو شبع، احتاج أو اغتنى، يتصور أن كل هذه أمور سهلة يجب أن تُطوى ولا تأخذ من اهتمام المرء شيئاً. ولكن هذا التصور يتساقط كله عندما تأتي القضية إلى العالم الخارجي وتبصر النور على مسرح الوجود عندئذ ترى الآباء يختلفون في حساباتهم وعواطفهم وميولهم وحركاتهم وكل سلوكياتهم، عندها فقط يخرج الأب ليبحث عن لقمة العيش ورفع الألم وإدخال

السرور على قلوب أولاده وإن كان في ذلك شقاؤه وتعبه وغربته بل موته.

فمن هنا كانت كلمة الإمام: (فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي) كيف اهتم بنفسي وأحافظ عليها وأتمنى لها النجاح والعز، كيف أسعى في سبيل فلاحها وسعادتها! هكذا، وبالاهتمام ذاته اهتم بك واعتني بسعادتك.

(فإني أوصيك بتقوى الله، أي بني ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به؟) هذا هو مطلع الوصية العلوية الذي يجب أن يكون المطلع لكل وصايا الآباء للأبناء، الوصية بتقوى الله الذي لا يعلو إنسان عن الأمر بها... إنها تمثل الخضوع لله في الجوارح والإذعان من داخل الجوانح، إنها رعشة في القلب تجعل هذا الإنسان يهتز من الأعماق في خضوع وتضرع إلى الله باسطاً يديه إلى ربه متفانياً في طاعة الله وخدمة عباده... التقوى!! تمثل منتهى الغايات التي يطمح إليها الإنسان ومن أجلها كانت كل تكاليف الله من طهارة وصيام وصلاة وغيرها لأن كل هذه الواجبات تخلق من هذا الإنسان عضواً منضبطاً ضمن الخط الإلهي لا يخرج عنه ولا يدخل في غيره، كل هذه التكاليف تبني الشخصية الملتزمة بالإسلام فكراً وعملاً وسلوكاً، عقيدة وطريقة حياة... فالتقوى تمثل الدرجة العليا من الالتزام والخضوع لأنها تتخذ طابع الانقياد المطلق الصادر من القلب والضمير والوجدان...

ثم إنه عليه السلام أمره بملازمة أمر الله وعمارة قلبه بذكره والاعتصام بحبله وهذا الاعتصام بحبل الله هو أوثق الأسباب وأشرفها وأضمنها لنجاح الإنسان وفوزه في الحياة الدنيا والآخرة...

(أَحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلله بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام) أحي قلبك بالموعظة: فيما يمر أمامك من مشاهد الحياة وصورها فإذا أبصرت مبتلى فاعتبر بابتلائه وافرض نفسك مكانه وخذ العبرة والحكمة منه، وإذا رأيت غنياً قد افتقر أو فقيراً اغتنى فخذ أيضاً منه العبرة وأدر بصرك فيما حولك فإنها كلها مواعظ وعبر، وإذا قرأت سيرة الصالحين ومناقب الشرفاء فاقتد بهم وسر على دربهم النير الرباني وهكذا دواليك، إقرأ الأحداث والناس وخذ من كل منها الموعظة والعبرة التي تحيي قلبك.

وأمته بالزهادة: فَإن الزهد عبارة عن اختصار الكثير من الملذات والكماليات بل

الضروريات من أجل الفقراء والمساكين وأهل العوز والمحتاجين. وفي هذا الأسلوب من الترفع عن الذات والإنكار للملذات مايطامن من شهوة الإنسان بل يميت جمحات الأهواء وميولها الشريرة الخبيثة، فإن من عاش مع الفقير واليتيم والمحتاج والمسكين ويشعر معهم بقلبه وضميره بادر إلى قهر الذات من أجلهم وإماتة الكثير من الشهوات في سبيل راحتهم وسعادتهم. . .

وقوه باليقين: لأنه يجعل للإنسان قوة واطمئناناً ويخلق منه عضواً مستسلماً لله في كل حركاته وسكناته، يندفع نحو هدفه وهو على بصيرة من أمره دون شك أو تردد لأن من كان على شك أو تردد في عمل لم يفلح فيه ولم ينجح. . .

ونوره بالحكمة: حيث تجعل فيه إشراقة يُطلّ منها نور يضيء جوانب ظلمات القلب، فإن الحكماء قوم عاشوا تجارب الحياة واستخلصوا أسرارها وقدموها للناس صافيةً من كل كدر، فيحسن بمن وقف عليها أن يأخذها بجدٍ ويعمل بها في يقين.

وذلله بذكر الموت: الذي ما ذكره إنسان إلا وتغيرت أحواله، فتبدل نعيمه إلى بؤس، وفرحه إلى ترح، ووجم بعد انشراح، وعبس بعد ابتسام، أو كما يقول الإمام في موقع آخر: «هازم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الأمنيات». إن العاقل عندما يتمثل نفسه جنازة محمولة على أكتاف الرجال وقد انقطع عمله وسكت صوته وانطفأ نور عينيه ولم يعد يسمع وتعطلت جوارحه كلها عن الالتقاط والإرسال، وضج الأهل والأقارب حوله يبكون وتمنوا تعجيل دفنه خوف انتشار رائحته وهتكه. . . إذا نظر الإنسان بعين البصيرة والعبرة إلى هذا المشهد المؤلم وإلى حفرة صغيرة سيحل فيها انخفض رأسه وذلت نفسه وعمل لذلك اليوم العظيم.

وقرره بالفناء: الذي كُتب على كل الناس فإنه إذا أقرّ بذلك حكم عليه بمقتضى إقراره من جهة ووجب أن يعمل لصالح نفسه من جهة أخرى كي يرتفع في عالم الآخرة ويلتقي مع النبيين والصديقين والشهداء. . .

وبصّره فجائع الدنيا: التي لم تكن لتدوم على حال ولا تستقر على منوال، بل كما قال سيد الأوصياء علي: «أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى: فميت يُبكى وآخر يُعزى وصريع مبتلى وعائد يعود وآخر بنفسه يجود وطالب للدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه». . .

تلك هي الدنيا ممتلئة بالفجائع والمصائب، فمن حروب تدمر البشرية وتقضي على الحرث والنسل ومن أمراض فتاكة تأتي على الأخوة والأحبة، ومن لم يصب بأذى؟

وأي بيت لم تدخله التعاسة؟ من الذي لم يفقد حبيباً عزيزاً على قلبه؟ والداً تارةً وولداً أخرى وزوجاً ثم أخاً وهكذا؟ من منا لم يسمع بعزيز قوم ذَلّ، أو غني افتقر أو عالم ارتد، أو جاهل أبى أن يتعلم؟ من منا لم يمر عليه شريط الأحداث وهو ينقل إليه مآسي الزمن ومصائبه؟ من علة في بدنه أو نقص في دينه أو اضمحلال في ثروته أو أذية من أقاربه! إن هذا القلب البشري إذا أدرك أن الدنيا لا تصفو مشاربها، ففي كل مطلع شمس ومغربها فواجع ومصائب بل في كل دقيقة بل ثانية أكثر من مصيبة وفاجعة، يعلم أنه لا بد من الإعداد لتحمل كل ما يطرأ عليه ولا بد من الاستعداد والصبر والاعتصام بالله كي تهون تلك الرزايا ويخف وقع تلك المصائب. . .

وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام: وأي إنسان يستطيع أن يتحمل صولة الدهر إذا تنكب عن هذا الإنسان أو تنمر عليه فإن محاسنه يحولها إلى مساوىء، وفضائله إلى نقائص، وجماله إلى قبح، وأصدقاءه إلى أعداء، يتحول نهاره ليلاً حالك السواد، وماؤه العذب الفرات إلى حميم آسن مستكره، تأتيه الابتلاءات من كل جانب وتزدحم عليه العلل من كل صوب حتى يروح مخاطباً كل نازلة منها كما خاطبها المتنبي بقوله:

أبَنت الدهر عندي كل بنتٍ فكيف وصلت أنت من الزحام

أو بقوله في تصوير المصائب وكثرتها:

فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصال على النصال

(واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا، وأين حلُّوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلوا ديار الغربة) واعرض عليه أخبار الماضين: من الأمم والأشخاص كقوم هود وصالح ويونس وموسى أو فرعون وهامان وقارون والسامري، فإن في مراجعة أحوالهم والوقوف على أخبارهم عبراً لمن اعتبر وموعظة لمن اتعظ، إن في الطغيان الفردي ما يردي الفرد ويقتله، فمن تجاوز حدوده البشرية وادعى الألوهية كما فعل فرعون فإن مصيره كمصيره لا محالة، وكذلك من جمع المال وادعى أنه حصل عليه بما عنده من العلم وتبجح وبطر فلا محالة أن يناله الخسف والضياع كما نال قارون والسائرين على خطاه. . . إن في عرض سجلات الماضين والوقوف على تاريخهم ما يجعل عند المرء رؤية شخصية بتحسين واقعه والارتفاع عن الحضيض إلى التكامل والسمو. . . وكما أن الطغيان الفردي يردي بصاحبه، فكذلك الطغيان الاجتماعي والانحراف العام، فإنه يحيق بالجماعة الانحلال والضياع المؤدي إلى نكبة الطوفان كما

في قوم نوح أو الخسف والوباء كما في أقوام آخرين. . . وإن الله قد أمرنا وحثنا على النظر في أحوال الماضين كي نعتبر بما جرى عليهم وما حاق بهم، قال تعالى: **﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشدَّ منهم قوة﴾**(١) وقال تعالى: **﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(٢).

إن في عرض أخبار الماضين تذكرة لمن ينسى وعبر لمن اعتبر. . . إن الإنسان إذا عاش مع الأولين الماضين في مسيرتهم فنظر في أفعالهم الصالحة فاقتدى بها ونظر في أعمالهم القبيحة فاجتنبها فقد استفاد في حياته الدنيا وفي آخرته، إنه يجتنب مواضع العطب الذي دخل عليهم ويسد النوافذ والأبواب التي دخل منها الفساد والضلال، يجتنب الكفر والانحلال والمفاسد الاجتماعية والأخلاقية ويسير على الخط الإلهي لا ينحرف عنه ولا يتعداه. . .

إن الإنسان العاقل ينظر في أفعالهم ويتبصر كيف انتقلوا عن هذه الدار وحلوا دار القرار. . . إن هذه الأرض التي نسير عليها نحن الآن قد سار عليها قوم قبلنا. . . قد تنقلوا عليها فزرعوا وبنوا وامتلكوا ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها وتركوها لنا وسنرحل نحن أيضاً ونتركها لغيرنا. والعظيم من اتعظ بغيره واعتبر بما جرى عليه وما صار إليه. . . إن أولئك السابقين من الأهل والأجداد كان لهم أحبة فانتقلوا عنهم وكان لهم أموال ففارقوها، وكان لهم كثير كثير ولكنهم تخلوا قهراً عما يحبون، تخلوا عن كل ذلك وحلوا في ديار الغربة. . . وأي غربة أعظم وأفظع من غربة القبر. . .

(وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم: فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف. والخطاب فيما لم تكلف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال، خير من ركوب الأهوال) وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم: رهين الثرى ودفين التراب وما أشرفها موعظة تجعل الإنسان يرجع إلى حقيقته ويقف عند قدره، يتذكر تلك الحفرة الصغيرة التي يستطيع أن يوسعها بأعماله الصالحة ومناقبه الحميدة وإطاعته لله ولرسوله ولأولي الأمر الذين فرض الله طاعتهم، كما يستطيع أن يضيقها أزيد مما هي عليه، ويصغر حجمها أكثر مما هي صغيرة بقبائح

---

(١) سورة فاطر، آية/ ٤٤.
(٢) سورة الروم، آية/ ٥٩.

أعماله وسيئاتها وعصيانه لأوامر الله وتكاليفه. إن المسلم يستطيع بحسن عمله أن يوسع قبره كما في وصية النبي التي يقول فيها: «وإنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يُحشر إلا معك ولا تبعث إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك».

وقد نظم قيس هذا المعنى النبوي بأبيات من الشعر فقال:

تخير خليطاً من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده ... ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضي به الله تشغل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته ... ومن قبله إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل

فاصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك: أصلح مقرك الذي سترحل إليه وهو قبرك بالعمل الصالح والتقوى والورع والخوف من الله وكل السبل التي ترضي الله تعالى، ولا تبع تلك الدار الآخرة التي فيها الاستقرار والدوام بهذه الدار التي لا استقرار فيها ولا ارتياح، هذه الدنيا لا تعادل الآخرة ولا تساويها، فالغبي من غبي مع وجود المنبه والمرشد والناصح والدال على الخير...

وإذا كان الشقي من باع آخرته بدنياه، فهناك من هو أشقى منه وهو الذي باع آخرته بدنيا غيره، إنه غبي في منتهى الغباوة وشقي في منتهى الشقاوة، إنه يقاتل ويقتل في سبيل طاغوت من طواغيت الأرض كي يتربع على كرسي الحكم، إنه يضحي ويبذل دنياه ويخسر آخرته من أجل أن تتحقق الأحلام الفرعونية التي تدفع هذا الرئيس أو ذاك لتسلم عرش السلطة... ماذا جنى هذا الشقي؟ إنه أقدم على بذل نفسه وسفك دمه فخسر الدنيا وخسر الآخرة في سبيل أمجاد زائفة يسعى إليها هذا الجبار أو ذاك... وهل هناك من هو أشد تعاسة وشقاء منه... لا.. لا.. ليس هناك أشقى منه وأتعس... إن الله سبحانه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فهذا هو البيع الحقيقي ومن أجل الله يكون الجهاد الحقيقي... ومن أجل الله يكون بذل النفس والمال... من أجل الله فقط يكون بيع الدنيا بالآخرة، وتلك تجارة لن تبور ولن تخسر، بل نتيجتها الربح فقط والربح الوافر...

ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلف: لأن من تكلم بما لا يعرف فضح

نفسه وأظهر معايبها ودلل على جهله، وكفى بهذا صغاراً واحتقاراً. إن بعض الناس عنده حب الكلام، وحب الحديث، لا يكل ولا يمل وفي كل العلوم على اختلافها وتشعب فروعها تراه يخوض فيها حتى بين أربابها وأهل الاختصاص فيها وهذا ما نراه جلياً في مجالس الفقهاء والعلماء، فترى الغريب أو القريب يطرح مسألته مستفهماً عنها وقبل أن يتكلم العالم بالإجابة ترى بعض الحجاج أو المتفقهين بثلاث أو أربع مسائل يبادر للإجابة كأنه هو المسؤول، إنه يخرج من جرابه الخاص دون مراجعة أهل الخبرة والاطلاع، يجيب خطأ وفساداً بدل أن ينتظر جواب العالم كي يفهم المسألة وحلها. . . إنه يدلل على ضعف نفسه وصغرها وما أحسنه لو صبر حتى يعلم. . .

وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال: وهذا شيء مدرك بالوجدان، ظاهر للعيان، لا يحتاج إلى دليل ولا إلى برهان، فإن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على سراب[1] بقيعة لا تزيده سرعة السير إلا بعداً. وقد أمرنا الأئمة (ع) أن نتوقف عن الكلام في ما لا نعلم ونكف عن الشبهات ونقف عند عدم تبين الطريق ووضوحه.

قال أبو جعفر (ع): الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وتركك حديثاً لم تروه خير من روايتك حديثاً لم تحصه.

وقال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم».

وفي حديث الرضا (ع) في اختلاف الأحاديث: . . . وعليكم بالكف والتثبت والوقوف وأنتم طالبون باحثون حتى يأتيكم البيان من عندنا. . .

(وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله بجهدك، وجاهد في الله حق جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخض الغمرات للحق حيث كان) وأمر بالمعروف تكن من أهله وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم ما جاء به الأنبياء بل دعوتهم كلها توجهت إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإنهم رأوا الفراعنة وأنصاف الآلهة تتربع على كراسي الضلال وتدعي ما ليس لها بحق فكان على الأنبياء أن يقفوا في وجوههم

---

(١) هذه الأحاديث من الوسائل، باب ١٢، من أبواب صفات القاضي.

ويعيدوهم إلى حجمهم الطبيعي، فمن هنا بادر موسى (ع) إلى الوقوف في وجه فرعون عندما ادعى الربوبية، وقال: أنا ربكم الأعلى فحجمه في إطاره، ولما رفض وأبى وأراد أن يفتك بموسى ومن معه من المؤمنين كانت المعجزة التي سقط فيها فرعون غريقاً لم يقدر أن ينقذ نفسه، وكذلك بادر نوح إلى قومه وصالح وثمود وشيخ الأنبياء إبراهيم ولوط ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. . . إنهم كلهم أرادوا أن يردوا هذا الإنسان إلى واقعه الصحيح ومساره السليم، كلهم رأوا المنكرات تعج في المجتمع وتفتك بهذا الجسم، فقاموا بنشر الإصلاح وبث الهداية. . .

الأنبياء هم الطليعة الأولى التي شقت ظلمات الجهل والضلال وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وعلى خطاهم سار المصلحون والمؤمنون وأكد الإسلام على هذه الفريضة وفرضها على المؤمنين فقال في محكم كتابه: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾. وقال تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾. وكذلك جاءت السنة الشريفة لتغرس هذا المفهوم في ذهن الأمة وتؤكد على أهميته ودوره إذ يشكل الرقابة الدائمة من الأمة على نفسها، يجعل من كل فرد مراقباً لكل انحراف أو تصدع فيحاول إصلاحه وعلاجه. . .

- عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع): «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

- عن أبي الحسن الرضا (ع) يقول: «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

- وعن أبي جعفر (ع) قال: «يكون في آخر الزمان قوم ينبع فيهم قوم مراؤون»، إلى أن يقول: «. . . ولو أضرت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، هنالك يتم غضب الله عز وجل عليهم فيعمهم بعقابه فيهلك الأبرار في دار الأشرار والصغار في دار الكبار، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج العلماء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر».

- وعن أبي عبد الله قال: قال النبي - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر».

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟.

فقال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف.

فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟.

قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً ومراتب يجب أن تراعى في هذا الواجب العظيم ونحن نذكرها بإيجاز واختصار حتى يقف عليها المسلم ويرى انطباقها عليه واتصافه بها.

حتى يجب الأمر بالمعروف على الإنسان يجب أن تتوفر فيه شروط:.

الأول: معرفة المعروف والمنكر ولو إجمالاً لأن من لا يعرف المعروف ولا المنكر كيف يأمر بالأول وينهى عن الثاني.

الثاني: احتمال ائتمار المأمور بالمعروف وتأثّره بالأمر والنهي وإلا إذا كان الأمر وعدمه سواء فلا يجب وإذا سقط الوجوب يبقى الجواز.

الثالث: أن يكون المرتكب للمنكر والفاعل له مصراً على المنكر، أما إذا كان المنكر قد صدر منه خطأ أو اضطراراً فلا يجب الإنكار.

الرابع: أن لا يلزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرر في النفس أو العرض أو في المال على الآمر أو على غيره من المسلمين.

وأما مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي:

أولاً: الإنكار بالقلب وهو تعبير عن إظهار كراهة المنكر، ومن هنا قال الإمام أمير المؤمنين (ع): من ترك إنكار المنكر بقلبه ولسانه ويده فهو ميت بين الأحياء، ومن هنا قال أيضاً: أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فانكره بقلبه فقد سلم وبريء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين.

ثانياً: الإنكار باللسان بأن يعظه وينصحه ويوقفه على حقيقة الأمر.

قال أبو جعفر (ع): من مشى إلى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوفه كان له مثل أجر الثقلين الجن والإنس ومثل أعمالهم.

ومنها الحديث المشهور: أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر.

ثالثاً: الإنكار باليد بالضرب الرادع عن المعصية، وهذا هو الحل الأخير الذي لا بد منه وهو في أغلب الأحيان أنجح الحلول وأنجعها، فإن العصاة والفسقة لا يخافون إلا من السوط والسيف، لا يخافون إلا على جلودهم، وهذا قد وردت الأحاديث فيه إذا توقف رفع المنكر عليه...

ففي الحديث عن علي (ع) يقول فيه: «ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين».

وفي الحديث عن رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «من رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه».

هذا هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي دعا الإمام ولده كي يقوم به حتى يكون من أهله، وأهل المعروف في الدنيا كما تصفهم الأحاديث هم أهل المعروف في الآخرة وهم كما عن رسول الله ـ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «أول من يدخل الجنة المعروف وأهله وأول من يرد على الحوض وإن لهم باباً خاصاً من أبواب الجنة يقال له المعروف ولا يدخله إلا أهل المعروف». فيجب أن يخوض الغمرات من أجل الحق فإن في خوضها إحقاقاً للحق فضلاً عن اللذة النفسية التي يحصل عليها الإنسان من خلال إقدامه ومغامرته.

(وتفقه في الدين وعوّد نفسك التصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر في الحق، وألجىء نفسك في أمورك كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز، وأخلص في المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة، وتفهم وصيتي ولا تذهبن عنك صفحاً، فإن خير القول ما نفع. واعلم أنه لا خير في علم لا ينفع، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه) وتفقه في الدين: فإن الدين دستور المسلم وبرنامجه الذي يجب أن يتحرك ضمن خطوطه، فإذا لم يكن المسلم متفهماً له وواعياً لأحكامه، إذا لم يعرفه ولم يدرسه كيف يسير عليه؟ وهل يمكن أن نقول لإنسان لا يعرف الطريق فأخذ يمشي يميناً ويساراً إنه يمشي على الجادة؟ إن أول ما يجب على كل فرد مسلم أن يعرف تكليفه في كل مسألة فإن لله في كل مسألة حكماً، ولا تخلو قضية أو حادثة بدون حكم من الله فيها، فيجب أن تنسجم أعمال الإنسان وتصرفاته مع أحكام الله ومراداته، وهذا لا يتم إلا بالوعي لها. والوقوف عندها، والفهم لكل حكم منها. والدين كما نفهمه وكما فهمه المسلمون وكما هو في واقعه يتناول الحياة بجميع جهاتها العبادية منها

والاقتصادية، السياسية والعسكرية، الاجتماعية والأخلاقية... إنه الإسلام الدين والدولة له في كل قضية وفي كل حادثة حكماً، وقد أكد القرآن والسنة على وجوب التعلم والتفقه فيه.

١ ـ عن أبي عبد الله (ع): طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يحب بُغاة العلم.

٢ ـ عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه منك في الدين فهو أعرابي، إن الله يقول في كتابه: **﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾**.

٣ ـ وعن فضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يُزكِّ له عملاً.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا.

عن أبي عبد الله (ع) قال: قال له رجل: جعلت فداك. رجل عرف هذا الأمر لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه؟ قال: فقال: كيف يتفقه هذا في دينه.

فالتفقه في الدين ومعرفة أحكامه ليست قضية نافلة أو استحباباً شرعياً بل هو واجب على كل إنسان ولا عذر لأحد في هذا الأمر المهم الواجب، ولا يقبل الله قول التاجر الذي لم يتفقه في تجارته ثم يقع في الحرام من جراء معاملة ربوية لا يعرفها أو بيع شيء حرام لا يجوز بيعه. وكذلك غيره من الأشخاص الذين يتقلبون في الحياة ويرتكبون المحرمات دون علم بها... فما أحسن كل واحد منا أن يبدأ من الآن ـ إذا لم يعرف أحكام دينه ـ بتعلمها ووعيها حتى تكون تصرفاته شرعية يرضاها الله ويقبلها منه.

وعود نفسك التصبر على المكروه ونعم الخلق التصبر في الحق: فبالصبر يستطيع الإنسان أن يصل إلى مراده، وبالصبر يستطيع أن يحقق آماله، وبالصبر يستطيع أن يقهر نفسه وينتصر عليها، ويحقق بعدها الانتصار على الآخرين.

نعم الصبر في مفهوم الإسلام وكما يفهمه المسلمون وليس الصبر الذي أراده المستعمرون وحاولوا أن يفسروه بما يخدم مصالحهم ويحفظ لهم منافعهم.

نعم ليس معنى الصبر الاستسلام والخضوع والذل، بل الصبر (هو الحركة الواعية

في طريق الهدف الإسلامي) فهو حركة لا استسلام وواعية لا مضطربة وفي خط الله، وليس في خط الشيطان، فإن المؤمن إنسان صبور لا تتزلزل أقدامه عند الحوادث ولا تضطرب أعصابه عند الأزمات، بل يبقى على اتزانه وهدوئه يقابل الأحداث والمشاكل بعقل وروية، ويفكر في حلولها بصفاء الإيمان وطهره، وهذا المعنى من الصبر هو المراد إسلامياً.

قال تعالى: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾. يعني لا تتوان فيما أوحى إليك بل اتبعه كاملاً واصبر على أدائه ولا تخف من مشقات الطريق وعقباتها بل تابع سيرك واعمل بما أوحي إليك.

ـ وعن أبي عبد الله: إن الحر حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها وإن تداكَّت عليه المصائب لم تكسره وإن أسر وقهر واستبدل باليسر عسراً...

فالصبر جميل ومطلوب خصوصاً إذا كان الإنسان على الحق...

والجيء نفسك في أمورك كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز: وأي كهف هو أمنع وأعز من الالتجاء إلى الله؟ الرجوع إلى الله في الأمور كلها الصغير منها والكبير المهم والأهم، الالتجاء إلى الله والانقطاع إليه أن يتعلق القلب بحضرته وتنحصر الخطوات في خطه وضمن الشرط الذي رسمه له.

واخلص في المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان: والإخلاص ضد الرياء فكما نُهي عن الرياء أمر بالإخلاص، والإخلاص عبارة عن تجريد القصد من جميع الشوائب، فمن صلى ممتثلاً لأمر الله متقرباً منه، دون أن يقترن بنيته أي أمر آخر من عجب أو كبر أو وجاهة أو رياء أو غيرها فهو مخلص...

وهذا الإخلاص إن قصد به وجه الله تعالى دون توقع نفع في الدارين فهو أعلى درجات الإخلاص، وإن كان يقصد بهذا المأمور به نفعاً يجره لنفسه أو شراً يدفعه عنها فهو في الدرجة الثانية.

وقد أمرنا بالإخلاص في قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[(٢)].

وقال النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: أخلص العلم يجزك منه القليل...

---

(١) سورة البينة، آية/ ٥.
(٢) سورة الزمر، آية/ ٣.

وقال أمير المؤمنين (ع): طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره.

إن الإنسان إذا أخلص لله تمام الإخلاص وانقطع قلبه عمن سواه فإن الله سيكفيه المهم من أموره.

إن الأمور كلها بيد الله فمن أخلص له فإنه يتولى أمره وينجح طلبته.

وأكثر الاستخارة وتفهم وصيتي ولا تذهبن عنك صفحاً فإن خير القول ما نفع واعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه: وأكثر الاستخارة وهي طلب الخير من الله، فإنه الذي يملك الخير كله ثم يوصيه أن يتفهم الوصية ولا يعرض عنها إعراض من لا يهتم بمهام الأمور ومحاسنها فإن فيها ما نفع في الدنيا وفي الآخرة، والقول إذا كان فيه ذلك حق فيه النظر وله الاعتبار.

إن العلم النافع هو الذي حث عليه الإسلام وأمر بتعلمه وتعليمه، أما العلم غير النافع فإنه نهى عنه بل منعه. ولذا نراه منع السحر والشعوذة والكهانة وغيرها من العلوم المضرة أو التي لا نفع فيها، بينما أمر بوجوب التفقه والأدب وأوجب الاختصاص كفائياً في بعض مجالات العلوم التي يفتقر إليها المجتمع ويحتاجها في تسيير دفة الحياة والحركة الاجتماعية كالطب والهندسة وكل ما يوفر للمجتمع المسلم القوة والعزة والمنعة.

ومن هنا نرى النبي قد نهى عن علم لا ينتفع به، ففي الحديث عن أبي الحسن موسى (ع) قال: دخل رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ المسجد فإذا جماعة قد طافوا برجل فقال: ما هذا؟ فقيل علاّمة، فقال: وما العلاّمة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، قال: فقال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة وما خلاهن فهو فضل.

(أي بني، إني لما رأيتني قد بلغت سناً، ورأيتني أزداد وهناً، بادرت بوصيتي إليك، وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي إليك بما في نفسي، أو أن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور) أي بني: برقتها ونعومتها، بحنانها وعطفها بما يحويه قلب الأبوّة الكبير الذي يرعى الصغير ويرأف به ويتعهده بالتربية والأدب (أي بني) يا كلمة

تذوب فيها الرجولة وتتصابى أمامها الأبطال.

إني لما رأيتني قد بلغت سناً: متقدمة لا بأس بها ورأيتني أزداد وهناً فإن الفتوة والشباب والقوة والقدرة ليست ملكات ثابتة وقادرة على الصمود أمام عوامل الزمن وتكرار الليالي والأيام، بل إن كل تلك القوى والقدرات وكل ذلك الجسم العامر والصحة الوافرة كلها تذوب وتتراخى بفعل الزمن وضرباته. إن كل يوم يمضي يتلف نصيباً من أجسامنا حتى يأتي اليوم الذي يتهاوى الجسد كله ويموت... ولما كان الأمر كذلك بادرت بوصيتي إليك وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي فإني أخاف أن يدركني الموت قبل أن أنفذ إليك وصيتي التي أعددتها لك. أو أخاف أن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي فإن بعض الناس يفقد الذاكرة أو تضعف عنده هذه الملكة وهذا يؤدي إلى فقدان وصيته التي كان يجب أن يقدمها لأحبابه عندما كان يمتلك الرأي الصائب والنظرة الرشيدة، وكما يجب على الإنسان أن يلاحظ الأمور المتعلقة فيه ويبادر إلى اغتنامها يجب أن يلاحظ الأمور المتعلقة بغيره ويغتنمها. ومن جملة هذه الأمور المتعلقة بالغير أن يغتنم القبول عنده أو يغتنم الطهارة والنزاهة والصفاء فيدخل إلى قلبه فيصلحه وإلى روحه فيداويها. وإن عالم الطفولة عالم البراءة والطهارة، عالم الصفاء، وفي هذا الوقت يقبل الطفل الترويض والتهذيب بينما إذا سبقت إليه الأشرار وغرست في نفسه الإجرام فإنه يصعب إصلاحه وردّه إلى الخيرات والأعمال الصالحات. فلذا قال الإمام إن هذه الوصية كانت قبل أن يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور، أي كالجمل الذي لا يسلس قياده لراكبه بل يستوحش من كل من رأى وهذا يؤدي إلى عدم تأثير الوصية وفقدان مفعولها...

(وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته فتكون قد كفيت مؤونة الطلب وعوفيت من علاج التجربة فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه) وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته: وهذه حقيقة اهتم بها الإسلام وشرع لها أسلوباً فذاً في زرع المفاهيم والأفكار الإسلامية، فإن الشارع المقدس قد رسم للطفل عند ولادته سنناً رائعة، إنه ندب إلى الأذان في أذنه اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى إن كلمة (الله أكبر) و (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وغيرها من فصول الأذان والإقامة تدخل نفس الطفل عند دخوله الحياة ورؤيته النور.

يدخل الطفل الحياة وتدخل قلبه ترانيم الأذان كي يلتقي الدخولان دفعة واحدة

فيشكلان توافقاً وانسجاماً مع بعضهما.

ثم يأخذ الإسلام بيد هذا الطفل تدريجياً كي يصوغه صياغةً صالحةً فيمنع إرضاعه ممن ولدت من الزنا، فعندما يُسأل الإمام عن امرأة ولدت من الزنا، هل يصلح أن يُسترضع بلبنها؟ يقول: لا يصلح ولا لبن ابنتها التي ولدت من الزنا... وكذلك يمنعه عن لبن المجوسية واليهودية والنصرانية، وهكذا عن الحمقاء والخبيثة ويقول فيهما: لا تسترضعوا الحمقاء، فإن اللبن يغلب الطباع ويقول: استرضع لولدك بلبن الحسان وإياك والقباح، فإن اللبن قد يُعدي. وفي مقابل ذلك يأمر الولي أن يتخيّر للرضاع كما يتخير للنكاح، ويقول: انظروا من يرضع أولادكم فإن الولد يشب عليه. ويقول: تخيروا للرضاع كما تخيرون للنكاح، فإن الرضاع يغير الطباع... وبعد أن يشب الولد ويكبر يضع الإسلام للأبوين برنامجاً تعليمياً تربوياً إن أخذا به أفلح الولد وسعد وإلا سقط وهوى. يقول الإمام الصادق (ع): «دع ابنك يلعب سبع سنين والزمه نفسك سبع سنين». وعن النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: لأن يؤدب أحدكم ولداً خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم».

ويقول النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أيضاً: رحم الله من أعان ولده على بره، قيل كيف يعينه، قال: يضعه موضعاً حسناً.

ويقول أيضاً: حق الولد على والده إذا كان ذكراً أن يستفره أمه، ويستحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله ويطهره ويعلمه السباحة.

ويقول النبي أيضاً: رحم الله من أعان ولده على بره، قيل كيف يعينه على بره؟ قال: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به...

إن الطفل صفحة بيضاء تستطيع أن ترقم عليها الإسلام حكماً حكماً وشرعةً شرعة كما تستطيع أن ترقم عليها الكفر والضلال والانحلال، والخيار يرجع إلى المربي والكافل، فإن كان صالحاً حاول جهده في سبيل أن يزرع في نفس الطفل الخير والصلاح وكل المعاني الطيبة من الوفاء وأداء الأمانة والحب والبذل والعطاء، وإن كان فاسداً زرع أضداد هذه المحاسن، زرع الغدر ونكث العهد والبغض والأنانية والأثرة وكل المساوىء والقبائح.

إن هذا الطفل يشب على ما يعوّده عليه مجتمعه الصغير والكبير: البيت والمدرسة والشارع، فإن كانت كلها صالحة نشأ عنصراً صالحاً، وإن كانت فاسدة نشأ عنصراً فاسداً «إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت».

الطفل كالعجينة الرخوة تستطيع أن تصنعها ما شئت، تستطيع أن تخلق منه بطلاً رسالياً كما تستطيع أن تجعل منه مجرماً تاريخياً، تستطيع أن تجعله مهملاً تافهاً يعيش الكسل والخمول لا يفكر إلا في اللذة كيف يقتنصها وفي اللهو كيف يحصل عليه، كما تستطيع أن تجعل منه عنصراً فذاً يتوقد نشاطاً وحركة يفكر في نهضة أمته وإحياء تراثه وعودة إسلامه. . .

إن مجتمعنا اليوم يفقد التربية الإسلامية الصحيحة لأن الأب والأم لا يهتمان إلا بإعالته مادياً من تنظيفه وتهيئة ملابسه ومطعمه ومشربه، أما غيرها من الأمور الأخرى فإنهما يفقدانها من أنفسهما فكيف يعطيانها لغيرهما. وإذا خرجنا من البيت والأسرة إلى المدرسة فإننا نجدها أبعد ما يكون عن تلقين الإسلام وغرس مفاهيمه وأفكاره، بل على العكس من ذلك نرى مناهج الدراسة تعطي أفكاراً جاهلية قومية أو عنصرية أو عرقية أو إلحادية أو علمانية أو غيرها من الأباطيل التي حاربها الدين وقضى عليها ونجد المعلم يفقد العناصر المثالية التي يجب أن تتوفر في القدوة والأسوة باعتباره المثل الأعلى الذي ينظر إليه الطفل، فإذا كان المعلم فاسداً أخلاقياً أو متحللاً اجتماعياً كيف يستطع أن يقدم للمجتمع عناصر صالحة!.

وإذا خرجنا إلى الحياة بشكل عام نجد الانحراف والضلال، ففي السوق ينتشر الربا والتطفيف والغش والاحتيال، وفي القضاء نجد الرشوة والمحاباة، وفي الدولة نجد رجال السلطة وزبانية الحكم يستأثرون لأنفسهم وأقربائهم ومن حولهم من العصابات بأهم مرافق الدولة ومراكزها الحساسة دون كفاءة ولا أهلية، وهكذا نجد المجتمع بجميع وسائله يتحول ضد الإسلام وضد التربية الإسلامية الصحيحة، فإن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمصورة كلها تصب لصالح دعاة الانحلال والفوضى والفساد.

وفي ضمن هذا الجوء الموبوء كيف يستطيع أن ينشأ الطفل نشأةً إسلامية! إنه يحتاج إلى مضاعفات من الجهد والتعب وإلى رقابة مستمرة من أوليائه وملاحقة دائمة لكل حركاته وتصرفاته فيشجعونه على الخيرات ويسددونه نحوها كما يردعونه عن المفسدات ويسدون في وجهه أبواب الضلال والفساد. إن الطفل يحتاج إلى البيت المسلم والمدرسة المسلمة والمجتمع المسلم وعندها تسهل تربيته، وهذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شي قبلته» إن كان طيباً طاهراً قبله وإن كان نكداً خبيثاً قبله ولذا يجب المسارعة في هذه الفترة إلى الأدب والتهذيب وإلى صب مفاهيم الخير والإحسان في ذهن الطفل كي تنمو وتتأصل ويستطيع أن يواجه الحياة بطهارة ونزاهة واستقامة، وأما إذا غلب الانحراف وتأصلت بذور

الجريمة والفساد في نفس الطفل، فإن صلاحه يتوقف على نزع هذه البذور المتأصلة وهدم المفاسد المتأججة في نفسه وهذا يحتاج إلى مدة مديدة ـ إن قدر على اقتلاعها الإنسان ـ ثم بعد الاقتلاع يبتدىء زرع المفاهيم الصالحة من جديد وهذا يستغرق وقتاً طويلاً وقد لا يوفق الإنسان إلى هذه العملية خصوصاً إذا كانت تيارات الأعداء ودعاياتهم كثيرة وتتوافق مع ميول النفس الشريرة ونزواتها، فإن هذه الطريق تكاد أن تفقد مفعولها إن لم نقل إنها عقيمة عن إعطاء أي النتائج... ومن هنا يجب على أولياء الطفل أن يبادروا إلى تأديبه وتهذيبه كما يقول الإمام: فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك.

ثم إن الإمام أراد أن يُحبب إليه هذه الوصية ويرغبه في قبولها والعناية بها وذلك بذكر الأتعاب والمشقات التي خاضها أهل التجارب كي يحصلوا على ما حصلوا عليه، إنهم تعبوا وكدوا واجتهدوا وأخطأوا كثيراً حتى استطاعوا أن يحصلوا على النتيجة التي وصلوا إليها. إن النتائج التي بأيدينا لم تأت بهذه السهولة واليسر الذي يتصوره بعض الناس بل كانت حصيلة سنين متمادية تخللها كثير من العرق والدموع بل من الدماء في بعض الأحيان. وإن هذه العلوم التي توصل إليها الإنسان والمعارف التي حصل عليها كانت نتيجة طاقات هائلة من العقل والفكر بذلت في هذا الطريق من أجل هذه الغاية. والإنسان إذا التفت إلى تلك النتائج حق له أن يأخذها ويعتبر بها بل وجب عليه أن يأخذها ليُسرِ مأخذها وسهولته فإنهم كفونا مؤونة الطلب والتعب وأعفينا من علاج التجربة التي تحمل الأخطاء والعثرات بل حصلنا على النتيجة بفضل تجارب الأولين وأتعابهم.

(أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت فى أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر نخيله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله) في هذا الفصل الشريف من الوصية بيان مرغب لقبولها ودفع لما يتوهم من أنه كيف يقبلها الإنسان وهي تجربة لزمن قصير وأيام معدودة.

إن فترة ستين سنة من عمر الإمام مدة قصيرة بحساب الزمن وعمقه وامتداده الطويل فكيف تكون هذه الفترة مؤهلة لإعطاء النصائح التي تستوعب الزمان وتغوص في أحشائه لتستخرج حكم الحياة وعبرها وما فيها من الخير والشر! إنه عليه السلام أراد أن يدفع هذا التوهم بقوله: أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، ولم تستوعب

حياتي حياة السابقين كلهم ولكن نظرت في أعمالهم ماذا فعل فرعون وهامان وكيف قابل موسى طغيانهما وعنادهما للحق! كيف عقر الشقي ناقة صالح ووافقه قومه على فعله وكيف كان رد الله عليهم، إنه نظر في أفعال الأنبياء وأعمالهم كما نظر في أفعال الطغاة وأعمالهم وأخذ من كل منهم العظة والعبرة. إنه وقف على الدروس التي تؤهله لجنة الله كما وقف على الدروس التي تبعده عن نار الله، إنه على علم بكل ما جرى في ماضي الأمم وسوابقها لأنه نظر في أعمالهم وفكر في أخبارهم وسار في آثارهم وما تركوه من شواهد على إيمانهم أو على كفرهم، على حقهم أو على باطلهم. إنه بعد أن درس أحوالهم بشكل دقيق وعميق عاد وكأنه عايشهم كلهم، كأنه رافق أولهم وبقي مستمراً إلى يومه هذا. فإن العبرة بما يحصل عليه الإنسان من العلم والتحليل والبحث والتحقيق وأخذ صفو ذلك كله من أجل بناء حياة يرضاها الله ويحبها ولذا يقول الإمام: فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر نخيله (صفوه) وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله.

(ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر، ذو نية سليمة، ونفس صافية، وأن ابتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره) هكذا تتجسد الأبوّة حباً وعطفاً وحناناً وتتحرك في ضمير أبنائها زارعة الخير، ناظرة ما يصلحهم في أمور دنياهم وآخرتهم. . . إن شفقة الأبوة وحنانها تستدعي منها المسارعة في تلقين الأبناء مبادىء الأدب والاحترام ومبادىء الحلال والحرام كما تعلمهم كتاب الله الذي هو المفتاح لكل خير والناهي عن كل شر. . .

إن كتاب الله هو المصدر الرئيسي لكل المسلمين. . . ففيه الأحكام من حلال وحرام، وفيه القصص والحكم، وفيه الآداب والأخلاق، فيه الحدود والديات، فيه القصاص والعقوبات، فيه العبادات والمعاملات، إنه كتاب الحياة بجميع أدوارها ومختلف شؤونها وأطوارها يتناول الإنسان كما يتناول الكون ويتناول الدنيا، كما يتناول الآخرة، إنه الحياة للقلوب والجلاء للنفوس، والعروة للوحدة والملتقى لكل المسلمين.

إن هذا الكتاب خلق من رعاة الإبل والشاء رعاة للعالم بأسره وصنع من الضائعين في متاهات الصحراء أمة من أرقى الأمم وأعظمها، وبني من نفوس القتلة والمجرمين نفوساً تقية صالحة تحب الخير وتعمل به وتدعو إليه. . .

ولكن وللأسف الشديد، عندما تركنا العمل بهذا القرآن وأهملنا النظر في أحكامه وعطلنا حدوده، عندما تركناه وراء ظهورنا واستبدلنا به غيره كانت النتيجة خسارة فادحة وضربة قاصمة أصابت المقاتل منا حيث أضحينا في تفكك وانهيار وعبودية وإذلال.

إن تلك الأمة العظيمة التي خلقها هذا القرآن عادت أحقر الأمم وأذلها عندما تركت العمل به وأهملت إقامة أحكامه وحدوده، وما دور اليهود وأعمالهم اليوم في بلادنا من قتل وتشريد ومن احتلال وتنكيل، إلا نتيجة للابتعاد عن هذا القرآن وترك العمل بمضامينه وتشريعاته.

وما أعظم الأهل الذين يربون أولادهم على حب القرآن وتلاوته ويدربونهم للعمل بمضمونه آية آية، وحكماً حكماً. ويأخذون بأيديهم إلى مواطن الأدب فيؤدبونهم بها وإلى مواطن العظة فيعظونهم بها، وإلى كل عبرة فيه ومثل فيقدمون لهم العبر ويضربون لهم الأمثال.

إن أعظم ما يقدمه الأهل لأبنائهم أن يخلقوا منهم أشخاصاً تتحرك بالقرآن وتعمل به حتى يتحولوا في وقت ما إلى قرائين ناطقة تدب على وجه الأرض كما كان الإمام علي يعبر عن نفسه «أنا القرآن الناطق وذاك القرآن الصامت»، فإن شدة الانسجام والالتحام وقوة التأثر واللقاء تجعل من الإنسان قرآناً في إهاب إنسان بحيث تتحول كل حركات هذا الإنسان وتصرفاته ترجمة حرفية لمضمون الآيات.

إن الأهل إذا اعتنوا بالأولاد فزرعوا في نفوسهم القرآن والسنّة وأوضحوا لهم معالم الحلال والحرام وأخذ الطفل مع نموّه المتصاعد تتعمق عقيدته في الله وتتركز معاني الحلال والحرام عنده كانوا قد أدوا واجبهم، وإنه لا يأتي سن البلوغ إلا وقد بلغ الدرجة العليا في العقيدة والعمل والرؤية الإسلامية السليمة.

أما لو كان الأهل يفقدون هذه الالتفاتة وهذه التربية ولم يهتموا بهذه الجوانب من التربية القرآنية بالخصوص والإسلامية بالعموم بل يتركون الأبناء للأقدار وللمجتمع الفاسد والتيارات الوافدة، يتركونهم للمدرسة التي تقتل فيهم التطلع نحو الإسلام والعمل بمضمونه وتقضي على كل حرف يستمد من القرآن أو يعتمد عليه، فإنه لا محالة تخلق الأجيال المتنكرة لمدينها ومبادئها المستهزئة بكل معالم الخير والمثل التي ينشدها الإسلام وينادي بها...

ومن هنا ينبه الإمام في وصيته هذه إلى هذه الجهة من الاهتمام بالقرآن وتوضيح معالم الحلال والحرام لهذا الناشىء الصغير فإن هذه الأمور إذا غرست في نفس الطفل أثمرت وأعطت أحسن الخيرات...

(ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم، مثل الذي التبس عليهم فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له أحب إلي من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة، ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك، وأن يهديك لقصدك فعهدت إليك وصيتي هذه) هكذا يبحث الأب الشفيق الواعي العاقل عما يصلح ولده الضعيف الرقيق الناشىء، إنه لا يتركه في مهب الريح تتلاعب به وتقذفه من جانب إلى جانب ومن جهة إلى أخرى، بل إن الوالد باعتباره قد مر بتجربة سابقة عليه وأدرك مواطن الخطر والانزلاق ومواطن القوة والصمود، إنه يدرك بعد أن مر بهذه التجربة أغلب الشبهات التي تحركت في عقله وأثارها أمامه غيره، ورأى بأم عينه كيف زلت أقدام كثير ممن عاصروه نتيجة هذه الشبهات التي لم يجدوا حلا لها، أو لم يسألوا عن حلها فاستحكمت في نفوسهم واستعصى قلعها،فكفروا بعد إيمان، وضلوا بعد هدى، وانحرفوا بعد استقامة. إن الأب الواعي المدرك لهذه المخاطر لا يترك أولاده في متاهات ومجاهل لا يعرف سلامتهم فيها ولا نجاتهم منها، بل يبادر إلى وضع خطوط عريضة تتعين من خلالها وجهة المسير وحدوده ومقدار سعته وضيقه... إن إيضاح الطريق ووضع المعالم البارزة التي توصل إلى الهدف من أهم ما يتوجب على الأب. ومن هنا بادر الإمام إلى بيان هذه النقطة بعد أن كان عازماً على عدم ذكرها إنه عاد إلى بيانها وتوضيح الحق فيما اختلف فيه الناس واشتبه الأمر على بعضهم فيه...

إن بيان هذه القضية المشتبه فيها وإبراز معالم الحق فيها أولى من ترك هذا الولد وشأنه في معركة قد لا تكون لصالحه. إذ ربما غلبت الشبهة على عقله واستحكمت وعندها تكون الهلكة التي تقود هذا الإنسان إلى خطر ما بعده خطر آخر. إنه خطر العقيدة التي يصغر عندها كل خطر آخر، إنه خطر الإيمان الذي ربما تزلزل فهوى بصاحبه إلى نار جهنم، وعندها تكون الكارثة الكبرى التي تهون عندها كل الكوارث الأخرى.

(واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك. والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر، ثم ردهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والإمساك عما لم يكلفوا) تقوى الله واجتناب محارمه من أهم الأمور وأوجبها على الإنسان المسلم فلا يفيد عمل بدون تقوى ولا تثمر تضحيات بدون تقوى ولا ينفع اجتهاد بدون تقوى... بالتقوى تتفاضل الناس وبها تقترب من الله.

والتقوى كما يفسرها الصادق (ع): أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك.

وإن الله أثنى على المتقين وحث على التقوى في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿**ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾، وقال تعالى: ﴿**تزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب**﴾. قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون**﴾. وقال تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾. وقال تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾. وقال تعالى: ﴿**إن المتقين في جناتٍ ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر**﴾.

وأما سنّة المعصومين فقد طفحت بالحث والتأكيد على التقوى.

قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: لو أن السموات والأرض كانتا رتقاً على عبدٍ ثم اتقى الله لجعل الله له منهما فرجاً ومخرجاً.

وقال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: أصل الدين الورع، كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن بالعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل بغيره، فإنه لا يقلُّ عملٌ بالتقوى، وكيف يقل عمل يتقبل لقول الله عز وجل: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾.

وقال الإمام علي (ع): اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم وإن أقمتم أخذكم وإن نسيتموه ذكركم.

وقال علي (ع): «فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم، فإن تقوى الله دواءُ داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء غشاء أبصاركم وأمن فزع جأشكم وضياء سواد ظلمتكم».

وقال الصادق (ع): من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا بشر.

وقال الصادق (ع): التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله (في الله) وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة وهو تقوى خاص الخاص وتقوى من الله وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام...

بالتقوى تقبل الأعمال فإن من صلّى بدون تقوى لا تقبل صلاته وإنما بأدائها يسقط العقاب فحسب، وأما ترتيب الأجر والثواب فهذا لا يتحقق إلا بالتقوى التي تتم باجتناب جميع المحارم...

بالقيام بجميع الواجبات المفروضة على الإنسان والاجتناب عن جميع المحرمات تتحقق التقوى وتقبل الأعمال وبدون ذلك لا يقبل عمل ولا يثاب عامل، وإنما العمل يسقط العقاب فحسب. . .

والإمام هنا في وصيته يسكب في روع ولده وروع كل الناس أن يتمسكوا بهذه الخصلة الشريفة التي لا تعادلها خصلة ويضعها الإمام في هذه العبارة الجميلة والصياغة اللطيفة قائلاً: «واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إليّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك من الواجبات وترك المحرمات التي بها يتم العمل الصالح وتتحقق التقوى وتكون سهلة المنال لا ترهق كاهل العامل ولا تجعله يمل من الزيادة وكثرة العمل.

ثم إن الإمام ذكّر ولده بسيرة الصالحين من أهل بيته من أجداده وأعمامه الذين نظروا في أمور الدنيا والآخرة، ذكره بهم وبما كانوا عليه من التفكير في مصالحهم وما ينفعهم. . . فإن هؤلاء العظماء كانوا على جانب كبير من رجحان العقل وسلامته وأنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد أن ثبت لهم صحته كدين وثبت لهم صدق الرسول في دعواه النبوّة، فإن حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله قد آمن بالنبي ودافع عنه ورد كيد المشركين والكفار وكل أذية كانت تصل إلى الرسول الأكرم وقد اندفع في «أحد» يقاتل في سبيل الله حتى سقط شهيداً مضمخاً بدمه. . .

وكذلك جعفر بن أبي طالب الذي هاجر في سبيل الله ثم استشهد في «مؤتة» مسطراً أروع البطولات وأعظمها. وهكذا غيرهما من أقرباء النبي وأهل بيته قد نظروا إلى الدنيا وفكروا فيها واختاروا لأنفسهم أقرب الطرق إلى الله وأصلحها لهم في دنياهم وآخرتهم. . .

إن هذا الرعيل من الصالحين كانوا يمثلون الطلائع الواعية في مجتمعهم، لم تكن تصرفاتهم خاضعة للأهواء والميول أو للعصبية والمزاج، وإنما كانت تنطلق من قناعات صحيحة وسليمة فأخذوا بما عرفوا من شرائع الدين وأحكامه وقوانينه وسننه وكفوا عما لم يكلفوا فيه مما هو محجوب عنهم أو غير مطلوب منهم.

(فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات. وابدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلاله، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع وتم رأيك فاجتمع، وكان همك في ذلك هماً

واحداً، فانظر فيما فسرت لك، وإن لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرك وفكرك فاعلم أنك إنما تخبط العشواء، وتتورط الظلماء. وليس طالب الدين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل) في هذا الفصل من الوصية يقف الإمام ليعطي درساً لكل المتعلمين الذين يريدون الغوص في عالم المعقولات والمجردات، الذين يريدون أن يدخلوا إلى عمق الأمور وحقائقها ويستكنهوا لباب الأشياء وأسرارها. إن هناك عالماً مجهولاً إذا دخله الإنسان بدون دليل معه أو بدون أن توضع له معالم تحدد له وجهة المسير سوف يضل ويتيه وقد يعود إلى النقطة التي انطلق منها على أحسن التقادير إن لم يستمر في التيه والضلال حتى ينقضي العمر وتدبر الأيام.

إن الدخول في أمور يكثر فيها الزلل والخطل ويتعرض الإنسان خلالها إلى مزالق كثيرة لا تحصى، يجب قبل الخوض في عباب ذلك المجهول أن يعد العدة ويشحذ الهمة ويكون مؤهلاً لخوض هذه المعركة التي لم يعرف فيها النجاح من الفشل، يجب أن يهيء الأسباب التي توفر له النجاح والفوز والعودة بالظفر بعد تجوال قد يستمر طويلاً في استخراج النتيجة التي يرضاها الله ويحبها...

إن للمتعلمين صفات وضعها علماء الأخلاق والآداب وقد ذكر الشهيد الثاني في كتابه (منية المريد في آداب المفيد والمستفيد)، ما يجب أن يتحلى به طالب العلم في نفسه من الإيمان والتقوى والإخلاص وما يجب أن يوفره لنفسه من الصفات أمام شيخه واستاذه وإلى غير ذلك مما رشح به قلمه السعيد في استخلاص هذه الفوائد الجليلة. وإن الإمام هنا يلقي الأضواء أمام المتعلم الذي يريد أن يحرر بعض هذه المسائل المهمة فيقول له:

١ ـ يجب أولاً أن يطلب هذه المطالب المهمة من أجل الفهم والعلم، من أجل الوصول إلى الحقيقة التي هي أنشودة المخلصين لا أن يطلب هذه الأمور ليزيد الشبهات ويتخذها عضداً له في الخصومات...

٢ ـ يجب عليه أن يبتدىء قبل كل شيء بطلب الاستعانة من الله بالتوفيق إلى وجوه الصواب وإدراك الحقائق والثبوت على الاستقامة وهذا التوجه الرباني مطلوب من الإنسان في كل أعماله وتصرفاته، فإن طلب المدد من الله والاستعانة به يجب أن لا ينقطع عنه أو يتهاون فيه...

٣ ـ يجب أن يكون بحث هذه القضايا بحثاً موضوعياً دون أن تشده المذاهب والأهواء إلى رأي معين أو جهة معينة بل يتخذ الحق والعلم وجهته، أن يبني بينه وبين

نفسه أنه سيتخذ الدليل والبرهان هدفاً له في الوصول إلى الحقيقة دون أي أمرٍ آخر، وما أصعب وأشق البحث الموضوعي النزيه فإنه أصعب من إزالة الجبال عن أماكنها. وأنّى للرجال أن يتركوا موروثات قومهم ويتخلوا عن عادات أهلهم ويتجاهلوا دين أسلافهم! إننا رأينا بعض المفكرين تعصباً منه لمذهبه أو قومه ينحرف عن الاستقامة ويسف في التفكير ويطوّع آيات الله وكلامه زوراً وبهتاناً من أجل أن تتفق وما عنده من رواسب مذهبية وعادات قومية. . . رأينا ذلك الشموخ في الرأي والأصالة في البحث كلها تتهاوى عند الدخول في بحث العقيدة والأديان. . . إنه لا يستطع أن يتخذ الموضوعية باستمرار بل يتخذها في ما لا يضره ولا يؤذي حسه الديني أو التقليدي. . .

ثم إن الإمام بعد أن يحدد له هذه الخطوط العريضة في منهج البحث يقول له: فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع وتم رأيك فاجتمع وكان همك واحداً ـ وهو الوصول إلى الحقيقة وإدراك الواقع ـ فانظر في ما فسرت لك. . .

وأما إذا لم يتوفر له ذلك بل كان قصده من أول الأمر خلاف هذه الشروط فلا بد أن يتيه ويضل ويخبط خبط الأعمى الذي لا يهتدي الطريق أو خبط السائر في ظلمات الليل البهيم مع جهله وعدم الدليل. . . وطالب الدين بعيد كل البعد عن مثل هذه المهاوي والأضاليل.

(فتفهم يا بني وصيتي، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت، وأن المفني هو المعيد، وأن المبتلي هو المعافي، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد، أو ما شاء مما لا تعلم، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك، فإنك أول ما خلقت به جاهلاً ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسواك، وليكن له تعبدك وإليه رغبتك ومنه شفقتك) لقد تعلقت قلوب الأئمة بالله وانقطعت عما عداه، فهي تعيش معه في كل لحظات وجودها، في السر والعلن، في الليل والنهار، في البيت والشارع، عند الأكل والشرب، في اللذة والألم، لقد تحولت تلك القلوب إلى محاريب لا ترى فيها غير الله. . . إن هذه القلوب قد اتصلت بالله وأولته كل شيء، وتوجهت نحوه في كل شيء. . . إنها أعطته الذمام المطلق، فله حق الأمر، كما له حق النهي، وبيده الحياة، كما أن بيده الموت. . . إن هذه الأنفاس العالية غرست في كل نفوس المحبين والمطيعين والسائرين على خط هؤلاء الأئمة العظام. . .

إن غريزة حب الحياة واستمرارية الدوام فيها أهم ما ينظر إليه الإنسان، فقد يتخلى

عن أرض ملكها، أو مال اكتسبه، أو شرف رفيع حازه، أو مقام عال حصل عليه، بل قد يرضى بالفقر والذل والاستعباد، ولكنه يرفض أن يتنازل عن حياته. . . يرفض الكثيرون منا الموت لأنه يشكل القتل للحياة، والقضاء على استمراريتها. وإذا قضي عليها فات كل شيء في الحياة. . . فمن هنا نرى بعض الناس من أصحاب الرسالات يتنازلون عن رسالتهم مقابل أن يمن الطغاة عليهم بالعيش بضعة أيام ولو في بحار الذل وعرق الخزي. . . وهناك بعض آخر يتوقى الكلام في الحق والافصاح عنه ويتنازل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من أذية تلحقه وحفظاً على نفس يريد لها الحياة. . . إن انتشار الفساد وشيوع الفواحش واستعباد العباد واستعمار البلاد والعباد، بل قتل الأنبياء والمرسلين والعلماء والصالحين أهون عند بعض الناس من نفس يملكونها، إنهم يضحون من أجلها بكل هذه المقدسات والشخصيات دون أي حرج أو مرارة. . .

إن الإمام هنا يريد أن يوجه هذا الإنسان بقطع النظر عن انتمائه، وعائلته، وهويته، يريد أن يوجهه إلى الله، ويربطه ويقوي علاقته به. . . إنه يريد أن يسكب في وعي هذا الإنسان وفي ضميره وفي وجدانه وعمقه مالكية الله المطلق لهذا الإنسان ملكيته التي تستولي على الأحياء كما تستولي على سلب الحياة. . . فالله وحده الذي يملك حق الممات كما يملك حق الحياة. . . ليس للطغاة. . . ولا للجبابرة. . . ولا للفراعنة. . . ولا لكل الناس مجتمعين. . . حق في سلب هذه الحياة كما لم يكن لهم من قبل حق هبتها. . .

الله تعالى وحده هو الذي بيده الموت والحياة والفناء والإعادة وحده الذي يقول للإنسان مت فيموت، ويقول إحيَ فيحيا. . . بكلمة (كن) أخصر كلمة، يمكن أن يتم بها التعبير عن المشيئة المطلقة، يتم الفناء كما تتم الحياة. . .

إن الموت والحياة بيد الله وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾**[١] **﴿وإن إلى ربك المنتهى وإنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا﴾**[٢] **﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجعلكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٣].

وإن الله تعالى ينقل إلينا الحوار الذي جرى بين إبراهيم وبين فرعون من فراعنة

---

(١) سورة قَ، آية/ ٤٣.
(٢) سورة النجم، آية/ ٤٤.
(٣) سورة الجاثية، آية/ ٢٦.

عصره ادعى أنه يستطيع هبة الحياة كما يستطيع أن يقضي عليها، وكيف رد عليه إبراهيم الخليل حجته وأفحمه، كما ينقل إلينا قصة ذلك الرجل الذي مر على القرية الخاوية فتعجب كيف يحييها الله، فأعطاه الله مثلا حياً من نفسه ومن حماره، قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال: أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**.

﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية[1] على عروشها قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال: بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

إن أمير المؤمنين يريد أن يحرر هذا الإنسان من الذل والخنوع والعبودية والاستسلام عن طريق الإلقاء في روعه أن الحياة والموت بيد الله، وإذا كانت هذه بيد الله، وهو الذي يملكها، فلا يجوز لهذا المخلوق أن يخاف أحداً عليها، بل إن عليه أن يعتصم بالله ويلتجىء إليه ويتخذه كهفاً وحرزاً، ويعقد القلب على أن الإنسان مهما أعطي من قوة وامتلك من حيلة ومكر فإنه لن يستطيع أن يؤثّر على غيره إذا أراد الله أن يمنعه عن التأثير والإيذاء! وهذا ما أشار إليه الحديث الوارد عن المعصومين...

ـ فعن أبي عبد الله (ع) قال: كان علي بن أبي طالب (ع) يقول: «لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن الضار النافع هو الله عز وجل».

فإن قلت: إذا كان الأمر كله يرجع إلى الله... الحياة والموت المعاناة، والابتلاء، فما معنى رجوعنا إلى غيره كرجوعنا إلى الطبيب عند المرض ورجوعنا إلى التجارة والاكتساب عند إرادة الربح وطلبه ورجوعنا إلى دفع المحاذير التي يمكن أن تلحقنا من جراء بقائنا تحت سقف يصر، أو حائط يخر أو زلزال يمر...

قلنا: إن رجوعنا إلى تلك الأسباب رجوع إلى الله باعتبار أنه هو الذي وفرها للإنسان وأمر باتباعها، وأوصى بالاقتفاء لأثرها، إنه تعالى هو الذي طلب منا السعي في

(١) سورة البقرة، آية/١٥٨ ـ ٢٥٩.

مناكب الأرض من أجل الربح وتوفير الحياة السعيدة، وهو الذي أمرنا بالعودة إلى الطبيب عند حصول المرض، وهكذا جميع الأسباب التي كانت محققة لمسبباتها، ولذا نجد بعض الأحاديث تصرح أن الله لا يستجيب دعاء (اللهم ارزقني) لمن جلس في بيته واكتفى بالدعاء دون الخروج والسعي في سبيل تحصيله. نعم إن نظر المؤمن وإيمانه هو أن هذا السبب وضعه الله تعالى لذاك المسبب، وقدرة الله يمكن أن تتدخل لترفع مفعول هذا السبب وتمنعه من التأثير كما حصل في نار الخليل إبراهيم حيث قال الله لها: ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ وكما في معاجز الأنبياء التي خرقت قانون الأسباب والمسببات، فإن الله تعالى يملك كل شيء وقادر على كل شيء...

ثم إن الإمام ينبه إلى حال الدنيا وأنها لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء، فإن النعم تضع الإنسان وجهاً لوجه أمام فضل الله ورحمته، وعطائه وجوده. إن هذه النعم تجعل من هذا الإنسان عنصراً صالحاً يبحث عن كل السبل التي تؤدي به إلى شكر هذه النعم وأدامتها عليه... إنه ينظر إلى نفسه وجسده ويقف أمام كل جارحة من جوارحه وقفة تأمل وتبصر، يقف أمام عينه ويبحث فيها بدقة كيف تكشف الأمور وتعكس الأشياء وهي بعد على صغرها تستوعب ما يحيط بها وما يقع تحتها من أمور، ينظر إلى تركيبها وشرايينها وإلى عظمة الله فيها... ينظر إلى أذنه، هذا الجهاز اللاقط الذي يسمع به الأصوات على اختلافها ويميز بين الحسن منها والقبيح وبين القوي والضعيف... وينظر إلى يده وينظر إلى رجله بل ينظر إلى أي عضو منه فإنه يرى النعمة فيه والفضل في عطائه... إن هذه النعم تحتاج إلى الشكر... تحتاج إلى قلب واع ونفس صافية وضمير طاهر... تحتاج إلى لفتة من هذا الإنسان كي يعترف ويقر بالعجز عن أداء شكرها.

وفي المقابل يجب أن ينظر إلى أهل الابتلاءات والمصائب، إلى المرضى والزمنى، وإلى الفقراء والمساكين، وإلى الأيتام والمحتاجين... ينظر إلى كل كارثة أو حادثة مؤلمة ليأخذ منها درساً عملياً يعيشه مع شخصه ونفسه فيأخذ العبرة منه والعظة وتكون هذه العبر محطات يتزود فيها التقوى والعمل الصالح وحب الخير والإحسان...

إن هذه الدنيا لم تكن لتستقر وتهدأ وتبنى وتعمر إلا بتركيبتها القائمة، فلو أن كل الناس في حالة من الرخاء والدعة لدفع هذا الوضع إلى نسيان الآخرة، ولو أن الناس كلهم في فقر ومسكنة لأوجب ذلك كفراً وفساداً، ولو أن الناس لا يموتون أبداً لتكاثروا إلى درجة تضر بالجميع... ولو أن الناس كلهم في رغبة واحدة ورأي واحد لوقع الاضطراب في الأعمال عسراً ويسراً في دفة الحياة... إن هذه الدنيا بصيغتها الربانية هي

أبدع ما يجب عليه أن تكون... ففيها الخيرون وفيها الأشرار وفيها المعافون وفيها المبتلون وفيها... وفيها... اختلاف في الطبقات والأذواق والمعاش والصحة والمرض وغيرها لعمارة الحياة وبنائها. إن هذه الدنيا محطة اختبار يجري على ثراها، تميز الصالح من الطالح، وفيها شوط قصير ينجح خلاله الفائزون ويسقط المقصرون. والله سبحانه يعد للمطيعين جنات تجري من تحتها الأنهار عند مليك مقتدر، يجدون فيها نتيجة أتعابهم وجهادهم وما قدموه من الخيرات والأعمال الصالحة. إن النتيجة لا تظهر إلا في ذلك اليوم الذي تجري فيه تصفية الحسابات، إنه يوم القيامة... وقد يعجل الله لبعض عباده أجراً أو عقاباً كي يرده إلى الطريق السليم فيكون ذلك لصالحه. إنه يذيقه حلاوة الطاعة كي يزداد منها، كما أنه قد يذيقه مرارة العذاب كي يرده إلى العدل والاستقامة... إنه الله تعالى الذي خلق الدنيا ويعلم ما يصلحها مما يفسدها.

ثم إن الإمام يلفت النظر إلى أنه إذا أشكل علينا شيء ولم نفهم وجه الحكمة فيه، ولم ندرك أسراره وأبعاده، فعلينا أن لا ننكره ونجحد تشريعه ونرفض قبوله... وكأن الإمام ينظر إلى نماذج عاشت معه ومرت في هذا الطريق، كما نرى نحن اليوم الجهلة وأنصاف المتعلمين كيف يرفضون بعض الأحكام لمجرد أنها لا تعجب أذواقهم ولا تتوافق مع رغباتهم... إننا نرى ونبصر وتمر علينا الدمى المتحركة التي تقوم في كل مكان ومحل، وفي كل شارع وزاوية تارة تعترض على هذا الحكم... وأخرى ترفض ذلك الحكم... وثالثة تشكك في أحقية هذه القضية وهكذا دواليك... وياليتها تمتلك الرصيد العلمي الذي يبيح لها جواز الكلام والحديث في هذا المضمار... ليتها تمتلك مقومات إبداء النظر وحق النقض والإبرام... إنها عزلاء من كل أسلحة العلم والمعرفة لا تمتلك إلا كلمة (لا...) رفضاً لكل ما لا يعجبها، وقد تكون في بعض الأحيان مدفوعة بحب الظهور والمخالفة من باب (خالف تعرف...) إن هذه الطبقة من الناس، وإن لم يكن لها الحق في الرفض والنقض ولكنها للطلاء الذي موهت نفسها فيه، وهو طلاء الثقافة العصرية، قد غرت الكثير من الناس بآرائها، وصورت لهم أنها بما حصلت عليه من شهادات مزورة، وثقافة فارغة، تمتلك حق ابداء وجهات النظر...

وأما الطبقة الواعية الجديرة بحق النقض وإبداء الرأي، هذه الطبقة تحترم نفسها وعقلها ولا تقدم على رفض رأي إلا بعد أن تقيم الأدلة الناطقة على رفضه... إنها تبقى في حالة توقف دون رأي حتى يتضح الأمر كنور الشمس، وحتى يسطع الدليل والبرهان كفلق الصبح... إنها تحترم عقلها ورأيها، فلذا تتوقف عن إصدار الأحكام حتى تتيقن منها... إن الطريقة العلمية التي تسد جميع الاحتمالات في المسألة المعروضة وتبرهن

على صحة رأيك من خلال الدليل عليه هي الطريقة التي يسلكها العلماء والمحققون فإذا لم يسدوا جميع المنافذ المحتملة التي تخالف رأيهم لا يستطيعون إبداء رأيهم ووجهة نظرهم. . .

إن الإمام في حديثه هنا يريد أن يقرر حقيقة عقلانية، فيقول (إذا أشكل عليك شيء من ذلك) ولم تقدر أن تصل إلى حقيقته بعقلك وبصيرتك فلا تجحده ولا تنكره ولا ترده لأنك أول ما خلقت جاهلاً، خلقت طفلاً لا تمتلك ذرة من العلم والثقافة، ثم بالتدريج تعلمت. . . إنك كنت جاهلاً لا تمتلك أي شيء من العلم، ثم تدرجت في المعرفة حتى صرت تعرف بعض الأمور، ولكن ما أكثر ما تجهل! فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم ما أكثر ما تجهل من المعلومات. . . إنك لم تحط بجميع العلوم والفنون ومختلف الفروع والشؤون. . . إن كنت تمتلك ناصية علم الطب فأنت في غيره قد تكون جاهلاً، وإن كنت مخصصاً في الهندسة فقد تكون في الفيزياء أمياً جاهلاً، وهكذا دواليك، والله سبحانه وتعالى يقول: **﴿والله خلقكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾** ويخاطب الله رسوله قائلاً: **﴿وقل ربي زدني علماً﴾** ويقول تعالى: **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾**. ويقول الشاعر:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

(واعلم يا بني أن أحداً لم ينبىء عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسول ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ، فارض به رائداً، وإلى النجاة قائداً، فإني لم آلك نصيحة. وإنك لن تبلغ في النظر لنفسك ـ وإن اجتهدت ـ مبلغ نظري لك) سبقت الهداية البشرية. ومن اليوم الأول الذي خطت قدم الإنسان على هذه الأرض كانت النبوة معه تتقدم ركب الحياة هادية لئلا يكون للناس على الله حجة. والنبوة تعني السفارة بين الله وبين الإنسان تتلقى الأحكام وتأخذ الوصايا والتشريعات ثم تبلغها أهلها، وقد تعددت النبوات وتكثرت حسب الظروف والأحوال التي مرت بها البشرية، وقد كان خمسة من بين ذلك الرعيل يمثلون قمة النبوة سموا أولو العزم، باعتبار أن دعوتهم عامة وشاملة لم تقتصر على شعب ولا وطن. وكانت كل رسالة لاحقة تنسخ الرسالة السابقة حتى وصل الأمر إلى رسالة الإسلام التي جاء بها رسول الله محمد عن الله، فكانت الرسالة الخاتمة والمهيمنة على جميع الرسالات، كانت هذه الرسالة هي الرسالة العالمية التي لم ولن تنسخ بغيرها من الأديان والرسالات. . . إنها رسالة اخترقت الزمان والمكان وتجاوزت الأجناس والألوان وبنت قواعدها على أسس متينة قوية لا مجال فيها لعنصرية أو طائفية أو امتيازات عشوائية. . .

الإسلام رسالة الدنيا والآخرة، نظرت إلى الإنسان فوضعت لهُ ما يسعده ويحييه ويأخذ بيده نحو التكامل والسمو. . .

إذا جئت إلى العبادة رأيت الاتصال بالله يتمثل في عالم الصلاة والزكاة والحج وغيرها مما يقرب منه ويوثق العلاقة والاتصال. إنك تجد هذا المخلوق الضعيف الصغير يتصل بالله القوي الكبير، تجد المناجاة ينطلق بها لسان المؤمن ليعبر عن قلبه وضميره بأعظم صور الاتصال واللقاء، إنه لقاء متى أحببته تحقق ومتى أردته صار. . . ليس بينك وبينه كهنة ولا قساوسة ولا وسائط بل إنك تستطيع أن تطرق أبواب رحمته وتخلو معه في كل آن. . . إنك تستطيع أن تدعوه فيستجيب لك وتشكره فيزيدك. . . إنك تجد في كل واحدة من العبادات ما يسمو بك ويأخذ بروحك صفاء وطهراً ونزاهة. . . فعندما تقف في صلاتك لتقول في كل فريضة: إياك نعبد وإياك نستعين، معناه أنك تتمرد على كل طاغية أو فرعون يريد أن يعلو على الإنسان ويدعي الربوبية أو الحكم بغير ما أنزل الله. إن وقفتك أمام الله ومناجاته بهذه الصيغة العظيمة ذات المدلول العميق تريد أن تقول لكل الجبابرة والمستبدين إننا براء منكم ومن أعمالكم ومن كل مخالفاتكم التي تعصون الله بها. . . إنها وقفة عز بل وقفات عز إذا اعتادها المسلم يرفض أن يقف غيرها من مواقف الذل والاستهانة. . .

وإذا جئت إلى الصوم فهو رياضة روحية وبدنية تتجلى في ترك ملذات الحياة وشهواتها من أجل الله وفي سبيله وفي ذلك تغلب على الذات وترفع عن كل ما يشد هذا الإنسان نحو المأكل والمشرب الذي يتقاتل عليه الناس وتجري بينهم الحروب من أجله. . .

وأما الحج فالق النظر نحوه واعتبر بكل فعل تقوم به وخذ درساً فذاً لن تهتدي إليه في غيره. . . ابتداءً من التلبية التي تقول فيها: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك. . .» ردد هذه الأنشودة وعش معها بعض الوقت وتخيل بل تحقق أن هناك نداء من رب العزة يدعوك إليه وأنت الآن تستجيب له وتقول لبيك. . .

وإذا أردت أن تطوف بالبيت فتمثل الفضيلة وتمثل طوافك حولها، وإذا رجمت الشيطان فتمثل الرذيلة وتمثل رجمك لها. . . هذه دروس عملية لإحياء الفضيلة والقضاء على الرذيلة يتخذها المسلم في حياته كي يطبقها في الحج وغيره من جميع شؤون الحياة. . . وهكذا غير هذه الأمور من العبادات. . .

وأما المعاملات فللإسلام قصبة السبق فيها. ارم ببصرك نحو المتاجر فتجد

المعاملة الصحيحة من الفاسدة... اقرأ شروط الصحة وموانعها... ابتداءً من العقد المتضمن لصيغته وكيف يجب أن تكون إلى شروط المتعاقدين وما يجب أن يكونا عليه، إلى العوضين أنفسهما وما يجب أن يتوفر فيهما...

انظر إلى المساقاة والمزارعة والمضاربة والشركة والهبة والهدية والصلح وغيرها من الأبواب التي تقف أمامها مشدوهاً مأخوذاً بروعة الإسلام وعظمة تعاليمه...

وإذا جئت إلى الحدود والديات والقصاص والميراث والنكاح تجد التكامل الرائع الذي يتمثل في الإسلام عقيدة ونظاماً حكماً وإدارة...

إن الإسلام هو الأطروحة الإلهية الخاتمة التي تكاملت من جميع جوانبها فجاءت علاجاً واقياً لهذا الإنسان من كل ضلال وانحراف... هذه الأطروحة الكاملة لم تستطع أن تبلغها رسالة موسى أو رسالة عيسى أو غيرهما من رسالات الأنبياء... إن محمداً قد حمل هذه الرسالة واستوعبها قلبه الكبير واستطاع أن يبلغها للناس، فهو قد بلّغ عن الله ما لم يبلغه غيره من الأنبياء... ففي حين نجد النبوات المتقدمة جاءت علاجاً لفترة معينة نجد الإسلام هو العلاج الدائم لكل الأزمنة والأمكنة والناس وما ذلك إلا لعظمة تشريعاته وعلوها فإنها الغذاء الذي لا يستغني عنه إنسان اليوم كما لا يستغني عنه إنسان الغد...

وإذا كان النبي هو الذي أدى عن الله ما لم يؤده رسول قبله فأحرى بهذا الإنسان أن يرضى به رائداً يقوده إلى الخير ويرشده إلى النجاة. وكيف لا يكون النبي كذلك وقد تحققت على يديه أعظم المعجزات، إنه صنع من أولئك الأعراب الذين كانوا يتيهون في الصحراء، يعيشون على السلب والنهب، يعبدون الأصنام ويتمسحون بها ويقربون لها القرابين... صنع من الجفاة الحفاة أمة من أرقى الأمم، صنعهم قادة الدنيا ورواد الحياة، تقرأ في كل واحد منهم معلماً ورائداً... تقرأه زاهداً عابداً وفارساً بطلاً... تقرأه باكياً من خشية الله، مستهزئاً بأعظم ملوك الدنيا وسلاطينها... كبر الله في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم... إنهم اقتدوا بالنبي فكان أن تطوعت الدنيا لخدمتهم فاقتلعوا قصور كسرى كما هدموا مجد قيصر، وحملوا الإسلام رسالة لهم في الحياة يريدون أن يخرجوا بها العباد من ذل العبادة لغيره إلى عز الطاعة له فكانت المعجزة التي استطاع النبي أن يحققها حيث بسط الإسلام ذراعيه في أقل فترة زمنية على شرق الأرض وغربها... عندما سار المسلمون خلف النبي وارتضوه قائداً ورائداً... وأما عندما رفضنا قيادته وأنكرنا الإسلام مصدراً للحكم والتشريع، ونبذنا القرآن خلف ظهورنا، بل عندما حاربنا الإسلام والإيمان، وأخذت بنا الطريق ذات اليمين تارة وذات اليسار أخرى، كانت النتيجة التي نحن فيها، الذل... العار... الاستعباد... الامتهان...

الاحتقار. . . أصبحنا ريشة في مهب الرياح كيف اتجهت اتجهنا معها دون استقلالية في رأي أو عز في موقف أو بطولة في حلبة. . . لقد تلاعبت بنا الدول فأضحينا نعيش على فتات موائد الدول الكبرى، هي التي تنصب الطغاة علينا، وهي التي تحرمنا حقوقنا بل أبسط حقوقنا وأيسرها. . . لم يعد لنا من رأي يسمع أو كلمة يؤخذ بها. . . حتى وصل الأمر أن اجتمع شذاذ الآفاق من أقطار الدنيا والتقى الشتات اليهودي من أطراف المعمورة من أوروبا وأمريكا وأفريقيا وآسيا وكل زاوية في العالم، التقى اليهود الذين لم يجتمعوا في زمن ولم يتوحدوا في مكان، اجتمعوا. . . وكوّنوا دولة في قلب العالم الإسلامي. وها هي اليوم تتوسع وتتوسع وستبقى في توسعها إن لم يرجع المسلمون إلى دينهم وأصالتهم الإسلامية. . . إن هؤلاء اليهود لم يستقروا في بلاد الإسلام إلا أهل ذمة. . . فقد قضى الإسلام على شرورهم ومكايدهم وحيلهم. . . نعم الإسلام. . . وليس العرب. . . الإيمان بالله وبرسوله وكتابه والعمل بمضمون هذه الرسالة. . . وليس باليمين ولا باليسار ولا بالمبادىء المستوردة. . . إذا أردنا أن نتحرر ونحرر بلادنا فليس أمامنا من خيار غير الإسلام فكما تحررنا سابقاً نتحرر الآن وكما قضينا على مكر اليهود وغدرهم نقضي عليهم الآن. . . نعم إذا حفظنا وصية الإمام في قوله: واعلم يا بني أن أحداً لم ينبىء عن الله سبحانه كما أنبأنا عنه الرسول ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ، فارض به رائداً وإلى النجاة قائداً. . .

فمن اتخذ الرسول قدوة له في حياته يترسم خطاه ويقتدي بهداه، وحول الإسلام إلى لحم ودم يتحرك في إهاب إنسان، إذا استطاع هذا الإنسان أن يتغلب على نفسه وهواه ويشق الطريق قدماً نحو القمة السامقة التي تمثلث بالإسلام فلا شك في أنه سيفلح وينجح ويحقق المعجزات. . .

ثم إن الإمام (ع) يلقي في الفقرة الأخيرة في روع ولده نصيحة عظيمة لقبول قوله وهي أنه لم يقصر في النصيحة له، وهل مثل أمير المؤمنين يشك في إخلاصه ومعرفته وفي تجربته وخبرته، وهو الذي إن قال فصل وإن حكم عدل. . . لم يعثر له الدهر على زلة ولم يكبُ في موطن، وكيف يعثر أو يكبو وهو تلميذ النبوة الفذ الذي رافق مسيرتها الطاهرة من طفولته ونعومة أظفاره وتلقى تعاليم هذه الشريعة بنداً بنداً ودستوراً دستوراً. . . حتى قال النبي فيه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وقال ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «أقضاكم علي» وقال هو عن نفسه: «علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب» فعلي الذي شرب الإسلام مع حليبه لا ولن يقع في خطأ مع ما وفقه الله إليه من العصمة والسداد في الرأي والصواب في القول والعمل. . . ومن كان

بهذه المرتبة العالية التي بلغت الرقم القياسي إذا نظر في أمر لا بد من أن يعود منه بالوجه الصحيح والسليم، ولن يكون لغيره ممن ينظرون لأنفسهم عمق نظرته وسعتها لأن نظره لهم كان عن خبرة ودراية ودخول إلى بواطن الأمور وحقائقها... فربّ ناظر لنفسه بعين الشهوة والرغبة، وربّ ناظر آخر ينظر بعين المنفعة والربح المؤقت ناسياً خلفيات وسلبيات هذا الاختيار. وكم يكون الفرق شاسعاً بين إنسان اختبر الحياة ووقف على مجاري الأمور ومداخلها ومالها وما عليها. وبين آخر نظر إليها نظرة سطحية من الخارج! فلا شك في أن نظر الأول أشد صواباً وأقرب إلى الحق من إنسان يعيش على هامش الأمور وظواهرها. فالإمام يريد أن يقول لنا أن توجيهاته ونصائحه وتعليماته وإرشاداته أقوى وأعظم وأشد صواباً من نصائحنا وإرشاداتنا لأنفسنا... وإننا سهما بالغنا في البحث والاستقصاء فلن نبلغ مبلغ بحثه واستقصائه...

(واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً ولم يزل. أول قبل الأشياء بلا أولية وآخر بعد الأشياء بلا نهاية. عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر) الإسلام ليس معناه أن تؤمن بالله فحسب، وإنما جوهر هذا الإيمان وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك فإن لا إله إلا الله نفي لكل إله في الكون ما عدا الله... والإيمان بالله الواحد الأحد قامت البراهين عليه نذكر منها:

الأول: إنهما لو كانا اثنين وأراد أحدهما تحريك جسم مثلاً وأراد الآخرة أن يسكن فإن وقع المرادان اجتمع النقيضان، وإن لم يقع شيء منهما ارتفع النقيضان، وإن وقع أحدهما دون الآخر لزم الترجيح من غير مرجح والكل محال.

الثاني: إننا نرى وحدة النظام والتوافق التام بين جميع أجزائه من صغيرها إلى كبيرها، من قمرها وشمسها وبحارها وأنهارها إلى كل ذرة في الكون. وهذا النظام والتنسيق والترتيب لم يحصل ولن يحصل لو كان هناك إلهان، بل يؤدي وجودهما إلى فساد السماوات والأرض إذ كل واحد يستقل برأيه وينفرد بصنعه، وهذا يؤدي إلى الفساد والضلال، فمن وحدة النظام وتناسقه نستدل على وحدة الصانع وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾**... وقد قال الإمام الصادق عندما سأله هشام بن الحكم: ما الدليل على أن الله واحد؟ فقال: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عز وجل: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾**.

الثالث: إجماع الأنبياء فإنه لم يأت نبي من الأنبياء يدعي أنه من عند غير الله

الواحد الأحد وهذا ما أشار إليه الإمام في حديثه هنا بقوله: «لو كان لربك شريك لأتتك رسله».

الرابع: لو كان لله شريك لزم التركيب في ذات الله وانتفى وجوب وجوده بل أضحى ممكناً وهذا غير الله الذي نعتقد بوجوب وجوده، وذلك أنهما يشتركان في كونهما واجبي الوجود كما يشترك الإنسان مع غيره في الحيوانية، فلا بد من مائز يميز بين المشتركين كما يميز الصاهل الفرس عن الإنسان وإلا لما حصلت الإثنينية. ومتى ثبت المائز حصل التركيب لاشتراكهما في جنس وافتراقهما في فصل، والمركب من الجنس والفصل ممكن فيكون الواجب ممكناً وهذا خلف...

وهناك أدلة عقلية كثيرة على نفي الشريك. وأما القرآن الكريم فهو مشحون بالأدلة الصارخة على وحدانية الله وأنه لا شريك له. قال تعالى: ﴿**قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد**﴾ وقال تعالى: ﴿**إنما إلهكم آله واحد...**﴾. وقال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾. وقال الله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾. فالله سبحانه واحد في ذاته واحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه وقد نطق القرآن بكفر من اتخذ التثليث عقيدة له، قال تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة...**﴾.

ومن هذا البيان العقلي والقرآني يتوجه الحديث نحو النصارى الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة: (الأب والابن وروح القدس)، ويقولون: إن الثلاثة يصبحون واحداً والواحد ثلاثة... إنه المسخ للعقول والقلوب والضرب عليها بالعمى والضلال. كيف يصبح الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة؟ وما دور كل واحد منهم في تدبير العالم؟ إنها سخافات وثنية دخلت النصرانية وأين هذه الضلالة من الفطرة الإنسانية التي تصرخ بوحدانية الله الذاتية والصفتية! وما هذا التهافت البين بين الثلاثة والواحد؟ وكيف تقبلها عقول العقلاء منهم؟ بل كيف يسكتون على هذا الإسفاف والهبوط إلى الحضيض في الرؤى والفكر.. حاشاك يا رب أن يكون لك شريك وأنت القوي المطلق. ثم إنه لو كان لله شريك لكان له صفات خاصة يمتاز بها عن غيره، ثم رأيت آثار ملكه وسلطانه، ولكن بما أن كل تلك الأفعال والصفات والآثار لم تظهر فإنا نستدل من عدمها على عدم وجوده ومن فقدانها فقدانه.

ثم إن الإمام وصف الله تعالى بقوله: «ولكنه آله واحد كما وصف نفسه» وليس مقصوده بالواحد المقابل للاثنين العددي إذ لا يمكن فرض الثاني حتى يقاس الواحد به بل هو واحد واجب الوجود وهذا هو الذي يفسره الحديث الوارد عن كتاب التوحيد كما

يروي الشيخ الصدوق حيث يقول: إن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟! قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟.

فقال أمير المؤمنين (ع): دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم. ثم قال: إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، منها وجهان لا يجوزان على الله عز وجل ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: إنه ثالث ثلاثة. وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا، وقول القائل: إنه عز وجل أحديُّ المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجل.

والله سبحانه الذي هو واجب الوجود ومبدع الوجود لا يمكن لأحد أن يضادّه في ملكه، فبيده عالم التكوين وعالم التشريع، بيده خلق الكائنات بكلمة (كن) يكون كل شيء، كما أن الأمر والنهي بيده فهو الذي أرسل الأنبياء وأنزل الكتب وليس لأحد من خلقه أن يتصرف تكويناً أو تشريعاً إلا بإذنه وأمره.

كما أنه سبحانه وتعالى: «لا يزول أبداً ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية وآخر بعد الأشياء بلا نهاية»، ومعنى أنه لا يزول أبداً ولم يزل هو عين ما عبر عنه المتكلمون عند حديثهم عن صفاته تعالى حيث يقولون: إنه قديم أزلي بمعنى أنه لا أول لوجوده، باق أبدي بمعنى أنه لا آخر لوجوده وذلك لأنه واجب الوجود لذاته فيستحيل عليه تطرق العدم السابق واللاحق وإلا لما كان واجباً.

وقول الإمام: «أول قبل الأشياء بلا أولية وآخر بعد الأشياء بلا نهاية» بمثابة التفسير لقوله تعالى: ﴿**هو الأول والآخر... وهو بكل شيء عليم**﴾، يعني ليس قبله شيء ولا بعده شيء.

ثم إن الإمام يصف الله بما هو حقه حيث يقول: «عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر»، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حيث يقول: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ ويقول أمير المؤمنين في فقراته التوحيدية عندما يسأله ذعلب اليماني قائلاً له: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين:

أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكنه تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير مُلابس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا برويّة، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة... ويقول في موضع آخر من نهجه:

الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة ولا تعتد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض ولا تحيط به الأبصار والقلوب...

ويقول في موضع آخر: لا يدرك بوهم ولا يقدر بفهم لا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين ولا يُحَدُّ بأين، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس...

ويقول عليه السلام أيضاً: أول الدين معرفته ـ معرفة الله ـ وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدَّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم فقد ضمّنه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة فاعل لا بمعنى الحركات والآلة بصير إذ لا منظور إليه من خلقه...

ومضافاً إلى ذلك فإن المرئي محدود ويكون جسماً والجسم محتاج. والله سبحانه غني غير مركب ولا محتاج إلى أجزائه كما أنه ليس محتاجاً لغيره.

والله سبحانه بنفسه ينفي رؤية الناس له حيث نفاها عن أقرب المقربين إليه وهم الأنبياء، ففي جواب موسى حيث طلب الرؤية بقوله: ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾ فقال تعالى: ﴿**لن تراني**﴾...

فربوبية الله وهيمنته على الوجود وإثبات صفاته من علم وقدرة وحياة ووحدانية وغيرها من صفات الكمال أو صفات الجلال كلها تثبت بالفطرة، وبدليل العقل والوجدان وبسائر الأدلة الأخرى التي يقر الإنسان ويعترف من خلالها بأن الله وحده الصانع المكوّن، وأما أن ترى الله كما ترى غيره من الأشياء والأمور المحسوسة فهذا يتناقض وعقيدتنا الإلهية في الإسلام. ومن هنا يبطل ادّعاء من يقول أن المسيح هو الله... وكيف يكون العاجز رباً وكيف يكون المخلوق رباً؟... وكيف يكون المحتاج رباً؟ وكيف يموت هذا الإله وكيف يطرأ عليه الصلب بزعمهم؟ إن رباً لا يدفع الصلب والقتل عن نفسه هذا ـ ليس رباً يستحق العبادة أو التوجه نحوه. إن ربنا تعالى جل ذكره

هو الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ندّ، ولا والد له ولا ولد ولا صاحبة. وهو الغني المطلق والحي المطلق والقوي المطلق والعليم. . . وبعبارة جامعة هو الواجب الوجود الغني عن كل موجود. . .

(فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره، وقلة مقدرته وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربه في طلب طاعته والرهبة والخشية من عقوبته والشفقة من سخطه، فإنه لم يأمرك إلا بحسن. ولم ينهك إلا عن قبيح) من طبيعة الإنسان أنه إذا رأى نفسه في معرض الضرر أو الخطر حاول قدر استطاعته أن يدفع هذا الخطر والضرر، وخصوصاً إذا كان هذا الضرر والخطر صادراً عن شخص ذي شأن كبير يستطيع أن يبطش وبيده القوة والمنعة. فإن المواطن الاعتيادي يخاف الدولة ويحسب لها حسابها ويحاول في كل قضية أن يجد مبرراً قانونياً له إذا تصرف في أمر أو أقدم على فعل. ويتصور أن مخالفته ستؤدي به إلى العقاب من سجن أو تغريم أو قتل على حسب اختلاف الجرم الذي يرتكبه هذا ما نراه أمامنا ونعيشه في واقعنا ومع أنفسنا.

ولكن كيف نتعامل مع الله• الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء وبيده كل شيء، وقادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، ولا يعجزه شيء، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، والإنسان، هذا المخلوق، الضعيف. . . الفقير، المسكين. . . الجاهل، العاجز، لا يملك لنفسه حياة ولا موتاً. . . ولا بعثاً ولا نشوراً، لا يملك أن يدفع عنها ضراً أو يجلب لها نفعاً. . . فتراه قوياً يهدّ ويرعد ويقتل ويفتك، وإذا به لألم بسيط في جسده أو وجع قليل في بدنه، يرتمي أرضاً يصيح ويستغيث ويستنجد ويستصرخ. . . مسكين ابن آدم تقتله الشرقة وتؤلمه البقة وتنتنه العرقة كما يقول أمير المؤمنين، هذا الإنسان لا يقاس بالله. . . فلا قوة له ولا حول أمام قوة الله وحوله ولا يملك شيئاً اتجاه ملك الله وسلطانه، ولا وجود له إلا بمقدار ما يسمح الله له بالوجود، ولا حياة له إلا بما يسمح الله له من الحياة، ولا غنى إلا بما أغناه الله ولا عطاء إلا بما أعطاه الله، ولا شي له إلا بما أذن به الله، إذا عرف الإنسان قدره وعرف منزلته ومستواه وعرف في المقابل ربه، وما هو فيه، وما يتمتع به من صفات، حق لهذا الإنسان أن يتعامل معه بما هو أهله وبما هو حق له أن يعامل. هذا المخلوق ذو الصفات الخالصة التي لم يوفرها لنفسه ولم يحصل عليها بجهده كيف يتعامل مع ربه وخالقه؟ هل يتعامل معه معاملة الجاحد لربوبيته، المنكر لفضله وإحسانه، الذي يرفض الاعتراف به والإيمان بوجوده، أم أنه يؤمن به ويصدق حكمه ويعمل بأمره ونهيه. إن العاقل، بل العقلاء جميعاً يقفون أمام هذه القضية عند رأي

واحد. . . الإيمان به والتصديق بوجوده والعمل بمقتضى أمره ونهيه. العقلاء يقفون أمام الله وقفة الصغير المطلق مقابل الكبير المطلق، وقفة المحتاج أمام الغني المطلق، وقفة الضعيف أمام القوي المطلق، وإن كل وقفة تقفها أمام ربك وبمقدار تصاغرك أمامه تزداد عزاً ورفعة أمام غيره من الطواغيت والفراعنة وأنصاف الآلهة. . .

الإنسان العاقل إذا عرف ربه وعرف صفاته، صفات ذاته أو صفات أفعاله، يجب أن يتعامل مع هذه المعرفة على حقيقتها وواقعها. إذا عرف أن الله قوي وهو ضعيف، يجب أن يتعامل على أساس هذه المعرفة، فلا يطغى في قوته ولا يتجاوز على الآخرين من منطلق قدرته وقوته. وإذا عرف أن الله هو الغني وأن نفسه فقيرة يجب أن يتعامل مع غنى الله وفقر نفسه على حقيقته، يعترف أن الله هو الغني وبيده العطاء، وأن ما بيد هذا الإنسان كله من الله ومن فيض عطائه، فلا يبخل بما أمر الله به من العطاء لعباده ولا يشح عليهم بما في يديه لأن ذلك من الله وهو قادر أن يسلبه في لحظة واحدة من لحظاته، يجب على الإنسان أن يتعامل مع الله في إطاعته وامتثال أوامره وأن لا يتراخى أو يتهاون في هذا الأمر، فإن الله إذا أمر بفعل أو نهى عن آخر فإنه لا يأمر إلا بحسن ولا ينهى إلا عن قبيح. ومن كانت أوامره ونواهيه بهذه الصفات حق أن يطاع في أمره أو نهيه، لأنه ومهما وصلت عقول الناس إلى بعض الأمور فلن تصل إلى درجة المواجهة بين رأي الله ورأي عبد ضعيف من عباده. وما قيمة رأي يخرج عن إنسان ممكن يعرض عليه الخطأ والنسيان في مقابل رأي الله الخالق المبدع الواجب الوجود الذي كله خير وكله علم وحلم وكله صفات كمال وجمال. . .

(يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها، وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد لأهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال لتعتبر بها وتحذو عليها. إنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر نبا بهم منزل جديب فأموا منزلاً خصيباً وجناباً مريعاً، فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم، فليس يجدون لشيء من ذلك ألما، ولا يرون نفقة مغرماً، ولا شيء أحب إليهم مما قربهم من منزلهم وأدناهم من محلتهم. ومثل من اغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم إلى منزل جديب فليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه) الحديث عن الدنيا ذو شجون لا يكاد المرء يسد باباً إلا انفتحت له أبواب، ولا يكاد ينتهي من الكلام عن جهة إلا وتجدد له الحديث عن جهات وجهات. ونحن هنا سنستعرض بعض ما ورد في ذمها، كما سنستعرض

بعض ما ورد فيها من المدح ونخلص في النتيجة إلى عملية الجمع بينهما وتحديد وجهة النظر الإسلامية التي يريدها الله ويطلبها منا. . .

ذم الدنيا:

ذم الله الدنيا ذماً شديداً ونفر منها تنفيراً قوياً وحذر منها أولياءه وضرب لهم الأمثال حتى لا تستعبدهم فتستذلهم. . .

- قال تعالى: ﴿زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾(١).

- قال تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾(٢).

- قال تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾(٣).

- قال تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾(٤).

- قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(٥).

- قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾(٦).

- قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون. أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾(٧).

---

(١) سورة آل عمران، آية/ ١٤.
(٢) سورة الحديد، آية/ ٢٠.
(٣) سورة هود، آية/ ١٥ ـ ١٦.
(٤) سورة النازعات، آية/ ٤٠.
(٥) سورة فاطر، آية/ ٥.
(٦) سورة الكهف، آية/ ٤٥ ـ ٤٦.
(٧) سورة القصص، آية/ ٦١.

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال: هماً لا ينقطع أبداً، وشغلاً لا ينفرغ منه أبداً، وفقراً لا ينال منه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً».

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم عنده وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له».

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «لتجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار فقيل: يا رسول الله: أمصلين؟ قال: نعم! كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنيئة من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه.

ـ قال أمير المؤمنين في نهجه: «ألا وأن هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ولا الذي دعيتم إليه. ألا وأنها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها، وهي وإن غرتكم منها فقد حذرتكم شرها فدعوا غرورها لتحذيرها، وأطماعها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم إليها وانصرفوا بقلوبكم عنها، ولا يخنن أحدكم خنين الأمة على ما زوي عنه منها».

ـ ويقول عليه السلام: «ولقد كان رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كاف لك في الأسوة ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم عن رضاعها وزوي عن زخارفها.

ـ وقال عليه السلام: «دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها ولا يسلم نزَّالها. . .».

ـ وقال عليه السلام: «وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة وليست بدار نجعة، قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها، دارها هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها. لم يصفها الله تعالى لأوليائه ولم يضنَّ بها على أعدائه. خيرها زهيد وشرها عتيد، وجمعها ينفد، وملكها يسلب وعامرها يخرب فيما

خير دارٍ تنقض نقض البناء».

ـ وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممر لا دار مقر والناس فيها رجلان، رجل باع فيها نفسه فأوبقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها».

ـ وقال الصادق عليه السلام: «مثل الدنيا كماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله».

ـ قال لقمان لابنه: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً. وقال له: يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على الله لعلك ناجٍ وما أراك ناجياً...

ـ رُوي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شمطاء هتماء عليها من كل زينة.

فقال لها: كم تزوجت؟.

قالت: لا أحصيهم.

قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟.

قالت: بل كلهم قتلت.

فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر.

هذه نبذة قليلة من الآيات والأخبار التي وردت في ذم الدنيا فقد جعلتها عدواً للإنسان وحولتها إلى حية في جوفها السم الناقع تتحين الفرص للانقضاض على هذا الإنسان والإجهاز عليه... الدنيا بما فيها من أشياء وما تحويه من جواهر وأعراض كلها تشكل ثقلاً على هذا الإنسان وحملاً لا يستطيع القيام به أو النهوض بأعبائه...

وإننا نجد مقابل هذه الطائفة التي تتجه هذا الاتجاه طائفة أخرى تتجه باتجاه مغاير لها تماماً، إذ تحض على الدنيا وتدفع الناس إلى السعي في مناكبها والضرب في أرجائها وهذه هي عينات من تلك الآيات والأخبار والآثار...

ـ وقال تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من**

رزقه وإليه النشور﴾(١).

ـ قال تعالى: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾(٢).

ـ وقال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾(٣).

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال».

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس».

قال الصادق عليه السلام: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله».

ـ قال الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى ليحب الاغتراب في طلب الرزق».

ـ قال الصادق عليه السلام: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه».

ـ قال الصادق عليه السلام لما قيل له في رجل، قال: لأقعدنّ في بيتي ولأصمن ولأعبدّن ربي فأما رزقي فسيأتيني، قال أبو عبد الله عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم».

ـ وقال الإمام علي عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

من هاتين الطائفتين، وللنظرة الأولى، قد يتصور التنافي والتناقض، ومن هنا تمسك أهل الرفض للدنيا بالطائفة الأولى فنبذوا الدنيا وجمالها وطلقوا حلالها فضلاً عن حرامها وباعوا كل غالٍ ونفيس في سبيل عتق أنفسهم منها... إنهم نظروا إليها من خلال أحاديث العداء لها وصوّروها لأنفسهم، «مثل الحية التي يلين مسّها ويقتل سمها أو مثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله، أو مثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت». ومن أجل هذه المحاذير التي تترتب على من تعلقت نفسه بالدنيا نرى قوماً هجروا النساء وآخرين حرموا الطيبات ونرى الدراويش ساحوا في البراري والقفار وأنسوا بالوحوش والطيور، ونرى الصوفيين

(١) سورة الملك، آية/ ١٥.
(٢) سورة البقرة، آية/ ١٦٨.
(٣) سورة الأعراف، آية/ ٣٢.

كيف لم يعد نظرهم يلتفت نحو الدنيا من قليل أو كثير، وهكذا سار قوم على هذا الخط وفي هذا الاتجاه. . .

بينما نجد قوماً آخرين بل الأغلبية الساحقة من البشر ومن المؤمنين قد اتخذوا الخط الآخر فأخذوا نصيبهم من الدنيا وتمتعوا بزينتها وزخرفها فأكلوا طيباتها وتزوجوا نساءها وعاشوا في قصورها وقالوا: إذا أقبلت الدنيا كان خيارها أولى بها من شرارها.

ونحن إزاء هذين الرأيين المتنافيين نجد الإسلام يبني نظرته على خلافهما، إنه نظر بكلتا عيني الحقيقة، ولم ينظر بعين واحدة وأغمض الأخرى، إنه نظر إلى الدنيا وإلى الآخرة معاً. وقال: إن الدنيا إذا طلبت من أجل الآخرة فهي الدنيا المحبوبة المرغوبة التي يريدها الله ويحبها لعباده، إذا حوّل الإنسان دنياه كلها إلى طاعات لله واكتساب مرضاته، فهي ليست الدنيا المذمومة، وإنما هي الدنيا المطلوبة للإسلام والتي يحض أتباعه عليها. . . وفيها يقول الإمام الصادق لمن قال له: والله إنا لنحب الدنيا ونحب أن نؤتاها فيقول له: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحج واعتمر.

قال الصادق: «ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة». . . وفي هذا المجال يقول الصادق: «نعم العون على تقوى الله الغنى».

فإذا كان الإنسان ينظر إلى الدنيا وما فيها على أنها وسيلة يكتسب بها الآخرة وينال من خلالها الجنة، فهذه الدنيا مرغوب فيها مطلوبة من الإنسان وبهذا نكون قد أحرزنا الدنيا للآخرة، فإن النتيجة الأخروية تتوقف على مقدار ما يكتسبه الإنسان في الدنيا من الخيرات والحسنات والصدقات. . .

وتكون الدنيا المذمومة هي تلك الدنيا التي تستعبد الإنسان وتستذله وتقطع نظره عن آخرته ولا يعود يفكر فيها، الدنيا التي تتحول عنده إلى إله يعبد من دون الله وتتحول إلى قدس من الأقداس يقاتل من أجل تحصيلها ويبذل نفسه في طلب حرامها، الدنيا التي تملك عليه رؤيته كلها وشعوره كله ونفسه كلها وفكره كله، والتي تقطع صلته بالله وباليوم الآخر ولا يكون لله منها نصيب هذه هي الدنيا التي يرفضها الإسلام ويذم أهلها. . . ولا يرضاها للمؤمنين. . .

إن هذه الدنيا قد غرت أجيالاً وأجيالاً وصرعت الملايين والملايين من بني آدم، لقد قضت على أجدادنا وآبائنا وهي قاضية علينا وسوف تقضي على من يأتي بعدنا. لقد تصورت هذه الأرض التي أمر عليها، وفكرت في الناس الذين مروا قبلي وداسوها كما

أدوسها الآن، فكرت كم وكم من الأجيال قد مروا، إنهم عبروها وتركوها، كأن استقرارهم عليها لا يتجاوز طرفة عين من عمر الزمن، سفكوا الدماء عليها، لقد تمردوا على طاعة الله، وادعى بعضهم الربوبية، تجبروا، تكبروا، تطاولوا، واعتدوا. مرت على أرضنا أقوام من البشر، قوم نوح ولوط وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى. لقد مر عليها أقوام طغوا وبغوا فكانت لهم وقائع فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. كان يمر في مخيلتي ويجول في ذهني شريط طويل يمتد من آدم أبي البشر إلى يومنا هذا. شريط مثقل بالمعاصي والآثام والانحراف والضلال، شريط مملوء بالمحن والكوارث والمصائب، سجل طافح بالجرائم والطغيان. كانت هذه كلها تمر في ذهني فأزهد... وأنبذ الحياة وانتبذ جانباً مفكراً في حالي ومالي وكيف أني سأتبع تلك القوافل التي تقدمتني ممن عاشوا قبلي على ثرى هذه الأرض وفوق هضابها. كنت أفكر في الطغاة والمتمردين على الله وكيف كانت عاقبتهم من الله، كيف ضربهم وقضى عليهم. كيف انتهى أمرهم إلى شر انتهاء... كنت أحتقر الدنيا، واستصغر نفسي فيها، كنت أقول: إنني حبة رمل في صحراء واسعة شاسعة، دودة صغيرة تدب دون أن يحس بها أحد من الناس، كنت أنظر إلى أهل الدنيا وإلى سعيهم فيها، وأنظر إلى مصيرهم الذي ينتظرهم، كنت أتخيل أن تلك الوجوه المنعمة والتي يخاف عليها أصحابها من نسمة تحمل بعض الغبار، كيف يأكلها الدود وتطرح على التراب كيف يفتتها الزمن وتحللها الأيام.

ولكن بعد كل هذا التطواف السريع في الدنيا من هذه الجهة كانت تخطر ببالي صور الأنبياء الذين شرفوا الحياة وأكسبوها معنى جدَيداً ونكهة جديدة. كنت أتصور ذلك الرعيل المبارك من رسل الله... وأتصور جهادهم الميمون ودعوتهم الصادقة المنقذة... كنت أتصور الصالحين والمتقين الذين عاشوا على هذه الأرض وعمروها بالتقوى... والإيمان، والحب، والإخلاص، الذين زرعوا على دروبها الوفاء... وبنوا في مرابعها الصدق والطهارة... كنت أتصور مع الأنبياء وعلى رأسهم سيدنا العظيم رسول الله محمد، كنت أقرأ في تعاليمهم... وأسلك دروبهم فأحلّق في عالم علوي وارتفع إلى الشاهقات من القمم، كنت أحس أنني موصول بهم، قريب منهم، بل معهم، وبخدمتهم، كنت أشعر بالكبرياء تجذبني إلى رحابهم. فأحلم بالسعادة وأتذوق نعيمها وأرتشف من كأسها. كنت أشعر وأنا مع الأنبياء أنني كبير ويمتد عمري من أول يوم خطت قدم الأنبياء على هذه الأرض وسأبقى طالما بقي لهم أثر عليها. وكنت أشعر أنني على خط الأنبياء فتكبر نفسي وترفرف روحي في سماء المجد والجهاد. وأقرر الاستمرار على خطاهم والدفاع عن ميراثهم والقتال من أجل دعوتهم. كنت أشعر بنشوة

المجاهد الذي ظفر بعد تعب شديد بمناله ومطلوبه. . . وتلك أمنيتي التي أعض عليها بالنواجذ وأوصي بها أبنائي. . . إنني أقول لأبنائي ـ علي وصادق ورضا وحسين وأخواتهم ـ: يا أبنائي كونوا مع الله وفي خطه. . . سيروا خلف الأنبياء. . . وعلى خطاهم، إن جدّكم رسول الله فخر الكائنات، قد شق لكم طريق السعادة وبيّنها لكم فما عليكم إلا سلوكها، لا تتكاسلوا، وتتهاونوا، ولا تسوّفوا، ولا تعصوا الله في ما بلّغه جدكم عنه، واعلموا يا أبنائي، إن أردتم عز الدنيا والآخرة، فعليكم بالدين، اعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ولا تتمردوا على أحكامه وسلطانه، اعلموا يا أبنائي أن قرة عيني أن أراكم على طاعة الله وفي خدمة عباد الله تخففون آلام الناس وتأخذون بأيديهم إلى رضا الله، تهدونهم إلى شريعة جدكم فإن فيها الفلاح والفوز والنجاح. إن أحب ما أبتغيه لأولادي أن يتفرغوا لطلب العلم الديني فإن فيه متابعة للأنبياء وإكمالاً لمسيرتهم المباركة الطاهرة، فإن العلماء ورثة الأنبياء وكيف لا أحب لفلذة كبدي هذا المقام الرفيع الذي يقصر عنه كل مقام آخر في الدنيا. . . فإنني يا أبنائي أشعر في قرارة نفسي، وكما هي قناعاتي ـ والله على ما أقول شهيد ـ أنَّ هذا المقام أجلّ مقام في نظري لأنه منصب الرسل والأنبياء، وهم المبلغون عن الله، والأمر بأيديهم، وكل من تقدم عليهم هلك كما أن كل من تابعهم سعد. يا أبنائي لا تغرنكم الدنيا وما فيها من نعيم ولا تأخذكم زخارفها وزينتها، فإنه ستزول وتنقضي ولا يبقى إلا العمل الصالح. فالدنيا إذا طلب بها الآخرة فهي دنيا محبوبة يطلبها الله ويرضاها لأنصاره فيجب أن تتحول كل دنيانا إلى الآخرة، حياتنا، أكلنا، شربنا، قيامنا، قعودنا، حركاتنا، سكناتنا، لذتنا، ألمنا، يجب أن يتحول كل شيء عندنا إلى الله، وقضية تحويله إلى الله قضية سهلة ميسورة وهي أن يتوجه إليه تعالى وينوى التقرب منه ويطلب بالعمل الدار الآخرة. . . ليس المطلوب منك إلا أن تغير نيتك وتقصد به وجه الله وتؤدي ما وجب عليك منه وتحوله إلى عمل نافع يخدم الإنسان ويخفف آلامه ومصائبه. . .

وباعتبار أن الناس يتمسكون بالدنيا ويرضعون من أثدائها ويعيشون في كنفها وتحت ظلالها، باعتبار قربها منهم وأنها تحت أيديهم، نجد تعلقهم بها وإخلادهم إليها، باعتبار تعلقهم الشديد بها وركونهم إليها نجد أحاديث الذم والتشبيهات القاسية لها كثيرة وشديدة. وإذا كانت ردة الفعل يجب أن تكون بمقدار الفعل فيجب أن يكون التحذير منها ومن أفعالها بمقدار تعلق الإنسان بها. . . ومن هنا شبهه الإمام من خبر الدنيا وجربها بقوم سافروا من منزل جديب إلى منزل خصيب فإنهم يتجاوزون كل ما يمر عليهم من عقبات في الطريق من أجل الوصول إلى الهدف. . . إن كل الصعوبات التي

تعترض طريقهم يسهلها أملهم في الوصول إلى ذلك المرتع الخصيب وهذا هو حال من آمن بالآخرة وسعى لها سعيها في الدنيا، أما من كانت الدنيا همه وشغله فإنه مثل الذين يسافرون من منزل خصيب إلى منزل جديب فإنه يتحول من الرخاء والنعيم إلى الشقاء والجحيم فجدير بمن يعرف نهايته ومستقره أن يختار الصالح له وما يحقق له سعادة المنقلب وحسن الخاتمة. . .

إن تشبيه الدنيا قد ورد على لسان الأنبياء والأئمة والصالحين ونحن سنستعرض بعض تلك التشبيهات كي يتفكر فيها القارىء الكريم ويحللها في ذهنه ويخلو فيها مع نفسه ليجد صحة ذلك ويأخذ العبرة والعظة منها. . .

ذكر صاحب كتاب جامع السعادات.

قد شبه بعض الحكماء حال الإنسان واغتراره بالدنيا وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مُدلّى في بئر مشدود وسطه بحبل وفي أسفل تلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه منتظر سقوطه فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى تلك البئر جرذان أبيض وأسود لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات. وذلك الشخص، مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آناً فآناً. قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدران تلك البئر وامتزج بترابه. واجتمعت عليه زنابير كثيرة وهو مشغول بلطعه، منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته، فالبئر هي الدنيا والحبل هو العمر والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل المختلط بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها. . . .

ورُوي أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوّه خلقها، فتشرف على الخلائق ويقال لهم: تعرفون هذه؟.

فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم وأغررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب! أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. إن هذه الدنيا لم يجعلها الله من حظ أنبيائه ولم يجعلها أجر جهادهم وأتعابهم، ويكفي هذا ذماً لها، وأن لا يتخذها الإنسان هدفاً له في حياته. . .

(يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك

واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم، وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك) هذه قاعدة تربوية يجب أن يضعها كل إنسان في لوحة مكتوبة بماء الذهب ويبقى يديم النظر إليها ويكرره في كل يوم حتى يتعمق مدلولها في داخله وينطلق منها في سلوكه وعمله. . .

إن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان يشوبها الكثير من الاضطراب وتتعرض في أكثر الأحيان إلى هزات عنيفة قد تأتي على صلات القربى فتفصلها، وعلى روابط المحبة فتفكك عراها، وهكذا يتحول الأحباب إلى أعداء والأقرباء إلى بعداء، ويفسد حبل الود والوئام. . .

إن كثيراً من المشاكل والأحداث تكون نتيجة لعدم إنصاف الناس وتجاوزهم عما رسم لهم، حيث يطلبون من غيرهم ما لا يؤدونه إليهم. إن عدم الإنصاف في القول وفي العلم يثير الغبار بين الأخوة فيحجب الرؤى الصحيحة السليمة التي يجب أن يكون عليها كل إنسان اتجاه الآخرين.

إنك تطلب من الناس أن يحترموك ويقدروك ويقدموا لك فروض الولاء والطاعة، ولكنك لا تكلف نفسك أن تعاملهم بالمثل. إنك تصرخ في وجوههم لأدنى بادرة سيئة منهم أو خطأ، ولكن تفرض عليهم أن يتقبلوا منك كل خطأ بل كل معصية، إنك لا تتبرع بقضاء حوائجهم بل لا تحاول قضاءها إذا طلبوها منك، غير أنك تفرض عليهم أن يتبرعوا بقضاء حوائجك دون طلب منك أو استدعاء. . .

إذا طلب أحد منك عارية أو ديناً، منعت وبخلت، ولكن لو أنت طلبت ذلك وجب عليهم أن يلبوا طلبك بسرعة ودون إبطاء.

وهكذا دواليك إنك كما يقال: ترى القشة في عين غيرك وتنسى الجذع في عينك. . .

ومن هذا المنطلق السيء من كونك تطلب من الناس أكثر مما تؤدي إليهم، وتريد أن تأخذ منهم أكثر مما تعطيهم، تنشأ المشاكل وتمتلىء القلوب بالأحقاد. . . إنك لم تنصفهم من نفسك ولم تحب لهم ما تحب لنفسك، ولم ترض لهم بما ترضى لنفسك. . . فلو إنك عرضت الأمر على نفسك فإن قبلته فاعرضه على الآخرين، وإلا فارفض عرضه عليهم كما رفضته لنفسك. إكره لهم ما تكرهه لنفسك وأحسن إليهم كما تحب أن يحسنوا إليك. وهكذا سائر الأفراد تندرج تحت قاعدة واحدة أصلية وهي أن

يجعل نفسه ميزاناً يوزن به الأمور كلها. فكل ما ترتضيه نفسه وتقبله يجوز له أن يعرضه على الآخرين ويقبله لهم. فإذا أحب الظلم لنفسه ـ وهو لا يحبه قطعاً ـ فليظلم غيره، وإذا كان يستقبح من نفسه أمراً فليستقبحه من الآخرين وإذا كان يرتضيه لنفسه فليرتضيه للآخرين... إنها قاعدة توفر على الناس كثيراً من المشقات والأتعاب وتجعلهم يعيشون الدعة والهدوء والحب والإخلاص. إنها قاعدة وردت الأحاديث الكثيرة في الحث عليها والعيش تحت ظلالها وهذه باقة من تلك الروائع في هذا الصدد...

١ ـ جاء أعرابي إلى النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله، زوهو يريد بعض غزواته فأخذ بغرز[1] راحلته فقال: يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة.

فقال: ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فأته إليهم وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم، خل سبيل الراحلة.

٢ ـ عن أبي عبد الله (ع) قال: أوحى الله عز وجل إلى آدم (ع) إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات.

قال: يا رب وما هن؟.

قال: واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس...

قال: بيّنهنّ لي حتى أعلمهن؟.

قال: أما التي لي فتعبدني، ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك.

٣ ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: ثلاثة خصال من كنَّ فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم، ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر رجلاً حتى يعلم أن ذلك لله رضى، ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيب حتى ينفي ذلك العيب عن نفسه، فإنه لا ينفي منها عيباً إلا بدا له عيب. وكفى المرء شغلاً بنفسه عن الناس.

(واعلم أن الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب. فاسع في كدحك ولا تكن خازناً

(١) الغرز بفتح وسكون الركاب من الجد.

لغيرك، وإذا أنت هديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربك) الإسلام أشد وأقوى طبيب نفساني يعالج الأمراض المستعصية والمزمنة في النفس الإنسانية... إنه يمارس مع الفرد أسلوباً رائعاً إذا أخذ به كما هو وعلى حقيقته... والإعجاب مرض خطير يتحرك في داخل النفس فيفسدها ويخرجها عن طبيعتها... إن هذه النفس إذا أعجبت بعملها زهت كالطاووس، وأخذ هذا الزهو والتيه يزداد ويزداد حتى يأتي إلى مسخ كل الأعمال الصالحة عند غيره ولا يعود يرى أمامه إلا عمله. بل إذا ارتفعت درجات هذا الأعجاب قد يصل به الأمر إلى أن يمنّ على ربه ويُدِلّ بعمله، ويرى نفسه فوق التقصير وأكبر من أن يسأل عن عبادة ربه وطاعته. وهذا الموقف منه يحجب القلب عن الرب ويمنع رؤية كرمه ونعمه وآلائه وفضله... وفي ذلك إفساد للقلب والنفس أيّما إفساد وإضلال... وقد رأى الإسلام أن العبد مع التقصير إذا شعر بتقصيره وحاول الارتفاع عنه أحسن حالاً وأقرب إلى الله من الإنسان المعجب بنفسه المدّل على ربه. وقد وردت الأحاديث في ذلك وكفى بذلك أن يكون ضد الصواب وخلافه...

١ ـ عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العجب الذي يفسد العمل؟ فقال: العجب درجات منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله عز وجل ولله عليه فيه المنّ.

٢ ـ عن أبي عبد الله (ع) قال: أتى عالم عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته؟ وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا. قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي فقال له العالم: فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدل، إن المدل لا يصعد من عمله شيء.

٣ ـ عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبد الله (ع): الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به؟ فقال: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه. وهكذا تأتي الأحاديث لتكشف عن أخطار العجب ومبغوضيته لله...

ثم إن الإمام يكمل وصيته إلى ولده بالسعي في كدحه. وقد فسر الكدح تارة بالمال وأن ينفقه في سبيل الله، وأخرى بالمعنى الأعم وهو أن يسعى في كسب الطاعات. وعلى كل حال قد يكون المعنى الأول أقرب لوجود القرينة المتصلة في الكلام وهي قوله ولا تكن خازناً لغيرك، فإن الخازن لا يستفيد إلا التعب والنصب، وأما الذين ينالون اللذة منه والفائدة فأولئك الذين يأخذونه دون تعب ولا كدح، بل يصل إليهم بدون مشقة،

يتلذذون به ويتنعمون بصرفه في وجوه قد تكون محللة وقد تكون محرمة... لمن يوصي به؟ إنه يوصي به إلى أحد رجلين: رجل فاجر يصرفه في معصية الله فيكون قد أعانه بماله على الانحراف والمعصية، أو إلى رجل بر تقي يزداد فيه خيراً فيكون قد حرم هو من أجره وأكسب غيره ذلك الأجر. والعاقل يسعى من أجل نفسه وخلاصها ونجاتها من النار، أولاً وبالذات...

والعاقل هو الذي لا يدع الوراث يتحكمون بأمواله وأرزاقه، وكذلك لا يدع للأيام أن تفتك بها أو تصرفها عنه إلى غيره... بل هو الذي يحدد وجه الصرف والنفقة في حياته قبل وفاته وقبل أن يقع في أيدي غيره.

ومما يثير العجب ذهاب بعض الناس إلى تجميد ما لديهم من أموال وخيرات يحبسون أنفسهم عن تناولها ويمنعون الفقراء حقهم منها ثم يقومون بالوصية ببعض المصاريف والمبرات، أو يوصون بإخراج الحقوق منها وما وجب عليهم... وهل هناك أشقى من إنسان يستطيع أن ينفذ في حياته كل ما يريد فيعدل عنه إلى الإيصاء به.

إن الإيصاء بالمال بعد الممات طريق الفقراء في عقولهم وخطة الضعفاء في تفكيرهم... ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

يا آمن الأقدار بادر صرفها ... واعلم بأن الطالبين حثاث
خذ من تراثك ما استطعت فإنما ... شركاؤك الأيام والورّاث
لم يقض حق المال إلا معشر ... وجدوا الزمان يعيث فيه فعاثوا

(واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد. وقدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالا عليك. وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبه فلا تجده.

واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك) الطريق إلى الجنة بعيدة وشاقة. وهل هناك أبعد من الجنة؟! إنها بعيدة... وبعيدة جداً لمن يعصي الله في نظره وفي سمعه وفي حركته وفي سكونه، وفي منطقه وفي يده... إنه لا يكاد يرتفع عن معصية حتى يقع في أخرى، ولا يكاد يخلص من إثم حتى يرتكب غيره. إنه الإنسان الذي يعرف من يعصي ويعرف من يخالف ويعاند ولكنه مع ذلك دائم الإصرار على الذنب وباستمرار يقترفه...

إن هذا الطريق فيه الكثير من المشقات والأتعاب وكما يقول أمير المؤمنين: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». فالطريق إلى الجنة يحتوي الكثير من المزالق التي قد تزل فيها الأقدام وتضل العقول... فهناك هذه النفس التي تمني الإنسان وتدفعه إلى ما تشتهيه وإن كان مخالفاً لأمر الله ونهيه فهي قد تلح عليه بشدة وقوة، وقد يصل فيه الأمر إلى أن يصبح عبداً لها تتحكم فيه كما تشاء، توجهه إلى الضلال والانحراف وإلى الميوعة والفساد... قد تزين له القبيح بعد أن تلبسه ثوب الحسن والجمال. إنها تخلق له الأعذار وتصطنع له المبررات وتدفعه إلى اقتحام الحرام... إن هذه النفس إذا لم تروض على الطاعة ولم تؤخذ بالتربية الصالحة والرياضة الروحية المستقيمة، إذا لم يحاسبها الإنسان ويوقفها عند كل فعل ويعودها على قبول الحق مهما كان صعباً وشاقاً، فلا محالة تقتحم به اقتحام الفرس الجموح التي فقد راكبها زمامها فأضحت تجري به كما تشاء. إن هذه النفس إذا فسدت استسهلت المعصية واستهانت بالمقدسات. إنها تفقد الحياء فتخرج عارية داعرة دون خجل. وما تلك الصور المتحركة في عالمنا إلا نموذج حي لهذا القول. أدِرْ طرفك في المنزل فترى المحرمات منتشرة، وعرّج به إلى الشارع، وأبصر العريَ بين النساء، فلا خوف من الله، ولا استعداد لحسابه... وهكذا في جميع الزوايا تجد المنكرات منتشرة والفساد لا تخلو منه بقعة. وإن المؤمن في هذا الجو الموبوء والمضطرب وفي هذه الأزمنة الداعرة والفاسدة يجد نفسه في ضيق لا مثيل له، وتصدق أعلام النبوة الكريمة القائلة: «يأتي زمان على أمتي القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر»، فإن المؤمن في زماننا إذا استمسك بدينه وأبى التنازل عنه ولو في حكم واحد أخذته التهم من كل جانب، ولاكته الألسن من كل طرف. فإذا رفض التعامل مع الظالمين قالوا فيه: إنه لا يلاحظ مصلحة المسلمين، وإذا لم يتعاون مع المنحرفين والمفسدين قالوا: لا علم له بالسياسة، وإذا لم يكذب ويُماري قالوا: إنه لا يعرف كيف يداري الناس ويستفيد منهم، وإذا عبس في وجه الفسقة والعصاة قالوا: إنه جلف قاس. وهكذا تتوالى عليه التهم وتتدفق الشتائم وعندها يأتي الزلزال الشديد لهذه النفس البشرية ويأتي الإمتحان القاسي. فإن كان الإيمان ثابتاً بقي مستمراً في شوطه دون أن تأخذ هذه التهم والشتائم منه شيئاً، بل يزداد تمسكاً بموقفه وإصراراً على رأيه حتى يلقى الله فيوفيه أجر الصابرين. وأما إذا كان الإيمان ضعيفاً فتراه يتهاوى أمام هذه التهم، تراه يخور ويتراخى ويتراجع عن كثير من معتقداته ومواقفه، يستسلم للواقع بدلاً من الوقوف في وجهه ومحاولة تغييره.

وكثيرون هم الذين يمثلون الموقف الثاني حتى من أصحاب الشعارات والدعايات. وقد رأينا هذا النموذج في حياتنا بكثرة ورأينا التراجعات والتنازلات عن

كثير من المواقف والقضايا أمام تحديات الباطل وزهوه. . . وانحرافه ودجله. . .

إذن فالطريق إلى الجنة شاقة تتطلب الحزم والعزم والقوة والثبات، تتطلب الكلمة الجريئة والموقف الصلب والإيمان الراسخ والأعصاب المتينة. . .

الطريق إلى الجنة تتطلب منك المثابرة على صلاتك مهما استهزأ بك المستهزئون، ويتطلب منك الدوام في صيامك مهما قال عنك الجاهلون، والاستمرار في الحفاظ على ستر المرأة وعفافها مهما قال السماسرة وتجار الباطل في ذلك. يجب أن تكون أيها المسلم والمسلمة أصلب من الجبال وأقوى من الحديد والنار، تقف بكل شموخ واعتزاز رافعاً رايتك الإسلامية دون خجل أو حياء، وهذا هو زادك الذي لا بد لك من أن تأخذه معك في رحلتك هذه، رحلة الجنة تتطلب منك أن تتزود بكل الخيرات والأعمال الصالحة، وتخفف عن ظهرك من الذنوب والخطايا مهما أمكن فإن الجنة غالية لا تخطب إلا على المحسنين والعاملين في سبيل الله وسبيل الإنسان. . . الجنة عروس تتربع في آخر شوط الحياة لا يصل إليها إلا الخيرون والطيبون الذين يصبرون على مشقة هذا الطريق وأتعابه، ويحملون أنفسهم على العمل بطاعة الله واجتناب معاصيه. إن هؤلاء فقط يصلون إليها ويتنعمون بها، أما أصحاب الخطايا الذين يحملون على ظهورهم حملاً ثقيلاً يرهق كاهلهم، هؤلاء ليسوا من أهلها ولا هي أهل لهم، بل هناك، في آخر رحلتهم، تنتظرهم نار مؤصدة لا يقوى عليها بشر. . .

إن الإمام ينبهه ـ بل ينبهنا ـ إلى طريق نستطيع أن نحفظ بها ودائعنا ونجمد بها أرصدتنا ليوم فقرنا وحاجتنا. إنه يرشدنا إلى أمين يحمل لنا زادنا ومؤونة نحتاجها يوم نغدو إلى ربنا. . . إنه يدلنا على هؤلاء الفقراء أن نمد أيدينا إليهم بالصدقة والإحسان وقضاء الحاجة وإدخال السرور عليهم، أن نتواضع لهم ونفعل لهم الخير ونهتم بشؤونهم، أن ننصحهم ونصلح بينهم ونسعى في تفريج كربهم. . . فإن كل ما نفعله ونسديه لهم يرجع أجره لنا وثوابه علينا. . . «فمن أدخل سروراً على مؤمن كان كمن أدخله على الأئمة[1] والنبي ومن قضى حاجة مؤمن ناداه الله تبارك وتعالى: عليّ ثوابك ولا أرضى لك بدون الجنة». ومن نفّس عن مؤمن كربة نفّس الله عنه كرب الآخرة. . . ومن أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ومن سقى مؤمناً سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كسا مؤمناً ثوباً من عرى كساه الله من استبرق الجنة، ومن كسا مؤمناً ثوباً من غنى لم يزل في ستر من الله ما بقي من الثوب خرقة. ومن أخذ من وجه أخيه المؤمن

(١) هذه متون الأحاديث في كتاب الكافي.

قذاة كتب الله له عشر حسنات، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة. . . ومن زار أخاه في الله قال الله عز وجل: «إياي زرت وثوابك عليّ ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة. . . ».

فإن هذا النموذج الطيب من الأحاديث يكشف عن أن كل فعل يقوم به الإنسان يعود صالحه له وثوابه عليه كما يقول تبارك وتعالى: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾**. والعاقل هو ذلك الرجل الذي يتزود من الدنيا ويحمّل غيره الثواب والأجر كي يلاقيه به في تلك الكرب العظام يوم القيامة. . .

العاقل هو الذي لا يتأخر عن فعل الإحسان مع الناس عند أول قدرته بل يغتنم الفرص كي يسدي المعروف إلى أهله لأنهم السبب في عود الخير عليه ودّر المنفعة لجانبه، فلعله يطلبهم في يوم ما فلا يجدهم ويبحث عنهم فيفقدهم. . . فيكون قد خسر ربحاً وضيّع ما هو بحاجة إليه. . .

(واعلم أن أمامك عقبة كؤوداً، المخف فيها أحسن حالاً من المثقل والمبطىء عليها أقبح حالاً من المسرِع، وأن مهبطك بها لا محالة إما على جنة أو على نار. فارتد لنفسك قبل نزولك، ووطّىء المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعتب، ولا إلى الدنيا منصرف) نعم إنها عقبة صعبة المرتقى، عقبة مرتفعة شاهقة يتعثر الإنسان بما فيها من منعرجات ومنعطفات، وما فيها من عثار ومشاكل. عقبة ولا عقبات الدنيا التي يستطيع المرء أن يقتحمها ويجتازها. . . إنها عقبة كؤود مخيفة يجتازها الإنسان وسط الأهوال المرعبة والمنعطفات المضلة. . . إنها عقبة لا يجتازها إلا من استعد لها وهيأ نفسه، إلا من نظر إليها وعرف حقيقتها. وكيف أن عقبات الدنيا يكون المخف أيسر اجتيازاً لها من المثقل، فكذلك عقبات الآخرة من كان أقل وزراً وأخف حملاً، من لم يرتكب حراماً ولم يفعل إثماً، من لم يعتد ولم يتجاوز المرسوم له. يكن أسرع في اجتيازها وأشد قوة في اقتحامها. من كان خفيف الحمل من أوزار الدنيا وآثامها أصبح يسيراً عليه عبورها، وهذا عكس المثقل. عكس من حمل على ظهره وبيده وكان بديناً فإنه سيسقط في منتصف الطريق! سيهوي إلى الأرض ويصعب عليه أن يقف بعدها. ولربما استطاع أن يترك حمله ويتخفف في الدنيا لاجتيازها ولكن كيف يتخفف في الآخرة من الأوزار والآثام وهي لازمة له لا تتركه ولن يستطيع التخلي عنها لأنها كسب يديه وجوارحه التي لن تفارقه بل سيحاسب عليها ويعاقب على فعلها. . .

وإن هذه العقبة كانت أمام أنظار الأتقياء، وفي رأس القائمة التي كانوا يحسبون لها ألف حساب وحساب. كانوا إذا تذكروها جرت مدامعهم وتحركت عواطفهم وجاشت

أنفسهم وخافوا من ذنوبهم فبكوا، وتأسفوا وتحسروا، وندموا على ما مضى من أعمارهم. إن هذه العقبة قد نظر إليها أناس بعين البصيرة فرسموا لها طريق الخلاص فكانوا والجنة كمن هم فيها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن هم فيها فهم فيها معذبون. . . كانوا يعدون العدة لاجتيازها بكل يسر وسهولة. . . كانوا يعرفون أن الأوزار والآثام وأفعال الحرام والاعتداء على الناس والظلم والتجاوز على العباد كلها أثقال تبطىء الإنسان عن اجتيازها، فلذا لم يفعلوا حراماً ولم يكسبوا مأثماً، بل إن الأئمة كانوا في مواقفهم أمام الله يحسبون له الحساب ويستعدون ليوم اللقاء وهم المعصومون المنزهون الذين لم يقترفوا ذنباً ولم يفعلوا حراماً. فاسمعوا إلى الإمام زين العابدين في حديث طاووس اليماني. . . يقول طاووس: رأيت علي بن الحسين يطوف من العشاء إلى سحر ويتعبد فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه وقال: إلهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدّي محمد في عرصات القيامة ثم بكى وقال: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌ ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليّ فأنا الآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط. ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربي؟ ثم بكي وقال:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح ردية ... وما في الورى جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: سبحانك تُعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تُعصَ، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت يا سيدي الغني عنهم. ثم خرّ إلى الأرض ساجداً فدنوت منه وشلت رأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالساً وقال: من ذا الذي شغلني عن ذكر ربي فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله.

قال: فالتفت إليّ وقال: هيهات، هيهات يا طاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه ولو كان حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ. . .**﴾ والله

لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح. . .

ففي هذه الحادثة الرائعة نقف أمام نموذج من أرقى النماذج البشرية على الإطلاق وندرك السر العميق في تقدم أهل البيت صلوات الله عليهم على جميع العالمين. إنهم عرفوا الحقيقة ووقفوا عليها وعاشوا معها وتفاعلوا مع إرادتها فكانوا من أخلص الناس لله وأشدهم تعبداً له ورهبة منه. كانوا يعدون العدة لذلك الموقف الرهيب ويستعدون للإجابة عن كل حركة قاموا بها أو يقومون. إنهم لم يعصوا الله ما أمرهم ومع ذلك كانت هذه سيرتهم. . . كانو يرسمون لنا الطريق ويضعون لنا المعالم البارزة التي تقودنا إلى مرضاة الله وجنانه. . . فإن هذه العقبة لا بد وأن توصل إلى أحد موضعين، في أحدهما يجد الإنسان النعيم والسرور والكرامة والعزة وفي الآخر يجد الذل والهوان والخزي والعار، في الأول يدرك رضا الله ويفوز بجنة عرضها السماوات والأرض وفي الآخر يهوي إلى النار وغضب الجبار، ويا بئس المنزل والمكان.

إن هذه النتيجة التي تنتظر الإنسان بعد العقبة يستطيع أن يقررها بيده. وأي عاقل يتنازل عن الجنة وما فيها؟ وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكن هذا المقصد والهدف يتطلب منك أن تقدم أمامك وأنت في دار الدنيا، أن تقدم ما يؤهلك للوصول إلى مرادك. وما يؤهلك لذلك إنما هو العمل الصالح والإحسان للناس ومعونتهم وتخفيف آلامهم والقيام بأوامر الله كلها والاجتناب عن معاصيه كلها، فإذا الجنة بين يديك وإذا أنت في رياضها ونعيمها. . . وأما إذا وفدت بدون أعمال صالحة فليس لك عودة إلى الدنيا كي تحسن أعمالك وتقوم بالواجب عليك وتدرك الجنة من جديد. إنه امتحان واحد من استعد له ونجح فاز ومن أهمل وضيّع سقط ولم يفلح ولم يستطع تدارك ما فات. . .

(واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة، ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المثاب وباب الاستعتاب) في هذا الفصل الشريف من الوصية العلوية يطرح الإمام أمامنا مسألتين وهما من صلب الإيمان ومن أهم الواجبات في الإسلام (الدعاء، والتوبة) ونحن نريد أن نقف أمام كل موضوع وقفة قصيرة.

الدعاء:

تعبير عن لقاء بين هذا الإنسان وبين الله، فالعبد يتوجه إليه بخشوع وضراعة وهو تعالى يقبل عليه ويستجيب له فيلتقي الدعاء مع الإجابة للتدليل على أن الله الخالق البارىء المصور الذي خلق هذا الكون وصوره ونفخ في هذا الإنسان فأحياه لم يتخل عنه ولم يتركه وشأنه في متاهات الحياة ومساربها بل هو قريب منه يسمع شكواه وتضرعه، بل أكثر من ذلك هو الذي يأمر هذا العبد ويدفعه إلى الدعاء والسؤال كي يتوجه هذا العبد بإخلاص وصفاء ونزاهة نحوه ينشده وينقطع إليه فيحقق العبودية الكاملة باللجوء إليه والاستغناء به عن من سواه...

الدعاء والقرآن:

أكد القرآن على التزام الدعاء والتعبد به والحث عليه والاعتناء به وهذه نماذج قليلة مما ورد فيه.

ـ قال تعالى: **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾**(١).

ـ قال تعالى: **﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾**(٢).

ـ قال تعالى: **﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾**(٣).

ـ قال تعالى: **﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾**(٤).

الدعاء والسنة:

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض.

ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء.

ـ عن حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت للباقر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟

---

(١) سورة البقرة، آية/ ١٨٦.

(٢) سورة المؤمن، آية/ ٦٠.

(٣) سورة المؤمن، آية/ ٢٤.

(٤) سورة الفرقان، آية/ ٧٧.

فقال: ما من شيء أحب إلى الله من أن يسأل ويطلب ما عنده وما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده.

ـ عن الصادق عليه السلام: عليكم بالدعاء فإنكم لا تقربون إلى الله بمثله ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها صاحب الصغار هو صاحب الكبار.

ـ عن علي عليه السلام قال: أحبّ الأعمال إلى الله سبحانه في الأرض الدعاء وأفضل العبادة العفاف.

تساؤل:

إذا كان الله تعالى يحب الدعاء ويحث عليه ويعد الإنسان بالاستجابة له فما معنى عدم الاستجابة لكثير من الداعين والمتوجهين إليه؟ إننا ندعوه كثيراً ونتوسل إليه كثيراً ونضرع إليه كثيراً ومع ذلك لم نجد الاستجابة إلا في بعض الأحيان فما هو السر في ذلك؟! إن السر في ذلك هو عدم اجتماع شرائط الدعاء فكما أن التجربة لا تعطي نتيجتها المطلوبة إلا إذا اكتملت كل عناصرها كذلك الدعاء لا يكون مستجاباً إلا إذا اجتمعت فيه كل الشرائط ونحن نذكرها باختصار.

الأول: الإخلاص في الدعاء بأن يخرج الدعاء من القلب، من العمق الداخلي للإنسان، بأن يستشعر عظمة الله ويستحضر حاله بين يديه، ويناجيه بصدق ويقين فيشعر عند دعائه أنه أمام الله من حيث إن الله يرى المقام ويسمع الكلام ويخاطبه بتضرع وخشوع وتوجه وانقطاع. وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿**وادعوه مخلصين له الدين**﴾. وهكذا في تعبير الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة.

الثاني: تقوى الداعي بأن يكون المسلم ملتزماً جانب السماء لا ينحرف يميناً ولا شمالاً ولا يترك واجباً أو يرتكب محرماً بل يكون مستقيماً في سلوكه سائراً على الجادة الواضحة التي رسمها الله تعالى فإنما يتقبل الله من المتقين الذين خافوا من الله وحسبوا له حسابه في أيام رخائهم كما حسبوا حسابه في أيام شدتهم... أما من كان يعج بالمعاصي ويتقلب بالحرام ويسبح في بحار الرذيلة فهذا بعيد عن الإستجابة.

ـ عن الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إذا أراد أحدكم أن يستجاب له فليطب كسبه وليخرج من مظالم الناس وأن الله لا يُرفع إليه دعاء عبد وفي بطنه حرام أو عنده مظلمة لأحد من خلقه.

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه وإن دعا لم يستجب له ولم يؤجره الله على ظلامته.

ـ عن بعض أصحاب الإمام الصادق قال: قلت له: آيتان في كتاب الله لا أدري ما تأويلهما؟ فقال: وما هما؟ قال: قلت: قوله تعالى: ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾ ثم أدعو فلا أرى الإجابة. قال: فقال لي: أفترى الله تعالى أخلف وعده؟ قال: قلت: لا . . . إلى أن قال: لكني أخبرك إن شاء الله تعالى: أما أنكم لو أطعتموه في ما أمركم به ثم دعوتموه لأجابكم ولكن تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم . . .

الثالث: المصلحة في المطلوب ـ والتعجيل:

الإنسان باعتباره يجهل الكثير من المصالح فربما دعا بما فيه الضرر له والله سبحانه نظر إلى ذلك حينما قال: ﴿**ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا**﴾ فإذا دعا بما فيه ضرر عليه فالله لن يستجيب له إذ ربما رغبت الزواج بامرأة كانت في نظرك صالحة مطيعة ذات أخلاق حسنة فتدعو الله أن يوفقك للزواج منها ولكن الله باعتباره الخالق والعالم بالحقيقة والواقع بما أنه يعلم واقعها وأنها على خلاف ذلك فلا يستجيب لمصلحة راجعة لك فنظرك كان سطحياً وعلى أساسه رغبت فيها جاهلاً ما سوف يقع من مشاكل وأحداث إذا تم الزواج. وهذا ما عبر عنه الإمام بدعائه: ولعل الذي أبطأ ـ في الإجابة ـ عني هو خير لي لعلمه بعاقبة الأمور. هذا في المصلحة الشخصية وقد تكون المصلحة العامة هي المطلوبة كما لو دعوت الله أن ينزل الغيث لمصلحتك الشخصية مع أن نزوله فيه ضرر عام . . .

وكذلك قد يستجيب الله الدعاء ولكن يؤخر التنفيذ إلى الوقت المناسب لمصلحة يعلمها هو ونجهلها نحن.

عن أبي عبد الله (ع) قال: إن العبد ليدعو فيقول الله عز وجل للملكين قد استجبت له ولكن احبسوه بحاجته فإني أحب أن أسمع صوته.

عن أبي عبد الله قال: كان بين قول الله عز وجل: «قد أجيب دعوتكما» وبين أخذ فرعون أربعون عاماً.

آداب الدعاء:

ذكرت كتب الأدعية آداباً ينبغي أن يكون[1] عليها الداعي منها:

---

(١) عن البحار.

١ ـ ما يتقدم الدعاء: وهو الطهارة وشم الطيب والرواح إلى المسجد والصدقة واستقبال القبلة، وحسن الظن بالله في تعجيل إجابته وإقباله بقلبه وأن لا يسأل محرماً وتنظيف البطن من الحرام بالصوم وتجديد التوبة.

٢ ـ ما يقارن الدعاء وهو ترك العجلة فيه والإسرار به والتعميم وتسمية الحاجة والخشوع والبكاء والاعتراف بالذنب وتقديم الأخوان ورفع اليدين به والدعاء بما كان متضمناً بالاسم الأعظم والمدحة لله والثناء عليه تعالى وأيسر ذلك قراءة سورة التوحيد وتلاوة الأسماء الحسنى.

٣ ـ ما يتأخر عن الدعاء وهو معاودة الدعاء مع الإجابة وعدمها وأن يختم دعاءَه بالصلاة على محمد وآل محمد وقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

٤ ـ أن يتحين الأوقات الشريفة.

من لا تستجاب دعوته:

هناك روايات تعرضت لأسباب عدم إجابة الدعاء ولعل أهمها أن لا يكون الإنسان متواكلاً متخاذلاً كسولاً خمولاً يعتمد على الدعاء فحسب دون الأخذ بالأسباب والمقدمات التي أمر الله بها. فإن العبد إذا توجه إلى الله وترك الأخذ بالأسباب التي جعلها الله لا يكون دعاؤه ناجحاً لأنه لم يستكمل شروطه التي من جملتها تهيئة الأسباب، فإن الله وإن كنا نعتقد ونعلم أنه القادر ـ أنه يخرق الأسباب وتحصل المعجزة بكلمة (كن) فيكون، هو سبحانه الذي جعل قبول الدعاء مشروطاً بتهيئة المقدمات من الإنسان فمن مرض وجب عليه أن يذهب إلى الطبيب ويستعمل الأدوية، ومع ذلك يتوجه إلى الله بالدعاء، فيكون قد فعل ما أمره الله به، ومن أراد أن ينتصر في معركته على الأعداء هيأ أسباب النصر من العدة والعدد والقوة ثم يدعو الله فيستجيب الله دعاءه. فالرجوع إلى الأسباب ترجع إلى الله الذي جعلها وفرض علينا القيام بها، وما ذلك إلا لكي نرفض الخمول والكسل والتواني وهذه نماذج لمن لا يستجيب الله دعاءه:

ـ عن الصادق عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم دعاء، رجل جلس في بيته يقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟ ورجل كان له مال فأفسده فيقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالإصلاح ثم قرأ: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا وكان بين ذلك قواما﴾**، ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة فيقول: ألم آمرك بالشهادة. . .

ففي هذا الحديث الشريف نقف على أهمية السبب ودوره في استجابة الدعاء وإن من تركه لا تقبل دعوته.

الدعاء في أيام الرخاء:

كثيرون هم الذين لا يعرفون الله إلا في أوقات الشدة والألم وفي أوقات المصيبة والنكبة، وأما إذا انكشفت عنهم تلك الغيوم السوداء نسوا الله ولم يتعرفوا عليه... إذا كانوا في رخاء وسعة وفي صحة وأمن لم يعرفوا الله ولم يحسبوا حسابه ولم يتوجهوا إليه بالدعاء والضراعة، وهذا ما عبّر الله تعالى عنه بقوله: **﴿وإذا مسّ الإنسان ضرٌّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾**. وقال تعالى: **﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾**. فهذه الآية القرآنية تكشف حقيقة يعيشها الكثيرون منا إن لم نكن كلنا نعيشها... وهي تذّم هؤلاء القوم وتريد من الإنسان أن يكون مع الله في سرائه، كما هو في ضرّائه وفي ضيقه كما هو في سعته، يجب أن يبقى هذا الإنسان مع الله في كل أحواله بل الأحاديث الشريفة تؤكد على أن المؤمن يجب أن يكون أقرب إلى الله في حال الرخاء من أيام البأساء والضراء...

ـ عن النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة فإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله..».

ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: اذكرني في سرائك استجب لك في ضرائك».

لمن ندعوا:

وردت الأحاديث في الحث على أن يدعو المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب أكثر مما يدعو لنفسه، وهذه النظرة الإسلامية تعكس صورة التعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي فيشعر الأخ أن معه الناس كلهم فإنهم إذا لم يستطيعوا أن يقدموا له معونة أو يرفدوه بما هو بحاجة إليه، أو ينقذوه من المحنة التي ألمّت به فإنهم معه في شعورهم وعواطفهم وأفكارهم يعيشون معه ألمه ومشاكله وكما يقول الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

فلئن عز الحل واستعصت المشكلة لقصر في اليد أو لعدم الحيلة لوجه المطلوب،

فليكن الدعاء هو الوسيلة التعبيرية عن الرصيد الداخلي لهذا الإنسان اتجاه أخيه الإنسان. . .

وإن هذه الأحاديث الكريمة تعكس مدى فيض الله وجوده ومقدار كرمه وعطائه، وكيف يعطي الداعي لأخيه ضعف بل أضعاف ما طلبه لأخيه وتلك فيوضات الله وعطاءاته السخية الكريمة.

ـ يقول الصادق عليه السلام: من دعا لأخيه بظهر الغيب وكّل الله به ملكاً يقول: ولك مثلاه فأردت أن أكون إنما أدعو لإخواني ويكون الملك يدعو لي لأني في شك من دعائي لنفسي ولست في شك من دعاء الملك لي.

ـ عن عبد الله بن سنان قال: مررت بعبد الله بن جندب فرأيته قائماً على الصفا وكان شيخاً كبيراً فرأيته يدعو ويقول في دعائه: اللهم فلان بن فلان، اللهم فلان بن فلان، اللهم فلان بن فلان ما لم أحصهم كثرة. فلما سلم قلت له: يا عبد الله لم أر موقفاً قط أحسن من موقفك إلا أني نقمت عليك خلة واحدة.

فقال لي: وما الذي نقمت عليّ.

فقلت له: تدعو للكثير من اخوانك ولم أسمعك تدعو لنفسك شيئاً. فقال لي: يا عبد الله سمعت مولانا الصادق عليه السلام يقول: من دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب نودي من أعنان السماء: لك يا هذا مثل ما سألت في أخيك ولك مئة ألف ضعف مثله، فلم أحب أن أترك مئة ألف ضعف مضمونة بواحدة لا أدري تستجاب أم لا. . .

وانظر إلى هذه الحادثة لبعض الصالحين التي تدلل على أن المؤمن يجب أن يتفاعل مع اخوانه ولا يقتصر على ألفاظ الدعاء فحسب، بل يجب عليه أن يمد إليهم يده بكل ما يستطيع ويوفر لهم أسباب النجاح لكل غاية يأملونها ولكل مشكلة يريدون حلّها. يقال إن بعض الصالحين كان في المسجد يدعو لإخوانه بعدما فرغ من صلاته، فلما خرج من المسجد وافى أباه قد مات، فلما فرغ من جهازه أخذ يقسّم تركته على إخوانه الذين كان يدعو لهم فقيل له في ذلك. فقال: كنت في المسجد أدعو لهم في الجنة وأبخل عليهم بالفاني. . .

مدرسة أهل البيت في الدعاء:

تمتاز مدرسة أهل البيت بمنهاج خاص في الدعاء. تجد على كل فقرة من الفقرات الثابتة عنهم روح العترة الطاهرة وأنفاس أهل بيت النبوة، إنها تمتاز بقوة السبك وعمق

المعنى تشد الفرد إليها قهراً عنه وتطهره من كل خبث وزيف وتجعل منه إنساناً صالحاً تنعكس على نفسه كل معالم الخير والرحمة والتعاون والتآلف. . .

إن هذه الأدعية تمثل خلاصة الإسلام في تعاليمه ومفاهيمه عن الله وعن الإنسان، عن الكون وعن الحياة، عن الموت وما بعد الموت، وتعد الفرد إعدادً فذاً لمواجهة المجتمع ومشاكله وأحداثه وشؤونه، وتدخل على نفس هذا الإنسان لتصفيها من جميع الشوائب والمشاكل وتطهرها من جميع النقائص والرذائل وتحملها على جناح الفضائل إلى رحاب الله ورحمته.

فانظر إلى دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين تجد صحة ما نقول، وعرّج على دعاء الصباح أيضاً وكرر النظر فتجد التعليم والإرشاد والنصيحة والموعظة وتجد العظمة والسمو. . .

وهكذا أرم ببصرك نحو الصحيفة السجادية (زبور آل محمد) فاقرأها وتمعن بها وفكر في فقراتها، واحكم كما شئت ولا أراك إن أن تحكم بأنها تشكل الحلقة المفقودة عند سائر المذاهب الإسلامية الأخرى. إنها حلقة تربط القرآن بالسنة بمفاهيم الإسلام وتعاليمه وأنعم بها من حلقة ترفع الرأس ويعلو بها الجبين.

هذا الحديث كله كان بالنسبة إلى الدعاء قدّمناه بصوره موجزة وكنا قد وعدنا بالحديث عن التوبة، وقد جاء دورها. . .

التوبة:

المعصية تمرّدٌ على الله وطغيان على أحكامه، إنها تشكل الوقوف في وجهه والتحدي له في بعض صورها، وتشكل في بعضها الآخر ضعفاً في الإيمان وخفة في اليقين، يتغلب فيها جانب النفس والشهوة على جانب الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية. المعصية عملية اجتياز للقانون ومخالفة له، وبمقدار احترام المشرع ونفوذ كلمته لديك وقيمته عندك تحاول أن تمتنع عن مخالفة أحكامه، بل تسعى بكل طاقاتك أن تقترب منه بإظهار الطاعة والمودة وحصول أكبر مقدار من الامتثال لكل أمنياته فضلاً عن أوامره وأحكامه. وإذا كانت المعصية تشكل التمرد والطغيان فإن التوبة إليه تشكل الرجوع والإنابة، وتشكل الندم والاعتذار وتشكل التصميم على السير وفق نهجه الذي رسمه والخطة التي يرتئيها. إنها تتمثل بلوعة في القلب وبحرقة إثم المعصية السابق ودمعة في العين يسكبها التائب في جوف الليل، وتصميم على عمل البر والخير فيما بقي من أيام

عمره. التوبة عودة إلى رحاب الله الواسعة، إلى الطاعات والأعمال الصالحة... إلى كنف جبار السماوات والأرض، إلى القوة المطلقة المهيمنة على الكون والوجود، إلى مصدر النعم ومفيضها على الكائنات بأسرها...

بين التوبة الإسلامية والاعتراف المسيحي:

بين التوبة والاعتراف المسيحي فارق جوهري، ففي حين أن التوبة رجوع إلى الله واستغفار منه، وهو الذي عصي نجد أن الرجل في المسيحية يقف أمام القس ليعترف بكل جرائمه وانحرافاته ظناً منه أن هذا الاعتراف يمحو عنه السيئات ويكفر الخطيئات، والإسلام يرى حرمة الحديث أمام الناس في المعصية التي اقترفها الفرد، لأنه يعترف لإنسان خطّاءٍ مثله يحتاج هو إلى الاعتراف، مضافاً إلى أن هذا الشخص المعترف أمامه من هو الذي وكّله عن الله حتى يُعترف أمامه؟! وقد يكون أسوأ حالاً من صاحب الاعتراف.

ففي حين يقف المسلم أمام الله الذي عصاه وقفة عودة إليه ورجوع إلى رحابه، يناجيه بلسانه ويتوجه إليه بقلبه دون واسطة ولا شفيع، يقف المسيحي أمام إنسانٍ مثله ليفضح نفسه ويهتك ستره ويظهر معايبه دون أن يملك الوسيط حق الشفاعة أو المغفرة. الاعتراف في المسيحية مبني على الطبقية وأن هناك طبقة الكهنة تمتلك حق المغفرة للذنب وبيدها الحل والعقد دون سائر الناس. وهذا خلاف النظرة الإسلامية التي ترفض مصطلح رجال الدين، كما ترفض احتكار إقامة الشعائر الدينية ضمن طبقة معيّنة تمتاز عن غيرها، إذ يرى الإسلام أن المسلمين كلهم مكلفون بمعرفة دينهم يؤمّهم في صلاتهم العدل منهم ويعقد لهم عقد النكاح أي إنسان يعرف أداء صيغته كما يُحُلُّ هذا العقد بالطلاق كل من كان عدلاً وقد توفرت شروط الطلاق، وهكذا سائر التكاليف يشترك فيها المسلمون كلهم دون ميزة لأحد منهم على الآخرين إلا بالعلم والتقوى...

الاعتراف في المسيحية تكريس لسلطة رجال الدين الذين مارسوا الظلم خلال العصور المظلمة من التاريخ حيث تحالفوا مع الملك الظالم والإقطاعي الفاسد في قهر الشعب الأعزل واستعباده. وقد كان لقضية صكوك الغفران والنكتة التي يعبر عنها شراؤها أسوأ الأثر على الدين والله، وألحق الضرر بكل الأديان ورسالات السماء. ولولا هذه الطبقية لرجال الدين المسيحي والممارسات الحمقاء التي استغلوا فيها الدين من أجل صيد الدنيا لما كان للشيوعية أثر أو خبر، ولكن ردة الفعل على تجاوزات رجال الدين المسيحي جاءت ماركسية تحارب الدين وتعاديه وتنبذه بكل عيب وضلال.

فما أجمل وأروع الوقفة أمام الله الذي يملك الحكم والأمر والنهي، وما أقبح الوقفة أمام إنسان مثلك لا يملك من أمره فضلاً عن أمرك شيئاً.

الوقفة أمام الله وقفة عز وشموخ ورجوع إلى مالك السماوات والأرض والوقفة أمام الإنسان وقفة مضحكة ومسرحية صنعتها أيدي التجار من رجال الدين.

التوبة في القرآن:

أكد القرآن على وجوب التوبة والرجوع إلى الله في أكثر من آية من آياته.

- قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾[١].

- قال تعالى: ﴿**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم**﴾[٢].

- قال تعالى: ﴿... **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾[٣].

- قال تعالى: ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**﴾[٤].

- قال تعالى: ﴿... **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[٥].

التوبة في السنة:

وقد وردت أيضاً الأحاديث الشريفة عن المعصومين تؤكد وجوب التوبة وتحث عليها وتبين شروطها وأهميتها ونحن سنكتفي بنقل عيّنات من تلك الأحاديث الكريمة...

١ - قال رسول الله - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢ - قال الإمام الباقر عليه السلام: إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل

---

(١) سورة التحريم، آية/ ٨.
(٢) سورة التوبة، آية/ ١٠٤.
(٣) سورة النور، آية/ ٣٩.
(٤) سورة الشورى، آية/ ٢٥.
(٥) سورة البقرة، آية/ ٢٢٢.

راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها. . .

٣ ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء.

التوبة الصحيحة:

قد يظن البعض أن كل من قال استغفر الله وأتوب إليه أو من ندم على فعل القبيح وتركه قد تحققت توبته وقبل اعتذاره، ولكن الصحيح أنه يجب مع ترك المعصية نهائياً والندم عليها والاستغفار منها أن يقوم بما يمليه عليه الله من الإصلاح والتدارك لما فات، فإن هناك أموراً يجب أن تتدارك بإقامتها أو ردها إلى أهلها أو الاستحلال منهم أو الاستغفار لهم وغير ذلك.

ـ فمن ترك الواجبات كالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس وجب عليه كي تتحقق التوبة الصحيحة أن يقوم بقضائها كلها.

من ارتكب المحرمات كالزنا وشرب الخمر والسحاق وغيرها أن يندم على فعلها وينوي عدم العودة إليها أبداً.

ـ ومن ارتكب أمراً بينه وبين العباد كالسرقة منهم والغصب وجب عليه أن يرد المسروق والمغصوب وكذا وجب أن يرد كل ما أخذه من الربا، فإن كان صاحبها موجوداً وهو غني أوصلها إليه وإلا وجب الاستحلال والمسامحة منه، وإما إذا كان غائباً ولا يعرف مكانه استغفر الله له وطلب المغفرة والرحمة. . . وتصدق به عنه. . .

ـ وإن كانت المعصية قتل نفس خطأ أوصل الدية إلى أهله وإن كانت عمداً اعترف أمامهم وخيرهم بمقتضى الشرع بين الأمور المذكورة في كتب الفقه وهكذا دواليك في سائر الأمور. فليس التوبة مجرد لقلقة لسان وإنما هي حرقة في الجنان، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال بحضرته: استغفر الله: ثكلتك أمك. أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتُذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد.

السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول استغفر الله...

وهذا الحديث الشريف من الإمام يكشف لنا حقيقة التوبة وجوهرها وما يتبعها من الواجبات التي يجب أن تتوفر فيها كي تقع صحيحة...

كل ذنب قابل للتوبة:

أريد أن ألفت النظر هنا إلى أن كل ذنب يقبل التوبة، وليس في المقام ذنب لا يغفر، بل إن الذنوب كلها قابلة للتوبة صغيرها وكبيرها مهما تصور الإنسان كبر الذنب وشدته ومهما عظم في عينه وتضخم عنده، فعند الله ليس كبيراً ولا جليلاً إذا تداركته التوبة الصحيحة والرجوع إلى الله رجوعاً سليماً، فإن قدرة الله لا يعجزها ذنب خاطىء أو انحراف منحرف إذا عاد إليه واستغفره وتاب...

قال تعالى: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾**(١) فهذه الآية الكريمة تفصح أن الله يغفر الذنوب جميعاً فليس عند العصاة من ذنب مهما عظم إلا وهو قابل للتوبة والله يقبلها إذا استكملت شروطها...

وإن العصاة مهما كانت جرائمهم يجب أن يضعوا في تصورهم أن الله يغفرها إذا صدقوا في توبتهم ولا يظنن أن جرمهم أكبر من عفوه فظنهم ذاك أكبر من خطيئتهم لأن هذا الظن فيه تحديد لصلاحية الله وقدرته من جهة وفيه تكذيب لصريح هذه الآية الكريمة التي تنطق بكل صراحة بقبول كل الذنوب للمغفرة...

إن القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته أكبر من الذنب وأشد، وهذا التصور يجب أن يضعه الإنسان أمامه ويتحرك على أساسه ولذا نهى الله عن القنوط من رحمته كما نهى عن اليأس منها كما قال: **﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾**(٢).

---

(١) سورة الزمر، آية/ ٥٣.

(٢) سورة يوسف، آية/ ٨٧.

ونحن من هذا البيان لأهمية الدعاء ودوره في صقل روح المؤمن ونفسه، ولأهمية التوبة ودورها وأهميتها، نرى الإمام في فقراته العلوية يشدد على التوجه نحو الله بالدعاء ويقول: «واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفّل لك بالإجابة» - ادعوني أستجب لكم - «وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه . . . » بل يستطيع كل فرد أن يلتقي بالله في دعائه ويتوجه إليه في آناء الليل وأطراف النهار، فليس هناك أوقات محظور فيها اللقاء وليس هناك موانع بل كل الأبواب مشرعة في كل الأوقات والأزمان.

وكذلك يشدد الإمام على التوبة فيقول: «ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة»، وكما في الدعاء وإنما يعجل من يخاف الفوت - «ولم يعيرك بالإنابة» كسائر الناس الذين إن أسأت معهم عيروك باعتذارك ورجوعك إليهم. . . «ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ولم يناقشك بالجريمة»، بل إذا صحت توبتك ستر عليك ذنبك ومحاسبتك وسدل الستار عليها وكأن لم تكن. . . «ولم يؤيسك من الرحمة بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً» كما في التنزيل حيث قال تعالى: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾[1].

(فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته فإن العطية على قدر النية. وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل) فإذا ناديته سمع نداءك وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وكيف لا يسمع عبده الذي توجه إليه بقلبه وضميره وهو قد أخذ على نفسه أن يستجيب الدعاء ويقبل النداء وإذا ناجيته علم نجواك وهو الذي يعلم السر وأخفى ويعلم ما تخفي الصدور ولا يخفى على الله خافية فإذا أفضت إليه بحاجتك وأبثثته ذات نفسك وشكوت إليه همومك واستكشفته كروبك واستعنته على أمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره. فإن الإنسان إذا أخلص في الدعاء وأيقن الاستجابة كان الله عند حسن ظنه ويقينه.

---

(١) سورة الأنعام، آية/ ١٦٠.

وينبغي للمؤمن أن يسأل ربه في أموره كلها ولكن أهمها وأحسنها الزيادة في العمر فإنه رأس المال ولكن هذا العمر يكون له جدواه وفائدته إذا كان عامراً بطاعة الله وتقواه وفي خدمة عباده ومصالحهم، وكما يقول مضمون بعض الأحاديث: ليس الحياة إلا لأحد رجلين: رجل أخطأ فيتدارك خطأه بالتوبة، ورجل يزداد من طاعة الله.

وإلا فالعمر يكون وبالاً عليه ومصيبة، فإن عمراً يصرف في الملاهي والمجون والخيانة والدعارة ويلقي صاحبه في جهنم إنه لعمر سيء مشؤوم. وما أكثر الذين تمتد بهم الأعمار ويعمرون في هذه الديار، ولكن أعمارهم كلها قضيت في التفاهات وفي إيذاء الناس وإهاناتهم.

مثل هذه الأعمار تعود على أصحابها بالخسران وعذاب الله العزيز الجبار... فينبغي للمؤمن أن يستغل عمره كله في طاعة الله ومرضاته...

ثم إن من الأمور المهمة والتي تحتاج إلى الدعاء كي تستمر وتدوم صحة الأبدان، فإنها النعمة التي لا يعرف السليم قيمتها ولا يدرك أبعادها إلا بعد أن يقع فريسة المرض وعندها فقط يدرك أهمية الصحة وقيمتها وكما قيل: نعمتان مجهولتان الصحة والأمان... فإن الصحة تجعل من الإنسان حركة دائمة ومسيرة مستمرة. بصحة البدن يؤدي المرء حق الله من صلاة وصيام وحج وغيرها، كما يؤدي حق العباد في إعانتهم ومساعدتهم ومد يد العون إليهم. بالصحة يحقق الحركة التي تتطلبها الحياة العزيزة الكريمة... ويحق عمارة البلاد وازدهارها، وأما المرض فإنه يقعد الأسد الهصور والشجاع الغيور، وكم رأينا من الناس العظام الذين ألّم بهم المرض فأقعدهم عن نشاطهم وشل حركتهم وأوقف مسيرتهم. إن هذا البدن من أشد الأجهزة تعقيداً ومن أدقها حكمة وصنعة فتبارك الله أحسن الخالقين الذي نظم حركة هذا الجسد ورتبها ترتيباً معجزاً في كل شيء. فلو أخذنا العين هذه العدسة اللاقطة للصور ترى كم فيها من ألياف وأعصاب، وكم فيها من الأمور الدقيقة والجليلة بحيث لو تلف بعضها لفقد الإنسان الرؤية، وكذلك سائر أعضاء البدن تجدها من الدقة والحكمة في منتهى الإعجاز...

إن هذا الجسد العامر القوي الذي كان يتحدى الأبطال والفرسان، إذا نزل به المرض وخصوصاً إذا كان بدرجة قوية فتراه يتراخى ويتهاوى ويطلب النجدة والإسعاف...

وكما يقول أمير المؤمنين (ع): مسكين ابن آدم تقتله الشرقة وتنتنه العرقة وتؤلمه البقة...

وإزاء هذه الحالات الطارئة على الإنسان والذي لا يعرف متى تحدث ومم تحدث، وقد تحدث صباحاً أو ظهراً أو مساءً، قد تحدث من أكلة يتناولها أو شربة يرتوي منها، أو حادثة مزعجة تفقده أعصابه أو غير ذلك مما يمر علينا في الحياة. إزاء هذا الأمر المتوقع في كل لحظة وفي كل أمر يجب علينا أن نغتنم الفرص، فرص الصحة والعافية، يجب أن نغتنم أوقات الصحة لكي نؤدي حق الله وحق العباد لكي نؤدي الواجبات علينا، ونزداد من النوافل والمستحبات. . .

وكما يقول النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: اغتنم خمساً قبل خمس وعدّ منها «. . صحتك قبل سقمك»، فإن الجسد إذا كان صحيحاً وتهاون الإنسان بالقيام بواجباته أو في ازدياد الخيرات والأعمال الصالحة سيندم وتأكل نفسه الحسرات، سيندم عندما يمرض ويرى بأم عينه عجزه عن ممارسة ما يريد وعن القيام بما يتمنى. . .

ثم يذكر الإمام من الأمور التي لا يجب أن ينساها الإنسان في دعائه «سعة الأرزاق» فإن الإنسان إذا وسع الله عليه في رزقه وجب أن يتحول هذا الرزق إلى طاعة الله، ويجب أن يمد به الفقراء والمساكين ويساعد المعوزين والمحتاجين، يجب أن يتحول هذا المال إلى طاعة الله المتمثلة في إشباع الجياع وإكساء العراة وبناء البيوت للضعفاء.

إن سعة الرزق تمنع الإنسان أن يمد يديه إلى ما عند أخيه، فيمتنع عن سرقة أموال الناس كما تجعل يده هي العليا واليد العليا التي تعطي أفضل من اليد السفلى التي تأخذ، كما أن سعة الرزق يكون بها التوسعة على العيال وفي ذلك راحة واطمئنان. . .

المال يجب أن يتحول إلى أداة تستخدم في إنعاش المجتمع وفي الترفيه عن الناس يجب أن تتداوله الأيدي بالتجارة تارة والقرض أخرى والهبة ثالثة والصدقة رابعة والبر والإحسان خامسة وهكذا دواليك. . . يجب أن يتحول إلى نفع الناس وما فيه خيرهم ولا يجوز أن يتحول إلى غاية وهدف. لا يجوز أن يتحول إلى صنم يتجه إليه الإنسان فلا يفكر إلا في اقتناصه وتحصيله وكيفية اختزانه ومنعه عن أهله. لا يجوز أن يتحول المال إلى أداة إفساد ورعب، لا يجوز أن يجعل رشوة أو وسيلة لقطع الأرحام ومحاربة الأولياء والأتقياء. . . يجب أن ينفق في سبيل الله ولا يجوز اختزانه وكنزه كما قال تعالى في كتابه: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾**[1]. إن سعة الرزق نعمة يجب أن يزداد المرء بها من

---

(١) سورة التوبة، آية/ ٣٥.

تقوى الله، وحباً له وطاعة لأوامره وشكراً له على إحسانه وكرمه. إن سعة الرزق تستحق أن يقف الإنسان عندها وقفة اعتراف بالكرم الإلهي فيؤدي شكرها، ولكن للأسف الشديد فبدل ذلك سار أصحاب الأرزاق في الضلال والإسراف والبغي والعناد، لقد حولوا هذه السعة في الرزق إلى أداة زرع الفساد ونشر الضلال، ولقد رأينا بأعيننا كيف تحولت بعض الأموال والأرزاق من نعمة إلى نقمة، ومن منحة إلى محنة، فعندما كان فقيراً كان يتقي الله ويطيعه ولكن عندما مدّ الله له في الرزق والعطاء بغى وطغى فشرب الخمر وأكل الحرام وفتح باب السكر والانحراف وراح يسعى في إضلال الناس وإغوائهم ويساعد على انحراف المجتمع وإفساده. لقد تحول إلى عنصر مخرب يضرم نار الفساد في كل ما تطاله يده.

ثم إن الإمام رغبنا في أن القضية بأيدينا ومفتاح ذلك معنا نستطيع أن نستعمله متى أردنا ولذا قال: «ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته... فلا يقنطنك إبطاء إجابته فإن العطية على قدر النية وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل. وقد تقدم منا في مبحث الدعاء ما ينير لنا الدرب في شرح هذه الفقرات العلوية المباركة...

(وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك. فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته. فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له) نعم ربما طلب الإنسان أمراً فلا يؤتاه ويظن عندها الظنون والخواطر والأوهام ولكن قد يكون بطلبه ذاك ضياع دينه وخسران سعادته فعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، فإن الإنسان لقصوره قد يتصور أن سعادته تتحقق في هذا الأمر المطلوب ولكنه يجهل أن شقاءه قد يكون فيه.

ثم إن الإمام يوجه هذا الإنسان إلى أن يطلب معالي الأمور وكبارها ويهتم بالعظيم والجليل مما يحقق له سعادة الدارين ويكسبه رضا الله ولا يجعل كل همه في طلب المال الذي لن يبقى لهذا الإنسان ولا هذا الإنسان يبقى له.

(واعلم يا بني أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وإنك في منزل قلعة ودار بلغة وطريق إلى الآخرة، وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولا بد أنه مدركه. فكن منه على حذر أن يدركك وأنت

على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك) واعلم يا بني: أن هناك علة خلقت من أجلها فيجب أن تكون محط نظرك وجهاد عملك ولا يجوز لك أن تتوانى في تحصيلها أو تتكاسل في طلبها فمن توانى أو تكاسل لم يدرك مطلوبه ولم يحصل على غايته، ومن سوّف في تحصليها رجع خاسراً خاسئاً يندم في وقت لا ينفع فيه الندم، وإن هذه الغاية هي الآخرة التي يجب أن يبذل كل طاقاته من أجل ضمانها وإدراكها. وهذا لا يكون إلا إذا استطاع أن يقوم بمهامه الواجبة عليه واستطاع أن يخترق كل الموانع والعقبات التي قد تعترض طريقه أو تحجز مسيرته.. إنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا، وكيف يخلق للدنيا من تنقضي دنياه وهل يخلق لشيء يمر عليه دون استقرار وكيف يخلق لأمر لا دوام له ولا بقاء، مع ما في هذه الدنيا من المتاعب والمصاعب ومع ما فيها من الأحداث والمشاكل. لا لم يخلق الإنسان للدنيا كما أنه لم يخلق ليبقى فيها. وكما يعبر الإمام إنها منزل (قلعة) يعني يقتلع منها الإنسان ولا يبقى فيها بل يتحرك عنها ليحل محله آخرون يقومون فيها بما رسم لهم من عمل وما وجب عليهم من حق كما أنها دار يتبلغ بها الإنسان إلى الآخرة ويتزود فيها لأجل أن يعبرها نحو الآخرة.

ثم إن الإمام ينبه الأنظار إلى أن الإنسان في هذه الدنيا طريد الموت، فالموت يطارده ولا بد وأنه مدركه **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت[1] ولو كنتم في بروج مشيدة...﴾**.

قد تطول بعض الأعمار وقد يقصر البعض الآخر ولكن في النهاية لا بد من هذا الكأس الذي سيشربه كل إنسان. وإذا كان الإنسان ينتظر هذا الزائر القابض فلا بد وأن يكون دائم الاستعداد للرحيل، موطن النفس على قبوله. يجب أن يبقى في خط الله وضمن حدوده التي رسمها له... ولا يجوز له أن يتجاوزها أو يتخطى عنها. لا يجوز له إذا كان عاقلاً رشيداً عالماً، والموت يطلبه وقد يفاجئه في كل لحظة وفي كل ثانية، لا يجوز له أن ينحرف أو يضل ولا يجوز له أن يعصي الله أو يخالفه إذ ربما أتاه الموت وهو على تلك الحالة السيئة التي لم يتداركها بالتوبة فيهلك نفسه ويوبق آخرته. إنها ميتة السوء تلك التي تأتي الإنسان وهو على معصية من معاصي الله... وما أشأمها من ميتة وما أقبحه من مصير... أدركه الموت وهو متلبس بالجريمة والمخالفة... لقد قبض عليه بالجرم المشهود... قبض عليه وكلتا يديه في دم الضحية سابحة... وما أصعب الإجابة عندها... وما أقبح الاعتذار؟! هل يستطيع أن يقف أمام المحكمة العادلة التي

---

(١) سورة النساء، آية/ ٧٨.

لا تطلب شهوداً غير جوارحه وأعضائه. . .؟ فتبادر اليد لتشهد عليه بما جنى واقترف وتشهد العين عليه بالنظرة الحرام والمشهد الباطل، وتشهد الرجل عليه لأي حرام سار وفي أي طريق سلك. يشهد عليه جلده وسمعه وقلبه وفؤاده. تشهد عليه كل جوارحه يومئذ. **﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا. قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾**(١).

إن المعصية جريمة فإذا مات الإنسان على معصية الله يكون كما يقول أمير المؤمنين: قد أهلك نفسه، قال عليه السلام: فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك فإذا أنت قد أهلكت نفسك.

(يا بني أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتفضي بعد الموت إليه، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك ولا يأتيك بغتة فيبهرك وإياك أن تغتر بما ترى منه إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها، فقد نبأ الله عنها ونعت لك نفسها. وتكشفت لك عن مساويها، فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهر بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها. نعم معقلة وأخرى مهملة قد أضلت عقولها وركبت مجهولها، سروح عاهة بواد وعث، ليس لها راع يقيمها ولا مسيم يسيمها، سلكت بهم الدنيا طريق العمى وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى فتاهوا في حيرتها وغرقوا في نعمتها واتخذوها رباً فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها. رويداً يسفر الظلام كأن قد وردت الأظعان، يوشك من أسرع أن يلحق) تأكد الحثّ من الإمام على ذكر الموت والاعتبار بالأموات وما يعقب الموت من منزل الوحشة ودار الغربة، وما في تلك الحفرة الضيقة الصغيرة المعتمة وما ينتاب ذلك الجسد المدلل في دار الدنيا من البلى والتلف، وما يعرض عليه من التحلل والتآكل، فإنه سيصبح طعمة للدود والحشرات، وسيتحول ذلك اللحم الذي نما على الحرام إلى تراب تدوسه الناس بعد مئات السنين. وستصبح تلك العظام القوية إلى رميم، تتفتت إلى ذرات صغيرة لا يعلمها إلا الله. . . هذا كله ما نراه بالعين المجردة عند مرورنا على المقابر القديمة أو

---

(١) سورة فصلت، الآيات/ ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢.

عندما نفتح بعض القبور الدارسة. . . ولكن هذا يجب أن لا ينسينا الموقف الأهم الذي يتعرض له هذا الإنسان خلال فترة البرزخ وحساب الملكين له. وما أعده الله للمطيعين والعاصين، ويوم الحشر والنشر والعرض والحساب، هذه الأمور وإن كانت غائبة عن حواسنا ولسنا ندركها بعين البصر، فقد أدركناها من منطق الإيمان ووقفنا على الكثير من التفصيلات عن طريق أهل بيت العصمة والنبوة حيث زودنا الرسول الكريم وأهل بيته بما سوف يتعرض له الإنسان وما يمر عليه من المشاهد والمواقف، إنها مشاهد مروعة عندما يعيشها الإنسان وهو في دار الدنيا، عندما يقرأها تأخذ بمجامع قلبه وتهزه من الداخل ويشعر أنه يعيش تلك اللحظات القاسية التي يقف فيها أمام الملكين ويمر فيها على الصراط وكذلك خروج الناس من الأجداث حفاة عراة، كل إنسان قد شغله حاله وأهمته نفسه.

ونحن سنذكر طرفاً مما نقل في هذا المجال كي يقف كل واحد منا على بعض المشاهد فيستعد لها ويعد العدة لذلك اليوم الذي لا بد أن يأتي. . . إننا نذكر بعض تلك المشاهد لا لمجرد العرض بل لكي نستعد لها ونهيء أنفسنا لاجتيازها بنجاح ونصر.

ففي الكافي كما ينقل صاحب المحجة البيضاء بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة مثل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك. قال: فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محباً وأني كنت لكم محامياً فما لي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك فنواريك فيها، قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً وإنك كنت علي لثقيلاً فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربك، قال: فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنة ونعيم، ومقدمك خير مقدم فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح المرتحل من الدنيا إلى الجنة. وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله، فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجران أشعارهما ويخدان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: الله ربي وديني الإسلام ونبيي محمد. فيقولان له: ثبتك الله فيما تحب وترضى وهو قول الله عز وجل: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**، ثم يفسحان له في قبره مدّ بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة ثم يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم. فإن الله يقول: **﴿أصحاب الجنة يومئذ خير**

مستقراً وأحسن مقيلاً﴾. قال: وإذا كان لربه عدواً فإنه يأتيه أقبح من خلق الله زياً ورؤياً وأنتنه ريحاً فيقول له: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم وأنه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أدخل القبر أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثم يقولان له من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري فيقولان: لا دريت ولا هديت فيضربان يافوخه بمرزبّه ـ عصاة كبيرة من حديد ـ معهما ضربة ما خلق الله من دابة إلا وتذعر لها ما خلا الثقلين ثم يفتحان له باباً إلى النار يقولان له: نم بشرّ حال، فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزجّ حتى أن دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره. . .

وروى الصدوق في المرور على الصراط عن الصادق عليه السلام قال: الناس يمرون على الصراط طبقات، والصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً.

وفي الكافي عن بشير الدهان عن الصادق عليه السلام قال: إن للقبر كلاماً في كل يوم، يقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود، أنا القبر، أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. قال الشيخ الصدوق في رسالة الاعتقاد: اعتقادنا في ذلك ـ في العقبات التي على طريق المحشر ـ إن هذه العقبات اسم كل عقبة منها اسم على حدة اسم فرض أو أمر أو نهي، فمتى انتهى الإنسان إلى عقبة اسمها الفرض، وكان قد قصّر في ذلك الفرض حبس عندها وطولب بحق الله فيها ، فإن خرج منه بعمل صالح قدّمه وبرحمة تداركه، نجا منها إلى عقبة عقبة أخرى فلا يزال يدفع من عقبة إلى عقبة ويحبس عند كل عقبة فيسأل عما قصّر فيه من معنى اسمها فإن سلم من جميعها انتهى إلى دار البقاء فيحيى حياة لا يموت فيها أبداً ويسعد سعادة لا شقاوة معها، وسكن في جوار الله مع أنبيائه وحججه والصديقين والشهداء والصالحين من عباده، وإن حبس على عقبة فطولب بحق قصر فيه فلم ينجه عمل صالح قدمه ولا أدركته من الله تعالى رحمة زلّت به قدمه عن العقبة فهوى في نار جهنم. . .

هذه بعض اللقطات أكتفي بها عن ذكر غيرها ومن أراد الزيادة فعليه بمراجعة الكتب المتعرضة[١] لذلك وهذه الصور يجب أن يستعد المسلم لمقدماتها فيحسن أعماله ولا يتهاون فيما فرض الله عليه وأوجب، بل يبادر إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإلى

---

(١) مثل كتاب البحار، والمحجة البيضاء، وحق اليقين.

الجهاد والعمل الصالح ويبادر إلى تصحيح مساره وسلوكه كي تتوافق كلها مع أوامر الله ونواهيه وتأتي منطبقة تماماً مع مرادات الله وأحكامه.

إن على المسلم أن يكون دائم الاستعداد للرحيل من هذه الدنيا فيجب أن يقطع تعلقه بما فيها من بهارج ومن مال وعقار ويكون في شوق مستمر إلى لقاء ربه وخالقه. وهذا الفرد المتطلع إلى ذلك اليوم الكريم والمنتظر له، إنما هو الصالح من الناس الذي حسن عمله وزكّى تصرفه وأطاع ربه... إن على المرء أن يكون على الدوام مستعداً للرحيل حتى إذا فاجأه الموت كان على وضع يرضاه الله ويقبله، أما إذا فاجأه الموت وهو على خلاف ذلك فإنها الخسارة والإهانة ولذا قال الإمام: يا بني أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتفضي بعد الموت إليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك وشددت له أزرك ولا يأتيك بغتة فيبهرك.

ثم إن الإمام ينهاه بل ينهانا عن الاغترار بإخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها. وما أروع هذا النهي وأجلّه، إنه لا يرضى أن نخلد إلى الدنيا خلود أهلها إليها، فإن من أخلد إلى الدنيا وسكن إليها وإطمأنّ بها قطع الأرحام من أجلها وقتل النفوس من أجل تحصيلها وباع الأوطان في سبيلها من أخلد إلى الدنيا لم يعد يفكر إلا في الحصول عليها والوصول إليها، ولو كان ذلك على حساب الدين والضمير والمبادىء والقيم. إن كل شيء يتبخر أمام حفنة من المال يجمعها، أو لذة يقتنصها، أو شهرة يرتفع بها أو كرسي يعلو عليها. إن من انقطع إلى الدنيا وذاب في أشيائها وملذاتها ابتعد عن الحق وسار في طريق الباطل وغامر بكل ما يستطيع في سبيل تحصيلها. وما نجده أمامنا من الصور المأساوية من أدلّ الأمور على ذلك حيث نجد أهل الدنيا لا ينظرون إلى الفقراء ونجد الطغاة يتحكمون في رقاب الضعفاء ونجد الأقوياء يسيرون في عمليات البطش والدمار. إن حب الدنيا يُعمي ويصم فتتقطع به الأرحام فلا الوالد يعطف على ولده ولا الولد يحترم أباه وهكذا دواليك. إن الدنيا إذا تحولت إلى هدف بذاتها أفسدت الطبيعة البشرية وأضلت العقول السليمة، وراح كل إنسان يسابق الآخرين من أجل تحصيلها وتحصيل ما فيها... فيستبيح الغش والخيانة كما يستبيح الربا والسرقة ويستبيح جميع المحرمات من أجل أن يكسب الدنيا ويجمع ثرواتها. ومن هنا شبهها الإمام وشبّه أهلها بهذه التشابيه العادلة...

شبّه أهلها بالكلاب العاوية والسباع الضارية فكل واحد يصيح في وجه الآخرين ويشن عليهم حملة مسعورة من أجل مغنم يريده أو مكسب يبتغيه، وهم كالسباع الضارية الكاسرة، القوي يأكل الضعيف، والكبير يقهر الصغير. بعضهم لا يستطيع الحركة فهو

كالناقة المعقلة التي ربطت رجلها فامتنعت عن التصرف كما تشاء بل هي خاضعة لهذا العقال، ومنهم مرسلة مهملة تسرح كما تشاء وتتصرف كما تشاء وتعمل ما تشاء فليس لها رادع من دين أو مانع من ضمير فأفسدت وقتلت وسلبت وركبت رأسها وسعت في إضلال غيرها ولكن كل ذلك سيكشف أمام الملك العلّام فينجو المؤمنون السائرون على خطى الله ويسقط المتهاونون والمبتعدون عن ساحته ورضاه.

(واعلم يا بني أن من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً.

واعلم يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك، وأنك في سبيل من كان قبلك) شبه الليل والنهار بالمطية التي يركبها الإنسان ليقطع بها إلى مراده. ولئن كانت المطية قد تتعب الراكب وتضنيه إذا استغرقت الرحلة مدة طويلة ويشعر معها بالملل والتعب فإن الليل والنهار يسيران بالإنسان دون أن يشعر بهما أو يحس بوجودهما وذلك لأنهما يتكرران باستمرار، ومتى تكرر الشيء بطل الإحساس به والتفكير بأبعاده، لأنه يصبح أمراً مألوفاً كجزء منك...

ثم إن الإمام ينبه هذا الإنسان إلى أنه لن يدرك أمله ويعني بالأمل ليس أملاً معيناً فلربما أدركه ولكن ما إن يحقق الفرد أملاً إلا وبدت له آمال، وانفتح أمامه الكثير من الآمال. وهكذا دواليك فيأتي الموت والآمال تتراءى أمام الإنسان ولا يدركها، وهذا شيء مدرك بالوجدان يمر على كل واحد منا، كنا صغاراً وكانت آمالنا لا تعدو آمال أقراننا من أكلة نحصل عليها أو لذة نستوفيها، أو مقدار من المال نكتسبه، وعندما تقدمت بنا السن إلى الشباب تبدلت آمالنا فغدت زوجة وداراً وسيارة ومالاً، ولما تحققت هذه الأمور ارتفعت الآمال بارتفاع الهمم والرؤى، فغدت نظرة مستقبلية تتضمن تحقيق الحق وإزهاق الباطل وتحرير الأوطان والإنسان... بعد أن تقدمت بنا السن غدت آمالنا تحقيق إرادة الله ونشر الإسلام ورفع راية التوحيد. غدت فكراً إسلامياً يشع على الكون وشرعة ربانية تحكم الإنسان والمجتمع... إنه الأمل الذي يتجدد في كل مرة ويسير في عدة اتجاهات. والآمال التي تتخذ طابع النظرة إلى الله والدار الآخرة آمال ممدوحة لا تخالف أوامر الله ومرضاته بل هي من صميم الإسلام ومقتضيات الإيمان ولذا يتقدم الشهداء إلى ساحة المعركة أملاً بالنصر، فإن ماتوا قبل تحقيقه فقد يتحقق على أيدي المجاهدين بعدهم، ومن زرع ليأكل هو إن استمر على قيد الحياة أو يأكل غيره إن مات فهو أمل مقبول... أما الأمل المبغّض هو الذي يُنسي الآخرة ويمنع عن رؤية الحق... فيسترسل وراء أمله دون نظر إلى عواقب الأمور ونتائجها...

(فخفض في الطلب وأجمل في المكتسب فإنه رب طلب قد جر إلى حرب فليس كل طالب بمرزوق ولا كل مجمل بمحروم، وأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً. ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً. وما خير خير لا ينال إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر. وإياك أن توجف بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة، وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنك مدرك قسمك، وآخذ سهمك. وإن اليسير من الله أعظم وأكرم من الكثير من خلقه وإن كان كل منه) لقد أمرنا بالطلب والسعي وراء الرزق وأن الجالس في بيته المكتفي بدعاء اللهم ارزقني أحد الثلاثة الذين لا تستجاب دعوتهم لأنه قد طلب الرزق بغير أسبابه المشروعة التي وضعها الله وسنها لتحصيل ذلك. ولكن هذا الطلب والسعي يجب أن لا يكون إلى درجة النهم والجشع بل يجب أن يخفض الإنسان فيه ويرفق لئلا يحصل على عكس المطلوب فإن بعض أبناء الدنيا تراه ساعياً ليلاً نهاراً في سفره وحضره مجتمعاً مع الناس أو منفرداً بنفسه، حتى في صلاته وعبادته يفكر في الحصول على الدنيا ويبحث في عوامل اكتسابها وربحها. إنك تراه في هم دائم وحركة مستمرة وسعي متواصل لا ينام إلا في آخر الأوقات وتراه أول الناس قياماً، لا يأكل مع عائلته لقمةً واحدة ولا يراهم إلا في قليل من الأوقات. تراه يشتاق إلى رؤية أبنائه لأنه لا يعود إليهم إلا في آخر وقته عندما يكونون قد رقدوا إلى فراشهم، ويغادرهم قبل أن يستيقظوا. تراه تارة يركب البحر وأخرى يمتطي الجو وثالثة يقطع المفاوز والجبال. حياة كلها شقاء وتعب وعرق ونصب، حياة مملوءة بالمخاطر والمهالك. يطلب الثراء الفاحش والغنى الكثير، يريد أن يفاخر الأغنياء ويعيش مع الكبار من الطغاة وقوارنة المال. يريد أن يصبح من كبار أثرياء العالم... ولكن وللأسف ربّ طلب قد جرّ إلى حرب، كما يقول الإمام: فرب إنسان كانت تجارته صغيرة ذات رأس مال قليل تفي بحاجته ومصاريفه وهو بعد في حياة سعيدة فإذا به يحب أن يوسعها ويغامر بما عنده فإذا به يخسر كل ما عنده ويعلن إفلاسه أمام الناس، وربّ مهاجر مغامر قد جنى على نفسه. فليس كل طالب بمرزوق كما أن من أجمل بطلبه فليس بمحروم إذ ربما أتت النعمة ونزل الرزق على إنسان يجمل في الطلب ولا يكدح كدح المستميت... وهذا ما نراه بأم أعيننا...

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

ثم إنه عليه السلام أمرنا أن نكرم أنفسنا عن كل دنية مهما كانت عاقبتها. فالسرقة عمل دنيء وسافل وإن كان في ذلك تحصيل للمال واكتساب محرم له... والكذب عمل شائن ومهين وإن كان فيه جلب للمنفعة أو دفع للمفسدة. والخيانة جريمة ودناءة

وإن كان فيها ربح ومال. فإن كل هذا وما يشبهه وإن عادت على الفاعل بشيء من الفائدة والربح، ولكنها لن تعدل ما بذله من حق نفسه وماء مُحَيّاه. لأنه إذا انكشف أمره فسيسقط من أعين الناس ويحتقره المجتمع وإذا بقي جرمه بينه وبين نفسه وخيانته لم تتعدّاه، فإن كان ذا دين وضمير فإنه يعيش الألم والمعصية لشعوره بمخالفة دينه وضميره، وفي ذلك عذاب كبير ومهما كانت النتائج كبيرة تعدّ صغيرة إذا ما قيست بهذه المخالفة الإلهية والضميرية. هذا كله إذا كانت الدنيّة تتضمن مخالفة شرعية محرمة وقد تقتضي غير ذلك كما هي الحال في دنيّة السؤال والطلب، ومدّ اليد إلى الأغنياء والاستجداء من أصحاب الثراء، فإن هذه الدنيّة فيها بذل ماء الوجه ولا يعادل ذلك مال الدنيا، فيها يد سفلى تمتد إلى يد فوقها وفي ذلك منتهى الضعة والهوان، فإن الكرامة والعزة لا تقابل بالمال مهما كان كثيراً. . . لأنه يأتي ويذهب وتتداوله الأيدي ولا يستقر، ولكن الكرامة والعزة إذا أهدرت لا تعوّض وإذا ذهبت لا تعود. . .

ثم إنه ينهانا أن نتحول عبيداً لغير الله وقد جعلنا الله أحراراً. . . جعلنا أحراراً نمتلك حرية الإرادة والرأي فلا يجوز أن نتحول إلى أدوات تحركنا من خلفنا آراء الآخرين وتسيّرنا كما تحب وتشتهي. كما أننا أحرار في عقائدنا وأفكارنا فلا يجوز أن تملى علينا عقائد مستوردة وأفكار دخيلة غريبة، بل يجب أن نستقل في تفكرينا وعقيدتنا كما نستقل في إرادتنا ومرادنا. . .

كذلك يجب أن نبقى أحراراً في تصرفنا وحركتنا فلا يجوز لإنسان يمنّ علينا بقبضة من المال أن يشل حركتنا ويمنع مسيرتنا. . . وكما أن الفرد يجب أن يستقل في إرادته وحركته كذلك الدول يجب أن تستقل بطريقة أولى، بل يجب أن تمتلك وحدها حرية رأيها وإرادتها وحركتها، يجب أن تملك قرارها. . . قرار حربها وسلمها وقرار سكونها وحركتها، وقرار رأيها وعقيدتها، يجب على الدولة أن تستقل في كل شيء ولا تبقى تدور في فلك غيرها، وتنفذ ما يقوله الغير فحسب. وللأسف الشديد قد صار الأشخاص تابعين في أفكارهم وآرائهم لما تمليه عليهم شخصيات لم يؤمنوا بها ولم يروا صحة رأيها ولكن المنفعة دفعتهم إلى قبول آرائهم وكذلك الدول أضحت تدور كلها في فلك الاستكبار العالمي الذي يقود زعامته ـ أميركا وروسيا ـ وأصبحت الدول كلها لا تمتلك حرية رأيها وإرادتها بل أضحت خاضعة لآراء القوتين الطاغوتيين: أميركا وروسيا. لقد تحولت الدول الأخرى إلى مستعمرات عليها تنفيذ القرار الصادر من أولياء أمورها حتى وصل الأمر إلى أن صعود حاكم ونزول آخر عن كرسي الحكم أضحى بقرار دولي تصدره إحدى هاتين الدولتين المستكبرتين. وأضحى كل حاكم صغير وبلد صغير يحتمي خلف

واحدة منهما عبداً مطيعاً ورقيقاً خالصاً لا يملك من أمره شيئاً. وإذا أراد أحد أن تسوّل له نفسه الإنفكاك من هذه التبعية والاستقلال في الرأي والحركة فإنها ستعلن عليه الحرب الباردة وتوجه نحوه كل ما تملك من عملاء في الداخل والخارج كي يمنعوه تحقيق قراره وتنفيذ مراده.

إن الدول الصغرى قد اكتفت باسم الاستقلال وعاشت على هذا الاسم تحلم به وتظن أنها على شيء من الاستقلالية، وهي في الحقيقة على خلاف ذلك، إنها أقل شأناً من المستعمرات التي تحكمها تلك الدول مباشرة. فالإنسان، كما الشعوب والدول يجب أن تكون حرة كما أراد الله وأحب لا كما أرادت ـ أميركا وروسيا ـ يجب أن ينبع قرارها من ذاتها مهما كانت العواقب فإن ذلك لمصلحة الفرد والمجتمع والدولة. وهذا ما حصل فعلاً في إيران الإسلام عندما حطمت عرش الطاووس ورفضت التبعية لأمريكا أو روسيا وأخذت على نفسها أن يخرج قرارها من إسلامها وعقيدتها ومن دينها وتراثها، عندما رفضت التبعية والدوران في فلك غيرها، قام العملاء في الداخل والخارج لمحاربتها بتوجيه من أسيادهم في واشنطن وموسكو، ولكن هذه الأمة ستنتصر مهما كانت التضحيات جسيمة والبذل والعطاء كبيراً لأن من أراد أن يعيش عزيزاً حراً وسيداً مستقلاً عليه أن يوطّن نفسه لكل التبعات التي تنتج من وراء ذلك القرار الثوري الرباني. . .

ثم إنه عليه السلام ينبهنا إلى سوء الطمع وعاقبته القبيحة إذ ربما قاده الطمع في أمر إلى ارتكاب حرام من أجل الحصول عليه وربما دفعه طمعه إلى قطيعة رحم أو هجر خليل أو الإساءة إلى صديق، فيكون الطمع مسيئاً له مذلاً لنفسه، ولذا ورد في الروايات عن الإمام الباقر (ع) قال: بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله. . .

ويقول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس.

ويقول النبي الكريم ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر».

وقال أمير المؤمنين (ع): استغن عمن شئت تكن نظيره وارغب إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره. . .

وبعد هذا يوجهنا الإمام إلى الانقطاع إلى الله والتخلي عن كل ما نعتبره واسطة إلينا في إيصال الخير، فإن هذه الواسطة سيكون لها المنّة والفضل علينا ونجد من أنفسنا

خضوعاً لها وتذللاً ويكفي ذلك سبباً لرفض كل واسطة والرجوع إلى الله خالق الأسباب ومسببها. . .

(وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك، وحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء وحفظ ما في يديك أحب إلي من طلب ما في يدي غيرك ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس) منطق المسلم يتصف بالرزانة والعفة والعدل والصدق، لا يتكلم إلا بما يرضي الله وينفع الناس فلا لغو ولا هذر ولا استطالة ولا غيبة ولا بهتان ولا سباب ولا شتائم، يفكر في الكلمة قبل أن تخرج ويدرس مفعولها قبل أن تنطلق ويعلم آثارها قبل أن تقع؛ الكلمة في قاموسه يجب أن تكون طيبة، لأنها تكون ثابتة الجذور متينة القرار شامخة الفروع والآثار **﴿مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾**.

الكلمة في الإسلام لها مفعولها الذي قد يخلق جيلاً صالحاً يحمل أهداف الأنبياء والرسل كما أن لها آثارها التي تهدم البيوت وتخرب الأفكار وتقضي على كل الحضارات التي بنتها الإنسانية خلال عمرها الطويل. الكلمة التي تنطلق من هذا اللسان قد تهدي إنساناً إلى الرشد وترده عن الضلال، قد توحد المتفرقات وتجمع الشتات، كما أنها قد ينعكس أثرها وتأتي بخلاف ذلك. والمسلم هو الذي يملك لسانه فلا يتطاول على كرامات الناس وأعراضهم. كما لا يتفكه في مجالسه بغيبتهم وازدرائهم. . .

وهناك الثرثارون المصابون بكثرة الكلام والحديث، إنهم مرضى الكلام فتجد أحدهم يحدثك ساعة كاملة لا تستفيد منها ولو بكلمة واحدة. . . يتحدث في مجلسك وحده دون غيره، إنه يبدأ بالحديث ويستمر يستطرد تارة ويعيد أخرى، ويصعد إلى السماء مرة ويهبط إلى الأرض ثانية وهكذا دواليك لا يكاد ينتهي من حديث حتى يدخل في حادثة قد تطول وتتأخر وتجعل عندك مللاً وسأماً وتتمنى ساعة فراقه ورحيله. . . هؤلاء المرضى لا تخلو مجالسهم من الهفوات والهنات والخطل والشطط، يكثر عثارهم واعتذارهم وتوبتهم ورجوعهم. . . تكثر خطاياهم ومعاصيهم. . . وإن بعض العثرات لا تقال وبعض الأعذار لا تنفع. . . وقد ورد عن أهل البيت من الوصايا والتعاليم في حفظ اللسان ما يجعلنا نقف عندها قليلاً كي ندرسها ونفكر بها ونعمل بمضمونها فإن السعيد من تدبّر واعتبر. . .

قال النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «من كف لسانه ستر الله عورته».

قال النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «رحم الله عبداً تكلم خيراً فغنم أو سكت عن سوء فسلم».

قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه».

قال أمير المؤمنين في نهجه: «واجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فإن هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه وإن قلب المنافق من وراء لسانه لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه ولقد قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

وقال الصادق عليه السلام: لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتاً فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً.

وقد وردت الأحاديث أيضاً بمدح الصمت منها ما عن الإمام الرضا: من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير.

وقال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: من صمت نجا، وقال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق.

وهذا المدح للسكوت وكف اللسان يكون له فائدته وثمرته إذا خاف الإنسان أن يقع في الحرام وإلا فإن السكوت يعد جريمة إذا استطاع أن ينطق الإنسان بكلمة الحق ثم يسكت، كما أن بالمنطق والبيان يعلم الجاهل ويرشد الضال ويهدي الحيران، فيجب على الإنسان أن يعرف متى يتكلم ليكون مثاباً على كلامه، ويجب أن يعرف متى يسكت ويصمت حتى يثاب على صمته وسكوته، وإلا إذا خالف ذلك عصى وتردّى. . .

والإمام يسن لنا قاعدة عقلائية تعارف الناس عليها وهي أن خطأ اللسان يصعب تداركه والاعتذار منه، فمن هفا في منطقه أمام جمع من الناس حفظوا عليه خطأه وذكروه به متى نسي، وصعب عليه الاعتذار منه، لأن ما وقع لا يمكن رده والناس عنيدة في محفوظاتها لا تسقطها بيسر وسهولة، أما إذا عابه الناس لعدم حديثه أو لقلته فإنه يمكن تداركه بالنزول إلى ساحة الكلام ويسدل الستار عما قصّر أو قلل. .

ثم إنه عليه السلام حبّب إليه أن يحفظ ما في يديه على أن يبذله ويطلب مثله من

الناس والمقصود من حفظه أن يعمل فيه بما أمر الله فلا إسراف ولا تبذير، ولا ما يجعله عالة على الناس بحيث يضطر إلى مدّ يده استجداء وصدقة، فإن العاقل يحافظ على ما عنده فينفق على الوجه الصحيح ويقدم على الوجه اللائق ويتصرف طبق الموازين الشرعية التي تحقق العدالة وترفع الحيف وتقضي على الفقر والفاقة.

ثم إنه عليه السلام يضع بين أيدينا مقولة مثالية يريد منا أن ننتهجها في حياتنا ونحرك خطانا نحوها ونعمل بمضمونها وهي أن نيأس مما في أيدي الناس، وهذا اليأس مهما كان مراً فهو كالشهد بالنسبة إلى الطلب من الناس ومد اليد إليهم والظهور أمامهم بمظهر الحاجة والمسكنة... نعم إن الظهور أمام الأغنياء بمظهر الغنى أشرف بألف مرة من الظهور بمظهر الفقر والحاجة لأنهم أناس فقدوا الموازين الصحيحة السليمة التي توزن بها الأمور وتقاس بها الحقائق وأخذوا يقيسون الرجال بما عندهم من الأموال والأثاث والأرصدة والسندات... لقد انطمست المعالم التي تقودهم إلى الرؤيا الصحيحة وانغمسوا في الماديات بحيث تحول عندهم كل شيء إلى مادة ومال، منه يأخذون الكرامة... ومنه يأخذون العزة، ومنه يأخذون الفخر، وعلى قدره يكبر قدرهم وجاههم وكرامتهم واحترامهم. وقد سار بعض العلماء الذين غرّتهم الدنيا خلف هذه المقاييس الباطلة فأخذوا يكرمون بعض الناس مع فسقهم وانحرافهم لأنهم أغنياء يبشون لهم ويضحكون في وجوههم وينشرحون أمامهم ويقبلون عليهم، وأما إذا جاءهم مؤمن فقير فلا يلتفتون إليه إلا شذراً بوجه عبوس وحواجب مقطبة وغضب شديد ناسين أو متناسين موازين الإسلام وأحكامه...

(والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره. ورب ساع فيما يضره، من أكثر أهجر ومن تفكر أبصر. قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن عنهم) في هذا الفصل من الوصية أمور خمسة:

الأول: يكشف الإمام عن حقيقة لا يقبلها الكثير من الناس، بل يعملون خلافها وضدها، ففي حين يذهب علي عليه السلام مع الشرفاء وأصحاب المبادىء الرفيعة إلى أن العفة والصبر على الحرمان أفضل من اكتساب المال والغنى مع الفجور والانحلال يذهب غيره من أبناء الدنيا وأصحاب الأهواء والشهوات إلى عكس ذلك حيث يستحلون كل حرام ويدخلون في كل باطل ويبيعون كل ضمير وكرامة من أجل المال والغنى. إن عصرنا الذي نقيم فيه من أقبح عصور التاريخ وأسوأها على الإطلاق من هذه الناحية، إنك ترى بيوت الدعارة شاهرة راياتها من أجل المال، إنك ترى حانات الخمر واللهو في كل شارع من أجل المال، إنك ترى الرشوة والكذب من أجل المال كيف نظرت وأنى

اتجهت رأيت السعي في سبيل المال دون أن يلحظ الطريق الذي يؤمنه ولا الوسيلة التي يوفرها. . . وهكذا الدول والأمم تستعبد العباد وتستبد بالبلاد وتستعمر وتفتك وتقتل من أجل أن تنهب خيرات العالم. أي عصر هذا الذي نعيش؟ إنه عصر المادة، عصر المال، عصر الثراء عصر الفحش والانحلال، لا يسأل الفرد من أين اكتسب ماله ولا من أين جناه بل يسأل عن مقداره وكميته.

الثاني: ثم يقول عليه السلام: والمرء أحفظ لسره تدليلاً على أن من أراد أن يبقى سره محفوظاً يجب أن يبقى عنده فقط ولا يجوز أن يعطيه لأحد أو يسرّ به إلى غيره، وكما قيل: «كل سرٍ جاوز الاثنين شاع» الذي قد يراد به أن كل سر تجاوز الشفتين وخرج من بينهما سوف يشيع وينتشر، وأي إنسان ليس عنده أسرار؟ وأهم الأسرار وأفظعها تلك التي يناط بها أمن البلاد والعباد والتي تكون أثناء الحرب والجهاد، إذ أن هناك خططاً حربية يجب كتمها وإخفاؤها لئلا يظهر عليها العدو فيفشلها ويقضي عليها، وهناك أسرار تأتي بدرجة أدنى بحسب أهميتها وآثارها. . .

قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «استعينوا على الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

وقالوا: من ارتاد لسره موضعاً فقد أذاعه.

وقيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: «ما قلبي إلا قبر».

وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

وقيل: ما كنت كاتمة من عدوك فلا تظهر عليه صديقك.

قال الشاعر مفتخراً بكتمانه للسر:

لا تسألي القوم ما مالي وما حسبي ... وسائلي القوم ما حزمي وما خلقي
القوم أعلم أني من سراتهم ... إذا تطيش يد الرعديدة الفرق
أعطي السنان غداة الروع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقال آخر:

أواخي رجالاً لست أطلع بعضهم ... على سر بعض غير أني جماعها
يظلون شتى في بلادهم وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

وقال آخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند الناس أفشى وأضيع

الثالث: ثم قال عليه السلام: رب ساع في ما يضرّه.

بعض الأمور يرغب فيها الإنسان ويحبها ويندفع في سبيل تحقيقها، إنه يريدها بأسرع ما يكون... فإذا أحب سلعة أراد تحقيق المعاملة بدون سؤال عن الثمن وإذا أراد رحلة هيأ مقدماتها وركب على جناح السرعة لقطع المسافة والوصول إلى الهدف وإذا أراد فتاة سعى لخطوبتها متخطياً العقبات المادية وعقبات المعارضة من الأهل والأقارب وعقبات العيوب التي فيها حيث يعكسها محاسن ومناقب. وهكذا دواليك... يقوم بتذليل كل ما يعترض طريقه أو يقف في وجه أمنيته، مع العلم أن بعض الأمور تحتاج إلى موضوعية في التقييم وإلى حياد في الحكم وإلى تنظيم وثيق للمقدمات... إن هذه التجاوزات لكل الحقائق والغض من الاعتناء بها، وعدم التحقيق فيها لتكوين رؤيا صحيحة وسليمة تؤدي في كثير من الأحيان إلى الوقوع في الضرر والمفسدة... ولو أن كل فرد، قبل إقدامه على أي موضوع وقضية، يدرسه دراسة جيدة، وينظر إلى مقدماته وخلفياته، ثم يتوكل بعد ذلك على الله لقلّ الخطأ وندر... ولكن لعدم الوقوف على حقائق الأمور وعدم استيعابها نقع في المشاكل والأحداث ونقع في الفساد والضرر. والإمام هنا يريد أن ينبهنا إلى هذه القضية وهي أن الإنسان قد يسعى في شيء ويعود ذلك عليه بالضرر والمفسدة لأنه لم يتقنه جيداً ولم يعرف أبعاده بشكل مفصل ودقيق فينبغي أن لا يذوب في ما يسعى إليه ولا يجعله المفيد الذي لا فساد فيه...

الرابع: قوله عليه السلام: من أكثر أهجر، ومن تفكر أبصر.

ولهذا نجد الحكماء يقولون: «من كثر كلامه كثر سقطه»، وهذه قضية حقيقية، فإن المهذار الثرثار في الكلام تضيع أمامه الموازين فتراه تارة يختلق ما لم يوجد، وأخرى يزيد على ما وجد، ومن طبيعة الكثرة في الكلام، إنك تجد الاختلاف والتهافت فيه. وفي مقابل ذلك وخلافه، الإنسان الذي فكر في كل كلمة يقولها وكل موقف يتخذه وكل قضية يريد وجه الحق فيها. من تفكر أبصر... من تفكر وأعطى كل مسألة حقها من الاهتمام والعناية قلّ خطأه وندرت أغلاطه... واستطاع أن يقدم اعتذاره في ما ذهب إليه وارتأى... وأما الذي يرتجل المواقف ويقذف بالكلمة كما يقذف بالطلقة دون نظر لآثارها ومخلفاتها فهذا إنسان لا يستحق المعاشرة فضلاً عن الأهم من ذلك والأرقى...

ـ وقد أمر الله بالتفكر وأثنى على المتفكرين...

ـ قال تعالى: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق**

السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً. . . ﴾(١).

ـ قال تعالى: **﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون. . . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون. . . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**. . . إلى كثير من الآيات الآمرة بالتفكر والتدبر. . .

ـ قال الإمام أمير المؤمنين (ع): «نبّه بالتفكر قلبك وجاف عن الليل جنبك واتق الله ربك».

ـ عن الإمام الرضا عليه السلام: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل».

ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن التفكر يدعو إلى البر والعمل به».

ـ وقال الصادق (ع): «أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته».

ـ وروي أن الحواريين قالوا لعيسى بن مريم عليه السلام: هل على الأرض اليوم مثلك؟.

فقال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي. . .

فما أجدرنا أن نعمل بهذه الآيات والأحاديث، ونتفكر في مخلوقات الله سماواته وأرضه، بره وبحره، إنسانه وحيوانه، الحياة والموت، الصنع والتدبير. التفكر في كل ما تقع العين عليه وما تتحرك فيه وحوله. . . يفكر ليأخذ العبرة. . . ويعمل بمقتضاها ويحيا بها. . .

الخامس: قوله عليه السلام: قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن عنهم.

وهذه قضية ظاهرة للعيان وآثارها بينة لكل إنسان فإن الفرد يأخذ من عادات صديقة ويتأثر به إلى درجة بعيدة فإن كان مع أهل الخير تراه ينعكس سلوكهم عليه ويتأثر بهم وبعاداتهم فيصبح كأحدهم، وإن عاشر أهل الشر والفتنة تراه يأخذ عنهم شرورهم وفتنتهم ولذا قيل: «قل لي من تعاشر أقل لك من أنت». وقيل أيضاً: «إن الطيور على أشكالها تقع». وقيل: «كلٌ إلى شكله ألف». فالأخيار لا يألفون إلا الأخيار والأشرار لا يروق لهم إلا عشرة الأشرار. . .

---

(١) سورة آل عمران، آية/ ١٩١.

وقد حدد الأئمة من نعاشر، وأعطوا صفات القرين والرفيق، وقد اشترطوا صحبة العاقل وترك الأحمق ويُنسب إلى الإمام علي قوله:

فلا تصحب أخ الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

وقد نهي عن مقارنة الأحمق لما فيها من الضرر، قال الشاعر:

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلاً يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه أدرى وأرصد والجنون فنون

وعن الإمام الكاظم قال: «قال عيسى عليه السلام: إن صاحب الشر يعدي وقرين السوء يردي فانظر من تقارن».

وفي الحديث الصحيح عن الصادق قال: لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال: قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: المرء على دين خليله وقرينه.

(بئس الطعام الحرام، وظلم الضعيف أفحش الظلم، إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً، ربما كان الدواء داء والداء دواء، ربما نصح غير الناصح، وغش المستنصح) في هذا الفصل من الوصية خمسة أمور مهمة يجب التعرض لكل منها:

الأول: قوله عليه السلام بئس الطعام الحرام.

بئس الطعام الحرام... وهل حرّم الله شيئاً إلا لضرره وفساده؟ وإذا كان الحرام مرفوضاً في الإسلام إذا وقع على الغير فهو إذا وقع على النفس يكون أشد سوءاً أو أقوى ضرراً. ويتأكد هذا الضرر في ما يعود إلى غذاء هذا الإنسان وما يقوّي بدنه ويشد لحمه وعظمه... الحرام في الإسلام يعد جريمة وخروجاً عن دائرة العبودية وتمرداً على إرادته وحكمه... وأكل هذا الحرام أشد حرمة وأقوى فساداً وضرراً... بدون فرق بين أن يسرق اللقمة الحرام ويأكلها أو يظلم الناس أموالهم ويأكل بها... وقد أكد القرآن والسنة على ذلك...

قال تعالى: **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾**.

وقال تعالى: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾.

وقال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كما في الكافي: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال».

وقال أبو عبد الله عليه السلام: أقرِئُوا من لقيتم من أصحابكم السلام وقولوا لهم: فلان ابن فلان يقرئكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل وما ينال به ما عند الله، وإني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد وإذا صليتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه...

وعن أبي الحسن عليه السلام: إن الحرام لا ينمي وإن نما لم يبارك فيه وما أنفقه لم يؤجر عليه وما خلفه كان زاده إلى النار.

وعن أبي عبد الله: كسب الحرام يبين في الذرية.

ثم إن الحرام قد بينته كتب الفقه... في كتاب الأطعمة والأشربة تفصيل لما يحرم منها... نذكر منها بشكل موجز... أما من حيوان البحر، فإن لدينا قاعدة أو شبه قاعدة تقول: كل حيوان بحري حرام إلا السمك وكل سمك حرام إلا ما له فلس.

فالحيوانات البحرية طبقاً لهذه القاعدة محرمة كلها إلا السمك الذي له فلس، فالسلحفاة والسرطان والضفادع وغيرها كلها حرام...

ويحرم من حيوانات البر: الكلب والخنزير والسنور والأسد والنمر والفهد والثعلب والأرنب والضبع وابن آوى والضبُّ، والحشرات: كالحيات والفأرة والعقرب والخنافس والبراغيث والقنفذ والسنجاب.

ويحرم من الطير كل ما له مخلاب كالبازي والعقاب والصقر والشاهين والرخم والبغات والغراب، وكل ما كان صفيفه أكثر من دفيفه وكذلك يحرم ما ليس له قانصة ولا حوصلة ولا صيصة.

وتحرم الميتة وهي التي لم تذبح على الطريقة الشرعية، وهناك محرمات في الذبيحة نفسها إذا كان ذبحها على الوجه الشرعي وهي:

الدم، الطحال، القضيب، البيضتان، الفرث، المثانة، المرارة، المشيمة، الفرج، العلباء (وهما عصبتان عريضتان ممدودتان من الرقبة إلى عجب الذنب) والنخاع

(الخيط الأبيض الموجود في وسط فقرات الظهر) الغدد وخرزة الدماغ.

وكذلك يحرم الخمر والبيرة والنبيذ وكل مسكِرٍ، وكل نجس أو متنجس، هذا كله في الأكل والشرب... وكذلك تحرم المعاملة على كثير من هذه المحرمات وكذلك كل عقد إذا وقع فاسداً لا يجوز للإنسان أن يأخذ الثمن وبالتالي يكون حراماً لا يجوز له التصرف فيه استعمالاً أو أكلاً، فإذا اشترى به شيئاً حرم أكله واستعماله له كما كان الثمن نفسه حراماً، وهكذا دواليك...

وإن تأكد الكراهة في المطعم الحرام فلأن هذا الإنسان يتكون عندها بدنه من الحرام، فهو يتقلب في الحرام ويتحرك في الحرام وقد يضع نطفته التي تكونت من الحرام في رحم امرأة تلد له ولداً حراماً، وهكذا... ومن هنا جاءت بعض الأحاديث لتقول لمن تغذى على الحرام وأراد أن يتوب جاءت لتقول له: صُمْ وأَذِبْ هذا الجسد الذي نما من الحرام حتى يلتصق الجلد بالعظم وينمو من جديد على الحلال...

الثاني: قوله عليه السلام: أفحش الظلم ظلم الضعيف.

الظلم والعدل من الأضداد، وبمقدار حب الإسلام للعدل أبْغَضَ الظلم. لئن كان العدل أحلى من الشهد فالظلم أمر من العلقم، ولئن كان العدل وضع الشيء موضعه فالظلم وضع الشيء في غير موضعه. والأديان بصورة عامة والإسلام منها بصورة خاصة حارب الظلم والظالمين وشنّ عليهم حملته الشديدة، ليس في الكلام وحسب، بل بالسيف والقوة وبكل طاقاته وقدراته. لم يتوان الإسلام في ضرب الظالمين والقضاء عليهم وعلى ظلمهم وجورهم... وقد شهد تاريخ هذا الدين منذ يومه الأول كيف دافع النبي عن الضعفاء المظلومين وكيف ندّد بالظالمين وضرب على أيديهم بالحديد والنار وبكل الوسائل الممكنة والتي يستطيع أن يردعهم بها. الظلم هو تجاوز الحدود المرسومة لهذا الإنسان والتعدي على حرمات الناس وحرياتهم وكرامتهم... إنه التجاوز بالحديث الظالم واليد الظالمة والممارسة الظالمة. والظلم تشهد بقبحه العقول وتتسالم على هذا القبح كل العقلاء، وإن لم يكن لهم دين أو ارتباط بخالق السماوات والأرض... وهو يعد من المستقلات العقلية لدى بني الإنسان، فلذا نرى الظالمين أنفسهم ينكرون هذه الوصمة ويتنكرون لها ويتبرأون منها. إنهم يظلمون ويفعلون القبيح ولكنهم لا يرضون أن يقال لهم ظلمة فليس هناك أدلّ على قبحه من ذلك.

والظلم إذا كان معناه التجاوز والخروج عن العدل فقد يكون تجاوزاً من الإنسان على أخيه الإنسان، وقد يكون تجاوزاً من هذا الإنسان على نفسه بأن يظلمها بالخروج

عن طاعة الله أو يظلمها بالإلقاء إلى التهلكة أو يظلمها بسبب آخر...

والظلم كما يكون فردياً قد يكون ظلماً اجتماعياً، فتتكوّن الطبقية في المجتمع وتصنف الناس إلى فئة فرعونية حاكمة ظالمة تمارس الإرهاب والكبت والضغط وفئة مستضعفة فقيرة بائسة لا تملك حولاً ولا قوة.

وفي جميع هذه الصور يتمثل الظلم شيئاً قبيحاً ورذيلة مرفوضة ممقوتة. والإسلام قد أمرنا أن نمارس العدل حتى على أعدائنا، حتى على خصومنا، ومن نَكّنُ لهم البغض، فالبغض موضعه القلب والعدل موضعه الممارسة والعمل... أنت لا تريد أن تحب إنساناً، أو ليس باستطاعتك أن تحبه فهذا يرجع إلى قلبك، ولكن هذا البغض لا يجوز أن يكون عاملاً من عوامل ظلمه والتعدي عليه، فلذا نرى القرآن قد نهى عن ذلك وقال: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾[1].

والحرب التي يخوضها الإسلام ويدفع بالمسلمين إلى أحضانها إنما هي حرب ضد الظالمين والمستكبرين... ضد الذين يتألهون على الناس ويمارسون عليهم الظلم والقهر والغلبة... فلم تكن حروبه من أجل البلاد أو استعباد العباد... إنما كانت حروبه من أجل تحرير هذا الإنسان من ظلم الفراعنة الذين ساموه الخسف والهوان وأذاقوه المرارة والعذاب... حتى الشعوب غير المسلمة يحارب الإسلام من أجلها إذا كانت مظلومة ومقهورة...

والإسلام لا يرضى من المظلومين أن يستمروا في مظلوميتهم ولا يقبل منهم البقاء تحت سياط الجلادين وسيوف الظالمين بل يلقي أمامهم الأضواء ويفتح أمامهم الطريق للثورة والتمرد على الظلم... إنه يقول لهم تحركوا في سبيل رفع الظلم عنكم، جريمة منكم أن تساعدوا الظالم بسكوتكم عنه... بل افضحوه... ثوروا عليه، حطموا عروشه، ارفضوا كل أوامره، إعصوا كل نواهيه، أعلنوها ثورة بركانية تنفجر حمماً وصواعق على رؤوس الظالمين... إنه يقول للشعب المظلوم لا تقبل قول السلطة الظالمة، خالفها، تمرد عليها، حاربها في مصالحها وفي اقتصادها، في سياستها، في توجهها، في كل حركاتها أسقطها من حسابك وتصرف وكأنها لم تكن... اضرب عليها، احتجّ تظاهر ما أروعك أيها الإسلام العظيم، وما أسمى تعاليمك، أنت الثورة على الجهل والتخلف، وأنت الثورة على الميوعة والتهتك وأنت الثورة على الفقر والمرض، وأنت الثورة على الاستغلال والاستعباد، وأنت الثورة على الكذب والحقد

---

(١) سورة المائدة، آية/ ٨.

أنت الثورة على الخيانة والقتل. . . أنت الثورة على هذه وعلى كل انحراف لأنها كلها تمثل الظلم. . .

والإسلام قد أكد على حرمة الظلم وحرّم معونة الظالمين بل منع من الركون إليهم والسكوت عنهم، وقد بين ذلك ووضحه كتاب الله وسنة المعصومين. وهذه نفحة عطرة من تلك الآيات والأحاديث الكريمة. . .

قال تعالى: ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾.

قال تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾.

قال تعالى: ﴿**هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**﴾.

قال تعالى: ﴿**ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار**﴾.

قال تعالى: ﴿**فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين**﴾.

قال تعالى: ﴿**إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها**﴾.

قال تعالى: ﴿**وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً**﴾.

قال الإمام أبو جعفر الباقر (ع): لما حضرت علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمني إلى صدره ثم قال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، فقال: يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً.

عن الصادق عن آبائه (ع) قال: كان علي عليه السلام يقول: العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء ثلاثة.

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد.

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوانهم؟ من لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً أو مد لهم قلم فاحشروهم معهم.

الثالث: قوله عليه السلام: إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً.

وضع الشيء في غير موضعه يكون مضراً، فالقاتل عمداً وعن سبق تصور وإصرار إذا عفوت عنه دون أن تتقدم منه التوبة يكون هذا العفو مضراً له وللمجتمع، مشجعاً له على معاودة الجريمة وزهق الأنفس الطيبة الشريفة، إنه يتمادى، ويتجرأ، ويروح في الأرض فساداً وقتلاً لأنه أمن العقوبة واطمأن إلى يسر المعاملة وسلامة يده التي تقتل وتفتك. وكذلك من يسرق أو يزني أو ينحرف ولا يجد جزاء عمله ولا القصاص الرادع له. فالرفق في هذه المواطن يعد مفسدة، وإنما يجب أن يستعمل مع الجاني عمداً القصاص في النفس حتى لا يعود إلى عمله أبداً من جهة، ويكون عبرة لغيره وعظة. من جهة أخرى فإن الله تعالى يقول: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ ففي القصاص الحياة لمن تسول له نفسه الإجرام لأنه يتصور مقدار العقوبة فيرتدع، وكذلك إذا نزلت به العقوبة يكون تأديباً لغيره وفي هذا القصاص فائدة لا يعد لها فائدة الرفق واللين، لأن الرفق واللين يدفع بمن في نفوسهم مرض أن تتحرك تلك النفوس لتنشر الرعب في المجتمع وتفسد في الأرض بغير الحق ولذا قيل: من أَمِنَ العقوبة أساء الأدب.

وقال الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا　　　مُضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

كما أن القضية تنعكس، فلو كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً، فإذا استعملت القسوة مع ولدك لعصيانه وسوء أدبه وهززت له العصا وإن احتاج الأمر ضربته تأديباً، كان ذلك أحسن من الحنوّ عليه والرفق به، لأنه يفسده ويطمعه في المعصية والتمرد ومخالفة الأدب. فالعنف هنا هو الذي يؤدي ويقود هذا الإنسان إلى الرفق والسيرة الحسنة والطريقة المثلى... هذه القساوة هي التي تخلق رجلاً عدلاً مستقيماً يحمل نفسه على الحق وإن كان كريهاً، ويسير على الهدى وإن كان على النفس ثقيلا، يجانب الأشرار والمفسدين ويسير على هدى الصالحين والمخلصين. فالخرق هنا هو الذي يفيد ويعطي الآثار والنتائج الطيبة...

الرابع: قوله عليه السلام: ربما كان الدواء داء والداء دواء.

نعم ربما تحول الدواء إلى داء قاتل فاتك، الدواء سواء كان عقاقير وأدوية أو مواعظ وحكماً أو كانت نظماً وتشريعات، فكما أن الدواء إذا كان قد أكله الزمن وأتلفه لا

يجوز استعماله لأنه يفقد مفعوله وخواصه وربما تحول إلى ضرر يودي بحياة المريض ويتلف أعصابه وعصارة وجوده كذلك إذا كانت الموعظة لم تخرج من طبيب متفاعل مع المريض ولم يشخّص مرضه فإنها تفقد معناها ويقف المريض أمام الواعظ السخيف ليقول له مع الشاعر:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إن كنت تأتي أموراً أنت تنهاها

وكذلك إذا كانت النصيحة والموعظة على أسلوب وطريقة قديمة لم تتمش مع الزمن ولم تأخذ بعين الاعتبار التطور البشري والحياتي لهذا الإنسان فإن هذه الموعظة التي تلبس ثوب القديم دون أن تقدم بثوب جديد وأسلوب جديد يتمشى وروح العصر تفقد الموعظة مادتها وروحها مثل هذه الموعظة لا تجد أذناً صاغية كما لا تجد روحاً متأثرة متعظة...

وكذلك في عالم النظم فإن من أنكر الرأسمالية الظالمة التي استبد من خلالها الغني بالفقير وصاحب النفوذ والامتياز بفاقدها، وتقدم الاستعمار يزحف على العباد والبلاد يحتل ويستعمر ويفتك ويقتل ويستعبد، إن من يرى جرائم الاستكبار الغربي بما فيه من انحراف فكري والتصاق بالمادة وإنكار وتنكر لكل حق وعدل وصدق وتجاهل لكل حقوق الضعفاء... من يرى ذلك لا يجوز له أن يعالج هذا الداء بدواء الشيوعية الحمراء، فإنه وباء أيضاً، ولا يجوز الفرار من الرمضاء إلى النار ولا من الخطر إلى الأخطر... فإن هذا المسكين الصغير، الضعيف العقل والجسم تخيّل أن شفاءه لا يكون إلا بالشيوعية، لقد تخيّل أنها الدواء الذي يقضي على مخاطر الرأسمالية ويجتث أصولها من الأعماق، ولكنه وقع في داء أشد وأصعب، وقع في استعمار متطور ومهذب يأتي بثوب الناصح الشفوق، إنه يأتي مع شعارات براقة ترتاح لها النفس وتتشوق إلى لقياها القلوب، ولكنها كالحية ملمسها ناعم وتخفي في جوفها السم الناقع... إن العدول من الرأسمالية إلى الشيوعية عدول من خطر إلى خطر إن لم نقل أنه إلى الأخطر...

إن الدواء يجب أن يتلاءم مع المرض كما يجب أن لا يترك وراءه من الخلفيات والآثار ما يضر ويفتك بالجسم من جهة أخرى فيكون دواء لهذا المرض ولكنه يترك داء خبيثاً أصعب من الأول من جهة أخرى... نعم ربما كان الدواء داء وكذلك قد تنعكس القضية ويتحول الداء إلى دواء فرب مرض مستحكم فيك قد أخذ منك مأخذه وامتدت جذوره حتى زلزلت استقرارك وراحتك فإذا بمرض آخر لا يؤذيك أذى شديداً فتحاول علاج الخفيف فيكون شفاء للقوي والشديد، فالداء البسيط كان دواء للمرض القوي الشديد، ورب خطيئة أدبت عليها حفظت حياتك وصححت مسارك على امتداد

الحياة. . . فالطفل إذا حكت أصابعه لو سرق، كان هذا دواء لشيء أخطر بكثير مما لو كبر وسرق وأدّى ذلك إلى قطع يده. . . ورب موعظة لخطأ ارتكبته أدخلتك في رحاب الله وحولتك إلى عنصر صالح تحب الخير وتعمل به وتجاهد من أجل إعلاء كلمته، فهذا المرض قد حول جسمك إلى جسم صحيح سليم تستطيع أن تقاوم به عوامل الزمن ومشاكل الحياة. . .

الخامس: قوله عليه السلام: وربما نصح غير الناصح وغش المستنصح.

النصيحة واجبة لكل مسلم ومن استنصحك أولاك فضلاً كبيراًلأن ذلك معناه أنك موضع ثقته وأمانته وإنك خبير بشؤون هذه النصيحة وأهل أن تستنصح. يجب أن تقدر مجيئه إليك وعدم مجيئه إلى غيرك! لماذا قصدك أنت بالذات ولم يقصد سواك؟! لماذا توجه إليك وحدك؟! إنه الإيمان بصدقك. . . ومعرفتك. . . وخبرتك. . . فكن عند حسن ظنه. . . كن حسب ما هو يراك من أهلية المقام والصدق والإخلاص. فلا تفتك به ولا تخنه في نصيحته. إمحضه النصيحة واقلب ظهرها لبطنها وغص في أعماقها حتى تستخرج له وجه الحق وتقتنص له الصالح.

إن طبيعة المؤمن أن يتمتع بالإخلاص في النصيحة وبذل الوسع في سبيل استجداء وجهها. لا يرتجل رأياً خطيراً ولا يقتصر على ظواهر محدودة بل يجهد ويجتهد في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ولكن للأسف الشديد أن نرى كبوات المؤمنين كثيرة. . . من كنت ترى النصيحة عن أيديهم والإخلاص في نصائحهم. . . يخيبون آمالك وتأتي العثرات والزلات عن أيديهم. إن في منظور الناس أن الحاج يجب أن يتمتع بالصدق ويسعى في النصيحة وإذا القضية تنعكس فتراه لا يصدق النصيحة كما لا يصدق في القول ونرى من نحتمل في حقه الكذب والغش إذا به لا يكذب ولا يغش بل يبدي النصيحة على وجهها السليم. . .

كنا نترّقب أن تكون الثغرة عند المنحرف فإذا بها تأتي من جهة المؤمن بالصورة. . .

نعم ربما نصح غير الناصح ممن ليس من طبعه ذلك ولا تترقب النصيحة منه، وربما انعكست الآية فغش من دأبه النصح وطبيعته عدم الغش. . .

(وإياك والاتكال على المنى فإنها بضائع النوكى، والعقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك بادر الفرصة قبل أن تكون غصة، ليس كل طالب يصيب. ولا كل غائب يؤوب) في هذا الفصل خمسة أمور وهي:

الأول: قوله عليه السلام: وإياك والاتكال على المنى فإنها بضائع النوكي.

الأماني بدون العمل سندات بدون رصيد أو عملة مزيفة لا سوق لها، وصاحب الأماني إنسان يعيش حالماً في السعادة والمال حالماً في المجد والشهرة، حالماً في اللذة والنعيم. إنه يحلق باستمرار في عالم مملوء بالأوهام، إنه في حلم لذيذ لا يحب أن يزعج أو يستيقظ منه خوفاً على انقطاع لذته وفقدان حلمه. تراه يسرح وراء الدنيا بما فيها من مال ولذة دون أن يعمل من أجل ذلك ولو شيئاً يسيراً. فهو يعشق أن يصبح أمبراطوراً في المال ولكنه لن يحرك ساكناً ولن يتعب فكره ولا بدنه ولن يسعى في سبيل ذلك من قريب أو بعيد. وإنه يريد أن يصبح نجماً لامعاً يبرز في عالم الدنيا ولكنه لن يتحرك من كوخه أو يمشي في تحقيق ذلك ولو خطوة واحدة. إنها أماني تعيش بين ضلوع المساكين دون أن ترى النور أو يكتب لها الظهور إلى عالم الحياة والأحياء.

وليس الأمر منحصراً بأبناء الدنيا، بل هناك من الناس المؤمنين الذين يطلبون الآخرة ويعيشون فردوسها الأعلى ويسبحون في نعيمها وسؤددها ويغوصون في بحارها وخيراتها، حتى هؤلاء بالذات منهم أناس يعيشون الأماني ولا يسعون في سبيلها أو يعملون من أجلها. إنهم يتقاعسون عن الجهاد والنضال ومد يد المعونة إلى الفقراء والأيتام. إنهم يريدون جنة الله ويحلمون بها ويتصورون أنفسهم في أجوائها يحلقون ويسبحون في نعيمها دون عمل ولا جهاد. إنهم يظنون أن باستطاعتهم خديعة الله عن جنته بهذه الأمنيات الفارغة والآمال الحالمة. . . لا . . . إن الله جعل للجنة ثمناً وثمنها التضحية بالنفس أولاً وبما تملك اليد ثانياً، البذل الفعلي والسعي في سبيل الله، وبدون أن تتحرك الطلائع المؤمنة وتثبت بعملها وسلوكها أنها أهل للجنة فلن تنالها ولن تحظى برؤيتها إلا لزيادة همها وأساها.

وإن بعض المؤمنين كما نرى ونسمع يحبون للإسلام أن يحكم ويحبون أن تكون أحكامه وقوانينه هي التي تحكم الناس وتفصل في قضاياهم. إنه يقرأون في صلواتهم دعاء: اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله. . . ولا يعملون من أجل بناء هذه الدولة ولا في سبيل تحقيق هذه الرغبة أدنى حركة ولا أقل خطوة. إنهم يريدون دولة من المهدي المنتظر صلوات الله عليه وعلى آلة ينتظرون خروجه حتى يحققها لهم. إنهم يقبعون في بيوتهم ويحلمون في دولتهم التي لا تتحق بالرغبة والأمنية. . . لو كانت الدول تبنى بالرغبة والأمنية لكان المسحوقون والضعفاء من أعز الناس دولاً. . . ولكن للأسف لا يتحقق ولن يتحقق شيء من ذلك. الدنيا مملوءة بالذئاب وهي في عراك مستمر من أجل الحصول على أكبر قدر منها. الدنيا

تضم أشتاتاً مختلفة من الناس. إنها تضم الملحد، وتضم الوثني وتضم اليهودي وتضم النصراني وتضم... وتضم. وكل هذه الفئات تسعى إلى تثبيت تصورها على الأرض تحلم أن تكون هي الحاكمة والمسيطرة، وتعمل في سبيل تحقيق حلمها وبسط نفوذها وسيطرتها... والمؤمنون فئة تعيش ضمن هذه الأجواء المحمومة والمعركة الشرسة، فهل يكتفى منهم بالأماني والدعاء؟! هل غاية ما عندهم أن يعيشوا في أحلامهم الحلوة وأمانيهم الساخرة دون أن يتحركوا من مواقعهم إلى الساحة ويقفوا في صف المجاهدين والمناضلين ويثبتوا هويتهم وأصالتهم ويحققوا الحكم الإسلامي الصحيح!! إن تاريخ الإسلام الذي صنعته الأيدي المؤمنة بقيادة الرسول الكريم والصحابة النجباء لم يؤسس على الأماني والأحلام بل كان الجهاد والتضحية وكان البذل والعطاء وكان الاندفاع حتى الموت هو الطريق الذي رسموه لنا وعبّدوه بدمائهم وأشلاء المجاهدين منهم.

إن رغبة المؤمن يجب أن تبرز في الخارج عملاً وسلوكاً وسيراً حثيثاً ومتواصلاً في سبيل تحقيقها... هكذا علمنا النبي والصحابة وهكذا كانت مسيرة الرواد الطلائعيين الساعين في سبيل الله. إن من يمشي في سبيل الله لا يرى للأمنية مكاناً إذا لم تتحقق في الخارج تجسيداً حياً وحركة ونضالاً... حتى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله...) لا يكون لها معنى إذا كانت الأصنام منصوبة من حولك تعبد من دون الله. لا قيمة لهذه الكلمة إذا لم تحرك فيك ثورة جبارة مدمرة تقضي على لوثات الصنمية وأسفافها الأرضي السخيف. لا قيمة لهذه الكلمة إذا لم تأخذ حجماً بركانياً يقذف اللهب والحمم على كل الأوثان والأصنام وتحاول أن تقضي عليها وترد أتباعها إلى الدرب السليم... إن كلمة لا إله إلا الله تفقد مدلولها ومعناها عندما تتجرد عن حرارتها وإثارتها، وعندما تفقد الجذوة التي تستطيع أن تعقم بها مجتمعك من الانحراف والإسفاف والرذيلة.

إن من يعيش الأمنيات ويسبح في بحر الخيال والأوهام دون أن يحثه شيء منها للحركة والعمل في سبيل تحقيقها وتجسيدها يكون إنساناً بطالاً، أحمقاً، يبيع ويشتري دون رأسمال... ويغوص في بحر دون أن يعرف السباحة أو يقود عربة لا علم له بقيادتها... ولا شك أن نصيبه الفشل أو الغرق والعاقبة موتاً سخيفاً مضحكاً فيشمت به الأعداء ويرثي له الأصدقاء...

الثاني: قوله عليه السلام: والعقل حفظ التجارب.

بالتجربة استطاع الإنسان أن يشق عنان السماء ويصعد إلى القمر... وبالتجربة استطاع أن يقهر الجبال الشاهقة والبحار والمحيطات.. استطاع بالتجربة أن يبني مدنية

ويؤسس حضارة. . . استطاع بواسطة التجربة أن يفجر الذرة ويطلق الصاروخ. . . ويستطيع أن يحرق كل ما بناه بلحظة واحدة. . .

التجربة كادت أن تصبح رباً. . . اتخذتها المدنية الحديثة مبدأ على أساسه تقبل فكراً وترفض فكراً، تؤمن بنظرية وترفض نظرية، آمنت بكل ما تقدمه التجربة وما تعطيه من حقائق ومنجزات وكفرت بكل القيم والمثل، وبكل الحقائق والمسلمات إذا لم تستند إلى التجربة ولم تكن من نتائجها. . . ومن هنا كفرت بكل العوالم الغيبية المعبر عنها (الميتفيزيقيا). إنها اتخذت هذه التجربة نقطة الفصل بين الحقائق والأوهام وعلى أساسها ميزت السليم من السقيم والصالح من الطالح. . . وبقطع النظر عن صحة هذا التعميم في الحكم رفضاً وقبولاً يبقى للتجربة دورها الذي لا يمكن تجاهله، ويبقى لها قيمتها الكبرى ونتائجها التي لا يمكن أن يوفرها أي أمر آخر غيرها. . .

إن التجربة لها قيمتها ودورها ومجالها المحدود في ما يخضع للتجربة ولا يقوم إلا بها. . . إن مجالها المادة تفتيتاً وتمزيقاً، جمعاً وتركيباً، لها مجال في عالم الاختراع والإبداع، وهذا هو الإمام الذي عاش عصراً قديماً يتخطى زمنه وعصره ليضع بين أيدينا حكمته المتعالية التي يدفعنا من خلالها إلى التجربة وممارستها. . . وإلى استغلال هذه التجارب كي نتقدم ونترقى ونصعد في سلم الحضارة والتقدم. . .

ولكن صيحة هذا الإمام وصرخته وقعت صرخة في مقبرة لم يسمعها المسلمون، ولم يعيشوا في رحابها وآفاقها الواسعة، بل أسدلوا دونها الستار ولم يعطوها بالاً فاستغلها غيرهم. . . لقد وصلت إلى مسامع الغرب فراح العلماء منهم وأصحاب الفكر يدرسون التجربة بوعي ودقة حتى استطاعوا من خلالها أن يقدموا منجزات الحضارة الحديثة بوسائلها وسبلها وبكل ما تزخر به من تقدم ورقي، لقد تقدموا وتأخرنا، وقطعوا شوطاً طويلاً في تذليل الصعاب والعقبات ولا نزال نحبو على الركب نلهث في الصحراء القاحلة، نفتش عن جرادة نقتاتها أو ناقة شاردة نردها إلى حظيرتها، حتى خيرات بلادنا، حتى ذهبنا الأسود ـ النفط المتدفق من بطن الأرض ـ نعجز أن نصنّعه كما نشاء ونفتقر إلى أوليات استخراجه فضلاً عن درجات تصنيعه وتصنيفه. . . مأساة كبرى، والله إنها مأساة، حتى صناعة النفط نستسلم فيها للخبراء والمستشارين الأجانب، ويبقى سر استخراجه وتسويقه وتصديره وتصنيعه محتكراً لهم. وليس لنا من الأمر إلا أن نقبل بالأسعار التي يريدون وبالقيمة التي يشترون، ليس لنا من الأمر إلا أن نقبل بكل ما يطرحه علينا الأعداء المستغلون، واجبنا أن نقبل. . . ونخضع ونرضى دون إظهار لاشمئزاز أو تأفف أو شكوى. ما أتفه هذا الزمن وما أحقر أهله. . . كنا أسياد العالم وعباقرة الدنيا،

كنا إذا سرنا سار معنا العلم والفكر والحضارة... سارت معنا الثقافة والحرية والكرامة... وصرنا اليوم عالة ثقيلة... لا ندخل في حساب الأمم إلا للإستهلاك وتصريف منتوجاتها وتسويق بضاعتها... إن كل هذه الملايين بأرقامها الضخمة تتحطم أمام عدو صغير مرتزق جمع شتاته من أطراف الدنيا ولمّ متفرقاته من أركان الأرض وأخذ يحتل الأرض الإسلامية تدريجياً ويؤسس أمبراطوريته التي حلم بها منذ آلاف السنين. إن اليهود الذين احتلوا فلسطين وشردوا أهلها وفتكوا بلبنان واجتاحته معداتهم ودمرت قراه ومدنه، هذه الدولة اللقيطة... ربيبة الاستعمار الأمريكي لم تكن لتستقر أو تتخذ موطن أقدام لها لو كان المسلمون يسيرون خلف دينهم ويعملون بما أمرهم به ربهم. إنهم تركوا وصايا نبيهم وأهملوا تعاليم العظماء منهم ففسدت عليهم الحياة وتأخروا عن غيرهم. إن غيرهم قد سار على الدرب حتى وصل، أما المسلمون فإنهم أهملوا العلم والخبرة وتركوا التجربة ومنجزاتها فأضحوا في مؤخرة القافلة البشرية يعيشون على فتات موائد الكبار من المستعمرين والمستكبرين.

إننا في زمن التجارب والخبرات وهي لا تتنافى مع العقيدة والإيمان... بل الإيمان والإسلام يدعوان إلى أن نعد العدة ونشحذ الهمة ونقابل الأعداء بما عندهم من أسلحة ومعدات فلا يفل الحديد إلا الحديد ولا يسكت أصوات المدافع والراجمات والقذائف النووية إلا نظائرها. يوم يملك المسلمون القوة وتصبح بأيديهم مقاليد الخبرة والتطور يستطيعون أن يفرضوا وجودهم على العالم بل يستطيعون أن يحققوا العدالة والكرامة لكل الناس على اختلاف أديانهم وتعدد مذاهبهم ومشاربهم...

إننا نعيش في عصر قام ونهض على التجربة... بل نستطيع أن نقول أن حضارتنا هي حضارة التجارب ولن نستطيع البقاء والاستمرار ولن تكتب لنا الحياة إلا إذا سرنا في خط التجربة يرافقها الإيمان وتحدوها العقيدة.

إننا مع الإمام في منهجه الفذ الكريم منهج التجربة بل التجارب في كل موطن يكون للتجربة فيه مجال فإنها من العقل، بل هي العقل على حد قول الإمام عليه السلام...

الثالث: قوله عليه السلام: وخير ما جربت ما وعظك.

التجربة ليست هدفاً في حد ذاتها بل هي مقدمة لنتيجة ترغب بها وتريد تحقيقها، نحن هنا نستطيع أن نحول هذه التجربة إلى عبادة نؤجر عليها... كما أن هذه التجربة يظهر خيرها فيما إذا أعطت ما أملّته منها وأفادتك في تحقيق مطلوبك وغايتك... إن

خير التجارب ما تستطيع أن تأخذ منه الفائدة والعبرة ويسهل لك قصدك ويوضح لك الرؤيا في مسيرتك الحياتية ويعظك كي تصحح سلوكك وعملك ويشحذ من همتك للسير وفق العدل والحق والصدق.

إذا اتعظت من خلال تجربتك فأنت الرابح والمستفيد... إذا كنت تظن الثقة بإنسان يظهر منه الدعة والورع فجربه بالأمانة... أودع عنده مقداراً من المال، ثم انتظر ردّه لك أو جحده... فلو ذهب المال منك فأنت الرابح. إنك بتجربتك هذه قد عرفت أمانة الرجل من خيانته فلربما استأمنته على أعظم من ذلك وأهم... فيكون الخطر عظيماً وجسيماً... وكذلك لو أقرضت إنساناً مالاً دون أن تكتبه وتشهد عليه ثم أنكره عليك فإن إضاعة هذا المال إذا جعل منك رجلاً حذراً ووعظك بأن لا تعود لمثلها فأنت الرابح والمصيب وهكذا دواليك...

الرابع: قوله عليه السلام: بادر الفرصة قبل أن تكون غصة.

في المأثور «الدنيا ساعة فاجعلها طاعة»، وكذلك «اغتنموا الفرص فإنها تمر مر السحاب»، والشاعر يقول:

إذا درّت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون

تفويت الفرص وإضاعتها يعد في بعض الأحيان جريمة يحاسب عليها الإنسان أمام الله وأمام أخيه الإنسان... فالشباب فرصة من فرص العمر تستطيع أن تقدم فيه الصالحات والأعمال الطيبة حيث إن القوى البدنية والعقلية والفكرية مؤهلة للعطاء، فلو أضعت هذه الفرصة سوف تندم عندما تكبر وتشيب... سوف تندم عندما تضعف قواك فلا تستطيع المشي كما لا تستطيع الحركة ولا تستطيع التفكير السليم والتوجه المستقيم... عندما تأتي السنون لتنقض بنيتك وتحولك إلى هيكل بشري يحتاج إلى الإعانة وتقديم المساعدة... عندها فقط ستعض على يديك بل ستأكلها ندماً وحسرة دون أن تنفع الندامة أو تفيد الحسرة.

إن بعض المشاهد القرآنية تنقل لنا نموذجاً لهذه الحالة المريرة... تنقل لنا طلب الرجعة إلى الدنيا كي يصلح الإنسان ما أفسد أو أهمل من العمل ولكن لا رجعة ولا عودة فقد واتتك الفرصة وكنت قادراً على العمل والنجاح فلماذا لم تعمل **﴿قال ربي أرجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت... كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون...﴾**. لقد كنت في الحياة كان معك المتسع للعمل والجهاد ودعم الحق والنضال فلماذا لم تنزل إلى هذا المعترك؟! لماذا تخليت عن هذه الميادين وقبعت في

زوايا بيتك وعكفت على ملذاتك وشهواتك. . . إن ميدان الحياة هو الميدان الذي يسمح لك أن تخوض تجاربه وتقرر على أساس العمل فيه النجاح والفشل. . . إنه فرصة العمر فلا يجوز إضاعتها. . .

إن بعض الناس الكسالى الذين يهملون الجد والنشاط في أيام شبابهم سيندمون على إضاعة هذا الوقت وسيبكون على إضاعته وتفويته. . . وإن إضاعة الفرص قد يكون على مستوى أكبر وأعظم وأشد خطراً كما لو كانت الفرصة مؤاتية لإقامة حكم إسلامي ثم تهاون المؤمنون في إقامته وسوفوا في بنائه وإقامته. إذا توفرت الظروف من أجل تحكيم الإسلام وجعله المحور الذي تدور عليه كل التحركات والنظريات والأفكار لا يجوز إهمال هذه الظروف بل يجب علينا أن نبادر من أجل تجذير الإسلام وتحكيمه وجعله القانون الذي يحكم الحياة بكل نواحيها. وإذا استطعت أن تقدم نصيحتك وموعظتك وتوجيهك وإرشادك إلى إنسان ضال أو تائه أو متردد وكنت تترقب لها النجاح والتأثير وجب عليك أن تغتنم هذه الفرصة وتسعى بكل طاقاتك من أجل إيصالها إلى قلبه فإنها فرصة مواتية قد تفوت ولا تعود. وهكذا دواليك في كل مجال وفي كل ناحية. . . وفي كل قضية أو مسألة. . .

الخامس: قوله عليه السلام: ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤوب.

كل إنسان يجب أن يسعى في سبيل الحصول على المكارم ويكد في الحياة من أجل اكتساب لقمة العيش الحلال ويكف نفسه عن الاستجداء والاستعطاء. ولا يجوز بحال أن ينطوي على نفسه ويقعد عن السعي وطلب الرزق والصفات الكريمة. . . ومضافاً إلى هذا الاندفاع والسعي المطلوب إسلامياً وعقلائياً نجد أن بعض الأمور المطلوبة قد لا تدرك، قد يحول الزمن دون تحقيقها وتقف العقبات والمشاكل في طريق الوصول إليها. . . فيجب في منطق الإمام بل في منطق المفكرين والعقلاء أن لا يكون عدم تحقيق بعض الأمور سبيلاً للكسل أو مجالاً لتقديم الأعذار الكاذبة لعدم السعي والحركة، فإن طبيعة الأمور أن لا تتحقق كلها حتى مع الاجتهاد فيها والتعب من أجل الوصول إليها. . . لأن بعض المقدمات التي تأخذ بيدك قد لا تكون تحت سلطانك وقدرتك بل تحت سلطة الآخرين وقدرتهم. وأضرب لذلك مثلاً من واقعنا المعاش، فإن المفكرين وأصحاب الرأي الصائب من أمتنا بذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم من أجل توحيد هذه الأمة ولمّ شملها وجمع شتاتها، لقد حاول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، حاولوا كلهم مع لفيف آخر من أبناء

هذه الأمة أن يوحّدوا صفوف المسلمين ويجمعوهم تحت راية التوحيد، ومع كل تلك الجهود لم يفلحوا ولم ينجحوا، لأن تحركهم ونشاطهم المحدود كان يقابله نشاط وجهاد كل القوى المستعمرة والمستكبرة لزرع الفتنة وتأجيج روح العداوة بين المسلم وأخيه المسلم، وعاونهم على ذلك المتعصبون من المذاهب والطوائف وأصحاب الامتيازات الذين لا يظهر لهم صوت ولا ترتفع لهم كلمة إلا ضمن الحزازات الطائفية والمشاكل المذهبية.

لقد كانت صيحة أولئك العظماء في جانب ومسيرة الشعب ومن تولى قيادته زوراً وبهتاناً في جانب آخر. . . فكانت العقبات أشد وأقوى من أن يتخطاها رجال محددون بحدود ضئيلة وقليلة، وقدرات صغيرة غير مؤثرة. ولكن فشل هؤلاء العظماء في تحقيق مرادهم والوصول إلى مطلوبهم لا يستدعي منهم وبالتالي منا أن نكف عن محاولة الجمع والسعي في سبيل توحيد هذه الأمة ورفع كلمتها، فإن المسلمين يشكلون أعظم قوة وأكبرها لو اتحدوا واجتمعت صفوفهم. إنهم القوة الأكثر فعالية وحركة وقدرة لو اجتمعوا على كلمة واحدة. وكما الأمر في الأعمال فقد يكون في الخصال والصفات، فإنك قد تطلب الرياسة والزعامة التي تتصور أنك من خلالها تحقق العدالة وتبسط سلطان الدين والحق في المجتمع ولا توفق في ذلك إلى النجاح، فلا يجوز لك التقاعس والكسل ولا يجوز لك أن تسترسل أو تستسلم لفشلك بل يجب أن تبقى في حركة وسعي دائمين حتى تحقق مطلوبك أو تعجز عجزاً نهائياً ودائمياً عن ذلك. فالإمام يريد أن يوضح هذه الفكرة. . . وهي فكرة أن كل من يطلب شيئاً قد لا يتحقق هذا الشيء، ولكن عدم تحقيقه لا يجوز أن يكون من دواعيه الخمول والكسل والقعود عن الاستمرار في السعي والطلب. وكذلك بنفس المفاد قوله: «وليس كل غائب يؤوب»، فرب غائب عن العيون قد لا تراه أبداً لأنه لن يعود، قد يطويه الموت أو يسجنه الظالمون في غياهب المطامير والزنازين. . . فرب مجاهد قرر أن يعمل عملية فدائية في سبيل الله لضرب المجرمين اليهود أو الصليبيين ثم قبض عليه وأودع السجن فحالت بينه وبين أحبابه قضبان السجن وجدران تلك الزنزانة المنفردة. . . ولكن هذا الاغتراب وهذا التغييب وعدم العودة لا يجوز أن يكون مانعاً لنا عن الحركة وعن الاغتراب وعن المهاجرة في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين. . .

إن غياب وجه قد لا يعود وفقدان حبيب قد لا يؤوب يكون من أشرف الأمور وأجلّها إذا كانت رحلته وغيبته في سبيل الله وفي سبيل الحق والعدل. . .

فليس المهم أن تفقد وجهاً بل المهم أن تكمل مسيرة ذلك الوجه وتسير على نفس

الخط ولا يكون غيابه وعدم أوبته عاملاً من عوامل إضعافك أو مبرراً لكسلك وجمودك. . .

(ومن الفساد إضاعة الزاد. ومفسدة المعاد. ولكل أمر عاقبة، سوف يأتيك ما قدر لك. التاجر مخاطر ورب يسير أنمى من كثير) وفي هذا الفصل خمسة أمور:

الأول: قوله عليه السلام: ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد.

الفساد يختلف ضعفاً وشدة، قلة وكثرة فالسرقة فساد والغش فساد، والغيبة فساد، وأكل المال الحرام فساد، ولكن هذه أقل سوءاً من قتل الأنفس وهتك الأعراض والمتاجرة بالأديان والأوطان. نعم كل منهما فساد وانحراف وضلال ولكن أحدهما أكبر من الآخر وأعظم جرماً وأشد أهمية لما يتبعه من الآثار وما يتركه من الخلفيات المؤلمة وللمصائب المرهقة. . .

إن من كان بسفر وهو بأمس الحاجة إلى الزاد هل يضيع زاده ويتلفه؟! هل من المنطق والمعقول أن يضيع ما هو أهم شيء بالنسبة إليه. . . قد يستغني المرء عن الكماليات وقد يسقط من حسابه بعض الأمور المهمة فيكتفي بالخيمة بدل البناء ويكتفي بالمنزل المتواضع بدل المنزل الضخم الفخم، ويتنازل عن الثياب الفاخرة الثمينة ويستعيض عنها بثوب بسيط قليل الثمن. . . قد يتنازل عن بعض الكماليات الأخرى من أصناف الطعام وتعدد ألوانه ويكتفي بتناول الضروري منه ولكن هل يصل به الأمر إلى إضاعة ما هو ضروري ويتوقف عليه قوام الحياة؟! الزاد ليس ضرورياً وحسب وإنما هو فوق الضرورة. . . إنه لا يقوم الإنسان إلا به ولا يستطيع الحياة بدونه، لا يستطيع أن يكافح في الحياة أو يدافع إلا بعد أن يوفر له زاداً يشد من قوته ويقوي بدنه ويساعده على الاستمرار في الحياة ومشاكلها. . . وكما أن الحياة تتوقف على الزاد ولا يستطيع الإنسان أن يتحرك بدونه كذلك الآخرة. . . يوم المعاد. . . فإن هذه الدنيا مزرعة الآخرة وفي هذه يكون التزود للآخرة. . . والآخرة هي منتهى الغايات وإليها يرجع الجميع. . . فما هو زادها؟ وما مؤونتها؟ هل مؤونتها من مؤن الحياة أم أنها من نوع آخر. . .

إن للآخرة زاداً يتمثل بالإيمان والعمل الصالح. . . **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾**، فزاد الآخرة أن يطفح هذا القلب بالإيمان بالله ورسوله، الإيمان بالله الذي يجعل الإنسان منه رقيباً دائماً على كل نواياه وأقواله وأفعاله، الإيمان بالله الذي يربطه مع الله في كل الحركات والسكنات وفي جميع الأعمال والتصرفات. . . زاد الآخرة يتمثل بإطاعة الله فلا تعصي له أمراً وتتمثل بإعانة الإنسان

وشد أزره، والأخذ بيده نحو المستقبل الحر الكريم... الزاد للمعاد يكون بصلة الرحم وحسن الجوار وإعانة الفقير، يكون بهداية الناس وإرشادهم وتقويم سلوكهم... يكون بالصلاة والصيام والحج والزكاة وإداء الحقوق والواجبات، يكون بتنفيذ إرادة الله في الحدود والقصاص والديات، يكون في كل أمر من أوامر الله التي لا تخلو منها حركة ولا يتجرد عنها فعل... وإفساد المعاد يكون بعدم القيام بهذه الأمور... وأي فساد هو إفساد المعاد؟! إنه فساد يهون عنده كل فساد لأن على أساسه يتعين المستقر إما إلى جنة أو إلى نار... وإن إنساناً نهايته تتأرجح بين الجنة والنار، ويستطيع أن يختار أحبهما إليه ثم يفسد عمله ويدخل النار لإنسان تافه وأحمق بل ليس هناك أحمق منه وأتعس...

وإضاعة زاد الآخرة كما جاء عن النبي بما مفاده عندما سئل عن المفلس فقال: أن يأتي الإنسان بأعمال صالحة ولكنه يأتي يوم القيامة وقد شتم هذا وضرب ذاك فيؤخذ من حسناته حتى إذا لم يبق منها شيء أخذ من سيئاتهم فوضعت في ميزانه... فإن العمل الصالح إذا لم تلحقه بنار تأكله يعطي ثماره... أما إذا أتيت بفعل حسن وأتبعته بالسيئات من كل جانب كيف يقوم هذا الفعل الحسن مقابل تلك الجرائم والموبقات؟.

الثاني: قوله عليه السلام: لكل أمر عاقبة.

كل أمر من الأمور له حكم شرعي ولكل حدث من الأحداث وجهة نظر شرعية، فالصدق له عاقبة محمودة وإن كان ضرره فعلياً قد يطال بعض الأشخاص الصادقين على أيدي الظالمين، ورد الأمانة تعكس التزام المؤمن بدينه والتوافق بين رأيه وعمله لما يحكم به الله، وإقامة العدل في المجتمع ونشر المساواة له عاقبة دوام الحكم واستمراره ورغد الحياة وسؤددها. وهكذا دواليك قد تأكل أكلة منعت عنها تترك لك آثاراً سيئة وتحرمك أكلات، وقد ترتكب خطيئة يكون عاقبتها نار جهنم... وإزاء هذه العواقب التي تنتجها هذه الأفعال يتراءى للإنسان العاقل أن يفكر في عاقبة كل أمر يقوم به وفي كل حركة يتحركها ثم يوازن بينها وبين حكمها الشرعي ليرى مدى انطباقها على الحلال والحرام فإن كانت تدخل ضمن الأولى يقوم بها ويعمل بمضمونها وإن كانت الأخرى اجتنبها وابتعد عنها...

إن العاقل الكّيس هو ذلك الإنسان الذي يتصور عواقب الأمور وخلفياتها وما تتركه على الساحة من الأثر والعاقبة فإن كانت آثارها لصالح الإسلام والإنسان ولو على المدى البعيد سعى في سبيل تحقيقها وإقامتها، وإن كانت الأمور على خلاف ذلك لم يحرك ساكناً ولم يتحرك من مكانه...

يبقى أمر مهم وسؤال وجيه يفرض نفسه أمام كل قضية من القضايا ومسألة من المسائل... وهو هل يحق لكل فرد أن يقيّم الأمور ويتصرف كما يرى من خلال رؤيته الخاصة لعواقبها أو أن المسألة خلاف ذلك؟.

والجواب عن ذلك: أما الأمور الشخصية فيجب أن يمشي حسب مقلّده ـ إن كان عامياً غير مجتهد ـ فيجب أن يكون في طهارته ونجاسته وصلاته وصيامه وغيرها من الأمور التي قد تتخذ صفة الأمور الشخصية والعلاقات الذاتية مقلداً للمجتهد، وفي الموضوعات الخارجية ككون هذا المائع خمراً أو هذا نجس وذاك بول فهذا يرجع إلى اجتهاده الشخصي وتشخيصه الخاص... وأما إذا كانت الأمور من القضايا الراجعة إلى المجتمع ككل وتؤثر على النظام في إقامته وهدمه وفي إعلان الحرب وإيقافها وفي التصرف مع الدول وإقامة العلاقة بينهم وبين دولة الإسلام فهذا يجب أن يرجع فيه إلى أولي الأمر المتمثلين في زماننا بالفقهاء العدول الذين يحق لهم الأمر والنهي ولهم الحكم والسلطة في غيبة الإمام المنتظر عليه السلام...

إن إعلان الحرب وإيقافها يخضع لآرائهم واجتهاداتهم حسب ما يرونه من المصلحة للإسلام والمسلمين، وليس لغيرهم من الناس أن يجتهدوا في هذا الأمر ويحكموا على أمر بالصحة وآخر بالفساد... كما أنه ليس لكل فرد أن يستقل في اتخاذ القرار وإصدار الأحكام، بل يجب أن يرجع في هذا الأمر إلى أولي الأمر وإلاَّ لو استقل كل فرد بما يرى لساد الهرج والمرج واختل النظام وفسدت الأمور...

والإنسان العاقل هو ذلك الذي يرى العواقب إما من خلال رؤيته إن كان من أهل الرأي أو من خلال الاعتماد على آراء غيره ممن يصح له الاعتماد عليهم، وعندها يختار العاقبة الصحيحة والسليمة التي توصله إلى رضوان الله وجنانه...

الثالث: قوله عليه السلام: سوف يأتيك ما قدر لك.

ما قدر لك سوف يأتيك ولكن ليس لك أن تترك الأسباب المنصوبة وتجلس في بيتك تنتظر ذلك الأمر المقدر، بل عليك أن تمشي على طبق الموازين التي وضعها الله فإن لكل شيء سبباً ولكل حادث محدثاً ولكل قفل مفتاحاً... ولا يجوز أن تتجاوز المرسوم لك شرعاً وتتخطاه إلى الحرام... فإن رزقك سيصلك عن طريق الحلال إذا بحثت عنه وتدبرته، فبدلاً من أن تقتحم أبواب الحرام فاطرق أبواب الحلال وادخل إلى تحصيل الطيبات عن طريق مشروع وجائز...

الرابع: قوله عليه السلام: التاجر مخاطر.

لقد استبطنت لفظة التاجر كثيراً من المكر والاحتيال وأضحت وصفاً لقوم استحوذ عليهم الطمع والجشع والغش والاحتكار وقد مارس التجار طرقاً وأساليب ملتوية من أجل الحصول على الربح ضاربين عرض الجدار كل القيم والمثل وكل الآداب والأخلاقيات، فترى التاجر لا همّ له إلا إقتناص الربح وتوفيره ولو كان على حساب راحة الناس وكرامتهم وأمنهم وسعادتهم. . . لم يعد للمبادىء في نظر التجار أي أثر بل كلها تطوى ويقفز عنها في سبيل حفنة من المال. لم نعد نجد التاجر الذي يتورع عن الاكتساب الحرام، بل أباح التجار لأنفسهم كل شيء يعود عليهم بالنفع فأباحوا الربا وحللوا الغش وحكموا بجواز بيع الخمور وآلات اللهو والمعصية، واستوردوا المفاسد التي تميت النفوس وتقتل الأوقات وتقضي على التطلع نحو المستقبل المزدهر السعيد. . .

إن تجارنا اليوم لم يعرفوا الحلال من الحرام ولا الجائز من الممنوع ولا الباطل من الحق، إن على قلوبهم أغشية عن رؤية الحق وكفى بهذه مخاطرة، كفى بها هلاكاً، إن من اشتبهت عليه الأمور فباع حلالها وحرامها وممنوعها وجائزها كيف يأمن عن الوقوع في الخطر. . . إن التاجر الذي لم يتفقه ولم يدرس معالم الحلال والحرام فيعرف ما يجوز له بيعه وما يحرم؟! وما يصح شراؤه وما يمنع؟! ويعرف متى يتحقق الربا ومتى تفسد المعاملة؟! التاجر الذي يبيع دون ضوابط ويشتري دون ضوابط كيف لا يقع في خطر المعصية وكيف ينجو من خطر الحرام. . . كان المسلم قبل هذه الأيام إذا أراد أن يشتغل في التجارة تفقه في هذا الباب ودرس ما يمكن أن يبتلى به ووقف على كل ما يهمه في هذا الشأن ثم بعد ذلك يدخل في هذا المجال.

وكان التاجر أيضاً تبركاً وتيمناً لا يدشّن محله إلا في يوم يكون فيه مناسبة إسلامية كيوم ولادة النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أو مبعثه أو هجرته أو ذكرى ولادة أمير المؤمنين علي، أو يوم الغدير، أو في بعض الأيام المباركة التي تحمل طابعاً إسلامياً وحدثاً له قيمته ومدلوله وبركته. وكان التاجر يتبرك بقراءة مجلس عزاء سيد الشهداء ويتصدق على الفقراء ويعين المساكين ويخفف ربحه عن المؤمنين، كان فيما مضى لتجارنا أسلوب رائع وطريقة لطيفة جميلة، لقد عهدنا بعض التجار المؤمنين في مدينة النجف الأشرف يعرفون باب التجارة وفقهها وآدابها ومستحباتها بشكل يريح النفس ويسرها. . .

وأين منهم تجارنا اليوم؟ لو دخلت أسواقنا لأنكرت أن يكون فيها مسلم. . . التجار المسلمون في لبنان ـ إلا النادر القليل ـ ليس فيهم من الإسلام أثر، لا تميزهم عن

اليهود والنصارى بشيء، بل رأينا بعض التجار وقد أتخمه الغنى وأفسده الثراء يضع النساء العاريات باعة في محله ويفتح اسطوانات الغناء ومكبرات الصوت بقصد جلب الزبائن ولفت أنظارهم إلى محله، لم يعد له من همّ إلا همّ الربح فهو يفكر في قيامه ومنامه وفي حركته وسكونه وهو مع أهله وفي سهرته وعلى طعامه، يفكر بشكل مستمر في أنجح الطرق وأيسرها لتوفير الربح وازدياده دون نظر إلى حلّيته وحرمته وهذا هو منتهى المخاطرة الدينية. . .

وهناك مخاطرة مادية وهي أن التاجر قد يشتري متوقعاً الربح، ولكن بما أنه فرد في مجتمع التجار، وكل منهم يبتغي الربح فقد تنزل قيمة السلعة عما اشتراها به، فيهوي في الخسارة والإفلاس، وهكذا قد يشتري سلعة ويصيبها الكساد أو التلف أو غيرها من عوامل الزمن من حريق أو غريق أو غير ذلك. . .

إن التاجر معرض للإفلاس في كل وقت وقد رأينا بأم أعيننا في هذه السنوات العجاف التي مرّت بوطننا لبنان كيف أصيب كثير من التجار بضربات قاضية أتت على أموالهم كلها واستحقوا الحقوق الشرعية بعد أن كانوا يؤدونها أو هي واجبة عليهم قصروا في أدائها وسوّفوا في إخراجها. لقد وجدنا ذلك الملاك الكبير والتاجر العظيم قد استحق الرحمة والإحسان ووقف على بعض الأبواب يطرقها كي يستدين قليلاً من المال يصرفه على نفسه وعائلته. . . بل وصل الحال ببعضهم أن ماتوا غماً وحزناً على ما أصابهم من ذل بعد عز ومن فاقة بعد غنى ومن فقر بعد ثراء، وهذه كلها عبر وعظات كي يأخذها تجارنا لإصلاح دينهم ومراقبة الله في تصرفهم في بيعهم وشرائهم ولا تغرّنهم الحياة الدنيا فإنها إلى انقضاء وزوال.

الخامس: قوله عليه السلام: رب يسير أنمى من كثير.

أما على المستوى الشرعي فهذا شيء لا ريب فيه ولا شك يعتريه فإن الشارع اعتبر درهم الصدقة بواحدة واعتبر درهم القرض بثماني عشرة حسنة، كما اعتبر درهماً من الربا يصيبه الرجل أعظم من سبعين زنية كلها بذات محرم. . . كما أن الإنسان لو تصدق بما عنده وما ملكت يمينه كلها وكانت قناطير مقنطرة من الذهب والفضة وما غلا ثمنه من الجواهر والعقيان ثم لم يتقرب بذلك إلى الله ولم يخلص في عمله، كل تلك الصدقات لم تزن عند الله جناح بعوضة. . . بينما لو أنفق الرجل بعض ما قدرت عليه يده وكان إنفاقه عن طيب نفس وإخلاص وقربة إلى الله فإن هذا التقرب بالأمر اليسير ليس له عدل في دار الدنيا ولا نظير وإنما الذي يوفيه أجره هو الله، والله أكرم وأجل من أن يجعل أجره

وثوابه دون الجنة، ولنا في قصة أهل البيت التي يقصها القرآن في سورة الدهر أعظم الأمثال وأجلها حيث إن هؤلاء الأطهار المبرؤون من العيب قدموا أقراصاً معدودة لليتيم والمسكين والأسير ولكنها خرجت من داخل قلوبهم وعاشوا مع هذه الأصناف في آلامهم وأحزانهم وتعاستهم وتفاعلوا معهم بجميع جوارحهم فقدموهم على أنفسهم وآثروهم على ذواتهم. ولما علم الله إخلاصهم في العطاء والتقرب إليه في البذل أنزل فيهم آيات بينات يرددها العالم كله ويتمثلها المخلصون في سلوكهم وسيرتهم... إن هناك الكثير ممن قدم وبذل وأعطى ولم تنزل في حقه آية واحدة بل ولا حرف واحد وقد يكون عطاؤه أكبر وأكثر بكثير من هذه الأقراص المصنوعة من خبز الشعير التي تصدّق بها أهل البيت، فإن القليل مع التوجه به إلى الله والإخلاص في طريقة تقديمه يكون أنمى أجراً وثواباً ممن يقدم الكثير وهو عار عن نية التقرب إلى الله والتوجه إليه...

(لا خير في معين مهين ولا في صديق ظنين. ساهل الدهر ما زل لك قعوده، ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه. وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج) في هذا الفصل الشريف خمسة أمور:

الأول: قوله عليه السلام: لا خير في معين مهين.

إذا أردت أن تستعين فعليك بأصحاب القدم السابقة في معالي الأمور ووجوهها، توخّ أطيبها نفساً وأسخاها يداً وأعلاها منزلة. إذا أردت أن تستعين دون منّة بل مع الاحتفاظ بكرامتك وعزتك فارم ببصرك نحو من تعرّق وتجذّر في المناقبية والتسامي فإنه لن يردك خائباً ولن يشوش عليك عملك أو يلحق بك وبحاجتك التهمة المسيئة والسمعة القبيحة. إذا كانت حاجتك عند شخص كبير فترقب الرجل الكبير واستعن به لقضائها عنده ولا تتوسط بالخادم والحاجب والبواب.

إن النفوس الكبيرة لممارستها الخير وقضاء حاجات الناس تعود وكأن هذه الأمور من طبائعها بل ترى لذة في إعانة الناس وكشف كروبهم وتسهيل أمورهم، تعود حاجات الناس بالنسبة إلى ذوي النفوس الكبيرة عادة يأنسون بها بل يستوحشون لفقدها ويتأذون عند عدم قضائها... فكما أن حاتم الطائي كان يجد اللذة في الكرم ويطلب الضيوف من أجل قراهم حتى أضحت هذه الخصلة عادة له يستوحش إذا أكل منفرداً بل لا يستطيع أن يجلس على مائدة خالية من الضيوف هكذا حال أصحاب الهمم الكبيرة وأصحاب الكرامة الصحيحة يأنسون في قضاء حاجات الناس وسدّ عوزهم وستر عيبهم ولا يقصرون في هذا المجال...

أما السفلة من الناس، أبناء الشارع وأهل المجون. . . أما المهين الذي تزدريه الناس لخسته ووضاعته ولسوء تصرفاته وقلة حيائه الذي يمارس الانحرافات ويعمل بالمعاصي والخطايا فإن الاستعانة به مذلة ومهانة. . . وكيف تستشفع بمنحرف أو تستعين بظالم في قضاء حاجة أو إنجاز معاملة! وكيف تنظر الناس إليك وإلى حاجتك التي استعنت لقضائها بهذا المنحرف المهين، فإنهم بدون شك سينظرون إليك باحتقار وازدراء وسفالة وضعة وكفى بهذا سوءاً وكفى به خزياً. وهذا هو رأي الإسلام وهذه هي تعاليمه يوم كان في البين إسلام يحكم ومسلمون ملتزمون، أما اليوم، وسلام على هذا اليوم بل على هذه الأيام، فقد انقلبت الموازين وتغيرت الوجوه وتنكرت الدنيا وأدبرت وجاءتنا تعاليم الصهيونية والصليبية فزرعت في مجتمعنا المسمّى بالإسلامي مفاهيم وأفكاراً تخالف كل هذه القيم والمثل. . . صارت المومسات وسائط في إيصال هذا الفرد إلى أعلى المنازل في الدولة. . . وأضحت الانحرافات هي السبل التي تؤهل الإنسان ليعلو ويرتفع نجمه على أعتاب السلطان، بل السلطان نفسه كما كانوا يسمونه قديماً ويسمونه الآن الحاكم أو رئيس الجمهورية، حتى هذا صارت تأتي به العاهرات والمؤامرات وأضحى تعرّقه في الباطل هو ميزان تقدمه وانتصاره فهذا (ريغان) رئيس أميركا كان ممثلاً جاءت به الصهيونية العالمية زعيماً على رأس أكبر دولة في العالم وهكذا من كان قبله، جاءت بهم المنظمات اليهودية لأنهم يخدمونها ويخدمون مصالحها وكم تسربت فضائح الزعماء وانكشفت أدوارهم المشبوهة وخلفياتهم الدنيئة.

إن هذا الزمن، زمن العهر والنفاق، فبمقدار نفاقك وتملقك وتنازلك عن شخصيتك وكرامتك تستطيع أن تتقدم في الدولة وتترقى في مناصبها، وأنا أحيل القارىء إلى أن يدرس كل مسؤول ـ إلا القليل ـ بعين التحقيق والتدقيق ليرى صدق ما أقول.

الثاني: قوله عليه السلام: ولا في صديق ظنين.

لأن الصديق الذي يحمل نفسية مملوءة بالشك ويحمل كل بادرة من صديقه على أسوئها، مثل هذا الإنسان لا يستطيع أحد المشي معه كما لا يستطيع أن يصفي الأجواء وينقيها من الشرور والآلام، لأن وراء كل حركة مشكلة ووراء كل كلمة ألف معنى مما يضر بالوئام ويفسد الود، وقد رأى بعضنا هذا النوع من الأصدقاء الذين لا يصفو ودّهم ساعة حتى يعتكر ساعات ولا تنقّى أجواؤهم في وقت حتى تثار فيها الغبار في أوقات وسيأتي الحديث عن الصديق بشكل مفصل بعد قليل من الوصية إن شاء الله. . .

الثالث: قوله عليه السلام: ساهل الدهر ما زل لك قعوده.

الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، هكذا تكون الحياة وهكذا رسمت صورتها

وتبينت معالمها فمن كانت له أعارته محاسن غيره، ومن كانت عليه سلبته حتى محاسن نفسه، هكذا قال علي في إحدى كلماته وهكذا واقع الحال والمشاهد للعيان. . . فهناك أناس قد أنزلهم الدهر من عليائهم فأسقط تيجانهم وشدد عليهم حتى أحوجهم إلى أن يمدوا أيديهم للاستجداء والاستعطاء، وهناك أناس رفعهم الدهر من الحضيض، من أسفل طبقات المجتمع والحياة إلى عز لا يدانيه عز. . . فقد كان هناك من يعرف الإمارات العربية، ويعرف تلك الوجوه القديمة التي كان أصحابها يركضون خلف البعير في حر الهجير ليردُّوه إلى حظيرته. . . وهناك من كان يطارد الجراد ليجمعه ويدخره لموسم الشتاء. . . . وهناك من لم يعرف القميص ولا السروال. . . ثم مد الله لهم في طغيانهم وأنزل نعمه عليهم ليعرفهم حقيقتهم ويقررهم على ظلمهم. . . وهكذا دواليك في غيرهم. . .

والإمام هنا يريد أن يقول لنا استغلوا حالة سلام الدهر معكم ولا تحاربوه أو تكلفوه فوق ما تقدرون وقد قال الشاعر:

ومكّلف الأيام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

فإذا سهلت الأيام وذل الدهر فيجب أن يتحين الإنسان الفرصة لاستغلالها والاستفادة منها بمقدار طاقاته ولا يتكلف أكثر من ذلك فإنه لن يستطيع، ولا يحمل نفسه هماً وغماً بل كل شيء يأتي في وقته ويدركه الإنسان في أيامه. . .

الرابع: قوله عليه السلام: ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه.

العقلاء يسيرون في طريقتهم الحياتية على ضمان النتيجة أو اعتقاد ضمانها أو الظن القوي فيها، ولكنهم لا يقدمون على عمل فيه احتمال المنفعة أو رجاء الربح خصوصاً إذا كان ما يبذل مقابل هذا الاحتمال كبير كمن يخاطر للحصول علىماية بدفع التسعين فإن المخاطرة بالتسعين قد تأتي عليها وتذهب بها وهذا عمل غير عقلائي. . . وقد استعمل السفهاء اليانصيب وروّجوه بين الناس فمن بين آلاف الأوراق تربح عدة أوراق منها والباقي كلها تذهب هدراً، فمن يخاطر بعشر ليرات مقابل المبلغ المعلوم ويبذلها لاحتمال الربح، فإنه يقدم على عمل غير طبيعي، وكم سمعنا أو رأينا أشخاصاً قد مضى شطر كبير من أعمارهم يشترون من هذه الأوراق دون أن يربحوا ولو فلساً واحداً. . .

الخامس: قوله عليه السلام: وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج.

اللجاج في الخصومة يفسد الحق ويشوش الرؤية السليمة فإذا كنت ذا حق فتأن في طلبه والوصول إليه، يجب عليك أن تسعى بهدوء ولين في طلبه. . . فإذا اعتذر صاحبك

بعدم توفر المال وتعسره فاقبل منه ذلك وأنظره إلى ميسرة. . . وإذا كان عند صاحبك شبهة حق في خصومه فلا تلجّ ولا تلحّ وتكرر التهديد والوعيد فإن ذلك قد يكون عليك ليس لك، وكم من إنسان طلب الحق بجانبه وتبين أن الحق عليه. . فمن كان في أمر أو قضية فليتأن في طلبها ولا يلجّ في الحصول عليها. . .

(إحمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة. وعند صدوده على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك. وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن تفعله بغير أهله. ولا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك) في هذا الفصل الشريف سيكون الحديث حول أمرين مهمين:

الأول: في الصداقة.

الثاني: في الأخوّة.

أما الصداقة:

فقد تشوه معناها في هذا الزمن وتلبدت بغيوم داكنة حتى لم يعد يرى ويميز الصديق من العدو، إن الصداقة في هذا الزمن وليدة المصالح والمنافع فقد تأسست وابتنت على الأساس الواهي فبمجرد أن تنقضي المصالح والمنافع تذوب الصحبة وتضمحل المحبة. . . أما الصداقة إذا ابتنت على حب وقناعة وعن اختيار للمناقب الصالحة والصفات الحميدة في الصديق، فإن مثل هذه الصداقة تستمر وتدوم فلا يتغير الصديق إذا جاءته الدنيا ساحبة إليه أذيالها ولا يتبدل موقفه منك إذا صار صاحب سطوة وسلطان أو قوة وتيجان.

إن كل ما في الدنيا لا يغير نفسية الصديق ولا يبدله عن قديمه الذي كان بينك وبينه لأن هذه الصداقة تبتني على أسسس متينة يصعب إزالتها أو تغيرها.

وإن أحاديث أهل البيت قد تكفلت في بيان الصداقة ومتى تتحقق؟ والإنكار على الصديق المتقلب وكيف نحافظ على الصداقة ونرعى دوامها واستمرارها؟.

ـ فالإمام الصادق يحدد الصداقة حيث يقول: الصداقة محدودة ومن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.

أولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

والثانية: أن يرى زينك زينة وشينك شينه.

والثالثة: لا يغيره عليك مال ولا ولاية.

والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً مما تصل إليه مقدرته.

والخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات.

ـ ويقول الصادق أيضاً لبعض أصحابه: من غضب عليك من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك شراً فاتخذه لنفسك صديقاً.

ـ وفي نهج البلاغة: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته.

ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: لا تسم الرجل صديقاً سمة معروفة حتى تختبره بثلاث: تغضبه فتنظر غضبه يخرجه من الحق إلى الباطل· وعند الدينار والدرهم وحتى تسافر معه...

ـ عن الصادق عليه السلام عن آبائه قال: قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: اعمل بفرائض الله تكن أتقى الناس وأرض بقسم الله تكن أغنى الناس وكف عن محارم الله تكن أورع الناس وأحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مسلماً.

ـ وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ليس منا من لم يحسن صحبة من صحبه.

ـ وقال الإمام علي عليه السلام: من أطاع الواشي ضيع الصديق.

ـ وقال الإمام عليه السلام: أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة: فأصدقاؤك: صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك. وأعداؤك: عدوك، وعدو صديقك، وصديق عدوك.

ـ وقال الرضا عليه السلام: أصحب السلطان بالحذرو الصديق بالتواضع والعدو بالتحرز والعامة بالبشر.

ـ قال المأمون للرضا عليه السلام: أنشدني أحسن ما رويته في السكوت عن الجاهل وترك عقاب الصديق، فقال عليه السلام:

إني ليهجرني الصديق تجنباً　　فأريه أن لهجره أسبابا

وأراه إن عـاتبتـه أغـريتـه فـأرى لـه تـرك العتـاب عتـابـا
وإذا بليـت بجـاهـل متحكـم يجد المحال من الأمور صوابا
أوليتـه منـي السكـوت وربمـا كان السكوت عن الجواب جوابا

أما الأخوّة: .

الأخوة رباط المؤمنين وعرى المتقين أحبها الله لخلقه فعاقدهم عليها، إنها تتجسد في بذل ما في اليد والسخاء بما عند الفرد وكف الأذى بل الإحسان والعطاء دون منّ ولا جزاء. . . يشعر المؤمن اتجاه أخيه وكأنه نفسه لا يستثقل له حاجة ولا يؤخر له طلباً ولا يحوجه إلى المعاودة بل يبادر بمجرد أن يعرف أن أخاه يتمنى أمراً أو يريد حاجة يبادر فوراً إلى قضائها. الأخوة بين المؤمنين تتجسد في بذل كل الطاقات من أجل خير الأخ وإسداء المعروف له وتقديم ما تحت يده، يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها. . . يمد يده إلى كيسه دون استئذان ولا طلب. . .

ولو جئنا إلى تعاليم الإسلام في هذه الناحية لوجدنا المسلمين يعيشون في عالم آخر وكأنهم لا يعرفون الإسلام بل كأنه لم يمر عليهم بعد ولم يسمعوا به وبأحكامه، أين هذه المثل والقيم التي تصور الأخ كالنفس، بل أهم من النفس في بعض الأخبار؟ أين هذا من واقعنا المر الأليم حيث التناحر والقتال وحيث الحرب والعداء فتجد المسلم في قطر يحارب المسلم في قطر آخر، وتجد العداء يستحكم كل يوم وتدور المهاترات والمنازعات وتدور الشتائم والتكفير؟ ولو ألقينا نظرة بسيطة على أمتنا العربية والإسلامية لوجدنا مصداق ذلك ظاهراً للعيان، إنك تجد الحدود الجغرافية التي وضعها المستعمر الكافر هي التي تفصل المسلم اللبناني عن المسلم السوري والسوري عن المصري وهكذا دواليك، وقد ساعد هذا الانفصال والاستغلالية ظلم الحاكمين وتكريسهم هذه الفرقة التي تخدم مصالحهم وتحفظ لهم عروشهم. . .

إن غباء المسلمين وعدم وقوفهم بشكل صحيح على إسلامهم جعلهم في حالة تفكك وتصدع ونكد وشقاء لا يقفون من كبوة حتى يقعوا في أخرى ولا يسدون ثغرة إلا وتفتح أمامهم ثغرات. . . أين تلك التعاليم العظيمة التي لم نر منها على مسرح الحياة شيئاً يذكر، لقد تبخرت كل تلك الإرشادات والأوامر وذهبت كلها أدراج الرياح. . . فانظر رعاك الله إلى قليل من كثير من حقوق هذه الأخوة واعتبر بها وانظر إلى واقعنا وتحقق من المفارقة الفاقعة بل المناقضات الصارخة. . .

- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه.

ويحق على المسلم الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم . . .

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه.

ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج عنه كربته ويقضي دينه فإذا مات خلفه في أهله وولده.

ـ عن المعلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبع حقوق واجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب.

قلت له: جعلت فداك وما هي؟.

قال: يا معلى إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل.

قلت: لا قوة إلا بالله.

قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره.

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته.

والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى.

والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه وتصنع طعامه وتمهد فراشه.

والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك.

ـ عن أبان بن تغلب قال: كنت أطوف مع أبي عبد الله فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجته فأشار إليّ فرآه أبو عبد الله فقال: يا أبان إياك يريد هذا؟.

قلت: نعم.

قال: هو مثل ما أنت عليه؟.

قلت: نعم.

قال: فاذهب إليه واقطع الطواف.

قلت: وإن كان طواف الفريضة.

قال: نعم.

قال: فذهبت معه ثم دخلت عليه بعد فسألته عن حق المؤمن؟.

فقال: دعه لا ترده فلم أزل أرد عليه.

قال: يا أبان تقاسمه شطر مالك ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني.

فقال: يا أبان أما تعلم أن الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم.

قلت: بلى.

قال: إذا أنت قاسمته فلم تؤثره، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر.

ـ وعن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً لا براءة له منها إلا بأدائها أو العفو:

١ ـ يغفر زلته.

٢ ـ ويرحم عبرته.

٣ ـ ويستر عورته.

٤ ـ ويقيل عثرته.

٥ ـ ويقبل معذرته.

٦ ـ ويرد غيبته.

٧ ـ ويديم نصيحته.

٨ ـ ويحفظ خلته.

٩ ـ ويرعى ذمته.

١٠ ـ ويعود مرضه.

١١ ـ ويشهد ميته.

١٢ ـ ويجب دعوته.

١٣ ـ ويقبل هديته.

١٤ ـ ويكافي صلته.

١٥ ـ ويشكر نعمته.

١٦ ـ ويحسن نصرته.

١٧ ـ ويحفظ حليلته.

١٨ ـ ويقضي حاجته.

١٩ ـ ويستنجح مسألته.

٢٠ ـ ويسمت عطسته.

٢١ ـ ويرشد ضالته.

٢٢ ـ ويرد سلامه.

٢٣ ـ ويطيب كلامه.

٢٤ ـ ويبر أنعامه.

٢٥ ـ ويصدق أقسامه.

٢٦ ـ ويوالي وليه.

٢٧ ـ ولا يعاديه.

٢٨ ـ وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه.

٢٩ ـ ولا يسلمه ولا يخذله.

٣٠ ـ ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه.

وقد ذكر صاحب «المحجة البيضاء» للأخوة ثمانية حقوق نذكر فهارسها مع بعض الالتفاتات...

- الأول: المال: فقد قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟.

قال: لا.

قال: فلستم باخوان.

- الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني.

- الثالث: اللسان بالسكوت مرة والنطق أخرى، أما السكوت فإن يسكت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته.

- الرابع: حق اللسان في الكلام كأن يذكر فضائله.

- الخامس: الدعاء للأخ في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله.

- السادس: العفو عن الزلات.

- السابع: الوفاء والإخلاص.

- الثامن: التخفيف وترك التكليف وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه.

إن الإمام في وصيته يريد أن يؤكد التلاحم القوي بين الأخوة ويسعى إلى ردم أي هوة يمكن أن توسع الخلاف أو تعمقه. فإذا بدرت من صديق بادرة أو صدرت هفوة أو كان الصديق لأمر ما قد تغير فيجب أن يقابله الصديق الآخر بعكس ذلك فيصله عند القطيعة ويلطف به عند الصدود ويبذل له عند بخله، ويدنو منه عند بعده وبهذا المفاد وردت الأحاديث الكثيرة. منها ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - قال: قال رسول الله - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - في خطبة: ألا أخبركم بخير خلايق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعنا والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك.

وفي حديث آخر عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين قال: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي

مناد أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عُنُقٌ[(١)] من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا فقال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنة.

(وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة وتجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبة. ولن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك. وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين. وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما) في هذا الفصل الشريف خمسة أمور:

الأول: قوله عليه السلام: وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة.

كان للنصيحة قيمتها وأهميتها يوم كان الود بين المسلمين قائماً والتحابب بينهم سارياً، كان المسلم يلتقي مع أخيه المسلم ليقدم له النصيحة التي يراها لنفسه حيث كانت الروح الإيجابية بين الأخوة تتفاعل فيما بينهم وكانوا يعيشون كالجسد الواحد يرى أحدهم زين أخيه زينه وشين أخيه شينه. كان الأخ يندفع في سبيل بذل النصيحة لأنها تحمل الخير والود وتوجه الأخ إلى ما فيه الصلاح والسعادة... وكان الأخ المتوجهة نحوه النصيحة يتقلبها برحابة صدر ووعي، يصغي إليها ويعطيها أهمية كبرى، يحرك فكره فيها ويأخذها بعين الاعتبار... هكذا كان المسلمون بل أكثر من ذلك... وأين هم منا اليوم... لا يجرؤ أحد أن ينصح أحداً لأن هذه النصيحة أما أنها ترفض أو تهمل أو تأتي بشر قبيح للناصح الأمين... وهذا يعود تارة للناصح للشك في إخلاصه وتهمته في النصيحة أو لنفس الشخص المنصوح حيث يجد نفسه أكبر من النصيحة أو أكبر من الناصح دون أن ينظر إلى النصيحة نفسها ويحلل معناها ويدرسها بجدية وواقعية...

ففي حين يسلك المسلمون خلاف دينهم يصر الإسلام ويؤكد ويكرر الطلب من الأخوة أن يبذلوا النصيحة لبعضهم البعض، ليس النصيحة التي تكسب الود وترضي الأخ فحسب، ليست النصيحة التي توافق مزاج الأخ وتوفر له الرضا بها والارتياح، بل يجب أن تكون النصيحة حتى فيما يكون ثقيلاً عليه قاسياً على سمعه وقلبه إذا كانت النصيحة صحيحة وسليمة ولها حقيقتها وواقعيتها... يجب أن تكون النصيحة من الأخ نحو أخيه مطلقة العنان في ما أحب وكره لأنها في كلتا الحالتين تعود عليه بالنفع والصلاح وهذا هو غاية الأخوة وهدفها البعيد.

---

(١) عُنُق: جماعة.

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه، ويقول الإمام الصادق: عليكم بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه.

الثاني: قوله عليه السلام: وتجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبة.

ما أجمل الإنسان وأكبره عندما يعلو على غضبه ويرتفع عن تفجيره ضربة قاصمة أو كلمة قاسية أو صرخة مؤذية... ما أروع الإنسان عندما يبتسم ثغره وجوفه يغلي، ويضحك سنه ويكاد قلبه ينفجر من الغضب، إنه يحلم، يقابل الإساءة بالإحسان ويحلم وإن جُهلَ عليه ويحاور بالكلمة الطيبة والنظرة العطوفة دون أن يُثار أو ينفجر في وجه خصمه...

كظم الغيظ أن تحبس غضبك مهما كانت أسبابه وتعيش مع من أثارك باللين والوعي فتفتح له باب الحوار الأخوي وتحلم عليه حتى يعود عن غضبه ويرتدع عن تصرفه...

إن الإنسان إذا امتلك غضبه واستولى على أعصابه يستطيع أن يعيش في ارتياح وهدوء بال... وكم وجدنا أولئك الحمقى الذين يثورون لأتفه الأسباب وأحقرها... وكم رأينا من المشاكل التي كانت يمكن أن تحل بابتسامة أو كلمة طيبة أو تجاوز عن أمر حقير لا يستحق الوقوف عنده...

كظم الغيظ عملية امتلاك لما يتحرك في الإنسان من إحساسات وانفعالات غير عقلانية وسيطرة كاملة عليها عند حب الانتقام والثأر وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تحث عليه وتمدح فاعله.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول ما أحب أن لي بذلّ نفسي حمر النعم، وما تجرعت جرعة أحب إليّ من جرعة لا أكافي بها صاحبها.

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة. وقد قال الله عز وجل: ﴿**الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾، وأثابه الله مكان غيظه ذلك.

ـ عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ:

من أحبّ السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر.

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من جرعة يتجرعها العبد أحبّ إلى الله عز وجل من جرعة غيظ يتجرعها عند ترددها في قلبه، إما بصبر وإما بحلم.

الثالث: قوله عليه السلام: ولن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك.

إن الله سبحانه وتعالى مدح نبيه وبين له فضيلة لينه وعطفه وحنانه فقال تعالى: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك...**﴾. فكما أن الغلظة والخشونة تنفر الناس وتفرقهم فإن اللين والعطف والحب يجمعهم... إذا كنت مع أصدقائك غليظاً حركت نفوسهم عليك وأثرتها نحوك فإن النفوس إذا كانت لينة تتحبب إلى الناس وتقترب منهم لأن اللين نوع من الإحسان والنفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها، وهذا عكس الغلظة والجفاء، فإنه منفر للمرء مبعد له عن اخوانه وأصدقائه. فمن غالظك في حديث أو نظرة أو نحوها فلِنْ معه وتحبب إليه تجده عما قريب يعود إليك ويقابلك بأفعالك خيراً ويجازيك بإحسانك إحساناً...

الرابع: قوله عليه السلام: وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين.

الظفرين أحدهما الغلبة على العدو والانتصار عليه في ساحة الجهاد، والآخر أن تأخذ عليه بالفضل من الإحسان والإكرام حتى تسكته بل تجعله لساناً ينطلق في مدحك وتقريظك وهذا الأخير من الظفرين أهم من الأول وأحلى وأثمن وأجمل... فإن في الأول تقضي عليه مادياً وتنتصر عليه عسكرياً بقوة زندك وسلاحك الذي يشترك فيه أي حيوان يكون أقوى منك بينما في الآخر يتمثل الانتصار الفكري والغلبة العلمية حيث تحوله بهذا الإحسان والفضل إلى لسان ينطق بحمدك ويذكر فضلك وإحسانك، في الأول تجده يتململ لينقّض عليك لأنه لم يذعن لك إلا تحت وطأة الغلبة بينما في الآخر يذعن لك من الداخل ويشعر أنك بإحسانك متفضل عليه محسن إليه.

الخامس: قوله عليه السلام: وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ترجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما.

جاءت كلمة الإمام هنا تعليماً سماوياً لهذا الإنسان الذي تنزع نفسه إلى الشر ويريد أن يسلك مع أخيه خلاف المرسوم له شرعاً. يريد الإمام أن يقول لهذا الإنسان: إن أخاك ليس عارياً عن كل فضيلة ولا مسلوب الحسنات كلها بل لا يخلون أن يكون فيه بعض

المزايا الحميدة والصفات الطيبة، فإذا تشاكست معه في أمر وتفرقت كلمتكما إلى غير اجتماع فيجب أن تحتفظ له ببقية باقية في نفسك من هذه الصفات يمكن أن يرجع إليها إذا عادت الأمور إلى مجاريها وصفت الموارد لشاربيها. . .

إن بعض الناس إذا غضب على أخيه أو لم يعجبه أخوه في بعض تصرفاته أو خالفه في رأي أو اتجاه أو ارتكب معه خطيئة عمداً أو خطأ، تراه يتعامل معه معاملة العدو فيكشف كل أوراقه التي وضعها هذا الأخ بين يديه أيام السرور والهناء، إنه لا يبقي بقيةً من تلك الأسرار التي كان يسرها إليه صديقه فتراه يكشفها سراً سراً ويبوح بها واحدة إثر أخرى، ويعمد إلى صفاته ليعرّيه من كل فضيلة وينسب إليه كل سيئة ذميمة. . . لقد انقطع حبل الود بينهما وتمزق ذلك الشمل الذي كان ملتئماً فيما مضى. . .

إن من يقطع كل الخطوط بينه وبين أخيه يصعب عليه العود إليه حتى لو كان الأخ يتمتع بإيجابيات وحسنات ويريد أن يرجع أدراجه نحوه. . .

كيف يرجع إليه وقد تقطعت السبل التي كانت تصله به؟! لم يعد خيط رفيع يصل بينهما أو يجمعهما؟! فالإمام ينبهنا إلى معنى دقيق وعظيم وهو أن لا نقطع كل الخطوط والخيوط التي بيننا وبين الأخ بل يجب أن نبقي بعضها حتى إذا أراد الرجوع أمكن ذلك وسهل الأمر. . .

(ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه، ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، ولا ترغبن في من زهد عنك. ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرته ونفعك. وليس جزاء من سرك أن تسوءه) في هذا الفصل أمور يجب التعرض لها.

الأول: قوله عليه السلام: ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه.

ترغيب في عمل الخير وقوة دفع في سبيل الصالحات. . . إنه أسلوب من أروع الأساليب وطريقة رائعة من الطرق التي تأخذ بيد الإنسان نحو الفضيلة. . . أسلوب الظن الحسن بمن ابتدأ الخطوة الأولى في طريق إصلاح النفس وتهذيبها. . . إن حسن ظنك بإنسان يجعله قهراً عنه أن يصدق ظنك، حسن الظن يشكل قوة الدفع في المظنون به، فمن ناديته بصفة حميدة أو خصلة عالية اضطر أن يتصنع أو يتكلف حتى يبلغ هذه الخصلة. . . فمن كررت عليه يا صادق اضطر أن يحقق هذه الصفة في نفسه ويظهرها لك

بصورة صادقة وإذا تكرر منه هذا الفعل واستمر فيعود بعد مدة عادة ـائمة يعسر عليه أن يتخلى عنها بسهولة. . .

الثاني: قوله عليه السلام: ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه.

إذا صدقت الأخوة وجب الإخلاص فيها والبذل لها وعدم منع شيء عنها، فيتحول الأخ إلى نفس ثانية يرعاها أخوه ويحافظ عليها ويهتم بشؤونها ويبذل ما تحت يده لها ومن أجلها.

وقد أكد الأئمة على رعاية حق الأخوة والمحافظة عليها وقد رسموا في حديثهم الشريف كيف نتعامل مع اخواننا وكيف نستطيع أن نكتسب مودتهم ونديم اخوتهم. . .

ومن جملة هذه الأمور التي أكد عليها الأئمة رعاية حق الأخوة والمحافظة على القيام بما تتطلبه هذه الأخوة ولا يترك الأخ هذه الحقوق اتكالاً على هذه الأخوة.

بعض الأخوة يهملون حقوق اخوتهم بحجة أنهم من البيت تارة وبحجة أنهم كأنفسهم أخرى وبحجة أنهم اخوة ثالثة، والإمام يؤكد أن هذا الأخ لا يسقط حقوقه هذه الأعذار والحجج. . . فإذا مرض وجبت زيارته وإذا عاد من سفره وجبت تهنئته وإذا صار عنده مناسبة وجب الحضور عنده ولا يجوز التعليل وخلق الأعذار بأنه أخ فلا يعتب وأنه أخ وهو يغفر. . . وخصوصاً إذا تكررت هذه المخالفات وكثرت هذه الاعتذارات فإن عقد الأخوة تتحلل عـراه وتنفصل ويفقد الأخ عندها أخاه، والغبي من فقد أخاً له عاش معه وأعجبه واستفاد من سلوكه وحديثه بما يقربه من الله وجنته. . .

الثالث: قوله عليه السلام: ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك.

نفهم من خلال الحض في أحاديث المعصومين على صلة الرحم والجوار والأهل والقرابة والأصدقاء والأخوة أن للإسلام عناية زائدة بمن يتصل بهم وتربطهم به رابطة ولو كانت ضعيفة. . . هذه الصلة يمتّنها الإسلام ويقويها ويرفع من طريق تحقيقها كل العقبات والمعوقات ويوصي المسلمين بالعفو والصفح والتسامح ويؤكد على هذه المعاني في حق الأهل والأقرباء والرحم. . .

إن الأحاديث تؤكد على التراحم بين الناس جميعاً ولكنها تؤكد هذا المعنى في حق الأقرباء من الأهل والأولاد والأرحام. . . والإمام هنا ينهي أن يكون أهل الإنسان أشقى الناس به بدل أن يكونوا أسعد الناس به. . . فإذا لم تستطع أن تكون وسيلة السعادة

لأهلك فلا أقل من أن لا تكون وسيلة شقاء لهم... وإننا نسمع عن بعض الناس أنهم خارج بيوتهم ينشرحون ويفرحون، يضحكون ويمرحون، حتى إذا عادوا إلى أهلهم تغيرت أوضاعهم وانقلبت أحوالهم، تراهم تسوء أخلاقهم وتعلو أصواتهم بالصياح والسباب والشتم والضرب وكأنهم غير أولئك الذين كانوا قبل ساعة خارج بيوتهم أصحاب الأخلاق والآداب والفرح والانشراح. إن هؤلاء يخالفون وصية الإمام هذه ويعملون بخلافها، وقانا الله من الزلل والخطأ ووفقنا لما فيه الخيرو الفلاح...

الرابع: قوله عليه السلام: ولا ترغبن فيمن زهد عنك.

إذا رغبت فيمن زهد عنك زادته رغبتك فيه احتقاراً لك لأنه ينظر إليك بعين الحاجة إليه والعوز إلى فضله فإن الرغبة في إنسان لو قابلته الرغبة من الطرف الآخر أثمرت هذه الرغبة وأثّرت وأعطت ثماراً طيبة ونتائج حسنة...

إذا كانت الدنيا إلى جانب إنسان وقد أقبلت عليه من أطرافها تراه يزهد بأصحابه القدامى ويتنكر لجميلهم القديم معه ويتناسى كل إحسانهم وفضلهم ويزهد فيهم على حد تعبير الإمام لأنه يجد نوعاً جديداً من الأصحاب والخلاّن على شاكلته وسمته، وقد عهدنا أناساً ممن اغتنوا بعد فقر وارتفعوا بعد ذل رأيناهم قد زهدوا بأصحابهم وتنكروا لهم بل لم يعودوا يعرفونهم، فأجمل بهؤلاء الناس أن يقابلوا مثل هذا المتكبر المتعالي بالزهد فيه والاحتقار لمجالسه، فإن ذلك أحسن لحالهم وأجمع لشؤونهم...

الخامس: قوله عليه السلام: ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ولا تكونن علَى الإساءة أقوى منك على الإحسان.

الأحياء على وجه هذه الأرض في سباق مستمر بعضهم مع بعض، وكل واحد قد رسم شوطه وحدد هدفه فمنهم من حدد الحدود بالإفساد والمعاصي والخطايا كأبناء هذا الزمن الذي أخذ أهله يسارعون فيما بينهم أيّهم يكسب إثماً أكثر من غيره، فترى هذا الفرد يشرب كأساً محرمة فيسابقه جاره ليشرب كأسين وترى هذا الإنسان يتباهى بعدم الصلاة فيبادله الآخر متباهياً بعدم الصلاة والصيام، وترى هذه المرأة تتباهى بسفورها وخلاعتها فتبادر اختها لتباهيها بهذا، وبعدم القيام بشيء من واجبات الله وهكذا دواليك.
هذا هو سلوك الناس في زماننا، ولكن الإسلام له شوط يرسمه ضمن حدود الله ويقول لهذا الإنسان: إذا بادر أخوك لقطيعتك وسارع إلى ذلك فكن أنت السابق على صلته وكن أنت الذي ترسم له طريقاً حسناً وأنت الذي تعلمه درساً في الخير والعمل الصالح... لا يكن بمعصيته أسرع منك في طاعتك فأنت على حق وخطواتك كريمة ومباركة فلا يجوز

أن يسبقك العاصي في معصيته على شوط الطاعة في طاعتك، وعلى حسن المبادرة إلى صلة من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك.

والآن وأنا أكتب هذه الكلمات أسمع بأذني أهل الفسوق يحيون ليلتهم بالمعصية وأصواتهم ترتفع بالغناء الحرام في ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل، إنهم يسارعون في المعصية والانحراف ويتجاهرون بالحرام على رؤوس الأشهاد، في هذه اللحظات التي يتسابق فيها الفسقة على معصية الله يغط المؤمنون في سبات عميق وتأخذهم راحة النوم والكرى فيا ليتهم سهروا على طاعة الله كما سهر العصاة على معصية الله ويا ليتهم اجتمعوا على الطاعة كما اجتمع العصاة على المعصية.. نحن نسارع في الإهمال والتسويف والتأجيل، إنهم يسارعون في الانحراف ونتباطأ في الإصلاح، وإن بقينا هكذا هم يسرعون ونحن نتباطأ سيغلب باطلهم حقنا وسيأتي انحرافهم على استقامتنا وسنندم في موضع لا يفيد الندم فيه.

السادس: قوله عليه السلام: ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فإنه يسعى في مضرته ونفعك.

الظلم من أشد الكبائر وأعظمها في الإسلام ولم يسمح به لأحد بل الإسلام حارب الظالمين من أول يوم عرفت فيه هذه الأرض كلمة الإسلام. إن تاريخ هذا الدين معروف لكل الواقفين عليه والسائرين على هداه وكما أنه لم يرض بالظلم فقد أكد على الناس أن يثوروا في وجه الظالم ولا يستسلموا لظلمه وقهره بل يجب عليهم أن يقفوا في وجهه بكل السبل الممكنة التي تردعه عن ظلمه وتوقفه عن ممارسة الظلم.

والإمام هنا في هذه الكلمة الشريفة يريد أن يعالج الموضوع من ناحية أخرى وهي تقدير الأضرار التي تلحق بالظالم من جراء ظلمه وبيان أن هذا الظلم إنما يحيق بأهله لأن الله أوعد الظالم بنار يدخله فيها، فعاقبة الظلم تعود إليه وهو الذي يختار هذا الجزاء بيده. ومن طرف آخر يأخذ المظلوم أجر مظلوميته ويقتص الله له من الظالم ويعوّضه عن آلامه التي لحقته بجنات تجري من تحتها الأنهار، وهذا العقاب للظالم شيء محقق لا بد منه، ويكون للمظلوم أجر إذا رفض الظلم والاضطهاد وعمل من أجل رفعه وإقصائه، أما إذا استسلم للظلم ورضخ للظالم، أما إذا امتنعت يده أن ترتفع في وجه الظالم وكذلك إذا حبست كلمته عن الانطلاق ورضيت نفسه بالذل فإن الله لا يثيبه على مظلوميته بل يعاقبه عليها ويدخله النار مع الظالمين لتركه مقارعة الظالم والركون إليه والسكوت عنه.

السابع: قوله عليه السلام: وليس جزاء من سرك أن تسوءه.

بل جزاء الإحسان الإحسان وجزاء المعروف معروف مثله، فمن رآك بعين واحدة

ينبغي أن تراه بكلتا عينيك، وعلى أقل تقدير أن تراه بعين واحدة كما رآك. وهذا هو فعل الكرام من الناس والشرفاء منهم إنهم يكبرون الذي يسدون إليهم معروفاً ويجلّون من تحملوا من أجلهم أقلّ تعب ومشقة وعجيب أن يُبادل المحسن بالإساءة والمعطي بالصدود والكريم بالبخل، ومن أدخل عليك السرور بإدخال الحزن والألم عليه. إن هناك بعض الجبلات الثقيلة التي تتعامل بهذا الأسلوب، إنها جبلات لئيمة طبعت على الخسة والدناءة فهي ترفض الإحسان وإذا عوملت به تنكرت لفاعله وأساءت إليه. ولكن المسلمين الطيبين يتعاملون بيسر وسهولة ويكبرون كل إحسان إليهم ويتحينون الفرص من أجل وفائه، إنهم يرونه ديناً يترقبون الأوقات ليردوه إلى أهله وأصحابه، فهم في طوايا نفوسهم يرون هذا الجميل نعمة تحتاج إلى شكر وشكرها أن تكافىء صاحبها وترد إليه بإحسان أشد وأفضل...

(واعلم يا بني أن الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك. فإن أنت لم تأته أتاك. ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى. إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك. وإن جزعت على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك. استدل على ما لم يكن بما قد كان فإن الأمور أشباه) في هذا الفصل الشريف أمور:

الأول: قوله عليه السلام: واعلم يا بني أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك.

قسم الإمام في حديثه هنا الرزق إلى قسمين: رزق تطلبه ويتوقف الحصول عليه إلى أن تنهج معه الأسباب الطبيعية التي سنها الشارع ووضعها لكل فائدة وثمرة وربح، فهناك أسواق مفتوحة وبيع وشراء وهناك معاملات يجب أن تتخذ إليها الطريق من أجل توفير الربح والثراء ولا يجوز لك أن تكون اتكالياً تعيش في زوايا بيتك وضمن جدران غرفتك الأربعة دون أن تتجاوزها بحجة أن الله قد تكفل لك برزقك ومؤونتك فإنك إن عملت ذلك تكن مخالفاً للمرسوم شرعاً ومناقضاً لأقوال المعصومين الذين كانوا يدفعون المسلمين إلى الخروج إلى الأسواق ويأمرونهم بالبكور إلى عزّهم كما في بعض الأخبار وكذلك تكون من الذين لا يستجيب الله دعاءهم على حد قول المعصوم في حديث آخر... فهذا هو القسم الأول من الرزق، وهو الرزق الذي يتطلب منك أن تطلبه وتسعى في الحصول عليه. وأما القسم الثاني وهو الرزق الذي يطلبك فقد يتعجب بعض الناس من هذا الكلام ولكن وشرف الحق وعزة الله لقد لمست هذا بيدي وعشته في أيام حياتي أكثر من مرة... لقد كنت أرصد أن يأتيني الرزق من جهة فإذا بها تقفل ويمتنع الرزق منها، ولكن ما أن تنغلق أبوابها حتى تفتح من أبواب أخرى لم تكن بالحسبان ممن لا

أعرف وممن لا أحسب له حساباً في عالم الرزق. آمنت أن الله يحب الانقطاع إليه فحسب، والتوكل على قدسه دون سواه... إنه كان يعطيني دروساً فذة تقطع أملي من أي جهة كنت آمل أن يكون عن طريقها رزقي ويفتح لي الأبواب عن طرق أخرى أوسع وأجمل وأكرم مما كنت أتوقع.

الثاني: قوله عليه السلام: ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى.

بعض النفوس تتغير بتغيرات الأحوال الاجتماعية والظروف المادية والمعنوية الأرضية، وهذه النفوس ليس لها أصالة النفوس المسلمة ولا واقعيتها ولا تتمتع برصيد إيماني قوي ولا بوعي إسلامي عميق... إنها نفوس تعيش الجاهلية في عمقها والانحراف في طبيعتها والفساد من داخلها وتظهر كل هذه في صور وأشكال مختلفة ومتباينة ومن هذه الصور النابية المنحرفة المشوهة صورة الإنسان الذليل المسكين الذي يركع أمامك ويخضع لكل ما تمليه عليه عندما يكون بحاجة إليك وله غرض عندك، وأما إذا استغنى عنك ولم يعد بحاجة إليك تنكر لك وابتعد عن ساحتك بل تنمّر في وجهك واستأسد عليك وكأن لم يكن بينك وبينه معرفة سابقة ولا صلة قديمة...

وإن كل واحد منا قد مر بتجربة من هذا النوع، وكل واحد منا رأى هذه الصورة التي يرسمها الإمام في كلمته هذه، وكم وقفنا مع أنفسنا وقفات، وقفنا نتأمل في هذا الفرد من الناس الذي كان بالأمس يتردد عليك ويطرق بابك من أجل حاجة يريد أن تقضيها له، واليوم بعد أن قضيت واستغنى عنك يمر وكأن لم يعرفك... كم وقفنا وتألمنا من دناءة هذا الإنسان وتنكره للجميل والإتيان على كل ذلك الماضي الذي كان فيه ذليلاً ودنيئاً ولم يعد يتذكر منه إلا الساعة التي هو فيها، فما أقبح الإنسان صاحب هذه الخصلة وما أقل وفاءه وإخلاصه. وهذا النوع من التصرف يتنزه عنه المؤمنون ولا يتعاملون مع بعضهم على هذا الأساس بل يبقى المسلم يتصرف مع أخيه المسلم وينظر إليه حال حاجته إليه نظرته إليه في حال غناه عنه، وبهذا يفترق المؤمن عن غيره ممن لم يعيشوا العمق الإيماني والأصالة الرسالية والتربية والآداب الإسلامية...

الثالث: قوله عليه السلام: إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك.

باعتبار أن الدنيا دار ممر إلى أخرى دار مقر، والإنسان العاقل هو الذي يأخذ من ممره إلى مقره، ويصلح مكان إقامته الدائم ويأخذ من طريقه ما يصلح ذلك المثوى الذي لا يتحول عنه وهو واحد من أمرين: إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض وهي لا تحصّل بالتمنّي ولا بالأحلام إنما تحصّل بالعلم والعمل به، إنما تحصل بالجهاد والكد

والتعب، تحصل إذا استطاع هذا الإنسان أن يقف مع نفسه ويفكر في خلواته منفرداً في الأسباب الموصلة إلى تلك السعادة الأخروية التي لا ينضب نعيمها ولا يجف سرورها، إنه ولا شك سيقوده عقله ويأخذ به تفكيره إلى الإيمان بالله ورسله ويتبنى طريق الأنبياء والرسل والتقيد بتعاليمهم الموصلة إلى تلك الدار التي لا عناء فيها ولا شقاء لأن طريق الأنبياء هو الطريق الوحيد الذي يقودهم إلى ذلك المقام الأمين، ولا شك أن رسالة الإسلام التي نزلت على قلب النبي محمد ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ باعتبارها الناسخة لكل رسالات الله المتقدمة والواجب على كل إنسان أن يرجع إليها والتدين بها، فإنها الرسالة التي يسعد بتطبيقها الناس في الدنيا والآخرة. . .

الرابع: قوله عليه السلام: وإن كنت جازعاً على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك.

لملمة وكفكفة لأحزان هذا الإنسان الذي امتلكت عليه الحياة كل شؤونه وشجونه فيضحي يلطم وينوح إذا فقد أمراً كان بيده فلو كانت عنده ثروة وضاعت منه بكى عليها وابتلت الأرض من دموعه وأزعج الجيران بأنينه وعنينه، وإذا هُدم بيته لأمر تراه يضج وينشر الأحزان في نفسه وبين أسرته، بل قد يصل الحال في بعض الأشخاص أن يموت غمّاً بمجرد أن يسمع بضياع ثروته أو هلاك متاعه وبذلك يخسر أمواله ويخسر نفسه.

والإمام هنا يريد أن يوقظ هذه النفوس وينبهها إلى أمر وهو في منتهى البداهة، ولكنها غافلة عنه وهو واضح للعيان ولكنها ساهية عن أبعاده، إنه يريد أن يصب في روع هذا الإنسان أنك إذا كنت جازعاً من فوت أمر كان بيدك فيجب أن تجزع لأمر لم يصل إليك. . . إن هناك أموراً كثيرة تتمناها وتستشرف نفسك إلبها، وتتمنى أن تصبح ملكاً أو أميراً وتتمنى أن تصبح صاحب أعظم ثروة في العالم وأغنى الناس وتتمنى أن تحصل على الأمر الفلاني والمنزلة الفلانية، فإذا كنت تجزع للأول فيجب أن تجزع لهذا أيضاً فكما أنك لا تجزع لهذا الأخير فيجب أن لا تجزع للأول، يجب عليك أن تفكر في الطريق إلى إعادة ما فقدته وإلى تكوين ما ضاع من يديك من جديد. . . يجب أن لا تجزع وتحزن بل يجب أن تبتدىء وكأنك خلقت من جديد تصارع الحياة وتخوض غمراتها من أجل البناء الجديد والحياة الجديدة. . .

الخامس: قوله عليه السلام: استدل على ما لم يكن بما قد كان فإن الأمور أشباه.

يقال: إنك بعد لم تمت ولكن ألم تر من مات. فيجب أن تأخذ العبرة من غيرك ويجب أن لا تكون أنت محط التجربة وقد مرت على غيرك، بل احمد الله الذي لم يجرها

عليك فربما لم تكن على استعداد لتحملها أو الصمود في وجهها... إنك نجوت من حوادث الدهر وآفاته. فصحتك عامرة وأموالك موفرة وتتمتع بمنزلة رفيعة وكلمة مسموعة ولكن اعتبر بمن كانت له تلك الصحة فأضحى عليلاً وبمن كانت له تلك الثروة وقد أتت عليها الأحداث، وبمن كانت له تلك الوجاهة حيث أضحت نكالاً له وعبرة لمن بعده. يجب عليك أن ترى الحياة وتأخذ لها الاستعداد، أن تأخذ العبرة ممن مرض أو افتقر أو انحط بعد صحة وغنى وجاه فتستعمل كل هذا في وقته وفي محله دون أن تشدك هذه الأمور إلى الطغيان أو الإنحلال... أو الاستعلاء على الناس... ولكن وبكل أسف أنّى لهذا الإنسان أن يعتبر وكل الحياة تحمل العبر، إنه يمشي في موكب الموتى ويحمل على أكتافه نعش أحب الناس إليه ولكنه غافل عما يحمله الغد إليه إذ ربما كان هو المحمول فليعتبر بحال هذا الإنسان وينظر إليه بعين مجردة لا تحمل حباً ولا بغضاً بل تحمل عدلاً وإنصافاً ويوازي بين أعماله الصالحة فيقتدي بها وبين أعماله الطالحة فيتجنبها وبهذا يستفيد من تجربة غيره وينجح في مستقبل أيامه...

(ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه. فإن العاقل، يتعظ بالآداب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب. إطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين. من ترك القصد جار. والصاحب مناسب. والصديق من صدق غيبه. والهوى شريك العناء. رب قريب أبعد من بعيد ورب بعيد أقرب من قريب. والغريب من لم يكن له حبيب، من تعدى الحق ضاق مذهبه ومن اقتصر على قدره كان أبقى له) في هذا الفصل الشريف أمور:

الأول: قوله عليه السلام: ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه فإن العاقل يتعظ بالآداب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

قد تأتمن إنساناً بدينار فيجحده وينكره ولا يؤديه إليك فإذا لم تتعظ بهذا القليل وعدت لتأتمنه على ألف دينار وينكرها عليك فلا تلومن إلا نفسك. إن العظة بالدينار يجب أن تكون محفزاً قوياً لك لأخذ العبرة والانتفاع من التجربة فإن الإنسان العاقل هو الذي يتعظ بأبسط الأمور وأيسرها ولا يحتاج إلى أن يمر بامتحان شديد ودرس قاس أليم...

إن الأحرار من الناس والشرفاء من البشر تجرح مشاعرهم أدنى كلمة من إنسان تخرج في حقهم فيحفظونها درساً عملياً طيلة حياتهم ومدى عمرهم...

وأما العبيد الذين تربوا على الصغار والضعة هؤلاء لا تنفعهم ألف كلمة ولا

تحركهم ألف موعظة ولا تستثير مشاعرهم مدافع المواعظ وصواريخها لأن حسهم الداخلي قد مات وشعورهم قد تبلد بحيث فقدت الكلمات مدلولها والمواعظ وقعها ولم يبق أمامهم إلا أن تهز العصي ويرتفع السوط تأديباً. قديماً قال الشاعر:

العبـد يقـرع بـالعصـا والحر تكفيـه المـلامـة

وقال المتنبي مبيناً صفة العبيد:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيـد لأنجـاس منـاكيـد

الثاني: قوله عليه السلام: اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين.

إنها دعوة للتحلي بالصبر وحسن اليقين بالله كي يقضي على كل هم يشغل فكر هذا العبد الضعيف ويربكه عن المسير، فإن الدنيا لم تكن تصفو لأحد فما من هم يزول حتى تحل محله هموم ولا يستطيع الفرد أن يتغلب عليها إلا بالصبر الذي يتمتع به الإنسان ويقوده إلى النصر والفتح...

الثالث: قوله عليه السلام: من ترك القصد جار، والصاحب مناسب، والصديق من صدق غيبه.

الطريق الوسط هو خير الطرق وأسلمها، والاعتدال في كل الأمور محبوب ومرغوب وهو الصواب والموافق للحكمة والعدل، فإن الشجاعة هي الحد الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وهما الجبن والتهور، والكرم هو الحد الوسط بين الإسراف والتقتير، والإسلام هو الوسط والعدل، وأما اليمين والشمال فهما المضلة وهكذا دواليك، ومن ترك طريق العدل والإنصاف فلا إشكال أنه سيجور لأن الجبن جور كما أن التهور جور وقديماً قيل:

حـب التنـاهـي شطـط خيـر الأمـور الـوسـط

وأما الصاحب فهو الذي يتحول من إنسان بعيد عنك وغريب عنك إلى إنسان يرتبط بك بعلاقة تكاد تصبح نسبية، بل إن النسيب قد لا يصل الأمر بينك وبينه أن تفتح صفحاتك أمامه إما حياءً وخجلاً أو خوفاً وفزعاً أو لأمر آخر، بينما كل ذلك ينكشف أمام الصديق، فالأسرار تستباح والخفايا تظهر، ولم يعد أمام الصديق أي ستر أو غطاء، وإذا أضحى الصديق بهذا المستوى من العلاقة وتحول إلى قريب روحياً وفكرياً وإنسجاماً، فيجب أن تحفظه كما تحفظ الأنسباء وترعاه كما ترعاهم وتدفع عنه كما تدفع عنهم، وقد بينا في فصل سابق حق الصديق ولزوم مراعاة الصداقة والحفاظ عليها...

الرابع: قوله عليه السلام: والهوى شريك العمى ورب بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد والغريب من لم يكن له حبيب.

من غلبه هواه لم يعد يبصر طريق الحق والرشاد فإذا طغى هوى القرابة والنسب لم يعد للعدل مجال ولا للإنصاف دور، فإذا اعتدى قريبك بررت اعتداءه وإذا ظلم بررت ظلمه، وإذا ضرب بررت ضربه، وهكذا تخلق المبررات والتأويلات من أجل أن توافق هواك في قرابتك. وإذا غلب هوى العشيرة ضربت صفحاً عن كل المعاني السامية الرفيعة التي كنت تحلم بها في أيام الود والصفاء...

وقد عبر الله في كتابه عمن يتخذ الهوى دينا له وسيرة عبر عنه بالإله لهذا الشخص قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه...﴾ فإن هذا الهوى يتحول إلى إله يأمر وينهي ويحرك ويجمد المرء عن الحركة...

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إنما أخاف عليكم اثنين إتباع الهوى وطول الأمل، أما إتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة. وقال أعرابي: الهوى هوان ولكن غلط باسمه.

وقال الهزلي:

أبن لي ما ترى والمرء تأبى: عزيمته ويغلبه هواه
فيعمى ما يرى فيه عليه ويحسب ما يراه لا يراه

وأما قوله رب بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد فهذا شيء خاضع لموازين الإسلام ومدى ارتباط الفرد بها... فرب إنسان بعيد لا تعرفه ولا تعرف بلاده ترتبط معه في أجواء العقيدة وتأنس به وترتاح للقياه، ورب قريب تعيش معه تحت سقف بيت واحد لا تحب رؤياه ولا تتمنى لقياه فالمسلم الذي يعيش مع أخيه القريب النسبي وهو يعانده في عقيدته ولا يلتقي معه في فكره وسلوكه بل يتخذ اليمين أو اليسار أو الضلال والانحراف مثل هذا الأخ القريب كمثل أبعد الناس ممن لم تجتمع معهم ولم تلتق بهم، بل هم أخف شراً وأقل ضرراً لأنك لم تنكشف إليهم بينما أنت مكشوف له، وقال الحكيم مصوراً حال بعد القريب وقرب البعيد:

كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

فإن الغريب يلتفت يمنة ويسرة فلا يجد من يحدب عليه ولا من يعينه على مشاكله ومصاعبه، لا يجد أماً تحن عليه ولا أباً يهتم بشؤونه ولا أقارب يدفعون عنه ولا أخوة يحفظونه... إنه يعيش منفرداً إن مات لم يشعر بموته أحد وإن عاش لم يحس بحياته

أحد. . . إنه عضو غريب ليس من أهل هذه البلدة ولا من سكانها وهكذا هي حال من لم يكن محبوباً من أقربائه وجيرانه وخلانه، فإنه لسوء فعله وشؤم تصرفه يكون منبوذاً، وإن كان مع أهله ويكون مبعداً عنهم وإن كان يعيش في وسطهم. . . إنه غريب حيث لا محب له ولا شفيق عليه.

الخامس: قوله عليه السلام: من تعدى الحق ضاق مذهبه ومن اقتصر على قدره كان أبقى له.

من تجاوز الحق وتخطاه لا شك أنه يتيه ويضل. وهذا التيه والضلال مهما جعلت له المبررات فإنها ضيقة ولا تقوم حجة على دعم الباطل وتصيره حقاً. . . فمن تجاوز الصدق إلى الكذب مهما برر كذبه فإنه لن يفلح ولن يجد الأذن الصاغية لأعذاره بل سيجد الضيق والضعف في ما يقدمه من مبررات ويجد بينه وبين نفسه عجزاً عن إيجاد وسيلة تقنع الغير وتقنع نفسه.

وأما قوله: من اقتصر على قدره كان أبقى له، فإن من عرف قدره ومنزلته ووضع نفسه في موضعها يبقى مصان الجانب محترم المقام، فمن عرف أنه عامي غير مجتهد ثم تنطح وتطاول على المجتهدين، ووضع نفسه في غير موضعها، فلا بد وبدون شك أنه سيصغر في أعين الرجال ولا يبقى له هيبته ومقامه، ومن كان وضيعاً سافلاً عاصياً لله ثم وضع نفسه في صف الأتقياء فلا بد وأن الأيدي ستشير إليه والعيون ستتغامز عليه، ومن كان جاهلاً وادعى الفهم والعلم سيسقط من أعين الناس ويحتقر. . . بينما الإنسان إذا عرف قيمته ومكانته والتزمهما فإنه يبقى عزيز الجانب محترم المقام لا يذم ولا يلام. . . والعجب العجاب أن نرى الناس في هذا الزمن جلسوا في غير أماكنهم وتكلموا بما هو أرفع من مستواهم فصار الجاهل يفتي والأمي يناقش والفلاح يجادل وعامل التنظيفات يحاور، إنهم ارتفعوا عن أماكنهم ليحتلوا غيرها دون حق أو جدارة. . .

(وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله، ومن لم يبالك فهو عدوك. قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً، ليس كل عورة تظهر ولا كل فرصة تصاب. وربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده. أخر الشر فإنك إذا شئت تعجلته. وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل) في هذا الفصل الشريف أمور:

الأول: قوله عليه السلام: وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله.

الأسباب التي بين أيدينا أسباب واهية لا يكاد يعتمد الإنسان على أحدها حتى

ينقطع فأنت تعتمد على وظيفتك وتظن أنها السبب الذي يؤمن لك الحياة الرغيدة والعيش السعيد وتظن أنها الفرصة الوحيدة التي تستطيع أن توفر من خلالها الغنى والثروة. ولكن ما يكاد ظنك يذهب إلى ذلك حتى تفاجئك الأحداث بتنحيتك عنها بتهمة زائفة أو خطأ متوقع أو أمر لم يخطر بالبال. وأنت في متجرك تظن أنه المكان الوحيد الذي يمحو عنك الفقر والسبب الفريد الذي يوفر لك رغيد العيش وبحبوحته وتحلم في مستقبل عزيز وتأخذك الأماني إلى فردوس النعيم والسعة والغنى والثراء ولكن ما هي إلا أوقات يرصدها الزمن لك حتى تأتيك الأخبار بخراب محلك أو حريقه أو كساد بضاعتك وتعطيل الأسواق. وهكذا كل منا لا بد وأن يتخذ سبباً لحياته وديمومتها بعز وكرامة، ولكن يجب أن يكون سببنا الأوثق والأنجع هو السبب الذي يكون موصولاً بالله ومن الله، فإن هذا السبب هو الذي لا ينقطع والسبب الذي لا يطرأ عليه الفساد أو الضياع ولا يعتريه شيء من عوامل الفناء والاضمحلال وهذا السبب هو مسبب الأسباب وخالقها وهو أن تكون في كل عمل تقوم به تتحول فيه إلى عبد الله، تطلب القرب منه والزلفى لديه ويكون أكبر همك القربة إليه والتقريب من ساحات قدسه ورضاه، وهذا أوثق الأسباب وأضمنها لك في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لئن تقطعت الأسباب كلها وتعطلت العلل بأجمعها يبقى السبب الذي تلتقي فيه مع الله قائماً لا ينقطع ولا ينفصم. . .

الثاني: قوله عليه السلام: ومن لم يبالك فهو عدوك.

اللامبالاة تتخذ أوجهاً وأشكالاً مختلفة باختلاف الأشخاص الذين تصدر منهم واتجاه من تكون نحوهم. . . فإذا كانت اللامبالاة صادرة من الرعية نحو الوالي فهذا معناه عداؤها له ولسلطانه لأنها صفة الاستهانة به وبعدده وعدته ولا يتخذ هذا التوجه إلا عدو، فإذا رأيت فرداً لا يبالي بحكم قائم فاعلم أنه ضده وعدوه. . .

وإذا صدرت اللامبالاة من الصديق فاعلم أيضاً أنها وليدة الاستهانة والازدراء أو الطيش والخفة أو بداية العداوة والبغضاء، وأما إذا صدرت ممن لا تعرفه فاحملها على أنها طبيعة فيه أو عادة أو سوء أدب. وعلى كل حال ليس لك حق واجب يفرض عليه الاهتمام بشأنك، نعم هناك أدب شرعي يحبب إليه وإلى كل الناس أن يشعر بعضهم نحو بعض بالاهتمام والاعتناء. . .

الثالث: قوله عليه السلام: قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً.

قد تطلب أمراً تتصور فيه الفوز والفلاح وتسعى في سبيل تحقيقه حتى تصل إليه ويكون فيه هلاكك، فالنملة طلبت جناحين وعندما تحققا لها طارت فوقعت على وجه

الإنسان فقتلها. . . ولو بقيت بدونهما لسلمت وقد تسعى في الوصول إلى مطلب أو أمر وتيأس منه، ويكون يأسك سبباً لحياتك وديمومة بقائك. فيجب أن لا يكون عدم إدراكك لأمر مجلبة للهم والحزن، ولا تجعله عقبة يصعب عليك اجتيازها بل إذا سدت الأبواب أمامك فافتحها بالتوجه إلى الله ولا تذهب نفسك حسرات على ما فات بل كن أكبر وأعظم مما فاتك وتغلب على جراحك وأحزانك فإنه أيسر وأسهل من القضاء على حياتك. . .

الرابع: قوله عليه السلام: ليس كل عورة تظهر ولا كل فرصة تصاب وربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده.

ليس كل عورة تظهر وإلا لأضحت مستمسكاً سهلاً بأيدي الأعداء والأخصام فإن الحسد عورة والجبن عورة والبخل عورة. وهذه قد تبقى ضمن القلوب لا تظهر وقد يظهر بعضها ويختفي بعضها الآخر. . .

وليس كل فرصة تصاب إذ ربما فتحت الأبواب وارتفعت الحجب وتراءت لك الأعلام ولكن دون الوصول إليه عقبات وعقبات، فأنت تستطيع أن تنتقم من عدوك ولكن العفو عنه يقف حاجزاً، وكما يقول الإمام صلوات الله عليه: قد يرى القلب الحول وجه الحيلة ولكن دونها حاجز من تقوى الله. . . فأنت تستطيع أن تكوّن ثروة ضخمة من خلال الغش والسرقة كما يفعل أكثر الناس اليوم ولكن يحجزك عن ذلك الخوف من الله وعذاب الملك الجبار. . .

الخامس: قوله عليه السلام: أخِّر الشر فإنك إذا شئت تعجلته وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

لا تفعل الشر فإنه تحت يدك إذ تستطيع أن تفتح ألف مشكلة في ساعة واحدة ولا تستطيع أن تغلق مشكلة واحدة انفتحت فأنت قادر على أن تجتنب الشر بما أعطاك الله من حرية الحركة والاختيار. . . وأما قطيعة الجاهل فإنها تعادل صلة العاقل لأن الجاهل إذ قطعته أمنت شره ودفعت ضرره وهو يعادل صلة العاقل الذي يوفر لك سبل الخير وطرقه. . .

(من أمن الزمان خانه. ومن أعظمه أهانه. ليس كل من رمى أصاب. إذا تغير السلطان تغير الزمان. سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً وإن حكيت ذلك عن غيرك) في هذا الفصل الشريف أمور:

الأول: من أمن الزمان خانه ومن أعظمه أهانه، ليس كل من رمى أصاب.

فربما قلت وأنت في بحبوحة من العيش ورغد من الحياة ما أجمل الدنيا وأطيب الأيام، ولكنك وأنت تتكلم بذلك يرصد الزمن أنفاسك ويعد لك العدة ليقلب لك ظهر المجن... فكم من ملوك استرخوا على عروشهم وأمنوا وثبات الزمن وإذا بهم يمسون ملوكاً ويصبحون سوقة إن لم يكونوا مشردين أو مسجونين أو مقتولين.

وأما من أعظم الزمان ورفعه واهتم بما فيه من ثروة ومال ومن جاه وسلطان. فإن هذا الزمن سيأتي ليفرق بينه وبين ما يشتهي، سيأتي هذا الزمن ليضع حاجزاً بين ما أعظمت ورفعت وبينك وبهذا يكون قد أهانك ولم يترك لك المجال كي تسترسل في ملذاتك. وأما قوله ليس كل من رمى أصاب، فإن الإصابة تحتاج إلى توفيق بعد التمرين والاستعداد وأخذ الحيطة والمقدمات فكثيرون الذين يطلبون الجاه فيفشلون أو يطلبون الغنى فلا يدركون أو يريدون التقدم فيتأخرون...

وأما قوله: إذا تغير السلطان تغير الزمان، الحديث عن السلطان حديث ذو شجون وأول شيء يطرح علينا هو سؤال لمن الحكم؟ هل الحكم لله أم للناس وما هي مواصفات الحاكم في الإسلام وشروطه. أما الحق فالحكم لله وليس لأحد من الخلق، والحاكم يحكم وينفذ إرادة الله دون إرادته ويقوم بإصلاح البلاد، وتقريب العباد نحو الله بحسب الموازين التي وضعها الله. ولا يجوز له أن يستبد أو يظلم كما لا يجوز له أن يهمل الناس ليفسدوا في الأرض ويزرعوا الرعب والاضطراب. وإن الأمة الإنسانية كلها متفقة على أنه لا بد للناس من إمام بر أو فاجر، وإلا لاضطرب حبل الأمن وأكل القوي في هذه الحياة الضعيف وتسلط الجبابرة على الأقزام وهكذا دواليك...

والسلطان بمقدار التزامه بالحق ونزاهته في الحكم وعدالته في توزيع الأموال والوظائف والرتب ينعكس ذلك على الرعية، فإذا كان السلطان صالحاً انعكس صلاحه على مجتمعه وأثر أثره فيهم فصلحت الرعية، وإذا كان ظالماً جائراً اضطرب حبل المجتمع وساد الفساد والظلم بين أفراد المجتمع...

إن السلطان بيده الأمر والنهي وهو القائم على تنفيذ القانون وصيانته فإذا كان مؤمناً عادلاً كان الزمن زمان إيمان وعدل، فالمجتمع كله يتغير وإذا كان الحاكم لا يهمه إلا شهوته ولذته وجمع المال والجواهر، فلا بد وأن تسير الناس في ركابه وتقتدي به وقد قيل: الناس على دين ملوكهم.

وقوله: سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار. للسفر آداب ومستحبات

ذكرها المعصومون في أحاديثهم وبينوا كل جوانب هذا الأمر فأمروا بالسفر من أجل بلوغ الطاعات وأداء الحقوق وإقامة الجماعات أو من أجل اكتساب الرزق والجهاد وأباحوا السفر في كل أيام الأسبوع وفضلوا السبت والخميس ورفضوا التشاؤم من الأيام وحلوا عقدة بعض الناس بقولهم: تصدق واخرج أي يوم شئت. . .

وقد حببوا للمسافر أن يرافق من يتزين به ويعرف حقه، كما أنهم حكموا باستحباب أن يكون الرفيق من صنف المسافر فإن كانت حالته متوسطة فليرتقب أمثاله فإن ذلك يحفظ عليه كرامته ويديم له مودته، فعن أبي جعفر (ع) قال: إذا صحبت فاصحب نحوك ولا تصحب من يكفيك فإن ذلك مذلة للمؤمنين. . .

كما أنه يكره السفر منفرداً فعن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: ألا أنبئكم بشر الناس قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: من سافر وحده ومنع رفده وضرب عبده.

وعن موسى بن جعفر (ع) قال: لعن رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ثلاثة: الآكل زاده وحده، والنائم في بيت وحده، والراكب في الفلاة وحده.

فالرفيق في السفر يشترط أن تتوفر فيه الأخلاق الحسنة والتمسك بالدين والمحافظة على الحقوق ورعاية الأخ والحفاظ على مودته فلا يشتم ولا يقذف ولا يغتاب ولا يغضب ولا يحسد ولا يخيف. يشترط أن يكون السفر معه مقرباً من الله ومبعداً عن الشيطان. أما إذا كان الرفيق سيء العشرة، سيء الأخلاق، غضوباً، شرساً فأنه يحول السفر إلى جحيم ويحتم الافتراق في منتصف الطريق. . .

وفي السفر يُختبر الإنسان على وجه الحقيقة وتظهر معادن الأخلاق التي تكون طبيعة فيه عن المصطنعة التي تكلفها في بعض الأحيان. وفي السفر تظهر عدالة الإنسان من فسقه وأمانته من خيانته وجميل أخلاقه من قبيحها.

أما قوله: وعن الجار قبل الدار. فإن الحفاظ على الجار من وصايا الله في كتابه ووصايا النبي والأئمة في سنتهم.

فأول مراتب الأمر من المعصوم أن يحسن الإنسان مجاورة من جاوره، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال والبيت غاص بأهله: اعلموا أنه ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره.

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: حسن الجوار يعمر الديار وينسيء في الأعمار.

وإذا عجز عن الإحسان فليكف عن أذى الجار.

فعن أبي عبد الله (ع) قال: جاءت فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بعض أمرها فأعطاها كربة وقال: تعلمي ما فيها، فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت. وعن رسول الله (في حديث المناهي) من أذى جاره حرم الله عليه ريح الجنة ومأواه جهنم وبئس المصير.

كما أنه يكره مجاورة جار السوء لما فيه من الأضرار والتسبب في الحرام، إذا كان الجار ضعيف الإيمان. ففي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: من القواصم التي تقصم الظهر جار السوء إن رأى حسنة أخفاها وإن رأى سئة أفشاها... وفي الدعاء: «وأعوذ بك من جار سوء...» وإذا ابتلى الإنسان بجار سوء فما عليه إلا أن يصبر ولا يبادله الأذى بل يحسن عشرته لعله يتوب أو يرعوي...

وأما قوله: إياك أن تذكر في الكلام ما يكون مضحكاً وإن حكيت ذلك عن غيرك.

الكلام الظريف الذي يدخل السرور على قلب المؤمن من الأمور المحبوبة لدى الشارع شريطة أن لا يطال أحداً بالإيذاء والازدراء والاستهانة والغيبة، والمزاح الذي يتضمن الكذب منهي عنه لا يجوز، وإن استعمله البطالون واستساغه بعض المتفكهين فقد شاع رمي النكتة التي تتضمن الإيذاء والإهانة دون أن يبصر ما تؤدي إليه من معصية وإنما ينظر إلى مقدار ما تثيره من الضحك ومدى ما تترك من الترفيه وراحة النفس وغالباً ما تتضمن أذية أو كذبة أو غيبة أو بهتاناً. وحكاية فعل أو قول لشخص لا يرضى بحكايته...

(وإياك مشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن. واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب أبقى عليهن. وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن. وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل.

ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. ولا تعد بكرامتها نفسها ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها. وإياك والتغاير في غير موضع غيرة فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم والبريئة إلى الريب) في هذا الفصل الشريف يتعرض الإمام إلى المرأة وكيف يجب أن يعاملها الرجل. ونحن يستحسن بنا أن نلم بهذا الأمر من بعض جوانبه بشكل موجز فنقول: المرأة في ظل الإسلام لعبت دوراً مهماً ورائعاً وقد

اعتنى بها الإسلام عناية فائقة النظير وأعطاها من الحقوق ما يتلاءم وطبيعة تركيبها البدني والنفسي.

وقد أكد الإسلام على حب البنات وهن صغار وأوصى بهن خيراً. فعن الصادق عليه السلام قال: البنات حسنات والبنون نعمة والحسنات يُثاب عليها والنعمة يسأل عنها.

وعن أبي عبد الله (ع) قال لبعض أصحابه: بلغني أنه ولد لك ابنة فتسخّطها. وما عليك منها. ريحانة تشمها وقد كفيت رزقها وكان رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أبا بنات، ثم عندما تكبر جعل الشارع أمر زواجها بيدها.

فعن أبي جعفر قال: المرأة التي قد ملكت نفسها غير السفيهة ولا المولّى عليها، تزويجها بغير ولي جائز.

ثم بعد أن تصبح زوجة فإنها غير مسؤولة عن شيء حتى نفقتها واجبة على زوجها وكذلك أطفالها تجب نفقتهم على أبيهم. كما أن الإسلام أعطاها من الحقوق ما نكاد أن نقول إن أعظم التشريعات على امتداد عمر الحياة لم تعطها إياها، إنها وهي في بيت زوجها غير مسؤولة عن تهيئة الطعام ولا فرش الفراش ولا غسل الثياب ولا كنس البيت ولا يجب عليها تربية الأطفال ولا حضانتهم ولا شيء من أمورهم، بل كل ذلك يجب على الأب. وعندما نذكر هذه الأمور لا نطرحها كشعار من أجل المزايدات بل إن التشريع أمامنا ورسائل فقهائنا في متناول أيدينا، فهيّا اسألوا عن ذلك فهل أعطاها الغرب والشرق حقوقاً كهذه الحقوق. . . نعم أعطاها التعب والمشاكل فأوجب عليها العمل خارج البيت في المصانع والمعامل وفي المكاتب والشركات واستخدمها في البيت فجمع عليها هم الداخل وهم الخارج واستذلها باسم الحرية وهي عين العبودية، طرح أمامها لفظة الحرية وأغراها بالاسم ناسيةً أن خلف الأكمة ما خلفها فأخذت تشاطر الرجل بل تزيد عليه في الأتعاب، لقد حولها إلى دمية يحركها ويستغلها متى أراد. . .

نعم إن الإسلام نظر إلى التركيب الجسدي والنفسي للمرأة فأوجب عليها الحجاب الشرعي الذي يستر العورة وهذا الحجاب لا يقف حاجباً دون العلم والثقافة ودون الإدراك والوعي ولا يقف دون التحرر والثورة، إن هذا الحجاب هو عنوان التمرد على الانحلال والميوعة وإثبات شخصيتها المستقلة وهويتها الإسلامية الرفيعة. . . إن هذا الحجاب لا يقف دون أن تبيع المرأة أو تشتري أو تتملك أو تهب أو تتعامل مع الناس ومع المجتمع. . . بل إن هذا الحجاب يمنع الفتنة والإغراء الذي تحدثه طبيعة الجسد

الأنثوي. فأراد الإسلام أن يحد من هذه الثورة ويمنع كل ما يؤدي إلى الفساد والانحلال.

ونحن نرى المشاكل التي تحدث والقضايا التي تظهر في المجتمع من جراء هذا الفلتان الغريزي والحيواني لدى المرأة والرجل. والإسلام عندما منع أن تجتمع امرأة برجل منفردين إنما أراد أن يمنع دخول الشيطان بينهما فيسول لهما الرذيلة ويفتنهما عن دينهما ويضلهما الطريق، وهذا ينسجم مع الخط العام الذي يحسم مادة الفساد وما يوصل إليه. . .

وإن المرأة لا يجوز أن تضع نفسها في صف الرجل من الجهة البدنية، فإن لها خصائص تميزها عنه منها الجاذبية فيها وكونها مطلوبة، ومنها أنها تحمل وتلد ومنها أنها صاحبة عادة شهرية، وهذه فوارق مهمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار: فالإسلام حينما فرض عليها بعض القيود فإنما لاحظ المصلحة العامة للمجتمع وأخذ في البين طبيعتها وما يتحمله بدنها وتقدر على القيام به. . . وهذا كله في الحياة الدنيا. . .

أما في ميزان الله، في الآخرة فلا ميزة للرجل على الأنثى إنهما معاً أمام الله على حد سواء من يعمل خيراً يره ومن يعمل سوءاً يجزى به ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. . .**﴾ فمن يعمل الصالحات يُجز بها ومن يعمل المعاصي يجز بها. . .

فرب امرأة فاقت ملايين الرجال والله تعالى يقص علينا قصة المرأة المؤمنة التي رفضت فرعون وسلطانه وكفرت به وبكل قصوره، وتوجهت نحو الله طالبة رضاه وطاعته، قال تعالى: ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربي ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله. . .**﴾ إنها صورة فذة لامرأة مثلت دور البطولة والعظمة في وجه الطاغية فرعون وزمرته. وفي الإسلام برزت المرأة المسلمة في معارك الجهاد والقتال ووقفت أمام الطواغيت والمنحرفين فكانت سمية أول شهيدة في الإسلام، وكانت الحوراء زينب بوقفتها البطولية العظيمة أمام يزيد الفاجر تعطي الصورة المشرقة للمرأة التي تمتلك العقيدة والإيمان وتدافع من أجلهما وتبذل في سبيلهما كل ما تملك من غال ونفيس. . .

إن في تاريخنا أروع الأمثال والنماذج لتضحيات قامت بها المرأة بدافع من إيمانها وعقيدتها. . .

نعم إن الممارسات الخارجية التي يقفها الرجل في بعض الأحيان والتي تشكل

الانحراف والشواذ فإنه لا يمثل رأي الإسلام ولا تطلعاته وآماله. فإن النفوس مجبولة على الظلم إذا لم يكن عندها دين يردعها أو قوة أكبر منها تمنعها. إن هذه الممارسات اللاشرعية التي يمارسها الرجل أو يفرضها على المرأة لا يعترف بها الإسلام وليس مسؤولاً عنها وإنما المسؤول أولاً وبالذات هو الرجل صاحب الإرادة الحرة والاختيار والمسؤول عنها ثانياً المجتمع الظالم المنحرف.

ولنعد إلى كلام الإمام لنقف عند كل فقرة فقرة.

إن الإمام يوصي ولده ويحذره من مشاورة النساء بقوله: وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن.

أما المشورة فإنها مستحبة بأصل الشرع، والإمام في إحدى كلماته يقول: ومن شاور الرجال فقد شاركهم في عقولهم، ولكن للمشورة أصول أهمها أن يكون المستشار أهلاً للمشورة ومن أهل الخبرة فيها ومشاروة النساء ليس في الأكل والشرب وبعض الأمور العائلية حتى نقول كيف ينهى الشارع عنها ويحبب عدمها، فإن هذه الأمور التي لا يمتد خطرها بل ليس فيها خطر، قضيتها سهلة ميسورة. وإنما الإشكال هو عدم مشاورة النساء في الأمور المهمة ذات الخطر الواسع، فإن المرأة في مثل هذه الأمور ينبغي أن لا تستشار لأنها ليست على اطلاع في الأمور السياسية ولا خبرة عندها في القضايا العسكرية ولا علم لها بالأمور الاقتصادية، فإذا استشيرت والحال هذه، فلا بد وأن رأيها لا يكون صائباً. وبتعبير الإمام رأيها إلى أفن أي نقصان وخسران، وإذا عزمن على رأي فإن عزمهن لا يبقي على إبرامه بل ينقض بسرعة وكم من رأي لهن يظن الإنسان أنه عقدة لا تحل وإذا بلحظات قليلة تأتي عليه فتتراخى المرأة وتتراجع عن رأيها... مهما كانت المرأة صلبة وقوية في أمر فإنها تتراجع عنه بل قد تنتقل إلى نقيضه...

وأما قول الإمام: واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب أبقى عليهن وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل. واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن هذا الحجاب يقف حاجزاً بينهن وبين الابتذال والميوعة، فإن المرأة إذا سفرت أفسدت وإذا خرجت من بيتها أضرت خصوصاً في هذه الأجواء الموبوءة التي شمر اليهود فيها لإفساد المجتمعات والانحراف بها عن جادة الصواب، وقد استعملوا كل وسائلهم الخبيثة والشيطانية وسخروا المرأة وزينوا لها التبرج والسفور والخروج إلى الأسواق العامة والاختلاط بالرجال في المدارس والمستشفيات وفي كل المؤسسات والدوائر، وتبرعوا بالدعايات

لذلك تارة باسم التقدم وأخرى باسم التحرر حتى انهار صرح العفة والكرامة وتداعى كل ما يسمى شرفاً وغيرة فأضحت أسواق الدعارة تفتح بشكل رسمي وبإجازة مصدقة من الحكومة، وأخذ الرجل ينظر إلى زوجته أو ابنته أو أخته في أحضان الغريب تراقصه فيبادر ليهنئها على نجاحها في هذا الدور الذي قامت به. واسترسلت المرأة تبرز محاسنها من قميص قصير إلى ما فوق نصف الركبة إلى بنطلون ضيق يشخص المفاتن ويفسد الشباب ويغريهم... إن هذه المصائب التي تطالعنا في كل يوم هي نتيجة هذا التبذل والاستهتار بالقيم والأخلاق والمثل...

إن الإسلام يريد أن يحصن المرأة عن الانحراف ويريد أن يقومها على الصراط المستقيم كي تصلح الأسرة ويصلح المجتمع فمن هنا كره للمرأة أن تخرج لتختلط بالرجال كذلك منع من إدخال من لا يؤتمن عليها...

ثم إن الإمام يريد أن يحسم القضية بشكل واضح وحسمها يتحقق بأنك إذا استطعت أن لا تعرف نساؤك غيرك فافعل فإنها بذلك تمتنع عن التطلع لغيرك إذ ربما نظرت نظرة أعقبتها حسرة أو أمنية إلى الحرام تفسد عليك مقامك وهناءة عيشك...

ثم إن الإمام نهاه عن ترك الأمور للمرأة كي تتصرف فيها كما تريد وتحب فإن بعض الأمور كما قلنا سابقاً لها قيمتها وأهميتها فيجب ألا تشترك فيها، بل إن للمرأة عالمها الخاص بها ولها شخصيتها الخاصة وإن قدرت أن لا تعطيها أكثر مما لها من هذه الشخصية فافعل...

ثم نهاه الإمام أن يستعمل الغيرة في غير موضعها فلا يتجاوز ما رسمه الله له وما نهاه عنه، لا يجوز أن يكون أشد غيرة من الله، بل الله هو صاحب الغيرة وواضع الغيرة فيجب أن نكون كما أراد وأحب وعلل الإمام الغيرة التي في غير محلها، بأنها تسبب مشكلة خطيرة من حيث تدعو الصحيحة من النساء إلى الفساد والبريئة إلى الريب وهذا أمر منهي عنه...

(واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذه به فإنه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك. وأكرم عشيرتك فإنها جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير. ويدك التي بها تصول.

استودع الله دينك ودنياك واسأله خير القضاء في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة والسلام).

في هذا الفصل الشريف أمور:

الأول: لفت نظره إلى الخدم وأن يجعل لكل واحد منهم عمله المخصوص حتى إذا قصر يعاقب وإن اجتهد ونبغ في أمر أحسن جزاؤه وأثيب على فعله وإحسانه. . .

الثاني: الوصية بالعشيرة بالإحسان إليها وإكرامها وأن لا يعيش بعيداً عنها محتقراً لها جافياً لأفرادها فإن العشيرة هي عز الإنسان وقوته ومهما ابتعد عنها فإنه سيعود إليها. . . هذا بالطبع إذا لم تتخذ طريق الضلال والانحراف وألا تكون عادات جاهلية يمقتها الإسلام ويرفضها. الإسلام يحب العشيرة ويريدها ويجمع أفرادها على الإسلام وأحكامه وعلى الحق والعدل، وأما إذا اتخذت العشيرة الباطل والظلم فلا يجوز للفرد أن يعاونها أو يؤيدها بل يجب أن يردعها ويوقفها عن ممارساتها الضالة والظالمة.

ترجمة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولد في ١٥ رمضان سنة ٢ أو ٣ واستشهد في ٧ صفر سنة ٥٠.

نسبه:

الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

والده: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

أمه: فاطمة بنت رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

جده: محمد رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ.

جدته: خديجة بنت خويلد عليها السلام.

بهذا النسب الكريم يختصر الإمام الحسن المجد والبطولة والشرف والكرامة وكل مناقب العظماء وعبقرياتهم وما تجمعه الإنسانية من فضائل ومحاسن يضاف إلى ذلك ما هو أعظم منه وأكبر إذ به تلتقي النبوة والإمامة وعندها تقصر الأنساب والأعراف وتتقزم العبقريات والبطولات. . .

مولده:

في منتصف شهر رمضان من السنة الثانية أو الثالثة للهجرة تخرج وردة من أكمامها وتتفتح. . . بل يضع الزمن بطلاً من أبطاله التاريخيين الرساليين. . . في منتصف شهر الله تعم الفرحة بيت رسول الله ويتوافد المسلمون لتهنئة الجد بالمولود الكريم.

نشأته.

نشأ الإمام الحسن في كنف جده رسول الله وأخذ الجد يغدق عليه من عطاياه وسجاياه ويسكب في قلبه الفضائل والمناقب ويغذيه بكل كريم من الصفات وعظيم حتى اكتملت شخصيته على يد النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وكيف تكون شخصية رباها رسول الله واعتنى بها الإمام علي وتخرّجت من مدرسة النبوة والإمامة... إنها لا شك فريدة... يتيمة... وحيدة... عظيمة فاقدة النظير والشبيه وهكذا جاء الإمام الحسن بل هكذا كان... عاش الإمام الحسن مع جده ثمان سنوات أو تزيد قليلاً ومع أبيه ثمان وثلاثين سنة تقريباً وكان إلى جانبه في جميع مراحل حياته وحروبه.

فضائله.

في كتاب الله عشرات الآيات التي ذكرت أهل البيت ومدحتهم وأثنت عليهم وكان الإمام الحسن أحد أفراد ذلك البيت الكريم نذكر بعضها تيمناً وتبركاً.

١ ـ قوله تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل...**﴾ فقد أطبق المفسرون واجتمعت كلمتهم على أن النبي لم يأت للمباهلة إلا بعلي وفاطمة والحسنين... وندع الفخر الرازي أحد كبار علماء السنة يقول كما في تفسيره: هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين (ع) كانا ابني رسول الله وعد ـ الرسول ـ أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين عليهما السلام فوجب أن يكونا ابنيه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ ذكر مسلم في صحيحه ـ وهو الكتاب المعتبر عند السنة وعدّوه من الصحاح في كتاب فضائل الصحابة في باب فضائل أهل بيت النبي قالت عائشة: خرج رسول الله غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا...

٣ ـ قوله تعالى: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله**﴾ فقد ذكر أن الحسن والحسين مرضا فعادهما جدهما رسول الله وعادهما المسلمون فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك نذراً فقال عليه السلام: إن برئا مما بهما صمت لله عز وجل ثلاثة أيام شكراً وقالت فاطمة (ع) كذلك وقالت فضة كذلك

فشفي الحسنان وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق علي (ع) إلى شمعون الخيبري ـ اليهودي ـ فاستقرض منه ثلاثة أصواع من الشعير فطحنت الزهراء منه صاعاً وخبزته وعندما وضع الطعام بين أيديهم إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من أولاد المسلمين أطعموني أطعمكم الله عز وجل على موائد الجنة فسمعه علي فأمرهم فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلا الماء فلما كان اليوم الثاني جاءهم أسير فأعطوه عشاءهم وأتاهم رسول الله في اليوم الثالث فرأى ما بهم من الجوع فأنزل الله تعالى الآية ويطعمون الطعام. . .

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ ففي حلية الأولياء عن جابر قال: جاء أعرابي إلى النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فقال: يا محمد أعرض علي الإسلام فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

قال: تسألني أجراً؟.

قال: لا، إلا المودة في القربى.

قال: قرباي أو قرباك؟.

قال: قرباي.

قال: هات أبايعك فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله.

قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: آمين.

ونحن وجميع المسلمين نقول: آمين.

وأما الأحاديث فهي كثيرة ووصايا النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ في حق أهل بيته وخصوصاً الحسن والحسين كثيرة نتبرك ببعضها.

١ ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

٢ ـ عن البراء قال: رأيت النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ والحسن بن علي على عاتقه يقول: اللهم إني أحبه فأحبه.

٣ ـ قال رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا.

٤ ـ أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: قال النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: هما ريحانتي في الدنيا يعني الحسن والحسين.

صلح الإمام الحسن مع معاوية.

أهم حدث في حياة الإمام الحسن هو صلحه مع معاوية ولكي نلم به بشكل سريع حسب ما تقتضيه ظروف هذه الأسطر الموجزة لا بد لنا من أن نعود إلى الوراء قليلاً إلى ما قبل الصلح وبالتحديد إلى فترة خلافة الإمام علي والظروف الصعبة التي مر بها الإمام مع قومه وأصحابه ومن كان معه من المسلمين فإنها فترة لها الأثر الكبير في عملية الصلح مع معاوية.

حكومة الإمام وشعبه.

من المعروف أن الإمام علي بويع خليفة على المسلمين... بايعه أهل الحل والعقد الذين بايعوا الخلفاء قبله وتمت البيعة الشرعية له وأضحى الخليفة الذي عن يديه تمضي الأمور واستجابت له البلاد الإسلامية قاطبة ما عدا الشام التي كان أميرها معاوية فإنها رفضت البيعة وأعلنت الحرب وخصوصاً بعد أن فتح أصحاب الجمل حربهم على الإمام في البصرة بقيادة أم المؤمنين عائشة وصاحبي النبي طلحة والزبير.

تمرد معاوية على الخلافة الشرعية فكانت معركة صفين التي ذهبت بأرواح جملة من المسلمين قدرت بعشرات الآلاف وكانت خدعة ابن العاص برفع المصاحف أعقبها هدنة مشؤومة ثم حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري التي ثبتت معاوية على عرش الشام وبذلك كان لا بد للإمام من متابعة الحرب وإعادة الأمور إلى شرعيتها بتطهير الأرض من معاوية وأصحابه وردهم إلى الطاعة المفروضة في مثل ذلك.

أخذ الإمام يهيء أصحابه ويحثهم بل يدفعهم للخروج لحرب معاوية وقتاله ولكن دون جدوى وكان معاوية في تلك الأوقات يبعث بسراياه وأمرائه إلى أطراف دولة الإمام يشنون عليها الغارات فيسلبون وينهبون ويقتلون حتى وصلت سراياه إلى اليمن والإمام أمام كل ذلك يحترق ألماً ويتجرع مرارة من أصحابه المتقاعسين المتكاسلين الذين لا يستجيبون لندائه ولا يسمعون لقوله لقد كان مجتمع الكوفة مجتمعاً رهيباً ومزاجاً غريباً لا تجمعه وحدة القيادة ولا وحدة الهدف ولا أي شيء آخر... أخلد إلى الدعة والاستكانة ما خلا قلة قليلة وصفوة ضئيلة...

حتى وصل الأمر بالإمام أن عاتبهم فأكثر عتابهم ووبخهم بأشد وأقسى ما يكون

التوبيخ أسمعه يقول: لله أنتم أما دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرقون عني وتختلفون علي. . .

حتى وصل به الأمر إلى قوله: لقد كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً. . . بل تمنى فراقهم ودعى عليهم قائلاً: اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني، اللهم مث (أذب) قلوبهم كما يماث الملح في الماء أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم.

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

الحسن يتسلم الأمر.

في هذه الظروف الصعبة التي تخاذل أهل الكوفة عن إمامهم وتفرقوا أيادي سبأ حتى تمنى الإمام في إحدى كلماته أن يصرفه معاوية صرف الدرهم بالدينار فيأخذ عشرة من أهل الكوفة بواحد من أهل الشام. . . أقول في هذه الظروف الصعبة يستشهد الإمام علي بسيف ابن ملجم الخارجي ويتسلم الحسن الخلافة فيبايعه أهل الكوفة ولكن دون اتفاق معه في الرأي أو موقف يوحد وجهة النظر.

أهل الكوفة.

تسلم الإمام الحسن زمام الخلافة ومجتمع الكوفة عدة اتجاهات بل فئات كل فئة تنشد هدفاً وترمي إلى مقصد يخالف الآخرين لكن وجدت بعض هذه الفئات في الحسن ما يحقق هدفها بل يحقق بعض هدفها ويمكن أن تصنف على هذا الشكل:

١ ـ الخوارج فإنهم وجدوا فيه واسطة العقد لحرب معاوية.

٢ ـ الفئة الممالئة للحكم الأموي.

٣ ـ الفئة المتأرجحة التي لا تستقر بل تكون مع من غلب.

٤ ـ الفئة التي تحركها العصبيات القبلية.

٥ ـ الفئة المؤمنة بالإمام الحسن كقائد شرعي وهي فئة قليلة.

كان جيش الإمام الحسن يتكون من هذا الخليط الغريب الذي لم ينسجم في هدفه وتطلعاته ولا في شيء من عقيدته وفكره ومثل هذا الجيش لا يستطيع أن يكون جبهة

تحارب معاوية. . . ولكن مع كل ذلك صمم الإمام الحسن على متابعة الحرب فجهز الجيوش وعبأها وبعث على مقدمته عبيد الله بن العباس في اثني عشر ألفاً وعندما وصل إلى (مسكن) ووقف في مقابل جيش معاوية سرت إشاعات وانتشرت أخبار كاذبة مفادها أن الحسن يريد أن يصالح معاوية وهنا تحركت نوازع الشر والهزيمة في نفس القائد وخصوصاً بعد أن وصلت إليه الأنباء تقول: إن جيش الكوفة بعد لم يتحرك في ذلك الاضطراب النفسي والضياع الوجداني تأتي رسائل معاوية لتقول لابن عباس: إن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مسلم الأمر إلي فإن دخلت في طاعتي كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع وجعل له فيها ألف ألف درهم وهنا انهزمت نفسيته واستجاب لداعي الخسة وانحاز مع ثمانية آلاف رجل إلى جهة معاوية وبذلك خسر من بقي قائدهم وعددهم أربعة آلاف.

ولم يكتف معاوية بذلك بل هو خبير جداً بالحيل والمكر والدسائس فلذا أرسل شياطينه ورغبهم ومناهم إن هم قتلوا الحسن أغدق عليهم أموالاً طائلة وجوائز ضخمة.

لم يبق مع الإمام الحسن إلا عشرون ألف مقاتل وصل بهم إلى مسكن يريد الحرب ولكنهم لاختلاف آرائهم وتباين وجهات النظر عندهم بمجرد أن سرت الشائعات التي كان قد سربها معاوية ومفادها أن الحسن يريد الصلح معه حتى نفروا وهجموا على مركز الإمام الحسن فنهبوا متاعه وتنازعوا بساطاً تحته وطعنوه بالرمح في فخذه. . . وأمام هذه الأحداث المؤلمة أرسل معاوية إلى الإمام رسله يعرض عليه الصلح.

الصلح.

وهنا ما هو الموقف الصائب والصحيح؟!. . . ما هو الموقف الذي يفرضه العقل والمصلحة الإسلامية العليا؟.

ـ بقطع النظر عن كون الإمام الحسن إماماً معصوماً ـ ما هو الموقف الذي يجب أن يتخذه الحسن؟ هل الظروف تحكم بالصلح أم بالحرب؟.

بمنطق العقل والمصلحة الإسلامية لا بد من اختيار الصلح فإنه أهون الشرين وأقل الضررين بل سنقول: إن محاسن الأمور تظهر بعواقبها. . . وذلك لأن الهزيمة محتمة والفناء التام للمخلصين المؤمنين مبرم وكان لمعاوية حجة في قتلهم والقضاء عليهم وله القدرة الكاملة في تغطية جريمته وإسدال الستار عليها هذه نتيجة ممكنة ويمكن أن يقع الحسن أسيراً فيقتله أو يمن عليه وفي الأول نتيجة السابق وفي الثاني ذل الأبد وعار الدهر. . .

وهنا لا بد من ضرورة الصلح من أجل البقية الباقية من أهل البيت وأصحابهم ونحن يجب أن نلم ببنود الصلح التي وافق عليها الطرفان لندرسها ونرى كيف تحفظ الحقوق لأهلها وهي:

بنود الصلح.

١ ـ تسليم الأمر لمعاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢ ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده فإن حدث به حدث فللحسين وليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده.

٣ ـ أن يترك سب أمير المؤمنين وأن لا يذكره إلا بخير.

٤ ـ استثناء ما في بيت مال الكوفة وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين ألفي ألف درهم وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلات.

٥ ـ أن يكون الناس آمنين حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم وأن يحمل معاوية ما يكون من هفواتهم وأن لا يتبع أحداً بما مضى ولا يأخذ أهل العراق باحنة وعلى أمان أصحاب علي حيث كانوا وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.... وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

معاوية ينقض العهود.

نقض معاوية جميع بنود الصلح وأتى على كل شرط أعطاه للحسن والمسلمين فوضعه تحت قدميه فهو الذي خطب أهل الكوفة عندما تم الصلح وقال: إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول وكل شرط شرطه فتحت قدمي هاتين... ويكفي هذا نقضاً للعهد وإسقاطاً لكل التزاماته التي قطعها على نفسه ولكن يجدر بنا أن نقف على الشروط بشيء قليل لنرى كل واحد منها وما كان موقف معاوية منه.

أما الشرط الأول: عمله بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الصالحين فهذا لم يعرفه معاوية ولم تسمعه أذناه بل عمل خلاف ما جاء في الكتاب والسنة وخالف الخلفاء جميعاً ومن أراد الاطلاع والوقوف على شيء من ذلك فليعد إلى كتاب الغدير للعلامة الأميني قدس سره ليرى عجائب معاوية وغرائبه.

وأما الشرط الثاني: فلم يف به حيث عمل كل ما يستطيع لتنحية الحسين عن طريق الخلافة وأخذ البيعة لابنه يزيد بالقوة والقهر والحديد والنار... والتاريخ شاهد على مكره وحيلته والأساليب التي اتبعها في أخذ البيعة ليزيد.

أما الشرط الثالث: وهو ترك سب أمير المؤمنين فقد أصر معاوية على سبه وشتمه والنيل منه حتى كان يوصي عماله بسبه فهذا المغيرة بن شعبة يستعمله معاوية على الكوفة ويقول له معاوية عند وداعه: وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، أنا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً إيصاءك بخصلة واحدة لا تترك شتم علي وذمه.

وأما الشرط الرابع: فبأمر من معاوية منع العطاء.

وأما الشرط الخامس: وهو أن يأمن الناس وخصوصاً شيعة علي ولا يبغي للحسن والحسين الغوائل فهذا ما خالفه معاوية فقد تتبع شيعة أهل البيت وطاردهم في البراري والقفار وطلبهم تحت كل حجر ومدر، قتل حجر بن عدي وأصحابه في مرج عذراء وقتل عمرو بن الحمق الخزاعي وحبس زوجته ولم يسلم من شره وشرره أي شريف له صلة بأهل البيت حتى أخذهم على الظنة والتهمة فنكل وقتل وشرد.

وأما الإمام الحسن فقد سمه وقضى عليه بواسطة زوجته الخبيثة كما سيأتي.

معاوية يتعرى.

وقف المسلمون جميعاً أمام ما أخذه الإمام الحسن على معاوية من الشروط ورأوا بأعينهم ولمسوا بأيديهم كيف نقض معاوية كل بنود الصلح... كانوا أمام رجل لم يعرف الله ولا رسوله ولم يلتزم بشيء من عهوده التي أخذها على نفسه وبذلك تعرى معاوية وظهر على حقيقته وانكشفت الأمور أمام كل الناس الذين ربما توهموا في معاوية صلاحاً أو خيراً... وبهذا سقطت الأعذار وارتفعت الحجب وبانت الشمس لذي عينين... إنها صورة العهر الأموي تتجسد في شخص معاوية فتعبأت النفوس وحقدت على الأسرة الأموية التي لا ترتبط بالله إلا بمقدار ما يخدمها هذا الارتباط ويحقق مصالحها...

كربلاء ثمرة الصلح.

بهذا الصلح استطاع أن يكشف الإمام الحسن خبث معاوية ومكره واستطاع أن يهيء لثورة الحسين العظيمة حيث أسقط الأقنعة الأموية فبانت الوجوه العاهرة الفاجرة على حقيقتها... تهيأت الأرضية الواسعة لثورة دامية تنتصر على الخلافة الأموية وتكون رأس الحربة في القضاء على الحكم الأموي... فلولا صلح الحسن لم تقم ثورة الحسين

وتنتصر ولو لم يتعر معاوية ويزيد بالصلح لكان الإسلام قد درست معالمه وانتهت أحكامه وشرائعه... ولكنها حكمة الله ونظر المعصوم الذي لا يفعل إلا الأصلح والأحسن.

الشهادة.

منذ أن تم الصلح وتربع معاوية على عرش الخلافة الإسلامية لم يهدأ له بال ولم يقر له قرار، فهو باستمرار يفكر في كيفية الخلاص من الإمام الحسن لأنه يشكل حجر العثرة الذي يقف في وجه مخططاته ومؤامراته.

اهتدى معاوية إلى الحل أخيراً والحل يأتي بنظره عن طريق زوجة الإمام الحسن... عن طريق جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام فيتصل بها معاوية ويمنيها ويرغبها فيعطيها مائة ألف درهم ويعدها بالزواج من ابنه يزيد إن هي سممت الحسن. وقامت المجرمة بالعملية الرهيبة فسممت الإمام وخسرت الدنيا والآخرة لأن معاوية وفى لها بالمال ولم يف لها بالزواج من ابنه بل أرسل إليها من يقول لها نيابة عنه: أني أحب حياة يزيد.

قضى الحسن شهيداً بإرشاد معاوية وتوجيهه وبتنفيذ المجرمة جعدة بنت الأشعث وعندما وصل النبأ إلى معاوية غدى مستبشراً وأظهر السرور والفرح وسجد وسجد من كان معه.

قضى الحسن شهيداً في السابع من شهر صفر سنة ٥٠ للهجرة ودفن في البقيع وقد هدم الوهابيون قبره وقبور الأئمة في الثامن من شوال سنة ١٣٤٤ هجرية وشاركوا بذلك معاوية في جرائمه.

فسلام عليه من شهيد محتسب ولعن الله قاتليه...

٣٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

وَأَرْدَيْتَ(١) جِيلاً مِنَ النَّاسِ(٢) كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ(٣) بِغَيِّكَ(٤)، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ(٥) الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ(٦) بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا(٧) عَنْ وِجْهَتِهِمْ(٨)، وَنَكَصُوا(٩) عَلَى أَعْقَابِهِمْ(١٠)، وَتَوَلَّوْا(١١) عَلَى أَدْبَارِهِمْ(١٢)، وَعَوَّلُوا(١٣) عَلَى أَحْسَابِهِمْ(١٤)، إِلَّا مَنْ فَاءَ(١٥) مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ(١٦)، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ(١٧) بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَى ٱللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ(١٨)، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ(١٩)، وَعَدَلْتَ بِهِمْ(٢٠) عَنِ ٱلْقَصْدِ(٢١). فَٱتَّقِ ٱللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ(٢٢) الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ(٢٣)، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَٱلآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ أرديت : أهلكت.
٢ ـ الجيل من الناس : الصنف والقبيل.
٣ ـ خدعتهم : مكرت بهم واحتلت عليهم.
٤ ـ الغي : الضلال، ضد الرشاد.
٥ ـ تغشاهم : تغطيهم.
٦ ـ تتلاطم الأمواج : يضرب بعضها بعضاً.
٧ ـ جازوا : بعدوا وجاروا عدلوا عن القصد.
٨ ـ الوجهة : بكسر الواو القصد.
٩ ـ نكصوا : رجعوا.

١٠ ـ الأعقاب : جمع عقب مؤخر القدم ورجع على عقبه أي على الطريق التي جاء منها سريعاً.
١١ ـ تولوا عنه : أعرضوا عنه وتركوه.
١٢ ـ الأدبار : مؤخر الشيء والدبر خلف الشيء.
١٣ ـ عوّلوا : اعتمدوا.
١٤ ـ الأحساب : جمع حسب شرف الآباء والأجداد.
١٥ ـ فاء : رجع وعاد.
١٦ ـ البصائر : جمع بصيرة العقل، وهي في القلب كالنظر في الرأس.
١٧ ـ فارقوك : انفصلوا عنك وباينوك.
١٨ ـ المؤازرة : المعاونة.
١٩ ـ الصعب : في الأصل البعير المستصعب يركبه الإنسان فيغرر بنفسه واستعمل لكل أمر شديد شاق.
٢٠ ـ عدل به : مال به.
٢١ ـ القصد : العدل.
٢٢ ـ جاذب : نازع الشيء من جذب الشيء إذا شده إليه يريده، ضد دفعه عنه.
٢٣ ـ القياد : ما تقاد به الدابة.

الشرح

(وأرديت جيلاً من الناس كثيراً خدعتهم بغيك وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشبهات) هذا الكتاب جزء من كتاب كتبه الإمام إلى معاوية وفيه بيان حقيقة معاوية وما فعله بأتباعه فقد أهلك صنفاً من الناس كثيرين وهم أهل الشام ومن حولهم من الأعراب الذين لا يميزون بين الناقة والجمل وقد سلك معاوية معهم أسلوب التضليل والتمويه وانحرف بهم إلى ضلال يتحرك هو فيه ويحيك خيوطه بيده، لقد رماهم في أمواج بحر ضلاله فتارة يخلق لهم شبهة الطلب بدم عثمان وأخرى يحمّل علياً دم عثمان وهكذا يدفع إليهم بالشبهات المضللة وهم على غباء من أمرهم يتحركون فيما يرسمه لهم دون إدراك للحقيقة أو أحاطه بها. . . إنه يختلق الشبهات ويذرهم في أجوائها لا يهتدون إلى حق ولا يسمعون إلى كلمة عدل. . .

(فجازوا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم) ابتعدوا عن شريعة الله وما كان من حقهم أن يسيروا نحوه من الخير وارتدوا القهقرى إلى الوراء. . . عادوا إلى الجاهلية فارتدوا نحو الشر والضلال.

(وتولوا على أدبارهم وعولوا على أحسابهم) عادوا إلى ما كانوا عليه من أمر الجاهلية، تركوا الدين وطريق الهدى ورجعوا إلى الفوضى والهوى وقد اعتمدوا على شرف آبائهم وأخذتهم نخوة الجاهلية فراحوا يدافعون عن بقايا ميراثها...

(إلا من فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك وهربوا إلى الله من مؤازرتك إذ حملتهم على الصعب وعدلت بهم عن القصد) استثنى عليه السلام ممن أغواهم معاوية فئة من الناس تفكر في القضايا وتدرس الأمور وتتجرد في طلب الحق فلربما غشّتها بعض الدعاوي ولربما لبّست عليها بعض الحالات ولكنها لا تستمر في انحرافها ولا تكمل شوط الباطل إلى نهايته بل تعود بفكرها إلى الحق وهكذا فهناك جماعة من أصحاب معاوية الذين عرفوه ووقفوا على ما عنده تركوه وارتحلوا عنه بعد أن عرفوا أهدافه الدنيئة وبغيه وعدوانه على أمير المؤمنين وهربوا إلى الله خوفاً من إعانته في كلمة أو موقف أو ضربة سيف أو طعنة رمح وعلل سبب مفارقتهم لمعاوية من حيث أراد منهم أن يتركوا دينهم وما يعرفون من الحق المتجسد بعلي، أراد معاوية أن يحملهم على قتال إمام الهدى ويجرهم إلى الظلم ومجانبة العدل.

(فاتق الله يا معاوية في نفسك وجاذب الشيطان قيادك فإن الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك والسلام) أراد عليه السلام أن يذكره بالله ليحفظ نفسه من النار فأمره بتقوى الله في نفسه أي يحفظ نفسه بطاعة الله ولزوم أمره واجتناب معصيته ولا يعلن حرباً أو يشق عصا الوحدة أو يشتت أمر الأمة كما أمره بمغالبة الشيطان فلا يتركه هو الذي يوجهه ويقوده إلى حيث يريد بل يمتنع منه ويرفض قيادته له.

ثم ذكّره أن الدنيا زائلة لا تبقى له إن انتصر فيها وعمل لها بينما الآخرة قريبة منه يسعى إليها في كل يوم يُطوى من عمره فيجب أن يسعى الإنسان لتحسين موقعه القادم إليه خصوصاً آخرته التي هي أقرب ما يكون منه...

٣٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة

أَمَّا بعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي(١) ـ بِالْمَغْرِبِ(٢) ـ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ(٣) أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ(٤) الأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ(٥) الأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ(٦) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ(٧) الدُّنْيَا دَرَّهَا(٨) بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا(٩) بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلاَّ عَامِلُهُ، وَلاَ يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلاَّ فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ(١٠) الصَّلِيبِ(١١)، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ(١٢)، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ الْمُطِيعِ لإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلاَ تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ(١٣) بَطِراً(١٤)، وَلاَ عِنْدَ الْبَأْسَاءِ(١٥) فَشِلاً(١٦)، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ العين : الجاسوس الذي يتجسس الأخبار.
٢ ـ بالمغرب : بالأقاليم الغربية وسمى الشام بذلك لأنها هكذا بالنسبة إلى العراق.
٣ ـ الموسم : مجمع الحاج وأيامه التي يقام فيها.
٤ ـ الصمم : فقدان حاسة السمع.
٥ ـ الكمه : جمع أكمه وهو الأعمى خلقة.
٦ ـ يلبسون : يخلطون.
٧ ـ يحتلبون : من الحَلْب وهو جذب اللبن من ضرع الحيوان.
٨ ـ الدر : بالفتح اللبن.
٩ ـ العاجل : المسرع ضد الآجل.

١٠ ـ الحازم	:	الضابط لأمره الآخذ فيه بالثقة.
١١ ـ الصليب	:	الشديد.
١٢ ـ اللبيب	:	العاقل.
١٣ ـ النعماء	:	الرخاء والسعة.
١٤ ـ البطر	:	شدة الفرح المؤدي إلى الطغيان.
١٥ ـ البأساء	:	الشدة.
١٦ ـ الفشل	:	الجبن والضعف.

الشرح

(أما بعد فإن عيني بالمغرب كتب إليّ يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام العمي القلوب الصم الأسماع الكمه الأبصار) هذا الكتاب بعث به الإمام إلى عامله على مكة قثم بن العباس بن عبد المطلب وذلك أنه عليه السلام وصلته الأخبار أن معاوية بعث إلى مكة في موسم الحج دعاة مهمتهم من جهة تهمة أمير المؤمنين بقتل عثمان أو الإعانة عليه ومن جهة أخرى تخذيل الناس عنه والتشكيك في بيعته وكذلك الدعوة إلى معاوية وتزيين أمره وترغيب الناس في خلافته، فأرسل الإمام هذا الكتاب إلى قثم ينبهه فيه إلى أخذ الحيطة وفعل ما يجب فعله في مواجهة هؤلاء الدعاة. . .

أخبره عليه السلام أن من وضعه من أنصاره في الشام من أجل أن يتعرف له على خطط معاوية وأساليب مكره وخداعه وما ينويه ويرسمه قد كتب إليه يعلمه بأمر مهم وهو أن معاوية أرسل في أوقات الحج أناساً من أهل الشام ووصفهم بعمى القلوب لعدم الانتفاع بعقولهم وعدم استعمال أفكارهم وكذلك وصفهم بالصمم لأنهم لا يسمعون إلى كلمة الحق ويعملون بها وكذلك وصفهم بالكمه لأنه لا يرون الحق ولا يبصرونه لوجود الغشاوة على أعينهم.

وفي هذه الرسالة بيان أن الإمام لم يكن غافلاً عن معاوية وما يخطط له كما أن فيها رؤية واضحة لجواز استعمال الاستخبارات على العدو لينقل إلى ولي الأمر ما يجري عندهم وما يخططون ويرسمون. . .

(الذين يلبسون الحق بالباطل ويطيعون المخلوق في معصية الخالق ويحتلبون الدنيا درها بالدين ويشترون عاجلها بآجل الأبرار المتقين) بعد أن ذكر صفات هؤلاء الذين جندهم معاوية دعاة له وضد الإمام أخذ في ذكر بعض أعمالهم وما يوصفون به وهي أمور:

١ ـ يلبسون الحق بالباطل: يخلطون الحق بالباطل يفعلون الباطل بصورة الحق حتى يموهوا على الناس الحقيقة ويشوشوا الرؤية السليمة يرفعون مظلومية عثمان ويريدون من ورائها تحطيم حكم الإمام وقوته.

٢ ـ يطيعون المخلوق في معصية الخالق: وهذا منتهى الشقاء والتعاسة يطيعون معاوية فيما يوجههم من الشر والفساد وفي ذلك معصية لله وتمرد على إرادته.

٣ ـ يحتلبون الدنيا درها بالدين: إنهم لا دين لهم على الحقيقة وإنما يظهرون شعائر الدين ليأخذوا بها متاع الدنيا وصفوها ومنافعها، يقومون بالدعوة إلى الانتصار للخليفة المقتول ويريدون من وراء ذلك أخذ منافع الدنيا وما يعطيهم معاوية من أعطيت مقابل ذلك...

٤ ـ يشترون عاجل الدنيا بآجل الأبرار المتقين: هذا ذم لهم لأنهم يفعلون خلاف ما يفعله الأبرار الأتقياء أنهم يشترون الدنيا بدل الآخرة عكس الأبرار الذين يسعون إلى الآخر ويشترونها بالدنيا وما فيها.

(ولن يفوز بالخير إلا عامله ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله) أراد ترغيب قثم بالخير وتنفيره من الشر فأعطى القواعد الكلية لكل منهما وأنه لن يفوز بالخير إلا من عمل به فمن أراد الجنة سعى لها سعيها وبحث عن الطريق إليها من أداء الواجبات وترك المحرمات وإعانة الضعفاء ومساعدة الفقراء وهكذا ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله لن يدخل النار إلا من عمل لها وطريق النار معصية الله والبعد عن ساحته وإيذاء الناس والإضرار بهم.

(فأقم على ما في يديك قيام الحازم الصليب والناصح اللبيب التابع لسلطانه المطيع لإمامه) أمره عليه السلام أن يستمر في عمله وولايته لكن قيام القوي الشديد الذي أخذ أهبته لكل طارىء واستعد لكل حادث، قيام الناصح العاقل الذي يتحرى الحق المتدبر للأمور التابع لسلطانه الذي ولاه فلا ينحرف عنه أو يتولى عن طريقه المطيع لإمامه فيما أمر ونهى الذي إطاعته من إطاعة الله ورسوله لأنه المنفذ لإرادة السماء وحكمها.

(وإياك وما يعتذر منه) نصيحة حكمية غالية في عبارة قصيرة وكلمات قليلة: لا تعمل أمراً غير صحيح تحتاج معه إلى الاعتذار عن فعله... إياك تحذير ونهي عن كل أمر تحتاج معه إلى الاعتذار وما أجمل هذه القاعدة لو كان كل فرد منا يعمل بها...

(ولا تكن عند النعماء بطراً ولا عند البأساء فشلاً والسلام) أوصاه بالاعتدال عندما

تقبل عليه الدنيا وتكثر عليه نعم الله فلا يأخذه الغنى إلى البطر وهو الطغيان في النعمة وتبذيرها والإسراف فيها واستعمالها فيما لا يجوز كما نهاه إذا أصابته شدة ووقع في مأزق أن يخور ويجبن وتتزلزل أقدامه وتضطرب أحواله بل يجب أن يكون رزيناً قوياً ثابتاً يحاول أن يحل مشكلته ويخرج من شدته وهكذا يكون المؤمن وهذه هي طريقته . . .

ترجمة قثم بن عباس.

قثم بن العباس بن عبد المطلب، بن هاشم أخو عبد الله بن العباس.

أمه: أم الفضل.

وعن عبد الله بن جعفر قال: كنت أنا وعبيد الله وقثم ابنا العباس نلعب فمر بنا رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ راكباً فقال: ارفعوا إليّ هذا الفتى ـ يعني قثم ـ فرفع إليه فأردفه خلفه ثم جعلني بين يديه ودعا لنا فاستشهد قثم بسمرقند.

وكان قثم آخر الناس عهداً برسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كما في تاريخ ابن الأثير وغيره.

كان قثم يشبه رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وقد ولاه الإمام على مكة وبقي والياً حتى استشهد علي عليه السلام.

استشهد قثم في سمرقند في غزوة غزاها المسلمون لتلك البلاد . . .

٣٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى محمد بن أبي بكر، لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى هناك قبل وصوله إليها

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ(١) مِنْ تَسْرِيحِ(٢) الأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذلِكَ ٱسْتِبْطَاءً(٣) لَكَ فِي ٱلْجَهْدِ(٤)، وَلاَ ٱزْدِيَاداً لَكَ فِي ٱلْجِدِّ(٥)، وَلَوْ نَزَعْتُ(٦) مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً(٧)، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلاَيَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً(٨)، فَرَحِمَهُ ٱللهُ! فَلَقَدِ ٱسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلاَقَى حِمَامَهُ(٩)، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ، أَوْلاَهُ ٱللهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ. فَأَصْحِرْ(١٠) لِعَدُوِّكَ، وَٱمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ(١١) مَنْ حَارَبَكَ، وَٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ ٱلاسْتِعَانَةَ بِٱللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

اللغة

١ ـ موجدتك : غضبك وغيظك.
٢ ـ التسريح : الإرسال.
٣ ـ الاستبطاء : التأخير.
٤ ـ الجهد : الطاقة والمشقة والوسع.
٥ ـ الجد : بكسر الجيم الاجتهاد.

٦ ـ نزع الشيء : قلعه ونزع الأمير العامل إذا عزله.
٧ ـ المؤونة : الشدة والثقل.
٨ ـ ناقماً : كارهاً معيباً.
٩ ـ الحمام : الموت.
١٠ ـ أصحر له : أبرز له من أصحر إذا برز إلى الصحراء.
١١ ـ شمّر للحرب : أخذ لها أهبتها.

الشرح

(أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهد ولا ازدياداً لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونة وأعجب إليك ولاية) ولى الإمام محمد بن أبي بكر على مصر ولما لم يكن بمستوى ضبطها وحفظها كما يحب الإمام ويرغب وجه إليها الأشتر لشدته وبأسه وضبطه للأمور فازعج ذلك محمداً وفي الطريق إلى مصر دسّ معاوية السم إلى الأشتر فمات قبل أن يصل إليها فكتب الإمام إلى محمد هذا الكتاب يطيّب خاطره ويبين له أن عزله لم يكن لأمر معيب فيه كالخيانة بل لأجل أن يوليه أمراً يتناسب مع إمكاناته وقدرته وابتدأ عليه السلام بذكر ما بلغه عنه ووصله منه من غضبه حيث أرسل الأشتر إلى مصر بدلاً عنه ليتولى أمر تلك البلاد ثم بين له أسباب عزله وهو يشبه الاعتذار منه فقال لم يكن ذلك لأنك بطيء في مكافحة الأعداء ومواجهتهم أو غير مجد فيه أو غير مخلص ولو أنني كنت أعزلك عن هذه البلاد لوليتك ما هو أيسر عليك ضبطه وأقدر عليه في الإدارة فإن مصر أعطاها معاوية لعمرو طعمة وهذا يحاول بكل طاقاته أن يستولي عليها وأن عملاؤه فيها كثيرون يكيدون لك ويتربصون بك فيكون غيرها أضبط لك وأحسن وأيسر. . .

(إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان رجلاً لنا ناصحاً وعلى عدونا شديداً ناقماً فرحمه الله فلقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون أولاه الله رضوانه وضاعف الثواب له) في هذا الثناء على مالك تقوية لعزيمة محمد ودفعاً له ليكون مثله، والإمام يعطي كل ذي حق حقه وهذه الكلمات منه في حق مالك تؤكد أهمية هذه الشخصية وما كان لها من الأثر في المجتمع وما لها من دور كبير فمالك كان من أشد المخلصين للإمام الناصحين له وبمقدار إخلاصه للإمام ونصحه له كانت عداوته لمعاوية ونقمته عليه وشدته في مواجهته ثم دعا له بعد أن بين أنه كان راضياً عنه وكما يقول ابن

أبي الحديد: ولست أشك بأن الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفر ذنوبه ويدخله الجنة ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ويا طوبى لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا...

(فاصحر لعدوك وامض على بصيرتك وشمر لحرب من حاربك وادع إلى سبيل ربك وأكثر من الاستعانة بالله يكفك ما أهمك ويعنك على ما ينزل بك إن شاء الله) أمره عليه السلام بأوامر:

١ ـ أمره أن يخرج لعدوه ويبرز له ولا ينتظر أو يتأخر لئلا يستشعر منه الضعف والهوان.

٢ ـ أمره أن يمضي على يقين من حقه وأنه أولى الناس بهذا المقام لأنه المنصوب من قبل الحاكم الشرعي والخليفة الذي بايعته الأمة...

٣ ـ أمره أن يستعد للحرب ويأخذ لها أهبتها فيهيء لها أسبابها وعدتها وما تحتاجه.

٤ ـ أمره أن يدعو إلى سبيل ربه فلا يقصر في هداية فرد أو يتوانى في رد ضال أو يتهاون في الأخذ بيد شاك أو متردد إلى ما فيه نجاته...

٥ ـ أمره أن يستعين بالله فإنه الكافي لكل أمر شديد فإن الأحمال مهما كانت ثقيلة والعناء كبير والنوازل قوية إذا أخذ الإنسان بالأسباب المأمور بها وعاد إلى الله بالتوكل عليه انفتحت أمامه الأبواب وجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً.

٣٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن العباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ ٱللهِ نَحْتَسِبُهُ(١) وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً(٢)، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً(٣) دَافِعاً. وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ(٤) النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ(٥) قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ(٦)، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْراً، وَعَوْداً(٧) وَبَدْءاً(٨)، فَمِنْهُمُ ٱلآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ ٱلْـمُعْتَلُّ(٩) كَاذِباً، وَمِنْهُمُ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً. أَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً، فَوَٱللهِ لَوْلاَ طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي(١٠) نَفْسِي عَلَى ٱلْمَنِيَّةِ(١١)، لأَحْبَبْتُ أَلاَّ أَلْقَى مَعَ هٰؤُلاَءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلاَ أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً.

اللغة

١ ـ احتسبت كذا عند الله: طلبت به الحسبة بكسر الحاء وهي الأجر.

٢ ـ الكادح: المبالغ في سعيه.

٣ ـ الركن: ما يقوى به، الجانب الأقوى، الشريف في قومه.

٤ ـ حثثته على الأمر: حضضته عليه ونشطته على فعله.

٥ ـ غياثه: من الغوث وهو الإعانة.

٦ ـ الوقعة: الصدمة في الحرب.

٧ ـ عوداً: الرجوع إلى الحالة السابقة.

٨ ـ بدءاً: بفتح الباء أول الحال.

٩ ـ المعتل: المعتذر.

١٠ ـ وطّن نفسه : هيأها وحملها على الشيء
١١ ـ المنية : الموت.

الشرح

(أما بعد فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر ـ رحمه الله ـ قد استشهد فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً) هذا الكتاب بعث به الإمام إلى عبد الله بن العباس عامله على البصرة يبصّره فيه ما كان من أمر مصر وسقوطها بيد معاوية ويخبره أيضاً بمقتل محمد بن أبي بكر واليه عليها ليدفعه من خلال ذلك إلى التنبه واليقظة على ولايته والسهر عليها خوفاً من أن يدخل معاوية بكيده وحيله إليها كما دخل مصر فأفسدها ثم شكى له قلة الناصر والمعين وعدم المطيع والسامع.

ابتدأ عليه السلام بإخباره بالحدث الأعظم الذي يريد إبلاغه به، إنه حدث فتح مصر لصالح معاوية الذي استولى عليها وخبر استشهاد العبد الصالح محمد بن أبي بكر وسمى محمداً ولداً لأنه تربى في حجره من حيث إن أمه أسماء بنت عميس تزوجت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له محمداً وعوناً وعبد الله بالحبشة ولما قتل جعفر تزوجها أبو بكر فأولدت له محمداً هذا فلما توفي عنها تزوجها الإمام علي فأولدت له يحيى بن علي وكان محمد مع والدته في كنف الإمام يربيه ويعتني به وقد وصفه متوجعاً ومتفجعاً عليه بالعامل الكاد الجاد النشيط غير المتواني فيما أوكل إليه أو أنيط به ووصفه بالسيف القاطع لأن به يطال العدو ويقهره ووصفه بالركن الدافع لأنه يعتمد عليه في دفع الأعداء وهو من الشرفاء الكرام...

(وقد كنت حثثت الناس على لحاقه وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدءاً فمنهم الآتي كارهاً ومنهم المعتل كاذباً ومنهم القاعد خاذلاً) كان الإمام يدفع الناس ويحرضهم للالتحاق بمحمد ومساندته ومعاونته لأنه يعرف مصر وما فيها ويعرف عدوه وما يخطط لها فلذا كان يدفع بالناس للخروج مع محمد وقد وصف سعيه في سبيل ذلك فقال قبل أن يصاب محمد وتسقط مصر بيد الأعداء كنت أتكلم مع الناس سراً أن يخرجوا مع محمد فلم ينفع الإسرار وتكلمت معهم جهراً فلم ينفع الجهر وتكلمت معهم ابتداء ومرة أخرى أي قمت بتحريضهم على الخروج في جميع الحالات فلم ينفعهم القول ولم يحركهم الحديث.

ثم بين ألمه من مواجهتهم له وكيف كانوا يقابلون حديثه وأمره بالخروج.

فمنهم الآتي كارهاً: إنه يخرج بدون رغبة ولا عن إيمان وعقيدة وإنما يخرج وهو ساخط على خروجه وهل مثل هذا ينفع أو يفيد؟.

ومنهم المعتل كاذباً: فهو لا يخرج بحجة واهية كاذبة يعتذر بها عن الخروج.

ومنهم القاعد خاذلاً: فهو لا يخرج متعمداً هزيمة لنا وتقاعساً عنا.

(اسأل الله تعالى أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فوالله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة وتوطيني نفسي على المنية لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً ولا ألتقي بهم أبداً) لما رأى معاملتهم معه هذه المعاملة الظالمة دعى أن يجعل له الله فرجاً عاجلاً من هذه الحالة الصعبة التي يعيشها بين أصحابه من حيث يأمرهم فلا يأتمرون ويعظهم فلا يتعظون، يريدهم لله وفي سبيله فلا يستجيبون.

ثم أقسم أنه لولا طمعه بالشهادة عند لقاء عدوه لم يتمنى البقاء معهم أبداً ولو يوماً واحداً ولا تمنى اللقاء بهم أبداً... إنها نفثة مصدور عاش مرارتها الإمام... إنها معاناة القائد العظيم الذي يريد شعبه قادة الدنيا وبأيديهم مقاليد الأمور فلا يستجيبون له بل يخلدون إلى الأرض ويتقاعسون عن استجابته فيجرح ذلك نفسه ويأسى على مقامه بينهم ويتمنى أنه لا يعرفهم ولا يقيم بينهم أبداً ولا يلتقي بهم لحظة...

٣٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أخيه عقيل بن أبي طالب، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل

فَسَرَّحْتُ[١] إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً[٢] مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً[٣]، وَنَكَصَ[٤] نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ[٥] الشَّمْسُ لِلإِيَابِ[٦]، فَٱقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاَ وَلاَ[٧]، فَمَا كَانَ إِلاَّ كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً[٨] بَعْدَمَا أُخِذَ مِنْهُ بِٱلْمُخَنَّقِ[٩]، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ[١٠]، فَلأْياً بِلأْيٍ[١١] مَا نَجَا. فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ[١٢] فِي الضَّلاَلِ، وَتَجْوَالَهُمْ[١٣] فِي الشِّقَاقِ[١٤]، وَجِمَاحَهُمْ[١٥] فِي التِّيهِ[١٦]، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا[١٧] عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي[١٨]! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ٱبْنِ أُمِّي.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي ٱلْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ ٱلْمُحِلِّينَ[١٩] حَتَّى أَلْقَى ٱللهَ، لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً[٢٠]، وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ أَبِيكَ ـ وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً[٢١] مُتَخَشِّعاً[٢٢]، وَلاَ مُقِرّاً[٢٣] لِلضَّيْمِ[٢٤] وَاهِناً[٢٥]، وَلاَ سَلِسَ[٢٦] الزِّمَامِ[٢٧] لِلْقَائِدِ، وَلاَ وَطِيءَ[٢٨] الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ ٱلْمُتَقَعِّدِ[٢٩]، وَلٰكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ:

فَـإن تَسْـأَلِينِـي كَيْـفَ أَنْـتَ فَـإِنَّنِـي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ(٣٠)
يَعِـزُّ عَلَـيَّ(٣١) أَنْ تُـرَى بِـي كَـآبَـةٌ(٣٢) فَيَشْمَتَ(٣٣) عَادٍ(٣٤) أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

اللغة

١ ـ سرحت : أرسلت.
٢ ـ الكثيف : الكثير الملتف.
٣ ـ شمر هارباً : أسرع هارباً.
٤ ـ نكص : رجع على عقبه.
٥ ـ طفلت : بالتشديد إذا مالت للمغيب.
٦ ـ الإياب : الرجوع.
٧ ـ كلا ولا : كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً.
٨ ـ الجريض : الغص بالريق من شدة الجهد والكرب.
٩ ـ المخنّق : موضع الخنق في الحيوان من عنقه.
١٠ ـ الرمق : بقية الروح.
١١ ـ اللأي : الشدة والعسر وقيل البطء.
١٢ ـ التركاض : مبالغة في الركض.
١٣ التجوال : مبالغة في الجولان.
١٤ ـ الشقاق : الخلاف.
١٥ ـ جمح الفرس : استعصى على سائقه.
١٦ ـ التيه : الضلال والغواية.
١٧ ـ أجمعوا : عزموا وصمّموا.
١٨ ـ الجوازي : جمع جازية وهي أنواع العقاب للنفوس السيئة.
١٩ ـ المحلين : الناقضين للبيعة.
٢٠ ـ الوحشة : ضد الإنس.
٢١ ـ متضرعاً : متخشعاً.
٢٢ ـ متخشعاً : متذللاً خاضعاً.
٢٣ ـ المقر : المعترف.
٢٤ ـ الضيم : الظلم.
٢٥ ـ الواهن : الضعيف.
٢٦ ـ السلس : بفتح فكسر السهل.

٢٧ ـ الزمام : العنان التي تقاد به الدابة.
٢٨ ـ الوطيء : اللين.
٢٩ ـ مقتعد البعير : راكبه.
٣٠ ـ صليب : شديد.
٣١ ـ يعز عليّ : يشق عليّ.
٣٢ ـ الكآبة : الحزن.
٣٣ ـ شمت : أظهر السرور بمصيبة الغير.
٣٤ ـ عادٍ : عدو.

الشرح

(فسرّحت إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين فلما بلغه ذلك شمر هارباً ونكص نادماً فلحقوه ببعض الطريق وقد طفّلت الشمس للإياب فاقتتلوا شيئاً كلا ولا فما كان إلا كموقف ساعة حتى نجا جريضاً بعدما أخذ منه بالمخنق ولم يبق منه غير الرمق فلأياً بلأي ما نجا) هذا الكتاب جواب عن كتاب كان عقيل بن أبي طالب أخو الإمام قد كتب به إليه.

يقول الإمام: إنه عندما علم أن بعض مرتزقة معاوية كان يشن على أطراف حكمه غارات أرسل الإمام إليه جيشاً كبيراً كثيراً من المسلمين فهرب مولياً لا يلوي على شيء ورجع من حيث أتى ذليلاً من فعله فجدوا السير حتى لحقوه وأدركوه ببعض الطريق قبل أن يصل إلى الشام في وقت اقتربت فيه الشمس من المغيب فاقتتلوا مدة قصيرة من الوقت لا تذكر ولم يستطع المغير الفاسد أن يصمد إلا ساعة من الزمن كناية عن قلة الوقت حتى نجا بنفسه بعد أن ذاق الأمرين ولم ينج إلا بأعجوبة بعد عسر وشدة وقد عبّر عن ذلك «حتى نجا جريضاً بعدما أخذ منه بالمخنق» أي نجا بعد كرب وشدة من بعدما كاد أن يختنق ويموت بحيث أخذ منه موضع الخنق من الرقبة ولم يبق منه إلا الروح إنه نجا بعد شدة وعسر. . .

(فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه) توجه الإمام إلى أخيه بنصيحة غالية أن يترك قريشاً ولا يلتفت إلى ما تسعى إليه من الباطل وتتحرك فيه من الضلال وتجول ساعية فيه من الاختلاف عليه والفرقة له وعصيانها وتمردها واسترسالها في الضلال والغواية وكم تحمل الإمام من قريش وكم عانى منها منذ نعومة أظفاره وهو مع النبي صغيراً إلى أن تولى الخلافة. . . إنه تجرع منها الغصص وذاق المرارة وعاش أذاها في كل مراحل حياته حاربها زمن رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ

وَآلِهِ ـ وغضب عليها لأنها سلبته الخلافة ثم قامت أخيراً في وجهه عناداً وبغضاً في حرب ظالمة قاسية فكان عليه أن يواجهها بأشد ما يكون. . .

(فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ قبلي فجزت قريشاً عني الجوازي فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أمي) كأن هذا تعليل وسبب لأمره عقيلاً أن لا يلتفت إلى قريش لأن قريشاً اتفقت كلمتها وصممت العزم على حرب الإمام كإجماعهم على حرب رسول الله في ابتداء الدعوة ومن كانت هذه سيرته وجب هجره وعدم الالتفات إليه يقول ابن أبي الحديد: هذا الكلام حق فإن قريشاً اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه فاصفقوا كلهم يداً واحدة على شقاقه وحربه كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لم تخرم حاله أبداً إلا أن ذاك عصمه الله من القتل فمات موتاً طبيعياً وهذا اغتاله إنسان فقتله.

ثم دعا على قريش بالعقاب بكل سيئة أساءتها معه سيئة مثلها، جزاء وفاقاً لها وذكر بعض تلك السيئات بأنهم قد قطعوا رحمه وقرابته فيها فبدلاً من التعاون معه والوقوف إلى جانبه قاموا بمحاربته وقتاله وذاك أعظم صور قطيعة الرحم وأيضاً فقد سلبوه ميراثه من النبي الذي عبّر عنه «بابن أمي» وسماه بذلك كما يقول ابن أبي الحديد: لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم أم عبد الله وأبي طالب ولم يقل ابن أبي لأن غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبد المطلب وقال بعضهم: إنه قال ذلك لأن أم علي فاطمة بنت أسد ممن قال النبي في شأنها: «فاطمة أمي بعد أمي».

(وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال فإن رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة) عندما اتخذ الإمام قرار قتال البغاة فإنما اتخذه لقناعات شرعية أوجبت عليه ذلك ولذا سيبقى هذا القرار ساري المفعول لا تراجع عنه. . . إنه كما يقول في بعض خطبه: «وقد قلّبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعني النوم فما وجدتني يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ» ولذا فهو مستمر على قتال من نقض بيعته وأعلن الحرب عليه حتى الموت الذي به يخرج من الحياة إلى ملاقاة الله. . .

ثم بين قضية يعيشها الإمام ليس فحسب في مجال الحرب بل في كل حالاته عليه السلام وهو العز بالله دون النظر إلى كثرة من حوله من الناس وقلتهم ولذا يعلن أن كثرة

الناس حوله لا تزيده عزة ولا تفرقهم عنه وحشة. . .

إنه في خط الله وبه العز ومنه يستمد عزته وأما الناس فلن تزيده عزة ولا تفرقهم عنه وحشة. . . إنه العارف بالله المتصل به الذي يرى أن منه يكون كل عز وبه يكون كل أنس. . .

(ولا تحسبن ابن أبيك ـ ولو أسلمه الناس ـ متضرعاً متخشعاً ولا مقراً للضيم واهناً ولا سلس الزمام للقائد ولا وطيء الظهر للراكب المتقعد ولكنه كما قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني — صبور على ريب الزمان صليب
يعز عليّ أن تُرى بي كآبة — فيشمت عاد أو يساء حبيب)

هذا موقف علوي مبدئي علّم أباة الضيم دروس الشجاعة والصمود. . . فلو أفرده الناس وتخلوا عنه كلهم سيبقى الصلب العنيد الذي لا يلين. . . لا يخضع ولا يذل ولا يقبل بالظلم أو ينتابه ضعف. . . إنه يرفض الليونة ولا يعطي زمامه لأحد يدفعه حيث أراد ولا يجعل نفسه مطية يركبها من يريد الراحة والاستقرار بل هو يرفض ذلك ويأباه وهكذا تعلمت النفوس الحرة منه الإباء والنخوة وعدم إعطاء الدنية في دينها.

لله أنت يا سيدي وأنا أقرأ هذه الكلمات استشعر العزة والمنعة وكأنك تخاطبنا نحن الذين نعيش في هذا العصر. . . كأنك تعطينا الدروس التي نواجه بها مشاكل الحياة واضطهاد الطغاة. . . كأنك تدفعنا للصمود من أجل ما نؤمن به ونعتقده من حق وعدل. . .

ثم إنه أخيراً أطلقها صرخة وأعلن أنه القوي الصبور الذي يتحمل محن الدهر ونوائبه ويكتم ما يعيش فيه بدون شكوى إلى الناس لأنهم صنفان صنف عدو له يشمت وآخر حبيب يساء. . .

٣٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

فَسُبْحَانَ ٱللهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ(١) ٱلْمُبْتَدَعَةِ(٢)، وَٱلْحَيْرَةِ(٣) ٱلْمُتَّبَعَةِ، مَعَ تَضْيِيعِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱطِّرَاحِ ٱلْوَثَائِقِ، ٱلَّتِي هِيَ لله طِلْبَةٌ(٤)، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ(٥). فَأَمَّا إِكْثَارُكَ ٱلْحِجَاجَ(٦) عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ الأهواء : مشتهيات النفس ورغباتها.
٢ ـ المبتدعة : التي لا أصل لها في الإسلام.
٣ ـ الحيرة : التردد.
٤ ـ الطلبة : المطلوبة.
٥ ـ حجة : دليل وبرهان.
٦ ـ الحجاج : بالكسر الجدال.

الشرح

(فسبحان الله ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتبعة مع تضييع الحقائق وإطراح الوثائق التي هي لله طلبة وعلى عباده حجة) هذا جزء من كتاب كان الإمام قد أرسله إلى معاوية وفيه يشرح ضلاله وانحرافه ومدى بعده عن الحق.

ابتدأ عليه السلام بهذه الصيغة التعجبية من معاوية لشدة لزومه للأهواء المبتدعة التي يخترعها من نفسه ويبثها بين الناس ولقد كان هذا الرجل يختلق كل باطل وينسج كل إفك ويبتدع كل ضلال ثم يرمي به الإمام كذباً وزوراً فهو تارة يقول لأصحابه أن علياً هو

الذي قتل عثمان وأخرى خذله وثالثة أوى قتلته وهكذا يوقع الناس في حيرة وتردد ويشوش عليهم الرؤية السليمة.

ثم إن معاوية يعلم الحقائق وأن علياً هو أولى الناس بالخلافة إذ ليس لأحد فيه مغمز أو مهمز ولكن مع ذلك يضيّق هذا الحق ويمنعه عن أهله ويشوش رؤية الناس فيه.

وأيضاً يطرح معاوية كل المستمسكات والوثائق التي دلت على إمامة علي وسلطانه سواء كانت واردة عن لسان النبي أو كانت بواسطة بيعته الصحيحة السليمة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين مع أن هذه الوثائق مطلوبة لله على عباده وحجة له عليهم وبالخصوص معاوية التي شهدها أو سمع بها عن الثقاة الأخيار...

(فأما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له والسلام) لقد أكثر معاوية في الحوار والجدال حول قتلة عثمان أنه يريد أن يقتص منهم ونشر قميص عثمان وأخذ يطالب بدمه وكان كلما خمدت ثورة الناس رفع القميص فثار الناس وطالبوا بالاقتصاص من القتلة وهكذا... والإمام يبين أن معاوية عليه كل الحق وهو يتحمل وزر التقصير في الدفاع عن عثمان وذلك أن معاوية خذله عندما كان يمكن أن ينصره لأنه كان يستصرخه ويستغيث به ويطلب نجدته فكان معاوية يقف قريباً من المدينة يمنع جيشه الذي وجهه لنصر الخليفة من دخولها ونصره وأما بعد أن قتل وأصبح كل عمل يقوم به معاوية لصالحه قام عندها بطلب الثأر ورفع قميص عثمان وفي التاريخ: لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمده بعث يزيد بن أسد القسري جد خالد بن عبد الله القسري وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان فاستقدمه معاوية فعاد إلى الشام بالجيش وإنما صنع ذلك ليقتل عثمان فيدعو معاوية إلى نفسه... معاوية خذل عثمان عندما كان الانتصار لعثمان ونصر عثمان عندما كان النصر لمعاوية نفسه وفي هذا استغلال وأنانية ووصولية ليس بعدها شيء، إنها انتهازية معاوية ووصوليته ولو كانت على دماء عثمان الأموي الذي يجتمع معه في الشجرة الأموية الواحدة...

٣٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل مصر، لما ولى عليهم الأشتر

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ غَضِبُوا للهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ ٱلْجَوْرُ(١) سُرَادِقَهُ(٢) عَلَى ٱلْبَرِّ(٣) وَٱلْفَاجِرِ، وَٱلْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ(٤)، فَلاَ مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلاَ مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ ٱللهِ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ ٱلْخَوْفِ، وَلاَ يَنْكُلُ(٥) عَنِ ٱلأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ(٦)، أَشَدَّ عَلَى ٱلْفُجَّارِ(٧) مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَٱسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ ٱلْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ، لاَ كَلِيلُ(٨) الظُّبَةِ(٩)، وَلاَ نَابِي(١٠) الضَّرِيبَةِ(١١): فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا(١٢) فَٱنْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ وَلاَ يُحْجِمُ(١٣)، وَلاَ يُؤَخِّرُ وَلاَ يُقَدِّمُ إِلاَّ عَنْ أَمْرِي، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ(١٤) بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ(١٥) عَلَى عَدُوِّكُمْ.

اللغة

١ ـ الجور : الظلم.
٢ ـ السرادق : جمعه سرادقات الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت، الخيمة.
٣ ـ البر : الصالح.
٤ ـ الظاعن : الراحل.
٥ ـ النكول : الرجوع.
٦ ـ الروع : الخوف.

٧ ـ الفجّار	:	أهل المعاصي، الزناة وأرباب الفواحش.
٨ ـ الكليل	:	الذي لا يقطع.
٩ ـ الظبة	:	بضم ففتح مخفف حد السيف والسنان ونحوها.
١٠ ـ نبا	:	ارتفع ومن السيوف الذي لا يقطع.
١١ ـ الضريبة	:	المضروب بالسيف.
١٢ ـ نفر إلى الشيء	:	أسرع إليه.
١٣ ـ أحجم عن الشيء	:	كف.
١٤ ـ الإيثار	:	تقديم الغير على النفس مع الحاجة إليه.
١٥ ـ الشكيمة	:	أصلها الحديدة المعترضة في فم الفرس وهنا بمعنى الشدة والبأس.

الشرح

(من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى القوم الذين غضبوا لله حين عصي في أرضه وذهب بحقه فضرب الجور سرادقه على البر والفاجر والمقيم والظاعن فلا معروف يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه) هذا الكتاب بعث به الإمام إلى أهل مصر يمدحهم فيه ويثني عليهم ويخبرهم بقدوم الأشتر عليهم والياً من قبله وأنه اختاره لهم وآثرهم به على نفسه مع حاجته إليه.

فهو عبد الله في أرفع درجات العبودية إلى القوم الذين غضبوا لله حين عصي في أرضه... إنهم لم يغضبوا لأنفسهم وإنما غضبوا لله ومن أجله... غضبوا له لأنه عصي في الأرض فقد مارس الحكم الأموي بقيادة عثمان أبشع استغلال للسلطة فتحول الإسلام بكل طاقاته لصالح هذه الأسرة الخبيثة وقد مهد لها الخليفة كل الوسائل وسهل لها كل الطرق فزرع أهله في كل قطر إسلامي وأخذوا خيرات البلاد لمصالحهم الخاصة وتحول ما جناه المسلمون بسيوفهم إلى أفواه الأمويين وأيديهم.

قال ابن أبي الحديد في مواجهة هذا الكلام: وهذا الفصل يشكل عليّ تأويله لأن أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عصي في الأرض فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان واتيان المنكر.

وبعد أن ذكر هذا أراد أن يتأوله وكما يقول: وإن كان متعسفاً في تأويله... ولكنه لم ينجح في هذا التأويل الباطل.

إن أهل مصر غضبوا لله حين عصي في أرضه وذهب بحقه فإن حق الله أن يطاع

ويحفظ في واجباته ومحرماته ولكن الأمويين عصوه فيه وتمردوا على حكمه. . .

ثم وصف ذلك الظلم وشموليته بحيث عمّ الناس جميعاً ـ ما عدا الأمويين الحاكمين المتسلطين على رقاب الأمة ـ إنه ظلم شامل تناول البر التقي والطالح الشقي تناول المقيم والمتنقل كالسرادق المنصوب فوق أهله ـ وهي الخيمة ـ الحاوي لهم فكأن الظلم مخيم عليهم وشامل لهم جميعاً وكان من جراء ذلك أنه لا معروف موجود حتى يستراح إليه ويطمأن به وإنما انتشر المنكر ولا من يتناهى عنه. . .

(أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع أشد على الفجار من حريق النار وهو مالك بن حارث أخو مذحج) أخبرهم عليه السلام أنه بعث إليهم والياً متصفاً بهذه الصفات الكريمة التي لا أظن أن علياً وصف بها أحداً من أصحابه.

١ ـ إنه عبد من عباد الله وهذه مرتبة متقدمة يكشف عنها الإمام في هذه الشخصية.

٢ ـ لا ينام أيام الخوف: فهو في حذر دائم ويقظة مستمرة وانتباه شديد بحيث يستمر في التخطيط أيام الحرب.

٣ ـ لا ينكل عن الأعداء ساعات الروع: فهو شجاع شديد البأس قوي النفس إذا اشتدت الأمور وخارت الأبطال كان قوياً متمالك القوى لا ينهار أو يضعف.

٤ ـ أشد على الفجار من حريق النار: لعلهم يفرون من النار إذا وقعوا فيها أما إذا نزل مالك بساحة الفجار والمنافقين الأشرار فساء صباحهم وأخذوا من مكان قريب فلا فوت لهم ولا نجاة.

(فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق) وهكذا تكون أوامر الخلفاء الأتقياء، همهم طاعة الله وإدراك الحق والوصول إلى الصواب ومالك مهما أعطي من الثقة والصدق والأمانة والإخلاص والولاء يجب أن يبقى ضمن الحق ويجب على الناس إطاعته فيما وافق الحق وأما إذا خالف أمره الحق فلا طاعة له ولا يجب الالتزام بما يقول، همُّ علي أن يطاع الله في خط أوامره وما يريد وهذا هو منتهى نظره. . .

(فإنه سيف من سيوف الله لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة) ما أجمل هذا الوصف وما أشد لياقته بمالك. . . أمير المؤمنين يصفه بأنه سيف من سيوف الله يدفع الشر ويقتل الكفر ويقضي على الانحراف. . . سيف الله في خط الله. . . لا يتحرك إلا من أجل تحقيق إرادة الله وبسط سلطته في الأرض. . . سيف الله لا يضرب إلا أعداء الله وسيف الله

يمضي فيما يقع عليه لا يرتد عنه ولا يقف دونه بل يقطعه بقوة وشدة. . .

(فإن أمركم أن تنفروا فانفروا وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا فإنه لا يقدم ولا يحجم ولا يؤخر ولا يقدم إلا عن أمري) أعطاه الإمام الثقة في هذا المجال وأولاه هذا الأمر المهم. . . أمر أهل مصر أن يطيعوا مالك ويسمعوا له وإذا أمرهم أن يخرجوا لحرب عدوهم فليخرجوا معه وإذا أمرهم أن يقيموا في بلادهم فليقيموا فيها واتبع ذلك كله بتفويض كامل في هذا المجال: فكل حركة يقوم بها هي صادرة عن مصدر القرار عن أمير المؤمنين نفسه وكل حركة يتحركها مالك هي بأمر من أمير المؤمنين وهكذا إحجامه وإقدامه وتأخره وتقدمه. . .

(وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم) وهذا تأكيد على أهمية مالك ودوره الفذ العظيم وإن على أهل مصر أن يحتفظوا بهذا القائد ويطيعوا أمره ويلتزموا حكمه ولا يعصوه فيما أحب وأراد. . .

آثرتكم به على نفسي. . . فأنا بحاجة إليه ومع ذلك دفعته إليكم حباً بكم وحفظاً للمصلحة العامة.

وقد ذكر نصيحته وشدة شكيمته فهو مخلص ناصح أمين. . . لا يغش بل يتحرى وجه الحق ويندفع نحوه.

وكذلك هو شديد الوطأة على العدو غليظ عليه وعبر عن ذلك بشدة الشكيمة. . .

٣٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عمرو بن العاص

فَإِنَّكَ قَدْ جعَلْتَ دِينَكَ تَبعاً[١] لِدُنْيَا ٱمْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ[٢]، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ[٣]، يَشِينُ[٤] ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ[٥] ٱلْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ[٦]، فَٱتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، ٱتِّبَاعَ ٱلْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ[٧] يَلُوذُ[٨] بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ[٩] فَرِيسَتِهِ[١٠]، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ! وَلَوْ بِٱلْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِّي[١١] ٱللهُ مِنْكَ وَمِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ تبعاً : من تبع إذا مشى خلفه.
٢ ـ الغي : الضلال.
٣ ـ هتك الستر : خرقه وأزاله عن موضعه فكشف ما وراءه.
٤ ـ يشين : يعيب ويقبّح.
٥ ـ يسفه : يرميه بالسفه أي بالجهل وعدم الحلم.
٦ ـ الخلط : الأحمق والخلاطة فساد العقل، الحمق.
٧ ـ الضرغام : الأسد.
٨ ـ يلوذ : يلتجيء إليه.
٩ ـ الفضل : جمع فضول البقية.
١٠ ـ الفريسة : ما يفترسه الأسد أي يقتله.
١١ ـ مكنّه الله : جعل له سلطاناً عليه وقدرة.

الشرح

(فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرىء ظاهر غيّه مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته) تمت الصفقة بين معاوية وعمرو بن العاص على التعاون معاً يداً واحدة في قتال الإمام علي على أن يكون لعمرو مقابل دينه وضلاله وتعاونه مع معاوية يكون له مصر طعمة مؤجلة إلى أن ينتصر معاوية ومبلغاً محترماً من المال معجلا ولولديه ما يملأ أعينهم وقد علم الإمام بهذه الصفقة الضالة فكتب لعمرو هذا الكتاب التوبيخي.

ابتدأ عليه السلام بذكر هذه الصفقة الخاسرة التي تمت بروح تجارية دنيئة بعيدة عن الإيمان وأصحاب الشرف والكرامة، عمرو يبيع دينه من أجل دنيا عند معاوية... إنها صفقة يذكرها أرباب التاريخ وتراجم الرجال وكل من كتب عن الرجلين ومدى علاقتهما ببعضهما... كل مؤرخ لتلك الفترة من الصراع بين علي ومعاوية يذكر هذه الصفقة الكافرة...

ثم يذكر الإمام بعض أوصاف ذلك الطاغية المشتري دين الرجال بما عنده من الدنيا.

١ ـ إنه ظاهر غيّه: ضلال معاوية بيّن ظاهر كل عاقل يحكم ببغيه وظلمه وخروجه عن دائرة الحق والعدل... إنه خرج على الخلافة الشرعية وحاربها وسفك الدماء وانتهب الأموال وتسلط على الأمة قهراً عنها وهل هناك من يجهل هذا الضلال.

٢ ـ إنه مهتوك الستر: فلم يترك لله حرمة ولم يرع قوانين الشرع والدين ينقل ابن أبي الحديد عنه: إنه كان كثير الهزل والخلاعة صاحب جلساء وسمُار ومعاوية لم يتوقر ولم يلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين واحتاج إلى الناموس والسكينة وإلا فقد كان أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في آنية الذهب والفضة إلى أن يقول: ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام... إلى آخر معايبه وأقول: ليس من عجب أن يفعل معاوية كل هذه القبائح بعد أن ارتكب أعظم القبائح وأفظعها وهي محاربته لإمام الحق والعدل والهدى فكل كبير بعدها صغير وكل جليل حقير...

٣ ـ ويشين الكريم بمجلسه: إذا جلس لديه كريم يخرج وقد تلطخ بعار بني أمية

وسوء مجالسهم لأنها كانت مجالس سوء ينالون من كرامة الناس وشرفهم.

٤ ـ ويسفه الحليم بخلطته: فالحليم الرصين الرزين يصبح سفيهاً بحمق معاوية وما يجري عنده من شتم الأشراف وإهانة الكرام كما كان يفعل مع بني هاشم من شتم أمير المؤمنين بحضرتهم دون خجل أو حياء.

(فاتبعث أثره وطلبت فضله اتباع الكلب للضرغام يلوذ بمخالبه وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته) أظهر عليه السلام تحقيره لعمرو لعله ينفر من متابعته لمعاوية قائلاً إنك سرت خلفه في ضلاله وانحرافه لم تخالفه في موقف ولم ترفض أمره في قضية ورحت تطلب ما زاد عنه من فضل مثل الكلب عندما يتبع الأسد يتبعه بذلة وخوف وفزع ينتظر ما تنفرج عنه مخالبه وما يفضل عنه من فريسته وليس هذا دأب الشرفاء وأصحاب الكرامة والدين...

(فأذهبت دنياك وآخرتك ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت) ذهاب دنياه لأن الدنيا الكريمة هي الدنيا التي تأتي عن الطريق المشروع الحلال على أنه قد كانت بين عمرو ومعاوية مشاكسات كثيرة ولم يكن عمرو يصفي الود لمعاوية أو يرتاح إليه بل يشعر باستمرار أنه في معرض الخطر ويشعر أن معاوية قد ينتزع منه مصر في كل وقت وأما ذهاب آخرته فمعلوم أنه من أهل النار لأنه باع آخرته بدنيا معاوية على أن أهل الحق يطعنون في إيمانه بل يكفرونه ومعاوية ثم أشار الإمام أنه لو كان يطلب بالحق ما أدركه الآن لأدركه بالحلال وبذلك يربح دنياه وآخرته...

(فإن يمكني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما وإن تعجزا وتبقيا فما أمامكما شر لكما والسلام) وهذا تهديد لهما ووعيد وأنه إذا كتب الله له النصر عليهما واستولى على رقابهما فسيعطيهما الجزاء التام لأعمالهما القبيحة التي صدرت منهما... سيكون الجزاء الصعب الذي يؤدبهما به.

وأما إذا عجز عنهما ولم يقدر على تأديبهما لظروف صعبة من ضمنها استشهاده كما حدث فإن أمامهما الآخرة وهي آخرة عذاب ونكال من الله العزيز الجبار وهو عقاب أشد وأقسى من عقاب وعذاب علي في دار الدنيا...

٤٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي[١] عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ[٢] رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ[٣] أَمَانَتَكَ.

بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ[٤] ٱلأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَٱرْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَٱعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ ٱللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ بلغني : وصلني.
٢ ـ أسخطت : أغضبت.
٣ ـ الخزي : الإذلال والإهانة.
٤ ـ جردت الأرض : قشرتها.

الشرح

(أما بعد فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وعصيت إمامك وأخزيت أمانتك.

بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك فارفع إليّ حسابك واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام) هذا الكتاب كتبه إلى بعض عماله وقد بلغه أنه خان الأمانة وفيه تعليم لكل الحكام كيف يتعاملون مع أركان الدولة والموظفين عندهم، يجب على الحاكم أن يكون العين الساهرة على كل حركات

الولاة والموظفين وإذا بلغه عنهم أمراً فلا يسكت أو لا يبالي... الحاكم مؤتمن على مصالح الشعب وعلى أمواله ومهمته إصلاحه وتنميته... مهمته أن ينشر العدل ويرفع الظلم ولا يجعل من نفسه قطب دائرة الظلم التي يتحلق حولها زبانيته وعصابته التي تتفق معه على سلب الشعب وغصب حقوقه بكل الوسائل ومختلف الأساليب...

والإمام يبتدأ بإعلامه أنه قد وصلته الأنباء عن أمر مهم لا يكشفه ابتداء وإنما يذكره بصيغة الشرط إن كنت فعلته فقد لحقتك ثلاثة أمور عظيمة:

١ ـ إنك أسخطت ربك: أي أغضبته ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى وما أعظمها جريمة يقترفها الإنسان.

٢ ـ عصيت إمامك: لأن أول أوامر الإمام أنه يأمر الولاة بالعدل وحفظ الأمانة ورعاية الحقوق.

٣ ـ أخزيت أمانتك: أي لم تحفظ الأمانة بل خنتها وأذللتها.

ثم ذكر الإمام ما بلغه عنه، لقد بلغه جشعه وتكالبه حتى وصل به الأمر أن جرد الأرض فأكل خيرها وتركها جرداء قاحلة فكل ما تحت يده من بيت مال المسلمين ومن أرزاق المسلمين قد استولى عليه وقضى على كل أثر له...

وأخيراً أمره أن يرفع حسابه إليه فيقدم له جميع المصروفات وما دخل إليه حتى يدقق في الحساب ثم نبهه إلى أن حساب الله في الآخرة أعظم من حسابه وعقابه فلعل هذه الكلمة تحرك فيه الحس الداخلي فيرجع إلى الله ويعود إلى رحابه...

٤١ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي[١]، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي[٢] وَبِطَانَتِي[٣]، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي[٤] وَمُوَازَرَتِي[٥] وَأَدَاءِ ٱلأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ٱبْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ[٦]، وَٱلْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ[٧]، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ[٨]، وَهٰذِهِ ٱلأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ[٩] وَشَغَرَتْ[١٠]، قَلَبْتَ لابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ[١١] فَفَارَقْتَهُ مَعَ ٱلْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ[١٢] مَعَ ٱلْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ ٱلْخَائِنِينَ، فَلاَ ٱبْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ[١٣]، وَلاَ ٱلأَمَانَةَ أَدَّيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ ٱللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ[١٤] مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ[١٥] هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ[١٦] عَنْ فَيْئِهِمْ[١٧]، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ[١٨] الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ ٱلأُمَّةِ أَسْرَعْتَ ٱلْكَرَّةَ[١٩]، وَعَاجَلْتَ ٱلْوَثْبَةَ[٢٠]، وَٱخْتَطَفْتَ[٢١] مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ ٱلْمَصُونَةِ[٢٢] لأَرَامِلِهِمْ[٢٣] وَأَيْتَامِهِمْ[٢٤] ٱخْتِطَافَ الذِّئْبِ ٱلأَزَلِّ[٢٥] دَامِيَةَ[٢٦] ٱلْمِعْزَى[٢٧] ٱلْكَسِيرَةَ[٢٨]، فَحَمَلْتَهُ إِلَى ٱلْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ[٢٩] بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ[٣٠] مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ ـ لاَ أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ[٣١] إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ[٣٢] مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ ٱللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِٱلْمَعَادِ[٣٣]؟ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ[٣٤] ٱلْحِسَابِ! أَيُّهَا ٱلْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي ٱلأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ[٣٥] شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً،

وَتَشْرَبُ حَراماً، وَتَبْتَاعُ(٣٦) ٱلإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ هذِهِ ٱلأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ(٣٧) بِهِمْ هذِهِ ٱلْبِلَادَ! فَٱتَّقِ ٱللهَ وَٱرْدُدْ إِلَى هؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي(٣٨) ٱللهُ مِنْكَ لأُعْذِرَنَّ إِلَى ٱللهِ فِيكَ(٣٩)، وَلأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلاَّ دَخَلَ النَّارَ! وَوَٱللهِ لَوْ أَنَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ(٤٠)، وَلاَ ظَفِرَا(٤١) مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ(٤٢) ٱلْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا(٤٣)، وَأُقْسِمُ بِٱللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحِّ رُوَيْداً(٤٤)، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ٱلْمَدَى(٤٥)، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى(٤٦)، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِٱلْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِٱلْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى ٱلْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ، «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ(٤٧)!».

اللغة

١ ـ أمانتي : أراد بها الخلافة وأصل الأمانة هي الوديعة.
٢ ـ الشعار : ما يلي الجسد من الثياب.
٣ ـ بطانة الرجل : خاصته.
٤ ـ المواساة : أن يواسيه بنفسه.
٥ ـ المؤازرة : المناصرة.
٦ ـ كلب : كفرح اشتد.
٧ ـ حرب : كفرح: اشتد غضبه واستأسد.
٨ ـ خزيت : كرضيت ذلت وهانت.
٩ ـ فنكت : كذبت وفنكت الجارية إذا صارت ماجنة.
١٠ ـ شغرت : خليت.
١١ ـ المجن : الترس وقلب له ظهر المجن، كان معه فصار عليه.
١٢ ـ خذله : ترك نصرته وإعانته.
١٣ ـ آسيت : ساعدت.

١٤ ـ البيّنة : الحجة.
١٥ ـ كاده عن الأمر : خدعه حتى ناله منه.
١٦ ـ الغرة : الغفلة.
١٧ ـ الفيىء : الخراج.
١٨ ـ أمكنتك : صرت صاحب مُكنة أي قدرة وقوة.
١٩ ـ الكرة : الرجعة والعودة.
٢٠ ـ الوثبة : الانقضاض على الشيء.
٢١ ـ اختطفت : أخذت بسرعة.
٢٢ ـ المصونة : المحفوظة.
٢٣ ـ الأرامل : من مات أزواجهن.
٢٤ ـ الأيتام : جمع يتيم وهو من فقد أباه من الناس.
٢٥ ـ الذئب الأزل : السريع العدو.
٢٦ ـ الدامية : المجروحة.
٢٧ ـ المعزى : خلاف الضأن من الغنم وهي ذوات الشعر والأذناب القصار.
٢٨ ـ الكسيرة : المكسورة.
٢٩ ـ رحيب الصدر : طويل الأناة، المنشرح.
٣٠ ـ غير متأثم : غير مبال بالذنب والتأثم التحرز من الإثم.
٣١ ـ حدرت : أسرعت.
٣٢ ـ التراث : الميراث.
٣٣ ـ المعاد : يوم الحساب.
٣٤ ـ نقاش الحساب : مناقشته أي الاستقصاء فيه.
٣٥ ـ تسيغ : تبتلع بسهولة.
٣٦ ـ تبتاع : تشتري.
٣٧ ـ احرز الشيء : صانه وادخره وحرز المال صانه.
٣٨ ـ أمكنني الله منك : أقدرني عليك.
٣٩ ـ لأعذرن إلى الله فيك لأعاقبنك عقاباً يكون الله عاذراً لي فيه.
٤٠ ـ الهوادة : المصالحة والمصانعة والرفق.
٤١ ـ ظفر به : فاز به وغلب.
٤٢ ـ أزيح : كشف، تباعد وذهب.
٤٣ ـ المظلمة : الظلم وهو الجور.
٤٤ ـ ضح رويداً : أمر بالأناة والسكون وأصلها الرجل يطعم أبله ضحى ويسيرها مسرعاً ليسير فلا يشبعها.

٤٥ ـ المدى : الغاية.
٤٦ ـ الثرى : التراب.
٤٧ ـ المناص : المهرب ولات حين مناص أي ليس الوقت وقت فرار.

الشرح

(أما بعد فإني كنت أشركتك في أمانتي وجعلتك شعاري وبطانتي ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي لمؤاساتي ومؤزارتي وأداء الأمانة إليّ) هذه الكتاب كتبه الإمام إلى أحد ولاته ويظهر أنه من أقربائه وأرحامه ويذكر بعضهم بل المشهور أنه كتبه لعبد الله بن العباس واليه على البصرة ولكن ساحة ابن عباس وجهاده وإخلاصه للإمام لا تقبل مثل هذه الشهرة.

وعلى كل حال هو درس لنا نتعلم منه الإخلاص للقيادة الشرعية الحكيمة فلا تحدثنا أنفسنا بخيانتها أو الانحراف عنها مهما شذت الناس عنها وانحرفت أو تألبت عليها الأعداء واشتد كلبها.

ابتدأ عليه السلام بذكر فضله عليه حيث اختاره من أهله وكان أوثقهم عند نفسه اختاره ليكون شريكاً له في الحكم والولاية وجعله من قبله على هذا القطر وهذا الاختيار لم يكن لمجرد القرابة والحب وإنما كان لأنه يحمل صفات الخير يحمل الهموم التي يحملها الإمام ويحمل الآمال التي يحملها ولكي يعينه أيضاً على كل أمر مهم ينزل به ويؤدي الأمانة صحيحة سليمة إليه . . .

(فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب وأمانة الناس قد خزيت وهذه الأمة قد فنكت وشغرت قلبت لابن عمك ظهر المجنّ ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين وختنه مع الخائنين فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت) كثيرون هم الذين يتغيرون بتغير الزمان فليبسون لكل وقت لبوسه فإذا كانت الدولة لفلان فهم معه وفي ركابه وعلى موائده، السنة مدح وثناء وأما إذا وضعه الزمان ورماه بأحداثه تنكروا له وابتعدوا عنه بل هجوه وحاربوه. . . صور متحركة ضمن شريط هذه الحياة نراها أمامنا. . . صور قديمة وحديثه ومنها صورة هذا القريب الذي يشتكي منه الإمام فبعد أن اختاره وأكرمه وقرّبه لأنه كان يرى فيه الخير والإعانة وأداء الأمانة ولكن الزمان غيّره. . . الزمان الذي اشتد على الإمام وقسى عليه قسى عليه بظروفه الصعبة التي يمر فيها ويعيشها وكذلك يرى عدوه قد اشتدت شوكته واستأسد وراح في حرب ضروس ضده دون خوف

من الله أو حساب للآخرة... في وقت خانت الناس أمانتها التي أعطته إياها من الولاء له والوفاء ببيعته فأخذت تتنكر وتتغير... راحت في مؤامرات خبيثة تكيد له وتبغي عليه وكذلك الأمة قد دب فيها التمزق وروح التمرد ولم يعد هناك من يجمعها ويوحد صفوفها في تلك الظروف الصعبة التي يعيشها ابن عمك وتحيط به كانت المواقف المنحرفة منك وأنت الوالي القريب... لقد أصبحت عليه بعد أن كنت معه... غيرت مواقفك وأبدلت موازينك لقد تحولت إلى جهات أعدائه ومارست معه ما مارسوه معه... خذلته مع الخاذلين فلم تنصره بل انحرفت عنه وخنته مع الخائنين، دخلت في قائمتهم وسلكت سبيلهم وبهذا خيبت ظنه فلم تواسي ابن عمك وتعيش معه في محنته ولا الأمانة التي ائتمنك عليها من حفظ مال المسلمين أديت...

(وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك وكأنك لم تكن على بينة من ربك وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم وتنوي غرتهم عن فيئهم فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأمك) أراد توبيخه بأعنف ما يكون فشكك في أخلاصه فيما كان يقوم به من جهاد لأن فعله هذا يكشف عن ذاك وكذلك شكك في إيمانه بوعد الله ووعيده لأن فعله يساوي فعل الجاهل وكذلك شكك في عمله وصحة توجهه ونزّله منزلة من يريد خداع المسلمين بعمله من أجل أن يصطاد دنياهم ويأخذ فيئهم وماجنته سيوفهم ولذا عندما سنحت له الفرصة وأصبح عنده القوة والقدرة أسرع إلى أخذ ما تحت يده وعجّل العدو والخطى لتحصليها وسلب بسرعة مذهلة ما وقع تحت يده من أموالهم المحترمة التي لا يجوز سلبها أو أخذها لأنها مال الأرامل والأيتام الذين لا معين لهم ولا كفيل وقد وصف هذا الاختطاف بأنه كاختطاف الذئب الوثاب الشديد العدو الذي ظفر بالمعزى المكسورة التي لا تقدر على الفرار...

ثم بيّن أنه حمله إلى الحجاز هارباً به مسروراً مبتهجاً لا يخاف ذنباً ولا إثماً على ما فعل فكأن هذا المال قد وصل إليه عن أبويه فهو يوصله إلى أبنائه وورثته.

(فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد أو تخاف نقاش الحساب أيها المعدود ـ كان ـ عندنا من أولي الألباب كيف تسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً وتبتاع الإماء وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال واحرز بهم هذه البلاد) استفهم عليه السلام متعجباً منه ومنكراً

عليه فعله أما تؤمن بالمعاد ومن آمن بالمعاد حسب له حسابه وأعد له عدته ولم يخن أمانته ولم يسلب ما تحت يده.

وكذلك أما تخاف نقاش الحساب ومن كان يخاف أن يحاسبه الله ويعدد عليه كل أفعاله بدون أن يفرط في شيء منها ارتدع عن ارتكاب الحرام وترفّع عن سلب أموال الأرامل والأيتام وغيرهم.

ثم أنبّه لعله إلى ضميره يعود وتعجب منه مستنكراً عليه، كيف يشرب هنيئاً ويأكل مريئاً ويشتري الإماء وينكح النساء ويدفع مهورهن كيف يفعل كل ذلك بما سلبه من أموال اليتامى الذين يستحقون الشفقة والرحمة والعطف والحنان وكذلك من أموال المساكين الذين يتضورون جوعاً ومن أموال المؤمنين الذين لا يجوز أخذ أموالهم وكذلك تأخذ أموال المجاهدين الذين بذلوا أنفسهم حتى يحصلوا على هذا الفيء وكيف يتخلص من كان خصماؤه يوم القيامة كل هذه الأصناف وما فيها من الأعداد الضّخمة...

(فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار) أمره عليه السلام أن يتقي الله ويرجع عن المعصية وذلك لا يكون إلا بأن يرد لأصحاب الحقوق حقوقهم فلذا أمره بردها.

ثم حذّره إن لم يردها فإنه إذا تمكن منه ووقع تحت يده لسوف يعاقبه بما يعذر فيه إلى الله وما يعذر فيه هو عقوبته بما يستحق ليضربنه بسيفه الذي ما وقع على أحد إلا قتله وأدخله النار لأنه سيف لا يقع إلا على مستحق للقتل...

(ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيح الباطل عن مظلمتهما) أقسم عليه السلام وهو الصادق في قسمه لو أن أقرب الناس إليه وهما الحسن والحسين أكلا أموال اليتامى والمساكين والمجاهدين لم يلن لهما بل كان يأخذهما بالشدة ولن يرضى عنهما حتى يأخذ منهما ما أخذا ويدفع ظلمهما عن الناس.

(وأقسم بالله رب العالمين ما يسرني أن ما أخذته من أموالهم حلال لي أتركه ميراثاً لمن بعدي فضح رويداً فكأنك قد بلغت المدى ودفنت تحت الثرى وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادى الظالم فيه بالحسرة ويتمنى المضيّع فيه الرجعة ولات حين مناص) أقسم عليه السلام ـ وهو الصادق ـ أن هذا المال لو كان له وقد أخذه من حلال لم

يكن في فرح أو سرور أن يتركه لورثته وهؤلاء المساكين واليتامى والمجاهدين على حالتهم السيئة التي يعيشونها من الحاجة والفاقة...

ثم أمره بالإمهال على سبيل التهديد بقرب الوصول إلى الغاية التي هي الموت ثم بعدها إلى الدفن تحت التراب في قبر ضيق صغير ثم بعد ذلك يأتي يوم الحساب يوم تعرض فيه أعمال الخلق في ذلك اليوم الذي ينادي فيه الظالم بالحسرة والأسى والأسف على ما فعله من قبائح وسيئات فيقول: كما يحكي الله ذلك: **﴿يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾** ويتمنى فيه من ضيّع الأعمال الصالحة ولم يوفق إليها أن يعود إلى الدنيا كما حكى الله أيضاً قوله: **﴿قال رب أرجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾** ويأتيه الجواب كلا...

ولكن لا خلاص ولا فكاك ولا نجاة لم تنفع الحسرة ولن يستجاب طلب الرجعة بل كل واحد يجزى بما فعل وينال ما اكتسب...

٤٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي،
وكان عامله على البحرين، فعزله، واستعمل
نعمان بن عجلان الزّرقي مكانه

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ نُعْمَانَ بْنَ عَجْلاَنَ الزّرَقِيَّ عَلَى ٱلْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ[١] يَدَكَ بِلاَ ذَمٍّ لَكَ، وَلاَ تَثْرِيبٍ[٢] عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ ٱلْوِلاَيَةَ، وَأَدَّيْتَ ٱلأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ[٣]، وَلاَ مَلُومٍ[٤]، وَلاَ مُتَّهَمٍ، وَلاَ مَأْثُومٍ[٥]، فَلَقَدْ أَرَدْتُ ٱلْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ[٦] أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ[٧] عَلَى جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ.

اللغة

١ ـ نزع الشيء من مكانه : قلعه ونزع الأمير العامل عزله.
٢ ـ الترثيب : اللوم.
٣ ـ الظنين : المتهم.
٤ ـ الملوم : لامه عذله كدّره بالكلام لإتيانه ما ليس جائزاً.
٥ ـ المأثوم : المذنب.
٦ ـ الظلمة : بالتحريك جمع ظالم.
٧ ـ استظهر به : أستعين.

الشرح

(أما بعد فإني قد وليت نعمان بن عجلان الزرقي على البحرين ونزعت يدك بلا ذم لك ولا تثريب عليك فلقد أحسنت الولاية وأديت الأمانة فاقبل غير طنين ولا ملوم

ولا متهم ولا مأثوم فلقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام وأحببت أن تشهد معي فإنك ممن أستظهر به على جهاد العدو وإقامة عمود الدين إن شاء الله) هذا الكتاب أرسله الإمام إلى عامله عمر بن أبي سلمة يخبره فيها بتعيين نعمان بن عجلان محله على البحرين ويستدعيه فيها. . .

أخبره أنه قد عزله عن عمله ولئلا يتوهم أن عزله كان لجرم اقترفه بين له أن عزله كان بلا ذم له ولا لوم عليه ومدحه بحسن ما تولاه فقد أدى الأمانة فقام بسياسة البلد وإصلاحها ورعاية شؤونها فهو غير متهم في أمر شائن ولا تلحقه ملومة عن أمر باطل ولا إثم عليه من معصية اقترفها أو قام بها. . .

ثم بين له سبب عزله واستدعائه وهو أنه قد عزم على قتال الظالمين من أهل الشام الذين جيشهم معاوية ضده وقادهم لحربه فأحب الإمام أن يكون عمر معه يشهد مواقفه ويخوض حربه ثم أثنى عليه بأنه ممن يعتمد عليهم الإمام ويستعين بهم في هذا الأمر المهم وهو حرب الظالمين وتقوية الإسلام وتعزيز وجوده وتجذير أصوله وحفظها من كل سوء. . .

ترجمة عمر بن أبي سلمة.

قال صاحب الإصابة:

عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد ربيب النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أمه أم سلمة أم المؤمنين ولد بالحبشة في السنة الثانية وقيل: قبل ذلك وشهد مع الإمام معركة الجمل توفي بالمدينة سنة ثلاث وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان.

وقال ابن أبي الحديد نقلاً عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر قال: أما عمر بن أبي سلمة فهو ربيب رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة يكنى أبا حفص ولد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة وقيل: إنه كان يوم قبض رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ابن تسع سنين. . . وقد حفظ عن رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ الحديث.

ترجمة نعمان بن عجلان الزرقي.

قال صاحب الإصابة:

النعمان بن عجلان بن النعمان بن عامر بن زريق الأنصاري الزرقي. . . قال أبو

عمر: كان لسان الأنصار وشاعرهم وهو الذي خلف على خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب بعد قتله وهو القائل يفخر بقومه من أبيات:

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ويوم حنين والفوارس في بدر
نصرنا وآوينا النبي ولم نخف صروف الليالي والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمه أيسار الجزور على الشطر

واستعمله علي بن أبي طالب على البحرين فجعل يعطي كل من جاء من بني زريق فقال فيه الشاعر وهو أبو الأسود الدئلي:

أرى فتنة قد ألهت الناس عنكم فندلاً زريق المال ندل الثعالب
فإن ابن عجلان الذي قد علمتم يبدد مال الله فعل المناهب

كان النعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم ويقال: إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تزدريه العين إلا أنه كان سيداً وهو القائل يوم السقيفة:

وقلتم حرام نصب سعد ونصبكم عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
وأهل أبو بكر لها خير قائم وإن علياً كان أخلق بالأمر
وأن هواناً في علي وأنه لاهل لها من حيث يدري ولا يدري

٤٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامله على أردشير خرّة

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ(١) إِلهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ(٢) ٱلْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ(٣) رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ(٤) عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ ٱعْتَامَكَ(٥) مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ(٦) ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ(٨)، لَئِنْ كَانَ ذلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً(٩)، وَلَتَخِفَّنَّ(١٠) عِنْدِي مِيزَاناً، فَلاَ تَسْتَهِنْ(١١) بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلاَ تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ(١٢) دِينِكَ، فتَكُونَ مِنَ ٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.

أَلاَ وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ(١٣) وَقِبَلَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هذَا ٱلْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ(١٤) عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ(١٥) عَنْهُ.

اللغة

١ ـ أسخطت : أغضبت.
٢ ـ الفيء : الغنيمة ومال الخراج.
٣ ـ حازته : جمعته.
٤ ـ أراق الماء : صبه والدم سفكه.
٥ ـ أعتامك : اختارك من بين الناس وأصله من العيمة بالكسر وهي خيار المال.
٦ ـ فلق : شق.
٧ ـ برأ : خلق من العدم.
٨ ـ النسمة : النفس، كل دابة فيها روح.
٩ ـ الهوان : الذل.

١٠ ـ خفّ : ضد ثقل.
١١ ـ استهان به : استخف به، استحقره واستهزأ به.
١٢ ـ محق الشيء : أبطله ومحاه.
١٣ ـ قبل : بكسر ففتح ظرف بمعنى عند.
١٤ ـ يردون : يحضرون المورد وهو ضد الصدور.
١٥ ـ يصدرون : يرجعون.

الشرح

(بلغني عنك أمر إن كنت فعلته قد أسخطت إلهك وعصيت إمامك: أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك من أعراب قومك) هذه الرسالة بعث بها الإمام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني عامله على أردشيرخرة وكان ضعيفاً تصرف فيما ولاه عليه الإمام بدون إذن منه فكانت هذه الرسالة التي هاجمه فيها وهدّده وبين له سوء فعله الشنيع من حيث إنه قسّم ما في بيت مال المسلمين على خاصته ومن اصطفاهم من أهله...

أجمل الإمام ما بلغه عنه ولكنه أمر كبير أن كان فعله فقد أغضب ربه من حيث وضعه في غير موضعه وخالف أمره وكذلك عصى إمامه ـ أراد نفسه ـ وتمرد على ما أوصاه به.

ثم بين ذلك الأمر إنه تقسيم أموال المسلمين الذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا وسفكت دماؤهم من أجل الحصول عليه والوصول إليه... قد قسمه مصقلة بين حاشيته ومن التف حوله من أعراب قومه وما أجمل كلمة أعراب قومه لأنهم قوم جهّال أخذوا غير حقهم ولو كانوا يفقهون أحكام الله لرفضوا قبول ما يعطيهم لأنه مال حرام لا يجوز لهم تناوله كما لا يجوز للوالي إعطاؤه...

(فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً ولتخفن عندي ميزاناً فلا تستهن بحق ربك ولا تصلح دنياك. بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً) أقسم عليه السلام بالله الذي شق الحبة اليابسة فأخرج منها زرعاً وشجراً وأقسم بالله الذي خلق الأنفس من العدم لئن كان هذا النبأ صادقاً سيجد نفسه عند علي ذليلاً حقيراً وسيجد نفسه في عذاب وعقاب وهذا ما كنى عنه بخفة الميزان لأن من كان خفيف الميزان يكون صاحب سيئات ومن كان كذلك ناله العقاب والعذاب.

ثم نهاه عن الاستخفاف بما فرضه الله عليه من حفظ الأمانة وأدائها إلى أصحابها ونهاه أن يصلح دنياه بفساد دينه فيرتفع في عطاء قومه ولكنه بسقط في ميزان الله فيكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا.

(ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء: يردون عندي عليه ويصدرون عنه) بيّن عليه السلام تشريعاً دقيقاً مفاده أن فيء المسلمين في أي بلد خرج منه لا يخصّ ذلك البلد بل يشمل جميع المسلمين ويجب أن يوزع عليهم بالسوية ولا تظلم البلدة التي يكثر سكانها ويقل خراجها بينما تتنعم البلدة التي يقل سكانها ويكثر خراجها فيقع الظلم ثم إن الفيىء يجب أن يراجع فيه الخليفة كي يدرس طريقة توزيعه بما يضمن العدالة بين أفراد المجتمع، فإليه يعود ومنه يخرج مجدداً فبيده الميزانية العامة التي يدرس على أساسها قضية التوزيع...

وأيضاً لو أن كل عامل أراد أن يتصرف كيف يشاء فتتحول البلاد إلى ولايات مستقلة عن بعضها لا ترابط فيما بينها ولا وحدة تجمعها وهذا من أشد دواعي التفكك والانهيار... ومن هنا قال: إن من حق من هو عندنا وعندكم من الناس على حد سواء يتساوون في قسمة الفيىء ولكل نصيبه الذي يتساوى فيه مع الآخرين وهذا يجب أن يكون عن يدي رأس الدولة ومنه وهذا لا يكون إلا بأن يجبى الفيىء إليه ثم يعود منه إلى الناس...

٤٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ(١) لُبَّكَ(٢)، وَيَسْتَفِلُّ(٣) غَرْبَكَ(٤)، فَٱحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي ٱلْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ(٥) غَفْلَتَهُ(٦)، وَيَسْتَلِبَ(٧) غِرَّتَهُ(٨).

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ فَلْتَةٌ(٩) مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ(١٠) مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَٱلْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَٱلْوَاغِلِ ٱلْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ ٱلْمُذَبْذَبِ.

فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها وربّ الكعبة، ولم تزل في نفسه حتى ادّعاه معاوية.

قال الرضي: قوله عليه السلام: «الوَاغِلُ» هو الذي يهجم على الشّرْب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال مدفّعاً محاجزاً. و«النّوْط المُذَبْذَبُ» هو ما يناط برحل الراكب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك، فهو أبداً يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره.

اللغة

١ ـ يستزل : يطلب زلله أي خطأه.
٢ ـ اللب : العقل.
٣ ـ الاستفلال : طلب الفل وهو ثلم الحد.
٤ ـ غرب السيف : حده.
٥ ـ اقتحم : هجم ودخل.
٦ ـ الغفلة : عدم التنبه.
٧ ـ يستلب : يأخذ وينتزع.

٨ ـ الغرة : خلو العقل من ضروب الحيل.
٩ ـ الفلتة : الأمر يقع من غير تثبت ولا روية.
١٠ ـ نزغة : كلمة فاسدة.

الشرح

(وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ويستفل غربك فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته) زياد بن أبيه وزياد بن سمية وزياد بن عبيد وزياد بن أمه. . . وما أكثر الأسماء وما أحقر الهر، وتعدد الانتماء دليل ضياع نسب المرء. . . وزياد هذا كان من شيعة الإمام وقد ولاه على بعض أعمال فارس فضبطها وأصلحها وجنى خراجها وأحسن السياسة فيها وبينما هو في عمله كتب إليه معاوية كتاباً يتهدده فيه فيرد عليه زياد بأقسى منه وهكذا دارت بينهما الكتب إلى أن ارتأى المغيرة بن شعبة ـ الداهية الفاجر ـ على معاوية أن ينسبه إلى أبيه أبي سفيان وبذلك يرضيه ويكتسبه إلى جانبه فنفّذ معاوية ما أشير به عليه ووصل الخبر إلى الإمام فكتب له هذه الرسالة وفيها:

أولاً: يخبره أنه قد عرف ما جرى بينه وبين معاوية وهذا يكشف أن الإمام كان يرصد أعمال الولاة ويضع عليهم من ينقل إليه أخبارهم وما يجري بينهم وبين غيرهم وخصوصاً في حالة الحرب إذا كانت قائمة.

ثانياً: يخبره أن في الرسالة المرسلة من معاوية ما يمكن أن يكسر حدة زياد على معاوية وموقفه الشديد منه، فإن موقف زياد وتصميمه وعزمه أن يكون في جبهة الحق مع الإمام فيريد معاوية من خلال رسالته أن يحرفه عن خطه ويصرفه عن رأيه.

ثالثاً: حذّره معاوية وأنزله منزلة الشيطان الذي يأتي الإنسان من جميع جهاته ليصرفه عن الله في حالة الغفلة لكي يختلس عقله الصحيح ويوجهه بمقتضى الباطل الذي يريد وهذا مأخوذ من قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿**قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾(١).

(وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث والمتعلق بها كالواغل المدفع

---

(١) سورة الأعراف، آية/ ١٦ ـ ١٧.

والنوط المذبذب) هذا ما أراد الإمام ذكره لزياد وتنبيهه منه وهو أن ما دخل معاوية معك فيه وأراد أن يصرفك عما أنت عليه من الحق أمر غير شرعي ولا صحيح وما صدر من أبي سفيان زمن عمر إنما كان بدون تفكّر ولا روية وإنما كان حديث نفس لا صحة له وحركة شيطانية تحرك بها أبو سفيان فإذ قبلتها تُدافع بها ولا تصل إلى مرادك فأنت كالواغل المدفع أي كالذي يدخل من الحيوانات مع غيره ليشرب فلا يزال تدفعه هذه وتلك وهكذا أو هو كالنوط المذبذب أي القعب أو السطل المعلق برحل الراكب يتحرك باستمرار ولا يستقر على حال وكلما مشى ازداد حركة فكذلك نسب زياد لا يثبت بهذا الشكل أبداً.

ترجمة زياد بن أبيه.

زياد بن أبيه (لمجهولية أبيه).

زياد بن عبيد: نسبة إلى عبيد وهو من العبيد أو من ثقيف على قول.

زياد بن سمية: نسبة إلى أمه وكانت أمة للحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي طبيب العرب وكانت تحت عبيد.

زياد بن أمه.

وأخيراً عندما تربع معاوية على كرسي الحكم استهل حكمه بإلحاق زياد بأبي سفيان فصار يدعى زياد بن أبي سفيان وكما يقول ابن أبي الحديد: ولما استلحق قال له أكثر الناس: زياد بن أبي سفيان لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرهبة والرغبة وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع الملوك إلا كالقطرة في البحر المحيط فأما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد ولا يشك في ذلك أحد...

وحديث أبي سفيان في زمن عمر كما يرويه ابن أبي الحديد عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر هو: إن عمر بعث زياداً في إصلاح فساد وقع باليمن فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع مثلها ـ وأبو سفيان حاضر وكذلك علي عليه السلام وعمرو بن العاص ـ فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام لو كان قريشاً لساق العرب بعصاه.

فقال أبو سفيان: إنه لقرشي وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه.

فقال علي عليه السلام: ومن هو؟.

قال: أنا.

فقال: مهلاً يا أبا سفيان...

الاستلحاق السياسي.

لم يغفل معاوية عن باب من الأبواب التي تخدمه إلا واستعملها ضارباً بذلك الدين والأخلاق والكرامة عرض الحائط ولذا استهل حكمه باستلحاق زياد بأبي سفيان ليكون له أخاً قريباً وخصوصاً أنه كان من شيعة علي وأعرف الناس بأصحاب علي وخواصه ومن هم على نهجه ولذا استعمله على العراق بعد الاستلحاق وكان لشيعة علي على يديه أعظم المآسي وأشدها فقد لاحقهم تحت كل حجر ومدر وهو عارف بهم خبير بنواياهم. . .

تم الاستلحاق سنة أربع وأربعين وقد رواه المؤرخون بهذه الصورة المشينة التي يخجل منها الغيور.

روى علي بن محمد المدائني كما في نهج البلاغة للمعتزلي قال: لما أراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر وأصعد زياداً فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد فمن كان عنده شهادة فليقم بها فقام ناس فشهدوا أنه ابن أبي سفيان وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته فقام أبو مريم السلولي ـ وكان خماراً في الجاهلية ـ فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم أصب لي بغياً فخرجت فأتيت بسمية فقلت لها: إن أبا سفيان ممن قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرني أن أصيب له بغياً فهل لك؟.

فقالت: نعم يجيء الآن عبيد بغنمه ـ وكان راعياً ـ فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته فلم تلبث أن جاءت تجر ذيلها فدخلت معه فلم تزل عنده حتى أصبحت فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبتك؟.

قال: خير صاحبة لولا ذفر في إبطيها.

فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم أمهات الرجال فتشتم أمك.

فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته قام زياد وأنصت الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ولست أدري حق هذا من باطله هو والشهود أعلم بما قالوا وإنما عبيد أب مبرور ووال مشكور ثم نزل. . .

بهذه الصورة المسرحية تمت عملية الاستلحاق التي لا يقرها شرع ولا دين ولا عقل ولكنها سياسة معاوية الماكرة التي لا تعترف بالإسلام وشرعه. . .

يقول التاريخ: إن أبا بكرة أخا زيد لأمه، أمهما جميعاً سمية حلف أن لا يكلّم زياداً أبداً وقال: هذا زنَى أمه وانتفى من أبيه ولا والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط ويله ما يصنع بأم حبيبة أيريد أن يراها فإن حجبته فضحته وإن رآها فيا لها مصيبة يهتك من رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ حرمة عظيمة . . .

وقد أنشد عبد الرحمن بن الحكم فى هذا الاستلحاق:

ألا أبلـغ معـاويـة بـن حـرب ... لقـد ضـاقـت بمـا يـأتي اليـدان
أتغضـب أن يقـال أبـوك عـف ... وتـرضـى أن يقـال أبـوك زان
فـأشهـد أن رحمـك مـن زيـاد ... كـرحـم الفيـل مـن ولـد الأتـان
وأشهـد أنهـا حملـت زيـاداً ... وصخـر مـن سميـة غيـر دان

وأختم الحديث عن هذا الخبيث بقول الحسن البصري: ثلاثة كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة منهن لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها واستلحاقه زياداً مراغمة لقول رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجر بن عدي فيا ويله من حجر وأصحاب حجر.

٤٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ـ وكان عامله على البصرة وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها ـ قوله:

أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ[١] أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ[٢] فَأَسْرَعْتَ[٣] إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ[٤] لَكَ ٱلأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ[٥]. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ[٦] مَجْفُوٌّ[٧]، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ[٨] مِنْ هذَا ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَٱلْفِظْهُ[٩]، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ[١٠] مِنْهُ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي[١١] بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ ٱكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ[١٢]، وَمِنْ طُعْمِهِ[١٣] بِقُرْصَيْهِ[١٤]. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَٱجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ[١٥]. فَوَٱللهِ مَا كَنَزْتُ[١٦] مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً[١٧]، وَلاَ ٱدَّخَرْتُ[١٨] مِنْ غَنَائِمِهَا[١٩] وَفْراً[٢٠]، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلاَ حُزْتُ[٢١] مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً[٢٢]، وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إِلاَّ كَقُوتِ أَتَانٍ[٢٣] دَبِرَةٍ[٢٤]، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى[٢٥] وَأَهْوَنُ[٢٦] مِنْ عَفْصَةٍ[٢٧] مَقِرَةٍ[٢٨]. بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ[٢٩] مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ ٱلْحَكَمُ ٱللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ. وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا[٣٠] فِي غَدٍ جَدَثٌ[٣١] تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا،

وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا(٣٢)، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لأَضْغَطَهَا(٣٣) ٱلْحَجَرُ وَٱلْمَدَرُ(٣٤)، وَسَدَّ فُرَجَهَا(٣٥) التُّرَابُ ٱلْمُتَرَاكِمُ(٣٦)، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا(٣٧) بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ ٱلْخَوْفِ ٱلأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ(٣٨) عَلَى جَوَانِبِ ٱلْمَزْلَقِ(٣٩). وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى(٤٠) هذَا ٱلْعَسَلِ، وَلُبَابِ(٤١) هذَا ٱلْقَمْحِ(٤٢)، وَنَسَائِجِ(٤٣) هذَا ٱلْقَزِّ(٤٤). وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ(٤٥)، وَيَقُودَنِي(٤٦) جَشَعِي(٤٧) إِلَى تَخَيُّرِ ٱلأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِٱلْحِجَازِ(٤٨) أَوِ ٱلْيَمَامَةِ(٤٩) مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي ٱلْقُرْصِ(٥٠)، وَلاَ عَهْدَ لَهُ(٥١) بِالشِّبَعِ(٥٢) ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً(٥٣) وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى(٥٤) وَأَكْبَادٌ حَرَّى(٥٥)، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ ٱلْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً(٥٦) أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ(٥٧) وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ(٥٨) إِلَى ٱلْقِدِّ(٥٩)

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هذَا أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ(٦٠) ٱلْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَٱلْبَهِيمَةِ(٦١) ٱلْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا(٦٢)، أَوِ ٱلْمُرْسَلَةِ(٦٣) شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا(٦٤)، تَكْتَرِشُ(٦٥) مِنْ أَعْلاَفِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى(٦٦)، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً(٦٧)، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ(٦٨) طَرِيقَ ٱلْمَتَاهَةِ(٦٩)! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هذَا قُوتُ(٧٠) ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ ٱلأَقْرَانِ(٧١)، وَمُنَازَلَةِ(٧٢) الشُّجْعَانِ». أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ ٱلْبَرِّيَّةَ(٧٣) أَصْلَبُ عُوداً، وَٱلرَّوَاتِعُ ٱلْخَضِرَةَ(٧٤) أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ(٧٥) أَقْوَى وَقُوداً(٧٦)، وَأَبْطَأُ خُمُوداً(٧٧). وَأَنَا مِنْ رَسُولِ ٱللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ(٧٨)، وَالذِّرَاعِ(٧٩) مِنَ ٱلْعَضُدِ(٨٠). وَٱللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ ٱلْعَرَبُ(٨١) عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا(٨٢)، وَلَوْ أَمْكَنَتِ ٱلْفُرَصُ(٨٣) مِنْ

رِقَابِهَا(٨٤) لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ(٨٥) فِي أَنْ أُطَهِّرَ ٱلأَرْضَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ ٱلْمَعْكُوسِ(٨٦)، وَٱلْجِسْمِ ٱلْمَرْكُوسِ(٨٧)، حَتَّى تَخْرُجَ ٱلْمَدَرَةُ(٨٨) مِنْ بَيْنِ حَبِّ ٱلْحَصِيدِ(٨٩).

ومن هذا الكتاب، وهو آخره:

إِلَيْكِ عَنِّي(٩٠) يا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ(٩١)، قَدِ ٱنْسَلَلْتُ(٩٢) مِنْ مُخَالِبِكِ(٩٣)، وَأَفْلَتُّ(٩٤) مِنْ حَبَائِلِكِ(٩٥)، وَٱجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ(٩٦). أَيْنَ ٱلْقُرُونُ(٩٧) الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ(٩٨)! أَيْنَ ٱلأُمَمُ(٩٩) الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ(١٠٠) بِزَخَارِفِكِ(١٠١)! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ ٱلْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ(١٠٢). وَٱللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيًّا(١٠٣)، وَقَالِباً حِسِّيًّا، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ ٱللهِ(١٠٤) فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِٱلأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي ٱلْمَهَاوِي(١٠٥)، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ(١٠٦)، وَأَوْرَدْتِهِمْ(١٠٧) مَوَارِدَ ٱلْبَلاَءِ(١٠٨)، إِذْ لاَ وِرْدَ وَلاَ صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِىءَ(١٠٩) دَحْضَكِ(١١٠) زَلِقَ(١١١)، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ(١١٢) غَرِقَ، وَمَنِ ٱزْوَرَّ(١١٣) عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لاَ يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ(١١٤)، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ(١١٥) ٱنْسِلاَخُهُ(١١٦).

ٱعْزُبِي(١١٧) عَنِّي! فَوَٱللهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ(١١٨) لَكِ فَتَقُودِينِي. وَٱيْمُ ٱللهِ(١١٩) ـ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ ٱللهِ ـ لأَرُوضَنَّ(١٢٠) نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ(١٢١) مَعَهَا إِلَى ٱلْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِٱلْمِلْحِ مَأْدُوماً(١٢٢)، وَلأَدَعَنَّ(١٢٣) مُقْلَتِي(١٢٤) كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ(١٢٥) مَعِينُهَا(١٢٦)، مُسْتَفْرِغَةً(١٢٧) دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِىءُ السَّائِمَةُ(١٢٨) مِنْ رِعْيِهَا(١٢٩) فَتَبْرُكَ(١٣٠)؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ(١٣١) مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ(١٣٢) فَيَهْجَعَ(١٣٣)! قَرَّتْ(١٣٤) إِذاً عَيْنُهُ إِذَا ٱقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ

ٱلْمُتَطَاوِلَةِ(١٣٥) بِٱلْبَهِيمَةِ(١٣٦) ٱلْهَامِلَةِ(١٣٧)، وَالسَّائِمَةِ ٱلْمَرْعِيَّةِ!.

طُوبَى(١٣٨) لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا(١٣٩)، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا(١٤٠)، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا(١٤١)، حَتَّى إِذَا غَلَبَ ٱلْكَرَى(١٤٢) عَلَيْهَا ٱفْتَرَشَتْ أَرْضَهَا(١٤٣)، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا(١٤٤)، فِي مَعْشَرٍ(١٥٤) أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ(١٤٦) عَنْ مَضَاجِعِهِمْ(١٤٧) جُنُوبُهُمْ(١٤٨) وَهَمْهَمَتْ(١٤٩) بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ(١٥٠) بِطُولِ ٱسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ ٱللهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فَاتَّقِ ٱللهَ يَا بْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ.

اللغة

١ ـ **فتية** : جمع فتى الشاب، والجواد.
٢ ـ **المأدبة** : بضم الدال الطعام يدعى إليه القوم.
٣ ـ **أسرع إلى الشيء** : بادر مستعجلاً.
٤ ـ **تستطاب لك** : يطلب لك طيبها.
٥ ـ **الجفان** : بكسر الجيم جمع جفنة وهي القصعة، القدر.
٦ ـ **عائلهم** : فقير.
٧ ـ **مجفو** : مبعد ومطرود.
٨ ـ **القضم** : ما يؤكل ببعض الفم.
٩ ـ **ألفظه** : أطرحه وأرميه.
١٠ ـ **فنل** : من نال المطلوب أصابه.
١١ ـ **الاقتداء** : الإتباع.
١٢ ـ **الطمر** : بكسر الطاء الثوب الخلق البالي.
١٣ ـ **طعمه** : بضم الطاء ما يطعمه يأكله ويفطر عليه.
١٤ ـ **القرص** : الرغيف.
١٥ ـ **السداد** : التصرف الرشيد.
١٦ ـ **كنز المال** : ادخره لوقت الحاجة والكنز هو المال المدخر تحت الأرض.

١٧ ـ التبر : فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.
١٨ ـ ادخرت : خبأت لوقت الحاجة.
١٩ ـ الغنائم : جمع غنيمة ما يؤخذ في الحرب من الأموال والمواشي وغيرها.
٢٠ ـ الوفر : المال.
٢١ ـ حاز الشيء : ضمه وجمعه، حصل عليه.
٢٢ ـ الشبر : جمعه أشبار ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر ممتدين.
٢٣ ـ الأتان : أنثى الحمار.
٢٤ ـ الدبرة : هي التي عقر ظهرها فقل أكلها.
٢٥ ـ أوهى : أضعف.
٢٦ ـ أهون : أحقر وأذل.
٢٧ ـ العفصة : حبة كالبندقة تستعمل في دبغ الجلود ويتخذ منها الحبر وهي مرة تنفر النفس منها.
٢٨ ـ المقرة : المُرة.
٢٩ ـ فدك : قرية حجازية كانت لرسول الله أعطاها لابنته الزهراء ثم سلبها منها أبو بكر.
٣٠ ـ المظان : جمع مظنة وهو المكان الذي يظن فيه وجود الشيء.
٣١ ـ الجدث : القبر.
٣٢ ـ الفسحة : السعة.
٣٣ ـ أضغطها : ضيقها.
٣٤ ـ المدر : التراب المتلبد أو قطع الطين.
٣٥ ـ فرجها : جمع فرجة الفسحة بين الشيئين.
٣٦ ـ المتراكم : المجتمع بعضه فوق بعض.
٣٧ ـ أروضها : أذللها.
٣٨ ـ تثبت : تستقر.
٣٩ ـ المزلق : موضع الزلل الذي يخشى أن تزل القدم فيه.
٤٠ ـ المصفى : من الصفاء النقاء، الخالص من الشيء.
٤١ ـ اللباب : المختار الخالص من كل شيء.
٤٢ ـ القمح : الحنطة.
٤٣ ـ النسائج : جمع نسيجة المنسوج وهو المحاك.
٤٤ ـ القز : الحرير.
٤٥ ـ غلبه هواه : قهره.
٤٦ ـ يقودني : من قاد الدابة إذا مشى أمامها آخذاً بقيادها.

٤٧ ـ الجشع : شدة الحرص.

٤٨ ـ الحجاز : بالكسر وهي مكة والمدينة والطائف و٠ ـهم.

٤٩ ـ اليمامة : بلد كبير في أطراف اليمن.

٥٠ ـ القرص : الرغيف.

٥١ ـ لا عهد له بالأمر الفلاني : لا يعرفه.

٥٢ ـ الشبع : امتلاء البطن.

٥٣ ـ المبطان : عظيم البطن لكثرة الأكل.

٥٤ ـ بطون غرثى : جائعة.

٥٥ ـ أكباد حرى : عطشى.

٥٦ ـ داء : مرضاً.

٥٧ ـ البطنة : بكسر الباء الكظة، البطر والأشر.

٥٨ ـ حنّ : اشتاق.

٥٩ ـ القد : بالكسر سير من جلد غير مدبوغ.

٦٠ ـ الجشوبة : الخشونة والغلظة.

٦١ ـ البهيمة : جمعها بهائم كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما عدا السباع والطيور.

٦٢ ـ العلف : ما تأكله الدابة من تبن وحشيش.

٦٣ ـ المرسلة : المطلقة غير المقيدة، المهملة ترعى كما تشاء.

٦٤ ـ التقمم : أكل الشاة ما بين يديها بفمها.

٦٥ ـ تكترش : تملأ كرشها.

٦٦ ـ سدى : مهمل.

٦٧ ـ العبث : اللهو بدون فائدة.

٦٨ ـ الاعتساف : السلوك في غير الطريق الواضح.

٦٩ ـ المتاهة : الأرض يتاه فيها.

٧٠ ـ القوت : ما يأكله الإنسان ويقتات به.

٧١ ـ الأقران : جمع قرن وهو الكفو في المبارزة والقتال.

٧٢ ـ المنازلة : المقابلة في القتال والنزول إلى الأخصام.

٧٣ ـ الشجرة البرية : الشجرة التي تنبت في البر الذي لا ماء فيه.

٧٤ ـ الروائع الخضرة : الشجر والنبات النابت على الماء.

٧٥ ـ العذية : والعذي، بسكون الذال الزرع الذي لا يسقيه إلا ماء المطر.

٧٦ ـ الوقود : اشتعال النار.

٧٧ ـ الخمود	: من خمدت النار إذا سكن لهبها ولم يطفأ جمرها.
٧٨ ـ الصنو	: إذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكل واحدة هي صنو الأخرى.
٧٩ ـ الذراع	: من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى.
٨٠ ـ العضد	: وهو من المرفق إلى الكتف.
٨١ ـ تظاهرت العرب	: تعاونت واجتمعت.
٨٢ ـ تولى عنه	: تركه وأعرض عنه، وتولى هرب وفر.
٨٣ ـ أمكنت الفرص	: تسهلت وقدر ومكنّه من الشيء جعل له سلطاناً وقدرة.
٨٤ ـ الرقاب	: جمع الرقبة، العنق أو مؤخره.
٨٥ ـ سأجهد	: سأبذل وسعي وطاقتي وقدرتي.
٨٦ ـ المعكوس	: المقلوب.
٨٧ ـ المركوس	: من ركس الشيء ركساً إذا قلب أوله على آخره.
٨٨ ـ المدرة	: قطعة التراب الجامدة.
٨٩ ـ حب الحصيد	: حب النبات المحصود.
٩٠ ـ إليك عني	: اذهبي عني وابعدي.
٩١ ـ الغارب	: الكاهل، أعلى الظهر مما يلي العنق وحبلك على غاربك كناية من كنايات الطلاق، أي اذهبي حيث شئت.
٩٢ ـ إنسل	: تسلل انطلق في استخفاء، انتزع الشيء وأخرجه برفق.
٩٣ ـ المخالب	: جمع مخلب وهو للطيور كالظفر للإنسان.
٩٤ ـ أفلت	: تخلّصت.
٩٥ ـ الحبائل	: جمع حبالة وهي شبكة الصياد.
٩٦ ـ المداحض	: المساقط والمزالق.
٩٧ ـ القرون	: جمع قرن وهم الناس أهل زمان واحد.
٩٨ ـ المداعب	: جمع مدعبة من الدعابة وهي المزاح.
٩٩ ـ الأمم	: الجماعات، الجيل من الناس.
١٠٠ ـ فتنتهم	: من الفتنة وهي الابتلاء، الاستمالة إلى الشيء، الانحراف عن الدين.
١٠١ ـ الزخارف	: جمع زخرف ما يتزين به.
١٠٢ ـ مضامين اللحود	: الذين تضمنتهم القبور.
١٠٣ ـ مرئياً	: منظوراً.
١٠٤ ـ حدود الله	: ما فرضه الله من العقوبات.
١٠٥ ـ المهاوي	: المهالك.
١٠٦ ـ التلف	: الهلاك.

١٠٧ ـ الورود : الذهاب إلى الشيء والقدوم عليه ضد الصدور.

١٠٨ ـ البلاء : المصائب.

١٠٩ ـ وطأ الشيء : داسه.

١١٠ ـ الدحض : المكان الذي لا تثبت عليه القدم فتزلّ.

١١١ ـ الزلق : الزلل والسقوط.

١١٢ ـ اللجج : جمع لجة وهي معظم البحر وأعمق أماكنه.

١١٣ ـ أزور : تنحى ومال.

١١٤ ـ المناخ : مبرك البعير.

١١٥ ـ حان : اقترب.

١١٦ ـ انسلاخه : انقضاؤه من سلخ الجلد إذا كشطه ونزعه.

١١٧ ـ اغربي : أبعدي.

١١٨ ـ أسلس : انقاد.

١١٩ ـ أيم الله : صيغة من صيغ اليمين.

١٢٠ ـ لأروضن : من الرياضة التأديب والتعويد.

١٢١ ـ تهش : تفرح.

١٢٢ ـ المأدوم : ما يؤكل مع الخبز.

١٢٣ ـ لأدعن : لأتركن.

١٢٤ ـ مقلتي : عيني.

١٢٥ ـ نضب : جف وغار.

١٢٦ ـ معينها : ماؤها الجاري.

١٢٧ ـ استفرغ الشيء : انتهى منه.

١٢٨ ـ السائمة : الأنعام السارحة.

١٢٩ ـ رعيها : بكسر الراء الكلأ.

١٣٠ ـ تبرك : تنام وتستقر.

١٣١ ـ الربيضة : الجماعة الجالسة، الرابضة من الغنم، والربوض للغنم كالبروك للإبل.

١٣٢ ـ الزاد : ما يتخذ من الطعام للسفر.

١٣٣ ـ يهجع : ينام.

١٣٤ ـ قرت العين : إذا بردت، دعاء له.

١٣٥ ـ المتطاولة : الممتدة الطويلة وتطاول عليه العمر طال.

١٣٦ ـ البهيمة : كل ذوات أربع من الحيوان ما عدا السباع والطيور.

١٣٧ ـ الهاملة : المتروكة على رسلها.

١٣٨ ـ طوبى	: سعادة وغبطة وطوبى لك أي لك الحظ والعيش الطيب.
١٣٩ ـ الفرض	: الواجب.
١٤٠ ـ البؤس	: الضر وعركت بجنبها بؤسها كناية عن الصبر على الأذى.
١٤١ ـ الغمض	: بالضم النوم.
١٤٢ ـ الكرى	: النعاس.
١٤٣ ـ افترشت أرضها	: جعلت الأرض فراشاً لها.
١٤٤ ـ توسدت كفها	: جعلت كفها وسادة.
١٤٥ ـ معشر	: جماعة.
١٤٦ ـ تجافت	: تباعدت.
١٤٧ ـ المضاجع	: جمع مضجع موضع النوم.
١٤٨ ـ جنوبها	: من الجنب شق الإنسان وغيره.
١٤٩ ـ الهمهمة	: الصوت الخفي.
١٥٠ ـ تقشعت الذنوب	: زالت وذهبت كما يتقشع الغمام أي ينكشف.

الشرح

(أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان) وليمة دعي إليها والي البصرة عثمان بن حنيف فسمع علي بالنبأ فاهتز له وعاتب واليه بهذا العتاب الحاد ووعظه بهذه الموعظة البليغة التي تكشف عن مدى زهد الإمام ومراقبته لعماله وكيف كان يعيش هموم الناس وقضاياهم... وليمة يقيمها أحد أشراف البصرة وشبابها يدعو لها الوالي وعلى العادة فإن الوجهاء تخطب ود الولاة وأصحاب السلطة ليحفظوا لهم امتيازاتهم ويدوم لهم مقامهم... ويقبل الوالي فيسمع الإمام فيوجه إليه هذا التأنيب... أسرعت إليها ـ إلى الوليمة ـ وقد طلب لك صاحبها ما طاب من الطعام وما تنوع منه وتعدّد وراحت الجفان ـ القصاع ـ تنقل إليك احتفاء بك وأكراماً لك... دعيت فأسرعت بدون وعي أو تفكر وبدون أن تحسب لمن ولاك حساباً... بدون أن تفكر في الجياع ومن لا عهد لهم بالشبع... وبدون أن تنظر إلى من دُعي إليها وما وراءها وما يطلب منها...

(وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه) استبعد الإمام أن يستجيب ابن حنيف إلى هذه الوليمة... كان يرتكز في ذهن الإمام أن

كل من يوليه يجب أن يحفظ مقامه الذي يجلس فيه. . . والوالي خادم الأمة وكفيلها ومسؤول عن كل فرد فيها. . . يجب أن يراعي ما يصلحها ويقوم بما يؤدبها. . . يجب أن يكون دقيق الملاحظة يخترق بفكره ما هو حاضر إلى ما يأتي ويحيط بالأمور من جميع جوانبها ولذا يستبعد الإمام من ابن حنيف أن يستجيب إلى وليمة قوم الفقير منهم مطرود بعيد لم يدع إليها بينما الغني القادر هو المدعو. . . ومن هنا كان استياء الإمام للاستجابة لهذه الوليمة. . . الدعوة إلى الطعام حق للفقراء والمعوزين لأن إشباعهم فيه أجر وثواب وهو بالتالي فرض على الأمة أما أن يقصى هؤلاء ويكرم القادرون والمتمكنون فهذا مورد العجب والاستبعاد. . .

ثم أمره أن يجتنب كل أمر فيه شبهة حرام فلا يقترب منه أو يتناوله. . . أمره أن يدفع عنه كل ما يشتبه به ويأخذ ما يتيقن بحليته.

(ألا وأن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإن أمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد) بيّن عليه السلام أن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويتأسى بأفعاله ويتبع منهجه وطريقة حياته. . . فالإمام بالنسبة إلى المأموم قدوة ينظر إليه على أنه مثل أعلى يُقتفى أثره ويتبع في كل حركاته وتصرفاته.

ثم نبهه إلى أن إمامه في هذا الزمن فهو خليفة وابن حنيف وال من ولاته وعلى الولاة أن ينظروا إلى مسيرة الخليفة وطريقة حياته وكيف يتحرك فيفعل الجميع كما يفعل. . .

ثم بين طريقة حياته وأسلوب مسيرته. إنه إمام الولاة وإمام الخلق جميعاً ومع ذلك اكتفى من دنياه كلها التي يحويها ويحكمها وبيده خزائن الأموال مع ذلك اكتفى بطمريه بثوبيه الباليين.

وأما طعامه الذي كان يتناوله ويتغذى به فلا يتعدى قرصين من شعير غير منخول.

ثم عذرهم إذا لم يقدروا على فعل ما يفعل ولم يستطيعوا القيام بما يقوم به لأنهم يحتاجون إلى رياضة نفسية وإيمان بمستوى ما عنده وهم عاجزون عن ذلك ولكنه مع ذلك أمرهم أن يعينوه على أنفسهم بالورع الذي يعني ترك المحرمات وفعل الواجبات والاجتهاد وهو أن يبذلوا قدرتهم في تحري الحقيقة والعمل بها والعفة وهو التنزه عن كل أمر يشين والسداد وهو الرشاد الذي يأخذ بأيديهم إلى صالح الأعمال.

(فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي

طمراً ولا حزت من أرضها شبراً ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة) نفى عليه السلام بالقسم بالله أنه ما جمع شيئاً من ذهب الدنيا وفضتها ولا وفر شيئاً من غنائمها ومنافعها ومالها ولا هيأ رقعة يرقع بها ثوبه البالي كما أنه لم يملك من أرض الدنيا شبراً حقيراً يستفيد منه وينتفع به. . .

إنه علي الذي نفض يديه من مال الدنيا وتراثها يعلن ذلك ويقول: إنه لم يأخذ من قوت الدنيا إلا ما تأخذه الأتان التي عقر ظهرها فقل أكلها لانشغالها بألمها شبّهه بذلك لقلته وحقارته. . .

ثم بين احتقاره للدنيا ومدى صغرها في عينه فقال: إنها أحقر وأضعف من حبة عفص التي لا تقبلها النفس بل تتقزز منها وتنفر عنها وكذلك الدنيا في عين علي. . . .

(بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غدٍ جدث تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها) استثنى عليه السلام من ملك الدنيا كلها «فدك» وهي منحة أو ميراث من رسول الله إلى الزهراء ولكن حتى هذه لم تسلم لها بل ادعى أبو بكر حديثاً انفرد بنقله ولم ينقل عن لسان أحد من المسلمين يقول فيه عن النبي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وبهذا منع الزهراء ميراثها من أبيها النبي وقد احتجت عليها السلام بآيات الكتاب التي تعم المسلمين في الميراث وكذلك بآيات الميراث في الأنبياء وجاءت بالشهود ولكن كل محاولاتها صلوات الله عليها لم تنجح فقد قرر الخليفة أن يحرمها ميراثها لغرض يبتغيه وحاجة في نفسه. . . ولذا يقول الإمام فشحت عليها نفوس قوم أي بخلت بها وسلبتها من أصحابها وسخت عنها نفوس أهل البيت أشاحوا عنها ولم يجعلوها مورداً للتنازع والخصام كما يقع بين عوام الناس ثم رد الحكم إلى الله فهو الذي يحكم بها يوم القيامة ويقتص ممن عليه الحق ووقع منه الظلم ثم استفهم مستنكراً على نفسه ليعلمنا وغيرنا أيضاً بأنه ماذا يفعل بفدك وغير فدك من متاع الدنيا وماذا ينفعه كل ذلك ونهايته الأخيرة إلى قبر مظلم لا يُبقى لهذا البدن أثراً ولا يُنقل منه خبر ومن تفكر في ذلك المصير وتلك النهاية سقطت من عينه كل أموال الدنيا ومتاعها فضلاً عن فدك وما فيها. . .

(وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر وسد فرجها التراب المتراكم وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق) وهذه هي النهاية حفرة صغيرة لو أراد حافرها زيادتها

وتوسيعها وتكبيرها عما هي عليه لم تنفع صاحبها المقيم فيها شيئاً بل الحجر والمدر سيضغط عليه وسيسد التراب كل ثغرة أو نافذة فيها... سينقطع عنها الهواء وتضيق على ساكنها مهما أوسعتها يدا حافرها... وإذا كانت هذه النهاية لا بد منها وهذا القبر لا بد منه فماذا يعمل علي إنه يريد أن يبيّن لنا طريقته في إسعاد نفسه... إنه يريد بعزوفه عن الدنيا وتقشفه أن يروض نفسه بالتقوى أي يحملها عليها ويعودها منهاجها حتى تأتي يوم القيامة يوم الحساب والعقاب والفزع آمنة مطمئنة وتستقر أقدامها في الأماكن التي تزل فيها أقدام العصاة وأهل التمرد والنفاق...

(ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذه القمح ونسائج هذا القز ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع ـ أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل:

وحسبـك داء أن تبيـت ببطنـة وحولك أكباد تحن إلى القد)

بين عليه السلام أن زهده في الطيبات لم يكن عن حاجة وفقر أو عجز عن تحصيلها بل لو أراد ذلك لاهتدى إليه ولوقع كل ذلك تحت يديه... لو أراد لوصل إلى الطريق الموصل إلى العسل المصفى ولباب القمح وأحسن منسوجات الحرير وأنعمها لوصل ولكنه عليه السلام مع معرفته بكل الطرق الموصلة إلى ذلك وكل الأسباب المؤدية إلى هذه الأمور إنه لم ولن يترك لهواه أن يقوده ويدفعه إلى أن يختار شيئاً من هذه الأطعمة... كيف يتخير الطعام الطيب؟ وهو يفكر في أقاصي ما يحكمه من البلاد.... يفكر في الحجاز واليمامة وغيرهما فلعل أحداً من سكانهما وسكان غيرهما لا ينال رغيف الخبز ولم يشبع منذ زمن طويل...

إنه نهج فريد في تاريخ الحكام... نهج علي الذي يعيش في الدنيا مع كل فرد من أفراد الأمة... إنه يفكر في أولئك الناس الذين ربما لم يشبعوا ولم يحصلوا على رغيف يسدوا به جوعتهم... فهل يتعلم الحكام منه دروس العفة والحفاظ على شعوبها؟!... إنه الطمع والجشع ـ الذي ينفيه الإمام عن نفسه ـ هو الذي يقود الحكام إلى أن يعيشوا الترف والبذخ والإسراف دون أن يفكروا في شعوبهم ومن يحكمونهم... فليمت كل الشعب وليبقى الحاكم على ملذاته وشهواته...

ثم ينفي عن نفسه أن يأكل فيمتلىء وفي المقابل أن يكون هناك بطون جياع وأكباد عطشى تشتاق وترغب بالقليل القليل.

ثم نفى أن يكون مصداقاً لقول القائل وهو حاتم بن عبد الله الطائي ومفاد الشعر أن من المرض الشديد أن تأكل حتى تمتلىء وحولك شعب يتمنى أن يطال القد وهو الجلد الذي لا يؤكل ولا يستساغ فأنت تأكل حتى تمرض وتبذح وتسرف وشعبك يرمق الحياة فيتمنى أن تقع يده على كسرة ليسد جوعته ويرفع ألم المجاعة عنه. . .

(أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش) يرفض الإمام كل قناعته بإمرة المؤمنين ولا يكتفي بهذه الاسم إذا لم يشارك شعبه في المصائب والنكبات ويعيش معه في قساوة الدهر وصعوباته. . . إنه أمير المؤمنين فيجب أن يكون أسوة لهم وقدوة يعيش الحرمان قبلهم ويعيش الحاجة قبلهم ويعيش الجوع قبل أن تجوع الأمة وهذه هي سيرة العظماء على مدى التاريخ يتساوون مع أضعف رعيتهم بل يمارسون على أنفسهم رياضة الحرمان الاختيارية ليضربوا لشعبهم المثل الصالح فيصبر الفقير عند رؤيتهم ويتطلع إلى غد أفضل مما هو فيه.

(فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها أو أترك سدى أو أهمل عابثاً أو أجر حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة) نبّه عليه السلام على سبب تركه للطيبات بأنه لم يخلق للشغل بها أو لقضاء الوقت في تناولها كما هو حال الدابة المربوطة على معلفها همها أن تأكل بنهم ورغبة لاهية عن كل أمر آخر أو يكون كالبهيمة المرسلة التي أهملها أصحابها فهي تشتغل بما يقع في طريقها فتلمه بشفتيها وهكذا تبقى حتى تمتلىء وتسمن وتكترش لاهية عما يراد بها وأن وراء سمنها ذبحها. . .

كما بين أنه لم يخلق من أجل أن يترك مهملاً يعمل ما يشاء دون حسيب أو رقيب أو يترك ليعبث في الحياة دون غاية كريمة أو هدف شريف أو يكون ممن ينشر الضلال والفساد في الأرض تائها لا يدري غايته أو نتيجة سيره، إنه لم يخلق من أجل ذلك كله بل خلق من أجل أن يتكامل ويصل إلى مرضاة الله. . .

(وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان. . . ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً والروائع الخضرة أرق جلوداً والنابتات العذية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء والذراع من العضد) دفع عليه السلام ما يمكن أن يخطر في الأذهان وهو أن من كان هذا هو طعامه فإنه يضعف بدنه ويرق عوده وهذا يؤدي إلى قعوده عن مقابلة الأبطال وقتال الشجعان ممن على شاكلته ومن المعروف أن الأبطال يقصدون التغذية المفيدة التي

تنفع في تقوية البدن فكيف يكون الإمام في قوته عكس ذلك وهنا يجيب.

إن الشجرة البرية التي تعيش على الطبيعة بدون ري ولا عناية تكون أصلب عوداً وأقوى على تحمل عوامل الزمن القاسية وأنا كذلك كهذه الشجرة بينما غيري حاله كحال النباتات التي تعيش ضمن عناية ويكون الماء مستمراً على عروقها فإنها لا تقوى على الصعاب والشدائد فبمجرد أن تقسو الطبيعة شيئاً ما تضعف وتذبل وقد تموت وكذلك شبه نفسه بالنباتات التي لا ترتوي إلا بماء المطر وهذه أسرع لاشتعال النار وأبطأ في الانطفاء عكس غيرها ممن يشرب الماء باستمرار.

وكذلك شبه نفسه من رسول الله كالضوء من الضوء فرسول الله هو الضوء الأول وعلي هو من ذلك الضوء والنبي يحمل أقوى عقيدة في نفسه وأنا أحمل كما يحمل... منه أخذت وعن يديه تلقيت فأنا مثله في تحمل الصعاب وملاقاة الأبطال والشجعان هذا على أن تكون العبارة كالضوء من الضوء...

أما لو كانت كالصنو من الصنو يعني أنا ورسول الله من أصل واحد أصلهما عبد المطلب...

ثم شبه شدة قربه والتحامه برسول الله بالذراع والعضد فإنهما أقرب الأعضاء لبعضهما ويتقوى أحدهما بالآخر وعلي كان سند النبي ويده التي يبطش بها...

(والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها) أقسم عليه السلام على شجاعته وأن العرب كلها لو اجتمعت وتألبت على قتاله لم يفر منها هارباً كما أنه لو سمحت له الظروف واكتملت العدة وساعده القدر فقدر عليها لأسرع إلى تأديبها والاقتصاص منها بدون تأخير لأنه يقاتل على الحق وهم يقاتلون على الباطل فوجب المبادرة إلى قتالهم وتأديبهم...

(وسأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد) بين عليه السلام أنه سيكافح ويجاهد بكل طاقاته من أجل أن يقضي على معاوية وقد وصفه بأنه معكوس قد انقلب على وجهه وارتد عن الإنسانية فغلبت عليه شهوته فأصبح كالبهيمة وأضحى وجوده بين المسلمين مضراً مفسداً كما هي الحال في المدرة ـ التراب المتجمد ـ التي تفسد الحب إن بقيت فيه فلذا يجهد الزراع على تنقية الحب من المدرة والزؤان وغيرهما مما يشوه الحب ويجعل عدم الرغبة فيه وكذلك معاوية أضحى مفسداً يجب تطهير الصفوف المسلمة منه...

(إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك قد انسللت من مخالبك وأفلت من حبائلك واجتنبت الذهاب في مداحضك) تنكر علي للدنيا وأبعدها عن ساحته فلا أثر لها في سلوكه ولا في مطعمه ولا في مسيرته... إنه يخاطبها وكأنها تسمع... نعم لعلّ أهلها وعشاقها يسمعون... أبعدي عني يا دنيا أنت وما تشائين مع غيري أما أنا فقد هجرتك وخرجت من بين أظافرك التي نشبت في الناس فلم يعد لهم قدرة على الخلاص منها، لقد نجحت في التخلص من شراكك التي نصبتها لتصطادي بها فكل شهواتك وزينتك ومتعك حبائل تصطادين بها الناس وأنا في منجاة من ذلك كما أني اجتنبت وابتعدت عن مواضع الزلل والعطب فيك فكل شبهة ابتعدت عنها وكل لذة هجرتها وكل متعة طلقتها...

(أين القرون الذين غررتهم بمداعبك، أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك فها هم رهائن القبور ومضامين اللحود) الخطاب للدنيا ويراد به أهلها... سؤال يراد به تنبيه الناس وإيقاظهم على حقيقة مرة قاسية... إنها القراءة عن الناس الذين خدعتهم الدنيا بحلاوتها ولذتها فذاقوها فلما منعتهم عنها طلبوها من الحرام.

وكذلك سؤال عن الأمم والشعوب الذين انحرفوا عن الحق بزخارف الدنيا الفانية وزينتها التي لا تدوم ولا تبقى إنهم جميعاً أضحوا في القبور لا يستطيعون الخروج منها أو الفكاك من عذابها، لقد احتوتهم القبور فلا خروج لهم منها.

(والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وأمم ألقيتهم في المهاوي وملوك أسلمتهم إلى التلف وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر) أقسم عليه السلام أن الدنيا لو تتجسد في الخارج برجل يُرى أو شيء محسوس يُدرك لأقام عليها الحدود المفروضة والعقوبات المنصوصة وبيّن سبب ذلك بأنها قد غرت العباد وخدعتهم بالأمنيات فحببت إليهم الرياسة والزعامة والمال فسعوا من أجل ذلك في طرق الحرام وكذلك ألقت أمماً وشعوباً في المهالك وقضت عليهم فلم يبق منهم أحد.

وأيضاً يقيم عليها الحدود لما لحق الملوك حيث أسلمتهم إلى التلف وأوصلتهم إلى موارد المصائب والرزايا وهي موارد ليس من شأنها أن يكون إليها الورود ولا منها الصدور لأنها غير مرغوبة فلا يردها الإنسان ولا يصدر عنها لأن من دخلها لا يخرج منها... إنه الموت الذي لا يرغب فيه راغب ومن حل به لا يصدر عنه...

(هيهات من وطىء دحضك زلق ومن ركب لججك غرق ومن أزور عن حبائلك

وفق والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه) بَعُدَ ما تريدين مني فلن أكون من روادك وطلابك. . . ثم بين بعض الموارد المسببة للبعد عنها والنفرة منها:

١ ـ من وضع أقدامه وداس على مواضع الزلل فيها زلق وسقط وهو تشبيه للشهوات التي إذا ارتكبها الإنسان وقام بها استرسل فيها واستكثر حتى يسقط في المعاصي ويهبط في مهاوي العذاب.

٢ ـ من طلب الدنيا وخاض غمار طلبها غرق فيها فجرّه ذلك إلى طلبها من غير حلها وقد يصعب عليه تحقيق آماله في الطرق المعتادة الكريمة فينحرف إلى الطرق الباطلة الفاسدة ولا يستطيع بعد ذلك أن يخرج فيهلك.

٣ ـ بيّن الطريق الصحيح والسليم الذي ينجيه منها وهو أن يبتعد عن شراكها وفخاخها التي تنصبها على طريق الناس فتصطاد بها الضعفاء ومصائدها هي الشهوات والميول الباطلة والدنيا المحرمة وغيرها. . .

ثم بين عليه السلام طريقة من سلم منها، أنه إذا سلم منها واستطاع رفضها والبعد عنها ارتاح قلبه ولم يشتغل بها أو يفكر بما فيها، إن مَنْ أصبحت ساقطة من عينه لا يبالي في أي الأماكن استقر وعلى أي الأحوال كان يتساوى عنده الصحة والمرض، الفقر والحاجة الأمان والخوف لأنه ينظر إلى الدنيا كيوم اقترب أفوله وغروبه فهو ينتظر ما بعده ولا يلتفت إليه. . .

(اعزبي عني فوالله لا أذل لك فتستذليني ولا أسلس لك فتقوديني) أكد على رفض الدنيا مجدداً وأبعدها عن نفسه وأقسم بالله أنه لن يخضع لها ولما فيها من شهوات فتحاول عندها أن تستذله وتستعبده كما رفض التساهل معها لئلا تقوده إلى ما تريد من زينتها ومفاتنها وما فيها من شهوات.

(وأيم الله ـ يميناً استثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً ولأدعن مقلتي كعين ماءٍ نضب معينها مستفرغة دموعها) أقسم عليه السلام يميناً استثنى مشيئة الله فيها ليأخذن نفسه برياضة شديدة صعبة تصل فيها الحال أن نفسه تفرح إلى رغيف الخبز وتكتفي به مطعوماً وبالملح مأدوماً فيقهر بذلك قوة الشهوة إلى الأكل التي هي مبعث أكثر الشهوات الأخرى وبذلك يقطع مادتها ومصدرها. . .

وكذلك أخذ على نفسه أن يستفرغ دموع عينيه حتى تجفا ولا يبقى مصدر يرفدهما

ويغذيهما شوقاً إلى الله وتطلعاً إلى ما عنده وهذه حالة المحب مع من يحب. . . فإذا صدق الحب في القلب انعكس دمعة تترقرق وشوقاً يتحرك وحرارة تندفع تطلب من يطفؤها ولا يطفؤها إلا اللقاء. . .

(أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجع قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية) استنكر في هذا الكلام على نفسه أن يكون ربيضة أو سائمة فإن السائمة وهي النعم إذا أكلت وشبعت تبرك في مباركها ناعمة البال لا تفكر بغيرها ولا بما يهيىء لها وكذلك عندما تشبع الربيضة وهي الأغنام الرابضة في مرابضها التي شبعت مما توفر لها من الأعشاب فتربض مطمئنة مرتاحة لا يعكر صفو فكرها أمر.

وهكذا علي يأكل زاده وما ادخره ثم يغادر إلى مضجعه ومقر نومه قرير العين لا يفكر برعيته ولا يعيش همومهم وآلامهم وما ينتابهم ويمر عليهم. . .

فمن يكون هكذا يتساوى مع البهيمة وحاشا لعلي أن يمر في ذهنه هذا الأمر أو يعرض له مثله، معاذ الله أن يسقط ذلك الشموخ من علوه إلى مستوى السائمة.

ثم قال: «قرت إذاً عينه» إنكاراً واستهزاءاً بأن يكون حاله كذلك إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية أي معاذ الله أن يكون كذلك بعد الجهاد والكفاح والقتال في سبيل الله. . . وكيف يختصر تاريخ البطولات بطوله وعمقه ليتحول ذلك العملاق في حياته وعدم مبالاته إلى بهيمة مهملة متروكة تصيب ما تشاء أو يتحول إلى سائمة نعم ترعى من البراري والقفار ومواطن الخير ما تشاء. . . إنه ليس كذلك ولن يكون كذلك. . .

(طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها وعركت بجنبها بؤسها وهجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها) نبه عليه السلام أن النفس إذا استجمعت هذه الصفات كانت من أهل السعادة والكرامة.

١ ـ أدت إلى ربها فرضها: فما أوجبه الله عليها قامت به وأدته بتمامه وكماله.

٢ ـ عركت بجنبها بؤسها: صبرت على بؤسها وشقائها وما يمر عليها من محن ومصائب فلم تخرج به عما يرضى الله إلى ما يغضبه. . .

٣ ـ هجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها: لم تنم في الليل عندما تنام العيون ولم يغمض لها جفن لأنها مشغولة بالتهجد

والعبادة ومناجاة الله والانقطاع إليه فإذا غلبها النعاس وثقل لم يكن لها فراش إلا الأرض التي تتهجد عليها فتفترشها بدلاً من فراشها الناعم وتتوسد كفها بدلاً من المخدة والوسادة المعدة للنوم فهي نفس لا تتكلف فراشاً ولا مخدة لأنها في شغل عنهما . . .

(في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم وهمهمت بذكر ربهم شفاههم وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾) تمنى الإمام أن يكون معه جماعة طيبة أصحاب عشرة حسنة وصفهم بعدة صفات.

١ ـ أسهر عيونهم خوف معادهم: إنهم يتذكرون الحساب وما فيه من الثواب والعقاب فتسهر عيونهم في سبيل الله تحرس العقيدة وتهدي الناس وتتهجد وتتعبّد وتبكي في جوف الليل خشية من الله وخوفاً من عذابه.

٢ ـ تجافت عن مضاجعهم جنوبهم: لا ينامون ليلاً لانشغالهم بعبادة ربهم ومناجاته كما حكى ذلك عنهم في قوله تعالى: **﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾**.

٣ ـ وهمهمت بذكر ربهم شفاههم: فهم في ذكر دائم. . . تسبيح وتهليل وتحميد.

٤ ـ تقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم: فلكثرة استغفارهم تتمزق ذنوبهم وتنمحي فلا يعود منها أثر ولا فيها خبر.

ثم أشار إلى أن هؤلاء الصفوة هم الذين يشكلون حزب الله وأتباعه وحزب الله هم الغالبون. . .

(فاتق الله يا ابن حنيف ولتكفف أقراصك ليكون من النار خلاصك) أمر ابن حنيف في آخر رسالته أن يتقي الله وأن تكفف الأقراص وهو نهى متوجه إلى أقراصه وإن أراد نفسه ليكون أوقع في الخطاب هذا على صيغة تكفف أما على صيغة تكفك فهو أمر بكفاية الأقراص المعدودة دون زيادة حتى يكتب له النجاة من النار. . .

٤٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ[١] بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ[٢] بِهِ نَخْوَةَ[٣] ٱلأَثِيمِ[٤]، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ[٥] الثَّغْرِ[٦] ٱلْمَخُوفِ[٧]. فَٱسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ[٨]، وَٱخْلِطِ[٩] الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ[١٠] مِنَ اللِّينِ، وَٱرْفُقْ[١١] مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَٱعْتَزِمْ[١٢] بِالشِّدَّةِ[١٣] حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ، وَٱخْفِضْ[١٤] لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ[١٥] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ[١٦] وَالنَّظْرَةِ[١٧]، وَٱلإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ[١٨]، حَتَّى لَا يَطْمَعَ ٱلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ[١٩]، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ أستظهر به : أستعين.
٢ ـ أقمع : أقهر وأكسر.
٣ ـ النخوة : الكبر.
٤ ـ الأثيم : فاعل الإثم، المذنب.
٥ ـ اللهاة : لحمة مدلاة في سقف الفم على باب الحلق.
٦ ـ الثغر : ما يمكن أن يهجم منه العدو.
٧ ـ المخوف : الذي يخاف جانبه.
٨ ـ أهمه الشيء : أقلقه وأزعجه وأحزنه.
٩ ـ أخلط : أمزج.
١٠ ـ الضغث : أصله القبضة من الحشيش والمختلط من رطبه ويابسه ويقصد به هنا الخلط.

١١ ـ الرفق : اللطف ولين الجانب.

١٢ ـ اعتزم : خذ والزم.

١٣ ـ الشدة : نقيض اللين.

١٤ ـ خفض جناحه : تواضع مأخوذ من خفض جناح الطائر لفراخه.

١٥ ـ آس : سوي بينهم وأعدل.

١٦ ـ اللحظة : جمع لحظات المرة من اللحظ ولحظ فلان نظر إليه بمؤخر العين.

١٧ ـ النظرة : المرة من النظر، اللمحة وربما قيل: إن النظرة أعم من اللمحة.

١٨ ـ التحية : السلام عليه.

١٩ ـ الحيف : الجور.

الشرح

(أما بعد فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأسد به لهاة الثغر المخوف) هذه الرسالة كتبها الإمام إلى بعض عماله الصالحين ويظهر أنه شخص له موقعه في القيادة وولاية هذا المصر بالذات وقد أثنى عليه بأمور:

١ ـ إنك ممن أستظهر به على إقامة الدين: فأنت أيها العامل من الرجال الذين آقوى بهم وأستعين على إقامة الدين ونشر أحكامه وتطبيق أوامره وتنفيذ ما يريد.

٢ ـ أقمع به نخوة الأثيم: أكسر به شوكه العاصي وتكبره وما يعيشه من التمرد والانحراف.

٣ ـ أسد به لهاة الثغر المخوف: أدفع به ما يمكن أن ينفذ منه العدو، فكل ناحية أتخوف من العدو أن يدخل منها فأنت قادر على منعه ورده عنها. . .

(فاستعن بالله على ما أهمك واخلط الشدة بضغث من اللين وارفق ما كان الرفق أرفق واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك وألن لهم جانبك وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك والسلام) بعد أن أثنى عليه بما تقدم أمره بهذه الخصال التي هي من مكارم الأخلاق للوالي ومن تولى أمور الناس وتنتظم ضمن أمور:

١ ـ استعن بالله على ما أهمك: فإذا وقعت في شدة أو أصابتك مصيبة أو اشتغل فكرك في أمر مهم أوجب تشويشه فعد إلى الله وارجع إليه واطلب الإعانة منه فإن أبواب

الفرج تفتح بسرعة فالعبد يجب أن يستعين بالله في كل أموره وخصوصاً فيما يهمه . . .

٢ ـ اخلط الشدة بضغث من اللين: على الوالي أن يستعمل الشدة والقوة من غير ظلم وأن يستعمل اللين من غير ضعف فيمزج بين الاثنين فتحصل الحالة الوسطى المعتدلة التي يجب أن تتوفر في الحاكم.

يجب عليه أن يستعمل الرفق واللين في موضعه وموقعه إذا كان هو الدواء في هذه الحالة كما أن على الوالي أن يستعمل الشدة والعنف إذا لم ينفع إلا ذلك.

٣ ـ اخفض للرعية جناحك: كن متواضعاً لشعبك استقبله واسمع إليه وانصفه من كل ظالم ولا تحتجب عنه تكبراً عن لقائه والاستماع إليه.

٤ ـ ابسط لهم وجهك: تلقاهم بالوجه المبتسم الذي يدل على حبك ومودتك لهم.

٥ ـ ألن لهم جانبك: لا تأخذهم بالشدة والعنف والقسوة.

٦ ـ أمره أن يواسي بينهم ويساويهم مع بعضهم في لحظات العيون والنظر إليهم والإشارة والتحية فلا يشير إلى واحد دون الآخر ولا تلقي التحية ـ وهي السلام ـ على فرد بحيث تختلف عن الآخر.

وهذه المساواة في كل هذه الأمور الصغيرة ليحسم مادة الطمع عند الكبار وأصحاب الجاه فإنهم عندما يرون العدل والمساواة في الصغير لا يجرؤون على أن يطلبوا من الحاكم ظلم أحد في قضية من القضايا . . .

وكذلك عندما يرى الضعفاء هذه المساواة لا يدخل إلى قلوبهم اليأس من عدل الحاكم وإنصافه بل يطالبون بحقهم بكل جرأة . . .

٤٧ ـ ومن وصية له عليه السلام

للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى ٱللهِ، وَأَلاَّ تَبْغِيَا[١] الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلاَ تَأْسَفَا[٢] عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ[٣] عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِٱلْحَقِّ، وَٱعْمَلاَ لِلأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً[٤]، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي[٥]، بِتَقْوَى ٱللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ[٦]، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ[٧]، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «صَلاَحُ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ».

ٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلأَيْتَامِ، فَلاَ تُغِبُّوا[٨] أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ[٩].

وَٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِٱلْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي الصَّلاَةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ[١٠] دِينِكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لاَ تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا[١١].

وَٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ.

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ(١٢) وَالتَّبَاذُلِ(١٣)، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ(١٤) وَالتَّقَاطُعَ(١٥). لاَ تَتْرُكُوا ٱلأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

ثم قال: يَا بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ(١٦) تَخُوضُونَ(١٧) دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ». أَلا لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي.

ٱنْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هذِهِ، فَٱضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلاَ تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَٱلْمُثْلَةَ(١٨) وَلَوْ بِٱلْكَلْبِ ٱلْعَقُورِ».

اللغة

١ ـ تبغيا : من بغيت الشيء إذا طلبته وأردته.
٢ ـ أسف : تحسر.
٣ ـ زوي : قُبض ومنع.
٤ ـ الخصم : جمع خصوم وخصام المخاصم والمنازع.
٥ ـ بلغه الكتاب : وصل إليه، انتهى إليه.
٦ ـ نظم أمركم : تنظيم أموركم.
٧ ـ صلاح ذات البين : الصلح وترك الخصومة.
٨ ـ لا تغبوا : لا تجيعوا وأصلها أتاه يوماً وتركه آخر ومنه ذرغباً تزدد حباً.
٩ ـ سيورثهم : يفرض لهم من ميراث جيرانهم.
١٠ ـ العمود : جمعه أعمدة وعمد ما يقوم عليه البيت وغيره.
١١ ـ لم تناظروا : لم تؤخر عقوبتكم بل تعجّل، أو لم ينظر إليكم باحترام.
١٢ ـ التواصل : ضد التهاجر، وهو اللقاء بما يتعارف به.
١٣ ـ التباذل : مداولة البذل فيما بينكم والعطاء.
١٤ ـ التدابر : التقاطع والتعادي.
١٥ ـ التقاطع : ضد التواصل، أن لا يتصل أحدهما بالآخر بما هو متعارف.
١٦ ـ لا ألفينكم : لا أجدنكم من ألفاه إذا وجده.

١٧ ـ خاض في الماء : دخله ومشى فيه والخوض في دماء المسلمين سفكها.
١٨ ـ المثلة : التنكيل والتشويه.

الشرح

(أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما وقولا بالحق واعملا للأجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً) وصية عظيمة من رجل العظمة في لحظاته الأخيرة... وصية إنسان عاش الحياة بعمقها واختبرها على حقيقتها فجاءت كلماته عصارة هذه الحياة تحكي واقعها وتنطق بصدق ما فيها...

أوصى عليه السلام ولديه وأراد أن تسمع الأمة كلها هذه الوصية لأنها جاءت عامة شاملة تتناول كل فرد مسلم... وهي وصية بأمور.

١ ـ الوصية بتقوى الله: وهي أهم ما أوصى به الإمام في حياته وفي جميع المناسبات والأحوال وهي رأس كل خير...

٢ ـ أن يرفضا الدنيا ولا يطلباها وإن هي طلبتهما وأرادتهما كما أن عليهما أن لا يتحسرا ويتأسفا على شيء منعا منها أو لم يحصلا عليه من متعها... وهذا تزهيد في الدنيا وتحقير لها...

٣ ـ قولا بالحق: انطقا بالحق مهما كان مراً وصعباً فإن كلمة الحق ترضي الله وتريح الضمير...

٤ ـ اعملا للأجر: فإن العقلاء يعملون من أجل ما يدوم ويبقى والأجر في الآخرة يبقى ويدوم وهذا نهي عن العمل رياءً أو سمعة أو لأجل أمر من أمور الدنيا.

٥ ـ كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً: أن يقفا في وجه الظالم ويمنعاه عن ظلمه كما أمرهما أن يكونا إلى جانب المظلوم لتحصيل حقه ورفع الظلم عنه...

(أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم فإني سمعت جدكما ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام») بعد أن أوصى ولديه وصية خاصة لهما ـ وإن كان ذلك يشمل الأمة أيضاً ـ أراد أن يوصي ولديه وأهله ومن يصله كتابه هذا من الأمة بوصايا عامة وأهمها:

١ ـ تقوى الله: وهي حالة الحذر من الله والخوف منه ومراقبته وأن يعيش كل فرد في الأمة روحاً ونفساً هذه الحالة. . .

٢ ـ نظم الأمور: أن ينظموا أمورهم ويرتبوها فلا يعيشوا الفوضى والاضطراب فتختل أمورهم. . . فالفرد يجعل لنفسه برنامجاً يتحرك على أساسه والأمة تجعل لكل فرد دوراً يتحرك فيه بكفاءة وقدرة ونجاح وهكذا كل واحد يأخذ موقعه ودوره وما يحقق له النجاح. . .

٣ ـ إصلاح ذات البين: أن يكونوا فيما بينهم على وفاق وانسجام وإذا حصل أمر عكّر هذا الانسجام وفرّق بين الأحبة فما عليهم إلا أن يصلحوا فيما بينهم ويرفعوا حالة الشقاق والخلاف وقد ذكر حديث رسول الله وأن السعي في الإصلاح بين المختلفين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

ووجه الأفضلية كما ذكره بعضهم: إن أهم المطالب للشارع جمع الخلق على سلوك سبيل الله وانتظامهم في سلك دينه ولن يتم ذلك مع التنازع وتنافر الطباع وثوران الفتنة بين الناس فكان صلاح ذات البين مما لا يتم أهم مطالب الشارع إلا به. وهذا المعنى غير موجود في الصلاة والصيام لإمكان المطلوب بدونهما فتحققت أفضليته من هذه الجهة. . .

٤ ـ **(الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم)** أوصاهم بالأيتام الذين مات آباءهم ولم يبق لهم من يعيلهم أو يتكفل بهم فهم بحاجة إلى من يقضي حاجتهم. . . إياكم أن يجوعوا وكنى عن جوعهم بغبّ الأفواه الذي يعني عدم تتابع الأكلات بل يأكل وجبة ويحرم أخرى فلا يحصل الشبع باستمرار. . . أوصاهم أن لا يضيعوا بوجودهم بل يحفظ الأيتام بالسؤال عنهم والاهتمام بهم وتوفير ما يريدون. . .

٥ ـ **(والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم)** أوصاهم بالجيران أرحاماً كانوا أو غير أرحام من المسلمين أو الكفار فإن حق الجار عظيم ومن عظمته أن رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أوصى بالجيران حتى كاد أن يورثهم من جيرانهم. . . وتحديد الجيران موكول إلى العرف فهو الذي يحدد ذلك وقد حددت بعض الأحاديث ما اتصل بدارك إلى أربعين داراً من جميع الجهات. . .

وقد حددت بعض الروايات أن للجار الكافر حق واحد هو حق الجوار وللجار المسلم حقان: حق الجوار وحق الإسلام وللجار الرحم المسلم ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق الإسلام، وحق الرحم. . .

٦ ـ **(والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم)** الوصية بكتاب الله الذي هو الحبل الممدود من السماء إلى الأرض دعاهم إلى تنفيذ أحكامه وتشريعه وأن يكونوا المتقدمين في حمله والعمل به. . .

٧ ـ **(والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم)** أوصى بالصلاة أن يقيموها بشروطها وأجزائها وشبهها بالنسبة إلى الواجبات بعمود الخيمة التي تقوم عليه وهكذا الصلاة عمود الدين فإن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها كما في الحديث. . .

٨ ـ **(والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا)** الوصية بالبيت الحرام أن يحجوا إليه ويقصدوه ولا يتركوا زيارته وإقامة مناسكه مدة عمرهم وحذرهم أن يتركوه فلا ينظر الله لهم بالرحمة ولا يحفظهم بل يأخذهم بالعذاب والهوان. . .

٩ ـ **(والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله)** أوصاهم بالجهاد في سبيل الله وقد نص على الجهاد بالأموال بأن يبذلوها للمحتاج ولا يبخلوا بها على عباد الله والجهاد بالنفس وهو بذلها في سبيل الله فيقتل في ساحات الجهاد ومن أجل الحق وإعلاء كلمة الله.

والجهاد باللسان المتقوم بكلمة الحق في وجه السلطان الظالم الذي يريد أن يأخذ شرعية لمواقفه وأعماله فتأتي كلمة الحق لتعرّيه وتسقطه وتقضي عليه.

١٠ ـ **(وعليكم بالتواصل والتباذل)** أي يصل كل منهم الآخر بكل وجه سواء كان مادياً أو معنوياً زيارة أم هدية وكذلك أوصاهم بالتباذل أي يبذل كل واحد منهما للآخر ما يحتاجه من مال وجاه ومعونة. . .

١١ ـ **(وإياكم والتدابر والتقاطع)** حذّرهم من أن يتدابروا أي يعطي كل واحد منهما ظهره لأخيه فلا يسأل عنه ولا يهتم به كما نهاهم عن التقاطع في مقابل ما أمر به من التواصل. . .

١٢ ـ **(لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)** لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي قوموا بهما لأنهما فرضان أوجبهما الله على المسلم بحسب ظروفه وأحواله وفيما يناسب أحوال المكلف شروطاً وأسلوباً وطريقة.

ثم خوفهم عاقبة التقصير في هذين الواجبين وأن نتيجة تركهما أن يتولى الأشرار

على رقاب العباد فيفسدوا حال الأمة وتعم الفوضى وتتعطل أحكام الدين وتبطل سنة سيد المرسلين وأيضاً نتيجة لهذا الأمر لا يستجاب دعاء الأبرار والعلماء فضلاً عن عامة الناس لاختلال شروط قبول الدعاء ومنها وأهمها عدم القيام بهذين الواجبين.

(يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون: «قتل أمير المؤمنين». ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي) خاطب بني عبد المطلب ـ لأنهم أولياء الدم ـ ونهاهم عن ارتكاب الحرام بسببه قائلاً لهم: لا أريد أن أراكم تسفكون دماء المسلمين فتقتلون على الشبهة والظنة وكل من تتهمون بالمشاركة في دمي بحجة أنه قتل أمير المؤمنين فتسفكون الدماء بدون مبرر... بل لا يقتل إلا قاتلي وهو ابن ملجم المرادي فحسب وهذا مقتضى العدل وأقول: حسب علي عظمة أنه في هذا الموقف يحفظ دماء المسلمين ويصون وحدتهم بدمه ونفسه...

(انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا بالرجل فإني سمعت رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) يأمرهم بالبحث إن هو مات من هذه الضربة إن استند الموت إليها أن يضربوه ضربة تساوي ضربته تكون قاضية عليه دون زيادة ليكون ذلك مقتضى العدل...

ثم نهاهم أن يمثلوا به أي يشوهوا خلقته بقطع يده أو رجله أو ثلم عينيه وما أشبه ذلك وعلله بما ورد عن النبي من النهي: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

ترجمة الحسين بن علي شهيد كربلاء.

الإمام الحسين عليه السلام.

نسبه:

الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن بنت رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فاطمة الزهراء بنت خديجة الكبرى أم المؤمنين ثاني ريحانتي النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وأحد سبطيه العظيمين وأخو الحسن الزكي...

بهذا النسب المختصر تجتمع النبوة والإمامة، وتلتحم العظمة والمجد وتتعانق الأريحية مع البطولة. سلسة كل أفرادها عظماء من أتيت إليه وجدته سيد زمانه وعقل مجتمعه وحليم قومه وكريم أيامه، لم تند عنهم مكرمة ولم تفتهم منقبه... هم السباق دوماً إلى كرائم الخصال والوصول إلى منتهى الكمال امتازوا في الجاهلية كما امتازوا في الإسلام وتفوقوا في الحالتين فكانت لهم قبل الإسلام صفحة بيضاء ويد سخية وشمائل

كريمة وعفة نفس وشموخ وإباء سبقوا من سابقهم وتقدموا على من زاحمهم، لم يدركهم خصم في فضيلة ولم يلحقهم في منقبة فكانوا كما قال الجاحظ عنهم: ملح الأرض وزينة الدنيا وحلى العالم والسنام الأفخم والكاهل الأعظم ولباب كل جوهر كريم وسر كل عنصر شريف والطينة البيضاء والمغرس المبارك والنصاب الوثيق ومعدن الفهم وينبوع العلم...

حياة الحسين الشهيد:

لقد كان لبيت علي وفاطمة ميزة على أقرباء النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ، لقد أولاه النبي عناية زائدة لم يعهدها أحد من بيوت المسلمين لأن فيه أحب الناس إلى رسول الله وأعزهم عنده ففيه أعز بناته وأغلاهن بضعته فاطمة الزهراء فقد كان لهذا البيت نصيبه الكبير من بركة النبي وعطاياه...

في هذا البيت العظيم ولد الحسين بن علي في الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة وكان لولادته أثر عظيم في نفس النبي كما وعمت الفرحة جميع أفراد الأسرة بل فرح المسلمون قاطبة بهذا المولود الجديد.

ولد الحسين في بيت الطهر والقداسة وقد اختار النبي له الاسم وعق عنه بعد أن أذن في أذنه اليمنى وأقام باليسرى وقد ألقمه إبهامه فتغذى منها لفترة من الزمن وقد كان النبي يحبه حباً شديداً ويعتني به وبأخيه عناية كبيرة أشد من عناية الآباء بالأبناء.

أقوال النبي فيه:

بطبيعة الحال إن رسول الله ينطق عن الله ويتجنب الهوى فمن هنا يجب أن يؤخذ كلامه ويفسر بحقيقته كما هو وكما تحمل العبارة من معنى دون أن يكون للعاطفة أثر ولا للمجاملة دور وقد أثنى النبي على الحسنين ومدحهما وأوصى المسلمين بمتابعتهما وحبهما والمحافظة عليهما.

قال النبي ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

وقال ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: من أحب الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني...

وقال ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط.

وأما الآيات التي نزلت بحق أهل البيت وكان أحدهم الحسين الشهيد فكثيرة نذكر منها:

١ ـ قوله تعالى: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا...﴾**.

فقد أجمع المفسرون على نزولها في علي وفاطمة والحسن والحسين.

٢ ـ قوله تعالى: **﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين...﴾**.

قال صاحب تفسير الكشاف وهو من السنة: لا دليل أقوى من هذا على فضل أهل أصحاب الكساء وهم علي وفاطمة والحسنان لأنهما لما نزلت دعاهم ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فاحتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ومشت فاطمة خلفه وعلي خلفهما فعلم أنهم المراد من الآية وأن أولاد فاطمة وذريتهم يسمون أبناءه وينسبون إليه نسبة صحيحة نافعة في الدنيا والآخرة.

٣ ـ قوله تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾** فإنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال: علي وفاطمة وأبناهما.

الحسين والدين:

عاش الحسين الشهيد مع جده رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أجمل أيامه وأحسنها ودرج في مراقي الكمال من ذلك الحجر الطاهر الذي أفاض عليه حناناً وعطفاً ورقة وأغدق عليه روحاً وتسامياً، عاش ما يقرب الثمان سنوات وهي السن التي تؤهل الطفل للالتقاط والتصوير والمحاكاة فاتقن الشهيد دور جده بنجاح ساحق وفوز كاسح... منطقاً وعياً... تطلعاً... حركة... جاء محمدي الخصال والفعال والحركات والسكنات حتى غدا الأمين محمد في ثوب الحسين الشهيد... ولما انتهت حياة النبي الكريم أقام في ظلال الوالد العظيم مدة تجاوزت ثلاثة عقود ونصف من الزمن اشترك في خلال حكم الإمام في حروبه ضد الناكثين والقاسطين والمارقين وقد أخذ عن أبيه بلاغته وشجاعته وكرمه وعزته.. ارتسمت أمام الحسين كل المعالم الإسلامية وتراءت أمامه كل حركات الحق التي ترجمها أمير المؤمنين علي في أقواله وأفعاله

وتصرفاته. . . عاش الصراع المرير بين الحق والباطل بين الإسلام والجاهلية إسلام علي وجاهلية معاوية وكيف كانت عاقبة الحق صريعاً في سبيل الله على يد طاغوت من طواغيت الأرض واستمر يرقب الأحداث وما تحمله من مآسي وآلام ودموع ودماء خصوصاً حينما تنحى الحسن عن الخلافة وتربع على كرسيها معاوية عدو الإسلام والدين.

عاش الحسين مع الإسلام في مصائبه ومحنه ومع المسلمين الشرفاء في تشردهم وغربتهم ومطاردتهم، عاش فترة مملوءة بالمحن والابتلاءات ابتدأت بموت جده حيث رأى الخلافة ينحرف بها قوم من الناس عن صاحبها المنصوص عليه بها لتأخذ في نهاية المطاف شكلاً من الملك العضوض الذي لا يرحم الإسلام ولا يعطف على المسلمين بل يحارب الدين ويطارد المتدينين ولو بقوة السلاح والحديد؛ إنه الانحراف الذي كان يتصور أنه صغير هو اليوم يبعد بعداً مفرطاً بحيث انعدمت الرؤية بين طرفي الصواب والانحراف وانطمست معالم الرسالة بشكل مرعب ومخيف فكان الحسين هو الرائد والهادي والبطل الذي على يديه تنجلي الظلمات وتموت الانحرافات ويحي الحق والدين.

واقعة كربلاء:

أخبر النبي بواقعة كربلاء قبل حدوثها وأخبر بكل ما يجري على أهله وأسرته وخصوصاً ولده الحسين وقد روى المحدثون ذلك وتناولوه في مجاميعهم.

رأى الحسين معاوية الذي تولى الحكم سنة ٤١ هـ بعد شهادة الخليفة الشرعي الإمام علي.. راه كيف يتستر بالإسلام ظاهراً ويحاربه واقعاً. . . رأى إجرام معاوية وظلمه وجوره واضطهاده ورأى عملية تشويه الإسلام. بل مسخه وتحويله لصالحه وصالح الأمويين ولم يكتف بذلك حتى أخذ البيعة لابنه يزيد بالقهر والقوة ويزيد هذا يعرفه المسلمون بتهتكه وخلاعته واستهتاره بالدين ومحاربته للمتدينين. . . إنه كما يصفه ابن حنظلة غسيل الملائكة قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويضرب بالطنابير ويعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الحراب (اللصوص). . . رأى الحسين في يزيد أنه يهدد الإسلام في أصوله وإن بقي دون ردع ورد سوف تتزلزل أركان الدين ويقضى على تراث النبي وما جاء به من عند الله. . . رأى أنه لا بد من نهضة دامية تحرك ضمير المجتمع الإسلامي وتهزه من الأعماق لعل الأمة تعود إلى رشدها وتنتبه من غفوتها فتحفظ هذا الدين وتندفع في الدفع عنه. . . فلذا أرسل

إلى الكوفة سفيره مسلم بن عقيل وكانوا قد كاتبوه ودعوه إليهم ليبايعوه خليفة عليهم ولكنهم بعد أن بايعوا مسلماً بحيث أحصى ديوانه أكثر من ثمانية عشر ألفاً فكتب إلى الحسين بخبرهم فقدم من المدينة إلى مكة ومنها توجه إلى الكوفة ولكن الكوفيين كما يذكر المؤرخون أهل غدر وخيانة فلم يفوا ببيعتهم للحسين وانخذلوا عنه وأسلموه ولم ينهض معه أحد حتى وصل إلى كربلاء فوجه إليه يزيد بقيادة ابن زياد وعمر ابن سعد جيشاً كثفاً يبلغ السبعين ألفاً بينما هو وأهله وأصحابه الذين ناصروه يبلغون السبعين بل ربما يتجاوزون المائة بقليل وقد كانت معركة غير متكافئة عددياً سقط على أثرها مع أهله وأصحابه شهداء في سبيل الله وبذلك سطروا أعظم ملحمة في تاريخ الإنسانية التي تناضل من أجل الحق وترفض الظلم وتأبى الذل وتدافع عن الإيمان والعقيدة.

سقط في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين على ثرى كربلاء وتحولت شهادته إلى رمز لكل الأحرار والثوار وغدت من يومها كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء... شعار يرفعه المظلومون والمضطهدون في وجوه المستكبرين والظالمين...

كلمات معصومة:

قال الإمام الشهيد في بيانه الأول للثورة: وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين...

طرح الحسين شعار هيهات منا الذلة حيث قال يوم العاشر: ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون.

قال الحسين للوليد بن عتبة الذي أراد أخذ البيعة منه: إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا يختم ويزيد رجل شارب الخمور وقاتل النفس المحرمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله...

كلمة أخيرة:

الحسين قدوة وأسوة ونشيد يردده العارفون والمحبون... قيثارة يوقع على أوتارها الأحرار لحن الحرية والخلود والكرامة... يجب أن ندرسه ونستوعبه ونفهمه ونأخذ من ثورته رمزاً يفك كل مغاليق الحياة ومصائبها... فإلى الحسين وإلى ثورته يا أحرار العالم وثوار الدنيا...

٤٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

وَإِنَّ ٱلْبَغْيَ(١) وَالزُّورَ(٢) يُوتِغَانِ(٣) ٱلْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ(٤) خَلَلَهُ(٥) عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ(٦)، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ(٧) مَا قُضِيَ(٨) فَوَاتُهُ(٩)، وَقَدْ رَامَ(١٠) أَقْوَامٌ(١١) أَمْراً بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ فَتَأَلَّوْا(١٢) عَلَى ٱللهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَٱحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ(١٣) فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ(١٤) الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ(١٥).

وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ ٱلْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا ٱلْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

اللغة

١ ـ **البغي** : الظلم.
٢ ـ **الزور** : خلاف الحق ويطلق كثيراً على الشهادة الكاذبة.
٣ ـ **يوتغان** : يهلكان والوتغ بالتحريك الهلاك.
٤ ـ **يبديان** : يظهران.
٥ ـ **الخلل** : الوهن والفساد.
٦ ـ **يعيبه** : ينتقصه.
٧ ـ **مدرك** : من أدرك الشيء إذا لحقه.
٨ ـ **قضى** : فات، مضى وانقضى، أحكم.
٩ ـ **الفوات** : فات الأمر فواتاً ذهب وقت فعله، عدم إدراك الشيء.
١٠ ـ **رام** : طلب.
١١ ـ **أقوام** : جمع قوم الجماعة من الناس.

١٢ ـ تأولوا : من التأويل وهو حمل الكلام على خلاف الظاهر أو تآولوا: حلفوا.
١٣ ـ يغتبط : يُسرّ والغبطة حسن الحال والمسرة.
١٤ ـ أمكن الشيطان من قياده : سلّمه قياده ومكنه منه بدون منازعة.
١٥ ـ يجاذبه : ينازعه، ضد يدفعه عنه، يشده إليه.

الشرح

(وإن البغي والزور يوتغان المرء في دينه ودنياه ويبديان خلله عند من يعيبه) هذه الرسالة كتبها الإمام إلى معاوية وهو يعلم منهجه وتحركه وكيف تكون العاقبة لهذا التحرك المنحرف. . . إنه خطاب لمعاوية بما يحمل من صفات قبيحة يذكر له منها البغي ـ وهو الظلم ـ والكذب وإنهما صفتان قبيحتان تعيشان في نفسه ويعمل بهما وبيّن أنهما يهلكان الدين والدنيا ويظهران عيوبه وقبائحه عند من يطلب نقيصته وعيبه أما أنهما يهلكان الدين فلأنهما معصيتان نهى الله عباده عنهما وأما أنهما يكشفانه في الدنيا فلأنهما قبيحتان لدى العقلاء يذم مرتكبهما كل عاقل ويسقط فاعلهما عن الاعتبار لخساسته وضعته.

(وقد علمت أنك غير مدرك ما قضي فواته) كان معاوية قد اتخذ من دم عثمان ذريعة لإعلان التمرد والعصيان على الخلافة وهنا الإمام يخبره أن دم عثمان قد فات ولم يمكنك إدراكه وذهب بموته. . .

(وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه) ضرب لمعاوية مثلاً بقوم طلبوا أمراً بغير الحق وقد فسروا ذلك بطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة طلبوا الخلافة متسترين بقتل عثمان فأظهر الله كذبهم ونفاقهم من حيث قتل من قتل منهم وانهزم من انهزم وسقطت حجتهم وبطلت دعوتهم وعرف الناس كذبهم وخيانتهم. . .

ثم حذر معاوية من يوم القيامة منبهاً له إلى ما فيه من سرور إذا كان عاقبة عمله محموداً عند الله مقبولاً لديه فيغبطه عليه الناس ويتمنون مثله وأن يكونوا في درجته، وأما إذا أمكن الشيطان من قياده واستسلم له في شهواته وميوله فعندها يندم أشد الندم ويخسر أكبر الخسارة. . .

(وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله ولسنا إياك أجبنا ولكنا أجبنا القرآن

في حكمه والسلام) كان معاوية أشد الناس انتهازية لا يترك أمراً يخدم هدفه الذي يسعى إليه إلا ويستخدمه لصالحه، يحمل قميص عثمان وينادي بثأره ويطلب من وراء ذلك مبرراً شرعياً لقتال الخليفة وتمزيق وحدة المسلمين وبالتالي يريد حصته من الولاية والأمرة... ويرفع القرآن وهو لا يؤمن به ولا يعتقد بأحكامه وإنما يرفعه خدعة ومكراً وهكذا هنا يدعو الإمام إلى حكم القرآن في النزاع بينهما وينفي الإمام أن يكون هذا الرجل من أهل القرآن لأن أهله هم العاملون به الملتزمون بأحكامه المحللون حلاله والمحرمون حرامه ومعاوية ليس على شيء من ذلك ولا يعتقد بذلك...

ثم إنه عليه السلام يقول له: نحن أجبنا القرآن في حكمه... نحن ننفذ ما أمر القرآن به من قتالك وإحلال دمك لأنك باغ ظالم معتدٍ أثيم وأطعنا القرآن في ولاية الأمر ومنصب الخلافة الذي يجب أن يصان ويحفظ ولا يعتدى عليه بوجه من الوجوه...

٤٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية أيضاً

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ(١) عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ(٢) صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً(٣) عَلَيْهَا، وَلَهَجاً(٤) بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ(٥) مَا أَبْرَمَ(٦)! وَلَوِ اعْتَبَرْتَ(٧) بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ **المشغلة** : الأمور التي تشغل.
٢ ـ **يُصب** : يدرك.
٣ ـ **الحرص** : الجشع والبخل.
٤ ـ **اللهج** : الحرص الشديد، الولع بالشيء.
٥ ـ **نقض** : نقض البناء هدمه والحبل حله
٦ ـ **أبرم** : أحكم وأمضى.
٧ ـ **اعتبر** : اتعظ.

الشرح

(أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها ومن وراء ذلك فراق ما جمع ونقض ما أبرم ولو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي والسلام) هذا الكتاب بعث به الإمام إلى معاوية وقال بعضهم: إلى عمرو بن العاص وعلى كل حال فالعبرة بعموم الخطاب ومدلوله: وهو تذكير لمعاوية بأن الدنيا التي يطلبها ويقاتل من أجلها دنيا

تشغله عن غيرها أي عن الآخرة فمن اشتغل بالدنيا نسي الآخرة ونسي يوم الحساب وراح يبحث عن سبل تحصيل المال والجاه والسلطة وغيرها.

ثم بين له إن هذا الإنسان إذا أدرك منها شيئاً قليلاً انفتحت أمامه أبوابها وأخذ يطرق تلك الأبواب بشوق ورغبة وأضحى حريصاً عليها متمسكاً بها يخاف فواتها ويرغب في الزيادة منها ولا يكفي في نظره ما يدركه ويحصل عليه عما لم يدركه ويقع تحت يديه بل يبقى يرى البعيد عنه بحاجة إليه ولذا يطلبه ولا يشبع مما يدركه... دائما وباستمرار يمتد نظره إلى ما لم يقع تحت يديه ويظن أنه بحاجة إليه ولا يستغني عنه.

وهذا الإنسان الضعيف الذي يجمع ويطمع ولا يقنع فإن كل ما يجمعه ويكسبه سيتخلى عنه ويتركه للوارث والحوادث... سيتركه خلفه عندما يلف في كفنه ويغادر الدنيا إلى الآخرة... وستنهدم كل تطلعاته التي كان يعزم على تحقيقها وينوي تنفيذها... كل مشاريعه التي كان يرسمها قد أفسدها الموت وأبطلها، وهكذا يأتي الموت فيوزّع ما جمع ويشتت ما لملم وما إليه سعى...

ثم نبهه إلى أمر وهو أنه لو اعتبر بما مضى من عمره لحفظ ما بقي منه إشارة إلى أن الإنسان يجب أن يحفظ ما مضى من عمره ثم يأخذ منه العبرة ليكمل شوط حياته الباقي في خط الله وطاعته... فمن ضل في ماضي عمره فليأخذ العبرة منه ليصلح في المستقبل ما بقي منه...

٥٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أمرائه على الجيش

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ ٱلْمَسَالِحِ[١].

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى ٱلْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ[٢] عَلَى رَعِيَّتِهِ[٣] فَضْلٌ[٤] نَالَهُ[٥]، وَلاَ طَوْلٌ[٦] خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ ٱللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً[٧] مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ.

أَلاَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلاَّ أَحْتَجِزَ[٨] دُونَكُمْ سِرّاً إِلاَّ فِي حَرْبٍ، وَلاَ أَطْوِيَ[٩] دُونَكُمْ أَمْراً إِلاَّ فِي حُكْمٍ، وَلاَ أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلاَ أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ[١٠]، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً[١١]، فَإِذَا فَعَلْتُ ذلِكَ وَجَبَتْ[١٢] للهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلاَّ تَنْكُصُوا[١٣] عَنْ دَعْوَةٍ، وَلاَ تُفَرِّطُوا[١٤] فِي صَلاَحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا[١٥] ٱلْغَمَرَاتِ[١٦] إِلَى ٱلْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ[١٧] عَلَيَّ مِمَّنْ ٱعْوَجَّ[١٨] مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ ٱلْعُقُوبَةَ، وَلاَ يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً[١٩]، فَخُذُوا هذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ ٱللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. وَالسَّلاَمُ.

اللغة

١ ـ المسالح : جمع مسلحة، الثغور لأنها مواضع السلاح وأصل المسلحة قوم ذوو سلاح.

٢ ـ يغيّره : يحوله ويبدِّله.

٣ ـ الرعية : جمعها رعايا عامة الناس الذين عليهم راع ورعية الملك الخاضعون لأوامره.

٤ ـ الفضل : الزيادة، الإحسان.

٥ ـ نال الشيء : أدركه.

٦ ـ الطول : بفتح الطاء عظيم الفضل.

٧ ـ دنواً : قرباً.

٨ ـ أحتجز : أمنع وأستر.

٩ ـ أطوي : أخفي وطوى الثوب ضد نشره.

١٠ ـ مقطع الحق : ما يقطع به الحق.

١١ ـ سواء : متساوون.

١٢ ـ وجبت : ثبتت.

١٣ ـ نكص : تأخر ورجع ولا تنكصوا لا تتأخروا.

١٤ ـ لا تفرطوا : لا تقصروا، فرّط في الشيء ضيّعه.

١٥ ـ خاض الماء : دخله ومشى فيه.

١٦ ـ الغمرات : الشدائد وأصل الغمرة هي اللجة من البحر يغرق من وضع فيها.

١٧ ـ أهون : من الهوان وهو الذل.

١٨ ـ أعوج : ملتوي، غير مستقيم.

١٩ ـ الرخصة : التسهيل والتخفيف.

الشرح

(من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أصحاب المسالح.

أما بعد فإن حقاً على الوالي ألاّ يغيّره على رعيته فضل ناله ولا طول خص به وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنواً من عباده وعطفاً على إخوانه) هذه الرسالة بعث بها الإمام إلى أمراء جيشه الذين يرابطون على الثغور الإسلامية يحفظون المسلمين من الأعداء ويدفعون الشر والكيد عنهم، وهي رسالة فيها توجيه إلى ما يجب على الوالي

نحو رعيته عامة ونحو هؤلاء الحراس على الثغور بوجه خاص، ثم ما يجب عليهم من لزوم تنفيذ أوامره والقيام بمهامهم وما كلفوا به. . .

رسالة من الوالي إلى جنده على الحدود يشرح لهم ما هو الحق على الوالي نحو رعيته فيقول: إن المناصب والسلطة والحكم يجب أن لا تكون وسيلة للتعالي على الناس والتكبر عليهم ولا يجوز أن تحوّل ـ هذه الأمور ـ الإنسان عن مساره المستقيم المعتدل الطبيعي إلى غيره.

والوالي هو الخليفة والولاية والخلافة منزلة اجتماعية كبرى يجب أن لا تحوله ـ وهي من فضل الله ـ إلى إنسان متكبر متعالي على إخوانه بل الإمام يرى أن هذه الولاية من نعم الله التي تستحق الشكر وشكرها يكون بالاقتراب من عباد الله والعطف عليهم وأن يعيش معهم كأحدهم. . .

وبعبارة مختصرة يجب على الوالي أن لا يتخذ الولاية ذريعة إلى التحكم بهم والقهر لهم بل يجب أن تكون سبباً للقرب منهم والحنو عليهم. . .

(ألا وإن لكم عندي ألا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم ولا أؤخر لكم حقاً عن محله ولا أقف به دون مقطعه وأن تكونوا عندي في الحق سواء) شرط عليه السلام لهم على نفسه شروطاً ليؤدوا له في مقابلها حقوقاً. . . فإذا وفى لهم بهذه الشروط وجب له عليهم حقوقاً يجب أن يقوموا بها ويؤدوها له. . . ما شرطه لهم على نفسه:

١ ـ أخذ على نفسه أن لا يطوي دونهم سراً إلا في حرب. . . فهو قد أخذ على نفسه أن يبيّن للأمة كل الأمور ويوضحها لها سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسة أو غير ذلك كي تعرف كل شؤونها ومشاكلها فتسعى لتدارك الخطأ وتصحيح الفساد وتعالج القضايا بروح المسؤولية وتتحمل ما يجري على أرضها وفيما بينها.

نعم استثنى من ذلك أمور الحرب فلن يطلعهم عليها لئلا تفشل خططها أو يعرف بها العدو فيستعد لها أو غير ذلك مما يضر بمصلحة الجهاد والحرب وقد قيل: «الحرب خدعة» وإذا كانت كذلك فيجب أن تبقى أمورها سراً. . . متى تكون وعلى أي جبهة وما هي الخطط والوسائل؟! فإن كل ذلك يجب أن يكون سراً إلا عن أصحاب القرار من القادة. . .

٢ ـ لا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم: أعلن أنه معهم صريح لا يكتم عليهم أمراً

يريد فعله إلا أن يكون حكماً من أحكام الله فهذا مختص به فيجب أن يقضي بمقتضاه كما أراد الله وأمر دون مشورة أحد لأن حق الله يقضى به في حينه.

٣ ـ ولا أؤخر لكم حقاً عن محله: إذا خرج عطاؤهم يدفعه إليهم مباشرة دون تأخير أو تسويف وهذا حق إذ ربما كان أربابه بحاجة إليه فلا يجوز تأخيره عن وقته كما أخذ على نفسه أن يفصل في الأمور بشكل قاطع ولا يتركها معلقة أو مرددة لم يُعرف وجهها. . .

٤ ـ وأن تكونوا عندي في الحق سواء: أخذ على نفسه أن يكونوا جميعاً عنده متساوون فلا يفاوت في العطاء بأن يعطي هذا أكثر من ذاك بل كما يعطي هذا يعطي ذاك على حد سواء وهذا الأمر هو الذي أثار عصبية المنتفعين والمستكبرين ودفعهم إلى التمرد عليه وعصيانه بل إعلان الحربً عليه كما وقع لطّلحة والزبير. . .

(فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة وألا تنكصوا عن دعوة ولا تفرطوا في صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق) لما استوفى لهم ما شرطه لهم على نفسه قال: فإذا فعلت ذلك الذي شرطته وقمت به على وجهه ثبت لله عليكم نعمة كبرى هي نعمة الوالي العادل وهي نعمة تستحق الشكر فإن من أعظم النعم أن يسلك الخليفة مع رعيته بهذا الطريق ويعطيهم هذه الحقوق. . .

ثم ذكر ما له عليهم من الحقوق وهي:

١ ـ لي عليكم الطاعة: أن تطيعوا أمري في كل ما أريد فلا تعصوا ولا تتمردوا أو تردوا علي أمراً، أو ترفضوا طلباً.

٢ ـ لا تنكصوا عن دعوة: أي لا تحجموا وتتأخروا عن دعوة دعوتكم إليها فلو دعوتكم إلى الجهاد بادرتم بدون تأخير أو رفض.

٣ ـ لا تفرطوا في صلاح: أي لا تفرطوا فيما يكون فيه صلاح الأمة فإذا وجدتم العدو ضعيفاً وكان من الصالح غزوه فلا تتأخروا وهكذا. . .

٤ ـ أن تخوضوا الغمرات إلى الحق: أي تقطعوا الشدائد وتتحملوا المصاعب والمصائب في سبيل الوصول إلى الحق وقطع دابر الباطل. . .

(فإن أنتم لم تستقيموا لي على ذلك لم يكن أحد أهون عليّ ممن أعوجَّ منكم ثم أعظم له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصة) هذا وعيد منه لهم إذا لم يقوموا بما عليهم

من الحق وقد هددهم بأمرين:

١ ـ تحقير المنحرف وإهانته بما يوجب سقوط منزلته وازدرائه وهذا إسقاط معنوي وضربة قاسية تناله في شرفه وكرامته.

٢ ـ تشديد العقوبة عليه وتغليظها تأديباً له وردعاً لغيره ممن تسول له نفسه مثل ذلك ثم إنه لا رخصة في ذلك ولا تهاون... لا عفو عن هذا الذنب ولا يقبل الاعتذار منه...

(فخذوا هذا من أمرائكم واعطوهم من أنفسكم ما يصلح الله به أمركم والسلام)
خذوا مني وممن يأتي بعدي من الولاة هذه الأمور التي يجب أن يؤديها الوالي إليكم ويقوم بها نحوكم واعطوني وإياهم في مقابلها ما شرطت عليكم وما عليكم من الحقوق التي بها تصلح الأمة وتجتمع على الألفة والمحبة...

٥١ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى عماله على الخراج

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ ٱلْخَرَاجِ :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ[١] مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا[٢]. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْبَغْيِ[٣] وَٱلْعُدْوَانِ[٤] عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ ٱجْتِنَابِهِ مَا لاَ عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ. فَأَنْصِفُوا[٥] النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَٱصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ[٦]، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ[٧] الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاَءُ ٱلأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ[٨] ٱلأَئِمَّةِ. وَلاَ تُحْشِمُوا[٩] أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاَ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ[١٠]، وَلاَ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي ٱلْخَرَاجِ[١١] كِسْوَةَ[١٢] شِتَاءٍ وَلاَ صَيْفٍ، وَلاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا[١٣]، وَلاَ عَبْداً، وَلاَ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً[١٤] لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهِدٍ[١٥]، إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَى[١٦] بِهِ عَلَى أَهْلِ ٱلإِسْلاَمِ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذٰلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ ٱلإِسْلاَمِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً[١٧] عَلَيْهِ. وَلاَ تَدَّخِرُوا[١٨] أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلاَ ٱلْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلاَ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلاَ دِينَ ٱللهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا[١٩] فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَا ٱسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱصْطَنَعَ[٢٠] عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ.

اللغة

١ ـ **يحذر** : يخاف ويأخذ الحيطة.
٢ ـ **يحرزها** : يحفظها.
٣ ـ **البغي** : الظلم.
٤ ـ **العدوان** : الظلم الصراح.
٥ ـ **أنصفوا الناس** : اعدلوا بينهم.
٦ ـ **الحوائج** : ما يفتقر إليه ويحتاجه المرء.
٧ ـ **الخزان** : جمع خازن الذي يتولى حفظ المال.
٨ ـ **السفراء** : الرسل.
٩ ـ **لا تحشموا** : لا تغضبوا.
١٠ ـ **الطلبة** : بكسر الطاء المطلوب.
١١ ـ **الخراج** : الضرائب، ما يدفع عن الأرض من الضريبة.
١٢ ـ **الكسوة** : اللباس.
١٣ ـ **يعتملون عليها** : يحتاجونها لعملهم.
١٤ ـ **السوط** : ما يضرب به من جلد مضفور ونحوه.
١٥ ـ **المعاهد** : الذمي.
١٦ ـ **يعدى به** : يظلم به، يتجاوز به.
١٧ ـ **الشوكة** : القوة.
١٨ ـ **أدخر الشيء** : خبأه لوقت الحاجة.
١٩ ـ **أبلوا** : أدّوا يقال: أبليته عذراً أي أديته إليه.
٢٠ ـ **اصطنع شيئاً** : أمر أن يصنع له.

الشرح

(من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج:

أما بعد فإن من لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدم لنفسه ما يحرزها) هذا الكتاب كتبه الإمام إلى عماله على الخراج وهم جباة الضرائب وفيه موعظة لهم وترغيب في عمل الخير ولطف المعاملة وفيه بعض الأوامر والنواهي.

ابتدأ عليه السلام بترغيبهم في حفظ النفس وصيانتها من العذاب وأن من لم يحذر

ويخاف ويعد العدة لما هو صائر إليه من الحساب والثواب والعقاب لم يقدم لنفسه ما يصونها ويحفظها فيجب على الإنسان أن يعرف العاقبة ويحذر من سوءها ويحصّن نفسه ويحفظها من العذاب. . .

(واعلموا أن ما كلفتم به يسير وأن ثوابه كثير) إنكم تتعبون قليلاً في جباية المال ولكن الأجر كثير من حيث إنه يسد عوز الناس ويرفع عنهم الحاجة ويقوّي الدولة وينعش اقتصادها وينشط حركتها التجارية. . .

(ولو لم يكن فيما نهى الله عنه من البغي والعدوان عقاب يخاف لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه) يعني لو لم يكن في البغي والظلم عقاب أوجبه الله عليه ويخاف الإنسان منه لكان فيما يتركه من الثواب والأجر عليه ما يدفعه للقيام به وبعبارة أخرى: إذا لم يكن ما يدعوه للخوف من العقاب فيجب أن يدعوه الثواب الذي يفوته.

(فانصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة) أوصاهم بعدة وصايا:

١ ـ أنصفوا الناس من أنفسكم: فما للناس عليكم من الحقوق أدوها إليهم ولا تظلموا أحداً منهم فأنتم وهم في الحق سواء.

٢ ـ فاصبروا لحوائجهم: لا تضجروا وتضيقوا بهم وبمطالبهم وحاجاتهم بل احملوا أنفسكم على الصبر والزموها به وعلل ذلك بثلاثة أمور:

أ ـ إنكم خزان الرعية: أنتم أمناء في حفظ الخزينة العامة وهي عائدة للأمة وللشعب.

ب ـ وأنتم وكلاء الأمة: فالأمة انتدبتكم ـ لثقتها فيكم ـ على هذا المرفق المهم وجعلتكم وكلاء عنها تتولون شؤون ما وكلتم عليه فيجب أن ترعوا العدالة وتحفظوا المصالح العامة. . .

ج ـ وسفراء الأئمة: فالقادة والحكام وأولياء الأمور هم الذين جعلوكم رسلاً من قبلهم تتولون الأمور نيابة عنهم وتصرّفون القضايا بالوكالة عنهم فكونوا وجوهاً طيبة تتلقى الناس بالبشر والبسمة وحسن الأخلاق. . .

٤ ـ **(ولا تحشموا أحداً عن حاجته)** لا تغضبوا طالب حاجة فيرتد عنها ويمتنع عن تناولها.

٥ ـ **(ولا تحبسوه عن طلبته)** لا تمنعوا أحداً عن حاجته وما يطلب منكم بأن تحتجبوا عنه وتمتنعوا عن مقابلته.

٦ ـ **(ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً)** إذا وجب الخراج على بعضهم وكان به فقر وحاجة فلا تباع ثيابه المحتاج إليها في الشتاء أو الصيف ولا الدابة ـ حمار أو فرس أو بقرة وغير ذلك ـ التي يحتاج إليها في عمله كزارع وفلاح ولا يباع عبده المحتاج إلى خدمته بل كما قال تعالى: **﴿فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة...﴾**.

٧ ـ **(ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم)** إذا أردت أن تحصل على أموال الخراج وجبايتها فلا تضرب أبشار الناس ووجوههم لتحصيلها وبعبارة أخرى لا تستعمل العنف والقسوة في تحصيل مال الخراج بل اللين والرفق والكلمة الطيبة وهذا أسلوب من أساليب التربية الايجابية.

٨ ـ **(ولا تمسّن مال أحد من الناس مصلّ ولا معاهد إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام فإنه لا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام فيكون شوكة عليه)** نهاهم أن تمتد أيديهم إلى أموال المسلمين ـ وعبر عن المسلم بالمصلّ ـ كما نهاهم أن تمتد أيديهم بأخذ مال أحد من أهل الذمة وعبر عنه ـ بالمعاهد ـ وذلك لحرمة أخذ مال الصنفين بدون طيبة نفس فالمسلم لإسلامه والمعاهد لما بينه وبين المسلمين من الالتزام بحمايته مقابل دفع الجزية...

نعم استثنى من ذلك ما لو كان المعاهد قد أعدّ فرساً للقتال أو سيفاً أو ما أشبه ذلك من آلات الحرب وأدواتها مما يمكن أن يستخدم ضد المسلمين فقد أباح له أخذه والاستيلاء عليه لئلا يتحول فيما بعد إلى قوة للكفار يحاربون به المسلمين فيكون سلاحاً لم تسمح الدولة باقتنائه وهذا موجود في قوانين الدول وأنظمتها...

٩ ـ **(ولا تدخروا أنفسكم نصيحة)** فكل جابي ينصح الآخر ويعلّمه الطرق الصحيحة والشرعية التي تنسجم مع روح الإسلام وتعاليمه.

(ولا الجند حسن سيرة) كونوا مع الجنود بأفضل سيرة وأحسن سلوك وأطيب أخلاق لأنهم حماة الأرض والدين وقامعي الكفرة والمفسدين...

(ولا الرعية معونة ولا دين الله قوة) قدّموا للناس كل معونة تستطيعون بها تقويتهم حتى تصلح أحوالهم وتزدهر بلادهم، وكذلك بلغّوا الإسلام وانشروا أحكامه وادعوا إليه

بسيرتكم الطيبة وادعموه بكل وسيلة لتجعلوه قوياً عزيزاً.

(وابلوا في سبيل الله ما استوجب عليكم فإن الله سبحانه قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره بجهدنا وأن ننصره بما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) جدوا واجتهدوا وقوموا بما أوجبه الله عليكم لما قدّمه لكم ولنا من النعم والخيرات فإنه أخذ علينا أن نشكره بما نقدر عليه ونطيق وننصره بنشر دينه وتقويته بما نستطيع وما نملك من قوة وقدرة ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم. . .

٥٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ[١] الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ ٱلْعَنْزِ[٢]، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ[٣]، وَصَلُّوا بِهِم ٱلْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ[٤] ٱلْحَاجُّ إِلَى مِنًى[٥]، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى[٦] الشَّفَقُ[٧] إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْغَدَاةَ[٨] وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ، وَلاَ تَكُونُوا فَتَّانِينَ[٩].

اللغة

١ ـ تفيء : ترجع.
٢ ـ مربض العنز : مرقدها.
٣ ـ الفرسخ : وحدة مسافة تقدر بخمسة ونصف من الكيلومترات.
٤ ـ يدفع الحاج : يفيض من عرفات أي يخرج منها.
٥ ـ منى : بكسر الميم منسك من مناسك الحج معروف.
٦ ـ توارى : اختفى واستتر.
٧ ـ الشفق : حمرة الأفق بعد غروب الشمس.
٨ ـ الغداة : جمعها غدوات، البكور، أول النهار.
٩ ـ فتانين : مثيرين للفتنة.

الشرح

(أما بعد فصلوا بالناس الظهر حتى تفيء الشمس من مربض العنز) هذه الرسالة كتبها الإمام إلى أمراء البلاد ينبههم فيها إلى أوقات الصلاة وهذا هو مقام الإمامة

حفظ الدين ورعاية شؤون المسلمين.

أمرهم أن يصلوا بالناس جماعة وحدّد لهم وقت فضيلة الظهر فجعل وقتها من أول ميل الشمس وابتداؤها بالغروب إلى أن يصبح ظلها بمقدار مرقد العنز ويقدّر بمتر ونصف المتر تقريباً وقد ابتدأ بذكر صلاة الظهر بقوله تعالى: **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾**[١].

وقد ذكر فقهاؤنا رضوان الله عليهم أن وقت صلاة الظهر يبتدأ من الزوال ويعرف بزيادة الظل بعد توقفه أو تجدده بعد انعدامه ويمتد وقتها إلى المغرب يستثنى منه مقدار العصر بمقدار أدائها وقد استفيد هذا المعنى من الروايات الواردة في السنة وعموم الآية المتقدمة يشهد بذلك قوله تعالى: **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل...﴾** فمن الزوال إلى الليل وقتها.

(وصلوا بهم العصر والشمس بيضاء حية في عضو من النهار حين يسار فيها فرسخان) وهذا تحديد لوقت صلاة العصر ووقتها بعد صلاة الظهر وقد حدّد وقت فضيلتها بوقت لم ينكسر فيها ضوؤها ـ لقربها من المغيب ـ بل لا تزال ناشرة نورها في الكون وحدّده بشكل أوضح حيث يبقى جزء من النهار وحدّد ذلك الجزء بأن يبقى مسيرة فرسخين من السير المعتاد والفرسخ يقدر بـ٥٥٠٠ خمسة آلاف وخمسماية متر.

(وصلوا بهم المغرب حين يفطر الصائم ويدفع الحاج إلى منى) وقتّ للمغرب وقتين يصلى عند تحقق أحدهما:

الأول: حين يفطر الصائم ومعلوم أن الإفطار يكون بسقوط قرص الشمس واختفائه وعندها يبتدأ وقت صلاة المغرب.

الثاني: يكون وقت فضيلة المغرب بأول وقت يفيض الناس فيه من عرفات إلى منى ويكون ذلك بعد دخول المغرب من يوم التاسع من ذي الحجة وكأن هذا الوقت يعرفه الحجاج ويعرفه تبعاً لهم من هو بعيد فيعرف وقتها بإفاضة الحجيج في أول الوقت بعد الغروب.

(وصلوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثلث الليل) حدد لصلاة العشاء وقت فضيلة ويبتدأ من اختفاء الحمرة المغربية إلى ثلث الليل والليل يبتدأ من غروب قرص

---

(١) سورة الإسراء، آية/ ٨٧.

الشمس واختفائه إلى ظهور الشمس وطلوعها فما بينهما ليل ويقدر ثلثه الأول فيكون فيه استحباب صلاة العشاء.

(وصلوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه) هذا تحديد لوقت صلاة الصبح ووقتها عند طلوع الفجر الثاني وهو بياض معترض في الأفق الشرقي وقد أوضحه الإمام بأن يميز الأشخاص عند رؤيتهم. . .

(وصلّوا بهم صلاة أضعفهم ولا تكونوا فتانين) ينظر إلى أضعف المأمومين فيصلي الإمام بصلاته فلا يطيل بصلاته فيشق الأمر على الكبير أو المريض.

ونهاهم أن يكونوا فتانين لأنهم إذا أطالوا الصلاة امتنع الكبير والمريض والعاجز عن الصلاة وهذا يشكّل بداية إثارة شغب على الحكم الحاضر واختلاف عليه وطعن فيه وبالتالي على الحاكم والوالي وفي ذلك أقبح النتائج وأسوأ الآثار. . .

الفهرس

٢٢١ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» ٥

٢٢٢ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ٢٤

٢٢٣ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» ٣٤

٢٢٤ ـ ومن كلام له عليه السلام يتبرأ من الظلم ٤٦

ترجمة عقيل بن أبي طالب ٥٤

٢٢٥ ـ ومن دعاء له عليه السلام يلتجىء إلى الله أن يغنيه ٥٦

٢٢٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام في التنفير من الدنيا ٥٨

٢٢٧ ـ ومن دعاء له عليه السلام يلجأ فيه إلى الله ليهديه إلى الرشاد ٦٥

٢٢٨ ـ ومن كلام له عليه السلام يريد به بعض أصحابه ٦٩

٢٢٩ ـ ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة ٧١

٢٣٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام في فضل العمل والجد ٧٣

٢٣١ ـ ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذي قار وهو متوجه إلى البصرة ذكرها الواقدي في كتاب الجمل ٨٣

٢٣٢ ـ ومن كلام له عليه السلام كلّم به عبد الله بن زمعة وهو من شيعته وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً فقال عليه السلام ٨٥

ترجمة عبد الله بن زمعة ٨٦

٢٣٣ ـ ومن كلام له عليه السلام بعد أن أقدم أحدهم على الكلام فحصر وهو في فضل أهل البيت ووصف فساد الزمان ٨٧

ترجمة جعدة بن هبيرة المخزومي ٩٠

٢٣٤ ـ ومن كلام له عليه السلام روى ذعلب اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنا عند أمير المؤمنين وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال: ٩١
٢٣٥ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه ٩٥
٢٣٦ ـ ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به ٩٨
٢٣٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام في المسارعة إلى العمل ٩٩
٢٣٨ ـ ومن كلام له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام ١٠٢
ترجمة أبي موسى الأشعري ١٠٦
٢٣٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله ١٠٧
٢٤٠ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن عباس وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ليقل هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل فقال عليه السلام ١١١
٢٤١ ـ ومن كلام له عليه السلام يحث أصحابه على الجهاد ١١٣
١ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة ١١٩
٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة ١٢٤
٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه ١٢٥
ترجمة شريح بن الحارث الكندي (القاضي) ١٣١
٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه ١٣٣
٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أشعث بن قيس عمل أذربيجان ١٣٥
٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٣٧
٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً ١٤٠
٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية ١٤٣
٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٤٥
ترجمة جعفر بن أبي طالب ١٥١

الهجرة إلى الحبشة ١٥١
جعفر في مواجهة وفد قريش ١٥٢
الشهادة في موقعة مؤته ١٥٣
ترجمة حمزة بن عبد المطلب ١٥٣
إسلام حمزة بن عبد المطلب ١٥٣
شهادته ١٥٤
ترجمة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ١٥٥
شهادته ١٥٥
١٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً ١٥٦
١١ ـ ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو ١٦٢
١٢ ـ ومن وصية له عليه السلام وصى بها معقل بن قيس الرياحي
حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له ١٦٥
١٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه ١٦٨
١٤ ـ ومن وصية له عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدو بصفين ١٧٠
١٥ ـ ومن دعاء له عليه السلام كان عليه السلام يقول إذا لقي
العدو محارباً ١٧٣
١٦ ـ وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب ١٧٦
١٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه ١٧٩
١٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس
وهو عامله على البصرة ١٨٥
ترجمة عبد الله بن عباس ١٨٨
١٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ١٨٩
٢٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله
عبد الله بن عباس على البصرة وعبد الله عامل أمير المؤمنين
يومئذٍ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها ١٩١
٢١ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضاً ١٩٣
٢٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رحمه الله
وكان عبد الله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله
ـ صلى الله عليه وآله ـ كانتفاعي بهذا الكلام ١٩٥
٢٣ ـ ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما

ضربه ابن ملجم لعنه الله ١٩٧
٢٤ ـ ومن وصية له عليه السلام بما يُعمل في أمواله كتبها بعد منصرفه من صفين ٢٠٠
٢٥ ـ ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ٢٠٤
٢٦ ـ ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة ٢١٢
٢٧ ـ ومن عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلّده مصر ٢١٧
٢٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً قال الشريف وهو من محاسن كتبه ٢٢٦
٢٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة ٢٤١
٣٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٢٤٤
٣١ ـ ومن وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين ٢٤٧
الدعاء ٣٢٦
الدعاء والقرآن ٣٢٦
الدعاء والسنة ٣٢٦
تساؤل ٣٢٧
من لا تستجاب دعوته ٣٢٩
الدعاء في أيام الرخاء ٣٣٠
لمن ندعوا ٣٣٠
مدرسة أهل البيت في الدعاء ٣٣١
التوبة ٣٣٢
بين التوبة والاعتراف ٣٣٣
التوبة في القرآن ٣٣٤
التوبة في السنة ٣٣٤
التوبة الصحيحة ٣٣٥
كل ذنب قابل للتوبة ٣٣٦
الصداقة ٣٧٨
الاخوة ٣٨١
ترجمة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ٤٠٩

٣٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٤١٨
٣٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة ٤٢١
ترجمة قثم بن عباس ٤٢٤
٣٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه
توجده من عزله بالأشتر عن مصر ثم توفي الأشتر في توجهه إلى
هناك قبل وصوله إليها ٤٢٥
٣٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد
مقتل محمد بن أبي بكر ٤٢٨
٣٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في
ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل ٤٣١
٣٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٤٣٦
٣٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولى عليهم الأشتر ٤٣٨
٣٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص ٤٤٢
٤٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ٤٤٥
٤١ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ٤٤٧
٤٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي وكان
عامله على البحرين فعزله واستعمل نعمان بن عجلان الزرقي مكانه . . . ٤٥٤
ترجمة عمرو بن أبي سلمة ٤٥٥
ترجمة نعمان بن عجلان الزرقي ٤٥٥
٤٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو
عامله على أردشيرة خرة ٤٥٧
٤٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن
معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه ٤٦٠
ترجمة زياد بن أبيه ٤٦٢
الاستلحاق السياسي ٤٦٣
٤٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله على
البصرة وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ٤٦٥
٤٦ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ٤٧٣
٤٧ ـ ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه
ابن ملجم لعنه الله ٤٩١

ترجمة الحسين بن علي شهيد كربلاء ٤٩١
حياة الحسين الشهيد ٤٩٢
أقوال النبي فيه ٤٩٢
الحسين والدين ٤٩٣
واقعة كربلاء ٤٩٤
كلمات معصومة ٤٩٥
٤٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٤٩٦
٤٩ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً ٤٩٩
٥٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيش ٥٠١
٥١ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج ٥٠٦
٥٢ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة ٥١١